شوقى ضيف



سيرة وتحية

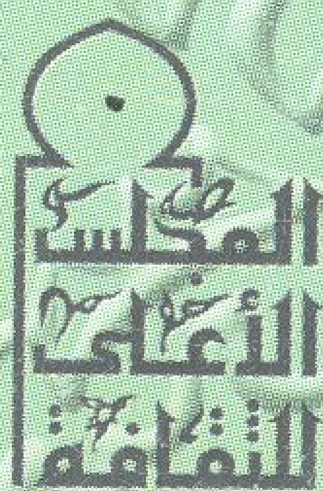
دراسات فى الأدب والنقد واللغة والتراث

إعداد وتقديم:

طه وادى

بقلم :

مجموعة من أساتذة الجامعات العربية



المجلس الأعلى للثقافة

شوقى ضيف

سِيرة وتحيَّة

دراسات فى الأدب والنقد واللغة والتراث

إعداد وتقديم
د.طه وادى

بقلم

مجموعة من أساتذة الجامعات العربية



٢٠٠٣

المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : شوقى ضيف

اسم المؤلف : طــه وادى

الطبعة الأولى - القاهرة ٢٠٠٣م .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084

شوقي ضيف
سيرة وتحية

ما قبلَ البَعْـــد ... !!

تلك هى الطبعة الثالثة من كتاب " شوقى ضيف – سيرة وتحية " . أقدّمها بعد أن حصل أستاذنا العظيم ... وأستاذ الجيل فى الدراسات الأدبية واللغوية والإسلامية – على " جائزة مبارك فى الآداب " فى يونيو ٢٠٠٣ ، وفى العام السابق نال – عن جدارة واستحقاق – " جائزة جامعة القاهرة " فى البحث العلمى سنة ٢٠٠٢ ؛ بهذا يكون ذلك الأستاذ الجليل والإنسان النبيل قد حصل على أهم الجوائز العلمية الكبرى فى مصر والعالم العربى . وإنْ كان قد حاز – قبل ذلك – على ما هو أعزّ وأبقى ، وهو حبّ وتقدير الوسط الثقافى والمحيط الأكاديمى فى مصر والعالم العربى ... وفى كل مكان يُدرّس فيه التراث العربى : قديمه وحديثه وتاريخ أدبه وعيون تراثه ، لأنه يُعدّ – بحقٍ – أمين التراث العربى .

وقد أضفتُ بعض الدراسات والمقالات إلى هذه الطبعة (الجديدة) ، حتى تعكس بعض معالم السيرة وبعض جوانب العظمة ... فى نتاج ذلك العالم الفذّ ، الذى يُعد نموذجًا للأستاذ الفاضل والإنسان الكامل ، ورمزًا دالاً على ما تمثله الجامعة من عطاء ونقاء ووفاء .

ولعل فى هذه السيرة المشرقة ما يشكّل القدوة والنموذج لجيل جديد من شباب الجامعات المصرية والعربية ، ولمثل ذلك فليتنافس المتنافسون .

فتشبهوا بالرجالِ إنْ لم تكونُوا   مثلَهم إن التشبهَ بالرجالِ فَلاحُ

أسأل الله العلى القدير أن يمدَّ فى عمره ، وأن ينفعنا بعمله ، ويهب لنا مثل صفاته وأخلاقه ، إنه على ما يشاء قدير .

سبتمبر ٢٠٠٣

رجب ١٤٢٤   د. طه وادى

خُطبةُ الطبعة الثانية

تلك هى الطبعة الثانية من كتاب الوثائقى " شوقى ضيف – سيرة وتحية " ، الذى صدرتْ طبعته الأولى – عن دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٩٢ . وبعد أن نفذتْ فكرتُ فى إعادة طبعه بمنظورٍ جديد ، ويتمثَّلُ فى أن تكون الأبحاثُ المشكِّلةُ له كلها فى إطار دراسة جهود ذلك العالم الجليل ، حيث قُدمتْ لى دراسات أخرى عنه ، لم يُتح لها النشرُ فى الطبعة الأولى ، لهذا اضطررتُ – آسفًا – إلى تنحية الأبحاث المهداة إليه ، التى كانت تشكل " القسم الثانى " من الكتاب فى طبعته الأولى .

إن أستاذنا الجليل الدكتور شوقى عالم أجمعت الأمةُ على حبّه وتقديره . ويؤكد ذلك ما حدث من تكريم له – فى يوم الأربعاء ٢٠ أبريل ١٩٩٤ ، حين أقامتْ كليةُ الآداب – جامعة القاهرة حفلاً لتكريمه فى ساحه مدرجها العريق (٧٨) ، الذى ضاق – رغم سعته – بالحضور من كل فجّ بعيد ، فقد حضره السيد الأستاذ الدكتور مفيد شهاب رئيس الجامعة ... وقدم له درع الجامعة هو والأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع نائب رئيس الجامعة ، كما حضره السيد الأستاذ الدكتور محمد حمدى إبراهيم عميد كلية الآداب ووكلاؤها : أ . د . محمود فهمى حجازى ، أ . د . سيد الحسينى ، أ . د . عبد الستار الحلوجى ، وكوكبة من أساتذة الكلية وطلابها من كل الأقسام والتخصصات ، كما حضره جمعٌ غفير من أساتذة كلية دار العلوم ... ومجمع اللغة العربية بالقاهرة ... وبعض أساتذة الجامعات العربية والإقليمية ... وممثلون لدار المعارف ورجال الإعلام ... وأخصُّ بالذكر من هؤلاء وأولئك : د . كمال بشر ، د . أحمد هيكل ، د . عبد الصبور شاهين ، د . محمد حسن عبد العزيز ، د . محمد نايل ، د . محمد حسن يوسف ، د . محمود حافظ ، د . ماهر حسن فهمى ، د . محمد أبو الفتوح شريف ، د . ماهر شفيق فريد ، أ . أحمد سويلم ... وغيرهم كثيرون .

وقد أُلقيتْ فى الحفل كلماتٌ كثيرة (*) ... كما قدمت أشعار متنوعة ألقاها الشعراء : عبد المنعم عواد يوسف ، صلاح عيد ، محمد الحضيْرى (ليبيا) ، ممتاز سلطان ، سعد ظلام ، عبد الفتاح الشطي ... وغيرهم .

ومما قيل فى تكريمه ... ما ذكره أ . د . مفيد شهاب - رئيس جامعة القاهرة :

" لقد بدأ شوقى ضيف سيرته العلمية فى عصر عمالقة الثقافة المصرية ، من أمثال طه حسين ، والعقاد ، وأحمد أمين ، ومحمد حسين هيكل - وتمكن بمثابرته المعهودة ، ومنهجه العلمي الرصين أن يحفر لنفسه اسمًا بارزًا فى قائمة هؤلاء العظام . وما لبث أن تجاوز أثره العلمى نطاق الجامعة ، إلى المثقف العادى ، فزاد عدد قرائه ، وتعددت طبعات مؤلفاته ، وأصبح اسمه مقترنًا بمعانى الجدية ، والأصالة ، والتوثيق .

وإنه مما يزيد من سعادتى أن يبادر تلاميذ هذا الأستاذ الرائد إلى الاحتفاء به فى حياته - التى ندعو الله تعالى أن تكون مديدة - حتى يشاهد بنفسه ثمرة من ثمار غرسه ، ويطمئنَّ قلبه إلى أن وفاء أبناء مصر لمن علمهم حرفًا ... خلق ثابت ، وقيمة دائمة .

فى شخصية شوقى ضيف جوانب كثيرة ومتنوعة . ومن الواضح أنه لا يمكن الإحاطة بها فى كلمة واحدة محدودة . ولكنى سوف أقتصر هنا على الإشارة فقط إلى جانب واحد منها ، وهو جانب الأستاذ الجامعي ... الذى قدم له شوقى ضيف نموذجاً على أرفع مستوى من الكفاءة والخبرة .

فبعد دراسة جامعية متفوقة عُيِّن شوقى ضيف معيداً بكلية الآداب سنة ١٩٣٦ ، ولازم التدريس بها على مدى نحو ستين عاماً حتى اليوم ... وقد ظل فيها وفيًا لأصول المهنة ، ملتزمًا بآدابها السامية ، محافظًا على ميثاق شرفها . وقسم جهده بين البحث

(*) أصدرت كتيبا بما قيل فى الحفل من كلمات وأشعار بعنوان " فى رحاب شوقى ضيف " سنة ١٩٩٦ . ط . دار النشر للجامعات - القاهرة .

العلمي ، فأصدر ما يقرب من خمسين كتابًا قيمًا . وبين التعليم الجامعي ، سواء في مرحلة الليسانس ، أو الدراسات العليا ، فتخرَّج على يديه آلاف الطلاب ، ونبغ بفضل إشرافه ورعايته عدد من كبار الباحثين في الوطن العربي ... وهكذا قدم شوقي ضيف النموذج الأمثل للأستاذ الجامعي : في علمه وسلوكه ، في عطائه وإنسانيته .

إن من حق قسم اللغة العربية أن يفخر بابنه البار ، ومن حق كلية الآداب أن تنهض لتكريمه والاحتفاء به ، ومن حق جامعة القاهرة كلها أن تعتز بشوقي ضيف : رائدًا من روادها الكبار ، وواحدًا من أبرز من أسهموا في إرساء تقاليدها العريقة ، والتقدم بمسيرتها العلمية الموفقة .

وفي الختام اسمحوا لي أن أتقدم باسمي شخصيًا ، وبالنيابة عن جامعة القاهرة بأصدق آيات التحية والتقدير للأستاذ الكبير الدكتور شوقي ضيف ... أطال الله في عمره ، ونفع مصرنا الحبيبة بعطائه وعلمه . كما أرجو أن يتقبل منا درع الجامعة ... تقديرًا لعطائه الخصب المتنوع " .

* * *

أما أ . د . حسنين ربيع – نائب رئيس الجامعة ، فقد ذكر عنه :

" كأنما ضاق الأدب العربي بمختلف عصوره وبيئاته وفنونه عن أن يستوعب عبقرية شوقي ضيف ، أو أن يستنفد طاقاته الإبداعية ، فمضى يؤرخ للبلاغة العربية ، والنقد الأدبي ، والمدارس النحوية ، بل مضى إلى ما هو أكثر من ذلك حين كتب عن (تجديد النحو) وعن (التيسيرات اللغوية) . وحين دخل مجال التحقيق أرسى فيه تقاليد راسخة ، وأخرج فيه أعمالاً رائدة مثل كتاب (الرد على النحاة) لابن مضاء القرطبي .

ولم تقف جهود شوقي ضيف عند علوم اللغة والنحو والأدب ، ولم يقتصر عطاؤه على هذه المجالات ، وإنما تجاوزها إلى آفاق أرحب ، فكتب عن (سورة الرحمن

وسور قصار) ، وحقق (الدرر فى اختصار المغازى والسير) لابن عبد البر ، وشارك في تحقيق (الُمغْرِب فى حُلَى المغرب) لابن سعيد الأندلسى ، و (جريدة القصر وجريدة العصر) للعماد الأصفهاني .

ويكفى أن تُحْصى مؤلفات شوقى ضيف ، وأن تنظر فى المجالات المتنوعة التى طلتها ، وفى الطبعات الكثيرة التى صدرت منها ، لتدرك أنك أمام محيط يصعب اجتيازه وإدراك أعماقه ، وبحر من العلم والفضل والأدب لا تدرك شطآنه ، ولا تحصى جواهره ولآلئه ، ونهر يتدفق بالخير والخصب والنماء فى عذوبة ويسر ، بحيث لا تستغنى عن مائه ، ولا تشبعَ من خيراته ... " .

* * *

وقال عنه ا . د . حمدى إبراهيم – عميد الكلية :

" لقد تخطى أستاذنا أ . د . شوقى ضيف حدود قسمه وحدود كليته وأصبح ملكًا لجامعته بل لجامعات مصر كلها ، أصبح ملكًا فى الحقيقة لدولتنا بأسرها ولأمتنا كلها .

ومن هنا أصبح تكريمه واجبا ولزامًا على الجميع ، فالحقيقة أنه ما من شخص هنا إلا ونال منه حظا من الفضل ، سواء تتلمذ على يديه ، أو عرفه عن قرب ، أو زامله ، أو قرأ له ، ونهل من فضل علمه العزيز .

كل تكريم إذن هو حق له وواجب علينا نحوه ، وأعتقد أن الأمة التى تكرم أصحاب الفضل فيها والعظماء من أبنائها إنما تبرهن بذلك على أنها أمة صحيحة البناء متجددة العطاء .

وفى ختام كلمتى هذه ، أرجو – يا أستاذى الجليل – أن تقبل باسم كلية الآداب – جامعة القاهرة ، خالص الحب والتقدير ، وأصدق مشاعر الامتنان لشخصك العظيم ، وأخلص الدعوات لك بصحة موفورة وعمر مديد . ولتعلم – دوما يا أستاذى الجليل –

أن الذى مازال كامنا بالنفس أوفر ، وأن ما عجز اللسان عن الافصاح به أكثر ، وأن ما جاش بالقلب واستعصى عن البيان ... لم تنطق به بعد الشفتان " .

* * *

وقد قال عنه أيضاً أ . د . أحمد هيكل :

" لا يوجد فرع من فروع اللغة العربية والدراسات الإسلامية إلا وقد اقتحمه شوقى ضيف اقتحام العالم المتخصص فى هذا الفرع أو ذاك . ليس شوقى ضيف عالما موسوعيا بمعنى الأخذ من كل فن بطرف ، ولكنه عالم موسوعى متخصص فى كل الفروع ، وكاتب على أعلى مستوى فى كل هذه الفروع . وهذه الظاهرة لا علم لى بمثلها عند غيره ؛ هو مع النحويين نحوى متفرد ومجدد يكتب نظريات فى التجديد ، ويكتب فى التفسير ، ويحقق ابن مضاء القرطبى ، وهو فى تاريخ الأدب يكتب تاريخًا وشخصيات ويكتب فنونًا ، ويكتب فى البلاغة ، ويكتب فى النقد ، ويكتب فى مناهج البحث الأدبى . وهو بين المؤرخين على أعلى مستوى ، وهو بين النقاد على أرفع مستوى ، وبين اللغويين لغوى على أعظم مستوى ، وبين الكاتبين فى علوم القرآن كاتب على أعلى مستوى ، وهو محقق من طراز فريد ؛ حقق الكثير ، لا من المخطوطات المشرقية فقط ، وإنما تجاوزها إلى المخطوطات الأندلسية مثل كتاب (المغرب) لابن سعيد الأندلسى ، وأثار - ونحن فى إسبانيا ، والدكتور مكى يذكر هذا - حنقًا وضيقا من بعض المستشرقين ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينتقصوا من علمه شيئًا ، بل أكبروه وأجلوه ؛ لأنه فعل ما لم يفعلوه .

شوقى ضيف ظاهرة مصرية ، شوقى ضيف متفرد بالعبقرية ، إنه فخر ومجد للجيل الثانى بعد جيل الرواد ، الجيل الأول كان طه حسين وأحمد أمين والعبادى والشيخ الخولى ، والجيل الثانى يتصدره شوقى ، وفى كثير من مناقبه يتقدم أفرادًا من الجيل الأول فى هذه الموسوعية التخصصية ، وعهدنا بالموسوعية أنها الأخذ من كل فن

بطرف – شوقى ضيف موسوعى متخصص فى نفس الوقت ، وهو ظاهرة فريدة لا أظن أنها تكرر كثيراً ، وهو فى رأيى معلم من معالم مصر والأمة العربية .

وهو ممن تشرف به الأمة العربية والإسلامية ، وما من بلد عربى سافرت إليه إلا وجدت فيه تلاميذ من عشاق شوقى ضيف الذين يجلونه ويقبلون يده من قرب أو من بعد ، وأنا واحد من هؤلاء الذين يسعدون ويشرفون بتقبيل يده كلما التقيت به ، أطال الله عمره ، وشرف به أمتنا أكثر وأكثر " .

* * *

أما أ . د . كمال بشر ... فقد ذكر فى كلمته أن هناك مجموعة من القيم أرساها شوقى ضيف ، يلخصها فى اثنتين :

" **القيمة الأولى** : إنه ليس قديما ولا حديثا لكنه أتى بأعمال قديمة فى صورة حديثة ، تبين لغير العارفين أن هناك عقولاً راشدة ، تستطيع أن تجمع بين هذا وذاك ، بحيث تسكت هذه الأصوات العالية ، التى تريد أن تجرنا إلى مزالق فكرية أيديولوجية لسنا فى حاجة إليها ، وما أكثر المصطلحات التى تسيىء إلى موقعنا العربى الإسلامى فى هذا الوقت بالذات ، مصطلحات كثيرة لا أريد أن أذكرها ، ولكن قراءة فاحصة واعية فى أعمال شوقى ضيف ترد على هذه الأصوات العالية ، الذين ينادون بها خدمة لأيديولوجيات معينة ، أو لهدف معين ، وأنا أعلم بعض هذه الأهداف .

القيمة الثانية : كما قلت – هى القيمة القومية العربية ، هذا الرجل يمثل القومية العربية فى أجلى صورها ، ابتداء من كونه أستاذاً للقادة العلماء فى البلاد العربية ، وإلى أعماله التى كتبها فى خدمة اللغة العربية ، وإن كانت بعض أعماله لم تصل أعماقها إلى كثير من الناس ؛ إما جهلا ، وإما عدم معرفة بما يجرى . وفى الواقع الكلام كثير وكثير ، ولكننى فى النهاية اقترح شيئين :

الاقتراح الأول : أن تعقد ندوة علمية كبيرة – يقوم بها قسم اللغة العربية أو أقسام اللغة العربية ودار العلوم وكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف – لدراسة أعمال هذا الرجل دراسة علمية أكاديمية ؛ لاستخلاص المبادئ والقيم التى انتظمتها هذه الأعمال ، وأن يعد لهذه الندوة إعداداً جيداً طيباً ، وأن يدعى إلى المشاركة فيها أساتذة متخصصون فى كل فرع من فروع المعرفة ، أو المعارف التى سيطر عليها شوقى ضيف .

الاقتراح الثانى : أن أنعته – إن قبل وإن وافقتم – *بأمين المعارف العربية* ، ولا أقول المعرفة ، لاحظوا أننى قلت أمين المعارف العربية ، أرجو أن يكون هذا لقبا لشوقى ضيف ، وأن يقبل أستاذنا هذا اللقب من تلميذ متواضع . إننى عندما أجلس إليه إنما أجلس إلى واحد من *أمناء الفكر* ، فيه عبق *الأصالة* ، وعبق *الشموخ* ، وعبق التواضع ، التواضع العجيب الذى يتحلى به شوقى ضيف من أين أتى به هذا الرجل فى هذا الزمن الردىء ، وكيف يتحمل كل ذلك فى هذا الزمن الردىء . ولكنه هو الهرم ، وهو الجبل الذى يمكن أن يصد كل ريح عاتية " .

* * *

وبعد . فإن ذلك بعض ما قيل عن شوقى ضيف ؛ الإنسان والأستاذ والعالم . وما الأبحاث التى يشتمل عليها هذا السفر الوثائقى إلا تأكيد لدور ذلكم العالم الجليل ، الذى أجمعت الأمة على حبه واحترامه .. والاعتراف بقدره ومكانته .

أخيراً ... تحية عرفان بالفضل وعظمة القدر لذلك العالم المتبتِّل والأستاذ الزاهد ... وشكراً جزيلاً لكل من قال كلمة ، أو قدَّم دراسة .

والله أسأل أن يوفقنا جمعيا إلى طريق الخير والعلم والرشاد ... إنه نعم المولى ونعم النصير !!

١٨ جمادى الأولى ١٤١٧ هـ

أول أكتوبر ١٩٩٦م

المتوكلُ على الله أبوُ محمَّد

د . طه عمران وادى

مقدمة الطبعة الأولى

هذا الكتاب ... وذلك الرجل

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

[سورة المجادلة : الآية ١١]

هذا الكتاب شوقي ضيف : سيرة وتحية – كتاب تذكاري ومجلد وثائقي عن أستاذنا الجليل ... أستاذ الأساتذة ... وكبير العلماء ، وهو كتاب يؤكد وفاء جيل من دارسي الأدب العربي ، نحو أستاذ عظيم المكانة ، جليل القامة ، وهب حياته كلها للبحث والدرس ، والعلم والتعليم ، غير متطلع إلى منصب أو طالب لعرض من أعراض الدنيا . إن الحديث عن شوقي ضيف ... حديث عن رجل كالسيف ، صور بسيرته ، وشكل بمسيرته ، مثلاً أعلى يحتذى ، وقدوة حسنة بها يهتدى ، ولمثل ذلك فليعمل العاملون ، وليتنافس المتنافسون .. !!

وقد نشأت فكرة تكريم الأستاذ وإصدار هذا الكتاب عنه ، في إطار القسم الذي تعلم فيه ... وعلَّم – قسم اللغة العربية في كلية الآداب ، جامعة القاهرة – حين بلغ – أطال الله عمره – سن السبعين . وقد تحمست – بصفة شخصية – لهذا المشروع الجليل ، وقد لقيت الدعوة – للمشاركة في الكتاب – قبولاً حسنًا لدى كل من يعرفه عن قرب أوْ بُعد ... ممن عاصره ، أو تتلمذ على يديْه . وقد وصلت إلي – خلال أربع سنوات – أبحاث متنوعة ودراسات عديدة ، يصعب جمعها بين دفتي مجلد واحد ؛ لذلك آثرت – في القسم الأول – نشر كل ما كتب – من مقالات ودراسات – حول سيرة

الأستاذ ، ومجالات تراثه ، وتقويم أعماله ، أما القسم الثانى – الذى يضم البحوث المهداة إليه – فقد وردت فيه بحوث كثيرة وأعمال مطولة ، لدرجة أن بعضها كاد يشكل – من حيث الكم والكيف – كتاباً مستقلاً . وخشية تضخم حجم الكتاب أو نشره فى جزءين منفصلين ، اضطررت إلى انتخاب نماذج مختلفة من تلك البحوث المهداة ، تكون قريبة – إلى حد كبير – من المجالات التى تدور فيها دراساته ، وتتشعب إليها مؤلفاته ، هذا من ناحية ... ومن ناحية أخرى تكون دالة على جهود بعض الباحثين ، الذين تلقوا العلم على يديه فى مختلف الأقطار والمعاهد .

بناءً على هذا الاختيار الصعب أقدم شديد أسفى ، وخالص اعتذارى ، إلى من لم تنشر أبحاثهم من الزملاء والأصدقاء ، كما أعبر لهم ... ولمن نشرت دراستهم عن عظيم تقديرى وعاطر ثنائى ؛ لحرصهم على المشاركة فى الكتابة ، والإسهام فى تكريم الأستاذ ، وفاءً لما يؤمنون به من قيم ، والتزاماً بما يصدرون عنه من مبادئ .

***

هذا فيما يتصل بالكتاب ... أما أستاذنا الجليل شوقى ضيف ، فلا أدرى حين أتحدث عنه : من أين أبدأ ... وكيف أتحدث ... وماذا يمكن أن أقول .. ؟؟ !! إن شوقى ضيف نموذج إنسانى فريد ، ومثال علمى رصين ، فهو مجموعة من الخلال الحميدة ، والصفات العلمية الجادة ، التى يندر أن تتحقق – مجتمعة – فى واحد من البشر ، إن فضائله الأخلاقية جديرة بأن تملأ قلب كل من يعرفه محبة وتقديراً ... وإعزازاً وتوقيراً ، أما ذلك الرجل العالم فهو مدرسة فى إهاب دارس ، وأمة فى رداء فرد ، فقد ألف فى أكثر من ميدان ، وراد أكثر من مجال ، فشملت كتبه ودراساته وبحوثه مجالات عدة ، مثل : التفسير القرآنى ... وتحقيق التراث ... وكتابة السيرة ... والأدب الشعبى ... واللغة والنحو ... والبلاغة والنقد ، ثم يأتى قبل ذلك كله جهوده الرائدة والرائعة فى الكتابة عن الأدب العربى : شعره ونثره ، قديمه وحديثه ، إذ رسم بعبقريه وإقتدار خريطة أدبية شامله لكل مراحل تاريخ الأدب العربى منذ العصر الجاهلى حتى اليوم ، ذلك الأدب الخالد ، الذى يعد أطول الآداب الإنسانية عمراً ، وأغزرها مادة ، وأثراها قيماً ، ولسوف تظل مسيرة ذلك الأدب العربى مستمرة ومطردة – بإذن الله – لأن أدبنا

مرتبط بلغتنا ، ولغتنا مرتبطة بكتاب الله وسنة رسوله !! . وبقدر ما كان أدبنا الخالد بحرًا متدفقًا بغير ضفاف ... فقد كان أستاذنا ملاحًا ماهرًا في إطار علماء عصره وكتاب جيله .

ومما هو جدير بالذكر أن جهود الأستاذ ليست فيما ألَّفَ وكتب فحسب ، لكنها ممتدة أيضًا ... ومتصلة ... ومتواصلة في آلاف من الطلاب ، الذين جلسوا أمامه مجلس التلميذ من الأستاذ ، وفي ملايين الدارسين والمثقفين ، الذين تعلموا على ما كتب في حقول العلوم الأدبية والنقدية واللغوية ، وفي مئات من الأساتذة والباحثين ، الذين أشرف على دراساتهم العليا ، أو شارك في مناقشة رسائلهم الجامعية ، أو أسهم في فحص نتاجهم العلمي خلال مراحل ترقيهم في سلم العمل الجامعي ، ناهيك بجهوده في التدريس زائرًا في جامعات مختلفة ، بالإضافة إلى أعماله المخلصة الجادة في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وفي غيره من المجامع العلمية العربية .

خلاصة القول – حتى لا أحول بين القارئ والكتاب – إن هذا العمل – الذي نقدمه اليوم تحية لأستاذنا ... ورمزًا لوفائنا ، هو – في الحقيقة – بطاقة مودة ... ووسام تقدير ، يضاف إلى ما حازه من قلائد التقدير وآيات العرفان في مصر ، والعالم العربي ، وفي كل مكان يدرس فيه الأدب العربي ... واللغة العربية .

أخيرًا ... ندعو الله – مخلصين – أن يمد في عمره ... وينفعنا بعلمه ... ويهب لنا مثل خلقه ... ويوفقنا للقيام ببعض ما عمله ... ويعيننا على المضي في طريق صعب وطويل سلّمه ... ويوفقنا لنكون أوفى خلف لأعظم وأفضل سلف ، إنه على كل شيء قدير ... وهو نعم المولى ونعم النصير ...!!

الدقي : ١٢ ربيع الأول ١٤١١هـ

أول أكتوبر ١٩٩٠

د . طه عمران وادي

أستاذ الأدب والنقد العربي الحديث

كلية الآداب – جامعة القاهرة

١ - شوقى ضيف

سيرة عالم ... ومسيرة إنسان

د . طه وادى

(١)

شوقى ضيف عالم موسوعى جليل ، وأستاذ جامعى رصين ، يندر أن تجد مثيلاً له فى جيله : عطاء وثراء وحسن خلق ، ولا تعود أهميته إلى كثرة ما ألف فحسب ، بل إنه أيضًا أستاذ لأجيال مختلفة من أساتذة الأدب واللغة ، على امتداد الوطن العربى كله ، ومن لم يتتلمذ على يديه مباشرة فى قاعات الدرس ورسائل البحث ، فقد تتلمذ على كتبه ودراساته - التى تكاد تستوعب معظم مجالات التراث العربى : فى إطار الدراسات الأدبية ، واللغوية ، والبلاغية ، والنقدية ، والإسلامية ، وتحقيق التراث .

وقد ولد أحمد شوقى بن الشيخ عبد السلام ضيف فى قرية " أولاد حمام " - التى تقع بالقرب من شاطئ بحيرة المنزلة ، التابعة لمحافظة دمياط سنة ١٩١٠م - لأبوين فرحا به فرحًا كبيرًا ؛ لأنهما رزقا ولدين قبله ، لكن الموت اختطفهما سريعًا . " ولعل ذلك ما جعل أمه تبالغ فى رعايتها له ، وعطفها عليه عطفًا لم يبرح ذاكرته يومًا " (١) ، وكان أبوه الشيخ عبد السلام ضيف " قد أتم مرحلة التعليم الأزهرى فى دمياط ، لكنه عزف عن أن يقلد وظيفة من وظائف رجال الدين ، فعاد إلى قريته قبيل اقترانه مكتفيًا بمزرعة صغيرة (ورثها عن أبيه) تعوله هو وأسرته . وكان (الطفل) يرى أباه كل صباح يقرأ شيئًا من كتاب الله ، وبعض الأوراد فى كتاب " دلائل الخيرات " . وكان الأب سمح النفس محبوبًا من أهل القرية لا لدروسه الدينية فحسب ، ولكن أيضًا لسعيه لهم ، بقدر ما يستطيع فى قضاء مصالحهم " (٢) .

---

(١) شوقى ضيف : معّى ، ط . دار المعارف ، ١٩٨١ ، ص١٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤ .

وسط جمال الطبيعة ويسر الأسرة ، نشأ " أحمد شوقى " فى جو يحترم تقاليد الريف ، ويقدس المشاعر الدينية . وقبل أن أستطرد فى تصوير حياة أستاذنا الجليل أتوقف عند **حادثة فقد عينه اليسرى** ، حيث " فقد عينه وهو فى المهد ، فلم يذهب به أبوه إلى طبيب عيون ، إذ لم يكن فى دمياط طبيب عيون ، فذهب إلى طبيب ، كان يذهب إليه كثيرون من أهل القرية لفحص جميع أمراضهم ، وكان على هذا الطبيب – حين رأى عين الصبى الرمداء أو المريضة ، وأن سحابة هبطت عليها – أن ينصح أباه باستشارة طبيب عيون ، لكنه بدلاً من ذلك أجرى للصبى عملية فى عينه ، وظن الأب أنها نجحت وهى لم تنجح ، فقد ظلت السحابة تحجب نظر العين ، وفقد الصبى عينه اليسرى إلا بصيصاً ضئيلاً " (١) .

وقد أدت هذه الحادثة إلى ضعف إحدى عينيه وهو صبى فى المهد ... ومع ذلك فقد واصل رحلة علمية شاقة ، تنوء بإنجازها أمة من الناس ، وأشهد أنى خبرتُ أستاذى وعاشرته حوالى ثلث قرن ، لكنى لم ألحظ على عينه هذه الملاحظة إلى أن قرأت عنها فى سيرته ، وكان هذا سبباً يضاعف من احترام الرجل ، ويزيد من الإعجاب بصبره ومثابرته .

وقد التحق فى السادسة من عمره بالمدرسة " الأولية " بالقرية . " وبينما كان يخطو إلى التاسعة ترك أبوه القرية واتخذ دمياط دار مقام له ، وكانت أمنية أبويه أن يصبح " شوقى " شيخاً ، وكانا يرددان على سمعه أنهما وهباه للعلم ، وكلمة العلم عندهما إنما تعنى العلم الدينى ، الذى يحمله فى صدورهم شيوخ الأزهر الشريف ، ولذلك لم يتردد أبوه فى أن يدخله كتاباً يحفظ فيه القرآن الكريم " (٢) .

وبعد أن حفظ القرآن الكريم على " مقرئ جامع البحر " بدمياط ... التحق الصبى بالمعهد الدينى سنة ١٩٢٠م ، وقد وصف صاحب السيرة حياته بتفصيل واضح فى كتاب " معى " خلال هذه المرحلة ، حيث بدأ يقرأ الصحف اليومية ، ويتابع أخبار السياسة والأدب ، وبدأ يتعرف – من خلال الصحف – على طه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، وعباس محمود العقاد ، ومصطفى صادق الرافعى ، وعلى عبد الرازق .

(١) المصدر السابق ، ص ٢٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

ومما يلفت النظر أنه – وهو لا يزال تلميذاً في معهد دمياط الابتدائي – **ألف كتاباً في النحو**، يعد تلخيصاً لكتاب " قطر الندى " لابن هشام المصري ، " وربما كان هذا الكتاب هو الذي ألقى في وعي الفتى مبكراً حاجة النحو الخاص بالناشئة إلى التيسير والتبسيط ، مما جعله فيما بعد ينشط للوفاء بهذه الحاجة " [1] . ومن المعروف أن أستاذنا شوقي ضيف برغم تخصصه في مجال الدراسات الأدبية فقد اهتم بالتأليف في النحو أيضاً ، حيث ألف فيه : أربعة كتب مهمة هي : (الرد على النحاة) و – (المدارس النحوية) و (تجديد النحو) و (تيسير النحو) قديماً وحديثاً مع نهج تجديده .

(٢)

في صيف ١٩٢٦م أنهى دراسته الابتدائية بدمياط ، ثم انتقل إلى معهد الزقازيق الثانوي ، ليكمل دراسته الأزهرية ، وكانت هذه أول غربة له بعيداً عن أبويه وأسرته ... ومن عجب أن حياء الرجل لا يفارقه حتى وهو يكتب سيرته ، لذلك نجده بدلاً من أن يعبر عن مشاعر الغربة في الزقازيق ، يمضي ليحدثنا عن أمور سياسية وثقافية عامة ، مثل الحديث عن أزمة كتاب " في الشعر الجاهلي " لطه حسين (١٩٢٦) ، ومبايعة أحمد شوقي (١٩٢٧) بإمارة الشعر ، واستقالة وزارة عدلي يكن سنة (١٩٢٧) ... ثم وفاة سعد زغلول ، ثم وضع حجر الأساس للجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) في فبراير (١٩٢٨) ، وهنا أود أن أشير إلى سمة مهمة من سمات ذلك الرجل العظيم ... وهي **الحياء الشديد ، المقترن بعفة القلب واليد واللسان** ؛ لذلك لم يشترك – طوال عمره – في أية خصومة ، ولم يتدخل في أية عداوة ، ولم يسع – أبداً – بنميمة ، ولم تتطرق إليه يوماً ريبة ، وقد رأيت خصومات وخلافات كثيرة ، وكان الرجل على مرمى حجر منها ، لكنه ظل محافظاً على حياده المهذب ، يشكو إليه هذا أو ذاك من المتخاصمين ، فلا ينقل كلمة ولا يشعل فتنة ، وإنما يسعى إلى الصلح والإصلاح ما استطاع إليهما سبيلاً ، لذلك ظل الأستاذ الإنسان محايداً وموضع ثقة كل زملائه وتلاميذه ، وكان في رأيه لا يصدر عن هوى ، وفي مسيرته لم يحاول قط أن يأخذ حقاً ليس له ، يؤكد ذلك أيضاً أني درست الأدب العربي القديم على يديه طوال ثلاث سنوات ، ولم يتخلف فيها

(١) المصدر السابق ص ٥٩ .

يومًا عن محاضرة ، ولم يفلت منه زمام الدرس ، فيحكى طرفة أو نادرة أو يستطرد ليتحدث عن ذاته أو بعض مواقف حياته .

وبعد أن أنهى تعليمه فى معهد الزقازيق الثانوى فكر فى الالتحاق بدار العلوم ، وترك الطريق الذى اختاره أبواه - طريق التعليم الدينى فى الأزهر ، وكانت لدار العلوم مدرسة ثانوية بالقاهرة تسمّى " التجهيزية " ، التى تعد الطلاب للالتحاق بها ، وكان ذلك فى العام الدراسى ١٩٢٨/١٩٢٩م ، ومنذ ذلك العام **ترك الزى الأزهرى إلى الزى الأفرنجى ، وهذا التحول فى الزى رمز لتحولات فكرية وعلمية فى حياته** ، وكان ذلك إرهاصًا لتحوله من التعليم الأزهرى القديم إلى التعليم الجامعى الحديث فى كلية الآداب ، وقبيل آخر العام الدراسى الثانى والأخير فى " التجهيزية " سنة ١٩٣٠ ، علم أن " كلية الآداب ستفتح أبواب قسم اللغة العربية لقبول طائفة من خريجى " التجهيزية " ، وطائفة من حملة الثانوية الأزهرية ليكملوا دراستهم فيه ، إذ رأى طه حسين - عميد الكلية - وزملاؤه أن يُتيحوا لمجموعة ممن حفظوا القرآن الكريم واستظهروه فى صباهم ، ثم درسوا العلوم الدينية وعلوم العربية فى شىء من التوسع أن يتابعوا الدراسة فى القسم " (١) .

(٣)

وفى العام الدراسى ١٩٣٠/١٩٣١ التحق بالسنة الأولى **بقسم اللغة العربية فى كلية آداب القاهرة** ، وبدأ يدرس بجوار علوم العربية : الإنجليزية (لغة أجنبية أولى) ، والفرنسية (لغة ثانية) ، وكان يدرسهما مدرسون أجانب من مدرسى أقسام اللغات الأجنبية بالكلية ، " وكان تعلم الإنجليزية أسهل عليه من تعلم الفرنسية ؛ لصعوبة نبراتها وكثرة الحروف الصامتة فى كلماتها " .

وقد تتلمذ - فى كلية الآداب - على أيدى مجموعة من الأساتذة الأفاضل الذين كانوا يدرسون فى ذلكم القسم العريق - قسم اللغة العربية - وهم : دكتور طه

---

(١) كتاب " معى " ، ص ١٠٢ .

حسين – الأستاذ أحمد أمين – الأستاذ إبراهيم مصطفى – الشيخ أمين الخولى – الشيخ أحمد الإسكندرى – دكتور عبد الوهاب عزام – الشيخ مصطفى عبد الرازق – د. خليل نامى – الأستاذ مصطفى السقا .

وقد نشر – فى مجلة " الرسالة " سنة ١٩٣٤ – أول مقال له حول " الوضوح والغموض فى الشعر " ... وهكذا بدأ العالم الشاب يخطو أولى خطوات مسيرته العلمية عن طريق بعض المقالات ، التى كان ينشرها فى مجلة " الرسالة " ، وكان يرأس تحريرها حينئذ أستاذه أحمد أمين ، وحول ذلك يقول : " وكان عجب الفتى شديداً حين عاد إلى هذه المقالات فى سن متأخرة ، ليرى بواكير كتاباته ، إذ رآها بنفس الصورة التى يكتب بها حين علت سنه : صورة الأسلوب الرصين ، الذى يعنى صاحبه فيه باختيار الألفاظ ، وحسن موقعها فى الأسماع ، مع اهتمام من حين إلى حين بالصور والأخيلة ، يريد أن يجعلها أسلوبًا سائغًا . وكان يظن أن رصانة أسلوبه أتته – بمرّ الزمن – من قراءاته الكثيرة فيما بعد للجاحظ وإعجابه بروعة أسلوبه ، ويبدو حقًا ما قاله بعض النقاد الفرنسيين من أن الأسلوب هو الشخص ، وأنه يوجد معه حين يمسك بالقلم حتى الأنفاس الأخيرة " (١) .

هكذا يضع ذلك الأستاذ الجليل أيدينا على سمة من أهم سماته الأسلوبية ، وهى العناية بجمال التركيب اللغوى . إن الدراسة الأدبية غير الأدب ذاته ، ومع ذلك ينبغى أن يكون دارس الأدب ، أو ناقده ، متأثرًا إلى حَدٍّ كبير بطبيعة المادة الأدبية التى يدرسها ويحلل عناصرها ، وهذه الخاصية الأسلوبية نلمسها عند كل من تصدى لدراسة الظاهرة الأدبية ، منذ محمد بن سلام الُجمَحِىّ ، وإنتهاء بطه حسين ، والتدليل على هذه السمة عند شوقى ضيف قد يحتاج إلى دراسة خاصة ، ومع ذلك نكتفى للتدليل عليها بهذه الفقرة من كتابه " **التطور والتجديد فى الشعر الأموى** " الذى يعد من أهم دراساته الأدبية ، وقد صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٥١ ، حيث يقول مُحللاً طبيعة " النقائض الشعرية " بين جرير والفرزدق : " ليست النقائض إذن أهاجى بالمعنى القديم ، الذى كان يفهمه العرب فى الجاهلية للهجاء ، وإنما هى مناظرات أدبية

(١) «معى» ، ص ١١٠ .

أوجدتها ظروف عقلية ، وأخرى اجتماعية لعصر بنى أمية ، ولعل من الطريف أنها اقترنت عند جرير والفرزدق بمسألة شكلية نلاحظها فى مناظراتنا الحديثة ، فنحن إذا تساءلنا أين كان يقف جرير فى مناظراته مع الفرزدق ، كان الجواب الطبيعى أنه يقف فى صفوف قومه تميم ، فإن أبى تَميمًا كان عليه ألاّ يقف فى صفوف خصومها ، ولكن الذى حدث فعلاً أن جريرًا لم يقف دائمًا فى صفوف تميم ، ولا فى صفوف أنصارها ممن كانت تعاهدهم فى الجاهلية والإسلام ، مثل قبيلة كلب ، وإنما وقف فى الصفوف المقابلة مع خصومها وأعدائها : صفوف قيس وفروعها وغصونها ، وطبعاً كان ينصر قومه كُليبًا أمام عشيرة الفرزدق مجاشع ، غير أنه كان يدافع أيضًا عن قيس ضد دفاع الفرزدق عن تميم ، بالضبط كما يقف المناظر فى عصرنا الحديث ، ليدافع عن وجهة نظر معينة فى موضوع من الموضوعات ، وليس من الضرورى أن يكون مؤمنًا بها ، بل قد يكون من خصومها ، ويأتى به من أعدوا المناظرة للإغراب على الناس وجمهور النظارة .

على هذا النمط جلبت قيس جريرًا ليذود عنها أمام الفرزدق وتميم ، فتمّت بذلك صورة بعض مناظراتنا الحديثة ، حين يدخل شخص فى مناظرة وهو غير مقتنع بفكرة من الأفكار ، فيوضع للدفاع عنها ، وبذلك تصبح المسألة لعبة عقلية لا أقل ولا أكثر ، يراد بها تسلية السامعين ، والمران على الجدل والحوار والمسائل أيًا كان الوضع وأيًّا كانت الغاية .

ألسنا إذن فى نقائض جرير والفرزدق بإزاء مناظرات أدبية حقيقية ؟ فهذا جرير يقف فى المربد ، ليدافع عن قيس ، وما عهدنا فى الجاهلية ولا فى الإسلام شخصًا يتنازل هذا التنازل عن قبيلته ، ويلحق بقبيلة أخرى يتعصب لها ، ويتشيع لأهلها وأبنائها على ما يتشيع ويتعصب جرير لقيس أعداء تميم فى الجاهلية والإسلام " [1] .

على هذا النحو من إشراق العبارة ووضوح المنطق وجلاد الفكرة ، كان أستاذنا يكتب دراساته ، ويعرض أفكاره ، ويحلل الظواهر الأدبية التى يكتب عنها .

---

(١) شوقى ضيف : *التطور والتجديد فى الشعر الأموى* . ط . دار المعارف - القاهرة ، السبعة ، ١٩٨١ ، ص ١٨٧ .

وقد أمضى الطالب شوقى ضيف فى قسم اللغة العربية أربع سنوات (١٩٣١ - ١٩٣٥) ، وكان خلالها مثال الطالب الجاد الملتزم ، وقد لفت نظر كل أساتذته مع اختلاف تخصصاتهم ومدارسهم الفكرية ، واتجاهاتهم النقدية ومساهماتهم فى حركة المجتمع ، وهم : طه حسين ، وأحمد أمين ، ومصطفى عبد الرازق ، وإبراهيم مصطفى ، وأمين الخولى ، وأحمد السكندرى ، وعبد الوهاب عزام . كما أظهر تفوقًا فى دراسة المواد غير التخصصية وفى دراسة اللغات الأجنبية ، لذلك صار **أول دفعته فى التخرج ، ونال شهادة الليسانس بإمتياز سنة ١٩٣٥م .**

(٤)

وقد عُيّن بعد تخرجه فى وظيفة " محرر " بمجمع اللغة العربية ، وفى سنة (١٩٣٦) عين معيداً بالقسم ، حيث " كان طه حسين قد انتخب عميداً لكلية الآداب ، ورأى أن تأخذ الكلية بنظام المعيدين لأول مرة فى تاريخها الجامعى " [١] .

ومنذ ذلك التاريخ (١٩٣٦م) لا يزال الرجل - أطال الله عمره - ينهض بمهمة التدريس فى قسم اللغة العربية ، **وفى سنة ١٩٣٩م نال درجة الماجستير** ، وكان موضوعها " النقد الأدبى فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى " ، وساعده هذا الموضوع الخصب على أن يسيطر - منذ وقت مبكر فى حياته الجامعية - بقوة وإتساع على المادة الأدبية ، والنقدية الخاصة بأعلام الشعر العربى القديم ، منذ العصر الجاهلى حتى القرن الثالث الهجرى ، وقد أعد الرسالة **بإشراف الأستاذ أحمد أمين** . وفى تقديرى أن **أحمد أمين لعب دوراً كبيراً فى تشكيل المنظور الفكرى الذى يكتب من خلاله شوقى ضيف** ، فقد ذكرت من قبل أنه نشر مقالاته الأولى (سنة ١٩٢٤) فى مجلة " الرسالة " ، ولا شك أن الأستاذ كان يراجعها لتلميذه ، ويناقشه فيها ، فقد كان أحمد أمين فى ذلك الوقت ، شخصية أدبية كبيرة لا فى قسم اللغة العربية ، وكلية الآداب - التى تولى عمادتها - فحسب ، بل فى الحياة الثقافية بصفة عامة، ثم جاءت التلمذة الحقيقة المباشرة من خلال رسالة الماجستير ، ونظن ظنًا لا يبعد عن اليقين أن

---

(١) «معى» ، ص ١٢٣ .

أحمد أمين ترك بصمات فكرية واضحة فى فكر شوقى ضيف ، والذى لا ريب فيه أن التلميذ حينما كتب سلسلة كتب " تاريخ الأدب " فيما بعد ، كان يجارى أستاذه ، الذى سبق أن كتب " تاريخ الإسلام " فى : فجر الإسلام ، وضحى الإسلام ، وظهر الإسلام ، وربما كانت هذه الناحية - ناحية التأثير بين أحمد أمين وشوقى ضيف حقيقة جديدة ، تستحق وقفة خاصة عند من سوف يتوقفون فيما بعد ، ليتحدثوا بالتفصيل عن منهج شوقى ضيف الأدبى ، ومنظوره النقدى وتكوينه الفكرى .

وفى سنة ١٩٤٢م نال درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الممتازة (الأولى) ، وكان موضوعها " الفن ومذاهبه فى الشعر العربى " ، وكان المشرف عليه فى هذه الرسالة الثانية (الدكتوراه) أستاذه الثانى الدكتور طه حسين ، الذي قال فى تقدمة الرسالة :

" إنى لسعيد بأن أقدم إلى القراء آية على أن فى الشباب الجامعيين من يعملون مخلصين للعمل والدرس ، وعلى أن فى الشيوخ الواعدين النابهين (١) ، من يمنحون هؤلاء الشباب ودهم وحبهم ، سواء أعرفهم أم لم يعرفهم ؛ لأنهم يفكرون فى مصر وفى ثقافتها ، التى تحيى ماضيها ، وتفتح الطريق لمستقبلها الباسم أكثر مما يفكرون فى أنفسهم .

وإذا كنت حريصاً على أن أقول شيئًا فى هذه التقدمة فإنما هو :

تسجيل الشكر الخالص للجامعة ، التى أنتجت الدكتور شوقى ، وللدكتور شوقى الذى أنتج هذه الرسالة ... " .

وفى سنة ١٩٤٥ تزوج من السيدة الفاضلة أم عاصم ، وهى كريمة مُرَبٍّ فاضل ، وكانت تلميذته فى كلية الآداب - قسم اللغة الإنجليزية - وقد أنجبت له طفلين هما عاصم ورندة ، اللذان صارا فيما بعد : الدكتور عاصم ، الأستاذ فى كلية هندسة القاهرة ، والطبيبة الدكتورة رندة الأستاذة فى كلية طب القاهرة .

---

(١) المقصود عبد العزيز فهمى باشا ، الذى كان عضواً فى مجمع اللغة العربية ، ونشر الكتاب على نفقته .

(٥)

لم تتوقف جهود الأستاذ المعلم - شوقى ضيف - عند التأليف والتحقيق فحسب ، وإنما تتلمذ عليه مجموعة من الأساتذة ، يعدون اليوم من أهم أعلام الدراسة الأدبية فى كل الجامعات العربية ...، ومن أهمهم :

١ - **فى مصر** : يوسف خليف - مصطفى الشكعة - أحمد كمال زكى - محمد مصطفى هدارة - سيد حنفى حسنين - النعمان القاضى - عادل سليمان - شوقى رياض - صابر أبو السعود - عبد الحكيم راضى - عبد الرازق أبو زيد - عبد الله التطاوى - مى يوسف خليف - عبد الفتاح الشطى - محمد إبراهيم مخلوف - عرفة حلمى عباس .

٢ - **فى فلسطين** : إحسان عباس - محمد يوسف نجم .

٣ - **فى سوريا** : أحمد راتب النفاخ - إحسان النص - مازن المبارك - شاكر الفحام - عصام قصبجى .

٤ - **فى الأردن** : ناصر الدين الأسد - حسين عطوان - عصمة عبد الله غوشة .

٥ - **فى العراق** : أحمد عبد الستار الجوارى - نورى حمودى القيسى - محسن غياض .

٦ - **فى السودان** : محمد فوزى مصطفى .

هؤلاء بعض الأعلام الذين واصلوا دراساتهم العليا على يدى شوقى ضيف ، ويصعب - إن لم يكن يستحيل - حصر أولئك الذين جلسوا منه مجلس الطالب فى قاعات الدرس ، وأولئك الذين ناقش رسائلهم الجامعية ، أو شارك فى ترقياتهم العلمية . إن شوقى ضيف بإختصار شديد : أستاذ معظم أستاذة الأدب واللغة فى الوطن العربى كله ، ولا نغالى إذا قلنا إن الذين فاتتهم التلمذة المباشرة على يديه الكريمتين ، لم يفلتوا من التتلمذ والدرس على كتبه ومؤلفاته ، إنه بإختصار متواضع

أستـاذ كل من يَدْرُسُ ، أو يدرس الأدب العربى ، فى كل مكان من أرجـاء المعـمورة ، تتردد فيه أصداء لغة الضاد وآدابها .

(ظل شوقى ضيـف حريصًا علـى وظيـفته " عـضو هيئة تدريس " فى قسـم اللغـة العربيـة ، بل إنه رفض سنة ١٩٥٢ أن ينتقل إلى وظيفـة دبلومـاسـيـة فى وزارة الخارجية) ، وآثر أن يبقى فى عمله إلى أن صار أستـاذًا سنة ١٩٥٦ ، والوظيفة التى قبلها ، هى رئاسة مجلس القسم فى المدة من سنة ١٩٦٨ إلى ١٩٧١ ، وإذا كان شوقى ضيف عزوفًا عن المناصب العامة ، فإن مؤلفاته العلمية وسيرته العطرة ، قد رشحاه ليكون عضوًا فى هيئات علمية كثيرة داخل مصر وخارجها ... ومن أهمها :

- عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ... ورئيس له سنة ١٩٩٦ .
- عضو المجالس القومية المتخصصة بالقاهرة .
- عضو المجمع العلمى المصرى .
- عضو شرف فى المجمع اللغوى الأردنى .

كذلك نال سيادته الجوائز العلمية التالية :

- جائزة مجمع اللغة العربية سنة ١٩٤٧م .
- جائزة الدولة التشـجيـعية فى الآداب سنة ١٩٥٥م عن كتـاب " شـوقى شـاعر العصر الحديث " .
- جائزة الدولة التقديرية فى الآداب سنة ١٩٧٩م .
- جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربى سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٣م .
- جائزة مبارك فى الأدب العربى سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .

(٧)

قائمة ببلوجرفية ... تاريخية

١ – الفن ومذاهبه فى الشعر العربى .

ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٣ .

٢ – الفن ومذاهبة فى النثر العربى .

ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٦ .

٣ – تحقيق " الرد على النحاة " : لابن مضاء القرطبى .

ط . دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٤٧ .

٤ – رسائل الصاحب بن عباد (بالاشتراك) .

ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥١ .

٥ – خريدة القصر للعماد الأصفهانى (قسم شعراء مصر) .

ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥١ .

٦ – المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد الأندلسى .

ج١ (تحقيق بالاشتراك) . ط . دار المعرف ، القاهرة ، ١٩٥١ .

٧ – نقط العروس فى تواريخ الخلفاء لابن حزم الأندلسى .

نشر فى : فصلة من مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة ، ١٩٥١ .

٨ – التطور والتجديد فى الشعر الأموى .

ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

٩ – الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية .

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

١٠ – المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد الأندلسى .

ج٢ (تحقيق ... بالاشتراك) ، ط . جامعة القاهرة ، ١٩٥٣ .

١١ – دراسات فى الشعر العربى المعاصر .

ط . مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

١٢ – شوقى شاعر العصر الحديث .

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

١٣ – ابن زيدون (أعلام العرب) .

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

١٤ – النقد (فنون الأدب العربى) .

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

١٥ – المقامة (فنون الأدب العربى .

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

١٦ – الرثاء (فنون الأدب العربى) .

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

١٧ – المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد .

ج٢ (تحقيق بالاشتراك) ، ط . دار المعرف ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

١٨ – الترجمة الشخصية (فنون الأدب العربى)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

١٩ – الرحلات (فنون الأدب العربى)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

٢٠ – الأدب العربى المعاصر فى مصر (مترجم إلى الصينية)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

٢١ – تاريخ أداب اللغة العربية ... جرجى زيدان

(نشر وتعليق ... أربعة أجزاء) ط . دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

٢٢ – الفكاهة فى مصر (اقرأ)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

٢٣ – العصر الجاهلى

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

٢٤ – فى النقد الأدبى

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

٢٥ – العصر الإسلامى

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣

٢٦ – مع العقاد (اقرأ)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٢٧ – البارودى رائد الشعر الحديث

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٢٨ – البلاغة : تطور وتاريخ

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

٢٩ – الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر (تحقيق)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

٣٠ – العصر العباسى الأول

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

٣١ – المدارس النحوية

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٣٢ – البطولة فى الشعر العربى (اقرأ)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

٣٣ – فصول فى الشعر ونقده

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٣٤ – سورة الرحمن وسور قصار (عرض ودراسة)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٣٥ – البحث الأدبى : طبيعته ومناهجه وأصوله ومصادره

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٣٦ – العصر العباسى الثانى

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

٣٧ – الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

٣٨ – عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

٣٩ – معى (سلسلة اقرأ) ج١

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

٤٠ – تجديد النحو

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

٤١ – عصر الدول والإمارات : (مصر والشام)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٤٢ – مجمع اللغة العربية فى خمسين عامًا

ط . مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٤٣ – تيسير النحو التعليمى قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

٤٤ – فى التراث والشعر واللغة (تحقيق)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

٤٥ – معى ، ج٢

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

٤٦ – عصر الدول والإمارات : (الأندلس)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

٤٧ – تيسيرات لغوية

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

٤٨ – عصر الدول والإمارات ج٤ : (ليبيا – تونس – صقلية)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

٤٩ – الوجيز فى تفسير القرآن الكريم

ط . دار المعارف ، ١٩٩٥ .

٥٠ – عصر الدول والإمارات : (الجزائر – المغرب – موريتانيا – السودان)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

٥١ – عالمية الإسلام (مترجم إلى الفرنسية)

ط . دار المعارف ، ١٩٩٦

٥٢ – تحريفات الفصحى للعامية

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٧ .

٥٣ – الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٨ .

٥٤ - محمد ... خاتم المرسلين

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .

٥٥ - القسم فى القرآن الكريم

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ٢٠٠١ .

٥٦ - معجزات القرآن

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .

(٨)

يعدّ شوقى ضيف أكثر علماء جيله عطاءً وإنتاجًا ، ومؤلفاته حتى الآن (٢٠٠٢) ستٌ وخمسون كتابًا بين مؤلف ومحقق ؛ لأنه عاش طوال عمره - أمدّ الله فيه - مع المكتبة ومن أجل الكتابة ، ولم يتخذ لنفسه صديقًا سوى الكتاب . وإذا ما حاولنا أن نحدد الإطار العام لجهوده فى مجال الدراسة والبحث والتحقيق ، فيمكن أن نصنفها فى أربعة مجالات كبرى ، هى :

- الدراسة الأدبية .
- الدراسة البلاغية والنقدية .
- الدراسة النحوية .
- الدراسة الإسلامية وتحقيق التراث .

***

أولاً – مجال الدراسة الأدبية :

كان شوقي ضيف وفيًا – بدرجة رفيعة – لتخصصه الأول ... وهو دراسة الأدب العربي القديم ، وإن كانت جهوده في مجال الدرس الأدبي قد تجاوزت القديم إلى الوسيط والحديث ، بدرجة يمكن معها القول إنه درس كل مراحل تاريخ الأدب العربي على امتداد عصوره وتعدد أماكنه وأعلامه ، والكتب التي صدرت له في هذا المجال هي :

١ – التطور والتجديد في الشعر الأموي ، ١٩٥٢ .

٢ – الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية ، ١٩٥٢ .

٣ – دراسات في الشعر المعاصر ، ١٩٥٣ .

٤ – شوقي شاعر العصر الحديث ، ١٩٥٣ .

٥ – ابن زيدون ، ١٩٥٤ .

٦ – الأدب العربي المعاصر في مصر ، ١٩٥٧ .

٧ – الفكاهة في مصر ، ١٩٥٨ .

٨ – مع العقاد ، ١٩٦٤ .

٩ – البارودي رائد الشعر الحديث ، ١٩٦٤ .

١٠ – البطولة في الشعر العربي ، ١٩٦٩ .

١١ – العصر الجاهلي ، ١٩٦٠ .

١٢ – العصر الإسلامي ، ١٩٦٣ .

١٣ – العصر العباسي الأول ، ١٩٦٦ .

١٤ – فصول في الشعر ونقده ، ١٩٧١ .

١٥ - العصر العباسي الثانى ، ١٩٧٣ .

١٦ - الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ، ١٩٧٧ .

١٧ - عصر الدول والإمارات ، ١٩٨٠ .

(الجزيرة العربية - العراق - إيران) .

١٨ - عصر الدول والإمارات .

(مصر - الشام) ، ١٩٨٤ .

١٩ - عصر الدول والإمارات .

(الأندلس) ، ١٩٨٩ .

٢٠ - عصر الدول والإمارات .

(ليبيا - تونس - صقلية) ، ١٩٩٢ .

٢١ - عصر الدول والإمارات .

(الجزائر - المغرب - موريتانيا - السودان) ، ١٩٩٥ .

ومن خلال هذه الكتب نستطيع القول : إن الأستاذ المعلم قد رسم (خريطة) أدبية شاملة للأدب العربى ، منذ الميلاد والنشأة حتى المرحلة المعاصرة ، مروراً بكل عصور الأدب ، سواء أكانت عصور ازدهار وقوة ، مثل العصر الجاهلى ، والإسلامى ، والعباسي ، أم مراحل ضعف وتفرق فى عصور الدول والإمارات فى كل الأقطار العربية ، بعد أن تقطعت أوصال الدولة وانفصلت أوطان الأمة .

وهو يصرح - واعيًا - بالهدف الجليل الذى كتب من أجله ، هذه السلسلة المترابطة الحلقات لتاريخ الأدب بقوله : " لا أبالغ إذا قلت إن تاريخ أدبنا العربى يفتقر إلى طائفة من الأجزاء المبسوطة ، تُبحث فيها عصوره من الجاهلية إلى عصرنا الحاضر ، كما تبحث شخصياته الأدبية بحثًا مسهبًا ، بحيث ينكشف كل عصر

انكشافًا تامًا ، بجميع حدوده وبيئاته ، وآثاره وما عمل فيها من مؤثرات : ثقافية وغير ثقافية ، وبحيث تنكشف شخصيات الأدباء انكشافًا كاملاً بجميع ملامحها وقسماتها النفسية والاجتماعية والفنية .

وقد حاولت أن أنهض بهذا العبء ، وأنا أعلم ثقل المؤنة فيه ، فإن كثيراً من الآثار الأدبية القيمة لا يزال مخطوطًا لما ينشر ، وكثيراً مما نشر فى حاجة إلى أن يعاد نشره نشراً علميًا ، وهناك بيئات أدبية يغمرها غير قليل من الظلام : إما لقلة ما بين أيدينا من تراثها الأدبى ، وإما لأن الباحثين لم يكشفوا دروبها ومناجمها كشفًا كافيًا . يضاف إلى ذلك أن تحليل آثار الأدباء وتقويمها ليس عملاً سهلاً ، لكثرة ما بداخلها من عناصر الحياة والفن المتشابكة ، ولأنها تتألف من معان وأساليب جميلة ، وهى لا تخضع خضوعاً مطلقًا لقواعد العلم وقوانينه ، حقًا تخضع للطريقة العلمية ، ولكن باستمرار تظل فيها جوانب خاضعة للذوق ، ونفاذ البصيرة والإحساس المرهف ، وذلك كله مما يضاعف الجهد على من يريد تاريخ أدبنا العربى ، تاريخًا مفصلاً دقيقًا على اختلاف عصوره وتفاوت بيئاته ، غير أنه يضاعف فى الوقت نفسه لذته فيه ، إذ يرى أمنيته فى إتقان عمله بعيدة عسيرة ، لا يمكنه بلوغها إلا بشق النفس ، فيجد ويلح ، ويمضى فى الجد والإلحاح ، حتى يظفر بما يريد ، مؤمنًا بأنه لا يقول الكلمة الأخيرة فيما يبحثه ، إذ البحث الأدبى لا يعرف الكلمة الأخيرة فى مسألة من مسائله " [1] .

وقد أنجز عالم فذ ما وعد ، وأكمل الدائرة ، وأتم رسم الصورة العامة لأدبنا العربى العريق – الذى يعد أطول الآداب الإنسانية عمراً وأشدها تلاحمًا ولكن الرجل – مثل كل العلماء العظام – وقليل ما هم – رغم ما بذل من جهد تنوء به عصبة من أولى العزم ، لا يفارقه تواضع العالم وحرص الخبير ، حين يؤكد أن ما كتبه ليس خاتمة المطاف ، أو فصل النهاية فيما قدم الأسلاف ، ومعنى هذا أن العالم الحق ، ليس من يزعم أنه قادر على إغلاق باب الاجتهاد ، وإنما هو ذلك الذى يثير من الأفكار والآراء ما يفتح مجالات البحث ، وينير دروب التأمل ، وهو يؤكد هذا الرأى فى نهاية الجزء الأول ، من سلسلة كتب تاريخ الأدب العربى ، بقوله :

---

(١) شوقى ضيف : العصر الجاهلى . ط . دار المعارف – القاهرة ، السابعة ، ١٩٧٦ ، ص٦ .

" ومعنى ذلك أن هذا الجزء من تاريخ أدبنا العربي ، الخاص بالعصر الجاهلي – والذي ستتلوه أجزاء أخرى ، تتناول بقية عصور هذا التاريخ – لا أزعم أنه يحمل إلى القراء الصورة الأخيرة لهذا العصر ، كما لا أزعم أن الأجزاء التالية ستحمل الصورة الأخيرة للعصور المتعاقبة ، وإنما أزعم أن هذه الصورة هي التي استطعت رسمها ، مع ما بذلت من جهد واصطنعت من نهج ، وتحريت من دقة ، وقد يأتي بعدي من يعدل في جانب من جوانبها بما يهتدي إليه من حقائق أدبية غابت عني في بعض العصور ، أو بعض البيئات والشخصيات الأدبية ، وتلك طبيعة الأبحاث يكمل بعضها بعضاً ولا تزال في نمو مطرد !! " (١) .

وحين نستعرض تلك الكتب الخاصة بالتأريخ للأدب العربي : قديمه وحديثه ، ندرك أن الرجل قد توقف عند كل العصور والأقاليم ، حتى تلك التي لم يكد يتوقف عندها أحد من قبل ، وأنا أشير هنا وأشيد – بصفة خاصة – بالأجزاء الأخيرة ، التي تدرس عصور أدب الدول والإمارات في القرون الوسطى في : الجزيرة العربية ، والعراق ، وإيران ، ومصر ، والشام ، وبلاد الأندلس ، والمغرب العربي ، والسودان . ومعنى هذا أن شوقي ضيف يعد أوفى أستاذ لتخصصه العلمي ، حيث كان يشغل وظيفة " أستاذ الأدب العربي القديم " ، لكنه وسع جهوده ، ومد نشاطه ، لكي يدرس كل عصور الأدب ، وقد توقف أحياناً عند بعض الظواهر الشعبية في الأدب العربي ، وظهر هذا في كتبه : (الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور) ، (الفكاهة في مصر) ، (عصر الدول والإمارات) .

(٩)

ثانياً – مجال الدراسة البلاغية والنقدية :

يشكل الدرس البلاغي والنقدي أهم أدوات البحث الأدبي ، لذلك يمثل هذا الجانب المجال التالي في الأهمية لدراسة الأدب . وقد أصدر شوقي ضيف في هذا المحور عدة كتب هي :

(١) العصر الجاهلي ، ص ٦ .

١ – *النقد الأدبى فى كتاب الأغانى* " مخطوط " ، ١٩٣٩ .

٢ – الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، ١٩٤٣ .

٣ – *الفن ومذاهبه فى النثر العربى* ، ١٩٤٦ .

٤ – النقد ، ١٩٥٤ .

٥ – المقامة ، ١٩٥٤ .

٦ – *الرثاء* ، ١٩٥٥ .

٧ – الترجمة الشخصية ، ١٩٥٦ .

٨ – الرحلات ، ١٩٥٦ .

٩ – فى النقد الأدبى ، ١٩٦٢ .

١٠ – البلاغة تطور وتاريخ ، ١٩٦٥ .

١١ – *البحث الأدبى* : طبيعته ، مناهجه ، أصوله ، مصادره ، ١٩٧٢ .

وهذه الموضوعات البلاغية والنقدية المتنوعة ، تؤكد – بوضوح – أن شوقى ضيف حاول من خلال هذه الكتب أن يعرض تاريخ البلاغة والنقد ، وأن يتوقف عند بعض موضوعات خاصة فى الأدب العربى ، مثل الترجمة الشخصية ، والرحلات ، والمقامة ، والرثاء ، كل هذا ليكمل جانباً من جوانب دراسة الأدب ، وهو الجانب الخاص بالبلاغة والنقد وبعض فنون الأدب العربى ، والمؤلف يؤكد الرابطة الوثيقة التى تربط الأدب بهذه الدراسات ، فيذكر فى مقدمة كتابه " *البلاغة ... تطور وتاريخ* " :

" *ولم تكن غايتى أن أصور هذا التاريخ لبلاغتنا فحسب ، بل أيضاً أن أصور* الترابط الوثيق بينها وبين أدبنا فى تطورهما ، حتى انتهيا إلى الجمود والتعقيد ، *والجفاف والتكرار الممل ، وأن أرسم فى تضاعيف هذا التطور الوشائج الواصلة بين* كل بلاغى وسابقه ولاحقه ، بحيث تتضح معالم هذا التطور اتضاحاً تاماً ، وقد وقفت فى الخاتمة أصور الأسباب التى جعلت أسلافنا لا يهتمون فى البلاغة بشىء وراء

الكلمة والجملة والصورة ، ذاهبًا إلى أنه ينبغي في تشكيل بلاغتنا الحديثة أن نعني ببيان الأساليب الأدبية المتفاوتة ، وفنون الأدب المختلفة ، حتى نلائم بين بلاغتنا وأدبنا الحديث وأساليبه وفنونه ، مع الحرص على الانتفاع بتراث أسلافنا البلاغي القيم الذي أودعوا فيه خصائص لغتنا الأدبية ، ومقوماتها البيانية والبلاغية " [1] .

بهذه النظرة الشمولية ، يكتب شوقي ضيف عن البلاغة والنقد ، واعيًا بالعلاقة الوثقى التي تربطهما بالأدب ، ذلك أن الأدب والنقد وجهان لعملة واحدة ، ويرتبط كل منهما بالآخر ارتباط العلة بالمعلول ، وهذا هو سر عنايته بدارسة النقد والبلاغة .

(١٠)

ثالثًا - الدراسة النحوية :

ذكرنا - في أثناء الحديث عن سيرة شوقي ضيف - أنه توقف وهو طالب عند دروس النحو ، وحاول أن يقدم تلخيصًا مختصرًا بعيدًا عن الحواشي والاستطرادات ، عندما حاول وهو في معهد دمياط الابتدائي أن يلخص بعض كتب " ابن هشام " في النحو ، وقد صدرت له في مجال دراسة النحو العربي أربعة كتب مهمة ، هي :

١ - تحقيق " الرد على النحاة " لابن مضاء القرطبي ، ١٩٤٧ .

٢ - المدارس النحوية ، ١٩٦٨ .

٣ - تجديد النحو ، ١٩٨٢ .

٤ - تيسير النحو التعليمي قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده ، ١٩٨٦ .

٥ - تيسيرات لغوية ، ١٩٨٩ .

٦ - تحريفات الفصحى للعامية ، ١٩٩٧ .

---

(١) شوقي ضيف : البلاغة تطور وتاريخ . ط . دار المعارف - القاهرة ، الخامسة ، ١٩٨١ ، ص٧ .

وإذا كان شوقي ضيف في كتاب " *المدارس النحوية* " حريصًا على الجانب التاريخي الموسوعي الذي يهتم به في كل دراساته ، فإن المؤلفات الأربعة الأخرى تؤكد بوضوح حرصه منذ وقت مبكر ، على أن يقدم صياغة جديدة للنحو العربي ، تيسر فهمه وتعليمه ؛ إيمانًا بأن فهم اللغة : قراءة وكتابة ، هو الخطوة الأولى لدراسة الأدب وتحقيق وجود الإنسان العربي ، وهو يؤكد هذه الرؤية قائلاً : " جميع البلاد العربية تشكو مر الشكوى من أن الناشئة فيها لا تحسن النحو ، أو بعبارة أخرى لا تحسن النطق بالعربية نطقًا سليمًا ، وكأنما أصيبت ألسنتها بشيء من الاعوجاج والانحراف ، جعلها لا تستطيع أداء العربية أداءً صحيحًا . ونخطيء خطئًا كبيرًا إذا ظننا أن شيئًا من ذلك أصاب ألسنة الناشئة في بلداننا العربية ، جعلها تعجز عن النطق السديد بالعربية ، وإنما مرجع هذا العجز أو القصور إلى النحو الذي يقدم إليها ، والذي يرهقها بكثرة أبوابه وتفريعاته وأبنيته وصيغة الافتراضية التي لا تجري في الاستعمال اللغوي . وهو – مع ذلك – يغفل شطرًا كبيرًا من تصاريف العربية وأدواتها وصياغاتها ، مما يجعل الناشئة لا تتبين كثيرًا من أوضاع اللغة ، واستعمالاتها الدقيقة .

والأمران جميعًا من قصور النحو التعليمي ، الذي يقدم للناشئة عن الإحاطة بصيغ العربية وأوضاعها ، ومن التوسع في صيغ واستعمالات افتراضية يحفزان الهمهم إلى تيسير النحو وتبسيطه ، ويتنادى كثيرون : دعونا من هذا التبسيط والتيسير ، كأن من يبغون ذلك ، يريدون إدًا من الأمر أو نكرًا ، وهم إنما يبغون الخير كل الخير ، حتى تحسن الناشئة نطق العربية لغة القرآن الكريم ، الذي أتاح لها عزة فوق عزة ، وسلطانًا على النفوس لا يماثله سلطان ، فضلاً عن أنها لغة العرب القومية التي لا يتم للعرب بدونها مجد ، أو كيان " (١) .

وعلى هذا يكون شوقي ضيف وفيًا لتخصصه العلمي في دراسة الأدب ، وفي الوقت نفسه يكون حريصًا على دراسة المواد المعينة له ، سواء اتصلت بالنقد الأدبي والبلاغة ، أو باللغة والنحو .

---

(١) شوقي ضيف : تيسير النحو التعليمي قديمًا وحديثًا . ط . دار المعارف – القاهرة ، الأولى ، ١٩٨٦ ، ص٣ .

رابعاً - الدراسات الإسلامية وتحقيق التراث :

المورد العذب وفير العطاء وهناك مجالات متنوعة في جهود شوقى ضيف آثرنا أن نجملها فى هذا المجال الكبير ... الذى يشمل دراساته الإسلامية وجهوده العلمية فى تحقيق بعض كتب التراث الإسلامى ، والأدبى ، والتاريخى . والكتب التى صدرت له فى هذا المجال ، هى :

١ - الرد على النحاة لابن مضاء القرطبى ، ١٩٤٧ .

٢ - رسائل الصاحب بن عباد (بالاشتراك) ، ١٩٤٧ .

٣ - خطط العروس فى تواريخ الخلفاء لابن حزم ، ١٩٥١ .

٤ - المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد (بالاشتراك) ، ١٩٥١ .

٥ - المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد (بالاشتراك) ، (قسم شعراء مصر) ، ١٩٥٣ .

٦ - الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر ، ١٩٦٦ .

٧ - سورة الرحمن وسُورَ قصار (عرض ودراسة) ، ١٩٧١ .

٨ - السبعة فى القراءات لابن مجاهد ، ١٩٧٢ .

٩ - فى التراث والشعر واللغة ، ١٩٨٧ .

١٠ - الوجيز فى تفسير القرآن الكريم ، ١٩٩٥ .

١١ - عالمية الإسلام ، ١٩٩٦ .

١٢ - الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة ، ١٩٩٨ .

١٣ – محمد خاتم المرسلين ، ٢٠٠٠ .

١٤ – القسم فى القرآن الكريم ، ٢٠٠١ .

١٥ – معجزات القرآن ، ٢٠٠٢ .

ويؤكد هذا المجال الأخير من جهود شوقى ضيف ، كيف أنه يعد بحق عالمًا موسوعيًا ، واسع العطاء ، متنوع الجهد ، وبرغم الوفاء العظيم لتخصصه الأول وهو " دراسة الأدب العربى القديم " ، فإنه أسهم فى دراسة كل عصور ذلك الأدب ، كما مد نشاطاته لكل ما يتصل به عن قرب – مثل البلاغة ، والنقد ، واللغة – أو بعد – مثل الدراسات القرآنية ، وتحقيق بعض الكتب الأدبية ، والتاريخية ، والدينية .

نصف قرن أو يزيد قضاه ذلك العالم الراهب فى محراب البحث والدراسة ، لم يترك القلم لحظة ، ولم يغادر مجالاً من مجالات التراث العربى الإسلامى الرحبة، إلا وحاول أن يسهم فيها بنصيب وافر .

إن شوقى ضيف يذكرنى إلى حد كبير بعالم مصرى جليل ظهر فى العصور الوسطى ، وهو جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى (٨٤٩ – ٩١١هـ) ، الذى ظل طوال عمره مشتغلاً بالتدريس والفتيا متفرغًا للعلم والتأليف ، وأستاذنا شوقى ضيف مثله عف كريم حليم ، صالح تقى ورع ، زاهد فى متاع الدنيا ، ووظائف الدولة ، لذلك لا نغالى حين نقول إن شوقى ضيف هو " سيوطى العصر الحديث " .

(١٢)

تلك هى الخطوط العامة لسيرة العالم ومسيرة الإنسان ، الأستاذ الجليل الدكتور شوقى ضيف ، لا أحسب أنى وفيتها قدر ما تستحق من البيان والتفصيل ؛ لأن سيرته العطرة ومسيرته العلمية الكبيرة تحتاج إلى دراسات خاصة ، تتوقف وقفة متأنية مفصلة ، عند كل مجال على حدة من المجالات الأربعة العامة ، التى أشرت إليها من قبل ، وحسبى أنى حاولت أن أقدم رؤية شاملة للسيرة والمسيرة ، آملاً أن أفتح المجال ، لمن بعدى لكى يكملوا الصورة ويواصلوا الدراسة .

إن شوقي ضيف – أستاذي بقدر ما هو أستاذ لأجيال عدة من الدراسين ، وأساتذة الجامعات العربية ، وله عليهم – كما له عليَّ – أفضال لا تُعد ولا تحصى ، والأمل أن تتوالى الدراسات والأبحاث ، التي تُقَيِّم جهد ذلك العالم الجليل والمربي الفاضل والإنسان الكامل ، الذي عندما أذكره أتذكر أبياتًا سمعتها لأول مرة منه ، وكانت – ولا تزال – تنطبق عليه ، وهي لزهير بن أبي سلمى ، يقول فيها :

وأبيضَ فيَّاضٍ يداه غمامةٌ ... على مُعتفيه ما تغبُّ نوافلهُ

تراه إذا ما جئْتَهُ مُتهللاً ... كأنك تُعطيهِ الذي أنتَ سائلهُ

إذا ما أتوا أبوابَه قال مَرحبًا ... لجوُا البابَ حتى يأتي الجوعَ قاتلهُ

ولو لم يكنْ في كفِّه غيرُ نفسه ... لجاد بها ، فليتَّقِ اللّهَ سائلهُ

* * *

وبعد .. فإن هذه الدراسة المختصرة شمعة صغيرة ، تحاول أن تضيء بحرًا من العطاء والتأليف ، وعلمًا شامخًا من أعلام عصرنا الحديث ... إنه العالم العظيم ، الذي أمد المكتبة العربية بمؤلفات ، تغطي كل مراحل الأدب العربي في القديم والحديث ، كما تمتد لتشمل كثيرًا من الزوايا البحثية التي تتصل بالأدب العربي من قريب أو بعيد .

إن شوقي ضيف مدرسة في إهاب أستاذ ، وأمة في جسد فرد ... أعطى ولا يزال يعطي حتى اليوم علمًا وفضلاً ، لكل من يلوذ به أو يلجأ إليه . وشوقي ضيف – كما يعلم كل من تتلمذ عليه أو عاصره – رجل عفيف نظيف ، لم يشغل نفسه إلا بالعلم وبناء العلماء ، ومن عجب أن قلبه الأبيض لم يعرف الحقد أو الضغينة ، ولم يحاول يومًا أن يسيء حتى إلى من أساء إليه ، ولم يطمع في منصب ، ولم يسع إلى وظيفة أو شهرة !! .

هذه بعض سمات أستاذ الأساتذة وآخر العلماء العظام – في عصر صار العلم فيه غريبا حتى عند معظم أهله – أرجو أن تكون في سيرتة الجليلة قدوة حسنة لمن يسيرون في طريق العلم الصعب ، الطويل سلمه .. !!

أ . د . طه وادي

ملاحق بالبحث

أولاً - الدكتور شوقي ضيف ... السيرة العلمية

المؤهلات العلمية :

- حصل على ليسانس الآداب سنة ١٩٣٥ وكان ترتيبه الأول في قسم اللغة العربية .

- نال درجة الماجستير بمرتبة الشرف الممتازة سنة ١٩٣٩ إشراف أحمد أمين ، وموضوعها : النقد الأدبي في كتاب الأغاني .

- حصل على درجة الدكتوراه في الآداب بمرتبة الشرف الممتازة سنة ١٩٤٢ . إشراف طه حسين ، وموضوعها : الفن ومذاهبه في الشعر العربي .

* * *

الوظائف :

- عُين محرراً بمجمع اللغة العربية عقب تخرجه سنة ١٩٣٥ .

- عين معيداً بقسم اللغة العربية في كلية الآداب - بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٦ .

- عين مدرساً بعد حصوله على درجة الدكتوراه سنة ١٩٤٢ .

- رُقي أستاذاً مساعداً سنة ١٩٤٨ .

- عين أستاذًا لكرسى آداب اللغة العربية فى قسمه سنة ١٩٥٦ ، ثم رئيسًا سنة ١٩٦٨ .

- عين أستاذًا غير متفرغ سنة ١٩٧٥ ، ثم تحول أستاذًا متفرغًا إلى الآن .

- عين عضوًا عاملاً فى مجمع اللغة العربية سنة ١٩٧٦ ، وانتخب أمينا عاما له سنة ١٩٨٨ .

- شَغل وظيفة نائب رئيس المجمع سنة ١٩٩٢ ... وانتخب رئيسًا للمجمع سنة ١٩٩٦ حتى الآن (٢٠٠٣) .

فى الجامعات العربية :

- دعته جامعة بيروت العربية أستاذًا زائرًا لمدة أسبوعين سنة ١٩٦٣ .
- دعته الجامعة الأردنية للمشاركة فى تأسيسها سنة ١٩٦٦ .
- دعته جامعة بغداد أستاذًا زائرًا لمدة أسبوعين سنة ١٩٦٨ .
- دعته جامعة الكويت للمشاركة فى التدريس سنة ١٩٧٠ .
- دعته جامعة الرياض لإلقاء محاضرة بها سنة ١٩٧٣ .

مجامع ومجالس مختلفة :

- رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة .
- عضو فى المجلس القومى للثقافة والفنون والآداب .
- عضو فى المجمع العلمى المصرى .
- عضو شرف فى مجمع اللغة العربية الأردنى .

- عضو فى المجمع العلمى العراقى .

- عضو فى الجمعية الجغرافية .

الجوائز :

نال جوائز مختلفة أهمها :

- جائزة الدولة التشجيعية فى الدراسات الأدبية ١٩٥٤ .
- جائزة الدولة التقديرة فى الآداب سنة ١٩٧٩ .
- جائزة الملك فيصل العالمية فى الأدب العربى سنة ١٩٨٣ .
- جائزة التقدم العلمى الكويتية سنة ١٩٨٨ .
- جائزة مبارك فى الآداب سنة ٢٠٠٣ .

النشاط الأدبى والعلمى :

يعمل الدكتور شوقى ضيف - منذ عشرات السنين - فى حقل الدراسات المتصلة بالأدب العربى وتاريخه على مرّ العصور من الجاهلية إلى العصر الحديث ، وقد تخرج على يديه عشرات من حملة الماجستير والدكتوراه فى مصر والعالم العربى ، فتح لهم الآفاق أمام موضوعات جديدة خدموا بها آداب اللغة العربية فى جوانبها المختلفة ، ويشغل كثيرون منهم الآن درجات الأستاذية فى الجامعات المصرية والعربية .

ومنذ سنوات طويلة يشارك د . شوقى ضيف بمقالاته فى المجلات الأدبية والعلمية فى مصر والبلدان العربية ، وهى أكثر من أن تحصى . ومنذ أصبح عضواً عاملاً فى مجمع اللغة العربية يمد مؤتمراته ولجانه بمحاضرات وبحوث لغوية متنوعة . أما فى مجال التأليف فله أكثر من خمسين كتاباً عرض فيها المذاهب الفنية للشعر

والنثر ، ودرس تاريخ الأدب العربي في مختلف عصوره وبيئاته ، والأدب العربي المعاصر في مصر وأعلامه من الشعراء والكتاب ، وخص ابن زيدون والبارودي وشوقي والعقاد بدراسات تحليلية ، مع نهج دقيق للبحث الأدبي ، بالإضافة إلى دراسات قرآنية ونقدية وبلاغية ونحوية تعمق الدراسات الأدبية ، مع تحقيقات لنصوص أدبية قيمة تفيد فوائد علمية محققة في دراسة الأدب العربي في بيئته الإقليمية وخاصة في مصر والأندلس ، مع تحقيق لكتاب القراءات السبعة لابن مجاهد وكتاب الدرر في السيرة النبوية .

***

ثانيًا - تعريف موجز بأهمّ المؤلفات

١ - **الفن ومذاهبه في الشعر العربي** (الطبعة الثانية عشرة - نشر دار المعارف بالقاهرة) .

عرض تاريخي تحليلي لصناعة الشعر العربي ومذاهبه الفنية من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث ، مع دراسة مفصلة لأهم أعلامه وشخصياته الأدبية عبر القرون والبيئات العربية المختلفة .

٢ - **الفن ومذاهبة في النثر العربي** (الطبعة الثانية عشرة - نشر دار المعارف) .

دراسة تاريخية تحليلية لصناعة النثر العربي ومذاهبه الفنية من الجاهلية إلى العصر الحديث ، مع عرض مفصل لأهم كُتَّابه وخصائصهم على أختلاف العصور والبيئات العربية .

٣ - **الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية** (الطبعة الرابعة - نشر دار المعارف) .

دراسة جامعة للصلات الوثيقة بين حركة الغناء في المدينتين المقدستين لعصر بني أمية وأثرها في لغة الشعر وأوزانه ، وما حدث فيها من تجزئات ، وما دفعت إليه من ظهور بعض الأوزان الجديدة .

٤ – التطور والتجديد فى الشعر الأموى (الطبعة العاشرة – نشر دار المعارف) .

يصحح هذا الكتاب ما شاع بين بعض الباحثين فى الأدب العربى من عرب ومستشرقين من أن الشعر الأموى صورة مطابقة للشعر الجاهلى ، مثبتًا ما حدث من تطور وتجديد واسعين فيه بعامل مثالية الإسلام الرفيعة وما تأثر الشعراء الأمويون به من مذاهب سياسية وثقافية وعقلية ومؤثرات حضارية متنوعة .

٥ – دراسات فى الشعر العربى المعاصر (الطبعة التاسعة – نشر دار المعارف) .

دراسات نقدية تحليلية لطائفة فذة من شعراء العرب المعاصرين فى مصر والعراق وسوريا ولبنان وتونس ، لتصوير مدى احتفاظهم بشخصية شعرنا العربى ومقوماته مع تمثلهم الدقيق للشعر الغربى ومذاهبه وأنماطه المختلفة .

٦ – شوقى شاعر العصر الحديث (الطبعه الثالثة عشرة – نشر دار المعارف) .

عرض تاريخى نقدى تحليلى لسيرة شوقى ومكونات صناعته الشعرية والتقاء تيارين : قديم وجديد فى شعره ، والمؤثرات المختلفة التى أثرت آثاراً عميقة فيه ، مع دراسة تحليلية مفصلة لمسرحياته ومقوماتها فى مأسية المصرية والعربية وملهاة الست هدى وخاتمة عن نثره . ونال عنه الجائزة التشجيعية سنة ١٩٥٤ .

٧ – ابن زيدون الشاعر الأندلسى (الطبعة الثانية عشرة – نشر دار المعارف) .

دراسة تحليلية لعصر ابن زيدون سياسياً واجتماعياً وفكرياً ، ولسيرته وما اضطرب فيه من حب وأحداث سياسية ، ومضامين ديوانه من غزل وغيره ، مع تحليل رسالتيه : الجدية والهزلية .

٨ – الأدب العربى المعاصر فى مصر (الطبعة العاشرة – نشر دار المعارف) .

تأريخ للأدب العربى المصرى المعاصر ، وبيان للمؤثرات العامة فيه ، ولحياة الشعر به ، وتطوره واتجاهاته المختلفة وما يتميز به من خصائص ، ولحياة النثر وتطوره ، والمعارك فيه بين الجديد والقديم ، وفنونه المستحدثة من المقالة والقصة والمسرحية ، مع

الترجمة لعشرة من أعلام الشعر وعشرة من أعلام الكتاب ورسم شخصياتهم وخصائصهم الأدبية . (مترجم إلى اللغة الصينية) .

٩ – الجزء الأول من تاريخ الأدب العربي : العصر الجاهلي (الطبعة الثامنة عشرة – نشر دار المعارف) .

يؤرخ هذا الجزء للعصر الجاهلي تأريخًا مفصلاً ، يصور جوانبه الزمنية والاجتماعية والاقتصادية والعقلية ، وتطور اللغة العربية إلى أن سادت اللهجة القرشية ، مع دراسة رواية الشعر الجاهلي ومصادره ومدى صحته والتوثق منه وخصائصه الغنائيه والموضوعية والمعنوية واللفظية ، مع إفراد فصول لامرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى ، وفصل لطوائف من الشعراء : الفرسان والصعاليك وغيرهما ، وفصل لصور من النثر الجاهلي : الأمثال والخطابة وسجع الكهان .

١٠ – في النقد الأدبي (الطبعة التاسعة – نشر دار المعارف) .

فصول في النقد الأدبي توضح تطور دراساته منذ نشأته وكيفية تحليله وتقويمه ورسم شخصياته وعناصر الشعر الموسيقية والتصويرية ، وتوضح *تلك الدراسة* مفهوم التجربة الشعرية وعناصرها والوحدة العضوية للقصيدة والأصالة والنموذج الفذ ، والصلة بين الأدب والحياة الاجتماعية ، وبينه وبين الصحافة والسينما ، والفروق بين الأدب والعلم ، وبين القصة والمسرحية . (مترجم إلى الفارسية) .

١١ – الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي : العصر الإسلامي (الطبعة الخامسة عشرة – نشر دار المعارف) .

تأريخ تحليلي واف للأدب العربي الإسلامي ، وهو موزع على بابين : باب خاص بعصر صدر الإسلام وتصوير قيم الدين الحنيف وتأثيرها في الشعر والشعراء وفي الخطابة والخطباء وإنشاء المعاهدات والرسائل ، وباب خاص بعصر بني أمية وتصوير جوانبه البيئيه والدينية والحضارية والثقافية والاقتصادية ، وما حدث من تطور في فنون الشعر واتجاهاته ، وفنون النثر الخطابية والكتابية ، مع الترجمة للأعلام الشعراء والخطباء والكتاب في ذلك العصر .

١٢ – البارودى رائد الشعر الحديث (الطبعة الخامسة – نشر دار المعارف) .

دراسة تحليلية لعصر البارودى وجوانبه السياسية والاجتماعية والفكرية والأدبية ، ولسيرته ومراحلها وما اختلف عليه من مؤثرات وراثية وثقافية وحربية ووطنية ، ولشعره والعناصر المكونة لشاعريته ومنزلته الشعرية ، وكيف استأنف للشعر العربى الحديث – من خلال إبداعه – حياته الخصبة مما يجعله بحق رائده الذى حمل شعلته إلى الأجيال التالية مهما اختلفت اتجاهاتها بين التقليد والتجديد .

١٣ – العقاد (الطبعة الخامسة – نشر دار المعارف) .

دراسة جامعة لسيرة العقاد ، وما اختلف عليه من مؤثرات ، وما امتازت به شخصيته من مقومات ، ولاشتغاله مبكراً بالصحافة ، وعمله الخصب فى تطور أدبنا العربى فى ضوء الآداب الغربية ، وعرض لمقالاته مؤلفاته وعبقرياته ، وقصته : سارة ومدى ترسيخه لأسس مستحدثة فى النقد العربى ، ونفوذه إلى صورة جديدة لشعرنا المصرى ، مع تحليل ثمانية من دواوينه .

١٤ – البلاغة : تطوّر وتاريخ (الطبعة التاسعة – نشر دار المعارف) .

يؤرخ هذا الكتاب للبلاغة العربية على مر العصور منذ نشأتها وتطورها إلى مرحلة جديدة من النمو ، ثم مرحلة الأزدهار الخصب وتحوله منها إلى الذبول ، مع الوصل الوثيق بين تطور البلاغة وتطور الأدب العربى ، ومع الدرس الدقيق لأعلامها ومصنفاتهم ، وما يميز كل مصنف بلاغى وسابقه ولاحقه من ضروب تأثر وتأثير فى الأصول والفروع والقضايا البلاغية .

١٥ – الجزء الثالث من تاريخ الأدب العربى : العصر العباسى الأول (الطبعة الثالثة عشرة – نشر دار المعارف) .

يؤرخ هذا الجزء للأدب العربى فى العصر العباسى الأول مستقصياً فيه لجوانب الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية ، وما حدث فى العصر من ترجمة الثقافات الأجنبية ونشاط الحركة العلمية ووضع العلوم اللغوية والدينية والكلامية والتاريخ ، مع بسط القول فى ازدهار الشعر العربى حينئذ ، وما حدث من تجديد فى موضوعاته

القديمة وفى أوزانه وقوافيه واستحداث موضوعات جديدة ، ودراسة أعلامه النابهين من شعرائه موزعين على أغراض مختلفة ، مع دراسة مفصلة للنثر وما حدث فيه من تطور ، ولأعلامه وما أنتجوا من آثار أدبية .

١٦ – المدارس النحوية (الطبعة السابعة – نشر دار المعارف) .

يعرض هذا الكتاب – لأول مرة – المدارس النحوية المختلفة من بصرية وكوفية وبغدادية وأندلسية ومصرية موضحًا – فى تفصيل – نشأتها ونموها وتطورها ومناهجها ومذاهبها ودقائق الآراء لأئمة النحو ، مع تصحيح كثير من الأفكار الشائعة ، فليس أبو الأسود الدؤلى الواضع الأول لقواعد النحو ، والخليل بن أحمد – لا سيبويه – هو الذى أعطى النحو صيغته النهائية ، وأبو على الفارسى وابن جنى بغداديان لا بصريان ، إلى غير ذلك من تصحيحات ، ويُقدِّم مع كل تصحيح أدلته وبراهينه .

١٧ – سورة الرحمن وسور قصار : عرض ودراسة (الطبعة الرابعة – نشر دار المعارف) .

عرض ودراسة لسورة الرحمن وتسع سور قصار وبيان ما تتضمنه آياتها الكريمة – مقرونة إلى آيات القرآن الكريم – من وحدانية الله وعظمته وجلاله ورحمته الربانية ونعمه العظيمة فى الدنيا والآخرة ، وأيضًا من الإيمان بالأنبياء والرسل والملائكة والجن والشياطين والمعاد والبعث بالأجساد والثواب والعقاب ، وما فرضه الإسلام من التكافل الاجتماعى ، مع تحرير العقول من الخرافات ودفعها لكشف قوانين الوجود وأسراره ، مع السمو بالإنسان فى مراقى الكمال الروحى .

١٨ – فصول فى الشعر ونقده (الطبعة الثالثة – نشر دار المعارف) .

دراسة نقدية تحليلية فى الشعر تتناول تقويم تراثه وتطور موسيقاه على مر العصور ، وتجديد الشعراء العباسيين لمضمونه وإطاره وشخصية الأندلس فى تاريخه ، وصناعته فى القرن الماضى ، واتجاهاته فى العصر الحديث ، ونواقص الإيقاع فى الشعر الحر الجديد ، وجوانب عند بعض أعلامه مثل العروبة عند المتنبى ، والتفكير

الفلسفى فى شعر أبى العلاء ، والروح المصرية عند ابن سناء الملك ، والمجاهدات الروحية عند ابن الفارض ، والحقيقة المحمدية عند البوصيرى ، ومنزلة شوقى فى الشعر الحديث ، ودراسة شعر حافظ دراسة تاريخية .

١٩ – *الجزء الرابع من تاريخ الأدب العربى – العصر العباسى الثانى* (الطبعة العاشرة – نشر دار المعارف) .

يؤرخ *هذا الجزء للأدب العربى فى العصر العباسى الثانى* ، مستقصياً فيه *الحياة* السياسية والإجتماعية ، والحركة العلمية وما حدث فيها من ازدهار علوم الأوائل بالمشاركة فيها والتفلسف والعلوم اللغوية والبلاغية والنقدية والدينية وكتابة التاريخ . مع دراسة تحليلية نقدية للشعر حينئذ وما حدث من تجديد فى موضوعاته القديمة ونمو فى موضوعاته المستحدثة وفى الشعر التعليمى ، وعرض تاريخ أهم أعلامة والنابهين من شعرائه موزعين على أغراضه المختلفة ، مع دراسة تحليلية مفصلة للنثر وما حدث فيه من تطور واسع ولأعلامه وما أنتجوا من آثار أدبية .

٢٠ – *البحث الأدبى : طبيعته – مناهجه – أصوله – مصادره* (الطبعة السابعة – نشر دار المعارف) .

دراسة تحليلية لطبيعة البحث الأدبى وقيامه على الاستقراء والاستنباط ودقة التفسير والتذوق والتحليل والعرض والأداء ، وأيضاً لمناهج البحث قديماً وحديثاً وتأثرها بالعلوم والدراسات الاجتماعية والبحوث النفسية والفلسفة الجمالية والدراسات الذاتية فيه والموضوعية مع البحث فى الأصول وما ينبغى لها من توثيق وتحقيق ، مع الإفادة من استخدام القدماء والمحدثين للمصادر ، ومع الدقة فى وضع الملحوظات والهوامش والحواشى .

٢١ – الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربى : عصر الدول والإمارات (١) – الجزيرة العربية – العراق – إيران (الطبعة الرابعة – نشر دار المعارف) .

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربى خاص بالجزيرة العربية والعراق وإيران فى عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث ، وقد استهل

بالحديث عن الجزيرة العربية وأقاليمها سياسيًا واجتماعيًا ، وما شاع فيها على مر الزمن من التشيع والدعوة الإباضية والدعوة الوهابية والزهد والتصوف ، وما كان هناك من نشاط عقلى متصل بعلوم الأوائل وعلم الملاحة البحرية وعلوم اللغة والبلاغة والنقد والعلوم الدينية وكتابة التاريخ ، مع تصوير دقيق لنشاط الشعراء فى أقاليم الجزيرة والترجمة لأعلامهم النابهين فى أغراض الشعر ودعواتهم المذهبية المختلفة . ثم بسط الكتاب القول فى أحوال العراق سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا على شاكلة ما صنع بالجزيرة العربية ، وأفاض فى عرض نشاط الشعر والشعراء من مادحين ومتفلسفين وشعبيين ، وأيضًا فى عرض النثر وأعلام كتابه من مثل التوحيدى والحريرى . وانتقل إلى إيران فتحدث سياسيًا عن دولها المتقابلة والمتعاقبة ومجتمعها وسريان التشيع فيه والزهد والتصوف ، كما تحدث عن الحركات العلمية بها وازدهارها وازدهار الحركة الفلسفية ونشاط الشعر والشعراء فيها موزعًا لأعلامهم على أغراض الشعر المختلفة ، ونشاط النثر بها وأعلامه مثل ابن العميد وبديع الزمان .

٢٢ – الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور (الطبعة الثانية – نشر دار المعارف) .

يصحح هذا الكتاب الرأى المخطئ الذى يزعم أصحابه أن شعراء العربية كانوا بمعزل عن شعوبهم ، فهم يختصون بأشعارهم الطبقة العليا فى المجتمع فحسب ابتغاء الكسب . والكتاب يثبت – فى ضوح تام – أن الشعراء ظلوا من الجاهلية إلى العصر الحديث يتغنون بمشاعر شعوبهم وأحاسيسها المختلفة مصورين دائمًا ما ألمَّ بها من محن وخطوب ومن رخاء وابتهاج مهما اختلفت الحقب والأزمان وتفاوتت الأقطار والبلدان .

٢٣ – الجزء السادس من تاريخ الأدب العربى : عصر الدول والإمارات (٢) الشام (الطبعة الثالثة – نشر دار المعارف) .

يؤرخ هذا الجزء للأدب العربى فى الشام فيعرضها سياسيًا واجتماعيًا ملاحظًا كثرة الفرق الدينية فيها وما كان يسرى هناك من الزهد والتصوف ، ويتحدث عن نشاط الشعر بها وكيف فسح الشعراء فيها – مثل شعراء مصر – للشعر الدورى والرباعيات

والموشحات ، ويترجم لأعلام الشعر النابهين موزعين على أغراضه المختلفة ، كما يدرس نشاط النثر هناك وأعلام الكتّاب وما صاغوه من مواعظ ورسائل بديعة مثل : الفصول والغايات ورسالة الغفران لأبى العلاء .

٢٤ – **الجزء السابع من تاريخ الأدب العربي : عصر الدول والإمارات (٣) مصر** (الطبعة الثالثة – نشر دار المعارف) .

هذا الجزء يؤرخ للأدب العربى فى مصر بعرض حياتها السياسية على مر الحقب إلى العصر الحديث ، وكيف تطورت من ولاية أموية وعباسية إلى دولة ذات كيان قوى ، فحاضرة للخلفاء الفاطميين ، ثم الأيوبيين ، والمماليك ، إلى أن دهمها الغزو العثمانى ، وبكرت فى تأسيس حركتها العلمية مما جعل المغرب والأندلس يحملان عنها قراءة ورش ومذهب مالك فى الفقه ، وتنجب ذا النون مؤسس التصوف الإسلامى ، وتزدهر فيها حركة علمية نشطة ، ويبرز أعلام فى علوم الأوائل وعلوم اللغة والدين وكتابة التاريخ ، وينشط الشعر نشاطًا واسعًا . ويترجم هذا الجزء لشعراء كثيرين فى أغراض الشعر المختلفة ، كما ينشط النثر وكتابه ، وتكثر فيه كتب النوادر والسير والقصص الشعبية .

٢٥ – **المقامة** (الطبعة السابعة – نشر دار المعارف) .

عرضت هذه الدراسة تطورَ فن المقامة منذُ نشأتها على يد بديع الزمان الهمذانى إلى العصر الحديث ، مقدمة لذلك بحديث عن خصائص القصة فيها ، وعن انتقالها إلى الآداب الإسبانية ، ثم أخذت الدراسة تصور خصائصها وصفاتها فى الموضوع والأسلوب عند منشئها بديع الزمان ، وكيف انتهى بها الحريرى إلى القمة المنشودة ، مع عرض ما تلاه من مقامات حتى زمن اليازجى ومقاماته .

٢٦ – **الترجمة الشخصية** (الطبعة الرابعة – نشر دار المعارف) .

عرف العرب فى العصر العباسى أن من فلاسفة اليونان من ترجم لنفسه ترجمه شخصية أو ذاتية مثل جالينوس الفيلسوف والطبيب اليونانى المشهور وعرفوا أن من ملوك الأمم الأجنبية من عنى بالترجمة لنفسه مثل كسرى أنوشروان الذى ألف كتابًا

فى سيرته وأعماله . وكان لهذه المعرفة أثرها فى أن متفلسفة العرب من مثل ابن سينا أخذوا يُعْنَون بالترجمة لحياتهم ، وتبعهم فى ذلك العلماء من مثل ابن الجوزى ، والمتصوفة من مثل الغزالى ، ورجال السياسة من مثل ابن خلدون ، حتى إذا كنا فى العصر الحديث واطلع أدباؤنا على عناية الغربيين بكتابة سيرتهم أخذوا يحاكونهم على نحو ما نرى عند طه حسين فى كتابه الأيام .

٢٧ – الرحلات (الطبعة الرابعة – نشر دار المعارف) .

من قديم الزمان تعنى الأمم والأفراد بالرحلات ، تلقانا أسماء رحالة مختلفين عند الإغريق والرومان دونوا رحلاتهم ، ويكثر رحّالة العرب منذ فتحوا العالم القديم وسيطروا على الأرض من الصين والهند إلى جبال البرينيه على حدود فرنسا لحاجة الدولة جغرافيا للتعرف على الطرق التى تصلها بأقاليمها ، ولغرض التجارة عن طريق البر والبحر ، وللمتعة بمشاهدة البلدان وشعوبها المختلفة . وتلقانا عند العرب رحلات جغرافية متعددة للإدريسى وغيره ، ورحلات بحرية لبزرك بن شهريار وأمثاله ، ورحلة الفتية المغررين فى المحيط الأطلسى مشهورة ، كما تلقانا رحلات فى الأمم والبلدان من مثل رحلة أبى حامد الأندلسى فى شرقى أوربا . والكتاب يعرض ذلك كله عرضا مفصلاً ، كما يعرض لرحلة ابن جبير ، ورحلة ابن بطوطة إلى بلاد المغول والهند والصين والسودان .

٢٨ – النقد (الطبعة الخامسة – نشر دار المعارف) .

عرض مجمل للنقد العربى وتطوره فى العصور السابقة ، تناول نشأته فى العصرين الجاهلى والإسلامى ، ونموه فى العصر العباسى ومدى اشتراك : الأدباء واللغويين والمتكلمين فيه مما نرى أثره فى كتابه البديع لابن المعتز ، ويضع قدامة على ضوء النقد اليونانى كتابه نقد الشعر ، ويضع معاصر له كتاب نقد النثر ، وتوضع كتب فى النقد المقارن بين الشعراء ، ويضع عبد القاهر كتابه دلائل الإعجاز . ويجمد النقد منذ السكاكى وكتابه " مفتاح العلوم " ويلخصه القزوينى ، وتتكاثر قصائد البديعيات التى تحصى ألوان البديع ومحسناته .

٢٩ – **الرثاء** (الطبعة الرابعة – نشر دار المعارف) .

تحتفظ العربية بتراث ضخم من المراثي ، وتتخذ ثلاثة صور ، هي : الندب والتأبين والعـزاء ، والندب بكاء الأهـل والأقـارب حـين ينـزل بـهـم الموت ومن ينزلـون منزلتـهم على نحـو مـا هو معروف عن مراثي الشيعـة للإمام الحسين ، وعن بكاء الأوطان حين تسقط في أيدي الأعداء . والتأبين ثناء على الشخصيات الفذة في الجماعة حين تتوفى ، والشـاعر يصـور فـيه مـدى خسـارة الجـمـاعـة لهـا ويسـجل فضـائلها وخـصالها الكريمة . والعزاء دعوة إلى الصبر على المصاب وبيان أن الموت غاية كل حي وأن الدنيا دار زوال وفنـاء . وكل صـورة من هـذه الصـور تعـرض طـرائف الأشـعـار فيـهـا على مر التاريخ .

٣٠ – **البطولة في الشعر العربي** (الطبعة الثانية – نشر دار المعارف) .

يتناول هذا الكتـاب تعـبير شـعراء العـرب منذ الجـاهليـة إلى اليـوم عن البطولة ، وكيف أذكى الإسلام جذوتها في نفوس العرب على مر التـاريخ ، ففـتحـوا أكثر أجزاء العـالم القديم ، وانتصروا على الفرس والبيزنطيين ، وامتد سلطانهم من أواسط الهند وأبواب الصين شرقًا إلى جبال البرينيه في شمال إسبانيا غربًا ، ونازلوا حملة الصليب حين نزلوا الشام والموصل منازلات ضارية حتى فروا إلى البحر المتوسط وما وراءه ، ومزّقوا جـمـوع المغول تمزيقًا ، ومـازالوا يقـاومـون حديثًا الدول الاسـتـعمـارية حتى استردوا حرياتهم واستقلالهم . والشعراء على مر هذه المعارك وطوال التاريخ كانوا يمجدون بطولة العرب ويوقدون نفوسهم حمية وحماسة .

٣١ – **تجديد النحو** (الطبعة الرابعة – نشر دار المعارف) .

هذا الكتاب تصنيف جديد للنحو العربي يقوم على ستة أسس هي تنسيق أبوابه ، بحيث يُسْتغنَى عن طائفة منها برد أمثلتها إلى الأبواب الباقية ، حتى لا يتشتت فكر الناشئة في كثرة من الأبواب دون حاجة . والأساس الثاني إلغاء الإعراب التقديري في المفردات والمحلي في الجمل . والأساس الثالث أن لا تعرب كلمة لا يفيد إعرابها في صحة النطق أي فائدة . والأساس الرابع وضع تعريفات وضوابط دقيقة لبعض الأبواب

الصعبة تيسر فهمها للناشئة . والأساس الخامس حذف زوائد كثيرة تشتمل عليها كتب النحو دون حاجة حقيقية لها ، وخاصة ما اتصل منها بالصيغ الشاذة والألفاظ المعقدة . والأساس السادس زيادة إضافات لأبواب ودقائق فرعية لتمثل الصياغة العربية وأوضاعها تمثلاً دقيقًا .

٣٢ – تيسير النحو التعليمي قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده (الطبعة الثانية – نشر دار المعارف) .

يصور هذا الكتاب كيف أن تيسير النحو التعليمي للناشئة كان مطلبا لأئمة النحاة منذ الكسائي ومن بعده إلى العصر الحديث . وذكر الكتاب مما وضعوه لهذه الغاية – عبر القرون الماضية – ثلاثين مختصراً ، وأضاف إليها دعوة ابن مضاء إلى تيسير النحو بتخليصه من التقديرات الإعرابية ومن العلل والتمارين الافتراضية . وعَرَض المحاولات العصرية فى تيسيره منذ رفاعة الطهطاوى ، وأتبعها بحديث عن منهج كتاب تجديد النحو وأسسة الستة السالفة التى تخلصه من أبوابه الفرعية وما لا حاجة بالنطق إلى إعرابه وزوائده وتعقيداته العسرة ، مع استكمال نواقص ضرورية فى قواعده ، حتى تسيغ الناشئة الصياغة العربية ، ولا تجد فى تمثلها مشقة أو صعوبة .

٣٣ – فى التراث والشعر واللغة (الطبعة الأولى – نشر دار المعارف) .

يتناول هذا الكتاب ثلاثة موضوعات : أولها التراث ، وفيه يتحدث عن وحدة التراث الدينى والعلمى والأدبى ، وإحياء التراث فى عصر المماليك وتجديده ، وما يدور من معارك بين أنصاره وخصومه . والموضوع الثانى الشعر ، وفيه يتحدث عن الوضوح والغموض في الشعر ، وماهيته وعناصره ، وعلاقته بالفنون ، والقديم والجديد ، والعروبة فى شعر أبى تمام ، والإيقاع الموسيقى فى شعر ابن زيدون ، وحافظ وشوقى وزعامة مصر الأدبية ، وصلاح عبد الصبور والشعر الحر ، والموضوع الثالث اللغة ، وفيه يتحدث عن الفصحى المعاصرة ، ولغة المسرح بين العامية والفصحى ، واللغة بين الكلمتين المسموعة والمقروءة .

٢٤ – الفكاهة فى مصر (الطبعة الثانية – نشر دار المعارف) .

يتميز المصريون من قديم بروح الفكاهة ، والكتاب يعرضها من عصر الفراعنة ورسومهم المضحكة ، حتى إذا حكم مصر البطالمة وقياصرة روما نبزوهم بكثير من الألقاب الساخرة .

ويصور الكتاب شيوع روح الفكاهة على ألسنة الشعراء وغيرهم منذ العصور الإسلامية الأولى وفى العصر الفاطمى ، كما يصورها فى كتب فكهة مثل كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش لعصر صلاح الدين ، وقصص خيال الظل لابن دانيال ، ومضحك العبوس لابن سودون فى عصر المماليك ، وهز القحوف للشربينى فى العصر العثمانى . ويعرض الكتاب كثيراً من أمثلة الفكاهة فى العصر الحديث سواء فى المجلات الهزلية أو فى الأزجال أو الكتابات ؛ وخاصة على ألسنة عبد الله نديم والشيخ البشرى ، وحافظ إبراهيم ، وبيرم التونسى ، وإبراهيم المازنى .

٢٥ – الجزء الثامن من تاريخ الأدب العربى فى عصر الدول والإمارات (٤) : الأندلس (الطبعة الثانية – نشر دار المعارف) .

هذا الجزء يؤرخ للأدب العربى فى الأندلس بادئًا بتاريخها السياسى منذ فتحها العرب فى أواخر القرن الأول الهجرى إلى أن خرجوا فى أواخر القرن التاسع ، مع عرض لتكوين مجتمعها وظواهره ، ومكانة المرأة فيه ، وما تسلل إليه من تشيع وسرى فيه من زهد وتصوف . ويصور الجزء الدور الحضارى للأندلس وإضافاتها الباهرة فى الفلسفة وعلوم الأوائل وخاصة الطب والعلوم اللغوية والدينية . ويتحدث عن نشاط الشعر والشعراء هناك مستهلاً ذلك ببيان تعرب سكان الأندلس جميعًا ، ويفيض فى الحديث عن كثرة الشعراء وابتكارهم لفن الموشحات مثبتًا أنه فن عربى خالص ، ويترجم لكبار الوشّاحين فى الأندلس وللنابهين من شعراء المديح والفخر والهجاء والشعر التعليمى ، وبالمثل لشعراء الغزل ووصف الطبيعة والخمر والرثاء للأفراد والدول ، والزهد والتصوف والمديح النبوى مع بعض ما نظموا من استصراخ العرب

لنجدتهم ضد حملة الصليب . ويعرض الجزء روائع الأندلسيين من الرسائل الديوانية والشخصية ورسائلهم الأدبية البديعة مثل رسالة (التوابع والزوابع) لابن شهيد مثبتاً أنه استلهم فيها مقامة لبديع الزمان الهمذانى ، ومثل رسائل ابن برد الأدبية فى (المناظرة بين السيف والقلم) وفى تصوير بخيل شحيح وفى تفضيل جلود الشياه على البسط ، ومثل الرسالتين : (الجدية) و (الهزلية) لابن زيدون .

ويتحدث هذا الجزء عن بعض الأعمال النثرية الرائعة مثل كتاب المقتبس لابن حيان ، والذخيرة لابن بسام ، ومذكرات عبد الله بن بلقين أمير غرناطة ، وقصة حى بن يقظان الفريدة ، والمقامات اللزومية للسرقسطي ، ورحلات الأندلسيين ،

٣٦ - تيسيرات لغوية (الطبعة الأولى - نشر دار المعارف) .

كتاب موزع على ثلاثة أقسام : قسم يصحح بعض القواعد من مثل تبادل اللزوم والتعدى فى الفعل الثلاثى الواحد ، واستغناء الفعل الثلاثى المبنى للمعلوم بمادته عن الفاعل ، واستغناء الفعل المبنى للمجهول بمادته عن نائب الفاعل . وقسم ثان يصحح صيغًا يظن أنها مخطئة مثل مجىء الفعل الماضى مع (مَهْمَا) ، واستخدام (بَيْنَما) بين جملتين لا فى صدرهما ، وإضافة (حيث) إلى المفرد ، وجواز حذف المعطوف عليه مع (حتى) . وقسم ثالث يسوّغ بعض ألفاظ عامية مثبتا أنها فصيحة مثل الإمضاء - الإجازة (العطلة) - التحوير - التسول - الدردحة - الفرجة - القفش .

٣٧ - معى (١) (الطبعة الثانية - نشر دار المعارف) .

الجزء الأول من سيرة المؤلف ، ابتدأها بوصف القرية فى الريف المصرى وحياة الناس فيها ، ثم تحدث عن أسرته ونشأته فى صباه ، مع وصف مشاهد الريف والحياة فى أركانه ، وتلقيها عن الجدات والأمهات ، وانتماءات القرويين إلى الهلالية والطرق الصوفية ، ويفيض فى تعلمه بمدرسة قريته الأولية ، وفى المعهد الدينى ، وفى تجهيزية دار العلوم وفى كلية الآداب بجامعة القاهرة إلى أن حصل على درجة الدكتوراة ، وهو فى أثناء ذلك يصور الحياة السياسية وما اضطرب فيه الوطن لأيامه من أحداث مع مقارنات بين التعليم فى الأزهر والجامعة .

٣٨ - معى (٢) (الطبعة الأولى - نشر دار المعارف) .

يصور المؤلف فى هذا الجزء الثانى من سيرته مرحلة اشتغاله بالتدريس فى قسم اللغة العربية بكليته وما انعقد بينه وبين أساتذته وتلامذته من صداقة ، ويلم من حين إلى حين بالأحداث السياسية الكبرى . ويُختار فى مجموعة لزيارة رومانيا وروسيا ، ويصف كل ما شاهده فى الدولتين من معاهد تعليمية وأفلام سينمائية ومسرحيات . ويشارك فى تأسيس جامعة الأردن وجامعة الكويت ، ويزور لندن ويشاهد متاحفها الكثيرة ، ويزور أسكتلندة وبحيراتها . كما يزور الرباط وإسبانيا ويَتَجوّل فى مُدن الأندلس . ويزور ألمانيا وسويسرا وإستانبول ، وهو فى كل هذه الرحلات يصف المشاهد والمتاحف مع نثر بعض أفكاره وخواطره .

٣٩ - الجزء التاسع من تاريخ الأدب العربى فى عصر الدول والإمارات : ليبيا - تونس - صقلية (الطبعة الأولى - نشر دار المعارف) .

يختص هذا الجزء بتاريخ الأدب العربى فى ليبيا وتونس وصقلية ، ويبدأ بالحديث عن ليبيا وجغرافيتها وتجاراتها وتاريخها القديم وفتح العرب لها وتوالى الولاة عليها وحكامها على مر التاريخ ، وما كان ينتشر فيها من الكتاتيب وحلقات الشيوخ فى المساجد ، والحركة العلمية فيها والحركة الأدبية وأهم شعرائها على مر الزمن . ويتحدث هذا الجزء أيضاً عن إفريقية التونسية وجغرافيتها وتاريخها القديم وفتح العرب لها ، وولاتها ودولها المتعاقبة ومجتمعها وتعربه وما كان بها من زهد وطرق صوفية ، وكيف تحولت سريعا إلى أهم مركز فى المغرب جميعه للثقافة اللغوية والدينية والعلمية وخاصة فى الطب . ويتحدث بالتفصيل عن ازدهار الشعر بها وكثرة شعرائها ورقى الكتابة الأدبية بها ، أهم كتابها النابهين . كما يتحدث عن صقلية وحكامها فى العهدين العربى والنورمانى ومجتمعها ونشاط الحركة العلمية بها ، وازدهار الشعر فيها وكثرة شعرائها وازدهار الكتابة الأدبية بها وأهم كتابها فى العهدين العربى والنورمانى .

٤٠ - الوجيز في تفسير القرآن الكريم (الطبعة الأولى - نشر دار المعارف ١٩٩٥) .

تفسير للقرآن الكريم بأسلوب سهل مبسط ، مستخلص من كتب أئمة التفسير وأقطابه ، مع البعد عن المصطلحات الفنية التى قد تدخل عليه شيئًا من صعوبة الفهم ، وبالمثل البعد عن التفسيرات المذهبية ، وخاصة الشيعية والصوفية ، والبعد عن الإسرائيليات المقحمة فى بعض التفاسير ، مع الإيجاز المحكم والاستيعاب الدقيق لمعانى ألفاظ القرآن ، ومع التمثيل لآياته المعجزة ودلالاتها الباهرة .

٤١ - تحريفات العامية للفصحى في القواعد والبنيات والحروف والحركات (الطبعة الثانية - نشر دار المعارف) .

يوضح هذا الكتاب - فى تفصيل دقيق - بعض تحريفات العامية المصرية لقواعد العربية وبنياتها سواء فى هيآت التعبيرات أو فى نحتها ، وبالمثل يوضح التحريفات فى حروف الكلمات وحركاتها ، مع فهرس كامل للألفاظ العامية المحرفة فى الكتاب ومعها الصواب تيسيرا على القارئ فى تبين النطق السليم للكلمات التى دخلها التحريف .

٤٢ - الجزء العاشر من موسوعة تاريخ الأدب العربي : الجزائر - المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان (نشر دار المعارف) .

يعرض هذا الجزء تاريخ كل بلد من البلدان المذكورة ، ومجتمعها وسكانه ومعيشته وما به من عقائد دينية وتصوف ، والثقافة فيه والحركة العلمية ، وأهم العلماء فى علوم الأوائل والعلوم اللغوية والبلاغية والدينية مع دراسات تفصيلية عن تعربه وعن الشعر فيه وأعلام الشعراء فى الموضوعات المختلفة وعن الكتابة وكبار الكتّاب .

٤٣ - عالمية الإسلام : كتاب يشتمل على مجموعة من الدراسات الدينية مثل : فى القرآن والحديث ، الحرية الدينية ، التعايش مع كل الملل ، التعايش الفكرى ، عقلانية الإسلام ، معانقة الإسلام للعلم ، العدل ، المساواة ، التسامح ، ترابط الأسرة ، السلوك القويم . (مترجم إلى الفرنسية والإنجليزية والصينية) .

٤٤ - محمد خاتم المرسلين (٢٠٠٠) : كتاب يعرض لسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ويترجم لحياته من البدء حتى الوفاة . ويعرض لكل مرحلة عرضًا تاريخيًا - ودينيًا مفصلاً مع بعض الوقفات المهمة عن حياة الرسول والإسلام والحضارة الإسلامية .

٤٥ - القسم فى القرآن الكريم (٢٠٠١) : يتناول فى الفصليْن الأول والثانى المباحث التالية : الذات العلية (الله) - الرسول - الملائكة - القرآن - الظواهر الكونية التى أقسم بها الله . وفى الباب الثانى يتناول المقسم عليه وأحوال الناس والإنسان والمعاد (البعث) . فالكتاب يدور كله حول موضوع خاص من موضوعات القرآن الكريم .

٤٦ - معجزات القرآن (٢٠٠٢) : كتاب يعرض للمعجزات الحسية والمعنوية التى أيّد بها الله رسله ، والأساليب البلاغية التى عبَّرت عن هذه المعجزات فى القرآن الكريم .

***

أهم التحقيقات :

١ - كتاب الرد على النحاة لابن مُضَاء القرطبى (الطبعة الثالثة - نشر دار المعارف) .

كتاب دعا فيه ابن مضاء إلى إلغاء نظرية العامل فى النحو العربى وما يترتب عليها من تقديرات لمحذوفات ومن علل وتمارين افتراضية ومن صياغات لم ينطق بها العرب . ولكى يبرهن على ذلك درس بابى التنازع والاشتغال ليدل على أن صيغتهما من افتراضات النحاة ، كما درس باب فاء السببية وواو المعية ؛ ليدل على أنهم لا يفقهون فى رأيه فقها حسنًا أساليب العرب . وقدم المحقق للكتاب بمدخل طبق فيه نظرية ابن مضاء على أبواب النحو العربى بقصد تيسيره على الناشئة .

٢ - المغرب في حلى المغرب لابن سعيد - قسم الأندلس - مجلدان (الطبعة الرابعة - نشر دار المعارف) .

كانت مخطوطة هذا القسم الأندلسي قد سقط كثير من أوراقها ، واضطربت بقية الأوراق اضطراباً شديداً في غير نظام مع ما دخل على بعضها من محو أو تآكل ، واستطاع المحقق أن يرد ما بقي من الأوراق إلى نسقها الأصلي الذي وضعت على أساسه ، وأن ينشرها في مجلدين عارضهما على أصولهما وفروعهما وكل ما أمكنه من كتب التراجم الأندلسية وغير الأندلسية ... والمجلدات قيمان لما يحملان من نصوص أدبية بديعة من شعر الأندلس وموشحاتها وأزجالها ، فضلاً عن أنه يترجم لأكثر من خمسمائة شاعر أندلسي ووشاح وزجال ، مع ما يستشهد به من روائعهم جميعاً .

٣ - كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد (الطبعة الثالثة - نشر دار المعارف) .

مؤلف هذا الكتاب " ابن مجاهد " أكبر قراء بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، اختار فيه - نضر الله وجهه في آخرته - سبع قراءات لكبار القراء في القرن الثاني الهجري وانتشرت عنه في العالم الإسلامي إلى اليوم . وقد وضع بين يدي الكتاب عرضاً لأئمة القراء السبعة وأنسابهم وأساتذتهم وتلامذتهم : نافع ، وابن كثير ، وعاصم ، وحمزه ، والكسائي ، وأبي عمرو بن العلاء ، وابن عامر . وتلا ذلك بأسانيد قراءاته عن السبعة . ثم أخذ في عرض القراءات لألفاظ سور القرآن الكريم بادئا بفاتحة الكتاب ، وفي كل لفظة يذكر قراءات السبعة لها أول الذكر الحكيم إلى آخره . وفي أثناء عرضه الرائع لذلك يتحدث عن الأصول في القراءات واختلاف القراء السبعة فيها من مثل الإدغام وهاء الكناية والمد والقصر . والآيات الكريمة في الكتاب بالخط العثماني ، وكل آيه وردتْ في تعليقات ابن مجاهد ذكر رقمها في صورتها ، والكلمات في الكتابة مضبوطة ضبطاً تاماً .

٤ – الدُّرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر (الطبعة الثالثة – نشر دار المعارف) .

كتاب فى السير النبوية لأكبر حفاظ الأندلس وفقهائه : " ابن عبد البر النمرى " . وهو يذكر فى مقدمته مصادره ، وقد أفضت فى المقدمة الأولى للكتاب فى الحديث عن المؤلف ومصنفاته وعن توثيق الكتاب وقيمته مع المقارنة بينه وبين كتاب (جوامع السيرة النبوية) لابن حزم ، ملاحظا التطابق بين الكتابين فى الآراء وسرد الأعلام ، كما لاحظت نقولا كثيرة عنه فى سيرة ابن سيد الناس . وعرضت الكتاب فى ثنايا التحقيق على أصوله من كتب السيرة والحديث ، مع المقابلة على كتابى ابن حزم وابن سيد الناس ، ورجعت دائمًا فى سرد الأعلام وضبطها على كتاب المؤلف عن الصحابة (الاستيعاب فى معرفة الأصحاب) . وذكرت مع كل أصل وباب وفقرة المراجع التى ذكرت ذلك من أمهات كتب السيرة والتاريخ والحديث الشريف .

٥ – نقط العروس فى تواريخ الخلفاء لابن حزم (طبع فى الجزء الثانى من المجلد الثالث عشر لمجلة كلية الآداب) .

تفيض هذه الرسالة فى تفاصيل سياسية وشخصية كثيرة عن الخلفاء فى المشرق والأندلس وأبنائهم ونسائهم وأخلاقهم ومن انهمك منهم فى اللذات ، وذكر علمائهم وجهالهم . والرسالة تعد خير معين لمن يدرس نظام الخلافة الإسلامية ومحاسنه وعيوبه ، إذ لم يترك ابن حزم من ذلك شيئًا إلا أحصاه وعدّه . وقد ذهب فى حديثه عمّن ولى الخلافة بعهد إلى أن أبا بكر وليها بعهد من رسول الله ﷺ . والرسالة تحمل طرفًا كثيرة من الأخبار عن الخلفاء على مر العهود .

٦ – رسائل الصاحب بن عباد – بالاشتراك (طبع دار الفكر العربى) .

الصاحب بن عباد هو الوزير الثانى – بعد ابن العميد – فى بلاط البويهيين بإيران ، وهو تاليه أيضًا فى الكتابة الأدبية الرفيعة ، والرسائل الديوانية . وهى تصور الأحداث التاريخية والأحوال الاجتماعية فى أيامه وكل ما يتصل بشئون الدولة وسياسة

الحكم للرعية . وهى رسائل مسجوعة ، يكثر فيها الصاحب من المحسنات البديعية ، وتتميز بعذوبة اللفظ وجمال النغم حتى تصبح جوانب من رسائله شبيهة بالشعر المنثور .

٧ – خريدة القصر للعماد الأصبهاني – قسم شعراء مصر – مجلدان (بالاشتراك) طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

يترجم هذا القسم من كتاب الخريدة لنحو مائة وأربعين شاعراً مصرياً عاشوا فى القرن السادس الهجرى ، كنا نجهل كثرتهم جهلا تامًا ولا نكاد نعرف عنهم شيئًا . وهذا القسم تاريخ أدبى دقيق لمصر فى أواخر العصر الفاطمى وأوائل العصر الأيوبى . وله قيمتان أساسيتان قيمة ترجع إلى ما يحمل من أشعار من عيون الشعر المصرى وفرائدة اختارها أكبر مترجم لشعراء العالم العربى فى القرن السادس . وقيمة ثانية ترجع إلى أن الأشعار فى هذا القسم تصور جوانب الحياتين السياسية والاجتماعية فى مصر أثناء القرن السادس ، وما عاش فيه شعراء مصر حيئذ من ظروف مادية وفكرية وروحية .

٨ – المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد – قسم الفسطاط – بالاشتراك (طبع ونشر جامعة القاهرة) .

تحدث ابن سعيد فى هذا القسم من كتابه (المغرب) عن حكام مصر منذ الفتح العربى ، فترجم لأهم الولاة ، ثم اختصر كتاب ابن الداية عن ابن طولون وكتاب ابن زولاق عن الإخشيد فى أكثر من مائة صفحة ، وختم تراجمه فى الدولة الإخشيدية بكافور ، ثم أخذ فى الترجمة لمن نظموا الشعر من الأشراف والوزراء والكتاب والعمال والقضاة وذوى البيوت والمتصوفة والعلماء من كل صنف ، وترجم لطائفة كبيرة من شعراء الفسطاط ترجمات مفصلة ، وأضاف إلى ذلك تراجم للعمال والقضاة ممن لم يحسنوا نظم الشعر . وختم ابن سعيد هذا القسم ببعض نوادر المصريين . ويتلى القسم مراجعة العربية والأجنبية ، وكشاف مفصل لأعلامه .

ثالثًا : كلمات مأثورة

(أ) كلمة أ . د . شوقي ضيف في حفل تقليده جائزة الدولة التقديرية في الآداب سنة ١٩٧٩

السيد الرئيس / محمد أنور السادات ، سيداتي ، سادتي :

إنه عيد لأولنا وآخرنا عيد عظيم أن تحتفل الدولة بتكريم الأدباء والفنانين في أيام عيدنا بنصر أكتوبر المجيد . عيدان تعانقا واتحدا وصارا عيدًا واحدًا للأمة ؛ عيد البطولة العسكرية في معارك الحرب ، وعيد الأدب والفن والثقافة في ظل السلام . وإننا لنرجع فيه بالذكرى لآلاف السنين أيام الفراعنة حين كانت رايات جيشنا تخفق في دروب الشرق القديم ، وروائع فنوننا وآدابنا تذكي في روح الأمة لهبا مضطرما من العطاء الحضاري الزاخر .

ويدور الزمن دورات ، وفي كل دورة تقدم مصر للحضارة الإنسانية عتادًا رائعًا ، وتشرق فيها شمس الدين الحنيف ، وتملك لغته العربية المشاعر والقلوب والعقول ، وتنهض مصر بأعمال مجيدة في خدمة الإسلام والعروبة . وما يلبث أن يتعالى هتاف الشطر الشرقي من الأرض العربية حين أغار عليه الصليبيون وأقاموا به ممالكهم . ولبَّت مصر الهتاف ، وصهلت خيولها في ديار الشام ، واندفع فرسانها يكيلون للصليبيين ضربات قاصمة ، وفرت فلولهم مهزومة مدحورة إلى البحر المتوسط وما وراءه . وفي هذه الأثناء طم وتفاقم طوفان التتار ، واكتسح إيران والعراق والشام ، فكبحت مصر جماحه ، وردت سيوله إلى غير رجعة .

منذ هذا التاريخ أصبحت مصر إلى اليوم حامية الإسلام والعروبة . ولا تقل دورتها الحديثة عن دوراتها السابقة عزة ومجداً ، فقد سبقت جميع البلدان العربية إلى النهضة ، وأصبحت لها جميعًا القائدة والمعلمة والمنارة الهادية فى كل فروع الفن والأدب ؛ فى الغناء والتمثيل ، وفى النحت والتصوير ، وفى الشعر الغنائى والتمثيلى ، وفى القصص المسرحى وغير المسرحى . وبحق رفعت مصر فنونها إلى منزلة الفنون العالمية ، كما رفعت آدابها إلى منزلة الاداب الحية الكبرى .

السيد الرئيس :

لقد عرفت أن الفن والثقافة هما المجدافان اللذان يحركان البواعث الكامنة فى الأمة ، ويقودانها نحو تحقيق أهدافها العليا ؛ لذلك اخترت اليومين الثامن والتاسع من أكتوبر ليكونا عيداً للأدب والفن والثقافة فى ذكرى عبورنا من شاطئ الهزيمة إلى شاطئ الانتصار ، وإنه لانتصار عظيم رد إلى الشعب جميع قواه ، وأعاد إليه عزائمه الصلبة العاتية ، وسيظل هذا الانتصار الباهر مركز إشعاع قوى لقدرات الشعب المدخرة ، وسيظل كل أديب وفنان يتخذ منه شعاعًا هاديًا لكفاحه وجهاده وأدبه الخصب المثمر .

وهذه مصر ، موئل الإسلام وملاذ العروبة ، تجتاز معك مرحلة تحدى اليأس المرير إلى مرحلة تحدى الأمل الكبير فى بناء المجتمع بناء قويمًا سديداً . وإنها لمهمة جد خطيرة ، وستجد كل أديب وكل فنان وكل عالم وكل فرد فى الشعب ينهض بنصيبه فى رفع هذا البناء وتشييد أركانه ، موفراً له كل طاقته ، مستشعراً إلى أقصى حد مسئوليته ، متصديًا لها بكل ما يستطيع من حول وقوة وإخلاص وجد ، لا ينقطع ولا يتوقف أبداً .

ولقد بدأت تخطط لهذا البناء الضخم ، وما مهرجان الأدب والفن والثقافة اليوم والأمس وعيدهما إلا بشرى بأننا بدأنا مرحلة هذا البناء ، وأننا ماضون إلى حياة آمنة ، يعرف كل منا فيها دوره وتبعاته والتزاماته ، حياة مجيدة يغمرها الرجاء فى مستقبل

باسم ، تسود فيه الحرية والعدالة والمساواة ، ومستقبل يملأ القلوب ثقة ورضا والنفوس أمنا وأملا .

السيد الرئيس :

إنى أنا وزملائى من الأدباء والفنانين والفائزين بجوائز الدولة فى هذا العيد الأول للأدب والفن والثقافة فى مرحلتنا الجديدة ، نعرف مدى حرصك الشديد على ازدهار الأدب والفن فى الأمة ، وأنك وددت اليوم لو سلمت – مع جوائزنا – جائزة لكل أديب مصرى ولكل فنان . وإن الشعب جميعه ليعرف مدى محبتك لخيره ، وأن يشمل الرخاء وسعة العيش جميع أفراده ، وأن يصبح كل منهم بمأمن من البؤس والعوز وضنك الحياة . بل إنك لتتمنى لكل فرد فى الشعب حياة رغدة كريمة . وما من ريب فى أن الشعب جميعه يقدر لسيدة مصر الأولى ما بذلته – وتبذله – من جهد متصل مخلص فى جميع جوانب المجتمع ، مع كل البر وكل الوفاء وكل الأمل فى غد مشرق مضىء . وإن مصر لترمق أدباءها وفنانيها مؤملة أن يزداد عطاؤهم الأدبى والفنى تألقا وتوقداً من عيد إلى عيد . بوركت مصر ، وعَمَّها دائماً اليمن والسعد والرخاء .

(ب) كلمة أ . د . شوقى ضيف فى حفل تقليده جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربى سنة ١٩٨٣

جلالة الملك فهد بن عبد العزيز

صاحب السمو الملكى ولىّ العهد

أصحاب السمو والأمراء

أصحاب الفضيلة والمعالى

أيها السادة :

لقد أسعدنى سعادة كبرى فوزى بجائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربى لقيمتها الأدبية السامية ، وهو شرف سأظل أعتز به . ولا استطيع أن أوفى القائمين على مؤسسة الجائزة حقهم من الثناء الجديرين به . وكذلك لا استطيع أن أوفى هيئة التحكيم حقها من الشكر الصادق على ما أسبغت علىَّ من هذا الشرف الرفيع .

وإنه لشرف أن يقترن اسم الجائزة باسم المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز تخليداً لذكراه وامتداداً لسيرته العطرة وجهاده الدائب فى خدمة الإسلام والمسلمين ودفاعه المتصل عن قضايا العروبة والعرب وإيمانه العميق بالقيم الإنسانية المثالية ، مما جعل اسمه يملأ الدنيا ، كما جعل الألسنة فى كل مكان تلهج بذكره .

وإنى ليسعدنى أن أحيى هذا البلد الطيب بتاريخه وأهله ومليكه فهد بن عبد العزيز وولى عهده صاحب السمو الملكى الأمير عبد الله بن عبد العزيز ورجالاته وقادته الذين يبذلون جهوداً مخلصة فى خدمة الإسلام والعروبة . وبارك الله فى سمو الأمير خالد ، رئيس هذه المؤسسة ، وإخوته الكملة البررة ، أبناء الملك فيصل ،

الذين يعملون - بكل ما فى وسعهم - لتأصيل المثل العليا لأبيهم العظيم فى نفع المسلمين والعرب وإذكاء الجذوة الحضارية فى الأمة العربية ، مع ما يعود على الإسلام والإنسانية بالخير الغزير العميم .

ولهذه الغايات النبيلة اتسعت دائرة جائزة الملك فيصل ، فصارت عالمية لمن أدّوا للإسلام والمسلمين خدمات جلى ، ولمن أسهموا فى الدراسات الإسلامية والأدبية العربية إسهامات قيمة ، وللمجلّين فى البحوث العلمية من أى شعب ومن أى قطر شرقًا وغربًا ، انطلاقًا من مبادئ الشريعة الإسلامية السمحة ، ورغبة كريمة فى إثراء الفكر الإسلامى والعربى والعالمى وفى تقدم الحضارة والحياة الإنسانية .

ومن المؤكد أن هذه الجائزة العالمية العظيمة ستدفع دفعًا إلى منافسة حميدة فى الأقطار العربية بين المتعمقين فى الدراسات الإسلامية ودراسات الأدب العربى والدراسات العلمية للفوز بقصب السبق مما يعود بأكبر النفع على نهضتنا العربية المعاصرة . وإنى لشديد الأمل فى أن تتكاثر لهذه المؤسسة المباركة مشروعات متعددة ، وأن تتكاثر معها من الخليج إلى المحيط مؤسسات ومراكز علمية وأدبية ، تعيد جميعًا لأمتنا العربية بقوة دورها الحضارى التاريخى كاملاً ، حين كان مفكروها وفلاسفتها وعلماؤها أساتذة للغرب ، يقتبس من علمهم وفلسفتهم وفكرهم ما أنار له السبيل إلى حضارته الحديثة . وأعود فأكرر ما ذكرته أولاً من الثناء على المؤسسة والشكر على الجائزة والعرفان بما غمرتنى به من تقدير أدبى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(ج) كلمة د . شوقى ضيف

فى حفل تكريمه فى كلية الآداب

(١٩٩٤/٤/٢٠)

أيها الأصدقاء :

لقد أوليتمونى شرفًا عظيما بهذا اللقاء الكريم ، وإنى لأشكر حضراتكم واحداً واحداً على هذا الفضل الذى غمرتمونى به ، وأحييكم تحية مخلصة صادقة ، وأحيِّى تحية إجلال وإكبار هذه الجامعة التى تشرفت بالانتساب إليها فى الثلاثينيات من القرن الحاضر : جامعة القاهرة أم الجامعات المصرية والعربية ، وكانت قد بلغت منزلة رفيعة فى الازدهار العلمى وإرساء التقاليد الجامعية ، وأمَّتْها أفواج الطلاب من أرجاء العالمين العربى والإسلامى ، ليتزودوا منها بخير زاد فى العلم والأدب والمعرفة والثقافة .

وأحيى هذه الكلية كلية الآداب تحية تجلة وإعزاز وتقدير ، فقد شرفت بالانتماء إليها حينئذ ، وكان يحاضر طلابها صفوة من علماء مصر الرواد فى الدراسات الإنسانية ، ويحاضرهم معهم صفوة من علماء الغرب الكبار فى الفسلفة والتاريخ والجغرافيا واللغات القديمة الهيروغليفية واليونانية واللاتينية واللغات الحديثة الأوربية والإسلامية فارسية وتركية .

* * *

وقد انتظمت فى قسم اللغة العربية وآدابها ، وكان يموج بحركة تجديدية واسعة فى كل موضوع وبحث وكل علم يدرس ؛ فهذا **الأستاذ أحمد أمين** يدرس للطلاب الحياة العقلية الإسلامية ويعرض عليهم دقائقها وتفاصيلها وأطوارها عرضا رائعًا ، وهذا **الأستاذ أمين الخولى** يحاضر الطلاب فى البلاغة العربية ويحاول التطور بها إلى دارسة فن القول وأساليبه ، وهذا **الأستاذ إبراهيم مصطفى** يحاضرهم فى النحو ويحاول أن يخلصه من شباكه المعقدة التى يتعثر فيها الطلاب ، وهذا **الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق** يحاضر الطلاب فى الفلسفة الإسلامية ، ويرى أن الفكر العربى الأصيل إنما يتراءى بوضوح فى علم أصول الفقه ، وما يزال يرفع صرح هذا الفكر لبنة فوق لبنة وفكرة تعلو فكرة ، حتى يتم تشييد صرحه فى صورة بديعة ، وهذا الدكتور طه حسين يفتتح بمحاضراته للطلاب وكتاباته عصراً جديداً بأكمله فى دراسة الأدب العربى وتاريخه وأعلامه ، فلم تعد دراسته مجدبة ولا عقيمة كما أن شأنها قبله ، بل أصبحت خصبة ممتعة متاعًا كبيراً .

* * *

وهذه الكوكبة من أساتذة قسم اللغة العربية لم تدخر وسعا فى تدريب الطلاب على البحث العمى وبث الحماسة فى نفوسهم للانكباب على دراسة الأدب العربى وعلومه ، وكان أحد الطلاب إذا نشر مقالاً فى مجلة أدبية وقرأة أحد أساتذة وأعجب به نوّه بمقاله فى الفصل بين زملائه وأثنى عليه . ولما أخذ الطلاب من جيلى يكتبون بحوثا للحصول على درجتى الماجستير والدكتوراه شجعوهم فى صور مختلفة من التشجيع ، وأثنوا على ما يبذلون من جهد وعناء وما ينفذون إلية من أفكار وآراء . وإذا أنجز الطالب رسالته كان نشرها الشغل الشاغل للأستاذ المشرف ، واتصل بدار نشر كبرى كى تنشرها له . وفى الحق أنهم لم يكونوا أسائذة لى ولجيلى فحسب ، بل كانوا أيضاً أصدقاء يمنحون طلابهم صداقتهم ، وكان ذلك يدفع الطلاب إلى مضاعفة جهودهم فى البحث والدراسة ، حتى يقعوا منهم موقع رضا واستحسان . ولعلى أكون قد أوضحت كيف أنى أنا وجيلى ندين فى تكويننا العلمى لأساتذتنا القدماء فى قسم اللغة العربية ، وهو دين كبير حاولنا أن نحاكيهم فيه مع تلاميذنا ، *ولهم فضل السبق فى إيجاد*

الروابط وعقد الصلات بين أساتذة القسم وطلابه . وما الكتاب الذى أشرف عليه صديقى الدكتور طه وادى ، وهو مكتوب عنى بأقلام أصدقائى وتلاميذى ، إلا صورة من هذه العلاقة الوثيقة بين الأستاذ وطلابه فى قسم اللغة العربية .

* * *

وإنى لأكرر الشكر لجامعة القاهرة ممثلة فى رئيسها **الأستاذ الدكتور مفيد شهاب** ، ونائبه الأستاذ الدكتور حسنين ربيع لما أسبغا علىَّ من كلماتهما القيمة . وأشكر كلية الآداب وأساتذتها وطلابها ممثلة فى عميدها **الأستاذ الدكتور محمد حمدى إبراهيم** وجميع الأساتذة الجامعيين الدكاترة : **أحمد هيكل . وكمال بشر ، ومحمود فهمى حجازى ، وطه وادى ... وفضيلة الدكتور محمد نائل ، ومحمود على مكى ، ومحمد حسن عبد العزيز ، وماهر شفيق فريد ، والدكتور محمد أبو الفتوح شريف ، والأستاذ الأديب أحمد سويلم** مدير النشر بدار المعارف ؛ لما نثروا علىَّ جميعًا من ثناءهم أهله ومستحقوه ، وأشكر الشعراء الأفذاذ **الأستاذ عبد المنعم عواد يوسف ، والأستاذ الدكتور سعد ظلام الأستاذ بكلية اللغة العربية فى الأزهر ، والأستاذ الدكتور صلاح عيد** الأستاذ بتربية بورسعيد ، **والدكتور عبد الفتاح الشطى ، والأستاذ ممتاز سلطان** لما عطروا به الحفل من قصائدهم الرائعة ، ولا أملك إلا أن أقدم لكل من ذكرت ، ولكل من أكرمونى بحضورهم هذا الحفل الكريم ، مشاعر المودة والإخلاص والتقدير والعرفان . والله أسأل أن **يجزيهم عنى الجزاء الأوفى** .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(د) شكر وتقدير للأستاذ الدكتور شوقى ضيف في احتفالية ملتقى القرضابية الثقافي - ٢٠٠١/١٠/٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الحفل الكريم

الأصدقاء الأوفياء

سيداتى ، سادتى :

لقد ملأتم حضراتكم نفسى زهواً باحتفالكم للاستماع إلى كلماتى القاصرة فى شكركم جميعاً على ما أسديتم إلىّ من هذا الحفل الكبير الذى سأظل أذكره شاكراً ممتناً أصدق الشكر والامتنان فى البقية الباقية من حياتى ، ولن أنساه .

وسأظل أذكر معه صنيع دار المعارف لى منذ وليت وجهى إلى محرابها الثقافى الرفيع أريد أن أنشر بها مؤلفاتى منذ الأربعينيات فى القرن الماضى ورحبت بى إلى اليوم .

فعرّفتنى إلى العالم العربى ومن يهتمون فيه بالأدب المصرى . وكان أول كتاب قدمته إليها لنشره كتاب الفن ومذاهبه فى الشعر العربى من الجاهلية إلى العصر الحديث وكيف تطورت صناعته الفنية فى ثلاثة مذاهب جمالية .

وظلت دار المعارف منذ هذا التاريخ سنة ألف وتسعمائة وثلاث وأربعين تفتح لى أبوابها على مصاريعها لنشر مؤلفاتى حتى بلغت إلى اليوم أكثر من خمسين كتاباً كما نشرت لى تحقيقات لكتب نفيسة من التراث العربى الأدبى والعلمى .

وكان من بواكير ما قدمت من التراث للدار تحقيقى لكتاب ابن مضاء الأندلس سنة ٤٧ وموضوعه الرد على نحاة المشرق سيبويه وغيره لما وضعوا فى النحو العربى من نظرية العامل المعقدة وما تجر وراءها من تقديرات متكلفة لعوامل ومعمولات وعلل

وأقيسة عسيرة الفهم ، وشكا الجاحظ من ذلك قديمًا قائلاً : إن أحداً لا يصل فى علم النحو من تعلم ما يحتاج إليه ، حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه فى نطق أو كتابة . وأحس ابن مضاء الأندلسى فى القرن السادس الهجرى المشكلة فى عمق ، فكتب كتابه الرد على النحاة ملغياً فيه بعض أبواب النحو المعقدة وما يجرى فيه من عوامل ومعمولات مقدرة وعلل وقياسات مضمرة ، ووضعت له مدخلاً يكمل ما أراده ابن مضاء من تيسير النحو وتبسيطه ، وألفت على ضوئه كتاب تجديد النحو ، طبع مراراً .

وكان شوقى شاعر مصر الفذ الذي أكسبها مجداً عظيمًا فى الشعر العربى قد هوجم هجومًا عنيفًا فى الأيام الأولى لثورتنا ملأ الجو الأدبى بغبار كثيف يحجب حقائق شعره . وتأثرت لمصر وشاعرها المبدع ، وكتبت عنه كتاباً صورت فيه روائع شعره الغنائى والتمثيلى بمعايير النقد المنصف مع بيان مكانته فى الشعر العربى الحديث .

وكان شوقى أروع شاعر لمصر منذ أواخر القرن التاسع عشر ، تغنّى بمجدها الفرعونى العريق وتأسيسها للحضارة العالمية كما تغنى بنيلها الكوثر العذب وبعصر بناة الأهرام وبدولها على مر القرون ، وهلّل طويلاً لنزول الإسلام مصر وتغنى مراراً بالمشاعر والعواطف الوطنية والوحدة الوثيقة بين الأقباط والمسلمين .

ولم يكن شوقى شاعر مصر وحدها فى التغنى بمشاعرها الوطنية بل كان شاعر البلاد العربية جميعاً فى هذا التغنى وما يحمل من كفاحها الرهيب ضد المستعمرين ، وكلما أنزلوا ببلد عربى قارعة من قوارعهم انتفض واقفًا مع أبنائه يستثير حميتهم الوطنية كموقفه مع ليبيا حين نكل الإيطاليون ببطلها وزعيمها الثائر عمر المختار ، وكأنما أصاب به الإيطاليون قلب ليبيا فى الصميم بل قلب العالم العربى جميعه ، ويقول شوقى منذراً الإيطاليين قصيدته :

يا ويحهُمْ نَصَبُوا مَناراً من دمٍ يُوحى إلى جيل الغد البغضاء

وشوقى فى تصديه مع الشعوب العربية للمستعمرين الطاغين إنما يعبر عن الروح المصرية الأصيلة إذ نرى مصر فى دوراتها التاريخية الماضية لا يقر لها قرار ولا يهدأ

لها بال حين تجد جيشاً أجنبياً أغار - أو يحاول الإغارة - على شطر من أرض لإحدى شقيقاتها العربيات ، كما حدث حين أغار الصليبيون على ديار من أرض الشام وفلسطين فإن مصر ظلت تناوشهم حتى تسلم مقاليد الحكم فيها البطل صلاح الدين الأيوبى فنهضت مصر معه لمنازلة الصليبين وضربت جموعهم ضربة قاضية فى حطين ، واستولى منهم صلاح الدين على بيت المقدس ومدن فلسطينية وشامية متعددة ، وقضت مصر قضاء مبرماً على بقية الصليبيين . وحين اكتسح سيل التتار الجارف ديار العراق ومدن الشام فى الشمال نهضت له مصر بقيادة الظاهر بيبرس فى عين جالوت تكبح جماحه وهزمت التتار هزيمة ساحقة ، وطهرت الديار الشامية من فلولهم المدحورة .

وكنت أدرس للطلاب فى جامعة القاهرة تاريخ الأدب العربى ولم يكن لأحد من العرب كتاب جامع فيه ، واشتهر كتاب تاريخ الأدب العربى لبروكلمان الذى عنى فيه ببعض التراث العربى جميعه الأدبى والعلمى والفلسفى ، ولم يعن عناية مفصلة ببحث الظواهر الأدبية وشخصيات الأدباء بحثاً تاريخياً نقدياً تحليلياً إذ شغلته مواد التراث العربى الكثيرة ، فرأيت أن أحاول كتابة هذا التاريخ ، وطبعت الجزء الأول منه ، وأهديت منه نسخة إلى أستاذى طه حسين سنة ١٩٦٠م وكان له كتاب فى الأدب الجاهلى أثار ضجة نقد واسعة فى العشرينيات من القرن الماضى لما ذكر فيه من أن الكثرة المطلقة مما يسمى أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية فى شىء ، وليس بين أيدى الباحثين منه صحيحاً إلا شىء قليل جداً ، وأكثره منتحل بعد ظهور الإسلام ولا يصور حياة الجاهليين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية . وكنت فى كتابى راجعته فى آرائه وأثبت للجاهليين أشعاراً صحيحة أحاطها الأسلاف بسياج محكم من التثبت والتوثيق ، وهى كفيلة بأن تتيح لنا الصورة الأدبية الوثيقة للعصر الجاهلى فى الكتاب .

ولم يضق أستاذى طه حسين بكتاب تلميذه عن العصر الجاهلى حين رآه فيه يخالف نظريته فى أن الشعر المنسوب إلى العصر الجاهلى شعر منحول بل لقد

استدعاه ليثني على جهده في الكتاب ، ولا نقدر صنيعه وصنيع أمثاله من الأساتذة الجامعيين حق قدرهم إلا إذا عرفنا أن من الأساتذة الجامعيين من إذا خالفه تلميذه في فكرة له أو أفكار في بحث علمي ثار غاضبًا غضبًا شديداً . ومن المؤكد أن الباحث العلمي الجدير بهذا الوصف ينبغي أن يعرف لمن يخلفونه في الدراسة حقوقهم في حرية البحث والنفوذ فيه إلى أفكار جديدة تخالف أفكارهم ، ويثني عليهم كما أثنى طه حسين على تلميذه ، بل لقد دعا من كان بمجلسه من الصحفيين إلى الكتابة في الصحف عن كتاب تلميذه والتنوية به .

ومضيت أكتب تاريخ الأدب للأمة العربية وبلغت به عشرة مجلدات صورته بها في العراق وإمارات الخليج العربي وعمان وحضر موت ونجد واليمن ، ودول الشمال الإفريقي : ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى ، وضممت إليها موريتانيا والسودان ، وكان تاريخ الأدب العربي في كثير منها مجهولاً .

ولما أكملت الحديث عن تاريخ الأدب العربي في الأمة انتقلت إلى القرآن الكريم ، وكتبت عن تفسير سورة الرحمن وسور قصار ، وعن الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة ، وعن إعجاز القرآن وعن السيرة النبوية ، وعن عالمية الإسلام وحققت طائفة من كتب التراث العربي النفسية .

وأقدم شكري الصادق إلى معالي الأستاذ الدكتور مفيد شهاب وزير التعليم العالي والدولة وللبحث العلمي إذ غمرني بثناء أرجو أن أكون مستحقًا شيئًا منه ، وأشكر أصدقائي الأوفياء لما وصفوني به من تقديرهم مستحقوه وأهله .

وإنه ليسعدني أن يقام هذا الحفل في أبهج أيام لمصر وأزهاها إذ احتلت مركزًا عالميًا مجيداً واستردت مكانتها بين الشعوب العربية ، مع دعوتها المخلصة المستمرة للسلام ولقيام الدولة الفلسطينية .

وأحيي الأستاذ جمعة المهدي الفزاني وثورة الفاتح في ليبيا ونهوضها نهضة عظيمة بليبيا وبقطاعات الإسكان والصناعة والزراعة فيها وبالتعليم في جميع مراحله ، *وإنشائها للشعب اثنتي عشرة جامعة وقرى سكنية متكاملة* .

وأكرر الشكر إلى السيد الأستاذ جمعة المهدى الفزانى وإلى السيد الأستاذ رجب البنا لاشتراكهما فى إقامة هذا الحفل الكبير ، وأشكر هذا الجمع الحافل لحضوركم هذا اللقاء المشرف لى ، جزاكم الله عنى جميعًا الجزاء الأوفى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

٢ - معى والسير الذاتية
أو شوقى ضيف فى تاريخ حياته

د . ماهر حسن فهمى

أكبر الظن أن هذا العنوان متأثر بكتاب " معك " الذى كتبته زوجة طه حسين - عن رفيق عمرها ، ولما كان شوقى ضيف يقدس *الوفاء* أولاً ، ويعتبر طه حسين - المثل الأعلى له ثانياً ، فقد تحولت " معك " إلى " معى " عن وعى أو غير وعى ، ولكنها على كل حال لها كل الدلالات السابقة ، بالإضافة إلى دلالتها على صحبتنا لصاحب السيرة الذاتية منذ الميلاد حتى اليوم .

والسيرة الذاتية لها مناهجها ، منها المنهج الوصفى ، ومنها المنهج التحليلى ، فى مقابل المنهج التركيبى الذى تتألف منه السيرة الغيرية ، والمنهج التحليلى يمكن أن نمثل له بقصة " نفس " لزكى نجيب محمود ، و " أنا " لعباس محمود العقاد ، أما المنهج الوصفى فقد وضح بصورة أقرب إلى التقريرية فى " حياتى " لأحمد أمين ، وفى إطار *العرض الروائى فى " على الجسر " لبنت الشاطىء ، و " معى " لشوقى ضيف ،* وأما " الأيام " لطه حسين فقد استفادت من كلا المنهجين : الوصفى الروائى والتحليلى ، وبنت الشاطىء وشوقى ضيف كلاهما نشأ فى دمياط ، وكلاهما صارع طويلاً حتى ثَبَّتَ مكانته العلمية فى الوطن العربى ، وصارع طويلاً بعض صور التخلف فى القرية حين أتى إلى المدينة الكبيرة ، ولكنه احتفظ بما فى القرية من أصالة وقيم ، وتوقفت بنت الشاطىء " على الجسر " عند التقائها بأمين الخولى ، ووقفت تتأمل الحياة التى عاشتها قبله ، حتى إذا التقت به وأحست أنها انتقلت نقلة جديدة ، جرت الأيام مسرعة عجلة ففقدته ، وعادت لتقف وحيدة ، ولكن شوقى ضيف - ربما وحده - فى هذا الجيل - جيل العمالقة والرواد - الذى ظل يعطى إلى اليوم ، فلم يتوقف القلم فى

يده ولم يستمرئ الراحة ، ولم يركن إلى الكسل العقلى ، ولم يبخل على أبناء جيله وعلى تلاميذه بثمرة جهده العلمى ، ومن هنا كانت قيمة هذه السيرة الذاتية .

" فى قرية بجوار دمياط كان يربض مستنقع واسع يشغل أكثر من مائتى فدان ملىء بالأسماك ، وبنبات البردى ، وبأزهار النيلوفر (اللوتس) قائمة على سيقانها ليل نهار ، كأنما تنتظر موعداً مضروباً ، مطلة برءوسها وأعناقها فوق مياه غارقة فيها ، كأنها دموعها ، ويسميها أهل القرية والريف المصرى باسم البشنين ، وأوراقها تتضام ليلاً للنوم ، في شكل كأس زمردى ، وتتفتح الأوراق فى الصباح ، مع نسمات السحر وأندائه المتلألئة عن شعل ملتهبة ، متعددة الألوان ، بين لا زوردى ، وأرجوانى ، وكهرمانى ، وعند السيقان تستلقى أوراق عريضة مستديرة تتوسد المياه ، حول قامات البشنين الهيفاء ، كأنما تدعوها لتكتب عليها بمداد من حلولها - لا ينفد - ما تشاء .

وفى الجانب المقابل للقرية تقع بحيرة المنزلة بصياديها وشباكهم ، وبمياهها الفضية البراقة ، وكأن سماء من البلور الناصع تمتد على سطحها المشرق الهادئ الساطع ، والمراكب الشراعية تتهادى فيها مقبلة مدبرة ، متمايلة مع الريح - تمايل الأغصان - بأشرعتها البيضاء المتفاوتة الأحجام ، كأنما هى طيور سابحة بجناح واحد فريد ، وتقترب فتخالها حسنات منثورة على خدود البحيرة اللامعة البراقة ، وتبتعد جانحة إلى المغيب فتخالها أهلة تغرب فى الأفق السحيق " .

هكذا يبدأ شوقى ضيف سيرته الذاتية ، كأنه مصور يرصد المكان بخيال الفنان ، فنرى بعينيه قرية وسط شلال من الأضواء والألوان ، ونندفع معه نلتهم الأسطر ، ونقلّب الصفحات ، فنجده قد ولد بعد أخوين اختطفهما الموت ، ولذلك فرح به أبواه ، والذى يقرأ طه حسين فى (الأيام) يجده قد وقف عند حدث الموت موقف المحلل ، فجسّم لنا موقفًا إنسانيًا رائعًا لا يبرح ذاكرته ولا يبرح خيالنا ، قصة الصراع بين الموت والحياة حين فقد أخاه ، وعجْز الأبوين عن إنقاذ ولدهما وهو يموت رويداً رويداً حتى يخمد وتصعد روحه ، ولا يعود أمام الإنسان إلا أن يبكى من فقده ، أو يكتم لوعته والقلب ينزف ، أو يفلسف الموت ، ولكن شوقى ضيف يمر على حادث الموت مروراً سريعًا ؛

لأنه لم يشهده بطبيعة الحال ، ولكن ألم يسمع عنه من أحد أبويْه ؟ ألأن من مات طفلاً ليست له ذكريات الصبا والفتوة والشباب ؟ كل ذلك جائز .

وقد صور لنا شوقي ضيف القرية وأثرها وأحداث الطفولة ، وهى أحداث تختلف من فرد إلى فرد بطبيعة الحال، فحادث وقوعه في مسرب المياه أثّر فى حياته من بعد ، فلم يتعلم السباحة مثل لداته ، وظل يخشى الغرق ، ونشأة الصبى وهو يرى فى مكتبة أبيه كتب فقه وحديث وعلوم دين ، أثّرت فى نفسه ، ووجهته منذ نعومة أظفاره إلى حفظ القرآن الكريم ، ثم إلى العهد الدينى . والأقاصيص التى روتها له جدته مما كانت تسمعه من زوجها ، وهو يقرأ أخبار الفتوح الإسلامية ظلت لا تبرح ذاكرته ، مثل تلك التى تروى ما سمعه المأمون من زُبَيْدة زوجة أبيه الرشيد وأم الأمين ، حين ألح عليها فى أن تذكر له ما تمتمت به ، فقالت : كنت أقول ليت هذا الموكب كان لابنى الأمين ، فندم المأمون على إلحاحه ، وهذه القصة وأمثالها مما لقنه الفتى فى صغره عودته ألا يلح فى أى شىء وألا يفكر فى التعرف على أى خبر ، يمس شخصًا مهمًا تكن صلته به ، وظل يبغض التطفل والمتطفلين ، وهكذا نتعلم من السير الذاتية ومن مثل هذه الالتفاتة التربوية ، فنضيف إلى خبراتنا فى الحياة خبرات الأعلام .

وإذا كان طه حسين قد حدثنا عن الخرافات فى القرية النائية بصعيد مصر التى نشأ فيها وأثرها فى نفسه ، فإن شوقى ضيف يحدثنا عن الخرافات فى قرية بشمال الوادى – العفاريت – ولكنه يربط بينها وبين الخرافات التى سمعها بعد ذلك ، حين زار بلاداً أوروبية ، ومنها سويسرا ورأى بيت الأشباح كما يسميه سكان القرية السويسرية ، وهو قريب من منزل " أينشتين " الذى سكنه مدة هناك ، " ولا يجرؤ أحد على سكناه خوفًا من الأشباح التى تقطنه ، وهى خرافة الكائن البحرى ، الذى يعتقد أهل اسكتلندة أنه رابض فى بحيرة لوخ نيس ، وأن أحداً لا ينزل فيها إلا ويفتك به . وهما دليلان واضحان على أن الأمم مهما ارتقت عقليًا وعلميًا ، لا تزال الخرافة تجد مأوى لها فى أذهان أرقى الأمم فكريًا ، وكما يتضح ذلك فى الأمم يتضح فى الأفراد ، فقد يكون الفرد من أعلم معاصريه بقوانين العلوم الطبيعية ، ومع ذلك يؤمن بالأشباح ،

وبقوى غيبية لا يستطيع ردها ولا دفع شرها ، فضلاً عن فرض سيطرته وإرادته عليها ، وهى مبالغات وخيالات ينبغى أن يتخلص منها الإنسان ويطرحها بعيداً حتى لا تفسد عليه حياته " [1] .

وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد كانت هذه الأقاصيص التى يسمعها الصبى تطلق خياله ، حتى إذا نما عقله أعاد هذه الخيالات إلى حجمها الطبيعى ، وهى مرحلة تمر بها الشعوب فى نشأتها الأولى ، وتبقى رواسبها فيما يسمى " بالعقل الجماعى " الذى تختزنه الشعوب ، ولذلك لا يستطيع كثير من الأفراد التخلص من آثاره تماماً كما نقول نحن - دارسى الأدب - عن الشعراء ، إن استنطاقهم للطبيعة ، يرجع فى بعض تفسيره إلى هذه المرحلة السحيقة من نشأة الإنسانية ، والتى ما تزال آثارها فى نفوس البشرية إلى اليوم ، ومن هنا نتذوق جميعًا الشعر ؛ لأنه يربطنا بجذورنا البعيدة من ناحية ، ويثير خيالنا من ناحية أخرى إلى جانب تعبيره عن حياتنا .

وهذه البدايات ترتبط بعد ذلك بما كان الصبى يسمعه من " الشاعر " وهو ينشد قصة الهلالية ، وبطليها " أبو زيد الهلالى " ، و " دياب بن غانم الزغبى " ولكل منهما مغامراته الحربية ، وعادة ينشد الشاعر أجزاء من القصة على الربابة . ومنذ ألف عام عى وجه التقريب كانت تنشد هذه السيرة فى القرى المصرية ، وتشايع قرية أبا زيد ، وأخرى تشايع دياب بن غانم بطل بنى زغبة ، فبعضها هلالية وبعضها زغبية ، وكان ذلك تعبيراً عما بين القرى من تنافس ، كما يقول المؤلف . ولا يدع المؤلف الفكرة تفلت من يده بمجرد ذكرها ، فهو يشعبها إلى شعبتين ؛ الأولى الإحساس بالانتماء العربى منذ زمن لأن القرى والنجوع إما هلالية أو زغبية ، فهى تشعر بالانتماء ليس حبًا فى البطولة وحدها ولكن حبًا فى الانتماء إلى البطولة العربية التى هى جزء منها ، أما الأمر الثانى ، فهو اهتمام الصبى منذ ذلك الوقت بقراءة السير الشعبية ، وأثر هذه القراءات فى تكوينه الأدبى ، وهكذا نجد الكاتب ينفذ من الفكرة المعروضة إلى أعماقها من حين إلى حين محاولاً التحليل ، وإن كان الوصف والسرد يغلبان على السيرة فى النهاية .

---

(١) مخطوطة " معى " ج٢ ص٥١ .

ومهما توزع حديث المؤلف فإن نقطة الانطلاق دائمًا هى القرية ، يعود إليها من حين إلى حين ، يستروح أنسامها ، ويحن إليها ويرى فيها ما لا يراه فى المدينة ، التى تلقفته بعد ذلك فصنعت منه الشخص الذى نعرفه ، ومنحته الثقافة والشهرة والمنصب ، ولكن حنينه إلى القرية لا ينتهى ، فيذكرنا بديوان أحمد عبد المعطى حجازى " مدينة بلا قلب " . وأهم ما يشده إلى القرية بساطتها وما فيها من تلقائية ، فالعمل خارج المنزل فى الوظائف كثير ، والمعرفة تشعبت وتراكمت فى أذهان الامهات ، بحيث ضاعت منهن الحكمة البصيرة (الجزء الأول ص ٢٥) ، والطبيعة التى شدت كل مهاجر إلى المدينة ، والموال الذى يردده القروى والقروية يضفى سحرًا خاصًا ، ويزرع حب الفن ؛ ولذلك نجد القطع الأدبية الراقية فى السيرة تتعلق دائمًا بوصف الطبيعة ، التى تعلق بها الكاتب منذ مرحلة الصبا " فنشأ يرنو إلى الجمال الطبيعى ويحب الريف ومناظره حبًا يملك عليه ذات نفسه : مناظر الحشائش وطنافسها الخضراء والأرز والقمح وسنابلها الشقراء ، والقطن ولوزه يتفتح وتتدلى منه خصله البيضاء ، وهنا وهناك أشجار النخيل المصعدة فى السماء حاملة أعذاقها ومشاعلها الحمراء ، والمياه تتهادى فى القنوات ، والبشنين كالطاووس يزدهى بألوانه ، والورود تتمايل مع النسيم مذيعة سر شذاها العطر ، وسقاة الأرض فى سكون الليل الجاثم على الحقول ، يتغنون على السواقى ببعض الأغانى الريفية الساذجة ، التى طالما استمع إليها النيل وقنواته منذ آلاف السنين ، كل ذلك يسكب فى نفس الصبى متاعًا ما بعده متاع . (الجزء الأول ص ٢٨) .

على أن أثر القرية الاجتماعى كان يتمثل فى وحدة القرية أمام الآمال والآلام ، والأفراح والمآتم ، كأنها أسرة كبيرة على كل فرد فيها أن يشارك الآخرين مشاعرهم ، فيفرح معهم إذا فرحوا ، ويحمل همومهم فى كل ما يصيبهم من كوارث . وأحسب أن حياة المدينة استطاعت أن تغير الدكتور شوقى ضيف فى هذا الجانب ، فلم يعد ذلك الرجل الاجتماعى إلا بقدر ما يقدم لطلابه من عطاء ، وقد أعطى فى هذا الجانب بلا حدود ، ومن هنا كان البديل الذى توفر له فى المدينة .

وكانت القرية تقيم من حين إلى حين ليالى للذكر احتفالاً بقدوم أحد أصحاب الطرق الصوفية . وكان الصبى لا يترك احتفالاً من هذه الاحتفالات إلا ويحضره للفرجة على الذاكرين والاستماع للمنشد ... ومن المؤكد أن الصوفية أدوا للإسلام خدمات عظيمة بنشره فى غربى أفريقية وأواسطها وشرقيها وفى أواسط آسيا .

وهذا النص يثير أمرين : الأول أسلوب العرض ، والثانى انتشار الطرق الصوفية من ناحية ، ودورها من ناحية ثانية ، أما أسلوب العرض فهو الأسلوب الروائى كما قلنا ، وقد أخذت السيرة من الرواية وأعطتها ، وأخذت منها أسلوب العرض وأخذت منها ضمير الغائب ، وضمير الغائب يتيح لكاتب السيرة - كما أتاح لطه حسين من قبل - أن ينطلق على سجيته ، كأنه يروى قصة شخص آخر ، فى حين أخذت القصة من السيرة الذاتية ضمير المتكلم الذى يوهم القارئ بأن القصاص يروى سيرة ذاتية .

أما الأمر الثانى : فهو الحديث عن الطرق الصوفية ، وتقف عدسة الكاتب أمام الطرق الصوفية طويلاً ، لتصف احتفالاتهم وهم يسيرون فى الشوارع ببيارقهم ، ثم وهم يقفون صفوفًا ، ويتطوحون يمينًا ويسارًا بعنف ، حتى يتخلصوا من حسية الجسد ، ولا يبقى سوى الروح واللسان يذكران الله ، وقد تراجعت هذه الصور الآن كثيراً ، وإن كانت ما تزال فى القرى النائية وفى الموالد ما تزال لها بقية ، تتضاءل أمام انتشار التعليم ، وعاد مفهوم التصوف يرتبط بجوهر الإسلام وخدمة الدين ، والوقع أن الصوفية قد نشروا الإسلام فى أفريقيا وآسيا ، حتى إن الخطوط التى ترسم فى أفريقيا لبيان حدود الإسلام وراء خط الاستواء ، تنتقل متقدمة إلى الجنوب كل عام . وقد حاول محمد توفيق البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية فى مصر أول هذا القرن ، أن يرد على منكرى العقائد الصوفية ، والداعين إلى تصفيتها باعتبارها مما دخل الإسلام فى القرن الثانى عن طريق الفرس ، بدليل أن مشايخ الطرق الأولين كلهم من الأعاجم كالجنيد ، والنهاوندى ، وأبى يزيد البسطامى ، وإبراهيم بن أدهم البلخى ، وسهل التسترى ، ومن أجل ذلك يرد البكرى ذاكراً أن الصوفية فتحت للإسلام قدر

ما فتحته سيوف المسلمين ، وإصلاح الصوفية يكون بتوجية التصيوف ، حتى يصبح مدرسة عظمى هدفها العلم بالشرع ، وإصلاح الصوفية يكون بتوجيه التصوف ، حتى يصبح مدرسة عظمى هدفها العلم بالشرع والعمل به ، ولا يكون بتصفية التصوف ، والحركة الصوفية التى دوخت المبشرين (١) .

لقد حفظ الصبى القرآن صغيراً ، وكان يتلوه تسميعاً دون أى لحن وهو فى حدود العاشرة من عمره ، ومما لا شك فيه أن هذا الجيل الذى حفظ القرآن صغيراً ، كان جيلاً متمكناً من اللغة العربية ، وسر تمكنه من لغته هو حفظ القرآن ؛ لأن القرآن ليس نصاً بليغاً فحسب ، ولكنه مجمع فصاحة وشريعة ، وقياس نحوى ومعجم لغوى .

وكأنما أراد يربط الدكتور شوقى ضيف بين عالمه الداخلى والعالم الخارجى من حوله ، لأنه يشعر بالانتماء إلى دولة وإلى أمة ، هو فرد فيها ، فما يصيبها ينعكس بالضرورة عليه سلباً وإيجاباً ، ولذلك يربط باستمرار بين حياته ، وحياة الأمة ، فثورة ١٩١٩م وما أعقبها من مناورات الإنجليز ، والخلاف الذى حدث بين سعد زغلول وعدلى ، وفشل المفاوضات مع بريطانيا ، كل ذلك جعل سعد زغلول يصبح رمزاً للأمة تجتمع حوله ، ولكن أسلوب العرض الشيق لا يربط بين الحياة العلمية والحياة السياسية وحسب ، بل يحيل الرابطة إلى وحدة عضوية .

وكان سعد قد أخذ يلهب حماسة الأمة بخطبه النارية ، فى شهرى أكتوبر ونوفمبر ، مطلع أول عام للصبى فى معهده الدينى بدمياط ، وكان طلاب هذا المعهد كغيرهم من أبناء الأمة يتأججون وطنية ، فلم تكد تنتظم الدراسة فيه يوماً ، ولم يكن للطلاب من حديث سوى خطب سعد وكلماته الملتهبة ... واستشاط الإنجليز حنقاً وغضباً ، ولم يلبثوا أن اعتقلوا سعد زغلول فى ٢٣ من ديسمبر عام ١٩٢١ مع سبعة من أعضاء الوفد ، ونفوهم إلى سيلان و منها إلى سيشل ... ولما تفاقمت المظاهرات والإضرابات ، تقرر إلغاء الدراسة فى الأزهر ومعاهده الدينية لهذا العام الدراسى ، وفى الحق إنه لم يكن عام دراسة بل عام ثورة وكفاح وجهاد . وتتعاقب الأحدث ، ويقرر الوفد عدم التعاون مع الإنجليز فى جميع المعاملات الفردية ، كما يقرر مقاطعة بنوكهم

---

(١) راجع : المستقبل للإسلام ، لمحمد توفيق البكرى ، ص ٢٠ .

وشركات تأمينهم وسفنهم وكافة أنواع التجارة معهم ، ويضطر الإنجليز إلى إعلان تصريح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ ، معترفين باستقلال مصر " . (جـ١ ص٤٦) .

على أن الحياة العلمية ليست دراسة فى المعهد ، أو المدرسة فحسب ، ولكنها أيضًا ثقافة تهم الجمهور ، ومن هنا كانت الصحف الحزبية إلى جانب اهتمامها بالخبر السياسى تهتم بالمقال الأدبى ؛ لأن الأدب فى مرحلة نشوء الأمم هو معلمها الأول ، يعرض عليها الحقائق العلمية بأسلوبه الأدبى ، ويدفعهم دفعًا إلى حب العلم ، ومن هنا اهتمت الصحف بمقالات محمد حسين هيكل ، وطه حسين ، والعقاد ، وكانوا يعتبرون من المجددين ، ومصطفى صادق الرافعى ، وكان حاملاً لواء المحافظين ، وكان الصبى يعجب بهم جميعًا ويقرأ لهم جميعًا ، ولكن طه حسين كان أقربهم إلى قلبه ، ربما لأنه بدأ حياته أزهريًا ، وربما لما يمتاز به أسلوبه من بيان وسهولة معجزة .

من هذه الفترة تبدأ الحياة العلمية تملك وقت الفتى وعقله ، حتى نهاية الجزء الأول من السيرة ، فهو يتحدث عن أول كتاب ألفه فى النحو . وكان " مغنى اللبيب " لابن هشام هو الذى أوحى للفتى مبكرًا بالحاجة إلى تبسيط النحو للناشئة ، وظلت هذه الفكرة معه حتى كان آخر كتاب ألفه عام ١٩٨٦ هو " تيسير النحو التعليمى قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده " ، هذا بالإضافة إلى كتابة " تجديد النحو " الذى أصدره عام ١٩٨٢ ، وفيهما دعوة إلى تيسير النحو وحذف كثيرمن أبوابه المختلف عليها والمعقدة ؛ لأنه ذاق ما يذوقه المعاصرون اليوم من متاعب فى دروس النحو .

على أن النحو لم يكن شغله الشاغل ، فدائرة ثقافته تتسع باستمرار ، فيشغله الأدب المهجرى الذى يقرأه عند تاجر لبنانى ، ويجد له مذاقًا خاصًا ، فى الوقت الذى كان فيه شوقى عملاق الشعر فى هذه المرحلة تنشر الصحف شعره ، وتتسابق إلى عرض كل قصيدة جديدة فتحتفل بها احتفال من ظفر بكنز ، وهكذا اتسعت دائرة الحياة الثقافية حول الصبى ، وقد كانت المرحلة خصبة حقًا ، تحاول تأكيد ذاتها ، واستجلاء هويتها ، تارة بتحصين نفسها بالتراث ، وتارة بمسايرة كل جديد تأتى به الحضارة الغربية والفكر الغربى ، ومن هنا وجدنا **قضيتى على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) ، وكتاب (فى الشعر الجاهلى) لطه حسين اللذين**

صدرا عام (١٩٢٥ ، ١٩٢٦) ، يحدثان دويًا أشبه بدوى القنابل ، فالأول يناقش فصل الدين عن الدولة ، ويرى أن الخلافة ليست جوهرًا وأصلاً من أصول الإسلام ، وقد حوكم على عبد الرازق وفصل من هيئة كبار العلماء . والثانى يشكك فى تاريخ الأدب ويطبق منهج الشك الديكارتى متأثرًا " برينان " ، ولكن الأخطر أنه يرى أن ما أتى به القرآن من أخبار وآثار لابد أن يدعمه البحث العلمى الحديث عن طريق الحفريات والآثار والنقوش وغيرها ، ليكون مؤكدًا على كل المستويات – وهو يعنى أن يكون مقنعًا لغير المسلمين أو للبشر كافة – ولكن خانته العبارة ، فأثار ضجة هائلة وصودر الكتاب ، وأحيل مؤلفه للنيابه العامة للتحقيق ، ونوقش الموضوع فى البرلمان ، وظل بين أخذ ورد ، حتى حسمت النيابة المعركة وحفظت القضية .

وقد تخرج الفتى فى معهد دمياط الدينى عام ١٩٢٦ وسط هذا الجو الفكرى المثير ، والجدل الذى يملأ صفحات الكتب ، والأخبار التى تتناقلها الصحف ، والطلاب يعيشون هذا المناخ ويناقشون ، وأصبح تلميذًا بمعهد الزقازيق الثانوى الدينى ، حين كانت قضية طه حسين تشغل الطلاب ، والأساتذة ، والمجتمع ، والصحف ، والبرلمان ، والنيابة ، فهى إذن مرحلة صراع فكرى هائل ، تصهر الجميع ، فينجلى المعدن النفيس .

وهو لا ينسى أنه أزهرى النشأة فيدافع عن طريقة الأزهر التقليدية التى تركز على المتون ، وتهتم بالشروح والحواشى والتقارير ، ويرى أن كل هذه التعليقات والتفريعات أشبه بدائرة معارف ، وأن الجامعات لم تفد من هذه الطريقة فيما يمكن أن يسمى **بعلم احتمالات النصوص** ، وهى وجهة نظر على أية حال ، وإن كانت هناك وجهة نظر مقابلة ، (فكل فعل له رد فعل مساوله فى القوة ومضاد فى الاتجاه) ، ترى أن هذه الشروح والتعليقات والتلخيصات ، والتفريعات ، لا تمثل مرحلة إبداع ولكنها تمثل مراحل كسل عقلى ، اعتمدت على المتون وأخذها على أنها معجزات تحتاج إلى الشرح والتعليق والتلخيص ، وكل هذا لا يمثل دائرة معارف بقدر ما يمثل أغلالاً وأثقالاً ، على القارئ أن يحملها أو يحتملها سواء فهمها ، أو لم يفهمها . وما زلت أذكر وأنا أدرس البلاغة فى كلية الآداب بجامعة الإسكندرية – وكنا ندرسها فى (المفتاح) للسكاكى الذى لخصه القزوينى ، و(شرح التلخيص) للتفتازانى ، (ومعه هوامش مواهب الفتاح لأبى

يعقوب المغربى ، وعروس الأفراح للسبكى وحاشية الدسوقى) ، أن الشارح حين كان يقف عند جملة ، يترك المدلول البلاغى ويدخل فى المعانى الاصطلاحية ، فتشبيه صوت المرأة بالرياض لا يلفت الشارح فيه إلا معنى الصوت وهو (مقابلة القارع للمقروع ولقالع للمقلوع من حيث هو) .

وهو يمر على أحداث ضخمة مروراً سريعاً ، كأنه يسترجع أطياف الماضى ، وكأن شريط الذكريات يمر مسرعاً عجلاً ، لأنه يريد أن يتوقف عند حياته هو لا حياة الآخرين ، فإمارة الشعر التى وضعت على رأس شوقى إكليل الزعامة يوم ٢٩ أبريل عام سبعة وعشرين وتسعمائة وألف ، والوفود الرسمية والشعبية من أبناء الأقطار وأدبائها ، من فلسطين ولبنان وسوريا ، والأردن والبحرين وعدن والمهجر ، والمغرب التى استعدت للحضور فى هذا اليوم ، ومنتدى التهذيب فى بغداد الذى قرر إقامة حفل تكرى لشوقى فى نفس اليوم الذى يحتفل به فيه بالقاهرة ، كل هذا لا يتحدث عنه إلا حديثاً عابراً ، مع أن العرب لم يجتمعوا على شاعر فى تاريخهم الطويل كما اجتمعوا على شوقى وإمارته ؛ فهو شاعر الفن الخالد ، شاعر الإسلام ، شاعر العروبة ، شاعر المسرح ، شاعر الأغنية ، شاعر الأطفال .

وهو ما يزال يمزج الأحداث الخاصة بالعامة ، فلم يلبث سعد زغلول أن مات ، وهكذا ودعت مصر زعيم الأمة ومجاهدها الأكبر ، وهو حدث ظل صداه ، يتردد فى الحياة العامة والخاصة إلى عهد قريب ؛ لأن أعلام الأمم لا ينتهون بموتهم ، فهناك من يحمل الشعلة من بعدهم ويستمر على دربهم . وينتقل من الحياة العامة إلى الحياة الخاصة ، فالجامعة المصرية تفتح أبوابها عام ثمانية وعشرين وتسعمائة وألف وتقبل تجهيزية دار العلوم ، وبذلك تحول الفتى إلى الزى الإفرنجى خلال العام الدراسى ١٩٢٩/٢٨ .

وتغيير الزى مجرد رمز ، ولكنه يعنى أنه يتأقلم مع الحياة الجديدة بسرعة ، ومع التطور الموعود ، مثلما فعل طه حسين ، حين غير زيه الأزهرى فى السفينة التى عبرت به إلى أوروبا ، ولكن جيل طه حسين كان عليه أن يقوم بعملية التطور ، لا أن يعيش التطور ، ومن هنا كان طه حسين يسابق الأيام ، أما شوقى ضيف فيساير الأيـام .

طه حسين كان عميد كلية الآداب فسمح – لأول مرة فى تاريخ الجامعة – بقبول الفتاة ، برغم كل ما وجه للجامعة من نقد ، لأنه مقتنع أن هذا حق لها ، وأن عملية التطوير لابد أن تتم على يده ، وشوقى ضيف دخل الجامعة فوجد الفتاة طالبة بها لأول مرة ، فلم يستنكر ولم يرحب ، وما كان له أن يستنكر أو يرحب ، وهو بعد فى مرحلة بين البينين – كما يقال – فقد انتظم مع زملائه من حملة تجهيزية دار العلوم فى سنة تمهيدية ، يتعلمون اللغات الأجنبية قبل التحاقهم بالسنة الأولى .

ولكن الأيام تجرى مسرعة عجلة ، فيعزل طه حسين من قبل صدقى باشا رئيس الوزراء ؛ لأنه رفض الكتابة ى صحيفة حزبه المسمى بحزب الشعب ، " ورد وسطاءه رداً غليظًا ، إذ كيف يتعاون مع من ألغى دستور الأمة ، وخنق الحريات ، واضطهد الأحرار ، وسفك الدماء الطاهرة فى انتخاباته المزورة ، فعزله صدقى من منصبه ، ونقله إلى ديوان وزارة المعارف ، فلم يذهب إليها وقدم إلى وزيرها استقالته ، وأضرب الجامعة ... وغضب لطفى السيد – مدير الجامعة – بسبب هذا العدوان على استقلال الجامعة وقدم إلى الحكومة استقالته " [(١)] .

ويتتلمذ الفتى على يد أحمد الإسكندرى – بدلاً من طه حسين وإبراهيم مصطفى ، وأمين الخولى ، وعبد الوهاب عزام ، وأحمد أمين ، ومصطفى عبد الرازق ، هذه الحلقة الذهبية التى وهبت نفسها للعلم وأعطت بغير حدود ، ولكن طه حسين يعود فى العام الأخير للفتى فى الجامعة ويدرس معهم كتابى " الموازنة " للآمدى ، " وتاريخ الأدب الإنجليزى " لتين ، وهو هنا يحرص على الثقافتين العربية الأصيلة ، والغربية بمناهجها النقدية المعاصرة ، ويمر صاحب السيرة مروراً سريعًا على مرحلة عمله بمجمع اللغة العربية – الذي سيصبح عضواً فيه بعد فترة من الزمن – لأنها كانت مرحلة قصيرة ، فلم يلبث طه حسين أن عَيَّن لأول مرة بكلية الآداب معيدين ، ويُختار الفتى معيداً بقسم اللغة العربية خلال العام الدارس ١٩٣٧/٣٦ ، ويبدأ رحلته مع الدراسات العليا ، فيختار موضوع " حركة النقد فى كتاب الأغانى " ، ومن هنا سيطر مبكرًا على مادة الشعر العربى وتاريخه ، لأن كتاب الأغانى موسوعة كبرى فى تاريخ الشعر العربى ،

---

(١) «معى» ، ص ١٠٠ .

وناقش رسالة الماجستير فى يناير ١٩٣٩ ، وبدأ على الفور مع أستاذه طه حسين فى اختيار موضوع للدكتوراه ، وهو (الفن ومذاهبه فى الشعر العربى) ، وكأنما حياته بحثًا متصلاً فى هذه الفترة التى تنتهى بالجزء الأول من سيرته .

ويبدأ الجزء الثانى من السيرة بحصول الفتى على درجة الدكتوراه ، وتعيينه مدرسًا بالقسم الذى تخرج فيه ، منذ سنوات وعمل فيه منذ تخرج ، فها هو ذا بعد ست سنوات يصبح زميلاً لأساتذته ، وأستاذًا لتلاميذه ، وهو ما يزال يرى الصداقة أكثر دوامًا ، وأرحب صدراً من الحب ؛ لأن الصداقة مشتقة من الصدق فى المودة ، والحب أنانى بين فردين كل منهما يريد الاخر لنفسه وحسب ، وشوقى ضيف نادر الحديث عن هذه الأمور التى نسميها إنسانية ، فمشاغله لها خط واحد يدور من بعيد أو قريب حوله هو البحث العلمى ، كأنما محور حياته قد تحدد ، وهدفه قد تحدد ، وهو يسير إلى هدفه الذى يعرفه فلا يحيد عنه ، ويجد العون من الأصدقاء أساتذة وزملاء وطلابًا ؛ ولذلك يتوقف عندهم لأنه يكبر الصداقة ومن ثم يكبر الوفاء ويجله .

والنماذج التى ضربها أصبحت نادرة فى أيامنا هذه التى تتسم بالمادية المفرطة ، فقد مرض عبد العزيز فهمى – عضو المجمع – عامًا كاملاً ، فلما شفى من مرضه ، وهب مكافأته المجمعية طوال العام لطبع كتاب جيد لأحد الشبان ، ووقع اختياره على رسالة شوقى ضيف بناء على تزكية طه حسين ، ويقابل « شوقى ضيف » عبد العزيز فهمى لإهدائه نسخة من الكتاب بعد طبعة وشكره على ما قام به ولا يجد فرصة ينفذ منها إلى موقف تربوى إلا استغلها ، فهو أستاذ يعلم ويوجه ، ومن هنا وقف أمام عبد العزيز فهمى وهو يقرأ رسالته ، فيستوعب الصفحة فى ثوان كأنما طبعت فى ذاكرته ، ثم أخذ يناقشه مناقشة القارئ الواعى ، ومن هنا يتجه إلى معلمى الناشئة ليدربوهم على سرعة القراءة . والحقيقة أن معلمى الناشئة لا يستطيعون ذلك ؛ لأن سرعة القراءة أصبحت علمًا قائمًا بذاته فى كثير من الدول المتقدمة ، فهم يبدءون مع الطلاب ببضعة أسطر وبأجهزة وتقنيات معدة لهذا الغرض ، ويتركون للطلاب فرصة ، ثم يمحون الأسطر ، ويزيدون عدد الأسطر فى كل مرة ؛ حتى يمكن للطلاب فى النهاية أن يقرءوا الصفحة فى ثوان ، وينتقلون من السهل إلى الصعب ، ومن التخصص إلى الكتب الثقافية العامة ، وهكذا وفق نظام لا يستطيعه المدرسون المجهدون فى مدارسهم ؛ لأنهم لا يعرفون هذا النظام أولاً ، ولأنه يدرك بالدربة وحدها .

ويؤلف (الفن ومذاهبه فى النثر العربى) ويطبعه عام ١٩٤٦ ، ويهدى نسخة لعبد العزيز فهمي ، فيجد الشيخ الذى بلغ الثمانين من عمره ، يبذل جهداً عنيفًا فى ترجمة (مدونة جوستينيان) فى الفقة الروماني . لم يكتف بالنسخة الفرنسية ، بل رأى أن يتزود باللاتينية حتى يرجع إليها إذا توقف في عبارة ، وكان الربو يصيبه بنوبات متتالية فيكاد جسده الضاوى يتهاوى ، ولكنه يعود بعد كل نوبة صلبًا وقاد الذهن منكبًا على العمل الشاق ، وهكذا يقدم لنا النموذج الحى والمثل الأعلى للإخلاص فى العمل العلمي ، الذى لا يرجو صاحبه من ورائه كسبًا ماديًا ، فهو قد وهب نفسه للحياة العلمية ، كما وهب أكثر جيله من المثقفين أنفسهم للعلم ، أمثال : طه حسين ، والعقاد ، وأحمد أمين وغيرهم ، وهؤلاء كانوا القدوة التى اقتدي بها شوقى ضيف ، فإذا كنا اليوم نعجب له ونعجب به ، ونعتبره فريداً فى حياتنا المعاصرة ، فقد كانت القدوة أمامه فى هؤلاء الأعلام ، الذين يحاول البعض اليوم الانتقاص من شأنهم لا لشئ ، ولكن لأننا نتلذذ بمحاولة تحطيم شوامخنا ، كأن ذلك سوف يمكننا من احتلال مواقعهم ، وكل ما صنعناه ، أننا أفقدنا الشباب المثل الأعلى وتركناه حائراً .

ويمنحنا عدة صور للوفاء : وفاء الصديق لصديقه ، ممثلاً فى الدكتور سامى الدهان محقق ديوان أبى فراس ، ووفاء التلميذ لأساتذته ، وهو يشيد فى كل حين بطه حسين ، وعبد العزيز فهمي ، وغيرهما ، ثم وفاء الأساتذة لتلاميذهم ، وهنا يذكر أن ثورة يوليو عندما قامت أعلنت وجود تطهير الإدارة الحكومية وتألفت لجنة للتحقيق فيما تلقته م شكوى « وفوجئ صاحبى بخطاب من أستاذه الدكتور عبد الوهاب عزام - عميد الكلية الأسبق ، وكان قد أصبح سفيراً لمصر فى باكستان - وإذا هو يقول فى خطابه : إن كنت قد ضقت بشئ فى كليتك - وكان اللغط قد تكاثر عنها فى الصحف - فإن لك عندى عملاً فى السفارة على الرحب والسعة وأنا فى انتظار ردك . فرد عليه شاكرًا ، وذكر له أن لا علاقة له بكل ما حاق بالكلية وأنه يؤثر البقاء فى كليته مع طلبته ، ولا يبغى بذلك بديلاً . وهى صورة رائعة من صور وفاء الأساتذة لتلاميذهم » (١) .

---

(١) جـ٢ ص١٠ .

ولعل الدافع الذى دفعه فى كثير من الأحيان إلى الكتابة هو كراهيته للظلم ، فتلك الحملات الظالمة التى نالت شوقى بعد وفاته ، هى التى دفعته إلى الكتابة عن شوقى محللاً شعره الغنائى والتمثيلى ، موضحاً مكانته الرفيعة فى الشعر العربى الحديث ونشره عام ١٩٥٣م ، وعلى الرغم من اختلافه مع كل من طه حسين والعقاد فى آرائهما حول شوقى ، فإن طه حسين والعقاد بالذات هما اللذان رشحا كتابه لجائزة الدولة التشجيعية ، ولم تأخذهما العزة بالإثم ، فحمد لهما هذا الموقف .وهكذا الشأن عندما توفى العقاد ، وكثر الجدل حول قيمته الأدبية والفكرية وأى شئ يبقى منه للتاريخ ، أحس أن الرجل لم ينصف ، ومن هنا كان كتابه عنه وما فيه من ورد على النقد الظالم ، ومحاولة الأنصاف للرجل ، وإذا كان هذا كله رد فعل لمواقف معينة ، فالحقيقة أن شوقى ضيف حين يذكر لا يذكر بكتابه عن العقاد أو غيره ، بقدر ما يذكر بهذه الخريطة التى وضعها للتطور الأدبى منذ العصر الجاهلى حتى العصر الحديث ، وكأنما عاد ما أفاده من كتاب الأغانى فى بداية حياته ، يصبه بعد أن نضج ، ويوجهه لوضع معالم هذا التاريخ الأدبى .

لم يقم أحد من قبل بهذا العمل العلمي الضخم ، الذى صدر فى ثمانى مجلدات [1] : (العصر الجاهلى - العصر الإسلامى - التطور والتجديد فى الشعر الأموى - العصر العباسى الأول - العصر العباسى الثانى - عصر الدول والإمارات فى الجزيرة والعراق - عصر الدول والإمارات فى مصر والشام - الأدب العربى المعاصر فى مصر) ، وهو جهد لجان علمية تستغرق أجيالاً ، وليس جهد فرد . وتوقف عند الأدب العربى المعاصر فى مصر ، وإن كان قد أصدر كتابه (دراسات فى الشعر العربى المعاصر) ، ولكنه رأى أن الشعر العربى الحديث فى بيئاته المختلفة ، يحتاج إلى زمن وجهد لا يقوى عليه إلا الشباب الذين يمكنهم أن يسيروا على الدرب الذى عبده لهم ، ومن هنا بدأت اهتماماته أخيراً تتجه إلى أمر يشغل بالنا جميعاً ، وهو مشكلة الضعف البين فى اللغة العربية ، وعلى الأخص فيما يتصل بالنحو العربى ومشكلات تعلمه ، فاتجه إلى دراسة المدارس النحوية أولاً ، ثم ألف كتابه (تجديد النحو) ، وأخيراً أصدر (تيسير النحو قديماً وحديثاً مع نهج تجديده) وألغى فيه كثيراً من أبواب النحو التى اختلف فيها

---

(١) صدرت أجزاء أخرى بعد ذلك .

القدماء ، وذكر مصادره فى الحواشى ، ليكون كتابه حجة على من يدعى أن المشكلة معاصرة ، ترجع إلى أننا لا نأخذ طلابنا بالشدة فى لغتهم ، ولا ترجع فى بعض أسبابها إلى المادة العلمية نفسها .

بدأت مرحلة ثالثة فى حياة شوقى ضيف ، فقد بدأ ينفتح على العالم ويرحل فى كل اتجاه ، وهو الذى عكف على مكتبته وكليته وطلبته طول هذا الزمن ، كان ذلك عام ١٩٥٦ حين وجه اتحاد الكتاب فى رومانيا وروسيا دعوة إلى اتحاد كتاب مصر كى يرسل وفداً لزيارة البلدين ، ووقع الاختيار على خمسة كان هو واحداً منهم ، ولعل هذه كانت البداية ، لأنه سوف يمكث بعدها خمس سنوات في مصر ، قبل أن يبدأ السفر بطريقة شبه دورية على مدى عشرين عاماً .

أما الرحلة الأولى إلى روما ، فقد استغرق وصفها صفحات وصفحات ، فهو يتحدث عن الفاتيكان وقصره ، وبصفة وصف أديب تلتقط عينه كل جزئية ، ويزور روما فيصف مبانيها ، وشوارعها ، ونافوراتها المشهورة ، ويرتد به الزمان إلى أيام مجدها وعزها ، ويعود به الحاضر إلى واقعها . ثم يسافر إلى رومانيا ، فيتوقف عند بوخارست ، ويلفت نظره ما أعده المسئولون هناك للأدباء والمفكرين من أسباب الراحة ممثلة فى بيوت خاصة بهم ، وتستقبلهم أثناء تأليفهم لأعمالهم ، وتهيئ لهم الجو المريح والهدوء المطلوب والتفرغ المرغوب ، ثم هى تكافئهم بعد ذلك مكافآت سخية على ما ينجزون من أعمال ، وكأنه يوازن فى الواقع بين الأديب هناك والأديب فى الوطن العربى الذى تسحقه الوظيفة ومطالب الحياة ويلهث وراء مشكلاته اليومية ، ثم يعود اخر النهار كى يكتب ، فهو فعلاً شمعة تحترق واحتراقها يكون سريعاً ، لأننا لم نعرف كيف نحافظ عليها فنوقدها وقت الحاجة . ويعجبه اتجاهم العملى ، فهم قد قضوا على الأمية هناك بعد أن أسهم فى هذا جميع أفراد الشعب ، فقد فرضوا على كل قارئ أن يعلم واحداً ، وعلى كل مؤسسة أن تكافح الأمية بين العاملين فيها ، ولو صنعنا هذا فى وطننا العربى لقضينا على الأمية نحن أيضاً ، ولكننا لا نريد أو لا نود أن نتعب أنفسنا فى التنفيذ ، ولتبق الأمية تشكل ستين فى المائة حتى تتولاها الأجيال الاتية .

ثم سافروا بعد ذلك إلى موسكو ، ويتحدث عن كل شئ هناك : الحياة العلمية حيث يتعلم التلميذ فى المرحلة الثانوية كيف يسوق السيارة ، ويتعرف على أجزائها حتى يصلح أعطالها ، ويدرس أجزاء الراديو والتليفزيون ، حتى إذا انتهى من هذه المرحلة كانت دراسته عملية مبنية على أساس نظرى . ويتحدث عن مزارع الاتحاد السوفيتى وأنواعها : الحكومية منها والتعاونية ، وكأنه يريد أن ينقل إلى القارئ صورة عما رآه تغنيه عن المشاهدة ، وتسعفه فى ذلك عينه اللاقطة التى عرفناها فى وصفه للطبيعة أيام طفولته .

« وزار صاحبى ورفاقه الكرملين ، وأمامه ساحة واسعة كبيرة وحوله سور به أضرحة لزعماء روسيا ، وعلى ظاهره من الخارج شواهد بأسماء بعض الشخصيات المدفونة بجواره . وبناء الكرملين مقسم ثلاثة أقسام : قسم لمتحف ، وقسم لمجلس السوفييت الأعلى واللجنة المركزية ، وقسم لدوائر الحكومة ، وقد بدءوا بناءه فى القرن الحادى عشر ، وظلوا يضيفون إليه ملاحق جديدة حتى القرن الخامس عشر الميلادى ، وعلى السور أبراج ذات رءوس تشبه المسلات بنيت قديمًا للحراسة ، وللكرملين مدخلان كبيران أحدهما للمارة والثانى للسيارات ، وقد دخل صاحبى مع رفاقه المتحف ، وهو مكون من دورين : أعلى وأسفل ، وصعد إلى الدور الأعلى على سلم عريض من الرخام ، ورأى فى أعلاه مرآتين كبيرتين مزينتين بالتماثيل ، كما رأى ساعة كبيرة على مقعد مزخرف ، وأخذ يشاهد المعروضات فى الدور ، وكان أول ما شاهده دروع الفرسان النحاسية وغير النحاسية ورأى خوذة – خالها تركية – كتب فى أعلاها : لا إله إلا الله محمد رسول الله وكتبت وسطها آية الكرسى فى شكل دائرى ، وشاهد كثيرًا من أسلحة القرون الماضية سيوفًا ، وغير سيوف محلاة مقابضها بالجواهر ، كما شاهد قسمًا خاصًا بالساعات ، وقسمًا خاصًا بثياب رجال الكنائس المزركشة ، والكتب المقدسة مرصعة بالجواهر واللآلى ، ومعها صور للعذراء ولبعض القديسين ، ويزخر هذا الدور العلوى بأوان لا حصر لها ذهبية وفضية ، وبعضها مهدى من الدول إلى القياصرة ، حملها إليهم سفراؤها ، وتمتد التواريخ على التحف منذ القرن الخامس عشر ، وكأنه لم يضع شئ مما كان فى قصور القياصرة أثناء الثورة الروسية الدامية . وتجسم فى الأوانى صور وتماثيل كثيرة ، والزجاجى منها والخزفى محلى بالذهب

والفضة ، والأطباق الصينية محلاة بزركشة بديعة ، وكذلك الصينيات ، والكئوس الكبيرة والصغيرة ، وتكثر الشمعدانات والتماثيل المتخذة من سن الفيل للأسد والصقور ، وفي جانب من هذا الدور أواني بطرس الأكبر الذهبية »[1] .

أردت بهذا النص المطول الذي يصور الدور العلوي من قصر الكرملين ، أن أعرض للقارئ كيف يصف شوقي ضيف وكيف يعرض مشاهده ، كأنه أمين المتحف يراجع سجلاته ، فلا يترك صغيرة ولا كبيرة ، وينتقل بعد ذلك إلى بقية أجزاء القصر ، ثم إلى بقية الأماكن التي زارها هنا وهناك ، ومن هنا يتضح مدى أهمية الوصف عند شوقي ضيف ، ليس فقط وصف المتاحف العديدة التي كان يهتم بها في كل مكان زاره ، ولكن أيضًا وصف المدن ، لا من حيث هي أبنية وشوارع ومعالم ومتاحف ومكتبات وجامعات وحسب ، ولكن أيضًا من حيث هي مجتمعات لها عادات وتقاليد ، وبشر لهم طموحاتهم ، وعواطفهم ، وآمالهم ، وآلامهم ، ومثلهم العليا في الحياة ، وينقل صورًا من لهوهم وجدهم ، حتى لا نعود محتاجين إلى لوحات توضيحية .

وفي طريق عودته إلى مصر تقوم حرب ١٩٥٦ فيتوقف في بيروت مدة حتى ينجلي الموقف وتفتح المطارات ، ولكنه لا يضيع هذه الفترة سدى ، ثم هو منفعل بهذه الحرب القذرة ، التي تآمرت فيها ثلاث دول على مصر ، كأنما هو تحالف دولي من أجل كسر شوكة مصر ، يذكرنا بالتحالف الدولي الأول والثاني والثالث ، أمام نابليون في القرن الماضي ، إنها الدول الكبرى التي لا تريد لغيرها أن يكبر ، ولكن الدول لها أعمار كما يقول ابن خلدون في مقدمته ، وهكذا تتحول دول عظمى بعد هذه الحرب إلى دول من الدرجة الثانية ، لا تستطيع الحفاظ على مستعمراتها فتفقدها واحدة إثر أخرى ، وهنا يكتب شوقي ضيف مقاله (استالينجراد الثانية) يوازن فيها بين بور سعيد في صمودها ، أمام العدوان واستالينجراد في صمودها أمام هتلر ، كلتا المدينتين قاومت وتحملت كثيرًا من الدمار ، ولكنها افتدت أمتها في النهاية .

وهنا نحس كأن شوقي ضيف قد قال أهم ما يود أن يقول ، ولذلك يجري مسرعًا

---

(١) ج٢ ص ٢٠ .

عجلاً في مذكراته ، ويمر على أحداث يعبرها ، كأنه لا يريد أن يتذكرها أو يذكرها ، فقد قال أهم ما عنده من وجهة نظره ، ولم يبق لديه إلا بعض معالم على الطريق . ولذلك يذكر اختيار المجمع العلمي العراقي له عضواً مراسلاً عام تسعة وخمسين وتسعمائة وألف ، واختياره ليشترك في امتحان ليسانس الآداب بفرع الخرطوم ، وزيارته لدمشق في مهرجان الشعر الثاني الذي أقامه المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ، ودعوته عام واحد وستين وتسعمائة وألف لإلقاء محاضرة بالمركز الثقافي بحلب ، ثم دعوته أستاذاً زائراً مدة أسبوعين بجامعة بيروت العربية ، وكأنه يقفز قفزاً وإن كان قد توقف بطبيعة الحال أمام قلعة حلب وتذكر سيف الدولة وشاعره المتنبي ، كما توقف أمام الطبيعة الخلابة بلبنان .

وتوقف وقفة قصيرة أمام سنوات قضاها في عمان بالأردن معاراً من جامعة القاهرة ، وإن كانت هذه الوقفات الصغيرة أمام الأمور الحياتية قد حل محلها وقفات طويلة أمام الحياة الفكرية ، فدروسه هناك أتاحت له فرصة دراسة الحياة الثقافية أيام الحروب الصليبية وتبين له خطأ المستشرقين ومن تابعهم من الباحثين العرب ، حين عدوا هذه الفترة (القرنين السابع والثامن الهجريين على وجه الخصوص) فترة ركود وضعف ، فقد رأى أن الأمة وهي تشحذ قواها جميعها ، وتستطيع أن تقضي على التتار الذين اندفعوا كالسيل لم يقف في طريقهم شئ سوى (عين جالوت) التي عبرت عن وحدة الجبهة في مصر والشام ، والتي استطاعت استعادة القدس من أيدي الصليبيين ، ثم القضاء عليهم نهائيًا وإلقاءهم في البحر ليعودوا من حيث أتوا ، لا يمكن أن تكون أمة لاهية واهنة لا حربيًا ولا فكريًا ، فحاول أن يرد إلى العصر اعتباره . وما زالت زياراته تترى فهو في بغداد مدة أسبوعين بدعوة من جامعة بغداد ، ثم هو في إستانبول بعد ذلك مع أسرته سائحين ، وإذا كانت بغداد سوف تأخذ منه الكثير بعد ذلك وهو يدرسها ، فقد توقف عند إنطاكية في سياحة ، وتذكر مدائح أبي تمام لمحمد بن يوسف الطائي وجنوده البواسل ، وهم ينازلون جند بيزنطة في الأناضول شتاء ، والثلوج المتراكمة على الجبال وطرقاتها الضيقة ، وارتفاعها الشاهق ، وكان يتصور وهو يقوم بتدريس تلك المدائح لطلابه أن أبا تمام إنما كان يبالغ ، حتى إذا رآها رأى العين ، يتيقن أن أبا تمام كان يصف بطولة حقيقية .

وما يزال شوقي ضيف يمزج بين الأحداث السياسية وسيرة حياته بأحداثها الخاصة فيتوقف وقفة قصيرة عند حرب ١٩٦٧ ، كأنما يريد أن يقول أمرين : الأول أننا نعيش في عصر أثرت فيه السياسة في كل جوانب الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، فلا يكاد الإنسان يخلو نفسه حتي يروعه حدث سياسي ، وكأننا نتنفس السياسة مع الهواء كل حين ، والأمر الثاني أننا اعتدنا هذه الحياة حتي أصبحت وهي تشغلنا لا تشغل إلا مساحة محدودة من فكرنا سواء أكانت أخبارًا سارة أو مؤلمة ، فقد « تكسرت النصال على النصال » من طول ما تجرعنا وعانينا . ولكن النكسة لم تمر دون أن يستغلها كما عودنا أن يختزن كل موقف ، وأن يحوله إلى دراسة جادة ، فقد أصدر كتابه « البطولة في الشعر العربي » محاولاً قدر طاقته وجهده أن يمسح أثر الانهزام ، وأن يقول لنا : إن حياة الأمم مليئة بالانتصارات ، وحياة الأمة العربية على وجه الخصوص حياة يحتل فيها النصر صفحات مشرقة ، أما الهزائم فهي نقاط لا تلوث الصفحات ، وإن الإنسان يسقط ويقوم ولا ينهزم إلا إذا هزمت إرادته .

وأحيل إلى التقاعد في صيف عام ١٩٧٠ ، ولكنه لم يتقاعد ، فالتقاعد من القعود ، وهو لم يتعود أبدًا ، لقد بدأ أخطر مشروع له منذ عشر سنوات وسيبقى مشغولاً به عشر سنوات أخرى ، إنه تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي ، في العصر الإسلامي ، التطور والتجديد في الشعر الأموي ، في العصر العباسي الأول ، في العصر العباسي الثاني ، عصر الدول الإمارات جـ١ ، عصر الدول والإمارات جـ٢ ، الأدب العربي المعاصر في مصر ، دراسات في الشعر العربي المعاصر ، إنها موسوعة لا ينهض بها فرد عادة ، وإنما تنهض بها مؤسسة تبقى أجيالاً تصدرها جزءًا بعد جزء ، ولكنه نهض بهذا العمل الكبير وحده ، منذ فتوته إلى شيخوخته ، وكأنه أحد عمالقة تراثنا الذين وهبوا حياتهم لعمل علمي كبير ، كأنه الطبري يكتب « التاريخ » أو « التفسير » ، أو كأنه الجاحظ يكتب موسوعته « الحيوان » ، أو كأنه البخاري أو مسلم يكتب « صحيحة » ، أو كأنه الأصبهاني يكتب « الأغاني » ، أو كأنه الخطيب البغدادي يكتب « تاريخ بغداد » ، أو كأنه ابن منظور يكتب « لسان العرب » ، أو كأنه القلقشندي يكتب « صبح الأعشى » ، أو كأنه ابن حزم يكتب « المحلى » .

ويذهب إلى جامعة الكويت متعاقداً فتتسع دائرة تأثيره ، ويقوم بالتدريس ، ويشرف على طلاب الدراسات العليا ، كما أشرف من قبل ومن بعد على طلاب جامعة القاهرة والجامعة الأردنية ، ويكون مدرسة علمية تمتد من المشرق إلى المغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب ، ولا أبالغ إذا قلت إن جيل الأساتذة الآن بالجامعات العربية ، تتلمذ على يديه بطريقة مباشرة ، أو على كتبه - أي - بطريقة غير مباشرة ، فكل أقسام اللغة العربية مدينة له ولعلمه .

ولقد بدأ يحصد ما زرع ، وكان أول الغيث اختياره عضواً بمجمع اللغة العربية عام ستة وسبعين وتسعمائه وألف ، وهو فى المجمع يحاول منذ اختياره أن يقوم بما سوف تذكره له الأجيال القادمة من محاولات مستمرة ، لتيسير النحو العربى ، وهو شغله الشاغل الآن بعد أن فرغ من تاريخ الأدب ، ورأى تعلم الشباب للعربية ، فرأى أن تيسير النحو وسيلة إلى رأب الصدع وما زال يحاول مرة ومرة ومرات .

وفى سبتمبر عام تسعة وسبعين قرر المجلس الأعلى للفنون والآداب منحه جائزة الدولة التقديرية للآداب ، وجاء فى حيثيات القرار (إنه يعد نمطًا فريداً فى جيله ، وإماماً فى تخصصه ، وهو بحق ظاهرة ثقافية ، ودلالة أصيلة على قدرة مصر الفكرية ، وقد أصبح بحق مفخرة كبيرة لمصر فى شتى الأروقة العلمية ، والجامعيات العربية وغير العربية) .

وفى يناير عام ثلاثة وثمانين ، نشرت الصحف نبأ حصوله على جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربى ، « تقديراً لأعماله فى أدب القرنين الثانى والثالث الهجريين ، بالإضافة إلى دراساته فى تاريخ العربى قديمة فى مشرقه ومغربة ، وما كان منها فى الدراسات القرآنية والنحوية والبلاغية ، التى تعمق الدراسات الأدبية ، مع تميز أعماله بالنظرة الشاملة للأدب العربى نثره وشعره ، على طول عصوره ، وتعدد فنونه واختلاف بقاعه » .

ويرد هو على هذا التقدير قائلاً : إن هذه الجائزة العالمية العظيمة ستدفع دفعًا إلى منافسه حميدة فى الأقطار العربية بين المتعمقين فى الدراسات الإسلامية ، ودراسات الأدب العربى ، والدراسات العلمية ، للفوز بقصب السبق ، مما يعود بأكبر النفع على نهضتنا العربية المعاصرة .

وها نحن نقترب من النهاية ،والنهاية تتمة لمشهد البداية ، كانت البداية بنفحات الدين الحنيف ، والقرآن الكريم والكتاب والمعهد الدينى ، وها نحن اليوم مع شوقى ضيف فى رحلة الحج ، يخلص من ضوضاء الحياة ومشاغلها المادية ، لينعم فترة بالحياة الروحية ومتاعها الهنئ الذى لا يدانيه متاع .. واكتحلت عيناه بقبر الرسول ، وسار فى طرقات عبرها الرسول من قبل ، وصور التاريخ لا تبرح خياله ، كأنما ارتد إليه الماضي بعبقه يحيا فى الواقع مرة أخرى .. ثم سار إلى مكة المكرمة ، وطاف حول الكعبة ، وأتم شعائر الحج ، فغسل قلبه وملأ روحه بقوة ربانية ، وأحس كأنما خلق من جديد خلقًا آخر .

هكذا توقف القلم بعد مسيرة طويلة طولها خمسة وسبعون عامًا ، تمثل القرن العشرين فكراً وثقافة وسياسة ، وتربية ، وتجارب من خلال رحلة فرد متميز ، يعرضها عرضًا أدبيًا ، يتوقف ويتأمل حينًا ، ويسرع الخطى حينًا آخر ، ويستخلص العبرة فى الخطى كل الأحيان ، يمزج بين التركيب والتحليل فى البناء ، ولكنه لا يعرض الصورة بكل جوانبها ، فقد ترك فراغًا لا ندرى له سببًا ، لمسة حينًا لمسًا خفيفًا ، حين تحدث عن الوفاء ، ولكن هذا لم يشبع نهمنا ، **فشوقى ضيف المفكر واضح تمام الوضوح ، ولكن شوقى ضيف الإنسان فى بيته ، مع أولاده ، فى عاداته وتقاليده ، فى عواطفه بكل مدلول الكلمة ، كل هذا أسدل عليه ستورًا كثيفة ، وحجبه عنا ، كأنه يراه نوعًا من الخصوصية ، قد لاتفيد الناس ، أو نوعًا من الضعف البشري لا يليق بالكبار** ، أو هو نتيجة النشأة الريفية التى تعتبر الحديث عن الأسرة أمرًا لا يليق ، ولكن كل هذا لا يقنع القارئ ، فلمسة حنان هنا ، ولمسة أبوة هناك ، وأسلوب حياة فى طرق التهيؤ للكتابة ، أو فى الترويح عن النفس من خلال الحياة اليومية ، كانت كفيلة بأن تزيد السيرة إمتاعًا وخصوبة وتشويقًا .

أ.د. ماهر حسن فهمى

عميد كلية الإنسانيات

جامعة قطر

٣ - تحية لشوقي ضيف

قداسة البابا شنودة الثالث

بسم الله الواحد الذى نعبده جميعًا ، أحييكم جميعًا إخوتى ، وأحيى ضيفنا الكبير الأستاذ الدكتور شوقى ضيف .

أيها الأخوة الحضور ، فى الحقيقة أنا أحسب نفسى سعيداً حينما أتحدث عن هذا الشيخ الوقور والأستاذ الجليل الدكتور شوقي ضيف ، فأنا أحيى هذا الشيخ الذى يكبرنى بثلاثة عشر عاماً من الزمان ، وأحيى هذا الأستاذ الذى تخرج فى كلية الآداب قبل تخرجى فيها باثنى عشر عاماً ، والذى عين مدرساً فى هذه الكلية نفسها قبل أن ألتحق طالبًا بقسم التاريخ فيها ؛ لذلك أعتبره من أساتذتى فى الكلية .

وأمام شيخوخته ووقاره أتذكر قول أحد الآباء : إذا جلست فى وسط الشيوخ فكن طموحاً ، وإن سألوك عن شئ فقل لا أعرف .

أيها الأحباء ، نحن فى هذه الاحتفالية لا نُكرمُ هذا الرجل العظيم وإنما نحن نكرم شخصيته ، ويكرمه إنتاجه وإنجازاته وجهدهُ الطويل فى المعرفة ، ونحن بتكريمه لا نستطيع أن نضيف إليه شيئًا ، فالكوب المملوء ماء لا يمكن لقطرة توضع فيه أن تضيف إليه شيئًا ، فنحن بالمثل لا نستطيع بتكريمنا هذا أن نضيف للدكتور شوقى ضيف شيئًا ، بل بالعكس نحن نقف أمامه وأمام علمه الغزير فى خشوع ؛ لهذا الرجل مجالات عديدة فى اللغة والأدب ، قد تبحر فيها ، وجمع اللغة والأدب فى بحره ، وإننا نقول عنه فى هذا المجال كما قال الشاعر :

ليس على الله بمُستَنْكَرٍ أن يَجْمَعَ العالَمَ فى وَاحِدِ

فالذى يقرأ لشوقى ضيف لا يحتاج إلى قراءات أخرى فى الموضوعات التى طرقها هذا الأستاذ الكبير .

ولأعماله العظيمة كرمته الدولة فصار أستاذًا ورئيسًا لقسم الأدب العربى فى كلية الآداب فى سنة ١٩٦٨م ، وحصل على جائزة الدولة التقديرية فى الأدب العربى سنة ١٩٧٩م وصار عضواً فى مجمع اللغة العربية سنة ١٩٧٦م ، فأمينًا عاماً سنة ١٩٨٩م فنائبا لرئيس المجمع سنة ١٩٩٤م فرئيسًا للمجمع سنة ١٩٩٦م ، وصار عضواً فى المجلس القومى للثقافة والفنون والآداب ، وعضواً فى المجمع العلمى المصرى ، وعضواً فى الجمعية الجغرافية ، ونال درع جامعة القاهرة ، ودرع المجلس الأعلى للثقافة ، كما نال درعًا ثالثًا هو درع الثقافة الجماهيرية .

كل هذا من تكريم الدولة له ، وهذا التكريم - على كثرته واتساعه - تكريم محلى ، فهل كرم هذا الرجل العلامة عالميًا ؟ نعم ، لقد كرمته البلاد العربية والبلاد الأجنبية على حد سواء ، فقد كرمته إنجلترا وأمريكا والصين ؛ فقد ورد اسمه فى دائرة معارف الأدب العربى فى لندن وفى نيويورك ، وبعض الجامعات الأمريكية تقتنى كتبه ، وكتب عنه كثير من أدباء الغرب ، كما أن كتبه عن الأدب المعاصر ترجمت إلى اللغات الأجنبية المختلفة ، فكتابه (عالمية الإسلام) ترجم إلى اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية ، وأخيراً إلى اللغة الصينية ، فهو له شهرة واسعة فى البلاد الأجنبية ، أما فى الدول العربية فهو أشهر من نار على علم ، فقد اختير رئيسًا لاتحاد المجامع اللغوية العربية ، وألقى كثيراً من المحاضرات فى جامعات بيروت وبغداد والرياض ، واشترك فى تأسيس جامعة الأردن وجامعة الكويت فعين (عضو شرف) فى مجمع اللغة العربية بالأردن ، ونال درع جامعة الأردن ، وعين (عضو شرف) فى المجمع العلمى العراقى . كما أنه نال من السعودية جائزة الملك فيصل العالمية فى الأدب .

وفى إيران ترجم كتابه (فى الأدب والنقد) إلى اللغة الفارسية (الإيرانية) ، وقدمت باحثة إلى جامعة طهران رسالة عن آرائه النقدية فى الأدب ، ونالت عليها درجة الامتياز .

ولا غرابة فى أن يكرم هذا الرجل كل هذا التكريم ، فهو ذو كفاءات أدبية متعددة :

فهو مؤلف أصدر أكثر من خمسين كتابًا ، كل كتاب منها يعد مرجعًا علميًا مهمًا كانت تفتقده مكتباتنا العربية .

وهو مؤرخ أرخ للأدب العربي في كل عصوره ، من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث ، وأرخ لمجمع اللغة العربية في خمسين عامًا ، وأرخ لكثير من الأدباء الذين كتبوا باللغة العربية نثرًا وشعرًا .

وهو أستاذ جامعي أشرف على كثير من الرسائل العلمية في الأدب والنقد ، وله تلاميذ كثيرون صاروا أساتذة في الجامعة .

وهو محقق للنصوص القديمة ، فقد حقق كتاب (السبعة في القراءات لابن مجاهد) ، كما حقق كتاب (الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي) ، كما حقق كتاب (المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي) ، وحقق أيضًا كتاب (الدر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر) .

وهو ناقد فله بحوث تحليلية لأدباء مشهورين ، مثل : ابن زيدون ، ومحمود سامي البارودي ، وأحمد شوقي ، وعباس محمود العقاد .

وهو نحوي من رجال النحو المعاصرين ، فله كتب في المدارس النحوية ، وتجديد النحو ، وتيسير النحو التعليمي قديمًا وحديثًا ، بالإضافة إلى الكتاب الشهير الذي حققه بعنوان : (الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي) وهو أيضًا مفسر للقرآن الكريم الذي حفظه في السنة العاشرة من عمره ، وله دراسات قرآنية وله كتاب في تفسير القرآن الكريم بعنوان : (الوجيز في تفسير القرآن الكريم) .

فلهذا الرجل كفاءات متعددة ، نكرمه على كل واحدة منها فهو كمؤلف مرموق أعيد طبع كثير من كتبه أكثر من عشر مرات ، مثل موسوعته في تاريخ الأدب العربي التي طبعت في عشرة مجلدات ، ويكفي أن (العصر الجاهلي) منها طبع حوالي اثنتين وعشرين طبعة ، كما طبع (العصر الإسلامي) منها حوالي خمس عشرة طبعة ، وهذا يعني أن له قراء معجبين به يقبلون على كتبه فيقرؤونها ويستفيدون منها ، الأمر الذي أدى إلى نفاد هذه الكتب وإعادة طبعها عدة مرات لإفادة محبي الأدب وقراءته بأسلوب

الدكتور شوقى ضيف الذى طرق كل فنون اللغة ؛ فلم يترك ميدانًا إلا طرقه ، فقد طرق الأدب والنحو والبلاغة والنقد والقرآنيات ، ولم يقتصر على علم واحد كبعض المتخصصين ، فقد كتب عن القديم والحديث ، وكتب عن التطور والتجديد ، وكما كتب عن الأدب فى مصر كتب عنه فى الشام ، والجزيرة العربية ، والعراق ، وإيران ، والأندلس ، وليبيا ، وصقلية ، والجزائر ، والمغرب الأقصى ، وموريتانيا ، والسودان .

وكما كتب عن الشعر كتب عن النثر ؛ فقد كتب عن أدب الرحلات ، والمقامات ، وبعض الصفات ، مثل : الوفاء ، والبطولة ، والحب العذرى ، والسيرة الذاتية ، ومن أظرف ما كتبه كتابه عن الفكاهة فى مصر بعنوان (الشعر والفكاهة فى مصر) وكتابه الاخر بعنوان : (الفكاهة فى مصر) فقد كتب عن الفكاهة فى مصر قديمًا كما فى كتاب (الفاشوش فى أحكام قراقوش) ، وقراقوش هذا كان من القضاة المشهورين فى مصر ، وكان السلطان العظيم صلاح الدين الأيوبى يحبه ويقربه إليه ، وكان ينيبه على مصر فى حالة عدم وجوده ، فحسده الحساد وحقد عليه الحاقدون ، وفكروا فيما ينبغى أن يفعلوه حسداً منهم على مكانته العظيمة عند صلاح الدين ، فأخرجوا ضده كتاب : (الفاشوش فى أحكام قراقوش) ؛ ولذلك يجب علينا عندما نضحك علي نادرة من نوادر هذا الرجل أن نتذكر أنه كان رجلاً ذكيًا بالغ الذكاء ، وكان قاضيًا عادلاً ، ولكن الفكاهة تغلب ؛ فالناس تنسى عدل الرجل وذكاءه وتتذكر الفكاهات التي قيلت عنه . وكما كتب الأستاذ الدكتور شوقى ضيف عن هذا الرجل كتب أيضًا عن عبد الله النديم ، وعن الشيخ البشرى ، وكان هو الآخر رجلاً فكهًا ، وكتب عن حافظ إبراهيم ، فقد جمع كثيراً من الفكاهات فى كتاب (الفكاهة فى مصر) ، وليست أدرى : هل كتب فيه أيضًا عن فكاهات أحمد شوقى وحفنى ناصف ؟ لعلى أذكر من فكاهات شوقى ما أرسله إلى الخليفة العثمانى عندما زار تركيا ورأى جسر البسفور فى حالة رديئة ، فأرسل إليه يقول :

أميرَ المؤمنينَ رأيت جسراً ... أَمُرُّ على الصِّراط ولا عَلَيْه
لَه خَشَبٌ يجوعُ السُّوسُ فيه ... وتَمْضى الفأرُ لا تأوى إليه
ولا يتكلَّفُ المنشار فيه ... سوى مَرٍّ الفطيم بساعديه

وأقصد بهذه الأبيات أن أبين أن الشاعر العظيم أحمد شوقى كما كان جاداً فى كثير من الأمور كانت له فكاهاته أيضاً ، وقد كانت لحفنى ناصف فكاهات معروفة أيضاً .

أيها الإخوة ، لا شك أن الوقت لا يتسع لأن أتحدث عن الأستاذ الدكتور شوقى ضيف ، فما أتى به كثير كثير جداً ، ونحن سعداء بهذا الكنز العظيم فى اللغة والأدب ، ونحيي هذا الأستاذ العظيم على كل ما تركه من كنوز المعارف الأدبية واللغوية والقرآنية ، ونحن نهنئه ونهنئ دار المعارف برئاسة الأستاذ رجب البنا على نشرها إنتاج هذا العالم الكبير ، وأرجو له وافر الصحة والعافية ، وأدعو الله أن يمد لنا فى عمره وأشكركم على حسن إنصاتكم . ولكم منى كل حب واحترام .

قداسة البابا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

٤ - شوقى ضيف .. والأخلاق الموسيقية

رجاء النقاش

(١)

أستاذنا الجليل شوقى ضيف رئيس المجمع اللغوى الآن - نال « جائزة مبارك » هذا العام . وهو يستحق هذه الجائزة وكل جائزة أخرى ، فهو رجل نادر بين الرجال فى علمه وأخلاقه ونقاء سيرته الفكرية والشخصية . وإذا أردنا أن نبحث لأنفسنا وأبنائنا عن أمثلة عليا نبيلة فإن شوقى ضيف هو واحد من هذه الأمثلة الكريمة ، التى نستطيع أن نتعلم منها الكثير ، ونستطيع أن نتعلم منها كل شئ .

قضيتُ أربع سنوات تمتد من سنة ١٩٥٢ إلى سنة ١٩٥٦ - وأنا تلميذ لهذا الأستاذ الجليل فى كلية الأدب بجامعة القاهرة . وكانت محاضراته دائمًا أقرب ما تكون إلى أجواء العبادة فى مسجد أو كنيسة ، فصوته هادئ ، ونظراته متواضعة ، وتفكيرة فى منتهى الصفاء ، وعلمه غزير ، وسماحة صدره بالنسبة للحوار مع تلاميذه بغير حدود . وفي محاضراته كان يشع بين الجميع جواً من التقوى والورع والموسيقى التى لا تسمعها بالأذن وإنما تسمعها القلوب . فكان فى ذلك كله تجسيداً حيًا لما يقال إن للعلم محراباً مثل محراب الأتقياء الصالحين والعابدين المخلصين .

وبعد الأنتهاء من الدراسة الجامعية تابعت شوقى ضيف فى كل دراساته ، فلم أترك كتاباً له إلا وسارعت إلى الحصول عليه وقرأته ، حتى أصبح له فى مكتبتى مكان عزيز خاص به ، فهو المرجع الشامل الأساسى لكل من يهتمون بتاريخ الأدب العربى منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث ، خاصة فيما يتصل بالشعر والشعراء . ولا يوجد باحث فى الأدب العربى أو مؤرخ له ، أو قارئ يحب أن يعرف فى وضوح

ودقة وسهولة ما يتصل بهذا الأدب في عصوره المختلفة يمكنه أن يستغنى عن موسوعة شوقي ضيف في هذا المجال . والجامعات العربية في كل مكان تعتمد على هذه الموسوعة الكبرى التي لا أغامر بشئ عندما أقول : « إنها موسوعة لا مثيل لها في شمولها ودقتها وما فيها من فيض في العلم والتحليل » وليست الجامعات العربية وحدها هي التي تعتمد على هذه الموسوعة النادرة ، بل إن الباحثين الأجانب من المهتمين بدراسة الأدب العربي يعتمدون عليها كل الاعتماد ، ويحترمونها إلى أبعد الحدود .

ومن هنا جاء نجاح هذه الموسوعة الفريدة بأجزائها العديدة فتم طبعها عشرات المرات . ومازالت تطبع إلى اليوم بانتظام ، وتلقى من النجاح الكبير والإقبال عليها ما تستحقة ، حتي في الأوقات التي كانت فيها سوق القراءة بعيدة عن الرواج ، فقد أصبحت موسوعة شوقي ضيف من الضرورات الثقافية . وكتابات شوقي ضيف هي من الضرورات التي لا يستغنى عنها باحث في الأدب أو طالب من طلاب التذوق والمعرفة لتاريخه وعصوره المختلفة .

وفي اعتقادي أن العلم وحده لم يكن كافياً لأن يتيح لشوقي ضيف غزارة الإنتاج وإنشاء موسوعته الكبرى في تاريخ الأدب العربي منذ أقدم العصور إلى الآن فبعض العلماء الذين يملكون من العلم أعظمه قد يبددون جهودهم في المنافسات والصراعات والجري مثل الفراشات وراء الأضواء . وهنا يمكن أن يضيع علم العلماء فيما هو خارج العلم نفسه من إغراءات وامتيازات ومكاسب ولكن شوقي ضيف كان منذ ظهوره على الساحة العلمية يتميز بقوة الشخصية الأخلاقية . وكان الله قد أكرمه منذ البداية بفضيلة الفضائل جميعها وهي التواضع فكان دائمًا مخلصًا للعلم ، عفيف اللسان واليد والعقل والقلب والقلم . وكان يعكف على علمه دون أن يطلب شيئًا من أحد ، ودون أن يلتفت إلى الإغراءات ، أو يسعى إلي المكاسب ، أو يندم على ما قد يلحق بالإنسان في معارك الحياة من خسائر لم يكن له يد فيها . وهذه الشخصية الأخلاقية القوية عند شوقي ضيف هي التي مكنته من أن يحقق إنجازاته في هدوء وسلامة نفس وصفاء تام . وكل النتائج الطيبة التي حققها هذا العالم النادر تحققت من تلقاء نفسها دون أن يجري وراءها ، أو يلهث في سبيل الحصول عليها . وكأنه هنا هو « الأمير » الذي

يحدثنا عنه الشاعر « أبو العتاهية » عندما يقول :

أتتــه الإمـــارةُ منقـــادةً	إليــه تُجـرجــرُ أذيالَهــا
فلـم تـكُ تـصلـحُ إلاّ لـه	ولم يـكُ يصلحُ إلاّ لَهـــا

والإمارة هنا ليست سلطانًا أو جاهًا فى دنيا السياسة والمجتمع ، ولكنها « إمارة » فى العلم والمعرفة ومحبة الناس لهذا العالم الكبير والتفاهم حوله ، وثقتهم بعلمه وأخلاقه .

والتاريخ العربى يحدثنا عن قصة طريفة وقعت للسيدة « زبيدة » زوجة هارون الرشيد وابنة عمه ، وذلك عندما كانت تطل من نافذة قصرها فى مدينة « الرقة » على نهر الفرات فقد وجدتْ حشداً كبيرا من الناس يتجمعون على شاطئ النهر . فسألتْ فى دهشة عن سبب هذا التجمع الكبير فقيل لها إن الناس اجتمعوا للترحيب بأحد كبار العلماء الذى وفد إلى مدينة « الرقة » على ظهر سفينة حملته من بغداد . فقالتْ « زبيدة » : هذا هو العزّ .. لا عزنا .. تُساق إليه الناس بالسياط .. !!وما أجمل ما قالته « زبيدة » وما أصدقه . فعزُّ العلماء قائم على أختيار الناس ومحبتهم وإقبالهم الذى ليس فيه فرض ولا إرغام . وهذا هو « العزّ » الحقيقى » لأنه نابع من القلوب المتحررة من كل الضغوط . أما عزّ السلطة والجاه والسياسة والنفوذ فهو « عزٌّ » تُساق إليه الناس بالسياط - كما تقول السيدة « زبيْدة » وهى فى قولها علي حق . ولعلها وهي تقول ذلك كانت تتحسرّ على أن « عزّها » هو من النوع الأخير ، أىْ النوع الذى تُساق إليه الناس بالسياط أو « الكرابيج » ، وليس ذلك « العزّ » الذى يتحقق بمحبة الناس وعواطفهم الاختيارية الصادقة .

والعزّ الذى تحقق للدكتور شوقى ضيف من محبة الناس له وإقبالهم عليه - هو من نوع « العزّ » الكريم ، الذى تحقق للعالم العربى القديم عندما سعى إليه الناس واحتشدوا لأستقباله فى مدينة « الرقة » عاصمة الرشيد الصيفية على نهر الفرات . وقوة الأخلاق عند شوقى ضيف هى الأساس الراسخ للجانب العلمى الرائد فى شخصيته . فهو إذا درس موضوعا عكف عليه عكوف العالم المتبتل . ولم يترك صغيرة

أو كبيرة ، حتى يبحثها ويقوم بتحليلها قبل أن يكتب دراسته ويخرج باستنتاجاته . ويكفي هنا أن نشير إلى البحث الذى قدمه شوقى ضيف للحصول على " الماجستير " حوالى سنة ١٩٤٠ - فقد اختار لهذه الدرجة موضوعًا بالغ المشقة ، يحتاج إلى جهد استثنائى شديد ، والموضوع هو " النقد الأدبى فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى " . وكتاب الأغانى هو بحق - كما يقول الدكتور شوقى ضيف عنه : " أهم مرجع للشعر وشعرائه من العصر الجاهلى حتى نهاية القرون الثلاثة الأولى للإسلام . وهو كتاب يموج بملاحظات اللغويّين والشعراء والنقاد حول الشعر . وهو (يقع) فى واحد وعشرين مجلداً . وقد ظل شوقى ضيف منهمكًا - ليل نهار - فى إعداد رسالته لمدة سنتيْن حتى نال درجة الماجستير بإمتياز . ويقول شوقى ضيف عن ذلك فى كتابه الجميل الذى كتبه عن سيرة حياته تحت عنوان " معى " : إنه " حمد الله كثيراً ، لأنه وفّق لاختيار موضوع رسالته ، ليس لما ظفر فيه بنتائج علمية حول النقد الأدبى العربى القديم فحسب ، ولكن أيضًا لأنه أتاح له فى بواكير حياته العلمية الجامعية التعرّف الدقيق على أكبر مصدر للمعلومات عن الشعر العربى وشعرائه فى العصور الأولى ، وبذلك سيْطر مبكرًا عى مادة هذا الشعر التاريخية والنقدية ، وهى سيطرة مكنته فيما بعد أن يكتب حول الشعر العربى وشعرائه مؤرخًا تارة وناقدا تارة أخرى . ولو أنه لم يقرأ هذا الكتاب بمجلداته الضخمة التى بلغت واحداً وعشرين مجلداً لظلّ الشعر العربى بتاريخه القديم الطويل محجوباً عنه . أما وقد قرأ هذا الكتاب قراءة فحص وبحث ودراسة فإن أبواب هذا الشعر قد تمَّ فتحها له ، ولم تُوصد أبداً فى وجهه ، مما أعطاه فرصا كبيرة كى يبحث فيه بحوثا كثيرة ، لا يقف فيها عند عصرٍ بعينه دون غيره من العصور أوْ بيئة بعينها دون غيرها من البيئات .

وكان طه حسين كثير الثناء عى تلميذه شوقى ضيف . وقد جعل ثناء طه حسين على تلميذه من هذا التلميذ يزداد تجويداً ودأبًا فى بحثه ودراسته ، باذلا فيها كل ما يستطيع من جهد ومشقة ، حتى يرضى أستاذه ، وحتى يكون مستحقًا لثنائه .

والحق أن شوقى ضيف قد بذل من الجهد الشاق والإخلاص التام للبحث والمعرفة ما جعله يستحق حب طه حسين له ، وما جعله أيضًا مستحقًا لمقام " العزّ " بين

الباحثين والعلماء فى كل الجامعات العربية والعالمية التى تهتم بدراسة الأدب العربى والبحث فيه . فالكل يحبون شوقى ضيف ويعترفون بفضله ويحنون رؤوسهم إعجاباً بهذه الشخصية العلمية والأخلاقية الرفيعة . ومن كان يحبه طه حسين فهو جدير بمحبة الجميع .

* * *

(٢)

كلما قرأتُ كتاباً جديداً أو عُدت إلى مرجع سابق لأستاذنا الجليل الدكتور شوقى ضيف رئيس المجمع اللغوى الآن ، والحائز ، هذا العام على " جائزة مبارك " كنت أتساءل بينى وبين نفسى : أين الفنان فى شخصية هذا العالم الفذّ الكبير ؟ فما من كتاب قرأته له ، حتى كتابه عن " تجديد النحو العربى " إلا وأحسست أن وراءه عاطفة قوية ، وضميراً حياً ، وذوقاً مرهفاً ، وهذه الصفات جميعاً هى من الأدوات التى يعتمد عليها أىّ فنان حقيقى فى التعبير عن نفسه وتجاربه . ولكن الانضباط العلمى الحازم الذى يلتزم به الدكتور شوقى ضيف فى تقديم المعلومات وتحليلها كان يؤدى إلى تراجع الفنان الحساس فى شخصيته خطوات إلى الوراء ، من أجل أن يتقدم الباحث العالم المفكر ، الذى يبذل جهده فى جمع الحقائق وترتيبها واستخلاص النتائج الصحيحة منها .

ومنذ سنوات عثرتُ على كتاب صغير فى حجمه للدكتور شوقى ضيف يروى فيه سيرته الذاتية ، وهو كتاب " معى " الصادر فى سلسلة " اقرأ " فى أغسطس سنة ١٩٨١ ، وقد أعاد الدكتور سمير سرحان نشر هذا الكتاب الجميل فى " مكتبة الأسرة " وصدر منذ أيام قليلة .

وعندما عثرت على هذا الكتاب قلت لنفسى : هذا هو الفنان الدكتور شوقى ضيف ، وقد تحرر من قيوده وأطلق لنفسه العنان ليقدم إلينا جانباً مشرقاً من شخصيته النبيلة الرفيعة . فكتاب " معى " هو كتاب إنسانى شديد العذوبة ، وهو أقرب إلى الشعر والقصة منه إلى البحث والدراسة ، وإنْ لم يبتعد صاحبه الجليل عن الدقة والانضباط

العلمي في روايته لتاريخ حياته وإشاراته المختلفة للأحداث والشخصيات التي اتصل بها . والقيمة الأساسية في هذا الكتاب تعود إلى أن الدكتور شوقي ضيف قد أتاح لنا فيه فرصة واسعة لكي نعرف أسرار تكوينه الشخصي والعلمي ، فهمس بهذه الأسرار همسًا رقيقًا جميلاً ، ولم يضع قيودًا على عواطفه وآرائه ونظرته إلى الحياة كما يفعل دائمًا في دراساته وأبحاثه العلمية .

كان الناقد الكبير الراحل محمد مندور (١٩٠٧ - ١٩٦٥) يقول إن الأدب " الهامس " هو الأدب الذي يؤثر في القلوب ويحرك المشاعر ويمس عواطف الإنسان بصورة عميقة ، أما الأدب الصاخب أو الزاعق أو الخطابي فهو أقل تأثيرًا في النفس من " أدب الهمس " . ولا شك أن الدكتور مندور كان على حق فيما قاله عن " الهمس " ، فالضوضاء في الأدب والفن تقلل من تأثيرهما وتخلق حاجزًا بينهما وبين القلب الإنساني ، والقلوب تتأثر بالصوت الدافئ واللحن الهادئ والدخول إليها على أطراف الأصابع أما الصاخبون الذين يدقون الطبول فهم لا ينجحون في تحقيق شيء من التأثير الحقيقي على النفوس والمشاعر .

وكتاب " معي " للدكتور شوقي ضيف هو من هذا الطراز البديع الرفيع . فهو كتاب هامس يخاطب قلبك وعقلك في وداعة شديدة وعفوية بالغة وتواضع جميل . ومع ذلك كله فالكتاب واضح مستقيم ، أي أنه لا يخفي رأيًا لكاتبه ولا يحيط بالضباب والغموض وجهة نظر له أو موقفًا من مواقفه تجاه الناس والأحداث . ونتوقف هنا مع لمحات تقدم صورة لشخصية الدكتور شوقي ضيف وأخلاقه ، وتكشف أمامنا عن جذور المبادئ العليا التي قامت عليها هذه الشخصية التي لا أتردد لحظة واحدة في وصفها بأنها شخصية عظيمة إذا قسناها بمقاييس العلم أو مقاييس السلوك الإنساني الرفيع .

يحدثنا شوقي ضيف في كتابه " معي " عن العلاقة بين والده ووالدته وهما من بسطاء الفلاحين ، وإن كان الأب معروفًا في قريته بأنه من العلماء لأنه أكمل الدراسة في المعهد الأزهري بدمياط . وعندما نقرأ ما كتبه شوقي ضيف عن العلاقة بين والديه نحس أننا أمام زوجين يعيشان في أعظم عواصم الحضارة مثل لندن أو باريس ،

وليس في قرية متواضعة من قرى الريف المصرى . يقول شوقى ضيف عن نفسه : " كانت أمه بارة بوالده الشيخ العالم ، فهى دائماً تعزّه وتجله ، لا لأنه كان ابن خالتها وحسب ، بل أيضاً لأنه كان دمث الخلق ، وكان لا يصدر فى شىء إلا حسب مشيئتها ومشورتها ، فقد استقر فى نفسه أنها أحصف منه وأبعد نظراً . وحقًا كانت كذلك ، وكان قلبها ينطوى على رحمة بالغة للضعيفات والضعفاء من حولها ، وهى رحمة ترافقها إرادة حازمة صلبة وشىء من إرادتها المصممة ورثه الطفل - أى شوقى ضيف - فيما ورثه عنها من الشيم والأخلاق " .

وفى هذه الصورة الحية إشارة دقيقة إلى وضع المرأة الحقيقى فى ريف مصر فى الجيل الماضى . فلم تكن المرأة صفراً على الشمال كما يقال ، بل كان لها شأن عظيم ، حتى إن شوقى ضيف يقول لنا إن والده العالم المتعلم كان لا يتخذ قراراً إلا بمشورة زوجته والنزول طواعية واختياراً على رأيها فى معظم الأمور .

وفى لمحة أخرى نقرأ هذه الصورة الحية للبداية التى استمرت فى تأثيرها القوى على شوقى ضيف حتى الآن حيث يقول : " كان الطفل كثيراً ما يرى فى يد والدته سبحة تذكر الله عليها وتسبح بحمده . ولم يكن والده يستخدم السبحة ، بل كان يسبح الله ويذكره كثيراً عقب الصلوات ، ولكن دون حاجة إلى هذه السبحة . وكان الوالد يكثر من تلاوة القرآن كلما وجد فراغاً وخلا إلى نفسه ، فهو سلوه وريحان فؤاده . وكل ذلك كان الندى والأريج والشذى الذى تفتح فيه الطفل - أى شوقى ضيف نفسه - كما تتفتح البراعم ، فاسم الله دائماً يتردد فى أذنه ، بل هو منقوش فى صدره وعلى قلبه ، ومنقوش معه محبة الخير لأبويه وشقيقته الكبرى وأخته من الرضاع ولكل من حوله . ورث ذلك عن أبيه وأمه ، وكانا لا يعرفان بغضاً للناس ولا ضغينة ، وكأنما صنعا طفلهما على مثالهما ، فنشأ لا يحمل ضغينه لأحد ، ولا بغضاً ولا موجدة " .

وهكذا كان " الإيمان " الهادئ الوديع البعيد عن الصخب والتظاهر والعدوان على الناس أساساً آخر فى تكوين شخصية شوقى ضيف ، إلى جانب الإرادة الصابرة القوية . والحقيقة أن الإنسان بلا إيمان هو نصف إنسان أو أقل من ذلك بكثير .

ثم ننظر بعد هذا إلى صورة أخرى ، بل لوحة جميلة يرسمها شوقى ضيف لعلاقته بوالديه ، حيث يقول : " كان الطفل – أى شوقى ضيف – يبدأ يومه بتحية أبويه ، ولم تكن التحية كلامًا ، بل كانت تقبيلاً لليدين الكريمتين ، يد الأب ويد الأم ، واجب يومى كان الطفل يؤديه كما يؤديه أطفال القرية من حوله ، بل كما يؤديه أطفال الريف المصرى جميعًا . وقد أقلعت الكثرة من العائلات فى مصر عن هذه العادة الآن ، خاصة العائلات المثقفة ثقافة عصرية ، أو التى تدعى لنفسها شيئًا من المدنية ، كأنها تعد ذلك لونًا من العبودية والذل ، ولا أدرى من أين جاءها هذا الاعتقاد ؟ أغلب الظن أنه جاءها من بعض من رأوا الحياة فى الغرب أو تعلموا فيه ولم يروا شيئًا من هذه العادة هناك ، فظنوها عادة سيئة ، وهى تكون سيئة أشد السوء إذا تم توجيهها إلى غير الأب والأم ، أما هما فجدير بالولد أن ينشأ على تقبيل يديهما إجلالاً لهما واحترامًا . وربما كان ما يلاحظ الآن على بعض الأبناء من أنهم لا يحترمون آباءهم الاحترام الكافى مرجعه إلى أبطال مثل هذه العادة الطيبة التى كانت تحيل الأب والأم إلى ما يشبه قد يسين فى نظر الأبناء ، أما وقد تم أبطالها ، فلم تعد للأبوين عند الكثيرين منهم هذه القداسة ولا ما كان لهما من إجلال " .

ولا شك أن هذه الصورة التى يرسمها أستاذنا شوقى ضيف هى صورة دقيقة وصحيحة . ولا أظن أن المطلوب هو العودة الحرفية إلى تقبيل الأيادى بالمعنى المادى المباشر ، ولكن المطلوب حقًا هو التأكيد على المشاعر والعواطف التى كان " تقبيل اليد " ينطوى عليها ويعبرّ عنها . فالعصر الراهن فيه بعض مظاهر القسوة التى ليس لها جذور أو أصول فى حياتنا الأخلاقية والوجدانية . فأنا أعرف أبناء هاجروا إلى أمريكا وكندا وأوروبا وانشغلوا بحياتهم ونجاحهم فى هجرتهم ونسوا آباءهم وأمهاتهم وأهلهم جميعًا ، ولم يعودوا يسألون عنهم حتى بالتليفون وأعرف أبناء نالوا من العلم أعلاه ونجحوا فى حياتهم بفضل كفاح شاق وغير محدود لأبويهم ، ثم لما نجحوا عاملوا الأبوين بسلوك " جاهلى " إذا صح هذا التعبير . وقد عرفت واحداً من هؤلاء كان يضرب أمه التى أفنت حياتها من أجله ، وذلك كلما طلبت منه فى تهذيب شديد ، وبعض الدموع فى عينيها ، أن يرعى شيخوختها ، ويقدر أنها لم تدخر شيئًا لنفسها لأنها أنفقت كل ما تملك من طاقة وجهد على ابنها الذى يضربها وقد اقتربت

من الثمانين . والحمد لله أن مثل هذه النماذج ليست كثيرة ، ولكنها موجودة وموجعة للقلب .

وهكذا يعود بنا أستاذنا شوقى ضيف فى كتابه الجميل " معى " إلى الجذور والأصول ، ليكشف أمامنا عالمًا بديعًا من المبادئ الإنسانية التى عرفها وآمن بها منذ بدايات حياته ، وصاحبته بعد ذلك فى مسيرته الناجحة والتى يحف بها التوفيق من كل جانب . وأظن أن أخلاق شوقى ضيف كما عرفته – تلميذًا له وقارئًا متابعًا لأدبه وفكره – هى ما يمكننا أن نطلق عليه اسم " **الأخلاق الموسيقية** " . فهى أخلاق تطربنا كما تطربنا الموسيقى الجميلة . وهى أخلاق موسيقية من ناحية أخرى ، لأنها مستمدة فى أحوال كثيرة من " أصوات " سمعها بأذنه وانتقلت إلى قلبه فاستقرت فيه ، فهو يسمع اسم الله كثيرًا فيؤمن ، ويقبل يد والديه ، ويسمع صوت هذا التقبيل فيرى أن والديه هما أشبه بقديسين ، ويستمع إلى الشاعر فى قريته وهو يروى قصة " أبى زيد الهلالى " فينتمى إلى " الهلالية " ويلتزم بها يتحمس لها مع قريته . فالأصوات كثيرًا ما تقوده إلى ما يعتقده ويؤمن به . ولذلك فأخلاق شوقى ضيف هى أخلاق موسيقية ، ويبقى فى النفس والعقل ملاحظات وتأملات أخرى فى شخصية هذا الأستاذ الجليل قد أعود إليها مرة أخرى فى مقال جديد .

رجاء النقاش

جريدة الأهرام ١٠ – ٢٠٠٣/٨/١٧

٥ - الأندلس فى نتاج شوقى ضيف

د. محمود على مكى

منذ بضعة شهور استقبل أستاذنا الجليل الدكتور شوقى ضيف عامه الأول بعد الثمانين ، وكأنه يستأنف به شبابًا جديدًا ، فهو لا يزال كالعهد به فتوةً ونشاطًا وقدرة على العمل ، لم تغيّر منه هذه السنون الطوال التى قضى منها أكثر من نصف قرن فى جهد دائب متصل ، فهو بحمد الله ما برح ممتعًا بقوة بدنه ، وصفاء ذهنه ، وقوة حافظته ، وخصوبة إنتاجه ، وكأنه فى مقتبل حياته : نسأل الله أن يمدَّ له فى العمر ، وأن يظل - كما كان دائمًا فى الجامعة وخارج الجامعة - أبا وراعيًا لأجيال من تلاميذه ومريديه الكثيرين ، وحاملاً لمشعل الثقافة العربية ، فالحق أن المرء لا يسعه إلا أن يطمئن إلى مستقبل هذه الثقافة ما دام فيها أمثال الدكتور شوقى ضيف ، ومن عرفوا كيف يتخذون منه قدوة ومثلاً .

وإنه لما يدعو للتفاؤل أن عشرات ، بل مئات ، من تلاميذه منتشرون فى أنحاء العالم العربى كله من العراق والكويت ، حتى المغرب الأقصى ، فقد كان شوقى ضيف - شأنه فى ذلك كشأن بعض الشيوخ من أسلافنا العظام من أمثال الحافظ السلفى ، وأبى حيان الغرناطى - من أولئك الذين نقرأ فى تراجمهم : " وطال عمره فأدرك الصغار فيه الكبار " . والمقصود بذلك أنه قد تخرجت على يديه أجيال متعاقبة من التلاميذ ، وأنكر أننى ما نزلت بلداً عربيًا إلا والتقيت فى جامعاته ومؤسساته الثقافية من قادة الفكر عدداً ممن جلسوا من شوقى ضيف مجلس التلميذ ، وممن ترك فى نفوسهم أثرًا باقيًا وذكريات لا تنسى .

بدعة التخصص الدقيق :

بدأت صلتي بالدكتور شوقي ضيف منذ أكثر من أربعين سنة ، حينما التحقت بقسم اللغة العربية في كلية الآداب ... وكأني أراه آنذاك كما أراه اليوم تمامًا ، لم يتغير منه شيء ... في قامته الفارعة ، وبنيته المتينة ، ومشيته الوقور ، وصوته الهادئ ، ونظراته الجادة الصارمة التي سرعان ما تشف عن نفس طيّبة خيِّرة ، وخلق دمث ، ورقة عذبة ، ولسان عف ، وعلى مدى السنوات الأربع التي استمرت فيها دراستي في كلية الآداب أذكر أننا تلقينا على يد الدكتور شوقي ضيف محاضرات في جميع مواد قسم اللغة العربية : العلوم القرآنية ومذاهب التفسير ، والنحو ، والبلاغة ، وتاريخ الأدب في مختلف عصوره ، والنصوص ، والنقد وكان يحاضر في أيّ مادة من هذه المواد ، فتكاد تحسب أنه قصر جهده عليها ولم يتخصص إلا فيها ، ويقودني هذا إلى الحديث عن بدعة " التخصص الدقيق " التي ابتليت بها الدراسة الجامعية خلال هذه السنوات الأخيرة ، وهي أن يعكف الطالب الحديث التخرج في دراساته العليا على فرع من فروع الدراسة ، لكي " يعمق " بحثه فيه و " يتخصص " فيما يزعمه ، بغير أن يستكمل تكوينه العام . فإذا به قد اتجه إلى الأدب الحديث ، لا يكاد يعرف شيئًا عن التراث الأدبي القديم ، وإذا عمل في ميدان الأدب الجاهلي ، أو الإسلامي لا يخطر بباله ، أن يتعرف الفنون الأدبية الحديثة من رواية أو مسرح ، وإذا به إذا أعد رسالة في فن أدبي مستحدث وحاسبته على ما فيها من أخطاء لغوية أو نحوية أجابك بأن اللغة والنحو ليسا من شأنه ؛ لأنهما " خارجان عن دائرة تخصصه الدقيق " ، وإذا كان عمله في فن نثري ووردت فيه أبيات من الشعر ، لم يحسن نقلها أو أفسد روايتها ، قال لك إن علاقته بالشعر منقطعة وإن العروض مادة بعيدة عن ميدان تخصصه . وفات هؤلاء الشباب أن فروع اللغة العربية كأجزاء البنيان المرصوص يشد بعضها بعضًا ، وكأعضاء الجسد الواحد إذا فسد أحدها انتقل الفساد إلى سائرها ، وإن ما يسمى " بالتخصص الدقيق " لا يتأتى إلا بعد أن يحيط الدارس بفروع اللغة كلها ، بل بالأخذ بطرف قوي مما نسميه الثقافة العامة . ورحم الله أسلافنا فقد كانوا على وعي كامل بهذا ، فكنت ترى الفقيه لا يستقيم

له منهجه في الفقه إلا إذا تعمق دروس النحو والأدب والبلاغة ، حتى الطبيب أو النباتي لا يبرز في فنه إلا بعد أن تجتمع له سائر العلوم مهما بدا بعدها " الظاهري " عن تخصصه ؛ وقد كان ابن رشد الأندلسي فيلسوفًا طارت شهرته بهذه الصفة ، وهو مع إحاطته الكاملة بالفلسفة الإغريقية والإسلامية لا يرى بأسًا في أن يكتب في الفقه كتابًا مثل " بداية المجتهد " تقرؤه فتظن أنه لم يكن له هم إلا هذا العلم . ويكتب في الطب كتابًا مثل " الكليات " فكأنه أفرغ جهده كله في هذا الفرع من فروع المعرفه .

كان هذا من أول ما تعلمناه من أستاذنا الدكتور شوقي ضيف ، ولم يكن ذلك من خلال عمله في التدريس فحسب ، وإنما قدم لنا القدوة فيه بجهوده في التأليف ، فالذي يتأمل هذه الجهود ، يروعه ذلك الإنتاج بغزارته وتنوعه وجودته في آن واحد ، فلشوقي ضيف عشرات من الكتب تستوعب كل فروع العربية من القراءات القرآنية ، والتفسير ، إلى البلاغة ، والنحو ، والنقد الأدبي ، والتراجم ، وتضم التأليف الخالص إلى تحقيق نصوص التراث ، هذا فضلاً عن مجموعة تاريخ الأدب العربي التي أخرج منها حتى الآن سبعة مجلدات ضخمة تحيط بتاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي حتى بداية نهضتنا الحديثة ، فإذا ضممنا إلى هذه المجلدات عديداً من الكتب المفردة التي ألفها في دراسة أدبنا الحديث ، والمعاصر ، أو في دراسة شعراء بأعينهم مثل : شوقي ، والبارودي ، رأينا أن حلقات عمله في تاريخ الأدب العربي في مشرقه ومغربه قد اكتملت ، وأن مجموع هذا النتاج يمثل موسوعة كبرى ، ربما استكثرت على جيل ، أو فريق من الباحثين ، فما بالك وهي جهد رجل واحد أخلص للعلم فأخلص له العلم ، وأحسن جزاءه .

الحديث عن شوقي ضيف ، وتتبع إنتاجه في مختلف ميادين الثقافة العربية لا تكفي فيه هذه العجالة ، بل ربما احتاج إلى مؤلف كامل ، ولهذا فإني سأقصر حديثي هنا على مجال الدراسات الأندلسية من إنتاج هذا العالم ، إذ إن دلالته مع أنه لا يمثل إلا جانبًا صغيراً من اهتمامات شوقي ضيف .

الفن ومذاهبه فى الشعر والنثر :

لعل أول صلة له بالأدب الأندلسي بدت في كتاب من أوائل كتبه ، وهو " الفن ومذاهبه في الشعر العربي " ، وكان في الأصل رسالته التي نال بها الدكتوراه سنة ١٩٤٣ ، بإشراف الدكتور طه حسين ، ثم طبع في سنة ١٩٤٥ ، وما زالت طبعاته تتوالى إلى اليوم ، والكتاب يقوم على أساس فكرة حاول الدكتور شوقي ضيف بها أن يفسر تطور الفن في الشعر العربي خلال مراحله المتتابعة ، فهو يرى أن الفن برزت له ثلاثة مذاهب متعاقبة : الصنعة ويمثلها في الجاهلية زهير بن أبي سلمى و " مدرسته " من عبيد الشعر المنقحين له ، ثم التصنيع ويمثله في العصر العباسي الأول أبو تمام ، وأخيراً التصنع وهو الذي انتهى إليه شعر المتنبي وأبي العلا المعرى . وفي سنة ١٩٤٦ يصدر شوقي ضيف كتابه الذي يكمل به دراسته للأدب العربي وهو " الفن ومذاهبه في النثر العربي " ويطبق فيه نظريته السابقة على النثر متتبعاً هذه المذاهب فيه . وفي كلا الكتابين أفرد المؤلف فصلين للحديث عن شعر الأندلسيين ونثرهم ، فرأى أن أهل الأندلس كانوا يعيشون على تقليد النماذج الشرقية ، ومحاكاتها في صورة فيها قدر من الاضطراب والاختلاط ، فكان الشعراء والكتاب يجمعون في نتاجهم بين صور المذاهب المختلفة .

الرد على النحاة :

لم تمض على صدور هذا الكتاب الأخير سنة واحدة حتى كان شوقي ضيف يخرج بطرفة جديدة ، كانت هذه المرة تحقيقًا لنص أندلسي ، وفي ميدان مختلف عن ذلك الذي بدا وكأنه " تخصصه " الأول ، ونعني بهذه الطرفة " كتاب الرد على النحاة " لقاضي الجماعة على عهد دولة الموحدين أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن المعروف بابن مضاء القرطبي (المتوفى سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٦م) . وقد كان هذا الكتاب – على صغره – يمثل أكبر ثورة على سيبويه ونحاة المشرق ، فقد سدد ابن مضاء سهامه إلى نظرية " العامل " التي تعد الأساس الذي قام عليه البناء النحوي وما تصوره النحاة

لعواملهم ، من تأثيرات هي التي تصنع الظواهر النحوية من رفع ونصب وجر ، ثم ما تؤدي إليه من تقديرات وعلل وأقيسة ، ملأت النحو العربي بمسائل لا يحتاج إليها في تقويم اللسان ، بل تقف حائلاً بين المتعلم واكتساب ملكة لغوية سليمة ، ورأى ابن مضاء أن نظرية العامل هي التي ملأت كتب النحو بحشد من التمارين غير العملية ، إذ هي قائمة على فروض لا تتحقق في واقع اللغة . على أن ابن مضاء لم يكن في كتابه هذا مجرد هادم للنحو ، ولا داعيًا إلى إلغائه ، وإنما كان هدفه هو تيسير القواعد للمتعلمين وإعفاءهم مما لا يحتاجون إليه ؛ فإن تفريع المسائل والإكثار من التقديرات القائمة على التخييل كثيراً ما تصرف المتعلم ، عما هو أساس قريب المنال . وقد تنبه الدكتور شوقي ضيف في ذكاء إلى أن المنطلق الفكري لابن مضاء في ثورته على نظرية العامل وما يرتبط بها من أقيسة وعلل إنما هو أخذه بالمذهب الظاهري ، الذي ينكر في الفقه ما أخذت به المذاهب المعروفة من اعتماد على القياس ، وهو ما أدى أيضًا في التشريع إلى وجود ركام هائل من الفروض التخيلية التي لا تستند إلى واقع الحياة .

أثار هذا الكتاب الذي قدم له شوقي ضيف بدراسة جامعة دقيقة اهتمام الباحثين ، بل فجر قضية كبرى مرتبطة بواقع حياتنا اللغوية التي نعاني فيها من تدريس النحو ، ونلاحظه في مدارسنا من نفور المتعلمين من هذه المادة ، ثم من عجزهم عن استيعاب القواعد النحوية ، حتى أصبح معظم من ينطقون بالعربية أو يكتبون بها لا يكادون يسلمون من اللحن والخطأ .

قضية تجديد النحو :

ولعل هذه القضية هي أهم ثمرة جناها شوقي ضيف من تحقيقه لكتاب هذا النحوي الأندلسي ، صاحب تلك الدعوة الثورية الجديدة ، فقد حملته ممارسته لتدريس النحو في الجامعة على مدى سنوات طوال أن ينعم النظر في مشكلة النحو وتعليمه للنشء ، وهي مشكلة كانت – وأخشى أن أقول وما زالت – تقض مضاجع المربين .

وكانت قد تألفت لذلك لجنة في وزارة المعارف (التربية والتعليم) قبل ظهور كتاب ابن مضاء ، وكتبت هذه اللجنة تقريراً ضمنته مقترحاتها لتيسير النحو ، ودرس مجمع اللغة العربية هذه المقترحات سنة ١٩٤٥ وأقر بعضها ، ولكن الكتب التي ألفت على أساسها لم تلق كثيراً من النجاح . ورأى شوقي ضيف أن ينهض أيضاً بهذه المهمة على ضوء آراء ابن مضاء ، فاقترح في الدراسة التي مهد بها لتحقيقه للكتاب تصنيفاً جديداً لأبواب النحو يستغنى فيه عن عدد منها مما لا حاجة للمتعلم به ، مع إلغاء الإعراب التقديري والإعراب المحلي في الجمل ، ثم الاستغناء عن إعراب كل كلمة لا يقدر إعرابها أي فائدة في صحة نطقها ، ومضى الدكتور شوقي ضيف طوال السنوات التالية يعمق دراسته لهذا الموضوع ويقلبه على وجوهه إلى أن قدم في سنة ١٩٧٧ إلى مجمع اللغة العربية - وكان قد انتخب عضواً فيه في العام السابق - مشروعاً لتيسير النحو على أساس ما عرضه في مدخل كتاب ابن مضاء مع إضافة بعض الأسس الأخرى ، وأقر مؤتمر المجمع في سنة ١٩٧٩معظم هذا المشروع بعد دراسته دراسة وافية ، وأخيراً أصدر كتابه " تجديد النحو " (دار المعارف ١٩٨٢) الذي يقدم مشروعه الكامل لتدريس النحو العربي بعد أن أضاف إلى الأسس السابقة أساسين آخرين : أولهما حذف الزوائد الكثيرة التي تعرض في كتب النحو بغير حاجة ولا فائدة ، إذ إنها تتصل بأحكام معقدة تعسر على الفهم أو تتعلق بصيغ نادرة أو شاذة ، وثانيهما إضافة أبواب ضرورية تعين على تمثيل الصياغة العربية وأوضاعها .

ولم يكتف الدكتور شوقي ضيف بهذا العرض النظري المصحوب بأسلوب مقترح لتطبيقه ، بل إنه قام بنفسه في إحدى السنوات التالية بتجربة تدريس هذا المنهج في الفرقة الرابعة بقسم اللغة العربية بكلية الآداب ، وكان التقليد الجاري في الكلية هو أن تختار أبواب من بعض كتب النحو القديمة تدرس للطلاب بكل ما احتوت عليه ، وقد دلتنا التجارب على أنهم قد يحفظون هذه - وهي لا تمثل إلا شطراً ضئيلاً من مجموعة قواعد النحو - وقد ينجحون فيها ، ولكنهم يظلون بعيدين عن أحكام تطبيقها تطبيقاً عملياً مفيداً ، أما تلك السنة التي طبق فيها الدكتور شوقي ضيف منهجه فإنه عرض فيها قواعد النحو العربي كله بعد أن صفاها في ضوء كتابه ، واقتصر منها على

ما ينفع الطالب فى تقويم لسانه ، فإذا بالتجربة تنجح نجاحًا كبيرًا ، وإذا بالطلاب ينفتح أمامهم من أبواب النحو ما كان مستغلقًا ، وما زال خريجو هذه الفرقة يذكرون حتى اليوم أنهم استطاعوا بفضل هذا المنهج الجديد أن يستوعبوا خلاصة النحو العربى كاملة فى سنة واحدة .

تحقيق النصوص الأندلسية :

لم يصرف الاهتمام بالنحو ومشكلات تدريسه شوقى ضيف عن مواصلة عمله فى خدمة الأدب ، فقد توالت خلال هذه السنوات التى أعقبت نشر كتاب ابن مضاء دراساته العديدة حول الأدب الأموى ، وما لا حظه فيه من مظاهر التجديد ، وحول بعض الظواهر أو الشخصيات الأدبية المختلفة ، على أنى أذكر الأندلس لم تغب عن باله فيما أخرج من تلك الدراسات ، فقد كان من بينها كتابه الذى ظهر فى سلسلة " نوابغ الفكر العربى " (بإصدار دار المعارف) ، والذى أفرده لشاعر الأندلس الغنائى " ابن زيدون " ، ففى هذا الكتاب الذى يبلغ ١٢٠ صفحة ، قدم دراسة جامعة - على إيجازها - عن هذا الشاعر بعد دراسة عصره وأحداثه ، كما أنه أفرد جزءًا من البحث لأسلوب ابن زيدون النثرى المتمثل فى رسالتيه الجدية والهزلية ، مذيلاً الكتاب بمختارات من شعره وشرح مفصل لرسالتيه .

المغرب فى حلى المغرب :

على أن شوقى ضيف كان مؤمنًا دائمًا بأن التراث الأندلسى الذى ضاع معظمه واندثر ، لا يمكن أن تتم دراسته بمنهج علمى قويم إلا بعد بذل كل المحاولات الممكنة لا ستنقاذ ما بقى منه ، وتقديم هذه البقية محققة محررة ، وكان فى هذه الأثناء يطبق هذا المبدأ أيضًا على الأدب المصرى ، فشارك فى تحقيق أجزاء من " خريدة العصر " لابن العماد ، و " المغرب فى حلى المغرب " لابن سعيد ، وهى أجزاء تلقى ضوءًا كاشفًا على الأدب المصرى منذ فتح العرب لمصر حتى العصر الأيوبى .

ولعل عمله في " المغرب " لابن سعيد الأندلسي هو الذي لفته إلى الأجزاء الخاصة بالأندلس من كتابه ، ونحن نعرف أن (المغرب) كان موسوعة جغرافية تاريخية أدبية استغرق تأليفها أكثر من قرن من الزمان ، فقد تعاقب على جمعها عدد من المؤلفين : بدأها الحجازي بكتابه " المسهب " ، ثم عمل على إكمالها آل سعيد متوارثين العمل فيها حتى انتهت إلى علي بن موسى بن سعيد (المتوفى سنة ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) وهو الذي أضاف إليها أجزاء متعلقة بالشمال الأفريقي وبمصر ، أما الأجزاء الخاصة بالأندلس فقد كانت تمثل مشكلة بالغة الصعوبة والتعقيد ، فقد أصابتها عوادي الزمن ، إذ فقد كثير من أوراقها ، وما بقي منها كان قد تحول إلى أوراق متناثرة غير مرقمة ضم بعضها إلى بعض في غير نظام ، وأصاب ذلك أيضاً النسخة الأخرى التي عثر عليها من " المغرب " في بلصفورة (بقرب سوهاج) . وكانت بدورها أوراقاً أخرى متناثرة من نفس مخطوطة دار الكتب ، وقد كان هذا الاضطراب والنقص مما صرف الباحثين عن نشر الكتاب ، إذا اعتبروه قضية خاسرة ميئوساً منها .

ومع ذلك فإن اليأس لم يتطرق قط إلى نفس شوقي ضيف ، فعزم على نشر ما بقي من هذا الكتاب الجليل ، ولا سيما بعد أن هداه البحث إلى ثلاث وسائل أعانته على إعادة ترتيب أوراق المخطوطة : الأولى ثلاثة فهارس احتفظت بها النسخة المخطوطة نفسها لتراجم الأعلام المذكورين في المغرب ، والثانية ما كتبه المقري في " نفح الطيب " حول أسماء كتاب (المغرب) وترتيبها ، والثالثة كتاب مخطوط هو " رايات المبرزين وغايات المميزين " لابن سعيد نفسه ، وقد تبين أن هذا الكتاب ليس إلا مختصراً للمغرب قام ابن سعيد بصنعه ، ليقدم إلى الوزير جمال الدين بن يغمور نائب السلطان المصري ، الملك الصالح أيوب في مصر والشام ، وكان لهذا المخطوط أصله بالأستانة نسخة مصورة اقتناها أحمد زكي باشا (شيخ العروبة) واستقرت في دار الكتب المصرية مع ما اشتملت عليه " المكتبة الزكية " . وقد كان في نية الدكتور شوقي ضيف أن يبدأ بنشر " رايات المبرزين " تمهيداً لعمله في المغرب و غير أنه حدث أن زارمصر في سنة ١٩٤٩ – ١٩٥٠ المستشرق الإسباني إميليو ، غرسيه غومس Emilio GARCIA Gomez فأبلغ الدكتور شوقي ضيف أنه كان قد اضطلع بنشر كتاب " الرايات " في مدريد سنة ١٩٤٢ مع ترجمة إلى الإسبانية ودراسة مهد بها للكتاب ،

وزاد على ذلك أن أهداه نسخة من هذه الطبعة للكتاب ، وكان فى وسع شوقى ضيف أن يمضى فى تحقيقه ونشره للكتاب لاسميا بعد أن رأى فى طبعة غرسية غومس على الرغم من اجتهاده وعنايته بالنص كثيراً مما يستدرك ، ثم إن كتاباً عربياً مطبوعاً فى مدريد آنذاك ما كان ليصل ولا يعرف فى العالم العربى ، غير أن شوقى ضيف بما فطر عليه من السخاء والتسامح والإيثار أبى إلا أن يعدل عن نشر الكتاب ، بل إنه أهدى المستشرق الإسبانى المخطوطة التى استنسخها لنفسه من الكتاب ، ورأى إتماماً للفائدة أن ينشر فى مجلة كلية الآداب (مجلد مايو ١٩٥١) ما رآه من تصويبات واستدراكات على الطبعة الإسبانية ، ولما كانت هذه الطبعة متعذرة المنال فى الشرق العربى فإنه أوصى بعد ذلك أحد تلاميذه وهو المرحوم الدكتور النعمان عبد المتعال القاضى بأن يعيد نشر الكتاب فى مصر ، واضطلعت بذلك لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى سنة ١٩٧٣ ، وكان من الطبيعى أن ينتفع الدكتور النعمان القاضى بتصويبات الدكتور شوقى ضيف .

أما كتاب (المغرب) فقد عكف عليه أستاذنا الجليل يعيد ترتيب أوراقه حتى استقام له ذلك إلا ما لم يكن هناك سبيل لاستدراكه فيما فقد من أوراقه ، وقد كان من حظ كاتب هذه السطور أن شهد عن كثب ذلك العمل المضنى الذى استغرق شهوراً ، فقد كان أشبه بترميم أثر فتكت به يد الزمن فأحالته إلى فتات متناثر ، ثم أتت بعد ذلك عملية التحقيق وكانت لا تقل عن سابقتها مشقة ، وصدر الكتاب أخيراً ما بين سنتى ١٩٥٣ و ١٩٥٥ فى سفرين كبيرين يضمان أكثر من ألف صفحة ، والحقيقة أن هذا الكتاب يعد نموذجاً للدقة والإبلاغ فى إفادة الدارس ، فليس فيه علم ولا علم جغرافى إلا وهو مشفوع بقائمة من المصادر المخطوطة والمطبوعة لا يكاد يند عنها شىء ، وهو بذلك يوفر على الباحث جهداً كبيراً ، إذ دله على كل ما يمكن أن يستكمل منه بحثه . أما قيمة الكتاب فيكفى أن نتوقف حول ما ذكره فى تقديمه للكتاب : " وما أشك أن هذا النص سيدفع المؤرخين للشعر الأندلسى دفعاً إلى أن يعيدوا النظر فى تاريخهم ، وما نشروه من أحكام فيه ، فيعدلوا فى هذه الأحكام تارة ، ويلغوها ويثبتوا موضعها أحكاماً جديدة تارة أخرى ، ومعنى ذلك أن يحمل كثيراً من الحقائق الأدبية التى كنا نجهلها عن الأندلسيين وحياتهم الفنية وما أكثر ما نجهله عنهم . ومن أجل ذلك تشتد

الحاجة إلى أن تنشر كتبهم وآثارهم . ولا يختلفُ اثنان فى أن ما نشر عن الأندلس لا يزال قليلاً ، وإن نشر أى نص جديد يسد فراغًا كبيراً لما يذيعه من معان وخصائص أدبية ولما تفتقر إليه المصنفات المنشورة من نصوص أخرى ، تسندها وتقوم ما فيها من خلل ونقص .

هذا الكتاب يعد فى الحقيقة رائداً للحركة التى بدأت منذ منتصف الخمسينات لتحقيق النصوص الأندلسية على أسس منهجية قوية ، ويسعدنى أن أعترف بأن كل من عملوا فى هذا الميدان بعد ذلك من أمثال الدكتور إحسان عباس ، وكاتب هذه السطور وغيرهم من تلاميذ شوقى ضيف – سواء أكان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة – فإنهم قد اتخذوا من تحقيق " المغرب " نموذجاً ومثالاً يحتذونه ويسيرون على هديه .

نقط العروس ، والدرر فى اختصار المغازى والسير :

وقبل أن يظهر كتاب المغرب ينشر شوقى ضيف بعض الآثار الأندلسية الصغرى – ونعنى بصغرها هنا الحجم لا القيمة – فمن ذلك تحقيقه لرسالة " نقط العروس " (فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ١٣ – سنة ١٩٥١) وهى على صغرها (إذا تبلغ نحو خمسين صفحة) من أنفس النصوص الأندلسية وفيها يسجل ابن حزم طرفًا ونكتًا من أخبار الأندلس التى لا توجد إلا فيه ، ويكفى أن نذكر أن مؤرخ الأندلس الأكبر ابن حيان القرطبى لا يكف عن التقاط هذه الأخبار التى اشتملت عليها الرسالة ، وإيرادها فى كتابه اعترافًا بقيمتها وتقديراً لمكانة مؤلفها الذى كان أبوه أحمد بن سعيد بن حزم وزيراً للمنصور بن أبى عامر وثيق الصلة بدولته مطلعًا على بواطن أخبارها ، وقد كان المستشرق الألمانى زابيولد Seybold نشر هذا النص من قبل فى مجلة كانت تصدر بغرناطة سنة ١٩١٧ ، غير أن الدكتور شوقى ضيف عثر على مخطوطة أخرى للرسالة تحتوى على زيادات كثيرة فضلاً عن كونها موثقة ، إذ هى برواية الحميدى صاحب " جذوة المقتبس " وتلميذ ابن حزم ، فرأى أن يعيد نشر النص على أساس هذه المخطوطة ، مع تصويب ما وقع فيه المستشرق الألمانى من أخطاء .

رأينا كيف كان شوقي ضيف بحسه الذكي ، ونظراته الثاقبة ، يهتدي في تحقيقه للنصوص الأندلسية المخطوطة التي هي أنفس الذخائر في النحو والأدب والتاريخ ، على أنه لم يهمل الثقافة الدينية الأندلسية ، فإذا به يعثر في سنة ١٩٦٦ على نص آخر بالغ القيمة هو كتاب " الدرر في اختصار المغازي والسير " للفقيه المحدث الأندلسي أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري (المتوفي سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧١م) ، وكانت نسخته المخطوطة الوحيدة - آنذاك - محفوظة في دار الكتب المصرية ، وهي نسخة قديمة نفيسة تملكها الزبيدي اللغوي وعليها تعليقات للعلامة المؤرخ شمس الدين السخاوي ، وقد اضطلعت بنشر الكتاب لجنة إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ثم وقعت للدكتور شوقي ضيف مصورة عن نسخة مخطوطة أخرى في الخزانة العامة للرباط ، وهي على تأخر تاريخ نسخها تتميز ببعض الزيادات ، ومن أجل هذا أعاد الدكتور شوقي ضيف طبع هذا الكتاب في سنة ١٩٧٣م .

والكتاب مختصر للسيرة النبوية مبني في الأساس على سيرة محمد بن إسحق ، ولو أنه يضيف إليه روايات أخرى من كتابي موسى بن عقبة وأحمد بن زهير بن حرب (ابن أبي خيثمة) ومن روايات أساتذته من رجال الحديث بالأندلس ، ويلاحظ أن الروايات المحتفظ بها في الأندلس ، لا تتفق دائمًا مع روايات المحدثين المشارقة ، وإن كان ذلك لا يعني عدم صحتها ، فهناك اتفاق على أن لأهل الأندلس في الحديث غرائب لم يعرفها كثير من المحدثين بالمشرق مع اعتراف بجلالة حفاظ الأندلس ، ولهذا فإن هذه السيرة التي تلتقي في كثير من تفاصيلها مع كتاب " جوامع السيرة " لابن حزم معاصر ابن عبد البر وصديقه ، تمثل لنا طريقة الأندلسيين في رواية السيرة النبوية ، وقد بقي اعتزاز الأندلسيين برواياتهم التقليدية حتى من هاجر منهم إلى الشرق أو استقر فيه ، ويدل على ذلك أن سيرة ابن سيد الناس اليعمري (المتوفى سنة ٧٣٤) ، وهو مصري من أصل أندلسي يتكئ في رواياته على كتاب ابن عبد البر ، ويقدم لنا استمرارًا لذلك التقليد الأندلسي في رواية السيرة ، ومن هنا أتت أهمية هذا الكتاب الجليل الذي أهداه شوقي ضيف لمكتبة السيرة النبوية .

تاريخ الأدب الأندلسى :

نأتى فى النهاية إلى هذا الكتاب الذى توج به شوقى ضيف جهوده فى ميدان الدراسات الأندلسية وهو المجلد السابع من مجموعة تاريخ الأدب العربى (عصر الدول والإمارات) وقد كان هذا آخر ما أصدره الدكتور شوقى ضيف سنة ١٩٨٩ . وهو ثمرة لإعداد طويل واستيعاب لكل ما أخرجته المكتبة العربية من نصوص ودراسات حول الأندلس منذ سنة ١٩٥٠ حتى اليوم ، وجدير بالذكر أن حركة نشر النصوص والدراسات حول الأندلس قد نشطت كثيراً خلال هذه السنوات الأخيرة ، ولهذا فإن الدكتور شوقى ضيف لم يشأ أن يتعجل الكتابة فى تاريخ الأندلس الأدبى ، مع أنه كان قادراً على ذلك منذ أخرج كتاب " المغرب " ، بل آثر أن يمعن الإطلاع على كل ما نشر عن الأندلس فى هذه السنوات ، حتى يصدر كتابه على نحو ما صدرت به كتب مجموعته فى تاريخ الأدب فى الدقة والاستقصاء .

ولسنا نبالغ إذا قلنا إن هذا الكتاب هو أجمع كتاب فى تاريخ الأدب الأندلسى صدر حتى الآن ، صحيح إن محاولات عديدة سبقته إلى ذلك ، ولكنها محاولات كانت قاصـــرة : إما على عصر من عصور هذا الأدب ، أو على ظاهرة من ظواهره ، أو شخصية من شخصيات ، أما الكتاب الجامع المجمل لتاريخ الأدب الأندلسى فهو أول ما يعالج هذا الميدان ويسد الفراغ فى مكتبتنا الأدبية حوله .

والكتاب يلتزم بنفس المنهج الذى اتبعه شوقى ضيف فى كتب مجموعته ، فهو يبدأ بفصلين تمهيدين ؛ الأول عن الأحوال السياسية والاجتماعية للبلاد ، والثانى عن الثقافة بوجه عام ، فيهما يقدم لنا خلاصة محكمة لأوضاع الأندلس فى هذه الميادين . والفصل الثالث دراسة مجملة للشعر والشعراء ، وفيه يتحدث عن تعرب الأندلس وخصوبة بيئتها الشعرية ، ثم يختص بدراسة الفنين اللذين كانا من ابتكار الأندلسيين وهما الموشحات والأزجال ، وهو هنا يطيل مناقشة المستشرقين الأسبان حول مسألة انتشار اللغة العجمية (لاتينيّة الأندلس) بين المسلمين الأندلسيين ، وحول ما يذكره هؤلاء المستشرقون ومن أهمهم خوليان ريبيرا ، وغرسيه غومس وحول أصول الموشحات وعروضها ، وحول الخرجات العجمية التى ينتهى بها عدد من الموشحات ، وهو ينتصر

للأصول العربية الشرقية للموشحة وينفى تأثرها بالعجمية وعروض الشعر الرومانسى .

أما الفصل الرابع فهو مفرد للنثر وفيه يدرس الدكتور شوقى ضيف ألوانا من الفن النثرى : الرسائل الديوانية والإخوانية أو الشخصية والأدبية ، ثم طائفة من المؤلفات المتميزة مثل طوق الحمامة لابن حزم ، ونثر ابن حيان المؤرخ فى كتبه .

الكتاب فى جملته أوفى دراسة للأدب الأندلسى . والدكتور شوقى ضيف بخبرته الطويلة وذوقه المرهف ، يعرف كيف ينتقى من هذا الركام الأدبى الأندلسى خير ما فيه .

هذا جانب واحد من جوانب نتاج أستاذنا الدكتور شوقى ضيف ، ولعله أقل الجوانب نصيبًا من اهتمامه فى تاريخ الأدب العربى بحكم حجم الأدب الأندلسى بالنسبة لآداب العرب ، ومع ذلك فعنايته بهذا الجانب لا تقل عن عنايته بسائر ما عالجه الدكتور شوقى ضيف على طول مسيرته العلمية والأدبية .

أ . د . محمود على مكى

أستاذ الأدب الأندلسى

كلية الآداب – جامعة القاهرة

٦ - منهج شوقي ضيف في الدراسات الأدبية

د. يوسف حسن نوفل

١ - إن محاولة التعرف على منهج الباحث الأدبي لا تنفصل عن محاولة التعرف على مناهج الباحثين السابقين والمعاصرين له ؛ ذلك أن الباحث لا يظهر في فراغ أدبي ، أو أفق حالك ، أو صحراء مجدبة . بل ترسخ جذوره ، وتورق أغصانه وسط رياض حافلة بما قدمه الفكر العالمي : القديم والمعاصر ، والفكر المحلي : التراثي والحديث .

ونحن بين يدي العطاء الأدبي لشوقي ضيف في حقل الدراسات الأدبية ، نجد من الأهمية بمكان أن نلقي نظرة سريعة ، نتعرف من خلالها على ما أنجزه الباحثون السابقون في هذا المضمار ، ممن مهدوا الطريق ، طريق البحث العلمي الجاد أمام المدرسة العلمية المنهجية التي أسسها ، ورادها عالمنا الكبير " د . شوقي ضيف " ، وأسهم فيها إسهامات متنوعة ما بين الأثر الأدبي المطبوع والمسموع ، والأثر الأدبي الأكاديمي التعليمي ، وبخاصة في حقل الرسائل العلمية ، وكل مجال من هذه المجالات يستحق دراسة خاصة به تستكنه أعماقه ، وتستشرف آفاقه لبيان الملامح الفنية لمنهج البحث الأدبي لعالمنا الكبير .

لباحث أن يقف على منهجه الأدبي في محاضراته المسموعة ، ولباحث ثان أن يتأمل منهجه الأدبي في إشرافه العلمي على رسائل الماجستير والدكتوراه ، وما أثمر من ثمرات يانعه يفوح عبيرها في أرجاء المجتمع العلمي العربي ، مقترنة بأعلام لهم مكانتهم العلمية ، وإسهامهم في حقل الدراسات الأدبية ، خرجوا - جميعًا - من عباءة شوقي ، وتتلمذوا على يديه بطريق مباشر أو غير مباشر ، عن كثبٍ أو عن بعد .

وأمام هذا التعدد الخصب لا نملك إلا أن نحدد مجالاً لدراستنا ، نحصره فى " منهج شوقى ضيف فى الدراسات الأدبية " من خلال آثاره المطبوعه .

* * *

٢ – إن حركة الاهتمام بالدراسات الأدبية الحديثة فى أدبنا متصلة أشد الاتصال بموقف الدارسين من مصطلح " علوم الأدب " ، واتساعه ليشمل عندهم ما يتصل بالأدب من تقويم اللسان وتصحيح الملكات ، ومن اختلاف فى عدد هذه العلوم ، وفى تنوعها ما بين الأصول والفروع ، حتى لتشمل – عند أصحاب المنهج التقليدى – فروع اللغة والثقافة ، قبل أن يتحدد مجالها لدى المحدثين من دراسى الأدب العربى .

كما أن حركة الاهتمام بالدراسات الأدبية متصلةٌ أشد الاتصال بتيارات وافدة عن طريق البعثات ، والمستشرقين من أمثال بروكلمان ، ونللينو وغيرهما ، فإذا ما حاولنا الوقوف على أمهات المصادر العربية الحديثة فى هذا المجال دون خوض فى التفصيل ، وجدناها متمثلة فى بواكير الدراسات التى ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، وكانت هذه البواكير اللبنة الأولى فى صرح الدراسات الأدبية ، برغم ما يفتقر إليه بعضها من منهجية أو شمول ، وبرغم ما يمكن أن يوجَّه إليها من ملاحظات فنية .

قد نجد من بين هذه الدراسات ما يستهدف انتخاب المعارف والمعلومات ، والمختارات الشعرية والنثرية ، وعرض الحكم فى لغة تجمع بين الاسترسال والسجع ، كما يبدو فى خطوة رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١هـ – ١٨٧٣ م) ، فى كتبه (مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية) سنة ١٢٨٦هـ ، ممثلة تجربة أدبية لا تعنى أنه كان يدور بخلد صاحبها أن يقدم دراسة أدبيه بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة .

وفى هذا النسق كانت تجربة محمد سعيد جعفر فى كتابه (السعر فى انتقاد الشعر) ، الذى نشر منجماً فى مجلة (روضة المدراس) منذ رمضان ١٢٩٣/١٨٧٦م .

على أن هـذه المرحـلة الباكـرة أسفـرت عــن محــاولة أكثـر نضــجًا ، تمثـلت فى (الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربيـة) . وهى جـملة مـحاضرات الشيخ حسين المرصفى (١٨٠٥ - ١٨٩٠م) ، وظهرت طبعة الجزء الأول منها عن مطبعة المدارس الملكية سنة ١٢٨٩هـ / ١٨٧٢م ، والجزء الثانى ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م .

وهكذافتح باب الاهتمام بدراسة آدابنا ؛ دراسة تدنو ، أو تبعد من اتصالها بالطابع التـقليـدى لفـهم الأدب ودرسـه ، ثم التـيـارات الوافـدة عن طريق البـعـثـات والمستشرقين ، ويمكن أن نشير - بإيجاز شديد جداً - إلى طائفة من هذه الدراسات التى هى - فى حقيقة الأمر - الخطوات التمهيدية لما نجنيه الآن من منهج علمى ، يؤدى ثماره اليانعه على أيدى أعلامه البارزين .

هذه الدراسات الباكرة من مثل ما قدم :

محـمـد دياب الذى انتـهى من تأليف كتـابه (تاريخ آداب اللغـة العربيـة) سنة ١٨٩٧م ، كما نفهم من تقرير حمزة فتح الله عن فحص هذا الكتاب الذى طبع سنة ١٩٠٠م ، وحسن توفيق العدل (١٨٦٢ - ١٩٠٤م) إثر عودته من ألمانيا ، وقيامه بالتدريس فى المدارس العليا ، وقد صدر كتـابه (تاريخ آداب اللغـة العربيـة) سنة ١٩٠٤م عام وفاته بإنجلترا ، وروحى الخالدى المقدسى (١٨٦٤ - ١٩١٣م) فى كتابه (تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب) ، وكتبه سنة ١٩٠٢م فى فرنسا ، وظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٠٤ ، وسليمان البستانى (١٨٥٦ - ١٩٢٥م) فى مقدمة الإلياذة سنة ١٩٠٤م ، وقسطاكى الحمصى (١٨٥٨ - ١٩٤١م) فى (أدباء حلب ذوو الأثر فى القرن التاسع عشر) .

ولنا أن نذكر (إنشاء العطار) للشيخ حسن العطار (توفى سنة ١٨٣٤) ، كما نذكر جهوداً غير مكتوبة للأفغانى (١٨٣٨ - ١٨٩٧م) ، ومحمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥م) ، وعبد الهادى نجا الإبيارى (١٨٢٠ - ١٨٨٨م) ، والشيخ عبد الله الشرقاوى (١٨٣٧ - ١٨٨٢م) .

وكان كتاب (المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية) لحمزة فتح الله (١٨٤٩ - ١٩١٨م) من بواكير هذه الأعمال ، غير أن مؤلفه - كما يذكر السباعى بيومى فى مقدمة كتابه : " نظر إلى الأدب كأنه فن لا يستند إلى علم ، أو كأن دراسته - بعيدة عن تاريخه - كافية فى تكوين الأدب " [١] .

وقدّم حفنى ناصف (١٨٥٦ - ١٩١٦م) : (حياة اللغة العربية) سنة ١٩١٠ .

وأحمد الإسكندرى : (تاريخ آداب اللغة العربية فى العصر العباسى) سنة ١٩١١ .

ومحمد على المنياوى : (الشذرات السنية فى تاريخ آداب اللغة العربية) سنة ١٩١١ .

وجورجى زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤) : (تاريخ آداب اللغة العربية) سنة ١٩١١ .

ومصطفى صادق الرافعى (١٨٨٠ - ١٩٣٧) : (تاريخ آداب اللغة العربية) سنة ١٩١١ .

وطه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) : (تجديد ذكرى أبى العلاء) الذى حصل به على درجة الدكتوراه سنة ١٩١٤ ، وطبعه سنة ١٩١٥ ، ثم ثورته المنهجية فى كتابه (فى الشعر الجاهلى) سنة ١٩٢٦ ، ثم ما أدخله من حذف وإضافة تمثلت فى الصورة الجديدة للكتاب السابق ، وذلك فى كتابه (فى الأدب الجاهلى) سنة ١٩٢٧ ، وما دار حول هذه الثورة المنهجية من حوار ساخن مما لا نخوض فى تفصيلاته هنا ، وإن كان لا يفوتنا التنويه بأهميته وعظيم أثره .

وهكذا تتابعت جهود كل من :

أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ - ١٩٦٨) فى (تاريخ الأدب العربى) سنة ١٩٢٨ ، ومحمود مصطفى فى (الأدب العربى وتاريخه فى صدر الإسلام والدولة الأموية) سنة ١٩٣٢ ، وزكى مبارك (١٨٩٢ - ١٩٥٢) الذى كتب بين سنة ١٩٢٧ وسنة ١٩٣٠

---

(١) السباعى بيومى ، تاريخ الأدب العربى جـ١ ، العصر الجاهلى ، النهضة ١٩٤٨ ، ص٦ .

رسالته لنيل درجة الدكتوراه فـى (النثر الفنـى فـى القـرن الرابـع) ، وصدرت سنة ١٩٣٤ . وأحمد الشايب في كتابيه : (تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني) سنة ١٩٤٥ ، و (تاريخ الأدب العربي) سنة ١٩٤٨ ، ومحمد هاشم عطية في (الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي) ، وأنيس الخوري المقدسي (١٨٨٥ -) ، وأمين الخولي (١٨٩٥ - ١٩٦٦) ، والعقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤) ، ومحمد حسين هيكل (١٨٨٨ - ١٨٥٦) ، وأحمد أمين (١٨٨٧ - ١٩٥٤) ، ومحمد خلف الله أحمد ، وعبد الوهاب حمودة ... إلخ .

ونكاد نستغرق وقتًا طويلاً لو مضينا مع الحصر والاستقصاء لأعمال أخرى وما حمل اسم المفصل ، أو المجمل ، أو الوسيط ، أو الموجز ، أو المنتخب ، كما نقضي وقتا أكثر طولاً لو رحنا مع مضمون هذه الدراسات نتعرف على منهاجها ، وما بها من محاسن ومآخذ ، غير أن علينا الآن أن نقنع بهذه العجالة توطئة للحديث عن ميلاد باحث ، وبزوغ نجم علمي وسط تفكير أدبي ركز الحديث عنه أحمد الشايب في مقدمة (تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري)[1] لطه إبراهيم ، إذا رأى أن التفكير الأدبي يتجه في أحد اتجاهين :

- اتجاه غربي يعزلنا عن بيئتنا الأدبية ، ويستنبط قوانين خارجة عنها .

- واتجاه يقف عند ما كتبه الأقدمون فيقع في أحكام جزئية ، سريعة ، ويقنع بالسابقين فحسب ، ويجعل الأدب العربي وحدة مستقلة ، لهذا رأى أن تكون الدراسة فنية تعنى بالأصول والطرائق والمقاييس ، وتاريخية تهتم بالماضي ، وأطوار النشأة .

وقد ذهب محمد النويهي في مقدمة كتابه (ثقافة الناقد الأدبي)[2] إلى أن بعض كتب تاريخ الأدب هذه صرفت المتعلمين عن الأدب العربي ، وقطعت عليهم الصلة بمصادره الأصيلة ، إلى أن رأى أن مثوى هذه الكتب (النار) !! بل وصفها بأنها كتب (شنعاء) ! لقيامها - كما يقرر - على أشتات من المعلومات ، وعلى الأحكام

---

(١) لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ١٩٣٧ .

(٢) الخانجي ، دار الفكر ط٢ ، بيروت ١٩٦٩ ، ص١١ ، وما بعدها . وانظر نقده الشديد لكتاب (الفن ومذاهبه في الشعر) ص٤١ وما بعدها .

الجزافية غير الصحيحة ، وعلى الاستظهار ، إلى آخر ما ساق النويهي من نقد لتلك الكتب المدرسيّة مستثنيًا (المجمل) ، معللا ذلك بأن طه حسين أحد مؤلفيه .

وما يعرضه النويهي ، هو استمرار لما سبق نوقش في مطلع العقد الثاني من القرن العشرين ، ففي سنة ١٩١١ شرع طه حسين ينقد كتاب جورجي زيدان على صفحات مجلة الهداية ، مناقشًا التفرقة بين كتب الفهرسة – ولعله يقصد العلم الذي نضج بعد ذلك وهو علم البيبليوجرافيا – من ناحية ، وكتابة تاريخ الأدب من ناحية أخرى و معترضًا على أتباع تقسيم الأعصر السياسية ، تلك التي تجعل الأدب متأثرًا بالحوادث ولا تجعله مؤثرًا فيها .

وفي سنة ١٩١٥ عاد في مقدمة (تجديد ذكرى أبي العلاء) إلى الحديث عن تردد درس الأدب في مصر بين تيارات ؛ أحدها المذهب القديم ، والثاني مذهب الأوربيين ، والثالث بين المذهبين ، وصفه بأنه " مشوش رديء كله شر " ، وكيف اهتمت الجامعة بالمذهبين الأولين .

وفي سنة ١٩٢٦ عاد في مقدمة (في الشعر الجاهلي) إلى مناقشة القضية ذاتها ، متناولاً مفهوم مصطلح (الأدب) ، والصلة بينه وبين تاريخ الأدب ، ومقاييس تاريخ الأدب من المقياس السياسي الذي ينكره ، والمقياس العلمي الذي يعدل عنه كما عدل عن الآخر ، والمقياس الأدبي الذي يختاره ويتخذه سبيلاً للبحث .

كما رأى محمد حسين هيكل أن جورجي زيدان ، والرافعي ، لم يوفقا في الجزأين الأولين من كتابيهما ؛ إذ رأى أن تاريخ الأدب يجب ألا يقوم على سرد الوقائع ، أو أخبار الرجال وآرائهم ، كما لا يقوم على العناية بالأعراض دون الجواهر ، أو الانسياق وراء العاطفة ، أو عدم الاعتماد على الأدلة والبراهين ، أو عدم تحري الدقة ، وكما عرض لذلك في كتابه (في أوقات الفراغ) [١] ، عرض في كتابه (ثورة الأدب) [٢] آراءه حول الأدب القومي .

---

(١) القاهرة ، ١٩٤٨ .

(٢) مطبعة مصر ، د . ت .

ولم ينفصل ذلك كله عن تيارات الفكر المعاصر المتراوحة بين الافتتان بالغرب ، والاتجاه إليه ، وبخاصة لدى العائدين من البعثات الخارجية ، أو الالتزام بالمحافظة ، أو التردد بين التيارين فى حدة غربية مسرفة ، أو حدة مادية متطرفة أو ميل فرعونى طارئ .

وبين هؤلاء وأولئك ، وجدنا من يفتتنون بجمال الصياغة والأسلوب ، كما وجدنا من يهتمون بالقيم والأفكار الكامنة فى المضمون دون إهمال للشكل ودون إسراف فى تجميله ، كما وجدنا طائفة من المتجاورين علمياً فى معارك أدبية متنوعة .

ولسنا بسبيل بسط القول فى الإبانة عن مضمون ما سبق من دراسات ، ومدلول كل ما سبق ذكره من مصطلحات ، فقد سبقنا بتفصيل القول عنها ، كما أننا نذكر ذلك كله لنتعرف على البيئة الفكرية والأدبية التى استقبلت إسهام عالمنا الكبير شوقى ضيف الذى وجد من الضرورة الإسهام فى استكمال ما بدأه السابقون من بناء ، فلم يقتصر دوره على ذلك فحسب ، بل أضاف وابتكر ، وجدّد ونظّر .

٣ - سبيلان : أحدهما تنظيرى ، والآخر تطبيقى :

ولكى نقف على جهوده نرى من الضرورى الإشارة إلى أن إسهام شوقى ضيف اتخذ سبيلين ؛ أحدهما تنظيرى ، والآخر تطبيقى .

السبيل التنظيرى :

أما السبيل التنظيرى ، فيمكن أن نلتمس طريقنا إليه فى مصدرين :

أحدهما : مقدمات كتبه جميعها ، وفيها نراه حريصاً على ذكر تاريخ كتابتها باليوم والشهر والسنة .

وثانيهما : كتابه (فى النقد الأدبى) الذى وضعه فى أبريل ١٩٦٢ . وكتابه (البحث الأدبى : طبيعته - مناجهه - أصوله - مصادره) الذى وضعه فى فبراير ١٩٧٢ .

ولا شك أنه قد التفت إلى تنوع اهتمامات الدارسين بين الانشغال بما حول الأدب من حياة صاحبه وبيئته ، ومجتمعه ، وعصره ، وظروفه السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، أو الجمع بين ذلك وبين الاهتمام بالعمل الأدبى ذاته من تحليل وتفسير وتقويم وتذوق .

لقد رأى جورجى زيدان - كما يذكر فى مقدمة الجزء الثانى من كتبه [(١)] - ضرورة وجود شروط ثلاثة للتأليف ، هى :

اختيار الموضوع الذى تحتاجه الأمة ، وسبكه فى قالب يسهل تناوله ، فى لهجة صادقة صريحة دون انحياز لطائفة أو حزب .

كما رأى افتقار الأبحاث الأدبية إلى إعمال الفكرة من ترتيب وسبك ، فى عبارة سهلة غير ركيكة . كما مضى متسائلاً عن معنى تاريخ الأدب واتصاله بالمعنى العام لكلمة الأدب ، أو الخاص لها ، وتفاوت الاهتمام بين الإحاطة بحياة الأدباء أو الإحاطة بالكتب . أما منهجه ، فيجمله بقوله :

" فقد أردنا أن نجمع بين كل ذلك على ما بلغ إليه الإمكان " ... متحدثًا عن نسق الكتاب : أى : تقسيمه وجعله للناشئة .

ونقف من على حقيقة ذات أهمية بالغة تفرق بين دارس وآخر ، مرجعه إلى فهم الأدب بمعناه العام ، كما رأينا لدى من أرخ لآدابنا من المستشرقين ، وكما صنع جورجى زيدان ، أو فهم الأدب بمعناه الخاص . وهذا ما ارتآه شوقى ضيف فى دراساته الأدبية على نحو ما يحدثنا فى مقدمة كتابه (العصر الجاهلى) [(٢)] ، حيث

---

(١) جورجى زيدان ، تاريخ اللغة العربية ، ج٢ ، الهلال ، ص٣ وما بعدها .
(٢) كتب المقدمة فى ٢٠ ديسمبر ١٩٦٠ ، ورجعنا للطبعة السادسة فى سلسلة تاريخ الأدب العربى - ١ ، دار المعارف ، ١٩٧٤ .

رأى أن يدرس الأدب بمعناه الخاص ليقف على الجمال الفنى ، غير مكتف بالنبذ المجملة ، كما رأى ألا نبطل فكرة الشخصية الأدبية والمواهب الذاتية مع مراعاة الجنس والزمان والمكان ، وتطور الأجناس الأدبية على نحو ما درس فن المقامة وتولدها من الأرجوزة ، مع الوقوف عند أساليب الأدباء وتشكيلاتهم اللفظية والجمالية .

لقد أدرك عالمنا الكبير - كما يعبر فى المقدمة ذاتها افتقار تاريخ أدبنا العربى إلى طائفة من الأجزاء المبسوطة تبحث فيها عصوره من الجاهلية إلى عصرنا الحاضر ، كما تبحث شخصياته بحثًا مسهبًا بحيث ينكشف كل عصر انكشافًا تامًا بجميع حدوده وبيئاته وآثاره .

كما أدرك صعوبة المهمة ، يقول :

" وقد حاولت أن أنهض بهذا العبء ، وأنا أعلم ثقل المئونة فيه " ، معللاً لذلك بأسباب ، هى : بقاء بعض المخطوطات دون نشر ، أو دون نشر علمى ، وأن بيئات أدبية يغمرها غير قليل من الظلام ، وأن تحليل الأعمال الأدبية ليس عملاً سهلاً ، ويقرر - بتواضع العلماء - : " أن ما يقدمه - فى كل عصر - لا يحمل الصورة الأخيرة للعصور المتعاقبة ، ولا يمنع من إضافة اللاحقين ، فتلك طبيعة الأبحاث يكمل بعضها بعضًا " .

ويهمنا هنا ما يتصل بتحليل الأعمال الأدبية ، إذ أدرك عالمنا بعض ما كان يعوز الدراسات السابقة ، من فقدان ظاهرة الاهتمام بالنص وصاحبه ، ولهذا كان حريصاً على التأكيد على هذا الجانب فى مقدمات كتبه ، فهو فى المقدمة التى تحمل تاريخ سنة ١٩٧٣م لكتابه (العصر العباسى الثانى) (١) يصور " تمثل الشعراء خصائص العربية ودقائقها الجمالية والموسيقية " ، ويهتم " بالأخيلة المبتدعة " ، ويذكر :

" وبحثتُ بحثًا تحليليًا تاريخيًا أعلام الشعراء فى العصر " ، ليقف على أشعار على بن الجهم ، وأروع أشعاره " ما نظمه فى الاستعطاف وفى تصوير صلابة نفسه " ، ويقف عند البحترى ليرى " ما سخر له من تلاوين الجمال الموسيقى الآسر وأنغامه

---

(١) نرجع إلى ط ١٩٧٣ ، دار المعارف .

وألحانه الرائعة " ، كما يقف على أفكار ابن الرومى وتصويراته الجديدة ، وابن المعتز والصنوبرى ... إلخ .

ويصادفنا فى معظم مقدمات كتبه تنويهه بنزعة " النقد والتحليل " فى أعماله ، رأينا ذلك فيما أشرنا إليه من مقدمتين ، كما نراه فى مقدمة كتابه (فصول فى الشعر ونقده) [1] ، كما نراه فى مضمون هذا الكتاب ، وفى غيره من كتبه .

وهناك جانب آخر يتصل بتقسيم العصور الأدبية وفقًا للعصور السياسية ؛ من الجاهلية ، فالإسلام حيث صدر الإسلام فى عصر الخلفاء الراشدين ، ثم العصر الأموى ، ثم العصر العباسى : الأول فى مائة عام ، والثانى بقية العصر ، أو إلى سنة ٣٣٤هـ - ٩٤٥م ، حيث استولى بنو بويه على بغداد حيث يبدأ العصر الثالث حتى استيلاء التتار على بغداد .

أما شوقى ضيف فيذكر فى مقدمة كتابه (العصر الجاهلى) أنه يرتضى تقسيم العصرين الأولين ، أما العصر الثالث ، وهو العصر العباسى فيبقى منه على الأول حتى ٢٣٢هـ ، والثانى حتى ٣٣٤هـ . ثم يبدأ بعصر رابع يمتد حتى العصر الحديث ، ويسميه عصر الدول والإمارات ، حيث يرى أن يؤرخ لكل إقليم على حدة ، حتى إذا انتهينا من ذلك أرخنا للعصر الحديث ؛ والتعليل الذى يقدمه شوقى ضيف لذلك التقسيم ، ويراه " أكثر دقة ومطابقة لتطوره " ، هو أن " بغداد لم تعد منذ القرن الرابع الهجرى تحتل المكانة الأولى فى الحركات الأدبية ، بل لقد نافستها فى الشرق والغرب مدن كثيرة تفوقت عليها فى النهوض بالشعر والنثر تفوقًا واضحًا " .

وقد يجوز لنا أن نبنى على هذا التعليل تساؤلاً حول اعتبار عالمنا الكبير العصر الحديث - الذى يبدأ بالحملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١٣هـ - ١٧٩٨م - عصرًا واحدًا كما هو عند جميع الدارسين ، وهنا نتساءل ألا يحق لنا أن نجعل لهذا العصر صدرًا يتصل بمرحلة الإحياء والبعث ، ثم نجعل له مراحل مما يتصل بمظاهر التغيير ، مما يعود - فى مجمله - للحروب ، وما تحدثه من تغيير ، هذا تساؤل عارض نقدمه بين يدى البحث ، ولعله يحظى بالتفاتة من الالتفاتات الواعية لعالمنا الجليل .

---

(١) نرجع إلى ط٢ ، ١٩٧٧ ، دار المعارف .

وكما كان لشوقى ضيف أن يسن طريقًا جديداً واضحًا فى الدراسات الأدبية ميزه عن الألوان التجريبية التى سادت منذ أواخر القرن الماضى – مما ذكرنا – كان له أن يبنى منهجه على ما يكونه من رأى ليس شخصيًا بقدر ما هو موضوعى ، يولد نتيجة الدراسة العلمية ، ولعل أصدق ما يساق فى هذا المجال توضيحاً لهذه المقولة التى نطرحها ، كتابه عن أحمد شوقى أمير الشعراء الذى فاز بجائزة الدولة التشجيعية للأدب سنة ١٩٥٥م ، بعنوان (شوقى شاعر العصر الحديث) .

حقًا ، لقد ظهرت بحوث عديدة حول أحمد شوقى ليس من بينها – كما يعبر عالمنا – " بحث منظم " ، يقول فى المقدمة التى كتبها فى أول يونيو ١٩٥٣م :

" فقد اكفهرت الأجواء الأدبية إزاءه بالثناء المسرف والطعن المجحف ، وأصبحنا لا نعرف أين الوجه الصحيح ، ولا أين المقدمات السليمة ، ولم نعد ندرى أى الأحكام فيه صادق ، وأيها كاذب ، وأيها مصيب .

وبذلك عميت علينا حقيقة شوقى ، بل حقائقه الفنية جميعًا ، وكان هذا أكبر باعث لى على النهوض بهذه الدراسة التى لم أقصد بها إلى تهجينه ولا إلى تحسينه ، وإنما قصدت إلى بحثه ووزنه بمعايير سهلة ، هى معايير النقد المنصف الذى لا يميل مع الهوى ، وإنما يسجل الظواهر الأدبية متتبعًا مستقصياً فليس همه أن يزرى وينتقص ، ولا أن يزخرف ويزين ، وإنما همه أن يصور الحق ويكشف الصواب " .

وهكذا نجد وجهًا من وجوه الإضافة العلمية المنهجية للدراسة الأدبية العربية المعاصرة ، يقوم على الحكم الموضوعى ، وتأمل الظواهر والاحتكام إليها فيما يصدُر من أحكام ، كما نرى إبطال نظرة مجاراة الغير فى آرئهم دون تمحيص ، وإبطال مبدأ البحث الانفعالى العاطفى الذى يميل مع الهوى ، وإبطال مبدأ النبذة العجلى المبتورة ، مما كنا نراه فى الدراسات الأدبية السابقة لعصر شوقى ضيف .

بل إننا نراه فى هذا الكتاب يقدم لونًا جديداً على الدراسات الأدبية طالما أفاد منه النفسيون فى دراستهم للأدب ، وهو دراسة المسودات الأدبية ، وقد طبقه على شيء من شعر شوقي الغنائي والمسرحي .

وقد ختم عالمنا المقدمة بقوله : " فنحن لم نضع هذا البحث تشيعًا لأنصاره ، وكذلك لم نضعه تعصباً لخصومه ، وإنما وضعناه ابتغاء تقويم شعره من جميع أطرافه تقويمًا صحيحًا دقيقًا " .

ثم لا يلبث أن يعود للحديث عن شوقي ومكانته فى الشعر الحديث فى كتابه (فصول فى الشعر ونقده) ص ص ٢٣١ – ٣٤٨ .

هذا عن المصدر الأول للجانب التنظيرى عند عالمنا .

٤ – أما المصدر الثاني للجانب التنظيرى عند عالمنا فنجده فى كتابه (فى النقد الأدبى)[١] ، حيث يذكر فى المقدمة المكتوبة فى أبريل ١٩٦٢م أنه يقف عند تفسير الجمال الفنى وتعليله ، والصلات المنعقدة بين فنون الشعر والتصوير والموسيقى ، والشعر وأوزانه وصياغته ونصوصه ، وتأويلاته وتجاربه ، وما ينبغى أن يتوفر للقصيدة من وحدة عضوية تامة .

ويعلن أن ما كتبه إنما هو آراء تمثلها ، ابتغى فيها الوضوح ؛ لإيمانه " أن الكتب لا تحتاج إلى شيء حاجتها إلى الوضوح " .

ولهذا نجد فى الكتاب الاهتمام بالتنظير ؛ أى رصد الظاهرة النقدية منذ بواكيرها العالمية حتى تطورها فى العصر الحديث ، وصولاً إلى ما سماه شوقي ضيف (التاريخ الطبيعى للأدب) ، ووصولاً مع الدراسات النفسية والاجتماعية ، لكنه وهو معنى بمصطلحات الجمال ، والتجربة الشعرية ، والوحدة العضوية ، والأدب الاجتماعى ، والنقد والنقد القصصى والمسرحى ، يكون معنيًا أيضًا بالجانب التطبيقى مع عنايته بالتنظير حتى لا تتجافى مواطن الجمال فى النص عن أسس نقده ومناهج بحثه .

---

(١) نرجع إلى الطبعة السادسة – دار المعارف ، ١٩٨١ .

وفى مقدمة (البحث الأدبى) [1] المكتوبة فى فبراير ١٩٧٢م ، لا يفوته أن ينوه بأنه " لابد أن تتكون لدى الباحث الناشئ قدرة على التذوق الأدبى المعلل ، والتحليل الدقيق لشخصيات الأدباء ، وفهم خصائصهم المميزة ، مع دقة العرض واكتمال التمثيل ، ومع الاحتياط فى استخدام صيغ التعميم " .

ولأنه قد شعر بحاجة طلاب الدراسات العليا لمثل هذا البحث ، أخذ يعرض جوانب المنهج النظرى جامعًا بينه وبين التطبيق فى كثير من الأحيان ترسيخًا للفكرة وشرحًا لها . فينتقل من الحديث عن طبيعة البحث الأدبى ، إلى تنوع المناهج بين العلوم الطبيعية ، والاجتماعية ، والنفسية ، والجمالية ، والاتجاه التكاملى الذى يميل إليه ويؤيده (١٤٤) ، كما يتناول الأصول بين التوثيق والتحليل ، والمصادر وتنوعها ونقدها .

٥ - شوقى ضيف ونظريته فى حدة التراث :

إن فى تأمل مكتبة شوقى ضيف بمجالاتها المتعددة ما يقفنا على حقيقة مهمة هى صدوره عن نظرية آمن بها من قبل وطبقها فى بحثيه : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، والفن ومذاهبه فى النثر العربى ، ومازال يعود إليها بين الحين والحين ، ففى أكتوبر ١٩٨٠م نشر بمجلة فصول بحثًا عنوانه (وحدة التراث) ص ص ٩ - ١٨ ، وواصل الحديث عنها فى يوليو ١٩٨١م بالمجلة ذاتها ، فى بحث عنوانه (القديم الجديد فى الشعر) ص ص ١١ - ١٧ ، عودة إلى ما كتبه فى كتابه (فصول فى الشعر ونقده) حول (تقويم تراثنا الشعرى) ص ص ٩ - ٢٧ ، سنة ١٩٧١م ، امتداداً لما بدأه فى سلسلة تاريخ الأدب العربى[2] .

إن ذلك ينبع - فى تصورنا - من نظريته فى (وحدة التراث) القائمة على الأسس التالية كما نوجزها من مقاله :

---

(١) نرجع إلى ط ، ١٩٧٢ .

(٢) عن صلته بالأغانى للأصفهانى : الدكتور سيد النساج . رحلة التراث ، دار المعارف ، ١٩٨٤ ، ص٢٥٢-٢٥٤ .

الأساس الأول : وحدة التراث الدينى ، وعلى رأسه القرآن الكريم ، وما انبثق عنه من تفسير وحديث ومذاهب فقهية .

الأساس الثانى : وحدة التراث النحوى واللغوى والبلاغى .

الأساس الثالث : وحدة التراث المتصل بعلوم الأوائل كالفلسفة والطب والطبيعة والكيمياء ... إلخ .

الأساس الرابع : الوحدة الظاهرة فى نظام الأدب وقواعده : شعراً ونثراً .

الأساس الخامس : كتب تراجم المفسرين والقراء والمحدثين أو الحفاظ للحديث النبوى والنحاة وكتب التاريخ العام .

ولهذه يرى الشعر متجاوزاً المكان والزمان ؛ لأن تعامله مع النفس البشرية يجعله ثابتًا لا يتغير فى جوهره ، فيكون قديماً فى زمن ظهوره ، جديداً فى زمن تأثيره ، وهكذا يكون شعر المديح قديماً وجديداً ؛ لأنه صادر عن وحدة تتمثل فى : الطبيعة البشرية ، والإيقاع ، والخيال ، والصياغة ، وهذه الوحدة التى تعد أساس التفكير المنهجى عند شوقى ضيف – فى نظرنا تفسر ظواهر عديدة فى عطائه السخى ، فهى تفسير اهتمامه بتاريخ الأدب العربى ، حيث تعاقبت إصداراته عن العصر الجاهلى والإسلامى والأموى والعباسى ، ودراساته عن الفن ومذاهبه فى كل من : الشعر والنثر ، ودراساته فى الأدب المعاصر ، والشعر المعاصر ومعظم شعرائه المعاصرين ، وبخاصة : البارودى وشوقى فى كتابيه ، وفى ثنايا كتب أخرى ، وفى نظير معاصر لهما له دوره فى الشعر الجديد ، وهو صلاح عبد الصبور الذى يكتب عنه بحثه (صلاح عبد الصبور رائد الشعر الحر الجديد) ، و" وكان يتعاطف معه " ، حتى يقرر ريادة صلاح عبد الصبور لهذا الشعر ، كما يكتب عن (نواقص الإيقاع فى الشعر الحر) ص ٢٠١ بكتابه (فصول فى الشعر ونقده) ، كما يكتب عن الغناء والشعر وطوابعه الشعبية ، وفنون الأدب : الرثاء والمقامة ، والترجمة الشخصية ، والرحلات .

كما يكتب فى النقد والمناهج ، ويؤرخ للبلاغة والمدارس النحوية ، بل يقدم كتابه (تجديد النحو) ، ويسهم فى التحقيق ، والدراسات القرآنية ، ويمزج بين الدرس

اللغوى ، والأدبى ، والنقدى ، والمنهجى ، فى مقالات عن الحوار المسرحى بمجلة المجمع اللغوى (مايو ١٩٧٨ ، مايو ١٩٨٠م) ، فيتحدث عن الفصحى والعامية وعن اللغة الثالثة .

إن هذا يعود - فى مجمله - إلى نظرة أصحاب المنهج التاريخى فى تأثير الحاضر فى فهم الماضى باستخدم (القياسى التاريخى) .

وفى ذلك كله - مما أوجزناه إيجازًا تحاشيًا للإطالة - نراه يضرب بسهم وافر ، ويحيط إحاطه شاملة واعية ، وما ذلك - فى نظرنا - إلا لإيمانه بوحدة التراث ، تراث أمتنا ، خاصة حين يدنو من الأدب ، أو النقد ، أو البلاغة ، أو النحو ، أو التحقيق ، أو الدراسات القرآنية ، حتى ليمكن لنا أن نزعم - دونما مبالغة - أنه لم يتيسر لباحث محدث أن يحيط بدرس أدب أمته من أعماق ماضيها البعيد ، إلى أوج حضارتها المعاصرة بدرجة واحدة من الإحاطة والشمول ، والتمثيل والاستيعاب ، مثلما تيسر لباحثنا الكبير الذى استخلص لنفسه منهجًا ، واصطفى سبيلاً بين تيارات صاخبة بين التراثية والغربية والفرعونية ، بين سكينة اليقين وثباته ، وصخب الشك واضطرابه ، فى منهج ، أبسط ما يقال فيه : إنه منهج تكاملى يجمع بين الرؤية الداخلية والرؤية الخارجية ، كما سنرى .

٦ - المنهج التكاملى :

لقد تمثل شوقى ضيف جهود المُنَهِّجِين السابقين فى العصور القديمة والحديثة ، فى تراثنا العربى والتراث العالمى ، لم يغب عن ذهنه جهود منهجية أفادت من قوانين العلوم الطبيعية ، فاتجهت إلى أن الأديب ، وأدبه ثمرة قوانين قديمة وحاضرة ومستقبلة ، وتجعل من الروابط ما يضم الأديب وبذلك تتكون عناصر :

الجنس أو الفطرة الموروثة ، والبيئة أو الوسط الجغرافى ، والعصر أو الزمان من ظروف سياسية وثقافية وفنية ودينية .

وفى تأمل تراث شوقى ضيف النظرى ، والتطبيقى ، ما يجعلنا فى مواجهة صريحة مع هذه النظرية التى ظهرت فى كتابات كل من : " سانت بيف ، وتين ، وبرونتير " .

أما الجانب النظرى عند عالمنا الكبير فيتمثل فى مناقشته هذه النظرية ، وإشارته إلى تنبه العرب لهذه الثلاثية دون أن يعطوها حتمية أو جبرية ، ولا يرى بأسًا من استخدامها فى تاريخ الأدب العربى ، ودراسة أدبائه ، دون خضوع للجبرية الحتمية ، وبخاصة قانون الجنس ؛ لأنه لا يوجد جنس خالص .

ويناقش تطور الأنواع الأدبية عند " برونتيير " موافقًا على أساسها ، لكنه يرى أن الأطوار الأدبية لا يقضى بعضها على بعض ، لذا لا يرى فى الأدب قديمًا وجديداً ، وسنرى فى الجانب التطبيقى مصداق ذلك عند عالمنا .

ومن المنهجين من يتجه للجانب الاجتماعى ، فى صلته الوثقى بالأدب ، ومنهم من ينحو بالأدب منحى نفسيًا يتصل بالإبداع ، وتفسير الأعمال الأدبية تفسيراً نفسيًا ، يتصل بالرغبات والدوافع والنماذج العليا ، والعقد ، واللاشعور الفردى ، والجمعى ... إلخ . ومن المنهجين من يتجة للفلسفة الجمالية . وهكذا تعددت مناهج البحث الأدبى مفيدة من إنجازات العلوم الحديثة المعاصرة ، مما عقد مجالاتها ونوعها كما هو معلوم .

أما شوقى ضيف فإنه يرتضى المنهج التكاملى ، كما تحدث فى كتابه (البحث الأدبى) ص ١٢٩ ، فيفيد من العلوم الطبيعية فى دراسة الأديب فى أسرته وتربيته والمؤثرات الذاتية ، وفى دراسة تطور الأدب ، ويبين طبقة الأديب . ويفيد من الدراسات النفسية على موطن الموروثات فى الأدب ، والعقد ، كما يفيد من الدراسات الجمالية ، ويلخص من ذلك كله إلى ضرورة الاستضاءة بكل هذه المناهج ، وعدم الاقتصار على منهج واحد منها ، *ليتحول عقل الباحث إلى مرآة تعكس أضواء كل تلك المناهج فتعكس فكرة الأصالة والفردية والفصيلة الأدبية ، والبيئة والعصر والظروف ، والتطور التاريخى ، والحاجات الاقتصادية للمجتمع ، ورواسب اللاشعور الفردية والجمعى ، وعناصر الجمال ، فيما يشبه المنارات الضخمة تهدى سواء السبيل .*

هذه هى خلاصة موجزة للآراء النظرية لشوقى ضيف ، فيما عرضه فى كتابه (البحث الأدبى) ، وهى آراء تكشف عن منهج تكاملى ، نجده فيما بين أيدينا من بحوثه المتعددة فيما نعنى ببيانه من بحوثه التطبيقية فيما يلى .

لقد قدمنا حديثًا عن نظريته فى وحدة التراث فى بحوث تطبيقية لديه أشرنا إلى بعضها ، ونضيف إليها بحثه الفريد (الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور) (١) الذى كتبه سنة ١٩٧٧ ، وبناه على نظريته القائلة بأن " الشعر يفصل من قلوب شعوبه وأفئدتها ، ويصور حاجاتها وآمالها وآلامها " على مدى العصور ... لقد تتبع الظاهرة فى العصر الجاهلى ، ثم الإسلامى ، ثم العباسى الأولى ، فالثانى ، ثم عصر الدول والإمارات ، ثم فى العصر الحديث .

وحين ناقش - من قبل - آراء علماء الأدب فى نظرية التطور عبر - بطريق غير مباشر - عن نظريته فى (وحدة التراث) ، قائلاً :

" الأطوار الأدبية لا يقضى بعضها على بعض ، ولا يمحو بعضها بعضًا ؛ وآية ذلك أننا نطرب للشعر الذى كتبه الجاهليون على الرغم من أنه يمثل طورًا مغرقًا فى القدم ، فالطور الجديد فى الشعر لا يحكم على طور قديم بالفناء ، وهو معنى ما يقال من خلود الأدب ، وأنه لذلك لا يوجد قديم ولا جديد " (٢) .

إن هذا الذى قاله سنة ١٩٧٢ ، هو بعينه ما ذهب إليه فى بحثيه المشار إليهما من قبل : وحدة التراث سنة ١٩٨٠ ، والقديم الجديد فى الشعر سنة ١٩٨١ . **إن نظريته التكاملية جعلته ينظر لسنة التطور فى الفنون الأدبية نظرة لا تنفصل عن الجمال الفنى ، نظرة تحقق نوعًا من التوازن بين المناهج الفنية ، وقد أسلمته نظريته عن وحدة التراث) إلى نظرية أخرى ، هى ما يمكن أن نسميه نظرية (وحدة الظواهر الأدبية) .**

فكما وقف عند ظاهرة البارودى رائد حركة البعث فى الشعر العربى المعاصر وأفرد له كتابًا ، ورأى امتداد الظاهرة وتطورها فى خطوات تجديدية عند أحمد

---

(١) نرجع إلى الطبعة الأولى .
(٢) *البحث الأدبى* ، ٩٥ .

شوقي ، فأفرد له كتاباً أيضًا كما قدمنا ، وإلى جانب الكتابين لم نعدم إشارات وإضافات له عن الشاعرين في كتبه الأخرى مثل :

الأدب العربي المعاصر في مصر ، وفصول في الشعر ونقده كما قدمنا ، ودراسات في الشعر العربي المعاصر ... إلخ .

نقول إنه كما صنع ذلك مع القمم الرائدة فيما سبق ، يمضي فيكتب عن صلاح عبد الصبور ملقبًا إياه : رائد الشعر الحر الجديد ، كما لقب البارودي برائد الشعر الحديث ، وكما لقب شوقي بشاعر العصر الحديث ، هكذا تطرد الظواهر الأدبية أمام ناظريه في إطار منهجه التكاملي ، الذي لا ينظر للتطور نظرته إلى عملية " إحلال " أو " فناء " . بل ينظر للظواهر الأدبية على أساس امتدادها الطولي ، فينظر إلى فن الغناء في مكان ما وعصر ما ، ويقدم لنا كتابه (الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية) ، ويعمد إلى الفنون الأدبية العربية ، فيرصد امتدادها ووحدة ظواهرها ، ويفرد لكل منها دراسة خاصة ، فنرى دراساته حول فن الرثاء ، وفن المقامة ، وفن النقد ، وفن الترجمة الترجمة الشخصية ، وفن الرحلات .

إن هذه النظرة التكاملية شديدة الاتصال بتكاملية منهج شوقي ضيف – كما سنرى – وأقصد بذلك نظرته إلى العلوم الأخرى المتصلة بالأدب . لقد بينا في مطلع حديثنا موقف باحثنا ممن نظروا للأدب بمعناه العام ، وكيف ارتأى أن ينظر إليه من خلال مفهومه الخاص ، ونضيف هنا أنه – وقد نوع من خصوبة عطائه كما هو معروف – ينظر للبلاغة حين يقدم كتابه (البلاغة تطور وتاريخ) في فبراير ١٩٦٥ من خلال الترابط الوثيق بينها وبين الأدب ، وهو ربط يتجاوز مجرد النظرة السببية التي كانت تحكم نظرة أحمد ضيف من قبل – كما قدمنا – ونترك لشوقي ضيف تقديم وجهة نظرة ، فهو أقدر على بسطها على كل حال ، يقول :

" ولم تكن غايتي أن أصور هذا التاريخ لبلاغتنا فحسب ، بل أيضًا أن أصور الارتباط الوثيق بينها وبين أدبنا في تطورهما ، حتى انتهيا إلى الجمود والتعقيد والجفاف والتكرار الممل ، وإن رسم في تضاعيف هذا التطور الوشائج الواصلة بين كل

بلاغي ... " ثم يذهب إلى أنه " ينبغي في تشكيل بلاغتنا الحديثة أن نعنى ببيان الأساليب الأدبية المتفاوته وفنون الأدب المختلفة حتى نلائم بين بلاغتنا وأدبنا الحديث وأساليبه وفنونه " .

وهكذا نقف عند عالمنا على جانب من نظرته التكاملية التي فتحت الباب ، أمام دراسات بلاغية عربية حديثة ، اهتمت بصلة البلاغة بالأسلوبية ، وقد وجدنا نماذج لذلك لدى جيل من الباحثين المعنيين بهذا الأمر الآن ممن تأثروا بمنهج عالمنا الكبير .

ويتصل بهذا الجانب التكاملي - أيضًا - أنه حين حقق كتاب (الرد على النحاة) لابن مضاء القرطبي الذى صدر عن لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م وجد في ذلك باعثًا على التفكير في تجديد النحو ، ومازال يواصل جهوده حتى أظهرها في كتابه (تجديد النحو) سنة ١٩٨٢ في شكل جديد اعتذر عن عدم الاستطراد في الحديث عنه ، وإن كان لا يفوتني التنويه بالتفاتته الأدبية التي تؤكد تكامل العلوم لديه - كما قدمنا - فقد ذكر من بين أنواع الجمل جملة أسماها (الجملة الحوارية) ، تلك التي يجاب بها في حوار القصص ص ٢٥٧ ، وهي إشارة أحسبها فريدة لم تتكرر لدى غيره ، بل لم يسبقه إليها أحد .

وينقلنا ذلك إلى ظاهرة أخرى هي أدق وجوه منهجه التكاملي ، وهي عماد بحوثه كلها فيما نرى ، **هذه الظاهرة هي جمعه بين الرؤية الداخلية والرؤية الخارجية :**

إن المتتبع للبناء الفني لدراسات شوقي ضيف يجدها نابعة من هذا المنطلق ؛ إيمانه التكاملي بضرورة قيام الدراسة على جناحين : أحدهما خارجي يستهلم المجتمع ، والنفس ، والطبقات ، والعقائد ، والعادات ، وعوامل الاقتصاد ، والسياسة . والآخر داخلي يستكنه النص ويستشرف آفاقه ويمص رحيقه ويستوعب شذاه ، ولكي نوضح ما نقصد بهذه الظاهرة نستعرض البناء الفني لسلسلة دراساته في (تاريخ الأدب العربي) ، ودراستيه عن شاعري العربية الحديثة : البارودي ، وأحمد شوقي لنرى وجهي الرؤية المنهجية عنده من الخارج ومن الداخل .

إنك واجد كل كتبه بلا استثناء تقوم على الأساس التالى :

الفصول الأولى من الكتاب - قد تكون ثلاثة وقد تكون أربعة - ذات رؤية خارجية تستقرئ التاريخ ، وتتعرف على المجتمع والبيئة ، والحياة السياسية والدينية والاقتصادية ، وكل العوامل الخارجية ، وما أسماه التاريخ الطبيعى للأدب ، فى فصول يختار لها هذه العنوانات [1] : الجزيرة العربية وتاريخها القديم . العصر الجاهلى - الإسلام - الشعراء المخضرمون ومدى تأثرهم بالإسلام - مؤثرات عامة فى الشعر والشعراء - بيئات الشعر الأموى - تطوره مع الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية - الحياة السياسية - الحياة الاجتماعية - الحياة العقلية . (هذه الثلاثة التزمها فى العصر العباسى الأول والثانى) ، وفى حديثه عن البارودى أو شوقى يهتم بالحديث عن (الحياة) فى فصل خاص .

إن التزام شوقى ضيف بهذا الجانب من الرؤية الذى نسميه رؤية خارجية ، يقوم على أساس من منهجه التكاملى ، ولا يقتصر على أهمية التاريخ كما يذكر ابن الأثير [2] فحسب ؛ فى قوله :

" ولقد رأيت جماعة ممن يدعى المعرفة والدراسة ، ويظن بنفسه التبحر فى العلم والرواية ، يحتقر شأن التواريخ ويزدريها ، ويعرض عنها ويلغيها ، ظنًا منه أن غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار ، ونهاية معرفتها الأحاديث والأسمار ، وهذه حال من اقتصر على القشر دون اللب نظره ، أصبح مخشلبًا [3] جوهرة . ومن رزقه الله طبعًا سليمًا ، وهداه صراطًا مستقيمًا ، علم أن فوائدها كثيرة ، ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة " .

إن اختيار شوقى ضيف لهذا التكامل بين الرؤية الخارجية والرؤية الداخلية يلتقى مع ما يقرره مؤلف كتاب ، (كيف نفهم التاريخ - مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخى) [4]

---

(١) نرجع فى ذلك إلى كتبه : *العصر الجاهلى* - *العصر الإسلامى* - *التطور والتجديد فى الشعر الأموى* - *العصر العباسى الأول* ، *فالثانى* .

(٢) الكامل فى التاريخ لابن الأثير - مج١ دار صادر ، ودار بيروت - بيروت ١٩٦٥ ، ص٦ .

(٣) المخشلب : فرز يتخذ منه حلى واحدته مخشلبة . المخصص لابن سيده .

(٤) دار الكاتب العربى بيروت ١٩٦٦ ص ١٠٥ (ترجمة الدكتورة عايدة سليمان عارف) .

وهو الأمريكي لويس جوتشلك Louis Gottschalk إزاء حديثه عن المؤرخ واتجاه أهدافه إلى أن يكون حارسًا على التراث الثقافي أولاً ، ثم رؤية للتطور البشرى ثانيًا ، وهكذا نرى أن شوقى ضيف أخذ المناهج غير الجمالية طريقًا يصل به إلى قلب التراث وإطاره العام ، ويمكنه من رؤية تطوره وتعاقب أجياله ، حتى يمكن القول : إن تراثه الأدبى يروى تاريخ آدابنا العربية ويقدمها للأجيال ذخيرة باقية خالدة ، وهنا تكمن قيمة الرؤية الخارجية كما نقف عليها فى دراساته .

وإلى جانب السمات السابقة لمنهج شوقى ضيف فى الدراسات الأدبية مما يندرج فى إطار الرؤية الخارجية ، نجد سمة أخرى هى الرؤية الداخلية ، وهى أساس من أسس دراساته وبحوثه ، فإذا ما رجعنا إليها بنفس المنهج السابق وجدناه بعد الرؤية الخارجية فى الكتب السالف ذكرها يعمد إلى طائفة من الشعراء فى كل كتاب ؛ ليدرسها دراسة جمالية فنية واعية متأنية كما رأينا فى دراسة : امرئ القيس ، والنابغة ، وزهير ، والأعشى ، وابن أبى ربيعة ، والكميت ، والوليد ، ورؤبة ، وطوائف من الشعراء والكتاب . أو يعمد إلى أغراض شعرية فيوفيها حقها من الحديث الفنى ، كما رأينا فى شعراء المديح والهجاء – وشعراء السياسة – والنقائض ... إلخ . وقل مثل ذلك فى النثر .

أما دراسة الشاعر (البارودى أو شوقى) فنجدة بعد الرؤية الخارجية يتحدث عن مكونات الصناعة ، والمؤثرات الفنية ، وشعر الشاعر وتجديده .

أما الكتب ذات الموضوعات المتعددة فتمتزج النظرتان الداخلية والخارجية فيها فى الموضوع الواحد ، وتغلب الرؤية الداخلية فى معظمها كما نرى فى كتابة (دراسات فى الشعر العربى المعاصر) حيث : اللذة الصاخبة عند أبى شبكة ، وضجيج الألفاظ الخلابة عند على محمود طه ، وفى هذا الموضوع تبدو ومضات أسلوبية فى منهجه الفنى تنحو منحى الأسلوبيين ، والمادة التصويرية فى شعر أبى ريشة . ونرى مثل ذلك فى كتابه (فصول فى الشعر ونقده) حيث نرى دراسته لنواقص الإيقاع فى الشعر الحر .

وفى هذه الموضوعات نرى غلبة الرؤية الداخلية ، وازدياد ميله الجمالى لدراسة النص .

وهو فى ذلك كله خاضع لطبيعة الموضوع وما يستلزمه من منهج ، وما يقتضيه من نظرة فنية تتلاءم مع طبيعته وأبعاده مما يجعله جامعًا بين الرؤية الداخلية والخارجية فى منهجه التكاملى ، وإن كان ذلك لا يمنع من ظهور أحد الجانبين ظهوراً يطغى على الجانب الآخر ، تبعًا لاختلاف طبيعة الدراسة مما بين أيدينا من تراث أضفى على الدراسة الأدبية طابعاً منهجياً علمياً رأيناها تخلص مما عانت منه الدراسات السابقة من مآخذ .

وإذا كنا قد انتهينا إلى أن منهج عالمنا الكبير منهج تكاملى ، فإن علينا أن نضيف أن هذه التكاملية تتسم بسمتين : السمة الأولى أنها تكاملية عربية ، والسمة الثانية قيامها على الوضوح .

ونقصد بكونها عربية أن منهج التكامل فيها لم يقم على التوفيق ، أو التلفيق بين نظريات منقولة كما انتهى إليه أصحاب كل منهج ، وأن منهج التكامل فيها لم يقم على إغراق فى تفصيلات أنصار هذا المنهج ، أو ذاك من اهتمام بالتاريخ الطبيعى ، أو علم الاجتماع الأدبى ، أو التحليل النفسى للأدب ودراسة الإبداع ، إلى آخر ما هنالك من اتجاهات ، أى أنه لم يعمد إلى نظريات جاهزة بل عنى بوضع يده على طبيعة العلاقة بين القوانين الداخلية ، والأخرى الخارجية للأدب العربى فى عصوره المختلفة ، مفيداً من كل ما يخدم هذا الهدف من نظريات دون خضوع لواحدة منها ، ودون خضوع لها مجتمعة .

ونصل بذلك إلى السمة الثانية ، وهى الوضوح ، وفى ذلك ارتباط بالمعنى الأول لكلمة المنهج قبل أن تصير مصطلحًا علميًا تتعدد مجالاته وتتنوع ، فالطريق النهج هو البين الواضح ، وأنهج الطريق استبان وصار نهجًا بينًا ، والمنهاج الطريق الواضح ، واستنهج الطريق صار نهجًا ، وفلان يستنهج سبيل فلان أى يسلك مسلكه ، والنهج : الطريق المستقيم ، وهكذا كان الوضوح فى هذا المنهج التكاملى لأستاذنا شوقى ضيف .

د . يوسف حسن نوفل

أستاذ الأدب الحديث

كلية البنات - جامعة عين شمس

٧ - منهج شوقي ضيف

في دراسة العصر العباسي

د . عصمة عبد الله غوشة

صدرت لأستاذنا الدكتور شوقي ضيف مجموعة « تاريخ الأدب العربي » في سبعة أجزاء : العصر الجاهلي والعصر الإسلامي . ويقصد به عصر صدر الإسلام منذ بدء الدعوة الإسلامية ، ويشمل حكم الخلفاء الراشدين ، ويمتد حوالي نصف قرن ، والعصر الأموي : ويقصد به عصر حكم بني أمية في حوالي قرن من الزمان من سنة ٤٢هـ - سنة ١٣٢هـ ، والعصر العباسي الأول من سنة ١٣٢هـ - سنة ٢٣٢هـ ، والعصر العباسي الثاني من ٢٣٢هـ - سنة ٣٣٤هـ ، وعصر الدول والإمارات ، ويمتد من سنة ٣٣٤هـ حتى بدء العصر الحديث في جميع البلاد العربية ، صدر منه الجزء الأول عن الجزيرة العربية ، والعراق وإيران ، والجزء الثاني عن مصر والشام ، ويشير أستاذنا إلى القسم الثالث من هذا الكتاب ، الذي سيخصصه - إن شاء الله - للمغرب والأندلس وقد بين في كل جزء من موسوعته ملامح العصر المحددة لأدوار فكره ، ملامح تبدأ بالمكان وتمتد في الزمان . تكشف عن هوية كل عصر وما يختص به ، وما يميز فكره وأدبه .

هذه المجموعة من تاريخ الأدب العربي تعد دراسة جديدة ، ولم يسبقه أحد من الباحثين إلى دراسة تاريخ الأدب العربي بهذا الشكل الشمولي الموسوعي .

العصر العباسي الأول ، والعصر العباسي الثاني ، جزءان متكاملان متتابعان مترابطان ، يحدد فيهما الزمان والمكان ، فيلقي الضوء على الإطار العام للعصرين ، فالعصر العباسي الأول يبدأ سنة ١٣٢هـ من قيام الدولة العباسية ، إثر المعركة المعروفة بين أبي مسلم الخراساني داعية العباسيين ، ومروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، انتهى بعدها حكم الأمويين ، ويستمر حتى سنة ٢٣٢هـ بانتهاء حكم الخليفة الواثق ،

أما العصر العباسي الثاني فيبدأ من سنة ٢٣٢هـ بتولي المتوكل الخلافة ، ويرى المؤلف أن هذا العصر يمتد حتى سنة ٣٣٤هـ . مع أن الدارسين يجعلون العصر العباسي الثاني يمتد إلى نهاية الدولة العباسية سنة ٦٥٦هـ وقد وضح رأيه في هذا التحديد الزماني في مقدمة عصر الدول والإمارات : « وكان المؤرخون للأدب العربي ، يدخلون منه نحو ثلاثة قرون في العصر العباسي الثاني منتهين به حتى سنة ٦٥٦ ، حين أغار طغاة التتار على بغداد .. وكل ذلك تصور مخطئ ؛ لأن سلطان الخلافة العباسية تتقلص ظلاله منذ سنة ٣٢٤ ، ولا يكاد يبقى للخلفاء العباسيين منه في كثير من الأمر سوى بغداد .. بحيث يصبح من الخطأ أن تنسب القرون الرابع والخامس والسادس حتى منتصف السابع إلى الخلافة العباسية » (١) .

ويتناول المؤلف في الكتابين الحياة السياسية أولاً ، فيتحدث عن الثورة العباسية ، والنظم السياسية ، والإدارية ، ونشاط العلويين ، والخوارج وأحداث مختلفة ، وسيطرة الفرس ، ثم ما كان من تحول مقاليد الحكم من الفرس إلى الترك ، الذين لم تكن لهم ثقافة أو حضارة ، أو معرفة بالإدارة والنظم السياسية ، ففسدت الأمور فساداً شديداً ، وابتدأت بعض الولايات تستقل بالحكم .

ثم انتقل إلى الحياة الاجتماعية ، فشرح ما يتعلق بالحضارة والثراء ، والترف والنعيم ، وأثر الرقيق ، والجواري ، الغناء ، والمجون والشعوبية والزندقة ، والزهد والتصوف .

وازدهرت الحياة العقلية والثقافية ، نتيجة للامتزاج الجنسي واللغوي والثقافي مع الأعاجم ، وبما نقل وترجم من ثقافات مختلفة ؛ يونانية وفارسية وهندية ، فارتقى العقل العربي وشارك في تطور العلوم ووضعها ، كالعلوم الطبية ، الهندسية ، واللغوية ، والتجديد في الموضوعات ، والأساليب والأوزان والقوافي ، بتأثير الحضارة والثقافة ، ثم درس أعلام الشعراء دراسة نقدية تاريخية تحليلية ، وعرض لشعراء آخرين من شعراء سياسة ومديح وهجاء أو شعراء غزل وزهد وتصوف ، ولهو ومجون ، وزندقة ، واعتزال ، ونزعات شعبية .

---

(١) عصر الدول والإمارات المقدمة ص٥ .

ثم انتقل إلى النثر وتحدث عن تطوره وفنونه ، وبحث أعلام الكتاب مبرزاً الدور الذى لعبه كل واحد منهم فى تطور النثر .

ويركز المؤلف فى دراسته الأدبية على بعض المحاور ، التى يعتبرها أساسية فى دراسة الأدب ، فإن خوض عالم الحياة الأدبية يتطلب خوض عالم الحياة السياسية ، والإجتماعية والعقلية ، والثقافية ؛ لما لها من تأثير فى الحياة الفكرية عامة والأدبية خاصة ، فدارس الأدب يعنى بالأدب والتاريخ والتحليل ، ومعرفة تاريخ الأمة ، يساعد فى دراسة أدبها ، ومعرفة تاريخ الأديب يلقى الضوء على دراسة أدبه ، فنحن لا نستطيع أن نفصل الأدب عن المجتمع ، أو الأديب عن بيئته ، فالتاريخ يضئ الأدب ، والأدب يوضح التاريخ ، وعكوف المؤلف على هذه الجوانب لا ينبع من رغبة فى التوسع فى الدراسة دون مبرر ، ولكن عن رغبة فى إيضاح العناصر التى تكون الرؤية المتكاملة للعصر ، وهذا يعنى أن النص لا يفسر بمعزل عن مبدعه ، مما يستدعى دراسة مكونات المبدع من عصره وسيرته .

١ - المحور التاريخى :

يبحث فى الثورة العباسية ضد بنى أمية ، والدعوة السرية والدعاة ، واستغلالهم العلويين ، والفرس فى خراسان ، مبيناً الدور الذى لعبه أبو سلمة الخلال الملقب (وزير آل محمد) ، وأبو مسلم الخراسانى حتى استطاع أبو مسلم أن يهزم مروان بن محمد الأموى فى معركة الزاب ، ويطارده حتى قتله ، وأعلن قيام الدولة العباسية ، وكان عبد الله السفاح أول الخلفاء العباسيين . ورأى العباسيون أن يتخذوا من العراق مركزاً لخلافتهم ، فعلا نجمه بينما هوى نجم الشام ، إذ أصبحت ولاية تابعة لها ، واتخذ السفاح الهاشمية مقراً له ، ولم يلبث أبو جعفر المنصور أن بنى مدينة بغداد سنة ١٤٥هـ ، مبتعداً عن الكوفة مركز العلويين . وعنى المنصور عناية بالغة ببناء حاضرته ، فبنى قصره المسمى (قصر الذهب) وبجانبه بنى مسجداً كبيراً ، وبنيت دور كثيرة للدواوين ، وأقطع قواده كثيراً من القطائع داخلها ، وابتنى لنفسه قصراً صيفياً على نهر دجلة سماه (قصر الخلد) .

وما لبثت مدينة بغداد أن أصبحت أهم مدينة فى العالم العربى ، فكثرت فيها القصور والدور ، والبساتين ، والمتنزهات ، وميادين اللعب بالصولجان ، فزخرت بالحياة ، وأصبحت قبلة الدولة العباسية أيان أن كانت الدولة العباسية قبلة العالم ، ولم تزل بغداد عاصمة الدولة العباسية حتى استكثر المعتصم من الأتراك فى عسكره ، وآذوا العامة ، فابتنى لهم مدينة سامراء شرقى دجلة سنة ٢٢١هـ وظل الخلفاء منذ المعتصم يقيمون بها حتى سنة ٢٧٦هـ ، حيث تحولوا عنها إلى بغداد مرة ثانية ، فأسرع إليها الخراب .

وكان قيام الدولة العباسية على أكتاف الجيوش الخراسانية إيذانًا بغلبة الطوابع الفارسية على نظم الحكم السياسية والإدارية ، وقد بلغ الفرس مرتبة عالية فى تنظيم الحكم ، فنرى العباسيين يسارعون إلى التأثر بهم فى هذا التنظيم ، تنتقل النظم السياسية بحذافيرها فى شئون الحكم ، والدواوين ، وتنظيمها ، وتحديد أعمالها ، فكثرت الدواوين فى العاصمة والولايات المختلفة ، وانتقل نظام الوزارة ، وأخذت تطلق على المستشار الأول للخليفة فى شئون دولته ، وكان أكثر الوزراء من الفرس ، وهو شئ طبيعى ؛ إذ كانوا هم الذين يستأثرون بشئون الخلافة ويرقون إلى أعلى المناصب ، ومنهم البرامكة ، وآل سهل وغيرهم .

واعتمد المعتصم على الترك واستكثر منهم ، وبنى لهم مدينة سامراء ، وكان هذا تحولاً خطيراً فى تاريخ الدولة العباسية ، فالفرس أصحاب حضارة ، ومدينة ، وثقافة بثوها فى الحياة العباسية ، أما الترك فلم يكونوا يعرفون غير الغزو ، والصيد ، والقتال ، لذلك سيطروا على الخلفاء ، فعزلوا ، وولوا ، وقتلوا ، وسجنوا ، وعذبوا من شاءوا ، وبثوا الفتن بين أبناء البيت العباسى ، فضعف الخلفاء وانغمسوا فى اللهو والترف ، والبذخ وبناء القصور ، فتدهورت الخلافة العباسية ، كما سيطروا على السياسة ، والإدارة ، والنظم ، فضعفت الدولة ، وفسد الحكم ، وساد الظلم والقتل ، والقمع والاختلاس ، وانتشر قطاع الطرق ، وانتفى الأمن والأمان والاستقرار ، فابتعدوا عن تعاليم الشريعة الإسلامية . واستقلت بعض الولايات ، مثل خراسان على أيدى الظاهريين ، ثم الصفاريين ، ومصر على أيدى الطولونيين ، ثم أيدى الإخشيديين .

وما إن الدولة العباسية ، حتى أخذت الخصومة تشتد بين الفرعين الهاشميين : العباسيين ، والعلويين ، وأيهما أقرب إلى الرسول ﷺ ، فقد ظل العباسيون طوال دعوتهم السرية ، يدعون للرضا من آل محمد مستغلين تأييد العلويين ، وبعد قيام الدولة العباسية اعتقد العلويون أن العباسيين خدعوهم ، وسلبوا منهم الخلافة ، واغتصبوها ، فقاموا بعدة ثورات ؛ أولها : ثورة محمد بن عبد الله في المدينة سنة ١٤٥هـ وأخيه إبراهيم في البصرة ، ويفزع الخليفة المنصور ، ويكاتب محمداً مبيناً حق العباسيين في الخلافة ، ويشتد القتال بالكلمة والسلاح ، ويقضي على ثورتهم . وتتابعت ثورات العلويين كثورة يحيى بن عبد الله بالديلم سنة ١٧٦هـ ، وقضى عليها الفضل بن يحيى البرمكي سلماً دون قتال ، ولكن العباسيين لم يقضوا على التشيع ، بل أخذ يزداد سراً وجهراً .

إما الخوارج فقد ضعف شأنهم ، وسرعان ما كان يقضي على ثوراتهم ، وأخذت دعوتهم تضعف ضعفاً شديداً ؛ ومن أجل ذلك لم تترك أثراً واضحاً في الحياة الأدبية .

وقامت أحداث عديدة ضد العباسيين ، قضوا عليها جميعاً ، منها ثورة عبد الله بن علي المنصور ، وثورات أتباع أبي مسلم الخراساني ، الذي قتله المنصور خوفاً من أن ينقض عليه ، وثورة رافع بن الليث زمن الرشيد ، وهاجت الفتنة بين القيسية ، واليمنية ، في الشام زمن الرشيد ، ونكب الرشيد البرامكة سنة ١٨٧هـ ، ونشب الخلاف بين الأمين والمأمون ، وثورة بابك الخرمي التي استمرت من سنة ٢٠١هـ ، حتى قضى عليها سنة ٢٢٢هـ زمن المعتصم ، وخيانة الأفشين ، وثورة الزنج ، الذين دخلوا البصرة ، وخربوها ، وقد شغلت الدولة أربعة عشر عاماً استطاع الموفق زمن الخليفة المعتمد القضاء عليها سنة ٢٧٠هـ وبدأ نشاط حركة القرامطة وثوراتهم .

وعظمت في عهد المهدي حركة الزندقة ، فجد في طلبهم وأسس ديواناً لتعقبهم ، واستمر الخلفاء بعده يطلبون الزنادقة الذين ازداد نشاطهم وخطرهم ، ويجعل المأمون المعتزلي من فكرة خلق القرآن عقيدة رسمية للدولة ، فامتحن الفقهاء فيها ، فكانت محنة ، قاسى منها الفقيه المعروف أحمد بن حنبل ، الذي ثبت على رأيه ، ولم يقر بخلق القرآن ، واستمرت هذه المحنة زمن المعتصم والواثق ، حتى جاء المتوكل وأبطل القول

بخلق القرآن فانتهى تسلط المعتزلة على الدولة . واستمرت الحروب مع البيزنطيين فى الثغور الإسلامية .

٢ - المحور الاجتماعى :

يبحث المؤلف فى حالة المجتمع العباسى ، ويبين تطور الحياة ، بتأثير الفرس ، فقد غلبت الحضارة الساسانية على المجتمع ، فبنوا بغداد على شاكلة المدائن وقصر الذهب على طرازقصورهم ، ذات الأواوين الضخمة ، وتفننوا فى البناء والزينة ، والزخارف والنقوش ، والستائر والبسط والأثاث والتماثيل والتحف والأوانى ، وفى الطعام والشراب ، كما تأنقوا فى الجواهر والزينة ، والطيب والملبس والثياب ، متأثرين بالأزياء الفارسية ، واهتموا بأدوات الترويح واللعب كسباق الخيل ، وسباق الحمام الزاجل ، ولعبة الصولجان والشطرنج والنرد والصيد بالبزاة ، والصقور ، والشواهين ، والكلاب ، والفهود ، وهذا يدل على البذخ والترف الذى كان يتمتع به الخلفاء ، وأبناء البيت العباسى ،والوزراء والقواد وكبار رجال الدولة ، والتجار ،وبعض الشعراء ، والكتاب ، والمغنين ، والعلماء . أما الشعب فيكدح ويعيش فى بؤس وشقاء ، ويتحمل أعباء الحياة ليملأ حياة هؤلاء بأسباب النعيم ، ففئة تنعم بالأموال والحياة إلى غير حد ، وفئة قتر عليها فى الرزق ، فهى تشقى إلى غير حد ، واضطرب أواسط الناس من التجار وغيرهم بين الشقاء والنعيم .

وكانت خزائن الدولة مملوءة تحمل إليها الأموال ، والذهب والفضة من جميع أرجاء الدولة . وتروى فى ذلك روايات كثيرة تبين مدى الثراء والترف والنعيم ، ومظاهر الإنفاق على الجوارى ، والقيان والمغنين ، والحفلات ، والحاشية والأعوان ، وتبين جود الخلفاء والوزراء والولاة ، والقواد وكرمهم وعطاياهم للشعراء وغيرهم . ونفذوا إلى طائفة من الآداب ، كآداب المائدة ، واقتبسوا كثيراً منها عن الفرس ، وآداب المسامرة والمنادمة ، ويرى المؤلف أن « هذا البذخ ، وما صحبه من اعتصار الشعب هو السبب الحقيقى ، فى كثرة الثورات على العباسيين ، وخاصة فى إيران ، ولعله السبب الحقيقى فى تعلق الناس بالمهدى المنتظر من أبناء على الذى ينشر العدل الاجتماعى بين الناس » [1] .

---

(١) العصر العباسى الأول ص٥١ .

وبهذا التعليق نلاحظ أن المؤلف لا يصف الأحداث فى تعاقبها المتسلسل فقط ، إنما ينتقل إلى التفسير ، وإبداء الرأى ، فى بعض الأمور أو الأحداث .

أما العامة فكانت تعيش حياة فقيرة قاسية ، تعانى البؤس والضنك والكفاف ، ملاهيهم الفرجة على الحوائين والقرادين ، والاستماع إلى القصاص الذين يروون القصص الخيالية ، والحكائين ، الذين يحكون فى دقة لهجات سكان بغداد ، ونازليها من أعراب ، ونبط وزنوج ، وهنود ، وخراسانيين ، وروم ، ونلاحظ أن أكثر الشعراء والناثرين نشئوا فى ظل هذه الفئة الفقيرة ، فبشار كان أبوه طيانًا يضرب اللبن ، وأبو نواس كانت أمه غازلة للصوف ، وأبو العتاهية كان يعمل فى صناعة الجرار ، ومسلم بن الوليد كان أبوه حائكًا ، وأبو تمام كان أبوه عطارًا ، والجاحظ كان يبيع السمك والخبز .

وكان الرقيق والجوارى والغناء من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية ، فقد كثر الرقيق بسبب كثرة من كانوا يؤسرون فى الحروب ، فقد كانت تجارة النخاسة رائجة ورابحة ، وكان رقيق النساء من الجوارى أكثر عدداً من رقيق الرجال ، وامتلأت بهن دور النخاسة والقصور والدور ، وكن من أجناس وثقافات ، وديانات ، وحضارات مختلفة ، فاثرون آثاراً واسعة فى أبنائهن ومحيطهن سواء كانوا خلفاء أو غير خلفاء ، كما كان لهن أثر كبير على الشعراء الذين يرتادون دور النخاسة ، وكانت بعضهن مثقفات بفنون الأدب ، وقول الشعر ، فيملأن على الشعراء قلوبهم وعقولهم .

كما كان للغناء أثر كبير على الناس لما يدخله على نفوسهم من إبتهاج وسرور ، ويبرز اسم إبراهيم الموصلى ، وابنه إسحق ، ويبرز فى الغناء ابنا المهدى : إبراهيم وعلى ، وتسابق الأغنياء على اقتناء القيان والمغنيات ، ودفع الأثمان الباهظة فيهن ، ومن لم يقتن جارية أو قينة يستطيع استئجارهن ، ممن يرعاهن ويعلمهن ، وكثيرات كن يضربن على الآلات الموسيقية ، ويحسن الرقص ، وقد أشاع هؤلاء الجوارى والقيان ضروباً من الرقة والظرف ، ظهر أثره فى الشعر والشعراء فشاعت الرقة فى ألفاظهم ومعانيهم .

وتأثر المجتمع العباسى بكل ما كان فى المجتمع الفارسى ، من لهو ومجون ، وساعد على ذلك ما وفره العباسيون من حرية مسرفة ، فشاع شرب الخمر مجاهرة

تهالك الشعراء عليها ، وأصبحت الخمريات من أهم موضوعات الشعر العباسي ، واشتهر فيها أكثر من شاعر مثل أبي نواس ، ويقترن الخمر بالغناء والرقص مما دفع إلى كثير من المجون والعبث والإباحية . وكان المجتمع يزخر بالزنادقة والملاحدة ، وغيرهم ، فارتكبوا الآثام متحررين من كل قانون للخلق والعرف والدين ، وهيأ لذلك الجوارى والقيان ، اللواتى لا يشعرن بكرامة ، ولا يولين التحفظ والاحتشام أى اهتمام ، فانتشر الغزل المكشوف الذى تهان فيه كرامة المرأة والرجل معاً ، وظهر الغزل بالغلمان الذى يحط من كرامة الرجل ، بدأه بشار ووالبة ابن الحباب ، وتوسع فيه أبو نواس .

وأحس الفرس بسيطرتهم على مقاليد الحكم والمجتمع ، فبرزت نزعة الشعوبية ، وهى نزعة كانت تقوم على مفاخرة الشعوب الأخرى ، الفارسية وغيرها للعرب مستمدة من حضارتهم ، وما كان العرب فيه من بداوة ، وحياة خشنة غليظة ، وبشار أهم شاعر أشعل نيران هذه الخصومة الشعوبية .

وانتشرت الزندقة ، ونشط الزنادقة فى نشر آرائهم وتعاليمهم الدينية المجوسية ، وترجموا كتب النحل الفارسية ، وتعقبهم المهدى والخلفاء من بعده ، وقتل من ثبتت عليه تهمة الزندقة ، كبشار بن برد ، وصالح بن عبد القدوس وغيرهما .

لقد شاع المجون بين بعض المترفين والشعراء ، كما انتشرت الشعوبية والزندقة بين الفرس ، وأقبل الناس وخاصة العامة على الوعاظ والزهاد والنساك والفقهاء الذين كانت تكتظ بهم مساجد بغداد وغيرها من مدن الدولة العباسية ، واقترن الوعظ بالقصص للعظة والعبرة وانتشر الزهد ، والتذكير بالله ، واليوم الآخر ، والحساب ، والثواب والعقاب ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، ويبرز هنا اسم الشاعر أبى العتاهية ، وبدزت مقدمات التصوف فى القرن الثانى الهجرى ، وأخذ ينشط ويتسع فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، يقول المؤلف بعد مناقشة بعض آراء المستشرقين : « التصوف إسلامى فى جوهره ، وفى نشأته ، ونموه ، وتطوره ، وهو الرأى العلمى الصحيح »[1] .

---

(1) العصر العباسى الثانى ص١٠٧ .

٣ - المحور العقلى والثقافى :

امتزج العرب بالأعاجم عن طريق السكنى والمصاهرة وتسرى الإماء والولاء واعتنق كثير من الأعاجم الإسلام ، وأسرعوا إلى تعلم اللغة العربية ؛ لغة القرآن الكريم ، وأخذت اللغة العربية تسود فى جميع أنحاء العالم الإسلامى بين المسلمين وغير المسلمين ، إذ أصبحت جميع الشعوب عربية التفكير ، والشعور ، والثقافة ، والأدب ، والحضارة ، كما أصبحت عربية اللغة ، وأصبح جمهور الشعراء ، والعلماء ، والكتاب من الفرس وغيرهم كبشار ، وأبى نواس ، وابن المقفع ، وسيبويه ، وأبى حنيفة . وانتقلت ثقافات الشعوب المختلفة إلى المجتمع العباسى ، وكانت الثقافة الفارسية أبعد تأثيرًا فى المجتمع العباسى ، بينما كانت الثقافة اليونانية أعم ثقافة أثرت فى الفكر العباسى ، عن طريق الترجمة والنقل لا عن طريق اختلاط أصحابها بالعرب .

وازدهرت الحركة العلمية ازدهارًا كبيرًا ، فقد أذكى الإسلام جذوة المعرفة فى نفوس المسلمين ودفعهم للعلم والتعلم ، فنهض التعليم نهضة واسعة فى الكتاتيب والمساجد والأسواق ، وانتشرت صناعة الورق ، ونسخت الكتب ، وتأسست المكتبات العامة والخاصة ، ودكاكين الوراقين ، وتسابق العلماء والطلاب على قراءة الكتب واقتنائها ، وظهر العلماء المتخصصون المتعمقون فى علم واحد ، والعلماء غير المتخصصين ، الذين يلمون بجميع الموضوعات ويسمون المسجديين ، واستعان الخلفاء ، والو[illegible] ، والقواد ، والولاة ببعض العلماء فى تأديب أولادهم ، وأغدقوا عليهم الأموال .

ومما هيأ لازدهار الحركة العلمية ، مجالس الخلفاء والأمراء والوزراء والولاة والسراة ، والعلماء والشعراء ومحبى العلم ، إذ حولت هذه إلى ما يشبه ندوات علمية ، يتناظر فيها العلماء من كل صنف مثل مجلس المأمون والبرامكة . وكانت الحرية العقلية والفكرية قد كفلت إلى أبعد غاية ممكنة .

وتعتبر الترجمة من أهم أسباب ازدهار الحركة العلمية ، فقد ترجم تراث اليونان عن اليونانية ، والسريانية ، والفارسية ؛ فى الطب ، والهندسة ، والرياضة ، والفلسفة والمنطق ، والفلك ، والكيمياء والموسيقى ، مثل كتاب المجسطى لبطليموس ، وكتب أرسطو وأوقليدس ، وجالينوس ، وبقراط ، وغيرها ، وتراث الفرس عن الفارسية فى

التاريخ ، والدين ، والإدارة ، ونظم الحكم ، والأخلاق ، والقصص مثل : كليلة ودمنة ، وكتاب مزدك ، وتاريخ الساسانيين ، وسير ملوكهم ، وترجم تراث الهنود عن الهندية والفارسية ، في الطب ، والأدوية ، والفلك ، والحساب ، والقصص ، والأساطير والدين ، مثل : السند هند ، وغيرها .

واهتم الخلفاء العباسيون بالترجمة منذ المنصور ، وأنفقوا الأموال الطائلة ، وللبرامكة فضل عظيم في ازدهار الترجمة ، إذ اعتنوا بإعادة ترجمة بعض الكتب ، التي ترجمت قبل عصرهم ، لتكون أكثر دقة وإتقانًا ، وتبلغ الترجمة قمة ازدهارها زمن الخليفة المأمون ، إذ تحول بخزانة الحكمة ، التي أسسها الرشيد لتكون مركزًا للترجمة ، إلى ما يشبه معهدًا علميًا ، وألحق به المرصد المشهور الذي تخرج منه أهم العلماء في ذلك العصر ، ومنهم الخوارزمي مبتكر علم الجبر ، وكانت الفلسفة اليونانية ، والمعارف العلمية ، أعظم ما حملت حركة الترجمة ، ومضى العقل العربي يفهمها ، ويهضمها ، ويسيغها ، ويتمثلها ، ويضيف إليها أو يصحح أخطاءها في علوم الطب ، والأدوية ، والفلك ، والرياضة ، والهندسة ، والفلسفة ، وأصبح العقل العربي عقلاً علميًا راقيًا ناضجًا قادرًا على وضع العلوم المختلفة ؛ كالعلوم اللغوية والتاريخية والجغرافية ، والدينية ، وظهر علم الكلام والاعتزال .

* * *

دراسة الشعر والشعراء :

١ - الشعر :

يبين المؤلف تمسك الشعراء بالنماذج القديمة ، بتأثير اللغويين الذين سيطروا على الشعراء ، ووصلوهم بالشعر القديم بكل خصائصه ، ووضعوا بين أيديهم كل الأدوات ، من مجموعات شعرية إلى دراسات لغرية ، ونحوية ، وصرفية ، وموسيقية عروضية ، وفي الوقت نفسه نرى الشعراء ينفذون إلى التجديد في لغتهم وأسلوبهم ، الذي عرف

باسم أسلوب المولدين » وهو أسلوب قام على عتاد من القديم وعدة من الذوق الحضرى الجديد ، أسلوب يحافظ على مادة اللغة ومقوماتها التصريفية ، والنحوية ، ويلائم بينها وبين حياة العباسيين المتحضرة ، بحيث تنفى عنها ألفاظ العامة المبتذلة ، كما تنفى عنها ألفاظ البدو الحوشية »[1] ، وبشار فى طليعة من أرسوا هذا الأسلوب المولد الجديد ، ثم جاء بعده أبو نواس ، وأبو العتاهية ، ثم مسلم بن الوليد ، وأبو تمام . وأما من اقتدى بأساليب القدماء فقد « سقطوا صرعى فى الميدان الفنى ، إذ ازور عنهم جمهور الشعراء ، منضوين تحت لواء بشار ومسلم وأبى تمام ، أو تحت لواء أبى نواس وأبى العتاهية »[2] .

كما جدد الشعراء فى موضوعاتهم ، وصورهم متأثرين بما حولهم من ضروب ثقافات فارسية ، ويونانية ، وهندية ، ولعل اليونانية أعمق هذه الثقافات أثرًا فى الشعر والشعراء ، بما نقل إليهم من فكر فلسفى ، ومنطقى ، ومقاييس وأدلة ، مما ساعدهم على استنباط المعانى وتفتيقها ، وتوليدها ؛ وكانت المعتزلة أكثر البيئات تأثرًا بهذه الثقافات .

ويبحث المؤلف التجديد فى موضوعات الشعر المعروفة : من مديح وهجاء وفخر ورثاء وعتاب واعتذار وغزل وزهد ووصف .

وقد تمسك بعض الشعراء بالمقدمة الطللية للقصيدة ، وبعضهم جدد فى موضوع المقدمة فجعلها فى الخمر ، أو وصف الطبيعة ، أو بعض مظاهر الحضارة العباسية . وبعضهم تخلص منها ، كما نرى فى موضوعات الهجاء ، والغزل ، والخمر ، والمجون ، والزهد . كما جدد الشعراء فى معانيهم وأفكارهم ، ونظموا فى موضوعات جديدة ، كالشعر التعليمى الذى أرسى قواعده زبان بن عبد الحميد اللاحقى ، واستمر الشعراء ينظمون فى الدين والتاريخ ، والفلسفة ، والقصص ، والحكمة ، واللغة ، والخمر . وظهر شعر التصوف فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى .

---

(١) العصر العباسى الأول ص١٤٦ .
(٢) العصر العباسى الأول ص١٤٧ .

وجدد الشعراء في الأوزان والقوافي بتأثير الغناء ، فكثر نظم المقطوعات في الغزل والخمر ، والهجاء ، والزهد ، وعلى الأوزان القصيرة ، أو المجزوءة ، واكتشف العباسيون وزني المضارع والمقتضب ، وجددوا في قوافيهم ، فظهرت المزدوجات في الشعر التعليمي ، والرباعيات ، والمسمطات ، من مربعات ، ومخمسات ، مما مهد لظهور الموشحات في الأندلس .

٢ - الشعراء :

يقسم المؤلف - د . شوقي ضيف - الشعراء إلى مجموعات :

(أ) أعلام الشعراء :

يلقى الضوء على أهم الشعراء الذين نالوا الشهرة في عصرهم وبعده ، وكتبت عنهم دراسات متعددة قديمة ، وحديثة . يدرسهم معتمداً على شعرهم مستعيناً بالمحاور التاريخية والاجتماعية والثقافية والعقلية ، مبيناً أبرز خصائصهم الشعرية : الموضوعية ، والفنية ، فبشار زعيم المجددين ، وأبو نواس أستاذ فن الخمرية في الشعر العربي ، وأبو العتاهية شاعر الزهد ، ومسلم بن الوليد صاحب نزعة البديع ، وأبو تمام المجدد في صناعة الشعر ، والبحتري الشاعر الرسمي للخلفاء العباسيين ، وابن الرومي شاعر الهجاء والوصف ، ممثلاً لما يقول بشعر الشاعر ، مبيناً رأيه في بعض النواحي الخاصة بهذا الشاعر أو ذاك ، منصفاً بعض الشعراء مما يقال عنهم ، يقول عن أبي تمام : « ويتسع التأثر بالفلسفة عنده حتى ليشيع الغموض في كثير من أبياته ، وهو غموض بهيج ، كغموض الطبيعة في الصباح والغروب ؛ إذ يجلله دائماً شفق يأخذ بالألباب ، ونعجب إذ نجد القدماء يحملون عليه من أجله كما حملوا على إكثاره من اللفظ الغريب ، ومن التصاوير ، وألوان البديع حتى قالوا : إنه أفسد الشعر ، وهو لم يفسده بل هيأ له ازدهاراً رائعاً ، تسنده فيه ثقافة واسعة بالفلسفة والمنطق ،

وبالشعر العربى قديمة وحديثة كما تسنده قوة ملكاته التى جعلته ، يعد بحق حامل لواء الشعر العربى فى عصره ، بل جعلته صاحب مذهب مستقل بخصائصه العقلية والزخرفية » [١] .

(ب) شعر السياسة والمديح والهجاء :

لقد اختار موضوعى المديح والهجاء لارتباطهما بالسياسة والحكام ، وأصحاب الشأن ، سجل الشعراء أهم الأعمال التى قام بها الممدوحون ، ومجدوا شخصياتهم ، وأضفوا عليهم الصفات التى تمثل المثالية الخلقية العربية والإسلامية ، وبينوا موقفهم تجاه أعدائهم كموقف العباسيين من الخلافة ، وحقهم فيها ، والرد على الشيعة ؛ فقد كان الشعر فى ذلك العصر وسيلة الدعاية الأولى ، يتناقله الرواة ، والمغنون والمغنيات وينشرونه فى أرجاء الدولة العباسية .

درس المؤلف شعراء الدعوة العباسية والخلفاء العباسيين ، وشعراء الشيعة ، وشعراء البرامكة ، وشعراء الوزراء والولاة ، والقواد ، وشعراء الثورات السياسية ، وشعراء الهجاء .

(جـ) طوائف من الشعراء :

يدرس – تحت هذا العنوان – الموضوعات الشعرية المنتشرة فى العصر ، والمطبوعة بالطابع الشخصى أوالذاتى ، يتناول فيه شعراء الغزل وشاعراته ، وشعراء المجون والزندقة ، وشعراء اللهو والمجون ، وشعراء الزهد والتصوف ، وشعراء الاعتزال ، وشعراء الطرد والصيد ، وشعراء النزعات الشعبية ، ويلاحظ أنه يدرس طوائف الشعراء المشهورين فى هذا العصر ، عالمًا بحال المجتمع مدركًا مظاهر التطور والتغير . ففى العصر الأول كان شعراء المجون ، والزندقة ، فأصبحوا شعراء اللهو والمجون ؛ لأن حدة الزندقة خفت ، وذلك لانحسار سيطرة الفرس على المجتمع العباسى واشتداد شوكة الترك ، وشعراء التصوف حلوا محل شعراء الزهد ؛ لأن التصوف بدأ يتخذ

---

(١) العصر العباسى الأول ص ٢٧٨ .

مكانه ، بين موضوعات الشعر العباسى فى القرن الثالث الهجرى ، ولم يكرر شعراء المعتزلة ؛ لأن سلطان المعتزلة انتهى رسميًا زمن المتوكل ، وأضاف شعراء الطرد والصيد ، الذى انتشر بتأثير الحضارة والثراء والفراغ .

وينافس المؤلف هذه الموضوعات من الناحيتين الموضوعية والفنية ، ثم يدرس أهم شعراء كل فئة ، ويثبت فى الهامش المصادر والمراجع الخاصة بكل شاعر يدرسه ؛ لتكون عونًا للدارسين والباحثين .

* * *

دراسة النثر والناثرين :

١ - تطور النثر :

تطور النثر تطوراً كبيراً جداً ؛ أسلوبًا ولغة ومعنى وفكراً ، برقى الحياة العقلية والثقافية ، ونقل ثقافات اليونان والفرس والهنود . وظهر هذا التطور فى بيئات المعتزلة والمتكلمين ، والعلماء والأدباء والفلاسفة ، فظهر النثر العلمى والفلسفى ، إلى جانب النثر الأدبى .

٢ - فنون النثر :

بحث المؤلف أولاً الخطابة بأنواعها السياسية التى ازدهرت فى أوائل هذا العصر ؛ بسبب الحاجة الماسة إليها فى تثبيت دعائم الدولة ، وبيان حقهم فى الخلافة ، والرد على العلويين ، ثم ضعفت بعد استقرار الحكم ، لكنها كانت تظهر مع الفتن والثورات ، وكذلك ضعفت **الخطابة الحفلية** ؛ لأن الخليفة العباسى ، ابتعد عن الرعية ، فقد أدخل الفرس نظام الحجابة واستأثروا بالحكم ، **أما الخطابة الدينية** فقد ازدهرت ازدهاراً كبيراً على أيدى الوعاظ والنساك والفقهاء والقصاص ، استمدوا مادتهم من القرآن

الكريم والحديث الشريف ، وأقوال الصحابة والتابعين ، ومن سبقهم من الوعاظ ، كالحسن البصرى وغيره ، يضاف إلى ذلك الإيمان الشديد بالله ، والابتعاد عن متع الحياة الدنيا الزائلة ، وأن ما عند الله خير وأبقى ، ونشط الوعاظ من المتصوفة الذين كانوا يأخذون أنفسهم ، بمجاهدات عنيفة ، ويعيشون حياة تقشف فى مأكلهم وملبسهم ، فكان تأثيرهم فى الناس عميقًا ، واهتم هؤلاء الخطباء بأساليبهم ومعانيهم وألفاظهم .

ثم انتقل إلى المناظرات ، هذا الفن النثرى الذى ظهر وازدهر على أيدى علماء الكلام ، وأهمهم المعتزلة ، الذين انبروا للدفاع عن الإسلام ، وعن مبادئهم (التوحيد ، العدل ، الوعد والوعيد ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والمنزلة بين المنزلتين) أمام أصحاب الملل ، والنحل ، وبعض الفرق الإسلامية ؛ كالشيعة والمرجئة وغيرهم ، وشغل المعتزلة الناس بمناظراتهم ، وثقافتهم الواسعة ، وبهروهم بقدرتهم على استنباط المعانى وتدقيقها وتفريعها ، وبراعتهم فى الجدل والحوار والقياس والإتيان بالحجج ، والبراهين ، والأدلة ، والمقدمات ، والنتائج من إتقان تام وعلم دقيق باللغة وأساليبها ، وألفاظها واشتقاقها ، وصرفها ونحوها ، وتفوقهم فى الإقناع وإفحام الخصوم ، وتنوعت موضوعات المناظرات ، فمنها ما كان بين الفقهاء فى أمور الدين ، كمناظرة الشافعى ومحمد بن الحسن الشيبانى ، أو بين علماء اللغة والنحو ، والفلاسفة وأصحاب المنطق ، وكأنما أصبحت المناظرات لغة العصر الفكرية حتى شكا الجاحظ من هذا ، وانتقلت المناظرات إلى الكتب والرسائل ، كما نرى فى كثير من كتب الجاحظ ورسائله وفى كتابى المحاسن والأضداد المنسوب إلى الجاحظ ، والمحاسن والمساوئ للبيهقى .

أما الرسائل فكانت ديوانية وإخوانية وأدبية ، وأقبل الكتاب والطلاب على العمل فى الدواوين ؛ لما توفر لهم من حياة كريمة ، ورزق واسع ، وطموح للوصول إلى ولاية أو وزارة أو غير ذلك ، ولم يكن العمل فى الدواوين سهلاً إذ على المتقدم أن يجتاز امتحانًا صعبًا ، تمتحن فيه قدراته الفنية والعقلية . وتفنن الكتاب بتحميداتهم ، وانتشرت التوقيعات ، وامتازت بالدقة والإيجاز ، وأشهر من وقع جعفر بن يحيى البرمكى ، وتطورت **الرسائل الإخوانية** وازدهرت وتعددت موضوعاتها ، ونافس النثر الشعر فى بعض الموضوعات ، التى كانت خاصة به كالمديح والهجاء والوصف وغيرها .

ونفذوا إلى موضوعات جديدة مستمدة من تراث الفرس ، كالحديث عن الصداقة مثلاً ، وظهرت الرسائل الأدبية فى مختلف الموضوعات ؛ سياسية وأدبية ودينية ، وأخلاقية وعصبية ، وتفوق كتاب الرسائل بأساليبهم ومعانيهم ، وابتدأ السجع يدخل فى كتاباتهم حتى سيطر على أسلوب الكتابة النثرية ، منذ أواخر القرن الثالث الهجرى ، فأصبح سمة واضحة فى أساليب الناثرين جميعاً .

٣ - أعلام الكتاب :

درس المؤلف أعلام الكتاب ، ممن برعوا فى الترجمة والكتابة والتأليف ، وهو يعطينا فكرة عن حياة الكاتب مستفيداً من المحاور التاريخية ، والاجتماعية ، والثقافية . ويقف عند بعض القضايا التى توضح جانباً من جوانب حياة الكاتب وإنتاجه ، فمثلا عندما يدرس ابن المقفع يقف عند قتله ، ويناقش الأسباب التى دفعته إلى هذه النهاية ؛ بسبب كتاب الأمان الذى كتبه على لسان المنصور لعمه عبد الله بن على ، مرجحاً هذا الرأى على تهمة الزندقة . ثم يدرس إنتاجه ترجمة وتأليفاً ، معتمداً على النصوص فى المقام الأول . كما استطاع أن يلم بجميع جوانب حياة الجاحظ وإبداعه ، وألقى الضوء على شخصيته الفذة ، وتحدث عن بيئته وثقافته ، واعتزاله وأساتذته ، وفنون نثره وأسلوبه ، وما تميز به من موسوعية واستطراد ومزج الجد بالهزل ، وازدواج وموسيقى ، فى إنتاجه من كتب ورسائل .

* * *

واهتم المؤلف ببعض القضايا الأدبية أو النقدية ، أو اللغوية فناقشها ودرسها ، ونقف عند بعض منها على سبيل التمثيل لا الحصر ، مما يوضح منهج المؤلف فى عدم الاكتفاء بإعطاء المعلومات ، وسرد الحقائق بل يقف ليناقش ويصحح ويبين رأيه ، معتمداً على الحجة والدليل .

١- القديم والحديث :

وهو موضوع يستحوذ على اهتمام الدارسين فى كل العصور . وفى العصر العباسى ظهرت ثلاث بيئات ، تتناول كل واحدة البلاغة والنقد تناولاً متميزاً ، **بيئة اللغويين المحافظين** ، التى تعلى من شأن القديم ، وتعتبره مثلاً أعلى ، وقدوة تقبل ما كان قديماً ، وترفض الحديث . **وبيئة المتفلسفين المجددين** ، الذين كانوا يسرفون فى التجديد ، ويرون أن تتخذ الفلسفة اليونانية ، ومعايير اليونان البلاغية والنقدية أصولاً فى دراسة النصوص ، ولم يقدر لآراء هذه البيئة أن تنجح ؛ لأن اللغويين المحافظين استنكروا آراءهم وحاربوهم ، وكان اللغويون أكثر عدداً وسيطرة . **أما البيئة الثالثة من المعتزلة** ، فقد استطاعوا أن يقفوا موقفاً معتدلاً بين الطرفين المتعارضين ، يقرءون ما لدى الأجانب ، ويقربونه إلى أنظار العرب فى البلاغة والنقد ، ويخضعونه للذوق العربى الأصيل ومقاييسه ، كما يظهر عند الجاحظ فى البيان والتبيين .

ونلاحظ أن الشعر القديم قد تمكن من نفوس الشعراء وسرى فى قلوبهم ، ومع إتقان الشعراء العباسيين اللغة العربية وكأنهم أعراب قد جاءوا من الجزيرة ، فقد كان اللغويون لا يستشهدون بشعرهم مخافة أن يحدث اضطراب فى النموذج الشعرى القديم ، وحتى يحتفظ بكل ما يمكن من صحة وسلامة ودقة ، وفى رأى المؤلف « أن إهدار اللغويين لشعر العباسيين بسبب حداثته خطأ فى التقويم ؛ إذ الجودة الفنية لا تقاس بالقدم والحداثة ، والشعر الجيد جيد فى كل زمان ومكان » [١] .

وعدَّ اللغويون على الشعراء المحدثين سقطاتهم ؛ ويبين المؤلف رأيه بقوله : « وهى ليست سقطات بالمعنى الصحيح ؛ إذ هى فى كثرتها إما ضرورات رآها الشعراء العباسيون فى الشعر القديم فقاسوا عليها ، وإما لغات شاذة رأوها أيضاً فى هذا الشعر ، وظنوا أن من حقهم مجاراتها ، وإما اشتقاقات وأبنية ، استحدثوها على ضوء المقاييس اللغوية التى تلقنوها ، واقرأ فى كل ما نثره المرزبانى فى الموشح من هذه السقطات فستراه قلما يعدو هذه الوجوه الثلاثة » [٢] .

---

(١) العصر العباسى الأول ص١٤١ .

(٢) العصر العباسى الثانى ص١٨٣ .

ومما يدل على ذلك عند بشار ، أنه قاس كلمة وجلى على حجلى فخطأه اللغويون ، و « بشار محق ؛ لأن من حقه القياس ، وإذا كان من حقنا أن نقيس فى شئون الدين ، كما قرر ذلك الفقهاء المعاصرون له من أمثال أبى حنيفة ؛ فأولى أن يقيس الشعراء فى أبنية اللغة واشتقاقاتها الصرفية » [1] .

ويستغرب المؤلف من وقوف يوهان فك ، فى كتاب « العربية » عند بعض الأبيات التى وردت فى الموشح ، لبشار وأبى نواس (أكثر العباسيين مآخذ) وغيرهما متخذًا منها دليلا على مخالفة العباسيين لقواعد العربية ، ويقول : « ولو أنه أمعن النظر فيما سجله الموشح على شعراء الجاهلية والإسلام من مثل هذه الأحرف ، لعرف أن العباسيين لم يخرجوا عن قواعد الفصحى فى الصورة التى رسمها لهم اللغويون ، وأن كل ما هناك أنهم قاسوا أشعارهم على أشعار الأقدمين ، فأجازوا لأنفسهم ما كان يجيزه أسلافهم من بعض الضرورات وبعض الشواذ . وعم فى ذلك يتابعونهم ويصوغون على إرث منهم » [2] .

وكان القديم والحديث ، أو الأصالة والمعاصرة ، من الأفكار المهمة التى شغلت المؤلف فى تتبعه تاريخ الأدب فى هذا العصر ، شعرًا ونثرًا ، يعطينا صورة واضحة عن مزج القديم بالحديث ، وصلة الحديث بالقديم صلة اتصال لا انفصال ، يقول : « وقد بسطت القول فى ازدهار الشعر العربى حينئذ ازدهارًا رائعًا ؛ إذ أكب الشعراء على العربية يتقنونها ، ويتمثلون ملكتها وسليقتها تمثلاً دقيقًا نافذين بذوقهم المتحضر إلى أسلوب مصفى ، يجمع حينًا بين الجزالة والرصانة ، وحينا يجمع بين الرقة والعذوبة ، وكان تأثرهم عميقًا بالثقافات المترجمة ، وبما كانوا يستمعون إليه من محاورات المعتزلة ، مما أثار فى عقولهم ، ونفوسهم كثيرًا من المعانى والخواطر التى لا تكاد تحصى ، ودفعهم إلى التطور بموضوعات الشعر الموروثة تطورًا نلتمس فيه روح العصر ، وخصب الفكر ، ورهافة الشعور ، وأضافوا إليها موضوعات جديدة ، بما نفذوا إليه من تحليل المعانى ، والملاءمة بين أشعارهم وبيئاتهم المتحضرة ، وحياتهم

---

(١) العصر العباسى الأول ص١٤١ .

(٢) العصر العباسى الأول ص١٤٢ .

اليومية ، وفتحوا صفحة لم تكن تخطر لأسلافهم على بال ، هى صفة الشعر التعليمى ، الذى صاغوا فيه المعارف والتاريخ والأمثال ، والقصص الحيوانى ، منظومات طريفة ، واكتشفوا للشعر أوزانًا لم تكن معروفة ، وأنماطًا من القوافى كانت مجهولة » [1] .

٢ - اللغة الفارسية فى الشعر :

يزعم يوهان فك أن الفارسية أدخلت ضيمًا على العربية ، معتمدًا على ما جاء فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، من أن بعض الشعراء كانوا يتملحون بإدخال بعض الألفاظ الفارسية ، فى أشعارهم ، وأثبت قطعة لأحد الشعراء ، اختلطت فيها الألفاظ الفارسية بالألفاظ العربية . ويرى المؤلف أن يوهان فك قد بالغ فى هذا الضيم ، وهى مبالغة لا تسندها نفس النصوص ، التى رواها الجاحظ ؛ إذ كان الشعراء يسوقون فى أشعارهم أحيانًا بعض الألفاظ الفارسية تملحًا وتظرفًا ، كما يلاحظ الجاحظ نفسه ، أما بعد ذلك فإنهم يحافظون على ما استقر فى ملكاتهم من قوانين الصياغة العربية ، وربما كان أكثرهم استخدامًا للألفاظ الفارسية فى شعر أبا نواس ؛ إذ كان يأتى بها فى بعض خمرياته تعابثًا ومجانة .. ولم يكن يصنع ذلك دائمًا ، إنما كان يصنعه فى الحين بعد الحين تملحًا وتندرًا . كان يأتى على ألسنة الشعراء فى الندرة ، وكثرتهم - على الرغم من أصولهم الفارسية - لم يتورطوا فى شئ منه ؛ ومن أجل ذلك كان ينبغى أن لا يندفع باحث إلى القول ، بأن السليقة العربية انتقصت فى نفوس العباسيين ، فقد كانت أقوى من أن تنتقص حتى لدى من كانوا يحسنون الفارسية مثل أبى نواس » [2] .

وتبدو دقة التعامل النقدى مع الظواهر الأدبية ، فى مجال المقارنة بين آرائه ، وآراء سابقيه ، أو معاصريه ؛ إذ يصحح بعض المعلومات التى استقرت فى الأذهان ، فمثلاً تعلمنا وقرأنا أن أبا الأسود الدؤلى هو أول من وضع قواعد النحو ، ويرى المؤلف أنه « شُبه للقدماء هذا ، والحقيقة أنه لم يضع منها شيئًا ، إنما الذى وضعه حقًا ،

---

(١) العصر العباسى الأول ص ٥ .
(٢) العصر العباسى الأول ص١٤٢ .

وكان أول واضعي نقط المصحف نقطا يعين حركات أواخر الكلم فيه ، أو بعبارة أدق يعين حركات الإعراب . فكان يضع نقطة فوق الحرف الأخير للكلمة إشارة إلى الفتحة ، ونقطة بين يديه إشارة إلى الضمة ، ونقطة تحته إشارة إلى الكسرة ، وإذا تبع شيئًا من هذه الحركات غُنة أو تنوين نقط الحرف نقطتين ، واختلط التعبير عن هذا الصنيع بكلمة العربية على بعض أصحاب كتب الطبقات فظنوا أنه وضع بعض أبواب النحو أو مسائله » [1] .

وفى معرض حديثه عن تطور النثر ، وبيان دور اللغويين ، والمعتزلة ، والمترجمين ، والمتفلسفة في ازدهاره ، وما ألفوه من كتب في صناعة النثر ونقده ، يصل إلى بيئة المترجمين ، والمتفلسفة يقول : « ولعل خير كتاب قدمته هذه البيئة في مجال النثر ، والكتاب ، هو الكتاب الذى نشر باسم « نقد النثر » منسوباً إلى قدامة بن جعفر ، وقد تبين فيما بعد أنه جزء من كتاب البرهان فى وجوه البيان لإسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب » [2] .

* * *

وتتضح فى دراسة الدكتور شوقى ضيف للعصر العباسى بعض الجوانب :

١ - الطابع الدينى الإسلامى :

يرى المؤلف أن أهم أسباب التقدم هو الدين الذى يعتد به ، ويُعلى من شأنه ، فقد انتشر الإسلام فى هذا العصر ، وأقبل الناس على اعتناقه ، والإيمان بتعاليمه دون إكراه ، وحصل الامتزاج بالدم والسكنى والولاء ، يقول : « وبذلك استطاع الإسلام بتعاليمه السمحة أن يحدث امتزاجاً قوياً بين العناصر المختلفة ، التى كانت تتألف منها

---

(١) العصر العباسى الأول ص ١٢١ .

(٢) *العصر العباسى الثانى ص٥٢٣* .

الدولة العربية ، وهو امتزاج لم يبلغه بامتلاك الأرض المفتوحة ؛ إنما بلغه بامتلاك القلوب ، فإذا الكثرة الكثيرة من الشعوب التى انبسط عليها سلطانه ، تسلم ، وإذا من بقوا على دينهم يشعرون تلقاء المسلمين وحكامهم بضرب من الأخوة الكريمة »[1] .

ودعا الإسلام إلى العلم والمعرفة ، فازدهر التعليم ، وأقبل الناس على تلقى مختلف العلوم ، دينية وغير دينية ، فى الكتاتيب ، والمساجد ، والأسواق ، ووضعت العلوم المختلفة ، وصنفت الكتب المتعددة ، مما أدى إلى ازدهار الحركة العلمية ازدهاراً عظيماً .

ويفضل الحديث عن المساجد التى كانت أماكن عبادة وعلم ، ويبين أهميتها ودورها فى الحركة العلمية ، ويعطى صورة واضحة عن حلقات العلماء فى المساجد ، حيث يختار كل عالم أسطوانة يستند إليها ، ويتحلق حوله طلاب العلم ، مستمعين ، مستفسرين ومناقشين ، ومنهم من كان مستمعوه كثيرين ، فكان هناك من يوصل كلامه إلى البعيدين عنه . وكان التعليم فى المساجد ، دون قيود أو تكاليف ، فانتشر العلم والتعلم ، وأقبل الشباب على حلقات العلماء الدينية ، والكلامية ، وغيرها دون أى شرط سوى الرغبة فى العلم والتزود بالمعرفة .

ويركز المؤلف فى مواضع مختلفة على جهود المعتزلة ، فى الدفاع عن الإسلام أمام أصحاب الملل والنحل ، وبعض الفرق الإسلامية ، معتمدين على الحجج ، والأدلة والبراهين ، والقياس ، واللغة ، مقنعين ، ومفحمين فى مناظراتهم ، وجدلهم وحوارهم ، ومع إعجاب المؤلف بالمعتزلة وإشادته بدورهم فيالدفاع عن الإسلام وفى نمو النثر ، فإنه يرى أنهم لم يطبقوا الأصل الخامس من أصولهم تطبيقاً تاماً ، فينقدهم بدافع من غيرته على الدين والمجتمع ، يقول : « وأما الأصل الخامس ، فيريدون به أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان على سائر المسلمين كل حسب استطاعته ، وكان ينبغى وهم يعتنقون هذا الأصل ، أن يدفعوا الدولة للضرب على أيدى المجان والفساق وأرباب الدعارة . وأيضاً كان ينبغى أن يصرخوا فى وجوه الخلفاء ضد طغيانهم ، وظلمهم للعامة ، وأن يصارحوهم بنظرية الإسلام فى الخلافة ، وأنها ليست حقا من حقوق أهل البيت ؛ إنما هى حق الأكفاء من أبناء الأمة »[2] .

---

(١) العصر العباسى الأول ص ٩٠ .

(٢) العصر العباسى الأول ص١٣٥ .

ويبرز في دراسة موضوعات الشعر تركيز الشعراء في مديحهم على الصفات الكريمة التي دعا الإسلام إلى التحلي بها ، من تمسك بشريعة الله ؛ من ورع وتقوى وعدالة لا تصلح الأمة بدونها ، وفي فضل الجهاد في إعلاء كلمة الله ودينه في المديح والرثاء ، وفي تصوير البطولة والشجاعة والدفاع عن حمى الإسلام في حروبهم مع الروم وغيرهم .

٢ - الموقف الأخلاقي :

ويظهر في دراسة بعض الظواهر الأدبية ، أو بعض الشعراء أو الكتاب ، حيث يحاول التخفيف من حدة ظاهرة ، أو موقف ، أو تصرف ، أو رأي ، ويرفض المبالغة في الحكم على شخصية شاعر أو كاتب وتصرفاته ؛ مثلاً بعد أن تحدث عن حياة اللهو والمجون ، والخلاعة والفساد الخلقي ، ودور الفرس والجواري والقيان في شيوعه ، يقول : « وليس معنى ذلك أن الحياة في بغداد ، كانت كلها مجونًا وتهالكًا على الفجر والعهر ؛ فإن تعدد الزوجات الذي أباحه الإسلام ، وما أعطاه للرجل من حق تسريّ الجواري ، كل ذلك كان يحول دون سقوط بغداد جميعها في هوة الفساد ، ومن أجل ذلك ينبغي أن لا نبالغ في تصور موجة المجون ، والعبث حينئذ ، وأن نظن أن أهل بغداد جميعًا قد تخلوا عن الحياة المستقيمة الطاهرة التي يحوطها الخلق والتقاليد والدين ، إنما هو الكرخ حيث بيوت النخاسين والمغنين ، ومن يفدون عليها من الفتيان والشعراء للشراب والمجون في غير استخفاء ولا حياء [1] .

وفي حديثه عن الشعوبية ونشاطها وشعرائها وخطرها ، يقول : « وينبغي أن نعرف أن الروح العربية - على الرغم من هذه الشعوبية - ظلت شامخة مسيطرة يسندها الخلفاء وزعماء العرب من الولاة والقواد ومستشاري الدولة ، كما يسندها الفقهاء والمحدثون وعلماء اللغة ، ورواة الشعر » [2] .

---

(١) العصر العباسي الأول ص ٧٨ .

(٢) العصر العباسي الأول ص ٧٣ .

ويخفف من خطر الزندقة والإلحاد معطياً صورة صادقة عن الدين والمجتمع ، يقول : « وليس معنى ما قدمنا من حديث عن الزندقة والمجون أنهما يشكلان ظاهرة ، وإنما شاعا فى طبقة محدودة من الناس ، كان جمهورها من الفرس ، وكانت موجة المجون أكثر حدة ، ولكنها لم تكن عامة فى المجتمع .. أما عامة الشعب ، فإنها لم تكن تعرف زندقة ولا مجونًا ، أما من حيث الزندقة فإنها لم تكن تعادى الإسلام بل كانت معظم هذه الطائفة مسلمة حسنة الإسلام ، تهتدى بأضوائه ، وتجرى على سنته » [1] .

وفى دراسة أبى تمام وشعره ، يشير إلى بعض النواحى التى تكون شخصيته ، ويدافع عنه يقول : « وفى أخباره أن الحسن بن رجاء ، لاحظ عليه أنه يصلى صلاة خفيفة لا يطيل فيها ، وتوسع بعض الباحثين فى الخبر ، فقالوا : إنه لاحظ عليه تقصيره فى أداء الفروض الدينية ، وديوانه وما به من مواعظ دينية يشهد على صحة إسلامه . وأيضًا ففيه قصيدة وصف بها حجة حجها ، وليس فى ديوانه وراء ذلك ما يصور أنه كان عابثًا أو ماجنًا ، يلهو ولكن بقسطاس ، ولكن خصومه حاولوا أن يغضوا منه فزيفوا عليه الخبر السالف ، طعنًا عليه ، ومحاولة للنقص منه » [2] .

وعند دراسة الشعراء والكتاب يذكر فى الهامش المصادر والمراجع التى تفيد الدارسين ، والطلاب ، مع بيان الطبعة ، ودار النشر ، والجزء والصفحة وبذلك يقدم خدمة جليلة للباحثين .

ونستطيع أن نقول إن المؤلف قد بحث كل ما يتعلق بتاريخ الأدب فى هذا العصر ، بحثًا مستقصيًا ، شاملاً ، مرتبًا مادته العلمية ، ناقدًا ، مدققًا محللاً ، متنوقًا ، كاشفًا عن عدد من الملامح الواضحة فى الشعر والنثر ، مما يدل على معايشة علمية عميقة ورؤية شمولية ، فنحن أمام باحث ذى منهج أكاديمى علمى ، يحدد أهدافه ، وما يريد أن يحققه ، يوفر له المادة العلمية فى مصادرها ومراجعها ، مع تفهم تام ، ودقيق واع بحركة المجتمع بأبعادها المختلفة تاريخية ، واجتماعية ، وعقلية ، وثقافية ، والتى تتضح فى الإبداع البشرى شعراً ونثراً ، ويعتمد على ذوقه الخاص فى الحكم على بعض الظواهر الأدبية . فمؤرخ الأدب لا يمكنه أن يتجرد عن عوامل مكونات ذاته ، فنراه

---

(١) العصر العباسى الأول ص ٨٣ .

(٢) العصر العباسى الأول ص ٢٧٦ .

يفصل الحديث فى بعض الموضوعات مبرزًا جوانبها وأفكارها وآثارها ، ومميزاتها . وأحيانًا يتناول موضوعات أخرى تناولاً سريعًا دون إهمال ، لأنها لا تلقى لديه تقبلاً من نوع ما ، ومع هذا استطاع ببصيرته النافذة وعلمه الدقيق أن يكون موضوعيًا فى دراسته وأحكامه ، إذ نبذ الأحكام العاطفية ومجاراة الآخرين .

ونراه ناقدًا ، محللاً ، راصدًا ، الظاهرة الأدبية ، ويبدو حسه النقدى الدقيق فى مجال المقارنة بين آرائه ، وآراء سابقيه ، أو معاصريه . ويتضح منهجه النقدى المعتمد على استقراء ، واستقصاء للفكرة من جميع جوانبها ، ووقوف على كل ما قيل حولها . ثم محاولة الوصول إلى الرأى الفصل فيها ، أو الأقرب إلى المنطق والمعقول ، بدلالة التاريخ والأحداث .

ويبدو المؤلف فى دراسته عالمًا بكل ما يتعلق بالعصر ، محيطًا بدقائقه وتآليفه فى العلوم المختلفة ، خبيرًا بفنون الأدب وظواهره ، مضطلعًا بعبء التفكير فى دقائقها ، ملمًا بأدق خصائصها ، دارسًا قصائدها ومقطوعاتها ، مستشهدًا بشعر شعرائها ونثر ناثريها .

وبعد فقد جاءت دراسة أستاذنا الدكتور شوقى ضيف ، موسوعية شاملة واضحة ، مما يميز دراسته عن جميع الدراسات ، حول العصر العباسى ؛ فقد درس الباحثون ظاهرة معينة ، أو تتبعوا الأدب فى فترة زمنية قصيرة محددة ، أو فى مدينة أو من خلال شاعر أو ناثر أو كتاب ، كدراسات الدكتور طه حسين ، والدكتور يوسف خليف ، والدكتور محمد مصطفى هدارة ، والدكتور حسين نصار ، وغيرهم .

ندعو الله أن يمد فى عمر أستاذنا الجليل ، ويمتعه بالصحة والعافية ، ويوفقه فى إتمام مجموعة تاريخ الأدب العربى .

د . عصمة عبد الله غوشة

أستاذ الأدب العربى

كلية الآداب – الجامعة الأردنية

٨ - الرؤية الشمولية فى تاريخ الأدب
عند شوقى ضيف

د . حلمى بدير

« شوقى ضيف » من القلائل فى عمر أدبنا العربى ، الذين يعرفون جيداً ما يريدون تقديمه للمكتبة العربية ، منذ بداية خوض هذا المجال سنة ١٩٣٩ فى رسالته التى تقدم بها إلى قسم اللغة العربية بكلية الآداب ، ورسالته « الصناعة الفنية وتطورها فى الشعر العربى » سنة ١٩٤٢ ، لنيل درجة الدكتوراه فى الآداب .

ووضوح « الرؤية » يبدو محدداً لمنهجه العلمى ، منذ هذه البداية الأكاديمية الأولى ، كواحد من جيل رائد أول ، تتلمذ على يد عميد الأدب العربى مباشرة فى شبابه ، (كان عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين فى أوج قمته الأدبية ، والإبداعية خلال الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن) .

وهو المنهج الذى يعتمد على محورين أساسيين :

* محور تاريخى علمى متتبع ، يدقق فى مسار تاريخ الأدب العربى ، ويلقى الأضواء على جوانب حركته المتطورة المتتابعة .

* محور نقدى أكاديمى يمتزج بالمحور السابق ، ليقدم ملامح واضحة لحركة تاريخ الأدب العربى فى عصوره المختلفة بدءاً من « الجاهلية »حتى « المعاصرة » .

وهو « المنهج العلمى » المؤكد على ضرورة خوض جوانب المعرفة الأدبية المختلفة فيقدم فى تاريخ الأدب العربى :

العصر الجاهلى ، ١٩٦٠ .

والعصر الإسلامى ، ١٩٦٣ .

والعصر العباسى الأول ، ١٩٦٦ .

والعصر العباسى الثانى ، ١٩٧٣ .

وعصر الدول والإمارات جـ ١ ، ١٩٨٠ .

وعصر الدول والإمارات جـ ٢ ، ١٩٨٤ .

وفى مجال الدراسات الأدبية :

الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، ١٩٤٣ .

والفن ومذاهبه فى النثر العربى ، ١٩٤٦ .

والتطور والتجديد فى الشعر الأموى .

والشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية .

ثم ينتقل إلى العصر الحديث :

دراسات فى الشعر العربى المعاصر ، ١٩٥٣ .

والأدب العربى المعاصر فى مصر ، ١٩٥٧ .

ثم يقدم دراسة بين الأدبين الرسمى والشعبى :

الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور .

والبطولة فى الشعر العربى .

ثم يترجم لعدد من الشخصيات الأدبية :

شوقى شاعر العصر الحديث .

ابن زيدون .

البارودى رائد الشعر الحديث ، ١٩٦٤ .

العقاد .

ثم يقدم تجارب فى النقد الأدبى والتعريف ببعض فنون الأدب العربى فى دراساته :

فى النقد الأدبى ١٩٦٢ ، وفصول فى الشعر ونقده ، ١٩٧١ ، والنقد ١٩٥٤ ، والرثاء والمقاومة ١٩٥٤ ، والترجمة الشخصية ١٩٥٦ ، والرحلات ١٩٥٦ .

وينتقل إلى الدراسات البلاغية والنحوية :

البلاغة تطور وتاريخ ١٩٦٥ .

المدارس النحوية .

ثم فى الدراسات القرآنية :

سورة الرحمن وسور قصار : عرض ودراسة .

ثم فى تحقيق التراث :

المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد جزءان .

كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد [1] .

وهذا التنوع الكبير فى مجالات الدراسة فى الشعر والنثر القديم والحديث ، وفى النحو والبلاغة والنقد والتراجم ، وفنون الأدب ، والتفسير والقراءات .. يجعل دراسة « البحث الأدبى : طبيعته . مناهجه . أصوله . مصادره » مرجعاً رئيسياً يجمع بين النظرية والتطبيق ..

ويبدو فى أعماله جميعاً امتزاج المحور التاريخى بالمحور النقدى .. على الرغم من أن ظاهرة التاريخية الواضحة ، والتى تبدو خاصة فى بعض عناوينه الرئيسية ، مثل « تاريخ الأدب العربى » . أو « البلاغة تطور وتاريخ » .

على أن الوقوف عند جانب واحد فحسب عنده ، وهو الجانب الغالب على طبيعته الأكاديمية ، وهو محاولته الموسوعية فى تاريخ الأدب العربى فى عصوره المختلفة ،

---

(١) حاولنا رصد تاريخ الطبعة الأولى من دراساته وأبحاثه ، وقد صدرت – فى غالبيتها – عن مؤسسة دار المعارف .

يجعلنا نحاول كذلك اكتشاف : مدلول « التاريخية » عنده في تاريخ الأدب History of literature .. ، وموقعه بين محاولات تاريخ الأدب العربي فيما سبق تحت أسماء : « تاريخ أداب اللغة العربية » أو نحوها في العصر الحديث بدءا من جورجي زيدان .

أما عن مدلول « التاريخية » Historianism فهو لا ينغلق على حدود التتابع الوصفي للأحداث في تعاقبها المتسلسل ، وإنما ينطلق إلى آفاق التفسير المستفيد من حركة تاريخ الأدب ، من حيث علاقتها بالبيئة المفرزة ، والأديب المبدع .. ، ولهذا نجده يستعين بحركة العصر ، يتوقف عند ملامحها المحددة لأنوار فكرها .. ، وهي ملامح قد تبدأ من المكان .. وتمتد في الزمان تكشف عن هوية كل منهما .. وتتعرف على الملامح المميزة التي يختص بها عصر دون آخر ، ومن ثم يتميز بها فكره وأدبه .. وهو ما سنحاول التعرض له فيما بعد .

أما عن موضع « شوقي ضيف » بين محاولات « تاريخ الأدب العربي » قديمًا وحديثًا ؛ فيجب أن يكون واضحًا في الأذهان أن جهده لا يختص بالعصر الحديث فحسب .. ، وأن المحاولات السابقة عليه تقدم نماذج تختلف على نمط « المقتطفات » و« الطبقات » و« المجاميع » ، ونحو ذلك ، ومع هذا فإن جهد شوقي ضيف متميز عنهم جميعًا . وقد توفر بعض العلماء على دراسة تاريخ الأدب العربي بدءا من القرن العشرين .. نذكر منهم :

تاريخ أداب اللغة العربية : حسن توفيق العدل ١٩٠٤ نسخة بالبالوظة بدار الكتب تحت رقم ١٥٨٧٥ .

تاريخ أداب اللغة العربية : محمد دياب ١٣١٧هـ مطبعة جريدة الإسلام .

تاريخ أداب اللغة العربية : جورجي زيدان ١٩١١ .

تاريخ أداب اللغة العربية : مصطفى صادق الرافعي ١٩١١ ، ٣ أجزاء . مطبعة الأخبار .

تاريخ الأدب العربي : أحمد حسن الزيات .

تاريخ الأداب العربية : كارلو نيللينو .

الأدب العربي وتاريخه : محمود مصطفى ١٩٣٧ ، ٣ أجزاء .

وفيما عدا ذلك فقد جنح الاتجاه فى التاريخ نحو « الجزئيات » التى تقف عند بعض الظواهر : « التشاؤم فى الشعر العربى قبل أبى العلاء » (١) أو « المرثية فى الشعر العربى » (٢) ، أو « تطور الخمريات » ، أو « شعر الطبيعة » ، أو « الوصف » ، أو « نزعة الزهد » ، أو غير ذلك ، أو تقف عند مرحلة تاريخية كبحث الدكتور محمد كامل حسين ، « الأدب العربى بمصر من الفتح الإسلامى إلى دخول الفاطميين » ، وهو بحثه للماجستير سنة ١٩٣٥ - أو بحث «الأدب العربى فى القرن الثالث الهجرى » لراجية فهمى ١٩٤٢ ، أو « الأدب البويهى » لمحمد غناوى الزهيرى ١٩٤٨ ، أو « الشعر العربى فى المهجر » للدكتور يوسف خليف ١٩٥٦ (٣) ، ويقف الاتجاه التاريخى أحيانا عند الشخصيات .. وقد بدأ هذا بطه حسين فى رسالته للجامعة الأهلية (١٩٠٨ - ١٩٢٥) لدرجة الدكتوراه سنة ١٩١٤ بعنوان « تاريخ أبى العلاء المعرى » . وتبعه أحمد بيلى برسالة حول « حياة صلاح الدين الأيوبى » سنة ١٩٢٠ ، ثم محمد كمال حلمى برسالة حول « أبى الطيب المتنبى » سنة ١٩٢٠ ، ثم « عمرو بن العاص » لحسن إبراهيم حسن سنة ١٩٢١ ، ولا زالت هذه الاتجاهات جميعًا تسود تاريخ الأدب العربى فى الرسائل والأبحاث الأكاديمية المختلفة ، وقد غطت ولا شك مساحات هائلة من المراحل التاريخية ، والظواهر الأدبية والشخصيات الاعلام المختلفة ، ولكنها تفتقر - نتيجة لتنوع الباحثين - إلى تكاملية المنهج وشمولية الرؤية .

تكاملية المنهج الأكاديمى :

لابد من الاعتراف بأن منهج البحث الأكاديمى يبدو مختلفًا حتى الآن ومتنوعًا ، بل وغير واضح المعالم أحيانًا لا فى أذهان الطلاب فحسب ، ولكن فى أذهان بعض المتخصصين .. ولكن مع دراسات الدكتور شوقى ضيف نكتشف وضوحًا متكاملاً فى رؤية المنهج الأكاديمى العلمى ، نكتشف معه أن البحث يعد :

---

(١) هو بحث الماجستير للدكتورة عائشة عبد الرحمن سنة ١٩٤١ .

(٢) بحث الماجستير للدكتور محمد حسن الزيات ١٩٤٢ .

(٣) اعتمدنا على ثبت رسائل الماجستير والدكتوراه بجامعة القاهرة منذ النشأة حتى سنة ١٩٥٧ .

- وقد تحددت أهدافه والغرض منه وما يريد أن يحققه .

- وقد توفرت المادة العلمية فى مصادرها ومظانها جميعا متقصية إلى أدق الحدود والأبعاد .

- وقد توفرت بعد العنصرين الأولين « عناصر الجدة » وهى العنصر الرئيسى من البحث .

وهنا نطرح التساؤل المؤرق حول وظيفة تاريخ الأدب ، وقد كان محور أحد أعداد مجلة « الثقافة الأجنبية » العراقية .. الذى جعل « طرق ونظريات كتابة تاريخ الأدب » محور العدد الأول من السنة الثالثة شتاء ١٩٨٣ ، وكان أول موضوعات هذا « المحور » بعنوان « وظيفة تاريخ الأدب » لروبرت سبللر Robert E. Spiller ترجمة : د . سلمان الواسطى عن الإنكليزية ، تحت شعار من أقوال سبللر يقول : « وظيفة تاريخ الأدب هى أن يكشف تاريخ الإنسان كما يكشف عنه الأدب » .

إن وضوح وظيفة تاريخ الأدب ، هى المحور الأول الذى منه تتوضح أبعاد المنهج الأكاديمى المستخدم .. وقد نجح « سبللر » فى تلخيص أهم النظريات المكونة له .. من التاريخ ، والنقد ، والظروف المؤثرة .. والمتأثرة .. مع اعترافه بضرورة اقتران هذه العوامل جميعاً .

ففى الماهية يقول : « يعنى تاريخ الأدب بأحد أشكال التعبير الإنسانى ، فيصف ويفسر « التعبير » الذى يتخذ « الأدب » وسطا له ، الذى يبدعه شعب من الشعوب خلال فترة زمنية محددة وفى مكان معين وبلغة هى - عادة - لغة ذلك الشعب » [1] .
ونجد التعريف وقد احتوى على كلمات « الوصف » و« التفسير » و« التعبير » و« الأدب » و« الإبداع » و« الزمن » و« المكان » و« اللغة » .. وهذه المفردات تشكل تداعيًا فكريًا يمكن أن يحدد من خلاله عوامل الالتزام فى عملية تاريخ الأدب » .
ثم يبدأ بعدها فى فصل هذا المجال عن مجالات أخرى ..

« إن تاريخ الأدب ليس تاريخًا للغة » رغم ضرورة استعانته بعالم اللغة .

(١) مجلة الثقافة الأجنبية Foreign Culture مجلة فصلية - وزارة الثقافة والإعلام - دار الجاحظ - بغداد .
العدد الأول . السنة الثالثة . شتاء ١٩٨٣ . ص ٤٠ .

« وهو ليس تحقيقًا للنصوص » لأنه يعتمد عليها .

« وليس تاريخ الأدب نقدًا أدبيًا »[1] مع أنه ينبغى أن يعتمد على النقد الأدبى .

ويلخص الموقف على هذا النحو :

« قد يكون مؤرخ الأدب ملمًّا .. بل يتحتم عليه أن يكون ملمًّا ، بدرجة أو أخرى بمياپين عمل اللسانى ، وناقد النصوص ، والناقد الأدبى ، لكن دوره كمؤرخ أدبى يختلف تمامًا عن أدوار أولئك ، إذ إن وظيفته الدقيقة المحددة هى أن يجيب عن أسئلة مثل : كيف ؟ ومتى ؟ وأين ؟ ولماذا ؟ ظهر أو يظهر عمل أدبى إلى الوجود ، وما هى علاقاته الحالية أو الماضية بالأعمال الأدبية الأخرى ، وبالتاريخ العام للإنسان باعتباره كائنا اجتماعيًا حساسًا »[2] .

ومن هنا يصبح دور مؤرخ الأدب محدد الأبعاد فى « علمية » منهجه ، وتصبح مهمته أكثر شمولية ، وأكثر امتدادًا من فروع « التعبير » الأخرى المختلفة ، فهو ليؤرخ لفترة ما .. عليه **أولاً أن يحدد** : الإطار الزمنى الذى ينطلق منه والذى ينتهى عنده .. ويقدم مبرره المستند عليه فى اختباره للحدين فى البدء والانتهاء وهو قد يكون مبررًا تاريخيًا سياسيًا – كما هو الشائع – فى تحديد الأطر الزمنية لتاريخ الأدب العربى فى مراحله المختلفة . أو نقديًا فنيًا يعتمد على أحداث التاريخ الأدبى كفواصل زمنية دون غيرها .. ولكنه لابد وأن يكون مقنعًا ، وهو لن يكون كذلك إلا إذا ، توافرت له عناصر المنطقية العلمية .

ثم ينتقل إلى تحديد : **الإطار المكانى** ومنه تتبين توجهاته وظواهر الحركات التى يرصدها .. والإطار المكانى سوف تتحدد به أيضًا عناصر عدة ؛ منها ما هو تاريخى من حيث تاريخ المكان وحركته ، صعودًا أو هبوطًا أو ما اختارله توينبى **Toynbé** ، عنوانه الدال الذى لا تسهل ترجمته **Cities on the move** ، وجعله عنوانًا لأحد أهم دراساته فى حركة المدن العالمية الكبرى دلهى والقاهرة وغيرهما .. يتتبعهما كحيز مكانى يتمتع بالحيوية والحركة يتمدد وينكمش ، ليتغير بتغير العصور والأجيال والحقب التاريخية .

---

(١) المصدر السابق : ص ٤٠ .

(٢) المصدر السابق : ص ٤٠ .

ومن هذا ينتقل إلى : **الظواهر الأدبية** : وهى معتمدة على تفهم واع بحركة المجتمع بأبعادها المختلفة ؛ اجتماعية ، وسياسية ، وتاريخية ، وفكرية ، وثقافية ، راصداً دقائق هذه الحركة ، واعياً بقيمة تأثيرها مجتمعة فى حركة الإبداع البشرى ، وانعكاسها عليه . واشتراكها فى صنع « الظاهرة الأدبية » ، أو الاتجاه المذهبى ، أو حركات التقدم أو الارتداد .. أو غير ذلك مما يتعرض له « العصر الأدبى » فى كل الأمم والشعوب المختلفة .

ثم يضمن ذلك حركة « **الشخصية الأدبية** » فى الشعر أو النثر ، وفنونه المختلفة معتمداً على « الثابت » دون « المتغير » ، وهو لا يرصد « المتغير » حتى يصبح « ثابتاً » ، وربما تبدو هذه إشكالية « المعاصرة » فى ميدان تاريخ الأدب .. ولا يتناقض هذا مع فكرة « سبللر » من « أن اهتمام مؤرخ الأدب ، ينبغى أن ينصب على العملية الإبداعية برمتها ، وليس فقط على الشكل والمضمون المكونين للعمل المنجز »[1] .

على أن الأمر من خلال هذه العناصر المتكاملة فى تعقب حركة الأدب لا يخلو من « ذوق خاص » وهو قدر من « الذاتية » مفروض حيث إن « المؤرخ الأدبى » لا يمكنه التجرد عن عوامل مكونات ذاته .. وإلى حد ما فإننا نضع فى الاعتبار هذه الخصوصية الذاتية فى تعقبه لحركة الأدب وإلحاحه على بعض جوانبها وأفكارها ، ومحاولاته إخفاء بعض جوانب لا تلقى لديه تقبلاً من نوع ما .

إشكالية المصطلح النقدى :

قد يبدو من مقارنة مناهج تاريخ الأدب العربى والغربى ، ارتباط تاريخ الأدب الغربى بمفاهيم اصطلاحية نقدية **Critical Idioms** .. تنبع عادة من طبيعة المرحلة التى يوصف بها الأدب ، أو كنتيجة لمزاج عام يسيطر على مجال العطاء الفنى أو الأدبى ، بمعنى آخر فإن ابتعاد تاريخ الأدب الغربى - بعامة - عن تاريخه السياسى : أتاح

---

(١) المصدر السابق : ص ٤٣ .

الفرصة للنظر فى مناطق المتغير الفنى الزمانية .. وأصبح التاريخ ببدايات ظهور المذاهب الأدبية أمراً وارداً ، بل وضرورياً .. ومن هنا نجد التاريخ الأدبى يجمع على البدء بالعصر الكلاسيكى .. وهى تسمية لا تصلح للتاريخ السياسى للحقبة الزمنية المواكبة له .. ثم يعكف على عصر النهضة ، أو « الرينسانس » وهو مصطلح يصلح للتاريخ ، كما يصلح للأدب ، وليس دخيلاً من أحدهما على الآخر ، بل يكاد يكون مطابقًا للمواصفات الفنية المميزة لإنتاج عصره الأدبى من حيث طبائع التغيير والتجديد فيه ، وينتقل منه إلى عصر الرومانسية والواقعية ، ثم الحداثة (على الرغم من ارتباطها غير الوثيق أحيانا بأحداث ما فى العصور زمانياً) .

والإشكالية فى المصطلح النقدى - فى تصورى - غير واردة - فى منظور مؤرخى الأدب القدماء على الأقل . فلم يكن الاختلاف مذهبيًا فى الأدب بقدر ما كان فى علوم اللغة والنحو والبلاغة والمعانى والبيان .. وربما بدأ الفكر العربى واضحاً فى عصوره المختلفة فى هذا المجال على وجه التحديد .. بل لم يكن يبدو خلاف حول « المصطلح النقدى » فى أى مجال آخر من مجالات الفكر العربى ..

وقد تبدو الإشكالية أكثر وضوحًا عند بعض من أخذ بعلوم النقد الحديثة فى الآداب الغربية ، واستعار عدداً من المفاهيم وردت مع ما استعير من فنون مستحدثة .. ولم يكن بديهيًا لمن تمثل الشعر الغربى وأخذ يقلده أن ينفر من مصطلحه ، وكذا فى المسرح أو الرواية أو القصة .. وليس أدل على ذلك من مصطلح « الشعر الحر » فى مقابل Vers Libre ، بينما الشعر الجديد فى مدرسة صلاح عبد الصبور وغيره « غير حر » ، بل هو متقيد بقيود فن الشعر ، والعروض ، والموسيقى ، والقافية الداخلية ، واللغة ، والبلاغة ، ونحوها .. إذا ما كان هناك من خلاف فلا يبدو فى غير « عدد التفعيلات » ليس غير .

أما « المصطلح النقدى » فى التراث ، فلم يبد على قدر من الأهمية بحكم ارتباط مؤرخ الأدب بعصور التاريخ السياسى كذلك ، واكتفائه بالعنوان المستمد من العصر التاريخى ليصبح أيضاً عنواناً ينسحب على العصر الأدبى حتى العصر الحديث .

ومن الطبيعى نتيجة لهذا أن تنحصر المهمة التاريخية فى حركة التسجيل دون النقد ، أو تجمع بينهما ، مضيفة « الموضوع » فحسب بحيث يتصنف رثاء ، أو هجاء ، أو مدحًا ، أو نحو ذلك ، دون توجه « مضمونى » ، أو كشف « شكلى » من أى نوع .. يتيح الفرصة للوقوف عند التحولات الفنية الجذرية فى تاريخ الأدب العربى .

الرؤية المنهجية :

تنقسم دراسات أستاذنا الكبير الدكتور شوقى ضيف إلى قسمين رئيسيين فى تاريخ الأدب العربى :

– دراسات تاريخية يسود فيها **الجانب التاريخى العلمى** ، على الجانب النقدى التحليلى المتذوق .

– دراسات تاريخية يسود فيها **الجانب النقدى العلمى** ، على الجانب التاريخى المتتبع .

ومثالنا على القسم الأول مجموعة تاريخ الأدب العربى ، الذى بدأ بالعصر الجاهلى ، ثم الإسلامى ، ثم العباسى الأول ، فالعباسى الثانى ، فعصر الدول والإمارات جـ١ (الجزيرة العربية – العراق – إيران) ، وجـ٢ (مصر والشام) .

ومثالنا على القسم الثانى مجموعة دراساته فى التطور والتجديد فى الشعر الأموى . والفن ومذاهبه فى الشعر العربى . والفن ومذاهبه فى النثر العربى . والشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية . والشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور . والأدب العربى المعاصر فى مصر . ودراسات فى الشعر العربى المعاصر . ثم شوقى شاعر العصر الحديث . والبارودى رائد الشعر الحديث .

وموسوعية الأداء سمة من أهم السمات التى يتميز بها الدكتور شوقى ضيف ، فضلاً عن الحس النقدى فائق الدقة .. والذى يتمثل فى منهجه فى الاستقصاء ، وترتيب المادة التاريخية ، والكشف عن هوية عدد من الملامح فى مراحل تاريخ الأدب العربى ونقده .

كما أن السمة العلمية تبدو واضحة فى القسم التاريخى من دراساته (تاريخ الأدب العربى) ، والتى تدل صورها على معايشة عملية زمنية متعاقبة ، بدأت بالعصر الجاهلى فى تعاقب وصل إلى عصر الدول والإمارات فى مصر والشام ، مروراً بالعصر الإسلامى ، ثم العباسى الأول ، ثم العباسى الثانى ، ثم عصر الدول والإمارات فى العراق وإيران والجزيرة العربية . بينما نجد القسم التاريخى النقدى يخضع لمتغيرات التنوق لحاجة الدراسة .. ولهذا نجده لا يصدر فى تعاقب تاريخى إذ لا حاجة فيه لذلك ، وإنما يصدر طواعية فى إطار تكامل التصور المنهجى النقدى المراد التعبير عنه .. فتنوق الأدب العربى المعاصر ، ودراسات الشعر الحديث تأتى فى الخمسينات ، والبارودى فى الستينات ، يسبقهما العصر الأموى ، ويليهما العصر الجاهلى .. أو نحو ذلك .. وهو لم يجد حاجة ماسة لمعايشة التراث الأدبى فى عصوره المختلفة متعاقبة ، إلا عندما وجد الضرورة الملحة لذلك . فالتعاقب قد يفيد فى مجال رصد الظواهر فى الدراسات النقدية ، ولكنه حتمى فى مجال دراسات التاريخ الأدبى .

أولاً : تاريخ الأدب العربى :

قد تبدو محاولة اكتشاف المنهج عسيرة .. وهو المنهج العلمى التاريخى الذى صدر فيه د . شوقى ضيف عن دراسة تاريخ الأدب العربى فى مجلداته المتعددة ، وعلى الرغم من محاولات التنقيب والتفتيش فى تضاعيف دراساته هذه ، فصعوبة الجزم باكتشاف المنهج قائمة .. وإن كانت محاولات « التصور » تبدو بديلاً عن تنائينا .

أول ما يبدو من تصور حول « المنهج » أننا أمام باحث يضع تمثلا دقيقا للعصر الأدبى الذى يؤرخ له .. مرتباً شاملاً ، بحيث تتكامل فيه الجزئيات ، وتكون عناصر حية متكاملة لتوضح صورة العصر الأدبية بجميع عوامل تأثراتها وتفاعلاتها . ولذلك فإن خوض عالم « الحياة الأدبية » يتطلب بداهة خوض عالم الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والعقلية . ولا تتكشف ضرورة خوض هذه العوالم إلا بعد اكتشاف عناصر تأثيرها فى الحياة الفكرية بعامة والأدبية بخاصة .. وربما يؤكد هذا عصر الارتباط العضوى بين الأدب وبيئته ، باعتبار الأديب واسطة العلاقة بين الطرفين .

ولقد تنوعت طرائق الكشف عن عناصر الحياة بأرجائها من عصر لعصر .. فبينما نجدها فى العصر العباسى (الأول والثانى) تلتزم العناصر المباشرة (سياسية - اجتماعية - عقلية) نجدها فى العصر الجاهلى - بحكم طبيعة البداية فى الأدب والباحث - تخوض تجربة التعريف بالأدب وجزيرة العرب والجنس السامى ، ثم الحياة الجاهلية بعناصرها السياسية والاجتماعية والعقائدية ، فهى باعتبارها مرحلة بداية أدب أمة تخوض تجربة التعريف بالعرب ، وأصلهم ، ولغتهم ، وتكونها ، وهو أيضًا ما يحتاجه الباحث فى هذه المرحلة لينطلق منه لتتبع تاريخ وأدب هذه الأمة فى عصورها التالية .

ولأن معطيات الإسلام شكلت محوراً مغايراً فى ظواهر الحياة بأرجائها المختلفة ، سياسية واجتماعية وعقلية .. بل محوراً أدبيًا مغايراً فيما قدمته من ظواهر فنية وأسلوبية ، جديدة و « حديثة » فلقد تغيرت محاور التناول التاريخى فى العرض للأدب الإسلامى سواء فى مرحلته الأولى (عصر صدر الإسلام) التى تنتهى ببدايات العقد الثالث للهجرة (سنة ٤١ هـ على وجه التحديد) ، أو مرحلته الثانية (عصر الأمويين) التى تنتهى ببدايات العقد الثالث بعد المائة . (سنة ١٣٢ هـ على وجه التحديد وهو بداية عصر الخلافة العباسية الأولى) ، فيتناول فى الفصل الأول من الكتاب الأول « الإسلام » كقيم روحية ، وعقلية واجتماعية وإنسانية ، ومنه إلى نصوصه : القرآن الكريم ، والحديث النبوى ، والأثر المتروك فى اللغة والأدب .. ثم تبدو الآثار المباشرة فى محتوى الشعر (شعر الفتوح ، والمدائح النبوية ، والشعر المخضرم المتأثر بالإسلام ، وفى أنواع النثر وخاصة الخطابة والكتابة .. ، ولا يلبث أن يتتبع كذلك الحياة الإسلامية بصفة عامة امتزاجها بالشعوب المجاورة ، وأثرها فيها ، وتأثرها بها ، ومظاهر هذا كله فى فن العربية الأول - الشعر - وفن النثر على السواء .

ويبدو منهج التتبع الدقيق لظواهر الحياة بأنواعها واضحًا فى العصر العباسى الأول والثانى ، ربما بحكم استقرار المفاهيم السابقة والتى تعرض لها فى العصرين الجاهلى والإسلامى .. وربما بحكم تزاحم المؤثرات المختلفة وتراكبها وتشابكها فى صنع صورة الحياة الأدبية لهذا العصر ، ومن هنا كان وضوح الرؤية الشمولية المعبرة عن الحركة الحية المكونة لعناصر الإبداع والتفكير .. فى الحياة السياسية : العباسيون ،

والعلويون ، والخوارج ، وثوراتهم ، والنظم السياسية ، والإدارية والمدن .. فى الحياة الاجتماعية : مظاهر الترف والثراء والرخاء ، وما استتبع من رقيق ، وجوار ، وغناء ، ومجون ، ونحوها . وفى الحياة العقلية : واشتباكها وأثر الامتزاج الجنسى واللغوى والثقافى .. وتراكمية الأثر ووضوحه فى الحركة العلمية ، وعلوم اللغة والتاريخ والدين ، وعلم الكلام والفلسفة .. وانطلاق الثقافة العربية إلى تجارب عقلية مجاورة .. والأثر المترتب على حركة الشعر والشعراء ، والنثر والناثرين ، ووضوح رؤى التشيع والانقسام ، والمذهبية والخصوصية الفردية والجماعية فى شعر الزهد والغزل والمجون والزندقة .. وأيضاً الأثر المترتب فى حركة النثر وتطور فنونه فى الخطب والوعظ والقصص والمناظرات والرسائل ونحوها ، وأعلام كل فن منها .. والملامح الشكلية لكلٍ منها .

ومع اختلاف فى المضمون فى عناصر الحياة الثلاثة نجد العصر العباسى الثانى ، يقف أمام الظواهر السابقة أيضًا فى تكاثف للرؤية ، يحول شمول جوانب التأثير المختلفة ، والمشتبكة فى صنع الحركة الأدبية وظواهرها المتنوعة ، مع اختلاف يسير ناجم عن الاختلاف الطبيعى فى تعاقب العصور التاريخية .

وهنا تظهر الرؤية الشمولية فى تمثل حركة الأدب العربى على مر عصوره .. وذلك فى المقدمة الإيضاحية التى يضعها أستاذنا دكتور شوقى ضيف فى كتابٍ : عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران) [1] . والتى يقدم من خلالها تمثلاً جديداً لعصور الأدب العربى تقف بالعصر العباسى الثانى عند سنة ٣٣٤ هـ ، ليبدأ عصر الدول والإمارات الذى يشمل الامتداد الزمنى من ٣٣٤ هـ حتى بدء العصر الحديث . فى أرجاء العالم العربى .. باعتبار تقلص زعامة العباسيين للدول والإمارات فى حدود بغداد فحسب .. وهنا تصبح التقسيمة الجديدة وقد اعتدت بالقرون الثمانية بين القرن الرابع والقرن الثانى عشر عصراً وسيطاً يشبه سمة العصور الوسطى الأوروبية . مع ما تميزت به من سمات ، مع اختلاف الظلال والتفاصيل . ونجد عصور الأدب فى هذا التقسيم الجديد تنقسم إلى :

---

(١) طبعة دار المعارف . يونية ١٩٨٠ طبعة أولى .

العصر الجاهلي - والعصر الإسلامي - والعصر العباسي - والعصر الوسيط - والعصر الحديث .

وهي من هذا المنطلق ليست تقسيمة تاريخية بقدر ما تتمتع أقصى سمات التقسيمات الفنية .. بحيث يبدو كل عصر منها ممثلاً لملامحة ، متنقلاً عبر التاريخ بخصوصيات تميزه في حياته العقلية والإبداعية عن غيره من العصور الأدبية والفكرية والعقلية .

وكان المؤرخون يمتدون بالعصر العباسي الثاني حتى سنة ٦٥٦ هـ « حين أغار قطعان التتار حتى الغزو العثماني لمصر والشام والعراق باسم العصر المغولي ، وسموا فترة حكم العثمانيين لتلك البلدان باسم العصر العثماني » [١] .

ولتسمية هذه الفترة الممتدة بين سنة ٣٣٤ هـ والعصر الحديث بعصر الدول والإمارات عدة أسباب : أولها الارتباط الوثيق بين أرجاء الوطن العربي على الرغم من ظواهر الضعف والتفكك وغيرها - ويجد الدكتور شوقي في علاقة الفكر أوثق العرى . ويرى أن الدليل على التقارب الوجداني بين أرجاء الوطن العربي في هذه الفترة أن « العلماء - كانوا - حين يؤلفون كتاب تراجم عامًا يجمعون فيه كل من عاشوا من النابهين في هذا الوطن الكبير ، وكانوا إذا ألفوا كتاباً في تراجم علم كالقراءات أو التفسير ، أو النحو ، أو حتى في فرع كفقه الشافعية أو المالكية أو الأحناف جمعوا فيه علماءه في جميع البلدان العربية بالمثل حين يؤلفون أحياناً في تراجم الشعراء » [٢] .

وهو يقسم هذه الفترة إلى ثلاثة أقسام مكانية ، صدر منها القسمان الأولان : أحدهما يخص الجزيرة العربية ، والعراق وإيران ، والثاني يخص مصر والشام .. ويشير إلى الثالث الذي سيخصص - بإذن الله - للمغرب والأندلس - وبهذا تغطي دراسات تاريخ الأدب العربي المساحة المكانية الممتدة من المحيط إلى الخليج .

---

(١) المصدر السابق : ص ٥ وما بعدها من المقدمة .

(٢) المصدر السابق : ص ٦ .

وتبدو واسطة التعامل مع زمانية ومكانية العصر .. فى نماذج التعامل مع عطائها الأدبى الذى هو محور الدراسات فى المقام الأول ، ومنهجية التعريف بالظاهرة الأدبية أو الشخصية المبدعة .

التعريف بالظواهر الأدبية :

وهى الحركات الإبداعية المواكبة لمزاج العصر ، تبدو ثمرة له ، أو رد فعل فى مواجهته .. تبدأ من ظاهرة « الصعلكة » و « الفروسية » فى العصر الجاهلى ، وتدخل فى طرف منها كثمرة له (الفروسية) ، وفى جانب آخر كرد فعل مضاد له (الصعلكة) ، تناولها الدكتور شوقى ضيف فى الفصل الحادى عشر من العصر الجاهلى ، تحت عنوان جامع « طوائف من الشعراء » .. واستخدام « طوائف » معبر عن هذه المذهبية ، كما سنجده فى العصر الإسلامى ، والعباسى الأول والثانى وعصر الدول والإمارات ، وينحصر فى العصر الإسلامى فى ظاهرة « الغزل الصريح » و « الغزل العذرى » ، وظاهرة « الزهد » .. وتبدو فى العصر العباسى فى امتداد بعض الظواهر كالإباحية ، والزهد ، ونشوء بعض الظواهر الشعرية الأخرى « كالاعتزالية » و « الشعبية » .

وتبدو الظواهر الأدبية - كما سبقت الإشارة - ممتدة فى بعضها عبر العصور والأجيال ، وناشئة فى عصر دون آخر مواكبة لحركة المد المتغيرة وحركته الفكرية ومتغيرات السياسة والتاريخ .. وتبدو الظاهرة مفسرة تكشف عن طبيعة حركتها .. فى ظاهرة المجون والزندقة فى العصر العباسى الأول (وكانت فى العصر الإسلامى تحمل عنوان اللهو والمجون) نجد إجمال مسبب الظاهرة : « فإن كثرة الشعراء كانت من الفرس ، وكان كثير منهم يظهر الإسلام ويبطن الزندقة والإلحاد ، وساعد على اضطراب النفوس وتسلط الشك على العقول كثرة المقالات والنحل الدينية ، وشيوع المذاهب الفلسفية مما جعل كثيرين يستهترون بقيم المجتمع الإسلامية ، بل لقد كان من بينهم من يريد تحطيمها تحطيمًا ، وسبب ثان يرجع إلى كثرة الرقيق ودور النخاسة التى كانت أسواقًا للعبث ، وهو عبث صحبه غير قليل من الفجور ، حتى ليمتد إلى

الغزل بالغلمان غزلاً يصور – عند أبى نواس وأحزابه – انحطاطًا خلقيًا شنيعًا ، وسبب ثالث هو كثرة اتخاذهم للجوارى والإماء ، مما أدى إلى انحلال الروابط الاجتماعية لتسلطهن على الحياة المنزلية ، إذ أخذت مكان المرأة العربية الحرة ، وكن مختلفات الأجناس ، وكثيرات منهن كن قد نشأن على اللهو والمجون والابتذال والخلاعة تنشئة لم تكن تعرفها المرأة العربية المحصنة » [1] .

والإجمال الباحث وراء مسبب الظاهرة يتبعه رصد لمظاهرها فى الكوفة – السابقة إليها – والبصرة وبغداد ، ومظاهرها فى شعر والبة ، ومطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد .. وحماد عجرد – الذى يفرد له عنوانًا – ثم ينتقل إلى صالح بن عبد القدوس كظاهرة تكمل صورة المجون والزندقة فى هذا العصر مع تتبع دقيق لظواهرها عنده .. وارتداده لدين آبائه .

ولا شك أن تتبع الظواهر الأدبية ينبع من تمثل دقيق للحركة العقلية المتكاملة تتشابك فيها عوامل المؤثرات جميعًا .. وهى المؤثرات الداخلة فى تكوين المعطى الفكرى الرئيسى ، وهى كذلك محور يحتاجه الباحث والناقد على السواء .. ويقوم المؤرخ فى هذه الحالة بدور الناقد أولا .. يسبق فيه دور الراصد العلمى للظاهرة ، وتبدو دقة التعامل النقدى مع الظواهر الأدبية فى مجال المقارنة بين آرائه وآراء سابقيه ، أو معاصريه فيها ، وقد استطاع أن يعلم تلاميذه منهجه التاريخى النقدى المعتمد على استقراء واستقصاء للفكرة من جميع جوانبها ، ووقوف عى كل ما قيل حولها . ثم محاولة الوصول إلى الرأى الفصل فيها .. أو الأقرب إلى المنطق والمعقول بدلالة التاريخ والأحداث . وقد استطاع بهذا التحليل العلمى إثبات « نقد النثر » لصاحبه ابن وهب بعد أن وقر طويلاً فى الأذهان نسبته لقدامة .

ولقد كانت فكرة « الأصالة » و « المعاصرة » من الأفكار الرئيسية التى شغلت أستاذنا فى تتبعه لتاريخ الأدب العربى .. منطلقًا من « العلم » بدقائق الأخبار

(١) العصر العباسى الأول : دار المعارف ،الطبعة السابعة . ص ٣٨٢ .

وتفصيلاتها .. نجده يضع تصوره فى مقدمة دراساته فى «العصر الإسلامى» .. ويوضحها فى مقدمة « العصر العباسى الأول » :

« وقد بسطت القول في ازدهار الشعر العربي حينئذ ازدهاراً رائعًا ، إذ أكب الشعراء على العربية يتقنونها ويتمثلون ملكتها تمثلاً دقيقًا ، ناقدين بذوقهم المتحضر إلى أسلوب مصفي ، يجمع حينًا بين الجزالة والرصانة ، وحينًا يجمع بين الرقة والعذوبة ، وكان تأثرهم عميقًا بالثقافات المترجمة ، بما كانوا يستمعون إليه من محاورات المعتزلة ، مما أثار فى عقولهم ونفوسهم كثيراً من المعانى والخواطر التى لا تكاد تحصى ، ودفعهم إلى التطور بموضوعات جديدة بما نفذوا إليه من تحليل المعاني والملاءمة بين أشعارهم وبيئاتهم المتحضرة وحياتهم اليومية ، وفتحوا صفحة لم تكن تخطر لأسلافهم على بال ، هى صفحة الشعر التعليمى ، الذى صاغوا فيه من المعارف والتاريخ والأمثال والقصص الحيوانى منظومات طريفة ، واكتشفوا للشعر أوزانًا لم تكن معروفة ، وأنماطًا من القوافى كانت مجهولة » [(١)] .

وفى أكثر من موضع تبدو ظاهرة « الموسوعية » فى العلم بعلوم العربية وتاريخها جلية واضحة ، يحدثك عن « مزاج هذا العصر » The spirit of the age وهو ملم بأكثر أرجائه ، محيط بكثير من دقائقه .. وتآليفه فى علوم العربية المختلفة ، ويحدثك عن الظاهرة الأدبية حديث الخبير بفنونها المضطلع بعبء التفكير فى دقائقها ، ويستشهد بشعر شعرائها فيبدو ملما بأدق خصائصه وأدق قصائده ومقطوعاته الأصلية أو الدخيلة .

وبالإضافة إلى المقتطع السابق من مقدمة « العصر الأول » تأمل معى هذا المقتطف من مقدمة « العصر العباسى الثانى » :

« وصورت نشاط الشعر حينئذ ، وكيف تمثل الشعراء خصائص العربية ودقائقها الجمالية والموسيقية تمثلاً تامًا ، وكيف أودعوا أشعارهم ذخائر فكرية غزيرة ،

---

(١) العصر العباسى الأول : ص ٥ من المقدمة . الطبعة السابعة .

مما جعلهم يجدون فى الموضوعات القديمة والأخرى المستحدثة فى العصر العباسى الأول صوراً مختلفة من التجديد ، تحفل بما لا يكاد يحصى أو يستقصى من الأفكار المبتكرة والأخيلة المبتدعة ، وظلوا ينمون الشعر التعليمى ، وينظمون فيه التاريخ وغير التاريخ من صنوف المعرفة » [1] .

وهذا التمثل الدقيق لما هو « أصيل » وما هو « معاصر » فى التراث أمر يحتاج إلى تمثل واع بمدلول الأصالة ، ومدلول المعاصرة فى ارتباطها بالمتغير الزمنى .. وأثر « الزمانية » فى تحويل « المعاصرة » إلى أصالة .. وفى « تأصيل » الموروث . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فى ظواهر المعاصرة « المضمونية » و « البنائية » .. أى الداخلة فى إطار المغنى ، أو الداخلة فى إطار الشكل ، وقد حدث فى كلا الإطارين تغير يتيح الفرصة للوقوف على « الثابت » و « المتغير » فى كل عصر من عصور الأدب العربى . ومن هنا فإن « المعاصرة » إذا ما اتفقنا على ارتباطها « بالحداثة » معنوياً ، متغير مرتبط بالزمانية .. أى لا يستقل بمعزل عنه . وهى فكرة أدركها أستاذنا الدكتور شوقى ضيف ، وانتقل بها من نطاق التعامل النظرى – غير المجدى أحيانًا – إلى نطاق التعامل التطبيقى . ورأى من خلالها حركات « الثبوت » و « الانتقال » من عصر لعصر .. فى تعاقب متتابع يحتاج إلى بصيرة نافذة وعلم مدقق . وهو ماهيأ له أيضًا الوقوف على الظواهر الشعرية الفردية فى « الشخصيات الأدبية » بصفة خاصة .

المبدع والنص :

رأينا أن علاقة الدراسة الأدبية بظواهر بيئتها علاقة متكاملة عند أستاذنا الدكتور شوقى ضيف ، تنبع من تقدير كامل لعناصر المكونات الرئيسية فى بنية العلم الأدبى .. التى تبع فى الأصل من اتصال المبدع المستوثق من علاقته الحميمة بالبيئة ومتغيراتها المختلفة ، ولذلك كان عكوف الكاتب على البيئة ، لا ينبع من رغبة توسعية فى الدراسة

---

(١) العصر العباسى الثانى : المقدمة – الطبعة الثالثة . ص ٥

دون مبرر – شأن كثير من الدراسات التى تميل إلى سرد ما سبق سرده فى الدراسات والأبحاث ونحوها – ولكن من رغبة « إيضاحية » لعناصر تكوين « الرؤية » المتكاملة من « روح العصر » The spirit of the age ، واكتشاف « روح العصر » منبئ بالحتم عن « روح النص » والمبدع .

نموذج أمامنا من « العصر الجاهلى » يمثل « التنقيب » العلمى ، والكشف » عن عناصر التكوين الرئيسية للحياة الجاهلية .. تطمئن إلى آراء ، وتفزع إلى أخرى ، وتنفر من ثالثة .. فهى فى عناصر الاطمئنان مكونة لصورة المجتمع لهذا العصر بشعبه – أو شعوبه – وإماراته وأحوال المجتمع وعقائده ، ولغته وشعره وشعرائه .. وهى تكاد تنتشر من العام – عنصر المكان – إلى درجة أقل عمومية وأكثر تخصيصاً – عنصر الزمان – إلى درجات تتابع فى التخصص لتنتقل إلى الحياة ، فاللغة ، فالشعر ، فالشاعر .. فى تدرج هرمى تبدو « الجزيرة العربية » قاعدته . وعلى قمته « الشاعر » .. كجزء تتكاثف العناصر مجتمعة لتكوين قمته .

وهذا التنوع المفسر لعناصر الدراسة ينسحب بالتالى على عناصر تكوين « النص المبدع » المنتقل من « تكونات الشاعر » إلى « النص » وما نجده متابعاً من عناصر تكوينه من معطيات : القبيلة – الأسرة – الشاعر – الديوان – الشعر .

نجد هذا فى تعامله مع امرئ القيس ، والنابغة الذبيانى ، وزهير بن أبى سلمى ، والأعشى [1] . وهذه عناصر أيضاً لا تغفل فى تناول الظواهر الأدبية المصاحبة لكل عصر وجيل . (هذا المنهج يعنى ضمناً أن النص لا يفسر بمعزل عن مبدعه الذى هو الواسطة بين النص وعصره .. مع ملاحظة أن منهج البنائية Structuralism على الرغم

---

(١) انظر : العصر الجاهلى : د . شوقى ضيف . دار المعارف . وانظر : بحث د . كمال أبو ديب مجلة فصول . المجلد الرابع ، العدد الثانى ' يناير– فبراير– مارس ١٩٨٤ ، ص ٩٢ بعنوان « نحو منهج بنيوى فى تحليل الشعر الجاهلى : معلقة امرئ القيس – الرؤية الشبقية » .

وقد أشرنا فى دراسة سابقة إلى ضرورة الأخذ « بالتفسير الأدبى للأدب » والعودة « بالنص » لمكانته الطبيعية بعد أن ضاع فى خضم التفسيرات النفسية والتاريخية والاجتماعية والحضارية والعلمية ونحوها . انظر : مقدمة « المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث » د . حلمى بدير ، دار المعارف ، ١٩٨٢ .

من رفضه صلة النص ببيئته وبالتبعية مبدعه ، فإنه يستقى تفسيره من معرفة مسبقة بالنص والمبدع ، وهى خلفية تدخل فى مجال معارف الناقد .. ماذا يمكنه أن يتناول فيه) ؟! .

ويبدو هذا بصورة أوضح وأكثر تكاملية فى دراساته للبارودى ، وشوقى ، وابن زيدون ، وهم الذين أفرد لهم دراسات خاصة بين شعراء العربية فى القديم والحديث .

وهو يلخص فى البارودى صفة « الرؤية الشمولية » المتكاملة فى منهجه التاريخى النقدى ، حيث ينطلق فى دراسته من العصر والسيرة إلى الشعر والمنزلة الشعرية .. ونحن نتخيل طبيعة التتابع فى انطلاق الشعر – ككائن حى – من العصر مروراً بالسيرة ، وهذه محققة لمعادلة : البيئة – الشاعر – النص . وقد يميل البعض إلى تسميته بالمنهج الاجتماعى فى تفسير النص ، أو عوامل التأثير البيئية ، أو نحوها من كليشيهات ، تتفق أو تختلف .. تظلم « النص والمبدع » أكثر مما تنصفهما .. ونحن فى مجال « التقييم » evaluation . والمعتمد على الاعتداد « بالنص » .. وليس « بالمبدع » و« البيئة » إلا من حيث علاقتهما به .. ومن هنا تصبح « القيمة النصية » نابعة من عوامل اجتماع هذه الروافد المؤثرة فيه ، وفى تكوينه « البنائى » [1] .

ثانياً : الدراسات النقدية :

يقدم الدكتور شوقى ضيف عدداً آخر من الدراسات النقدية التى تبدأ من المنطلق النقدى العلمى لا من المنطلق التاريخى التتبعى فحسب .. وهذه الدراسات تميل إلى تعقب الظواهر المتميزة ، إما لمرحلة من مراحل تطور الأدب « التطور والتجديد فى الشعر الأموى » ، أو لظاهرة فى الشعر والنثر فى عصور الأدب العربى المختلفة . « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » و« الفن ومذاهبه فى النثر العربى » . أو « الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور » ، أو فى عصر منه « الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية » .

---

(١) انظر الهامش السابق .

ولعل الوقوف عند دراسة منها يمكن بها الكشف عن عنصر « الرؤية الشمولية » المتكاملة ، والتى لم تعد تتوفر عند كثير من الباحثين من تلامذته أو تلامذتهم . حيث تميل « روح العصر » والجيل الحديث منه إلى ما يعرف « بالتخصص الدقيق » .

فدراسة حول « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » دراسة شاقة ، قد لا يستطيع الاضطلاع بها باحث من الباحثين المحدثين .. الذين وجدوا فى « التخصص الدقيق » مهربًا مريحًا من مشقة موسوعية القراءة .. وعادة ما يقتصر التخصص الدقيق على متابعة كتب أو كتيبات محدودة العدد والقيمة .. أما « الفن ومذاهبه » فعلاقة حميمة بين الدارس وتراثه العربى جميعًا بعصوره الجاهلية ، والإسلامية ، والأمومة ، والعباسية ، والعصر الوسيط أيضًا فى مصر والأندلس ، وهو العصر المنتهى ببداية العصر الحديث . شاملاً الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين .

والدراسة تشتمل على ثلاثة كتب : الأول ويتناول عنصر : الصنعة ، والتصنيع ، ويستخدم لهما اسم « مذهب » ، ومنه ينتقل إلى مذهب التصنع فى الكتاب الثانى ، ثم ينتقل فى الكتاب الثالث إلى المذاهب الفنية فى الأندلس ومصر ، ومن هنا فإن رؤيته الشمولية للأدب العربى تنبع من زاوية الكشف عن عناصر « مذهبية » فى فن الشعر . وهو ينطلق من نظرية نقدية عربية خالصة ، بدت واضحة فى نماذج معروفة فى التراث العربى جميعًا ، بدءًا من زهير بن أبى سلمى فى مذهب الصنعة ، وأبى تمام فى مذهب التصنيع ، والمتنبى فى مذهب التصنع ، وهو يجد فى هذه المذاهب « مراحل » مر بها الشعر العربى جميعًا حتى عادت وتمثلتها مدرسة البعث تمثلاً جيداً عند البارودى خاصة .. ولكنه لا يجد فى حركات التجديد الحديثة أملا يرتجى .. لعدد من الأسباب : لزعمها التماس « النموذج الغربى » وهى لم تلتمسه أو تتعمقه ، ولبعدها عن « النموذج العربى » الذى لم تستطع الاقتراب منه وتمثله .. « وليس من شك فى أنه حين ينظم الاتصال بين شعرائنا المعاصرين ، وبين المذاهب الفنية القديمة ، التى وصفناها من صنعة وتصنيع وتصنع ، كما ينظم بينهم وبين الفن الغربى وطرائقه ، فيقبلون على تعمق أصول الصناعة الفنية عند العرب ، كما يقبلون على تعمق المناهج الفنية

والفلسفية عند الغرب ولا يكتفون بذلك . بل يتجهون شطر المشرق فيطلعون على آداب الفرس والترك والهند والأمم الشرقية الأخرى ، ولكن لا ليستعيروا وينقلوا ، أو يترجموا ، بل ليتفاعلوا ويستوعبوا ، ويعبروا عن شعورهم وسرائرهم تعبيراً لهم مادته وصورته ، وما فيه من معارض التفكير ومنازع الوجدان . حينئذ تجد قافلة التجديد طريقها الذى أخطأته ، ودليلها الذى ضلته »[1] .

وقد تبدو « الرؤية الشمولية » المتكاملة لتاريخ الأدب العربي متمثلة في عدد كبير جداً من الجزئيات ، التى لا تستطيع بعض الأبحاث الزاعمة تخصصها الدقيق استيعابها .. بل لعل تمثل جزئيات « الرؤية » يبدو واضحًا منذ البدايات الأولى لدراساته .. « فالنقد فى كتاب الأغانى » الذى كان موضوع رسالته للماجستير أوجد عدداً من الصلات الوثيقة بينه وبين شعراء « الأغانى » جميعًا من خلال تتبعه لأحكام « الأصفهانى » وغيره النقدية التى رويت فيه . وهى رؤية تستثمر بعد ذلك بوضوح فى جزئيات عدة .. وبمعنى آخر فإن علاقات قوية تنشأ من صلات أبحاثه بعضها بالبعض الآخر .. تتمثل فى عدد من العناصر الأولية ، ثم لا تلبث وتتبلور فى أفكار متكاملة .. « الشعر الشعبى » على سبيل المثال عنصر أولى لا يغفله عند عدد من الشعراء ، ثم فى عدد من المراحل .. ولا يلبث أن يصبح موضوعًا متكاملاً مستقلاً « الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور » . وعنصر الصناعة الفنية ومكوناتها لا فى الشعر فحسب ، ولكن فى النثر كذلك .. هى جماع أفكار كثيرة متناثرة اكتملت عناصرها وكونت النظرية الكاملة .. وهذه جميعًا عناصر يمكن من خلالها الكشف عن رؤية أكثر شمولية ، وهى رؤية « النظرية الأدبية » عند شوقى ضيف .

إن أهم ما يلفت نظر الباحث فى دراسات شوقى ضيف الأدبية والنقدية ، إنه أستاذ يعتد كل الاعتداد بعلوم العربية جميعًا .. وهو رائد موسوعى ، عالم مدقق بما تعنيه هذه الصفات من معان .

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربي : د . شوقى ضيف . دار المعارف ، الطبعة العاشرة ، سنة ١٩٧٨ ، ص ٥١٨ .

مختتم :

وبعد .. فقد يبدو من الواضح أن التعامل في مجال « الشمولية » في تاريخ الأدب عند شوقي ضيف قد بين عدداً من الملاحظات الأولية تتمثل في :

– أن « تاريخ الأدب العربي » يمثل منهجًا جديداً غير مسبوق في مجال دراسة تاريخية نقدية علمية أدبية مدققة .. مستوعبة تعكف على عصور الأدب العربي في شعور وحس واع تمامًا بجزئيات حركة الأدب في عصورة المختلفة .. ومن هنا بدت صورة « الرؤية الشمولية » واضحة في جزئياتها المختلفة .

– أن منهج دراسة تاريخ الأدب العربي قد اختلف عن مناهج دراسة الآداب العالمية المختلفة ، التي لا يزيد عمر أي منها على ستة قرون أو يزيد قليلاً ، بينما يمتد عمر أدبنا العربي إلى ما يقرب من سبعة عشر قرنا منذ « مهلهل » . ومن ثم فإن هذا الامتداد قد فرض تقسيمًا نابعًا من المتغير التاريخي لا من المتغير الفني .. وربما تبدو هذه – بالكيفية تلك – مزية .

– أن « الرؤية الشمولية » قد ساعدت على تبين مراحل تطور الأدب العربي ، وتمثل سمات كل مرحلة بوضوح .. فيما يمكن أن يعد تقسمه جديدة لعصوره الأدبية من جاهلية حتى العصر الحديث مروراً بالعصر الإسلامي ، والعباسي ، وعصر الدول والإمارات .. وهي تقسمة فنية رغم ظاهرية ارتباطها بالمتغير التاريخي .

د . حلمي بدير

مدرس الأدب الحديث

كليـة الآداب – جامعة المنصورة

٩ - جهود شوقى ضيف فى الدراسات اللغوية

د . محمود فهمى حجازى

يرجع اهتمام الأستاذ الدكتور شوقى ضيف بعلوم اللغة العربية إلى مرحلة مبكرة من حياته العلمية ، كان تحقيقه لكتاب الرد على النحاة لابن مضاء القرطبى بداية عطائه فى الدراسات اللغوية العربية (١٩٤٧) ، واستمر عمله الجاد تأليفًا وإشرافًا على مدى ثلاثين عامًا ، فظهر كتابه المدارس النحوية (١٩٦٨) ، ثم كانت عضويته فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة (١٩٧٧) بداية جديدة لإعمال الفكر فى قضايا اللغة العربية وتيسير النحو ، ولكل هذه الجهود مكانتها فى تاريخ الدراسات اللغوية فى جامعاتنا العربية .

إن الدكتور شوقى ضيف يمثل الجيل الأول من الأساتذة الجامعيين ، الذين تلقوا تكوينهم حتى الدكتوراه بالجامعة التى نعرفها اليوم باسم جامعة القاهرة ، عرف عدد من المستشرقين وعرف جهودهم العملية فى الدراسات العربية والسامية ، وأفاد من بحوثهم اللغوية فى التاريخ المبكر للعربية فى ضوء اللغات السامية ، ولكن اهتمامه الأول لا يدخل فى إطار اهتمامات المستشرقين بالبحث اللغوى المقارن ، لقد انطلق من التراث العربى ، ومن النظر النقدى فيه فى محاولة جادة للتفكير فى التراث ، وفى نقده ، وفى تقديم اللغة والأدب العربيين إلى جمهور الدارسين ، وبذلك كانت اهتماماته اللغوية فى اتجاهين ؛ أحدهما : تطبيقى وهو يتصل بتيسير النحو وتعليم العربية ، والثانى : تاريخى بحثى يتناول تراث النحو العربى .

أولاً : قضية تيسير النحو وتعليم العربية :

يعد تحقيق كتاب الرد على النحاة لابن مضاء القرطبى (٥١٣-٥٩٢هـ) ، ومدخل الدكتور شوقى ضيف لهذا التحقيق عملين لهما مكانتهما فى إطار قضية تيسير النحو العربى . والواقع أن اختياره لهذا الكتاب ، ومقدمته لهذا الكتاب يعكسان أمرين جديرين بالتنويه :

أولهما : أن تحقيق كتاب فى النحو العربى لم يكن أمرًا مألوفًا فى البيئة الجامعية ، ولا فى البيئات الثقافية الأخرى فى مصر ، لقد بدأت طباعة كتب التراث النحوى العربى فى أوروبا مع بداية عصر الطباعة ، فطبع متن الكافية لابن الحاجب فى روما سنة (١٥٩٢) ، ثم توالت طبعات كتب التراث العربى النحوى فى أوروبا ، ومنا كتاب سيبويه بتحقيق المستشرق الفرنسى درينبور سنة ١٨٨١ ، واشرح ابن يعيش على المفصل بتحقيق يان سنة ١٨٨٢ ، وكتاب الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى بتحقيق فايل ١٩١٣ ، وكاد تيار تحقيق كتب التراث النحوى العربى فى أوروبا يتوقف بعد ذلك . أما فى العالم الإسلامى فقد ساد تيار إعادة طبع الكتب النحوية المحققة ، فطبعت المؤلفات السابقة طبعة ثانية ، وكان لمطبعة بولاق ، ولمطابع القاهرة بصفة عامة دور كبير فى هذا الصدد ، وإلى جانب هذا طبعت عدة كتب كانت متداولة عند طلاب الأزهر والمؤسسات الأخرى المعنية بالدراسات العربية ، أكثرها شروح على ألفية ابن مالك ، وهذه الطبعات التجارية تتسم فى أحسن الأحوال بتقديم نص يصلح للطلاب ، ولكنها فى الأغلب الأعم لم تكن طبعات محققة ، وفى هذا الإطار يعد تحقيق الأستاذ الدكتور شوقى ضيف لكتاب ابن مضاء من بواكير الجهود الجامعية المصرية فى تحقيق كتب التراث النحوى العربى .

وثانيهما : أن تقديم فكر ابن مضاء ارتبط فى البيئات الثقافية فى مصر بقضية تيسير النحو لأغراض تعليمية ، وهى قضية بدأت فى العصر الحديث مع رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٢م) بكتابه « التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية » ، وهو كتاب توسل فيه صاحبه بالجداول لعرض القواعد ، ثم تتابعت محاولات التلخيص والتأليف المدرسى ، وأشهرها جهود حفنى ناصف وزملائه فى كتاب « قواعد اللغة العربية » بمراحلة المختلفة ، ثم جهود على الجارم ومصطفى أمين فى كتابهما النحو

الواضح بأجزائه المتكاملة ، وقد بدأت القضية تتخذ أبعادا جديدة عندما شغل إبراهيم مصطفى فى محاضراته الجامعية بالنظر فى موضوع الإعراب ، فكان كتابه « إحياء النحو » بداية نظر جديد ، كانت قضية العامل المحور الذى رأى فيه إبراهيم مصطفى جوهر المشكلة ، فرأى إلغاء نظرية العامل ، وفى نفس الفترة الزمنية نجد وزارة المعارف تحاول الإفادة من المؤسسات الجديدة المعنية باللغة العربية ، وفى مقدمتها مجمع اللغة العربية بالقاهرة . لقد طلبت وزارة المعارف فى عهد وزيرها بهى الدين بركات باشا (١٩٣٨) تيسير النحو ، فقامت لجنة برئاسة الدكتور طه حسين بإعداد مقترحاتها فى هذا الصدد ، وقدمتها إلى الجهات المعنية ، ثم ناقشها مجمع اللغة العربية فى القاهرة (١٩٤٥) ، وعرضت على المؤتمر الثقافى الأول الذى اجتمع فى لبنان (١٩٤٧) . وفى هذا الإطار وجد تحقيق كتاب الرد على النحاة لابن مضاء ، ومقدمة الدكتور شوقى ضيف له البيئة الثقافية الطامحة نحو التجديد ، ولكنها كانت تود أن تجد لهذا التجديد أصوله التراثية أيضًا . إن نشر هذا الكتاب أعاد فكرة إلغاء العامل إلى ابن مضاء ، وبقى فى كتاب إبراهيم مصطفى الكثير ما يعد اجتهاداً منه ، وإضافة له .

لقد أخرج الدكتور شوقى ضيف كتاب « الرد على النحاة » محققًا فى نحو ثمانين صفحة مع دراسة فى نحو ثمانين صفحة أيضًا . وانتهى فى آخر هذه الدراسة إلى رأى قرره بقوله : « إننا حين نطبق على أبواب النحو ما دعا إليه ابن مضاء من منع التأويل والتقدير ، فى الصيغ والعبارات ، كما نطبق على هذه الأبواب ما دعا إليه من إلغاء نظرية العامل ، نستطيع أن نصنف النحو تصنيفًا جديداً يحقق ما نبتغيه من تيسير قواعده تيسيراً محققًا ، وهو تيسير لا يقوم على ادعاء النظريات ، وإنما يقوم على مواجهة الحقائق النحوية ، وبحثها بطريقة منظمة لا تحمل ظلمًا لأحد ، وإنما تحمل التيسير من حيث هو حاجة يريدها الناس إلى النحو العربى فى العصر الحديث » .

وهنا نجد شوقى ضيف يسهم برأيه فى التجديد مع توثيق هذا الرأى بالأصول التراثية ، فيقدم لتحقيقه لكتاب ابن مضاء مقدمة مفصلة لم يقتصر فيها على التعريف بالمؤلف وبفكره النحوى ، بل نظر – أيضًا – فى الانطلاق من هذا كله إلى بيان حاجة

النحو إلى تصنيف جديد . ويقوم هذا التصنيف على مجموعة من الأسس العامة :

١ - الانصراف عن نظرية العامل .

٢ - منع التأويل والتقدير فى الصيغ والعبارات .

٣ - عدم إعراب الكلمة ما دام إعرابها لا يفيد شيئًا فى صحة النطق .

وهذه الأسس تتكامل مع الأساس الرابع الذى أضافه بعد ذلك .

٤ - (استنباط) ضوابط سديدة أو دقيقة للأبواب بحيث تتبين الناشئة أوضاعها ووظائفها فى التعبير تبينًا تامًا .

وظلت هذه الأسس مجالاً للحوار والمناقشة ، ومجالاً للتفكير والنقد فى محاولات تيسير النحو منذ تلك الفترة .

لقد استمر العطاء العلمى للدكتور شوقى ضيف متصلاً فى مجال النحو ، وفى غيره من المجالات الأدبية واللغوية ، وعندما عقدت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فى الرياض (١٩٧٧) ، ندوة متخصصة لبحث وسائل تطوير إعداد معلمى اللغة العربية فى الوطن العربى ، كان الدكتور شوقى ضيف أحد أعلام الباحثين فى هذه الندوة ، فقدم بحثًا موضوعه : « الدراسات اللغوية والنحوية والأدبية » فى إعداد معلمى العربية ، وأعد فى نفس الفترة بحثه فى « تيسير النحو » وقدمه فى دورة مجمع اللغة العربية فى القاهرة (١٩٧٧) ، وكلا البحثين عرض جديد لفكر جاد فى قضايا تعليم العربية ، وإعداد معلميها .

إن الفرق الأساسى بين فكره أثناء تحقيق الرد على النحاة والتقديم له - وهى فترة سادتها عند دعاة التجديد فكرة إلغاء العامل ، وفكره فى السنوات الماضية يكمن فى نظرته إلى اللغة ، حيث لم تعد القضية تقتصر على كيفية الإعراب ووسائل التعبير عنه ، ولكنها قضية اللغة فى أبعادها الصوتية والصرفية والنحوية ، الجديد فى بحثه الخاص بإعداد معلمى العربية تأكيد واع لأهمية الجانب الصوتى فى إعداد المعلم وفى

ممارسة اللغة . لا يقتصر الزمر على نطق الأصوات المفردة ، بل يتناول – أيضًا – ظواهرها السياقية ، ومنا قضية الوصل والقطع ، وفى هذا البحث تأكيد لأهمية الجداول الصرفية ، وما ينبغى لمعلم العربية أن يتقنه اعتمادًا عليها ، ولعل من أهم ما ورد فى هذا البحث ذلك النظر الجديد فى العلاقة بين النظرية والتطبيق فى تعليم النحو ، وهنا نجده يطالب بأن يكون تدريس النحو قائمًا – فى المقام الأول – على تلك التدريبات الهادفة إلى تكوين سليقة لغوية عربية ، فإذا كان للنحو ثلاث ساعات أسبوعيًا جعلت محاضرة للنحو النظرى ، ومحاضرتان للتطبيقات النحوية ، وهكذا نجد فى هذا البحث تعاملاً مع اللغة فى أبعادها الحية المتكاملة وتوجيها نحو الممارسة اللغوية ، فى حين أننا نجد فى بحثه « تيسير النحو » تصورًا فكريًا للنحو الميسر المقترح .

ثانيًا : التأريخ لمدارس النحو العربى :

للدكتور شوقى ضيف دور كبير فى توجيه الدراسات الجامعية ، نحو الاهتمام بالتراث النحوى العربى . لقد أثار تحقيقه لكتاب « الرد على النحاة » (١٩٤٧) اهتمامًا بالتراث النحوى ، فبدأت البحوث الجامعية فيه . تتضح هذه الحقيقة من النظر فى اتجاهات الرسائل الجامعية قبل هذا التاريخ وبعده ، فقد أجازت كلية الآداب بجامعة القاهرة (حتى ١٩٤٧) اثنتى عشرة رسالة للدكتوراه فى الأدب العربى ، ولم تمنح درجة دكتوراه واحدة فى النحو العربى ، أما رسائل الماجستير فضمت ٣٤ رسالة فى الأدب العربى فى مقابل ثلاث رسائل جامعية فى الدراسات اللغوية العربية ، واحدة منها فقط فى التراث النحوى العربى ، وهى رسالة محمد على القصاص [1] وموضوعها : « ابن جنى وفلسفته اللغوية » (١٩٣٩) . لقد بدأ اهتمام جديد ببحث التراث النحوى ، وأجيزت بجامعة القاهرة بعد عام ١٩٥١ سلسلة من الرسائل الجامعية

---

(١) هو أستاذنا الدكتور محمد القصاص أستاذ ورئيس قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب جامعة عين شمس .

تناولت : القرآن والنحو ، والخليل بن أحمد ، وسيبويه ، وثعلب ومدرسة الكوفة ، والزجاجي ، والرماني ، والفارسي ، وأبا حيان ، وكأن هذا الاهتمام الجامعي الجديد بالبحث في التراث النحوى العربي قد بدأ بعد صدور كتاب الرد على النحاة . وكثير من هذه الرسائل كان بإشراف الدكتور شوقى ضيف بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

وفي هذه الفترة (١٩٤٧ - ١٩٦٥) كان اهتمام الدكتور شوقى ضيف بالتراث النحوى لعربى سمة مميزة له ، ولمجموعة من الباحثين بإشرافه .

أراد التاريخ للنحاة والتعريف بجهودهم وباتجاهاته فألف كتابه « المدارس النحوية » ، فأخذ يؤلف هذا الكتاب أثناء عمله أستاذاً معاراً إلى الجامعة الإردنية فى العام الجامعى ١٩٦٥ - ١٩٦٦ وانتهى منه في يناير ١٩٦٨ ، ومكان هذا الكتاب فى موضعه جدير بالبيان ، هو أول كتاب حديث بالعربية فى المدارس النحوية لم يسبق فى موضوعه إلا بكتاب المستشرق الألمانى فايل عن المدارس النحوية عند العرب ، وهذا الكتاب نشره فايل (١٩١٣) مقدمة لتحقيقه لكتاب الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنبارى ، إن الفرق واضح بين الكتابين ، أقام فايل كتابه على فكرتين متقابلتين هما منهج القياس على المطرد عند البصريين ، ومنهج القياس على الشاذ عند الكوفيين ، وعرض لتطور المدرستين ، وأوضح أهمية ابن الأنبارى ومكانة كتابه الإنصاف . وظل كتاب فايل بالألمانية العرض الوحيد لهذا الموضوع ، إلى أن ظهر كتاب شوقى ضيف بمادة عربية أوسع ، وعرض شامل ، ورؤية مستوعبة تضم الجزيئات النحوية المتفرقة ، فإذا بها تنتظم في اتجاهات واضحة . وإذا كان شوقى ضيف قد عرف جهد فايل فإنه قد استطاع تجاوزه ونقده في كثير مما ورد فيه ، ولا سيما فيما يتعلق بمدرسة الكوفة وعلاقتها بالنحاة المبكرين .

لقد عرض شوقى ضيف لتأريخ المدارس النحوية ، منذ نشأة التفكير فى النحو العربي وارتبطت عنده هذه النشأة بالعامل الديني ، ويتمثل في الحرص الشديد على أداء نصوص القرآن الكريم أداء فصيحًا سليمًا ، وبالعامل اللغوى القومى فى مواجهة الإختلاط بالأعاجم ، وبرغبة المستعربين الجدد فى تعلم العربية ، وبهذا وضع

شوقي ضيف قضية نشأة النحو العربي في إطارها اللغوي الاجتماعي الصحيح ، وتجاوز بهذا آراء سائدة تجعل وضع النحو من عمل أبي الأسود بأمر من علي بن أبي طالب ، إن شوقي ضيف يثبت لأبي الأسود جهوده في إضافة النقط الدالة على حركات الإعراب ، وهذا عمل جليل في ضبط النصوص ،ولكن ثمة فرقا بين ضبط النص وتحليل بنيته اللغوية .

إن محاولته التأريخ للمدارس النحوية العربية ، قامت على أساس الآراء الواردة في كتب النحو لا على أساس الأقاصيص التي تضمها كتب الطبقات والتراجم . وبذلك اتخذ النحاة المبكرون الذين وردت آراؤهم في كتاب سيبويه أماكنهم الصحيحة ، وفي مقدمتهم ابن أبي إسحق الحضرمي (المتوفى ١١٧هـ) ، وعيسى بن عمر الثقفي (المتوفى ١٤٩هـ) ، وأبو عمرو بن العلاء (المتوفى ١٥٤هـ) ، ويونس بن حبيب (المتوفى ١٨٢هـ) ، وإعادة الاعتبار إلى هؤلاء جميعًا جهد علمي مشكور قام على جمع آرائهم المتناثرة ، وبحثها وإيجاد السمات المنهجية فيها .

وهذا أيضًا شأن الخليل ودوره في إقامة صرح النحو والتصرف ، فإذا كنا لا نعرف اليوم كتابًا نحويًا من تأليف الخليل فإن آراءه التي وصلت إلينا عند سيبويه أثبت بها شوقي ضيف مكانة الخليل في البحث الصرفي والنحوي ، وفي هذا الصدد كان ثمة اهتمام بالمصطلحات التي دارت في تلك المحاورات ، بين الخليل وسيبويه وفيها تكونت المصطلحات النحويه أو كادت ، وأثبتت متابعة آراء الخليل أصالته في البحث الصرفي ، ففكرة الميزان الصرفي وما لها من أساس منهجي وتطبيقات صرفية ، ومعجمية ترجع إلى الخليل ، ولولا هذا الميزان لما قام البحث في بنية الكلمة العربية واللغات السامية . إن نظرية العامل النحوي – على الرغم من كل ما أثير في نقدها – تعد من أهم محاور التحليل النحوي عند الخليل ، أما أصول السماع والتعليل والقياس عند الخليل ، فقد خصها شوقي ضيف بعرض تحليلي واضح .

وما نكاد نصل إلى الفصل الخاص بسيبويه حتى نجد بحثًا في الكتاب وفي المنهج النحوي . في هذا الفصل نجد فكرة العامل النحوي التي وضع الخليل أصولها تصبح

عند سيبويه أساسًا عامًا فى تحليل الجملة العربية . وتناول شوقى ضيف - أيضًا - قضايا السماع والتعليل والقياس عند سيبويه . ولعل من أهم ما تضمنه الفصل الخاص بالأخفش وتلاميذه أنه هو الذى فتح للكوفيين أبواب الخلاف على سيبويه وأستاذه الخليل حتى أصبح بحق الأستاذ الحقيقى لنحاة الكوفة ، وقد أقام شوقى ضيف هذا الرأى بعد أن جمع آراء الأخفش من مئات المواضع فى كتب النحو فى وقت كان فيه كتاب « إعراب القرآن » للأخفش فى حكم المفقود (١) .

لقد اعتمد شوقى ضيف فى إقامة الكثير من فصول كتابه على آراء النحاة المتاحة فى الكتب النحوية الموسوعية ، صنع هذا فى بحثه لأعلام ، أشادت بهم كتب الطبقات وأمهات كتب النحو ، لم تصل إلينا كتبهم على نحو مباشر ، وتصدق هذه الملاحظة على قطرت وأبى عمرو الجرمى ، وهشام بن محمد الضرير ، وتصدق إلى حد كبير على الكسائى ، فهؤلاء جميعًا لم تصل إلينا كتبهم النحوية ، لقد أعد شوقى ضيف كتابه فى المدارس النحوية فى وقت عزت فيه المصادر المباشرة لآراء الكثير من النحاة ، فكان عليه أن يعود بين الفينة والفينة إلى مخطوط « المقتضب » للمبرد أو إلى مخطوط « شرح السيرافى على سيبويه » ، واستطاع بهذا كله أن يعرض لمدارس النحو العربى وأن يرسم لها صورة واضحة الملامح .

لقد خصص شوقى ضيف القسم الثانى من كتابه للمدارس الكوفية ، وكما ابتعد عن الاعتماد على الروايات المتداولة فى كتب الطبقات عن موضوع نشأة النحو العربى ، واعتمد على كتب النحو نفسها ، فإنه ابتعد أيضًا عن القول بأن أبا جعفر الرؤاسى ومعاذا الفراء ، قد أسسا مدرسة الكوفة ، ولهذا فإن النحو الكوفى بالمعنى الدقيق للكلمة بدأ تاريخه من الكسائى والفراء . لقد اهتم شوقى ضيف فى دراسته للمدرسة الكوفية ببيان مصطلحاتها النحوية ، واستخرج طائفة من هذه المصطلحات ، مثل : مصطلح (الخلاف) الذى جعلوه عاملاً معنويًا لنصب الظرف إذا وقع خبرًا ، ومصطلح الظرف (= المفعول معه) ، والتقريب (= اسم الإشارة هذا) ،

---

(١) حققه تلميذنا النابه الدكتور فارس الحمد ، فى رسالة جامعية بكلية الآداب جامعة القاهرة ، عام ١٩٧٨ .

والفعل الدائم (= اسم الفاعل) ، والمكنى والكناية (= الضمير) ، والترجمة (البدل) ، والتفسير (= التمييز) . وأثبت بعد هذا كله أهم سمتين اتسمت بهما المدرسة الكوفية ، وهما : الاتساع فى الرواية ، والإتساع فى القياس ، وهذا الاتساع فى وقت كان العمل النحوى فيه هادفًا إلى المعيارية ، والتقنين جعل الدكتور شوقى ضيف يصف الكوفيين ، بأنه يدل على نقص فهمهم لما ينبغى للقواعد العلمية من سلامة واطراد .

عرض كتاب المدارس النحوية أيضًا لاتجاهات النحاة العرب بعد هذه الفترة ، وخصص الباب الثالث كله لمدارس مختلفة ، وهى المدرسة البغدادية ، والمدرسة الأندلسية ، والمدرسة المصرية . وهو فى هذا كله يعتمد على ما تناثر لأعلام هذه المدارس من آراء نحوية فى كتب النحو الجامعة . كان يضم هذه الجزئيات ، فإذا هى تنتظم على يديه فى اتجاهات واضحة ومتميزة . وهكذا قدم الأستاذ الدكتور شوقى ضيف عرضًا علميًا لمدارس النحو العربى بين دفتى كتاب واحد .

إن الدكتور شوقى ضيف أحد أعلام الدراسة الأدبية ، وله أيضًا تلك الإسهامات الواضحة فى الدراسات اللغوية ، لا تقتصر مكانته على تلك البحوث التى كان لها أثرها البعيد فى توجيه الباحثين إلى التراث النحوى العربى تحقيقًا ونقدًا ، فهو - أولاً وقبل كل شئ - أستاذ جيل - تدين له الجامعات العربية بنخبة من أساتذتها تتلمذوا عليه ، ونهلوا من علمه وخلقه .

أ . د. محمود فهمى حجازى

أستاذ علم اللغة

كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٠ - جهود الدكتور شوقي ضيف في تيسير النحو العربي

د . إيمان السعيد جلال

تستمد جهود الدكتور شوقي ضيف في تيسير النحو العربي قيمتها من قيمة صاحبها ، باعتباره رائداً من رواد الدرس اللغوي من ناحية ، وتستمد أهميتها من أهمية موضوعها وخطورته بعد أن أصبح النحو العربي عصيًا تزداد مشكلته تعقيداً يومًا بعد يوم .

وقد قضى الدكتور شوقي ضيف سنوات طويلة من عمره المديد في خدمة لغتنا العربية ، وتتابعت إسهاماته في مجال تيسير النحو ، وتماسكت حلقاتها منذ بدأ اهتمامه بقضيته في أربعينيات القرن العشرين حتى اليوم .

ومحاولات تيسير النحو العربي ليست حديثة ، بل إن عمرها يكاد يساوي عمر النحو العربي نفسه ، والمكتبة اللغوية حافلة بأسماء مختصرات أئمة النحو التي بسطوا فيها النحو للناشئة .

وفي العصر الحديث تتابعت - في حذر - محاولات التيسير لكنها لم تتجاوز إطار المحاولة ، إذ إن معظمها وجه إليه النقد إما لشدة اختزالها ، أو لتزيدها في إدخال الفروع بجانب الأصول ، أو لأنها تمس ثوابت اللغة ، أو لغرابة تنسيقها .

وقد بدأ إسهام الدكتور شوقي ضيف سنة ١٩٤٧ عندما أخرج للنور كتاب ابن مضاء القرطبي " الرد على النحاة " وفيه ثورة عنيفة على النحو العربي كما وصل إليه حالة في القرن السادس الهجري . كما ضمنه ابن مضاء منهجاً دقيقًا لتيسير النحو وتبسيطه .

وجاءت مقدمة المحقق الدكتور شوقي ضيف في عدد من الصفحات يساوى عدد صفحات الكتاب نفسه ، عرض فيها تصوره لتصنيف النحو تصنيفًا جديداً تتضح فيه أهدافه التعليمية ، استند فيه إلى آراء ابن مضاء ، كما أفاد من بعض محاولات التيسير الحديثة السابقة عليه ، بخاصة مقترحات لجنة وزارة المعارف سنة ١٩٣٨ .

ويقوم تصنيفه على ثلاثة أسس :

١ - إعادة تنسيق أبواب النحو (بحيث تدمج الأبواب الفرعية في الأبواب الرئيسة دون حذف) .

٢ - إلغاء الإعراب التقديرى والمحلى .

٣ - الإعراب لصحة النطق (فلا يشغل الناشئة بإعراب ما لا يفيدهم إعرابه فى النطق) .

وواصل الدكتور شوقى ضيف جهوده ، فقدم لمؤتمر مجمع اللغة العربية سنة ١٩٧٧ مشروعًا لتيسير النحو للناشئة ، أقامه على الأسس الثلاثة السابقة ، وأضاف إليها أساسًا رابعًا هو :

٤ - اقتراح ضوابط وتعريفات دقيقة لبعض أبواب النحو .

وأحال المؤتمر المشروع على لجنة الأصول بالمجمع التى ناقشته وأقر مؤتمر المجمع سنة ١٩٧٩ الشطر الأكبر منه .

ولأن القضية تشغله فقد عاد الدكتور شوقى ضيف ليستكمل أسس التصنيف الجديد للنحو ، فأضاف أساسين جديدين رأى أنهما ينقصان مشروعه ، ضمنهما بحثًا له بعنوان " تيسير النحو " نشر بمجلة المجمع فى ١٩٨١/٥ ، وهما :

٥ - حذف زوائد وعقد كثيرة تعوق إساغة الناشئة للنحو .

٦ - إدخال إضافات متنوعة استكمالاً لنواقص ضرورية .

وفى عام ١٩٨٢ قدم الدكتور شوقى ضيف كتابه " تجديد النحو " الذى يعد ثمرة

جهوده الطويلة فى صياغة مشروع دقيق ومنضبط لتيسير النحو العربى يقوم على التبسيط دون الترخص أو التساهل فى ثوابت اللغة أو مقوماتها أو أوضاع أبنيتها وصياغاتها المحكمة .

ويعد الكتاب محاولة متميزة لتجديد النحو وتقريبه لدراسية وتذليل صعابه لهم . وهو كتاب مرتب ومفصل ، عمل صاحبه على أن يكون منهجه وتبويبه ومادته مرجعًا يعود إليه مؤلفو كتب النحو التعليمى ليضعوا على أسسه كتبًا متدرجة مع سنوات التعليم .

وعاد الدكتور شوقى ضيف فوضع كتابه " تيسير النحو التعليمى قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده " سنة ١٩٨٦ ، داعمًا به كتاب " تجديد النحو " فاسعرض فيه الجهود السابقة لتيسير النحو ، وما أفاده منها فى مشروعه الجديد ، كما عرض بعض الدراسات والأدلة المستفيضة المتأنية التى توضح نهجه وتدعم مشروعه .

وواضح أن الدكتور شوقى قد وجه عنايته إلى جانبين أساسيين لم يخرج عنهما فى محاولته وضع منهج لتيسير النحو العربى . أولهما : ضبط القواعد ومحاولة صياغتها على نحو مطرد . وثانيهما : تضييق صور الإعراب وتحديدها وحصرها فى الشائع ، والاستغناء عن الشاذ وغير المستعمل .

وهو حين يعرض أبواب النحو والصرف فى كتابه ، اعتمادًا على أسسه الستة سالفة الذكر ، فإنه يقوم بعمليات عدة يقدم من خلالها تصنيفًا جديدًا للنحو العربى ، لأنه يعتقد أن صعوبة النحو ليست فى ذاته ، بل فى تصنيفه المعقد . وهذه العمليات هى : النقل ، والحذف ، والتنسيق ، والتعديل ، والإلغاء ، والإضافة .

أما النقل فنجده فى بابى الإضافة والتوابع (النعت والعطف والتوكيد والبدل) ، حيث ينقلهما إلى تقسيمات الاسم حتى يستقر فى أذهان الناشئة أن هذين البابين يدخلان فى أبواب الكلمة المفردة .

وأما الحذف فإنه يجريه على ثمانية عشر باباً من أبواب النحو العربى ويحيلها إلى أبواب أخرى ، وهى : باب كان وأخواتها ، بابا ما ولا ولات العاملات عمل ليس ، باب كاد وأخواتها ، باب ظن وأخواتها ، باب أعلم وأخواتها ، باب التنازع ، باب الإشتغال ، باب الصفة المشبهة ، باب اسم التفضيل ، باب التعجب ، باب أفعال المدح والذم ، كنايات العدد ، الإختصاص ، التحذير ، الإغراء ، الترخيم ، الاستغاثة ، الندبة .

كما حذف من أبواب أخرى الشروط والقواعد المعقدة ، والصيغ المصنوعة التى لا تجرى على الألسنة ، ووجوه الإعراب الافتراضية ، وكذلك حذف شروطاً وقواعد كثيرة ترهق الدارس ولا تفيده فى صحة النطق كشروط صوغ اسم التفضيل ، وفعل التعجب ، وشروط صاحب الحال ، وشروط إذن وحتى الناصبتين للمضارع ، كما حذف الميزان الصرفى ، واكتفى بالأمثلة ، وكذلك فعل فى بابى التصغير والنسب . وحذف كذلك إعراب كل ما لا يفيد فى صحة النطق كبعض أدوات الاستثناء ، ولاسيما ، وأدوات الشرط الاسمية ، وكم الاستفهامية والخبرية .

وأما التنسيق فإنه إذ يحيل صيغ الأبواب الفرعية الثمانية عشرة المحذوفة على أبواب أخرى رئيسة ، فإنه يعيد تنسيق هذه الأبواب الرئيسة . فباب التميز - مثلاً - يعيد تنسيقه ويترتب على ذلك حذف ستة أبواب دمجها فيه هى : الصفة المشبهة ، اسم التفضيل ، التعجب ، أفعال المدح والذم ، كنايات العدد ، الاختصاص .

وباب النداء يعيد تنسيقه ، فيدمج فيه صيغ الترخيم والندبة والاستغاثة . وباب المفعول به يعيد تنسيقه كذلك بعد أن يدمج فيه باب كاد وأخواتها ، وظن وأخواتها ، وأعلم وأخواتها .

وبهذا التنسيق والتبويب الدقيق تجتمع صور الباب وصيغه وأحواله ، فلا تتبعثر الحالة الواحدة فى أكثر من موضع ، كما هو حادث فى كتب النحو ، مما يترب عليه التشعب والإضطراب .

وقد أسهم ما قام به الدكتور شوقى ضيف من حذف وتنسيق فى تيسير النحو ، وذهب بما فى بعض القواعد من ارتباك واضطراب وعدم اطراد .

وأما التعديل فيتمثل فى وضع ضوابط أكثر دقة وسداداً لبعض أبواب النحو (المفعول المطلق ، المفعول معه ، الحال) .

وأما الإلغاء فيتمثل فى إلغاء الإعرابين التقديرى والمحلى .

إلغاء تقدير المتعلق العام للظرف والجار والمجرور .

إلغاء نصب المضارع بأن مضمرة أو مقدرة .

إلغاء العلامات الفرعية فى الإعراب .

وأما الإضافة فتتمثل فى إضافات مهمة فى أبواب النحو والصرف ، فقد أضاف قواعد نطق الحروف ومخارجها وصفاتها وحركاتها ، والتشديد والتنوين والمد ، وهمزتى الوصل والقطع ، وأل الشمسية والقمرية ، والإدغام والإبدال . كما أضاف جداول تصريف الفعل بجميع صوره مع ضمائر الرفع المتصلة ، وأخرى لتصريف المضارع والأمر مع نون التوكيد . وأضاف كذلك تقسيمات الاسم وتصاريفه . وأضاف باباً لتقسيم الجملة إلى اسمية وفعلية ، وبين ما بينهما من فروق . وباباً لعرض إعمال المصدر والمشتقات ، وآخر لعرض حروف الزيادة جارة وغير جارة ، وباباً آخر لعرض صور الذكر والحذف فى عناصر الجملة العربية ، وآخر لعرض صور التقديم والتأخير فى صور الجملة ، وباباً أخيراً لأنواع الجمل مستقلة وغير مستقلة .

والدراسة المقدمة إذ تحاول أن تقف على جهود الدكتور شوقى ضيف المتتابعة لصياغة مشروعه المتميز لتيسير النحو العربى للناشئة ، فإنها تنتهى بالتساؤل عن هذه الفجوة بين ذلك الجهد القيم الذى أنفق فيه صاحبه شطراً كبيراً من حياته ، وبين الواقع المؤلم لكتب النحو التعليمى كما تقدم للناشئة مشحونة بكل معقد وعسير وغير مفيد مما لا مكان له إلا كتب النحو !

د . إيمان السعيد جلال

١١ - شوقي ضيف الإنسان والعالم

د . محمد حسن عبد العزيز

صلتي بالأستاذ الدكتور شوقي ضيف قديمة ، فقد تتلمذت على كتبه في أول عهدي بالدراسة الجامعية بدار العلوم ، وكنت شديد الإعجاب ببحوثه الرصينة في تاريخ الأدب العربي ، ومنهجه المحكم ، وبمعرفته الواسعة ، وبلغته الدقيقة الواضحة .

وقد كنت آمل آنذاك أن ألتقي به وأستمع إليه ما دامت قد فاتتني فرصة الدرس عليه ، وقد تحقق هذا الأمل حين عينت خبيراً بلجنة الأصول بمجمع اللغة العربية منذ خمسة عشر عاماً وعن كثب رأيت شوقي ضيف الإنسان والعالم .

شوقي ضيف الإنسان :

هو الخلق الرفيع في أبهى صوره يزينه صوت هادئ كأنه الهمس ، وابتسامة راضية مرضية كابتسامة الوليد ، وراء هذا الصوت وتلك الابتسامة نفس أبية معتزة - ولا تعجب - في تواضع وعفاف .

وإذا ما دار النقاش وجدت منه المعرفة الواسعة العميقة فيما يعرضه أو يسأل عنه ، ويدعم تلك المعرفة بالأدلة القوية والرؤية الموضوعية ، وأما ذاكرته - حفظه الله - فحدث عنها ولا حرج ولتطمئن بالاً إذا سألت فسوف تجد عنده الجواب الحاضر الموثوق به .

وكان باللجنة التي كنت خبيراً بها عضو حاد المزاج يتحين الفرص للسخرية من النحو العربي (الذي كانت اللجنة مشغولة بتيسيره آنذاك) ، وكان يتهم النحو بالعجمة ؛

لأنه من صنع سيبويه الفارسي ، ولا يجد حرجًا في أن يصيب أعضاء اللجنة بشيء من حدته ، فما كاد يزيد شوقي ضيف عن النظر إليه ، ولست بمستطيع أن أحدثكم عن تلك النظرة وكيف كانت ، ولكني أحدثكم عن أثرها الساحر ، فنظره ونظرة وإذا الرجل الذي يتحاشاه الناس يتحفظ شيئًا فشيئًا ثم يسكت إلى أن توفاه الله .

وهكذا كان شوقي ضيف في لجان المجمع صاحب الخلق اللين والعبارة القاصدة ، لا يَغْضَبُ ولا يُغْضِبُ ، وأذكر هنا درسًا تعلمته :

يومًا كتب عني صحافي كلمة أساء فيها فهم كلام ورد في رسالتي للماجستير عن لغة الصحافة المعاصرة ، فاستشرت أستاذي في رد أعددته على ما كتب ، وبصوته الخفيض وابتسامته الحنون قال : يا محمد هذه معركة يفتعلها هؤلاء فلا تشغل بالك بها ، لقد كتب عني كثيرون وقالوا مادحين أو قادحين ، فما زدت عن شكر المادحين والسكوت عن القادحين ، ومضيت في طريقي الذي رسمته .. إن كثيرًا من الكتاب والعلماء شغلوا بما يقال فيهم وضيعوا في ذلك أعمارًا فلم يستفيدوا ولم يفيدوا .

بهذا الأسلوب صنع شوقي ضيف هذا البناء العلمي الشامخ .

ودرس آخر كان شوقي أمين أنشط أعضاء لجنة الأصول وأعرفهم بمسائلها ومظانها ، وكان يمد اللجنة بالموضوعات ويدعمها بالمذكرات بل بالقرارات ، وكان شوقي ضيف يعجب بنشاطه الوافر وبنظراته اللغوية النافذة ، ولكن كان يقول له علمك يا أستاذ شوقي في صدرك وفي أضابير المجمع ، وكان ينصحه بأن يجمع ما يقوله وما كتبه في اللغة والأدب ، وما أكثره ، في كتاب أو كتب ، ولكنه - بكل أسف - لم ينتصح ورحل عنا شوقي أمين وفي صدوره من تاريخ مصر وأدبها ولغتها ما يملأ مجلدات ، أما علمه المكتوب - على جدته وتنوعه - فما يعرفه إلا القليلون .

ودرس آخر وما أكثر الدروس المستفادة من النفوس الكريمة :

من خلقه الكريم أنه قد يكون له رأي في مسألة مما كنت أعرضه على لجنة الأصول فلا يكلمني فيه علنًا بل يحدثني في الهاتف ، ويسألني في تلك المسألة وفيما

أبديته فيها وكأنه يستفهم ، ولكنه في الحقيقة كان يهدى إلى ما يعرفه فأنتبه إلى الفائدة التى ساقها هذا المساق الجميل الراقى .

جملة القول فى هذا الإنسان المثل أنه شجرة ثابتة الجذور وافرة الفروع ظلها وارف وجناها حلو نافع .

* * *

شوقى ضيف العالم :

ومفتاح شخصيته الكتابة ، فقد ولد كاتباً ومضى به العمر لا يعرف غير الكتابة ، ومن ثم لا تعجب حين تعرف من سيرته أنه وهو صبى لم ينشغل بما ينشغل به أقرانه من لعب أو لهو ، بل شغل بتأليف كتاب عن النحو لخص فيه قواعده التى استظهرها من شرح الآجرومية .

وقد بارك الله سبحانة وتعالى فى وقته فوضع ما يقرب من خمسين كتاباً بين تأليف وتحقيق .

وقد استوفى تلامذته وزملاؤه بعض جوانب هذه الشخصية العلمية فى كتاب (شوقى ضيف سيرة وتحية) ، ومن فضول القول والجراءة فيه أن أتحدث عن تلك الجوانب ، ولهذا سوف أكتفى بكلمة عن شوقى ضيف العالم المجمعى .

* * *

شوقى ضيف المجمعى :

منذ انتخب شوقى ضيف عضواً بالمجمع سنة ١٩٧٦ وهو يشارك مشاركة فعالة فى كل أعمال المجمع ، لا يخلو مؤتمر من مؤتمراته من بحث له ، ولا عدد من أعداد مجلته من مقال . وتركز نشاطه فى لجنة الأصول ولجنة الألفاظ والأساليب ولجنة الأدب ومن بحوثه التى ألقاها فى مؤتمر المجمع :

- الفصحى المعاصرة .

- العروبة فى شعر أبى تمام .

- البلاغة عند ابن رشد .

- لغة المسرح بين العامية والفصحى .

- ملاحظات على قياسية الغالب من جموع التكسير .

- الشعر الحر بين التراث الشعرى والحداثة .

ولعلكم ترون المدى الواسع لاهتماماته ناهيك عن معرفته الواسعة بموضوعه ومنهجيته المحكمة فى علاجه وهذا أمر نكتفى فيه بالإشارة .

ومن اهتمامه بقضية المصطلح العلمي وتعريب العلوم والذى يتمثل فى مشاركته الفعالة فى اللجان العلمية ، فإن قضية تيسير النحو وتنمية الفصحى المعاصرة بالألفاظ والأساليب قد أخذت بمجامع نفسه ، وسأعرض هاتين القضيتين على النحو التالى :

أولاً : قضية تيسير النحو :

قدم شوقى ضيف فى العام التالى لانتخابه عضواً بالمجمع ١٩٧٧ مشروعًا متكاملاً لتيسير النحو للناشئة ، وشغلت لجنة الأصول بهذا المشروع جملة وتفصيلاً ، وفى أثناء ذلك كان شوقى ضيف يعدل فى صورة المشروع وفى بعض جزئياته ويستكمل النظر فى الأسس التى قام عليها وتبلور هذا كله فى كتاب (تجديد النحو) الذى يعد تطبيقًا للمشروع بعد تعديله واستكمال أسسه . والكتاب - بغض النظر عما قد يقال عن بعض مسائله أو تبويباته المخالفة لما هو مألوف فى كتب النحو المدرسية - يعد أول محاولة متكاملة لتيسير النحو فى العصر الحديث .

وسوف أكتفى بذكر الأسس التى قامت عليها تلك المحاولة :

١ – إعادة تنسيق أبواب النحو .

٢ – إلغاء الإعرابين التقديرى والمحلى .

٣ – الإعراب لصحة النطق .

٤ – وضع ضوابط وتعريفات دقيقة .

٥ – حذف زوائد كثيرة ، وهى شروط معقدة وإعرابات مفترضة .

٦ – إضافات متنوعة ضرورية لصحة النطق وسلامة التصريف .

وليغفر لى أستاذى الجليل ظلمى لمحاولته بعرضها بهذا الإيجاز وسوف أبذل غاية الوسع فى رفع هذا الظلم ببحث مفصل عنها فى قادم الأيام .

وبكل أسف لم يكن أغلب نقاد المحاولة منصفين ، فقد احتجوا فى رفضها بمسائل فردية وتعليلات منطقة لا يعسر أمثال لها فى الاعتراض على التقسيمات المألوفة فى كتب النحو المدرسى . وقد غاب أيضاً عن بعض نقدته أن مشروع التيسير متوجه إلى النحو للناشئة لا إلى طلاب الجامعات أو الباحثين ، وأنه لا يتعرض بالتغيير لأصل من أصول اللغة أو حكم من أحكامها المقررة . وأن الغاية منه هى الغاية من كل نحو يدرس صحة النطق وسلامة التعبير والفهم .

ثانياً : قضية تنمية الفصحى المعاصرة :

الفصحى المعاصرة بمعجمها الواسع وبأساليبها المتنوعة وبقدرتها على الوفاء بمتطلبات العلوم والفنون نتاج متواصل دءوب لجيل رواد التحديث من المفكرين والعلماء والأدباء والصحافيين ، والطهطاوى وجيله على مبارك والدكتور حسن الرشيدى والدكتور أحمد ندا ، والشيخ محمد عبده والبارودى . ثم لطفى السيد وجيله شوقى

والدكتور مشرفة والدكتور أحمد عيسى والدكتور محمد شرف والدكتور طه حسين ، والعقاد ، ونجيب محفوظ .. إلخ .

بيد أن بعض اللغويين المتشددين لم يرضه تطور الفصحى فى ألفاظها وأساليبها فأسرعوا يخطئون ويمنعون .. وجعلوا أمرها عسراً بعد يسر وضيقًا بعد سعة ، ولم يكونوا فى كثير من الأحوال مدركين لوظيفة اللغة فى المجتمعات الحديثة بل لم يكونوا على علم واسع بمصادرها القديمة .

وقد انبرى المجمع لهذه القضية منذ أول عهده وقرر الأخذ بالقياس فى اللغة ، وقبل السماع من المحدثين ، وتكملة فروع مادة لغوية لم تذكر بقيتها ، ودراسة الألفاظ والأساليب المحدثة وإقرار ما تمس إليه الحاجة منها .. إلخ .

ومن هذه المبادئ انطلقت بحوث شوقى ضيف فى لجنة الأصول ولجنة الألفاظ والأساليب ، وهذه عناوين بعض بحوثه فى لجنة الأصول :

- النسب إلى المثنى فى المصطلحات العلمية .
- حذف تاء التأنيث فى المؤنث المجازى المصغر .
- تسكين أواخر الأعلام فى الدارج .
- صيغة فُعلة وفِعلة .
- رد المحذوف من فاء الثلاثى ولامه فى النسب .
- صدارة أدوات الاستفهام .
- لزوم الفعل الثلاثى وتعديته .

وفى البحث الأخير دعا إلى إجازة تعدى الفعل اللازم بصيغته إلى مفعول به منصوب ، وإلى إجازة تحول الفعل الثلاثى المتعدى بنفسه إلى متعد بحرف ، وتحول الفعل الثلاثى المتعدى بحرف إلى متعد بنفسه ، كل ذلك إذا دعت إليه حاجة علمية أو بلاغية .

والبحث مدعوم بالشواهد الغزيرة من أفصح الكلام من القرآن والحديث والشعر جاهلية وأموية وعباسية بالإضافة إلى ما ذكره أئمة النحو واللغة ، وهكذا كانت دائماً بحوثه .

وهذه عناوين بعض بحوثه في لجنة الألفاظ والأساليب :

- هذا المنزل آيل للسقوط ، وفلان آيب من سفره .
- صدفة ومصادفة .
- جُمد وتجميد .
- بهت وباهت .
- عشوائي وعشوائية .
- شغوف .
- توفي ومتوفى .
- حبذا لو رضيت .
- صارحه الرأي .
- أفعال مبينة للمجهول والمعلوم بدلالة واحدة .

وفي البحث الأخير صحح ما شاع في كتب بعض النحاة واللغويين من اقتصار هذه الأفعال على البناء للمجهول ، معتمدا على ما ورد في معجمات اللغة من بنائها للمعلوم بالمعنى نفسه .

وفي كل بحث من هذه البحوث تظهر معرفة شوقي ضيف الواسعة بلغة العرب في مختلف عصورها ، وبالنحو العربي وبأحكامه وضوابطه وأسراره التي غابت عن هؤلاء المتشددين المضيقين ، وتتبدى نظرته النافذة إلى الفصحى التي وسعت كتاب الله وعلوم اليونان والفرس والتي واكبت النهضة العربية الحديثة في علوم العصر وفنونه ومظاهر حضارته .

وفى نهاية كلمتى أقول : إن أستاذنا الدكتور شوقى ضيف نموذج فريد لخلق رفيع عز أن يوجد فى هذه الأيام ، مد الله فى عمره ونفع به ، فهو وأشباهه أما يعطى للحياة معنى ولكل طالب قدوة ومثلاً .

أ . د . محمد حسن عبد العزيز

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

١٢ - منهج شوقي ضيف في كتاب " المدارس النحوية "

د . محمود ياقوت

إذا ذكر النحو العربي ومصادره الأولى ، ذكر سيبويه وكتابه . وإذا ذكر النحو العربي وجهود المحدثين ، ذكر شوقي ضيف وكتابه « المدارس النحوية » ، فقد استطاع - في هذا الكتاب - بخبرة العالم ، وتمكن الأستاذ أن يقدم عرضًا مفصلاً للنحو وأعلامه ومصادره ومناهج القدماء في بحثه ودرسه ؛ لذلك لا نبالغ إذا قلنا إنه لا يمكن لأي باحث معاصر أن يستغني عن كتاب « المدارس النحوية » ، حين يشرع في الاتصال بالنحو ، ومن هنا حق للدكتور شوقي ضيف أن يقول عنه : « ولعل هذه أول مرة تبحث فيها المدارس النحوية بحثًا جامعًا ، وهو بحث يرسم في إجمال الجهود الخصبة لكل مدرسة وكل شخصية نابهة فيها » .

ويذكر في مقدمته السبب في تأليفه قائلاً : « حين أعارتني جامعة القاهرة في العام الدراسي ١٩٦٥ - ١٩٦٦ لشقيقتها الجامعة الأردنية ، حاضرت طلاب قسم اللغة العربية بها في تاريخ المدارس النحوية ، ولما رجعت إلى المكتبة العربية الحديثة لم أجد فيها كتابًا يغني في هذا الموضوع غناء محمودًا ، وقد مضيت أحاضر الطلاب فيه ، محاولاً - بقدر جهدي - أن أبلغ حاجتهم بترتيب مقدماته ، وتوفير الأسباب المعينة على صحة نتائجه حتى استقامت لي هذه الصورة لمدارسنا النحوية على مر التاريخ » . وقد صدرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٩٦٨ عن دار المعارف بمصر ، وتوالت طبعاته بعد ذلك ، وأصبح مصدرًا مهمًا في الأبحاث والدراسات المختلفة ، لأنه حافل بالموضوعات المفيدة الدقيقة ؛ لذلك حين فكرت في كتابة بحث حول جهد أستاذنا في « الدرس النحوي » رأيت أن آخذ جزءًا ، أو موضوعًا من « المدارس النحوية » للبحث

والدرس ، ومن بين الموضوعات التى عنت لى « جهود شوقى ضيف فى دراسة المصطلح النحوى » ، و« التحليل اللغوى فى كتاب المدارس النحوية » ، و« موقف شوقى ضيف من القراءات القرآنية » وسواها من الموضوعات ، التى تجدها متناثرة فى ثنايا الكتاب وتحتاج إلى جمع وتصنيف ، ولكننى رأيت أن أقدم عرضًا وتحليلاً للكتاب ، على أن تبحث تلك الموضوعات ، فيما بعد ، على يد من يشاء من الباحثين والدارسين ، وإن كنت سأعرض لها بإيجاز خلال بعض الصفحات ؛ لأنها تحتاج إلى الكثير من الإيضاحات والتفصيلات .

وقد قسم الدكتور شوقى ضيف كتابه إلى ثلاثة أقسام كما يلى :

١ – القسم الأول : المدرسة البصرية .

٢ – القسم الثانى : المدرسة الكوفية .

٣ – القسم الثالث : مدارس مختلفة .

ويقع القسم الأول فى خمسة فصول ، تدور حول الموضوعات والشخصيات التالية :

١ – البصرة واضعة النحو .

٢ – الخليل .

٣ – سيبويه .

٤ – الأخفش الأوسط وتلاميذه .

٥ – المبرد وأصحابه .

ويقع القسم الثانى فى أربعة فصول ، تدور حول الموضوعات والشخصيات التالية :

١ – نشأة النحو الكوفى وطوابعه .

٢ – الكسائى وتلاميذه .

٣ – الفراء .

٤ - ثعلب وأصحابه .

ويدور القسم الثالث حول المدارس التالية :

١ - المدرسة البغدادية .

٢ - المدرسة الأندلسية .

٣ - المدرسة المصرية .

وحين شرعنا في العرض للكتاب وتحليله ، رأينا أن نركز على « المنهج » ، الذي سار عليه الدكتور شوقي ضيف في تأليفه ؛ لأننا نعتقد أن هذا الكشف عن « المنهج » يؤدي إلى التعرف على بعض ملامح منهج الدرس النحوي عند القدماء ؛ إذ إن الأستاذ اعتمد في عرضه وتحليله على التراث النحوي بصفة عامة ، وما تم وضعه في المراحل الباكرة بصفة خاصة .

و « المنهج في أبسط معاينه هو الخيط الذي يتخذه مؤلف معين ليسلك فيه موضوعات تفكيره أو دراسته ، ويراد بكلمة المنهج عمليا الخطة التي اتبعها مؤلف الكتاب في علاج المشكلة التي اختارها موضوعًا له ، وقيامها . على أساس من المنطق ، أو من الاستقراء ، أو منهما معًا ، كما يراد بها النظام الذي سلكه في علاج جزئيات الدراسة ؛ من حيث استعمال المادة ، وتقديم المناقشة أو تأخيرها ، وإبداء الرأي الشخصي ، وتقويم آراء الآخرين ، وإصدار حكم نهائي ، أو تعليق الموقف من باب التحفظ والحيطة » [1] .

والحديث عن « المنهج » من الأمور العلمية التي ينبغي بحثها بدقة ، والكشف عنها ، وكانت للأوائل من العلماء العرب مناهج يسيرون عليها في دراسة « اللغة » ، وأساس تلك المناهج الكشف عن الجوانب فيما بينها ؛ فإن هذا التداخل - في حد ذاته - يعد منهجًا يطبع الدرس اللغوي عند الأوائل ، وإذا كان أولئك ، وعلى رأسهم سيبويه ، قد

---

(١) الدكتور عبد الصبور شاهين : في التطور اللغوي ١٣٤ .

انطلقوا من قضية الجملة والإعراب إلى قضية الأبنية الصرفية إلى قضية الأصوات ؛ أى من الوحدات الكبيرة إلى الوحدات الأصغر ؛ فإنه « قد ظهرت فى السنوات الأخيرة اتجاهات عند بعض اللغويين الأمريكيين والأوربيين ، تنطلق فى التحليل اللغوى من الوحدات الكبيرة إلى الوحدات الأصغر ؛ لذا فهى تبدأ بتحليل الجملة ، وتنتهى بالتحليل الصوتى »[١] . ولذلك فإنه إذا كانت معرفة النحو – مثلاً – لابد أن تسبق بمعرفة الصرف ، نجد أن القدماء – وعلى رأسهم ابن جنى – يقررون أنه لما كان «الصرف عويصًا صعبًا بدئ قبله بمعرفة النحو ؛ ثم جئ به بعد ؛ ليكون الارتياض فى النحو مواطئًا للدخول فيه ، ومعينًا على معرفة أغراضه ومعانيه ، وعلى تصرف الحال »[٢] .

وعلى الرغم مما يوجه إلى المنهج العربى القديم من انتقادات ؛ فإنه « هو الذى حفظ لنا العربية هذه القرون الطويلة ، وأن العربية ليست مجرد لغة تدرس ، كما تدرس اللهجات أو غيرها من اللغات ، وإنما هى لغة تمثل جوهر حياة هذه الأمة ، بارتباطها بالقرآن الكريم ، ومن ثم باستيعابها للنظم التى عاش عليها العرب والمسلمون ، وهذه الناحية كافية فى النظر إلى الدرس العربى خاصة ، دون أن يخدعنا بريق من هنا أو بريق من هناك ، وهى حقيقة بتوجيه العزائم المخلصة إلى كل ما يؤصل هذا الدرس ويعمقه ويقويه »[٣] .

(١)

يعد الحديث عن « العامل » من أسس منهج الدرس النحوى عند القدماء ، وهو من ملامح منهج الدكتور شوقى ضيف فى دراسة « *المدارس النحوية* » . والعامل من المصطلحات الأصلية التى ظهرت فى المراحل الباكرة من الدرس النحوى عند العرب ؛ إذ إن سيبويه قد صرح به فى السطور الأولى من كتابه ؛ فقال تعليقًا على عرضه

---

(١) الدكتور محمود حجازى : *مدخل إلى علم اللغة* ٢٠ .

(٢) ابن جنى : المنصف ١/٤ .

(٣) الدكتور عبدالرحمن الراجحى : فقه اللغة فى الكتب العربية ٥ .

لمجارى أواخر الكلم الثمانية ، أو أنواع الإعراب والبناء : « وإنما ذكرت لك ثمانية مجار ، لأفرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدث فيه العامل ، وليس شيء منها إلا وهو يزول عنه ، وبين ما يبنى عليه الحرف بناء لا يزول عنه لغير شئ أحدث فيه من العوامل التى لكل عامل منها ضرب من اللفظ فى الحرف ، وذلك الحرف حرف الإعراب »[1] .

و « كل من يقرأ كتاب سيبويه ، يرى رأى العين أن الخليل هو الذى ثبت أصول نظرية العوامل ، ومد فروعها ، وأحكمها إحكامًا بحيث أخذت صورتها التى ثبتت على مر العصور ؛ فقد أرسى قواعدها العامة ذاهبًا إلى أنه لابد مع كل رفع لكلمة ، أو نصب ، أو خفض ، أو جزم ، من عامل يعمل فى الأسماء والأفعال المعربة ومثلهما الأسماء المبنية ، والعامل عادة لفظى مثل المبتدأ وعمله فى الخبر الرفع ، والفعل وعمله فى الفاعل الرفع ، وفى المفعولات النصب . وقد يكون العامل معنويًا على نحو ما نص تلميذه سيبويه فى باب المبتدأ ، إذ جعله معمولاً للابتداء ، ومن العوامل أدوات وحروف منها ما يجزم الفعل ، وهو « لم » و « إن » وأخواتها ، ومنها ما ينصبه أو ينصب ما بعده وهو « أن » و « لن » وبابهما ، ومنها ما ينصب ما بعده ويرفعه كالفعل ، وهو « إن وأن ولكن وكأن وليت ولعل »[2] .

ونشير إلى أن الجدل حول العامل بدأ فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، والدليل على ذلك تلك الرواية[3] ، التى تدور حول المناظرة بين الفراء وأبى عمر الجرمى ، فقد قال الفراء للجرمى : « أخبرنى عن قولهم : زيد منطلق لم رفعوا زيدًا ؟ فقال له الجرمى : بالابتداء ، فقال له الفراء : وما معنى الابتداء ؟ فقال له الجرمى : تعريته من العوامل اللفظية ، قال له الفراء : أظهره ، فقال : هذا معنى لا يظهر[4] ... قال له الفراء : فمثله ، قال له الجرمى : أخبرنى عن قولهم : زيد ضربته بم رفعتم زيدًا ؟ قال الفراء :

---

(١) الكتاب : ٣/١ .

(٢) المدارس النحوية : ٣٨ .

(٣) الإنصاف فى مسائل الخلاف : ٤٦/١ .

(٤) يريد أنه عامل معنوى .

بالهاء العائدة على زيد [1] ، فقال الجرمي : الهاء اسم فكيف يرفع الاسم ؟ فقال الفراء : نحن لا نبالي من هذا ؛ فإنا نجعل كل واحد من المبتدأ والخبر عاملاً في صاحبه في نحو : زيد منطلق ، فقال له الجرمي : يجوز أن يكون كذلك في : زيد منطلق ؛ لأن كل واحد من الاسمين مرفوع في نفسه ؛ فجاز أن يرفع الآخر ، وأما الهاء في : ضربته ؛ فهي في محل نصب فكيف ترفع الاسم ؟ [2] فقال له الفرآء : لم نرفعه به وإنما رفعناه بالعائد [3] ، فقال له الجرمي : وما العائد ؟ فقال له الفراء : معنى ، فقال الجرمي : أظهره ، فقال : لا يظهر ، فقال له : مثله ، فقال : لا يتمثل ، فقال له الجرمي : لقد وقعت فيما فررت منه » [4] .

وتلك الرواية دليل على الجدل ، وأوليات ظهوره في الدرس النحوى ، وإذا كان الفراء قد قال للجرمي : ما رأيت كاليوم عاملاً لا يظهر ولا يتمثل ؛ فإن الثاني أخذ يجادله حتى وصل إلى النتيجة نفسها ؛ لذلك قال للفراء : « لقد وقعت فيما فررت منه » .

وقد استمر العامل الأساس في « المقتضب » للمبرد ولكن الذى يلفت النظر أنه قد فتح الباب أمام الاحتمالات الإعرابية ، والتخريج للعبارات الافتراضية التى صنعها ؛ فكان في ثنايا الأبواب المختلفة يحدثنا عن « مسائل طوال يمتحن بها المتعلمون » وهى تلقانا منذ الصفحات الأولى ؛ بل إن المبرد لم يجد حرجًا في الحكم على بعض تلك المسائل بأنها « حسنة » ، وربما يرد هذا الحسن إلى أن التركيب النحوى يمكن أن يحتمل تخريجاته لتلك المسائل ؛ بالإضافة إلى اعتماده على العوامل والمعمولات [5] . ولقد تأثر ابن السراج بأستاذه ؛ فأكثر في « الأصول في النحو » من تلك المسائل ، مع أن غرضه في هذا الكتاب ذكر العلة التى إذا اطردت وصل بها إلى كلامهم فقط ، وذكر الأصول والشائع لأنه كتاب إيجاز » [6] .

---

(١) لأن الخبر عنده إذا لم يكن أسمًا رفع المبتدأ الضمير المتصل بالفعل (شوقى ضيف) .

(٢) يريد أن فاقد الشئ لا يعطيه (شوقى ضيف) .

(٣) أى الضمير بصفته عائدًا عليه ، لا بصفته منصوبًا (شوقى ضيف) .

(٤) الإنصاف : ٤٦/١ .

(٥) انظر مثلاً : ١٧/١ من المقتضب .

(٦) الأصول : ٣٨/١ .

ومن أشهر اللغويين الذين قيل إن لهم موقفًا خاصًا من العامل النحوى ابن جنى ؛ فقد اعتمد عليه ابن مضاء القرطبى (-٥٩٢هـ) حين أراد أن يهدم العامل ويقضى عليه ، ولسنا هنا فى معرض المقارنة بين رأى أبى الفتح وابن مضاء ، ولكن نسجل الخلاف فى الرأى والجدل بين النحاة ، وقد صرح ابن جنى بالعامل فى عدة مواضع من أعماله العلمية ؛ فهو الأساس فى تغيير الحركة الإعرابية قال : « الإعراب ضد البناء فى المعنى ومثله فى اللفظ ، والفرق بينهما زوال الإعراب لتغير العامل وانتقاله ، ولزوم البناء الحادث عن غير عامل وثباته » [1] . ويقول عن المبتدأ إنه « كل اسم ابتدأته وعريته من العوامل اللفظية ، وعريته لها وجعلته أولاً لثانٍ يكون الثانى خبرًا عن الأول ومسندًا إليه ، وهو مرفوع بالابتداء . تقول : زيد قائم ومحمد منطلق ، فزيد ومحمد مرفوعان بالابتداء ، وما بعدهما خبر عنهما » [2] . بل إن أبا الفتح يقيم بعض قضايا التقدير النحوى على أساس من العامل وتصرفه في الأزمنة [3] ، وصرح به فى « سر صناعة الإعراب » [4] وأشار إلى اختصاصه بما يعمل فيه .

وفى القرن الرابع ، وأوائل الخامس الهجرى ، كان فى الأندلس نحاة لهم دراسات مهمة فى مجالات مختلفة ، كالقراءات وإعراب القرآن والنحو ومن بينهم مكى بن أبى طالب القيسى (-٤٣٧هـ) الذى وضع كتابًا عنوانه « مشكل إعراب القرآن » كانت نظرية العامل أساسية فى تخريج وجوه الإعراب المختلفة لبعض الآيات الكريمة ؛ بل أشار إلى أن « معنى الاستقرار » و« معنى الإشارة » قد يكونان عاملين [5] .

ونجد الزمخشرى فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى يعتد كبقية السابقين من النحويين بالعامل ، ويقيم على أساسه كتاب « الله » ؛ فيقول عن المبتدأ والخبر : « هما الاسمان المجردان للإسناد نحو قولك : زيد منطلق ، والمراد بالتجريد

---

(١) اللمع فى العربية : ٩٢ .

(٢) السابق : ١٠٩ .

(٣) السابق : ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٤) سر الصناعة : ١/١٤٥ .

(٥) مشكل إعراب القرآن : ١/٧٤ و ٨٤ .

إخلاؤهما من العوامل التى هى كان ، وإن ، وحسبت وأخواتها » [1] . وقد كان العامل من المصطلحات النحوية التى وردت فى « الكشاف » وتعرض له الزمخشرى فى إعرابه لبعض الآيات الكريمة [2] .

نأتى بعد ذلك ، إلى ابن مضاء فنجده يهاجم العامل فى كتاب « الرد على النحاة » الذى حققه الدكتور شوقى ضيف ، وقد كشف فى مقدمته عن أن ابن مضاء كان يهدف إلى هدم النحو باعتباره وسيلة لفهم الفقة المشرقى ؛ فقال الدكتور شوقى ضيف : « إن من يرجع إلى نصوص (كتاب الرد على النحاة) يلاحظ ملاحظة واضحة أن صاحبه ثائر على المشرق ، وهى ثورة تعتبر امتداداً لثورة سيده عليه ، وأيضاً فإنه يلاحظ نزعة ظاهرية [3] فى ثنايا الكتاب ، مما يؤكد صلة صاحبه بالموحدين على كتب المذاهب [4] ، ومن يعرف ؟ ربما كان ابن مضاء أحد المؤلبين على هذه الثورة ، إن لم يكن المؤلب الأول كما يقضى بذلك منصبه [5] . والغريب أنه لم يعن بتأليف كتاب ضد فقه المشرق ، وإنما عنى بالتأليف ضد النحو المشرقى ؛ فقد صب عنايته كلها على النحو » [6] .

ومن هنا فقد هاجم ابن مضاء نظرية العامل ، وهى التى عقدت النحو وأكثرت فيه من التقديرات والمباحث التى لا طائل وراءها فى رأيه ، والمتكلم فى الحقيقة كما لاحظ ابن جنى [7] هو الذى يعمل الرفع والنصب والجر فى الكلام ، ويفصل القول فيما أدخلته هذه النظرية على النحو من عقد التقديرات على نحو ما هو معروف فى العوامل المحذوفة ، مما يبعد الصيغ عن وجهها الطبيعى ، ويدفع إلى تمحلات لا داعى لها

---

(١) المفصل : ٢٣ .

(٢) انظر ١/ ٢٨٠ من الكشاف .

(٣) يرجع هذا إلى تأثر ابن مضاء بالمذهب الظاهرى فى الفقه ، الذى انتشر فى الأندلس باعتباره رد فعل ضد انتشار مذهب الإمام مالك هناك ، ومؤسس المذهب الظاهرى هو داود بن على الظاهرى (٢٠٢ - ٢٧٠هـ) .

(٤) يقول عبد الواحد المراكشى عن إحراق كتب المذهب المالكى : « لقد شاهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال فتوضع ، ويطلق فيها النار » . المعجب : ٣٥٤ .

(٥) كان قاضى الجماعة فى دولة الموحدين التى أسسها ابن تومرت (-٥٢٤هـ) .

(٦) الرد على النحاة : ١١ و ١٢ من مقدمة الدكتور شوقى ضيف .

(٧) الخصائص : ١/ ١٠٩ .

كتقدير أن الظرف ، والجار والمجرور إذا وقعا أخباراً ، أو صلات ، أو أحوالاً يتعلقان بعامل محذوف ولا حذف هناك ، ولا عامل – في رأيه – ولا عمل ... ولكي يوضح فساد نظرية العامل ، وأنها دفعت النحاة أحياناً إلى رفض بعض أساليب العرب ، ووضع أساليب مكانها لا يعرفها العرب الجاهليون والإسلاميون درس « باب التنازع » دراسة مفصلة ، موضحاً ما جلبه فيه النحاة من صيغ معقدة عسرة لم ينطق بها العرب ولا وقعت في أوهامهم .... ودرس « باب الاشتغال » أيضاً .... كما هاجم التمارين غير العملية [1] .

يتضح من هذا العرض أن ماأثير حول العامل من جدل لم يكن مقصوداً به عند اللغويين القدماء سوى تحديد العمل النحوي في بعض الأبواب والتراكيب النحوية ، وما بين هذا التحديد من اختلاف . ولم يكن هناك سوى ابن مضاء الذي حاول أن يهدم العامل وصرح بذلك في مقدمته ، ومع ذلك فإن دعوته لم يصادفها النجاح ، ولذلك لم يشر إليها أحد من مواطنيه ، أو من الجيل التالي له ، بل استمر العامل كما هو أساس الدرس النحوي ، دون تغيير .

(٢)

ويعد « التعليل » من الأسس المنهجية في الدرس النحوي ، وهو من أبرز الموضوعات التي تكشف عن تأثر النحو بغيره من العلوم مثل « علم الكلام » و « أصول الفقة » [2] .

ويرى ابن جني أن العلل النحوية ، أكثر قرباً لعلل المتكلمين : قال : « واعلم أن علل النحويين ، وأعني بذلك حذاقهم المتقنين لا ألفافهم المستضعفين ، أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقهين ؛ وذلك أنهم يحيلون على الحس ، ويحتجون فيه بثقل

---

(١) المدارس النحوية : ٣٠٥ و ٣٠٦ . وقد فصلنا الحديث عن موقف ابن مضاء من نظرية العامل في كتابنا : قضايا التقدير النحوي بين القدماء والمحدثين ٦١-٦٤ .

(٢) للتعرف على صلة النحو بعلم الكلام وأصول الفقه انظر كتابنا : قضايا التقدير النحوي بين القدماء والمحدثين ١٩-٤٩ . وللتوسع في دراسة العلة بصفة عامة انظر : « النحو العربي : العلة النحوية : نشأتها وتطورها » للدكتور مازن المبارك .

الحال أو خفتها على النفس ، وليس كذلك حديث علل الفقه » [1] . ورغم ذلك فإن أبا الفتح لا يرى أن تلك العلل النحوية . في سمت العلل الكلامية البتة . قال : « واعلم أنا – مع ما شرحناه وعنينا به فأوضحناه من ترجيح علل النحو على علل الفقه ، وإلحاقها بعلل الكلام – لا ندعي أنها تبلغ قدر علل المتكلمين ، ولا عليها براهين المهندسين ، غير أنا نقول : إن علل النحويين على ضربين : أحدهما واجب لابد منه ؛ لأن النفس لا تطبق في معناه غيره ، والآخر ما يمكن حمله ، إلا أنه على تجشيم واستكراه له » [2] . وعلل النحو في مرتبة أعلى من علل الفقة ؛ إذ إنها مواطئة للطباع ، وعلل الفقه لا ينقاد جميعها هذا الانقياد ؛ حيث إن الشريعة إنما جاءت من عند الله – سبحانة وتعالى – ومعلوم أنه – سبحانه – لا يفعل شيئًا إلا ووجه المصلحة والحكمة قائم فيه ، وإن خفيت عنا أغراضه ومعاينه » [3] .

ويرى ابن حزم الأندلسي أن علل النحويين كلها فاسدة ، لا يرجع منها شئ إلى الحقيقة البتة ، وإنما الحق من ذلك أن هذا سمع من أهل اللغة [4] ، الذين يرجع إليهم في ضبطها ونقلها ، وما عدا هذا فهو – مع أنه تحكم فاسد – متناقض ؛ فهو أيضًا كذب ؛ لأن قولهم : كان الأصل كذا ؛ فاستثقل فنقل إلى كذا شئ يعلم كل ذى حس أنه كذب لم يكن قط ، ولا كانت العرب عليه مدة ، ثم انتقلت إلى ما سمع منها بعد ذلك » [5] . ويرجع هذا الهجوم على العلة من قبل ابن حزم إلى أنه كان يأخذ بالمذهب الظاهرى في الفقه ، وقد حاول أن يطبق ذلك على النحو .

ومن المفيد أن نشير إلى رأى الخليل ، وذلك إذا جاز لنا العودة إلى المراحل الباكرة ، حول العلل التى ألقى بها ، وأخذها عنه سيبويه . فقد قيل له : عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك ؟ وإن لم ينقل ذلك عنها ، واعتللت أنا بما عندى أنه علة

---

(1) الخصائص : ١/٤٨ .

(2) الخصائص : ١/٨٧ و ٨٨ .

(3) السابق : ١/ ٥٢ و ٥٣ .

(4) أشار القدماء إلى ما يسمى « علة سماع » كما في : « الاقتراح » للسيوطى ١١٥ .

(5) ابن حزم : التقريب لحد المنطق ١٦٨ .

لما علته منه ؛ فإن أصبت فهو الذى التمست ، وإن لم تكن هناك علة له فمثلى فى ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء عجيبة النظام والأقسام ، وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والحجا اللائحة ؛ فكلما وقف هذا الرجل فى الدار على شئ منها قال : إنما فعل هذا هكذا لعلة كذا وكذا ... وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك ؛ فإن سنح لغيرى علة لما عللته من النحو هى أليق مما ذكرته للمعلول فليأت بها » (١) .

وتأخذ تعليلات الخليل شكل سيول متلاحقة فى كتاب سيبويه والكتب النحوية المختلفة ، ونأخذ مثالاً واحداً لذلك ، وهو أنه كان يذهب إلى أن الإعراب أصل فى الأسماء ، وأن البناء أصل فى الأفعال والحروف وأن الطرفين لا يخرجان عن هذا الأصل إلا لعلة ، أما الأسماء فإنها تبنى حين تعترضها علة شبهها بالحرف ، ويعرب الفعل حين يشبه الاسم على نحو ما أعرب المضارع ؛ لشبهه باسم الفاعل من حيث الحركات والسكون مثل أخرج ومخرج وأكتب وكاتب ، وقد ظلت الحروف مبنية ؛ لأن شيئًا منها لا يشبه الاسم (٢) . وتكثر التعليلات عند سيبويه كثرة مفرطة ، سواء للقواعد المطردة أو للأمثلة الشاذة ، يقول فى فواتح كتابه : « وليس شئ يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجهًا » ؛ فهو لا يعلل فقط لما كثر فى ألسنتهم ، واستنبطت على أساسه القواعد ؛ بل يعلل أيضًا لما يخرج على تلك القواعد ، وكأنما لا يوجد أسلوب ولا توجد قاعدة بدون علة .

وقد اهتم الجيل التالى من النحاة بالعلة ، وكان لبعضهم بعض التعليلات التى أحدثت صدى واسعًا فى أوساط اللغويين والنحويين ، ونكتفى هنا بالعرض لرأى قطرب (-٢٠٦هـ) فى علامات الإعراب الخاصة بأواخر الكلمات ؛ حيث إنه علل استخدامها تعليلاً لم يقل به أحد من الأوائل ، أو الجيل التالى ؛ فقد اتفق القدماء على أن « حركات الإعراب » تدل على بعض المعانى التى تختلف تبعًا لاختلاف تلك الحركات ، ومن

---

(١) الإيضاح فى علل النحو : ٦٥ .

(٢) *المدارس النحوية* : ٤٩ .

النصوص الدالة على ذلك : « فأما الإعراب فيه تميز المعانى ، ويوقف على أغراض المتكلمين ؛ وذلك أن قائلاً لو قال : « ما أحسن زيدُ » غير معرب ، لم يوقف على مراده ؛ فإذا قال : ما أحسن زيداً أو ما أحسن زيدٌ أو ما أحسن زيد أبان بالإعراب عن المعنى الذى أراده . وللعرب فى ذلك ما ليس لغيرها ؛ فهم يفرقونً بالحركات وغيرها بين المعانى » [1] . ويختلف رأى قطرب فى دلالة الحركة الإعرابية على المعانى ؛ فإنه لايرى للحركة الإعرابية دلالة على الإطلاق ؛ بل هى نابعة من السرعة فى الكلام ، والرغبة فى التخلص من التقاء الساكنين . قال : « وإنما أعربت العرب كلامها ؛ لأن الاسم فى حال الوقف يلزمه السكون للوقف ؛ فلو جعلوا وصله بالسكون أيضًا لكان يلزمة الإسكان فى الوقف والوصل ، وكانوا يبطئون عند الإدراج ؛ فلما وصلوا وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقبًا للإسكان ليعتدل الكلام ، ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ومتحركين وساكن ، ولم يجمعوا بين ساكنين يبطئون ، وفى كثرة الحروف المتحركة يستعجلون ، وتذهب المهلة فى كلامهم ؛ فجعلوا الحركة عقب الإسكان ، وقيل له : فهلا لزموا حركة واحدة ؟ فقال : لو فعلوا ذلك لضيقوا على أنفسهم ؛ فأرادوا الاتساع فى الحركات ، وأن لا يخطروا المتكلم الكلام إلا بحركة واحدة » [2] .

وهذا الرأى الذى قاله قطرب لم يجد قبولاً فى أوساط اللغويين القدماء ؛ لأنه لا يتيح لهم الفرصة للتقنين ووضع القواعد على أسس ثابتة ؛ بحيث لا تكون عرضة للتغيير أو الأهواء الشخصية . ولو كان الأمر كما زعم « لجاز خفض الفاعل مرة ورفعه أخرى ونصبه ، وجاز نصب المضاف إليه ؛ لأن القصد فى هذا إنما هو الحركة تعاقب سكونًا ليعتدل به الكلام ، وأى حركة أتى بها المتكلم أجزأته فهو مخير فى ذلك ، وفى هذا فساد للكلام ، وخروج على أوضاع العرب وحكمة نظام كلامهم » [3] .

---

(١) أسرار العربية : ٢٤ و ٢٥ وشرح المفصل : ١/٧٢ .

(٢) الإيضاح : ٧٠ .

(٣) السابق : ٧١ .

(٣)

وقد تتبع الدكتور شوقى ضيف « القياس » عند النحويين ، وكشف عن منهجهم فى استخدامهم له ، وأتى بالنصوص المختلفة التى توضح ذلك ، وقبل الدخول فى العرض لموقف النحاة من القياس ، نشير إلى أن المعنى اللغوى له ، كما يقول ابن منظور : « قياس الشئ يقيسه قيساً وقياساً واقتاسه إذا قدره على مثاله » [(١)] ؛ أما فى الاصطلاح فهو عبارة عن رد الشئ إلى نظيره [(٢)] ؛ أى هو حمل غير المنقول على المنقول إذا كان فى معناه ، وهو معظم أدلة النحو ، والمعول فى غالب مسائله عليه [(٣)] ؛ لذلك فإن من التعريفات التى وضُعَتْ للنحو قولهم : « علم مستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب ، الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التى تأتلف منها » [(٤)] .

وتوقف الدكتور شوقى ضيف فى بداية كتابه أمام عبد الله بن أبى إسحق (-١١٧هـ) وما قاله ابن سلام من أنه « كان أول من بعج النحو ومد القياس وشرح العلل » ، وأشار إلى أن عيسى بن عمر الثقفى (- ١٤٩هـ) مضى على هدى ابن أبى إسحق يطرد القياس ويعممه ، ومن أقيسته ما حكاه سيبويه عنه من أنه كان يقيس النصب فى كلمة « يا مطرا » فى قول الأحوص :

سلام الله يا مطراً عليها ... وليس عليك يا مطر السلامُ

على النصب فى كلمة « يا رجلاً » ، وكأنه يجعل « مطراً » فى تنوينها ونصبها كالنكرة غير المقصودة .

ويستمر الأستاذ فى تتبع القياس فى المراحل الباكرة من حياة الدرس النحوى ، وأوضح أنه من معالم هذا الدرس عند مدرسة الكوفة ؛ لذلك ؛ كان الكسائى يؤمن بأن

---

(١) اللسان : ٦/ ١٨٧ .

(٢) التعريفات : ١٥٩ .

(٣) الاقتراح : ٤٠ .

(٤) المقرب : ١/٥٤ .

النحو إنما هو ضروب من القياس ، وما يطوى فيه من علل وحجج تشده وتقيم أوده حتى ليقول :

إنما النحو قياس يتبع   وبه فى كل علم ينتفع

بل قيل إن الكسائى « كان يسمع الشاذ الذى لا يجوز من الخطأ واللحن وشعر غير أهل الفصاحة والضرورات ؛ فيجعل ذلك أصلاً ويقيس عليه حتى أفسد النحو »[1] . وقد أشار إلى ذلك اليزيدى فى الأبيات الآتية :

كنا نقيس النحو فيما مضى   على لسان العُرب الأول
فجاءنا قوم يقيسونه   على لغو أشياخ قطر بل
فكلهم يعمل فى نقض ما   به يُصاب الحق لا يأتلى
إن الكسائىَّ وأشياعَه   يرقون بالنحو إلى الأسفل[2]

واهتم الخليل بالقياس ، ولا نغلو إن قلنا إن أقيسته أهم مادة شاد بها بناء النحو الوطيد ، ومما يصور قوتها عنده ، ودقتها ، حواره مع تلميذه فى رفع المنادى إذا كان مفرداً ، ونصبه إذا كان مضافًا أو نكرة غير مقصودة ، وجواز نصب نعت المنادى المفرد ورفعه ، وتحتم النصب لنعت المنادى المضاف[3] . وطبيعى أن يكثر القياس عند سيبويه ؛ لأنه الأساس الذى يقوم عليه وضع القواعد النحوية والصرفية واطرادها ، وهو يعتمد عنده فى أكثر الأمر على الشائع فى الاستعمال على ألسنة العرب ، كما يقوم على المشابهة بين استعمالاتهم فى الأبنية والعبارات المختلفة ؛ فمن ذلك أن نراه يقيس حذف العائد فى النعت على حذفه فى الصلة ، متمثلاً بقول جرير :

أَبَحْت حِمى تهامةَ بَعْدَ نَجْدِ   وما شَئٌ حَميت بِمُسْتباحِ

---

(١) معجم الأدباء : ١٣ / ١٨٣ .

(٢) بغية الوعاة : ٣٣٦ .

(٣) المدارس النحوية : ٥١ ، والحوار فى الكتاب : ١ / ٣٠٢ .

يريد الهاء ؛ (أى جميته) ، وقول الحارث بن كلدة :

فــمـــا أدرى أغَــيَّــرهم تَـنَاءٍ   وطُولُ العَـهْـدِ أم مَـالٌ أصَـابُوا

يريد : أصابوه [1] .

وكان المازنى (– ٢٤٩هـ) يتشدد فى الأخذ بالقياس ، ويُرِد ما لا يطرد معه من لغة العرب ، ومن بعض القراءات للذكر الحكيم ، ومن خير ما يصور ذلك عنده رده لقراءة نافع (معايش) بالهمز فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأعراف : ١٠] ، وكان ابن السراج (– ٣١٦ هـ) يعنى بالقياس عناية شديدة ، جعلته يهاجم من يعتدون بالشواذ والنوادر ، داعيًا إلى إسقاطها حتى لا يحدث اضطراب فى المقاييس النحوية والصرفية [2] . ويتعجب ابن جنى كثيراً من مهارة أبى على الفارسى فى القياس ، حتى ليقول عنه : « ما كان أقوى قياسه .. فكأنه كان مخلوقًا له » [3] ، ويروى عنه أنه كان يقول : « أخطئ فى خمسين مسألة فى اللغة ، ولا أخطئ فى واحدة من القياس » [4] .

وقبل أن نختم الحديث عن القياس ، نشير إلى أن النحويين درسوا « المطرد » و« الشاذ » ، واعتمدوا فى ذلك على القياس ، وقد توقف ابن جنى أمام مصطلحى المطرد والشاذ ، ويعنى الأول منهما أن فى الكلام تتابعًا واستمراراً ، أما الآخر فيعنى أن فيه تفرقًا وتشرداً ، ثم قال : « هذا أصل هذين الأصلين فى اللغة ، ثم قيل ذلك فى الكلام والأصوات على سمته وطريقه فى غيرهما ؛ فجعل أهل علم العرب ما استمر من الكلام فى الإعراب وغيره من مواضع الصناعة مطرداً ، وجعلوا ما فارق عليه بقية بابه ، وانفرد عن ذلك إلى غيره شاذاً ، حملاً لهذين الموضعين على أحكام غيرهما » [5] .

---

(١) المدارس النحوية : ٨٧ و ٨٨ .
(٢) الأصول : ١/ ٥٦ و ٥٧ .
(٣) الخصائص : ١ / ٢٧٧ .
(٤) السابق : ٢ / ٨٨ .
(٥) الخصائص : ١ / ٩٧ .

وينقسم الكلام من حيث الاطراد والشذوذ إلى أربعة أقسام :

١ - مطرد فى القياس والاستعمال جميعًا ؛ وذلك نحو : قام زيد ، وضربت عمراً ، ومررت بسعيد .

٢ - مطرد فى (القياس) شاذ فى (الاستعمال) ؛ وذلك نحو قولهم : مكان مبقل . هذا هو القياس ، والأكثر فى السماع « باقل » .

٣ - مطرد فى الاستعمال ، شاذ فى القياس ؛ وذلك نحو : استصوبت الشئ ، ولا يقال : استصبت الشئ .

٤ - شاذ فى القياس والاستعمال وهو كتتميم « مفعول » فيما عينه واو ، نحو : ثوب مصوون [١] .

ولقد أشار سيبويه إلى الشاذ ، ويرى « أن الشواذ فى كلامهم كثيرة » [٢] ، وأنه « لا ينبغى لك أن تقيس على الشاذ فى القياس » [٣] .

(٤)

ومما يميز منهج شوقى ضيف فى كتاب « المدارس النحوية » هذا الاهتمام الواضح بالشواهد ودراسته لها ، وبيان وجهات نظر النحاة حولها ، وإيضاح موضع الشاهد ، ونحاول تقديم بعض النصوص الخاصة بها ، ونبدأ أولاً بهذا العرض للقراءات القرآنية [٤] الذى قدمه الأستاذ للقراءات فى مواضع مختلفة من كتابه ، ونأخذ الكسائى مثالاً لذلك ؛ فهو الذى رأى أن يعاد النظر فى التأصيل العام لقواعد النحو ، وأن يفسح فيها للقراءات ، ومن ذلك الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [المائدة : ٦٩]

---

(١) السابق : ١ / ٩٧ - ٩٩ .
(٢) الكتاب : ١ / ٢٧٣ .
(٣) السابق : ١ / ٣٩٨ .
(٤) إن اهتمام د . شوقى ضيف بالقراءات والعرض لها فى « المدارس النحوية » امتد بعد ذلك حين حقق « كتاب السبعة فى القراءات » لابن مجاهد تحقيقًا علميًا ممتازًا ، وأصدره سنة ١٩٧٢ .

فقد لاحظ أن كلمة (والصابئون) عطفت بالرفع على اسم (إن) المنصوب قبل تمام الخبر ، وهو (من آمن بالله واليوم الآخر) فوضع قاعده عامة : أنه يجوز العطف على موضع (إن) واسمها ، وموضعهما الابتداء ، وهو مرفوع ، قبل مجئ الخبر ، فيقال : إن محمداً وعلى مسافران . ومنع ذلك البصريون ، وأجابوا عن الآية بجوابين : أحدهما أن خبر (إن) محذوف تقديره مأجورون أو آمنون أو فرحون ، و (الصائبون) مبتدأ وما بعده خبر ، واستشهدوا لذلك بقول بعض الشعراء :

خليلَّ هَلْ طبٌ فإنّي وأنْتُمَا وإن لم تبُوحَا بالهوى دَنفان

أي : فإني دنف كما تدل على ذلك بقية العبارة . والجواب الثانى أن الخبر المذكور في الآية خبر (إن) أما (الصابئون) فخبرها محذوف تقديره كذلك ، واستشهدوا لهذا الجواب بقول ضابئ بن الحارث البرمجي :

فمنْ يكُ أمْسى بالمدينة رَحْلُه فإني وقيّار بهما لَغريب

فـ « غريب » خبر « إن » بدليل دخول لام التوكيد عليه ، وخبر « قيار » محذوف تقديره كذلك . وكأنما أحس الفراء تلميذ الكسائى أن البصريين مصيبون في موقفهم ؛ لعدم جريان ذلك على ألسنة العرب ، فرأى أن يتوقف عند نص الآية ، وأن يخصص القاعدة بما يماثلها ، فقال إنه لا يجوز ذلك إلا فيما يظهر فيه عمل « إن » وهو الاسم المبنى مثل (الذين) في الآية وضمير المتكلم في بيت ضابئ [1] .

واهتمام شوقي ضيف بالقراءات ، إنما هو جزء من اهتمامه بالشواهد القرآنية بصفة عامة ، فقد حفل الكتاب بتلك الشواهد وتحليلها وتوجيه الإعراب الخاص ببعض كلماتها ؛ فابن كيسان (٢٩٩ هـ) كان يذهب إلى جواز تقدم الحال على صاحبها المجرور مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ .... ﴾ [سبأ : ٢٨] بينما كان سيبويه وكثير من البصريين يمنعون ذلك [2] وخطأ ابن السيد (-٥٢١هـ) من

(١) الإنصاف : المسألة (٢٣) ؛ والمدارس النحوية : ١٧٧ و ١٧٨ .
(٢) الرضى : ١ - ٨٩ ؛ المدارس النحوية : ٢٥١ .

يعرب (أن) فى قوله تعالى : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) ﴾ [المائدة : ١١٧] مصدرية ، وهي وما بعدها عطف بيان من الضمير فى (به) لأن الضمير لا ينعت ولا يعطف عليه بيان ، إنما هى فى الآية تفسيرية للقول على تأويله بالأمر [١] . ويرى ابن الطراوة (- ٥٢٨هـ) أن (أيًّا) فى مثل قوله جل شأنه : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩) ﴾ [مريم : ٦٩] مبنية لانقطاعها عن الإضافة و (هم أشد) مبتدأ وخبر ، والنحاة يجمعون على أن (أيًّا) إذا اقتطعت عن الإضافة أعربت [٢] .

وتوقف أمام الشواهد الشعرية وعرض للخلافات بين النحاة حول توجيه إعراب كلماتها ومعانيها ، وأشار إلى موقف البصريين والكوفيين من تلك الشواهد ، وما قال به القدماء من أنه « لو سمع الكوفيون بيتًا واحداً فيه جواز شئ مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوبوا عليه [٣] و « عادة الكوفيين إذا سمعوا لفظًا فى شعر أو نادر كلام جعلوه بابًا أو فصلاً » [٤] .

والاهتمام بأبيات الشعر سواء أكانت شواهد أم لا نجده فى الصفحات الأولى من الكتاب ؛ فقد كان ابن أبى إسحق (- ١١٧هـ) كثير التعرض للفرزدق لما كان يورد فى أشعاره من بعض الشواذ النحوية ، ويذكر الرواة أنه حين سمعه ينشد قوله فى مديحه لبعض بنى مروان :

وعضُّ زمانٍ يابنَ مروانَ لم يَدَعْ ... منَ المالِ إلا مسحتًا أو مجرّفُ

اعترضه لرفعه قافية البيت ، وكان حقها النصب ؛ لأنها معطوفة كما يتبادر على كلمة « مسحتًا » المنصوبة ، أو بعبارة أدق ؛ لأن القياس النحوى يحتم ذلك ويوجبه ،

---

(١) المغنى : ٤٩ .
(٢) السابق : ١٠٩ .
(٣) الاقتراح : ٨٤ .
(٤) الهمع : ١ - ٤٥ .

ويظهر أن الفرزدق قصد إلى الاستئناف حتى لا يحدث فى البيت إقواء يخالف به حركة الروى فى القصيدة [1] ، وكان يونس بن حبيب (- ١٨٢هـ) يذهب إلى أن الشاعر فى قوله :

إنْ تركبوا فركوبُ الخيل عادتنا أو تَنزلون فإنّا مَعْشَرٌ نُزُلُ

أراد : أو أنتم تنزلون ؛ فعطف الجملة الاسمية على الجملة الشرطية [2] .

وقد سأل سيبويه الخليل عن سبب رفع « أو تنزلون » فى بيت الأعشى وهى معطوفة على فعل مجزوم ، فقال : كأنه توهم أنه قال فى أول البيت « أتركبون » فرفع بالضبط كما جاء عند زهير من قوله :

بَدَا لِى أنّى لستُ مدركَ ما مَضَى ولا سابقٍ شيئًا إذا كان جائياً

فقد عطف « سابق » بالجر على « مدرك » المنصوبة ، كأنه توهم أن « مدرك » مجرورة ؛ لأنه يكثر أن يأتى خبر ليس مجروراً بباء زائدة [3] .

ومن هنا فالشواهد عند الخليل هى مدار القاعدة النحوية ، وهى إنما تستنبط من الأمثلة الكثيرة ؛ إذ لابد لها من الاطراد على ألسنة العرب ؛ فإن جاء ما يخالف القاعدة المستنبطة المحكمة كان شاذاً ، ولا بأس بأن يبحث له الخليل عن تأويل [4] ؛ ولذلك أهتم العلماء بالشواهد الشعرية فى (الكتاب) ، وكان أول من عنى بذلك الجرمى وفى ذلك يقول : « نظرت فى كتاب سيبويه ؛ فإذا منه ألف وخمسون بيتًا ؛ فأما الألف فقد عرفت أسماء قائليها فأثبتها . وأما الخمسون فلم أعرف أسماء قائليها » [5] . وعنى بعده كثيرون بشرح هذه الشواهد ، فى مقدمتهم المبرد والزجاج والسيرافى ، وكان سيبويه من الثقة بحيث لم يطعن أحد فى شئ مما أنشده من الأشعار المجهولة القائل ، ولا علق عليه باهتمام أو إنكار ، وفى ذلك يقول صاحب الخزانة : « الشاهد

---

(١) المدارس النحوية : ٢٣ .
(٢) المغنى : ٩٠٩ .
(٣) الكتاب : ١ - ٤٢٩ .
(٤) المدارس النحوية : ٤٧ .
(٥) الخزانة : ١ - ١٧٨ .

المجهول ... إن صدر من ثقة يعتمد عليه قبل وإلا فلا ؛ ولهذا كانت أبيات سيبويه أصح الشواهد ، اعتمد عليها خلف بعد سلف ، مع أن فيها أبياتًا عديدة جهل قائلوها وما عيب بها ناقلوها » [١] .

واهتم شوقى ضيف بالشواهد عند الخالفين من النحاة ، بالإضافة إلى توقفه أمام الشواهد عند الكوفيين ؛ فقد عنيت تلك المدرسة برواية الأشعار القديمة وصنعة دواوين الشعر ، وإن كانت لم تعن بالتحرى والتثبت فيما جمعت من أشعار ، حتى ليقول أبو الطيب اللغوى : « الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله ؛ وذلك بين فى دواوينهم » [٢] .

ويقارن شوقى ضيف بين المدرستين من حيث الاتساع فى رواية الأشعار قائلاً : « لعل أهم ما يميز المدرسة الكوفية من المدرسة البصرية اتساعها فى رواية الأشعار وعبارات اللغة عن جميع العرب بدويهم وحضريهم ، بينما كانت المدرسة البصرية تتشدد تشدداً جعل أئمتها لا يثبتون فى كتبهم النحوية إلا ما سمعوه من العرب الفصحاء الذين سلمت فصاحتهم من شوائب التحضر وآفاته ، وهم سكان بوادى نجد والحجاز وتهامة [٣] من « قيس وتميم وأسد ؛ فإن هؤلاء الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل فى الغريب وفى الأعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ، وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ، ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم » [٤] .

ولعل الحديث عن الشواهد الشعرية يدفعنا إلى الحديث عن موقف المدرستين من « الضرورة الشعرية » ؛ فقد جوز النحاة فى التمييز توسطه بين الفعل ومرفوعه ، مثل : « طاب نفسًا محمد » ، أما تقدمه على معموله ، مثل : « نفسًا طاب محمد » فمنعه

---

(١) السابق : ١ - ٨ .
(٢) مراتب النحويين : ٧٤ .
(٣) المدارس النحوية : ١٥٩ .
(٤) المزهر : ١ - ٢١١ .

سيبويه وجمهور البصريين وجوزه الكسائي وتبعه في ذلك المازني والمبرد ؛ لوروده على لسان بعض الشعراء في قوله :

أَتَهْجُر سَلْمَى بِالفراقِ حبيبَها ... وما كانَ نَفْساً بالفراق تطيبُ

واحتج البصريون بأن ذلك لم يرد في نثر ، وإنما جاء على لسان الشاعر ضرورة ، ولا يحتج بالضرورة ؛ لأنها تبيح مالا يباح »[1] .

ولكن ليس معنى ذلك رفض البصريين للضرورة على الإطلاق ، إنما يرفضون أن نجد تراكيب نحوية على أمثالها . قال سيبويه : « وقد يجوز النصب في الواجب في اضطرار الشعر .. فمما نصب في الشعر اضطراراً قول الشاعر :

سَأَتْرُكُ مَنْزِلِي لِبَنِي تَمِيم ... وأَلْحَقُ بالحجازِ فأستريحا

وقال الأعشى ، وأنشدناه يونس :

ثُمَّت لا تَجْزُونَنِي عِنْدَ ذاكم ... ولكن سَيَجزيني الإلهُ فَيعقبا

وهو ضعيف في الكلام »[2] .

وتوقف شوقي ضيف أمام الروايات الشاذة لبعض الأشعار ، وأشار إلى نقد النحويين لها . وبيان وجه الصواب فيها ؛ فإن على بن حازم اللحياني له روايتان شاذتان شذوذاً شديداً دارتا في كتب النحو ؛ أما الأولى فروايته أن من العرب من يجزم بـ « أن » الناصبة للمضارع ؛ إذ ذكر بعض بني صباح من ضبة أنشده قول امرئ القيس :

إذَا مَا غَدَوْنَا قَالَ وِلْدانُ أَهْلِنا ... تَعَالوا إلى أَنْ يأتنا الصَّيد نحطبُ

وقول بعض الرجاز :

أُحَاذِرُ أن تَعْلَم بِها فَتَرُدَّها ... فتتركها ثقلاً عليَّ كما هِيَا

---

(١) الإنصاف : المسألة (٢٠) ؛ وشرح المفصل : ٢ - ٧٣ .
(٢) الكتاب : ١ - ٤٢٣ ، والمدارس النحوية : ٨٢ .

ويروى البيت الأول « إلى أن يأتى الصيد » وإذن تسقط رواية اللحيانى . أما البيت الثانى فقال ابن هشام : فيه نظر ؛ لأن الراجز عطف على الفعل المسكن أفعالاً منصوبة ، مما يدل على أنه مسكن للضرورة لا مجزوم .

وأما الرواية الثانية فما ذكره من أنه سمع بعض العرب ينصب بـ « لم » الجازمة مثل « لن » تماماً كقول بعض رجازهم :

فى أىّ يومٍ من الموت أفـــــر أيومَ لم يُقَــــدرَ أم يوم قُـــدِر

وكقراءة بعض القراء شذوذاً : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحَ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾[الشرح : ١] بفتح الحاء ، وخرج ذلك بعض النحاة على أن الأصل « لم يقدرن » و (ألم نشرحن) ثم حذفت نون التوكيد الخفيفة وبقيت الفتحة دليلاً عليها [1] . ويعلق الدكتور شوقى ضيف على هذا قائلاً : « وهى على كل حال صيغ شاذة لا يعول عليها فى القواعد المطردة » [2] .

ويقودنا هذا الحديث عن الشواهد إلى التوقف أمام أمر مهم يتصل بها وهو « السماع » الذى يساعدهم على الاستقراء الدقيق للقواعد النحوية ؛ لذلك تحدثنا كتب الطبقات ، والتراجم عن تلك الرحلات التى قام بها الأوائل من النحويين ، واللغويين ، إلى أعماق نجد ، وبوادى الحجاز ، وتهامة لجمع المادة اللغوية ، من ينابيعها الصافية التى لم تفسدها الحضارة ، وبعبارة أخرى رحلوا إلى القبائل المتبدية المحتفظة بملكة اللغة وسليقتها الصحيحة ، وهى قبائل تميم ، وقيس ، وأسد ، وطيئ ، وهذيل ، وبعض عشائر كنانة ، وأضافوا إلى هذا الينبوع الأساسى ينبوعاً بدوياً زحف إلى بلدتهم من بوادى نجد ، وهو نفر من الأعراب الكاتبين قدم إلى البصرة ، واحترف تعليم شبابها الفصحى السليمة وأشعارها وأخبار أهلها ، وفى « الفهرست » لابن النديم ثبت طويل بأسماء هؤلاء المعلمين من الأعراب الذين وثقهم علماء البصرة ، وأخذوا عنهم كثيراً من المادة اللغوية ، والنحوية سجلوها فى مصنفاتهم [3] ، ومن بين تلك المادة اللغوية الشواهد التى عول عليها النحويون كثيراً فى أعمالهم العلمية ، وقد حرص سيبويه على

(١) المغنى : ٣٦٥ .
(٢) المدارس النحوية : ١٨٧ .
(٣) المدارس النحوية : ١٨ و ١٩ .

رواية أكبر قدر منها حين أخذ عن السابقين عليه ، وقدم الأستاذ على النجدى ناصف إحصاء بالرواية عنهم بصفة عامة كما يلى :

الخليل بن أحمد : ٥٢٢ مرة .

يونس بن حبيب : ٢٠٠ مرة .

الأخفش : ٤٧ مرة .

أبو عمرو بن العلاء : ٤٤ مرة .

عيسى بن عمر : ٢٢ مرة .

أبو زيد الأنصارى : ٩ مرات .

هارون بن موسى : ٥ مرات .

عبد الله بن أبى إسحق : ٤ مرات .

ويدل هذا الإحصاء على أهمية رواية اللغة بصفة عامة ، والشواهد بصفة خاصة .

(٥)

ومما يميز منهج القدماء فى الدرس النحوى ، وأشار إليه شوقى ضيف ما أسماه « الانتخابات » ، ومعناه أن المدارس النحوية التى أتت بأخرة مثل المدرسة البغدادية ، أو التى نشأت بعد أن استقرت الأسس النحوية على يد مدرستى البصرة والكوفة ، قامت على أساس الانتخاب من آراء المدرستين ، يقول : « اتبع نحاة بغداد فى القرن الرابع نهجًا جديداً فى دراساتهم ومصنفاتهم النحوية ، يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية جميعاً ، وكان من أهم ماهيأ لهذا الاتجاه الجديد أن أوائل هؤلاء النحاة تتلمذوا للمبرد وثعلب ، وبذلك نشأ جيل من النحاة يحمل آراء مدرستيهما ، ويعنى بالتعمق فى مصنفات أصحابهما ، والنفوذ من خلال ذلك إلى كثير من الآراء النحوية الجديدة »[1] .

---

(١) المدارس النحوية : ٢٤٥ .

ولكن المدرسة البغدادية لم تكتف بالانتخاب ، وإنما كانت لها آراء مستقلة ، مثلما نجد عند أبى على الفارسى ، قال الدكتور شوقى ضيف : « وليس كل ما يشكل بغدادية أبى على أنه كان ينتخب لنفسه من المذهبين الكوفى والبصرى ؛ بل يشكلها أيضاً أنه كان يجتهد وينفرد بآراء لم يسبق إليها ، من ذلك أن سيبويه وجمهور البصريين كانوا يذهبون إلى أن العامل فى المعطوف هو العامل فى المعطوف عليه ؛ فمثل : كلمت محمداً وعليًا ، انتصب محمد وعلى جميعًا بـ « كلمت » . وذهب ابن السراج إلى أن حرف العطف هو العامل ، أما أبو على فرأى أن العامل فى المعطوف فعل محذوف بعد أداة العطف ؛ لأن الأصل فى مثل : كلمت محمداً وعليًا ، كلمت محمداً وكلمت عليًا ، فحذف الفعل بعد الواو ؛ لدلالة الأول عليه بدليل أنه يجوز إظهاره »(1) . وهناك مسائل أخرى كان لأبى على رأية الخاص الذى لم يسبق إليه .

وكان ابن جنى تلميذ أبى على ينتخب لنفسه أيضًا من آراء المدرستين ، ويقول عن البصريين : « أصحابنا » (2) ؛ لأنه كان أكثر ميلاً إليهم ، ومع ذلك فإن له آراء خاصة خالف فيها البصريين والكوفيين وأستاذه أبا على ؛ فمن ذلك أنه ذهب إلى أن « إلا » تأتى زائدة مستدلاً بقول ذى الرمة فى وصف النوق :

حَراجيجُ ما تنفكُّ إلا مُناخةً ... عَلَى الخَسْفِ أو نَرْمى بها بلداً قَفْراَ (3)

وكان الجمهور يذهب إلى أن « لا » العاملة عمل « ليس » لا تعمل إلا فى النكرات ، وذهب إلى أنها تعمل أيضًا فى المعارف ؛ لقول النابغة :

وحلَّت سَواد القَلْبِ لا أنا باغِياً ... سِواَها ولا عن حبُهَّا مُتَراَخِيًا (4)

وذهب ابن جنى إلى أن « أنْ » بفتح الهمزة قد تكون ظرفية زمانية ، مستشهداً بقول بعض الشعراء :

وتُالله ما إنْ شهلةٌ أم واحدٍ ... بأوجدَ منّى أنْ يُهان صغيرها (5)

---

(1) المدارس النحوية : ٢٦٠ و ٢٦١ .
(2) الخصائص : ١ / ١٣٧ .
(3) المغنى : ١٠٢ .
(4) السابق : ٣١٦ .
(5) السابق : ٤٠١ .

ونستمر فى التعرف على موقف كبار النحاة من المدرستين ، فنصل إلى ابن هشام الذى كان يختار من المدرستين الكوفية والبغدادية ، وكان يختار لنفسه أيضًا من المدرسة البغدادية والأندلسية ، ومما اختاره من آراء أبى على الفارسى أن « حيث » قد تقع مفعولاً به كما فى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ { الأنعام : ١٢٤ } ، ووافق ابن جنى فى أن الجملة قد تبدل من المفرد كقول بعض الشعراء :

إلى اللّه أشكُو بالمدينة حاجةً ... وبالشّامِ أُخْرى كيف يَلْتَقيانِ

على تقدير أن جملة الاستفهام « كيف يلتقيان » بدل من كلمتى « حاجة وأخرى » ؛ أى إلى الله أشكو حاجتين : تعذر التقاؤهما [١] .

وأكثر الأندلسيين دورانًا فى مصنفات ابن هشام ، ابن عصفور وابن مالك وأبو حيان ، ومما اختاره من آراء الأول أن « لن » قد تأتى للدعاء ، والحجة فى ذلك قول الأعشى :

لَنْ تزالُوا كذلكم ثُمّ لازلْـ ... ـتُ لكم خالداً خُلودَ الجبالِ

وأن محل الجملة فى التعليق النصب ؛ ولذلك يعطف عليها بالنصب مثل « عرفت من زيد وغير ذلك من الأمور » ، وكان ابن عصفور يستدل بقول كثير :

وما كُنْتُ أدْرِى قَبْلَ عزّةَ ما البكا ... ولا موجعاتِ القَلْبِ حتّى تولّتِ

بنصب « موجعات » وعطفها على عبارة « ما البكا » التى علق عنها فعل « أدرى » [٢] . أما ابن مالك فهو صاحبه الذى عنى بشرح مصنفاته مثل « التسهيل » و« الألفية » ، ومن يقرؤه فى « أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك » يجده يتابعه فى جمهور آرائه ،

---

(١) المغنى : ١٧٧ .

(٢) السابق : ٥٤٦ .

وقلما خالفه ، وقد حكى آراءه أو قل كثيراً منها فى كتابه « المغنى » ، وتارة يوافقه ، وتارة يخالفه (١) .

وقد أخذت الدراسات النحوية تنشط فى مصر نشاطًا واسعًا منذ عصر ابن هشام ؛ كما أخذ يتكاثر واضعوا الشروح والحواشى على مصنفات ابن هشام وابن مالك ، وأول من نلقاه منهم ابن عقيل (-٧٦٩هـ) الذى خالف ابن مالك وانحاز فى بعض الآراء لسيبويه والبصريين ، من ذلك ذهاب ابن مالك إلى أن الأسماء الستة معربة بالحروف ، بينما ذهب سيبويه إلى أنها معربة بحركات مقدرة على الواو والألف والياء ، وبرأيه أخذ ابن عقيل ناعتًا بأنه هو الصحيح (٢) .

ولعله من المفيد أن نشير إلى أن مسألة « الانتخاب » من آراء البصرة والكوفة ؛ ثم الأندلس وبغداد عند متأخرى النحاة يرتبط بها الخلافات بين النحاة ؛ لأن هذا الانتخاب يقوم أساساً على الاختلاف فى الرأى وعدم الموافقة عليه ؛ فإذا كان ابن جنى - مثلاً - يختار رأياً خاصاً بالكوفيين ؛ فهذا يدل على عدم موافقته للبصريين وهكذا ، وقد اتسع الخلاف بين البصريين والكوفيين حتى إن ابن الأنبارى (- ٥٧٧هـ) من المدرسة البغدادية ألف كتابًا مهمًا هو « الإنصاف فى مسائل الخلاف » جمع فيه أهم المسائل التى اختلف فيها علماء المدرستين ، وكانت عدة هذه المسائل مائة وإحدى وعشرين مسألة ، وكان ابن الأنبارى بصرى الهوى ، ولم يستطع التخلص من ذلك ؛ فلم يؤيد الكوفيين إلا فى سبع مسائل هى : ١٠و١٨و٢٦و٧٠و٩٦و١٠١و١٠٦ .

(٦)

ويعد « التحليل اللغوى » للألفاظ والعبارات والجمل من أسس الدرس النحوى عند القدماء ، وهو أيضا من معالم منهج « المدارس النحوية » ؛ إذ إن الدكتور شوقى ضيف قد اهتم بالتوقف أمام الجمل والعبارات الافتراضية ، وشرح النصوص النحوية الخاصة بها ، وكشف عما احتوته من تحليلات ، وتتبع بعض الجمل والألفاظ عند النحاة لبيان وجهات نظرهم ، ولم يقتصر على نحوى دون آخر ، ومن ذلك أن اسم

---

(١) المدارس النحوية : ٣٥٣ .

(٢) المدارس النحوية : ٣٥٥ و ٣٥٦ .

الفعل « هلم » مركب من « ها » للتنبيه وفعل « لم » أى « لم بنا » ؛ ثم كثر استعمال الصيغة فحذفت الألف من « ها » تخفيفًا ؛ لأن اللام بعدها وإن كانت متحركة فإنها فى حكم الساكنة ، وكأنها حذفت لالتقاء الساكنين ؛ فصارت « هلم » ، وهذا التحليل قاله الخليل ؛ أما الفراء فذهب إلى أن أصلها « هل أم » من فعل « أم » أى قصد ؛ فخففت الهمزة بأن ألقيت حركتها على اللام وحذفت ؛ فصارت « هلم » . ويعلق الدكتور شوقى ضيف على الرأيين قائلاً : « وتخريج الخليل أقرب ؛ لأنها خلو من معانى الاستفهام » (١) . ويرى الخليل أن لفظة « مهما » الشرطية أصلها « ما » ثم دخلت عليها « ما » التى تدخل على أخواتها الشرطيات مثل « أينما » ، واستقبح التكرار فى « ماما » فأبدلت الألف الأولى هاء ؛ لأنها من مخرجها وحين اللفظ بها (٢) . ويرى ابن هشام أنها بسيطة لا مركبة من « مه » و« ما » الشرطية ، ولا من « ما » الشرطية و« ما » الزائدة ؛ ثم أبدلت الهاء من الألف الأولى دفعًا للتكرار (٣) . ومن ذلك « لن » التى يرى الخليل أنها فى الأصل « لا أن » فحذفت الهمزة تخفيفًا والألف لالتقاء الساكنين ، وكأنه وصلها بأن حتى يعلل لنصبها المضارع ، وذهب الفراء إلى أن أصلها « لا » وأبدلت الألف نونًا فيها على نحو ما أبدلت ميمًا فى « لم » . ولا يوافق ابن هشام على ذلك ؛ لأن المعروف إنما هو إبدال النون ألفًا لا العكس نحو : (لنسفعًا) (٤) و (ليكونا) (٥) ، وأما رأى الخليل فلا يجوز أيضًا بدليل جواز تقديم معمول معمولها عليها نحو : « زيد لن أضرب » خلافا للأخفش الصغير (- ٣١٥هـ) (٦) ؛ ويستمر الدكتور شوقى ضيف فى التحليل للألفاظ ، وبيان وجهات نظر البصريين والكوفيين ، والتعليل لما يقولون ، مع بيان وجهة نظره فى بيان أصول تلك الألفاظ (٧) .

وعلى نحو ما اهتم بتحليل الألفاظ ، اهتم كذلك بالتحليل النحوى للجمل والعبارات

---

(١) المدارس النحوية : ٣٧ و ٢٠٢ .
(٢) الكتاب : ١ / ٤٣٣ .
(٣) المغنى : ٤٣٦ .
(٤) العلق : ١٥ .
(٥) يوسف : ١٢ .
(٦) المغنى : ٣٧٤ .
(٧) انظر : المدارس النحوية : ٢٠٣ وما بعدها .

الافتراضية ، وبيان آراء النحاة حول ذلك ؛ فإن عيسى بن عمر الثقفي (-١٤٩هـ) كان يلفظ قولهم : « ادخلوا الأول فالأول » برفع الكلمتين الأخيرتين على تقدير أنهما مرفوعتان بفعل مضارع محذوف تقديره « ليدخل » [١] . وكأنه لقن تلميذه الخليل النحاة من بعده فكرة تقدير العوامل المحذوفة التي عمموها في كثير من العبارات [٢] .

وهناك التحليل النحوي للجمل عند الخليل وسيبويه أيضًا ؛ فقد عرض سيبويه لما انجزم بالأمر في مثل « ائتني آتك » ، وبالنهي في مثل : « لا تفعل يكن خيراً لك » ، وبالاستفهام في مثل : « ألا تنزل تصب خيراً » ؛ ثم نقل عن الخليل أن كل هذه الصيغ فيها معنى « إن الشرطية ، لأن القائل إذا قال « ائتني آتك » فإن معنى كلامه : إن يكن منك إتيان آتك ، وهكذا الصيغ التالية [٣] .

وأشار شوقي ضيف إلى غير الصحيح نحوياً في العبارات والتراكيب عند الخليل وسيبويه ، وتعليل ذلك كما في صيغة التعجب في مثل : ما أحسن عبد الله ؛ فقد ذكر أنه بمنزلة قولك : شئ أحسن عبد الله ، ودخل « ما » معنى التعجب ، ويقول : إنه تمثيل ، ولم يتكلم به العرب [٤] . ومن ذلك أيضًا قوله : « واعلم أن ناسًا من العرب يغلطون فيقولون : إنهم أجمعون ذاهبون ، وإنك وزيد ذاهبان » [٥] . وهو بذلك يقرر أن توكيد اسم « إن » والمعطوف عليه ينبغي أن يكونا جميعًا منصوبين ؛ لأنهما يتبعان منصوبًا » [٦] .

واهتم الدكتور شوقي ضيف بالعرض لما عند الجيل التالي من التحليل النحوي للجمل والعبارات ، وبيان موقفهم من تخريج البصريين والكوفيين لذلك ، ونكتفي في هذا الصدد بابن جني ؛ فقد أخذ بوجهة النظر الكوفية في مسائل مختلفة ، ومن ذلك إعمال « إن » النافية عمل « ليس » متابعًا في ذلك أستاذه أبا علي الفارسي ، وإن

---

(١) الكتاب : ١ / ١٩٩ .
(٢) المدارس النحوية : ٢٦ .
(٣) السابق : ٣٩ .
(٤) الكتاب : ١ / ٣٧ .
(٥) الكتاب : ١ / ٢٩٠ .
(٦) المدارس النحوية : ٨١ ، وانظر كتابنا : التراكيب غير الصحيحة نحوياً في (الكتاب) لسيبويه .

لاحظ أن إعمالها يشوبه غير قليل من الضعف ، يقول تعليقًا على قراءة سعيد بن جبير : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) ﴾[الأعراف : ١٩٤ } : « ينبغي أن تكون (إن) هذه بمنزلة (ما) فكأنه قال : ما الذين تدعون من دون الله عبادًا أمثالكم ؛ فأعمل (إن) النافية إعمال (ما) وفيه ضعف ؛ لأن (إن) هذه لم تختص بنفي الحاضر اختصاص (ما) به ؛ فتجرى مجرى « ليس » في العمل » [1] . وكان الكسائي يجيز وجود الفعل بدون فاعل ، على نحو ما أجاز ذلك في مثل : قام وقعد عمرو ؛ إذ ذهب إلى أن « عمرًا » فاعل « قعد » و « قام » لا فاعل لها ، وتبعه أبو علي الفارسي يحتم ذلك في « قل » حين تتصل بها « ما » ، ويقول ابن جني : « قلما يقوم زيد ، دخلت فيه ما على قل كافة لها عن عملها ، ومثله : كثر ما وطالما » [2] .

(٧)

واهتم شوقي ضيف بالمصطلحات النحوية اهتمامًا بالغًا وبين مفهومها لدى الأوائل من النحاة العرب ، وما طرأ عليها من تغييرات ، وما جد من مصطلحات عند متأخري النحاة ولعله من المفيد أن نشير أولاً إلى أن بعض المصطلحات المتداولة على الألسنة لم تكن مفهومة لدى الأعراب ؛ فقد روى الجاحظ « عن الربيع بن عبد الرحمن السلمي أنه قال : قلت لأعرابي : أتهمز إسرائيل ؟ قال : إني إذا لرجل سوء . قال : قلت : أفتجر فلسطين ؟ قال : إني إذا لقوي » [3] . وقد « سمع بعض فصحاء العرب ينشد : نحن بني علقمة الأخيار ؛ فقيل له : لم نصبت بني ؟ فقال : ما نصبته ؛ وذلك أنه لم يعرف من النصب إلا إسناد الشئ » [4] .

وقد أشار الدكتور شوقي ضيف إلى دور الخليل وسيبويه في مجال النحو

---

(١) المحتسب : ١ / ٢٧٠ .
(٢) الخصائص : ١ - ١٦٧ و ١٦٨ .
(٣) البيان والتبين : ٢ - ٢٢٠ .
(٤) الصاحبي : ٣٥ .

والصرف بصفة عامة ، ووضع المصطلحات بصفة خاصة ، قال : « ولا ينكر أحد ما لسيبويه من إكمال في العلمين وتتميم ، ولكن المهم أن واضع تخطيطهما وراسم لوحتيهما إنما هو الخليل ، يتضح ذلك في محاوراته التي لا تكاد تنتهي مع تلميذه ، والتي تدور فيها مصطلحات النحو والصرف وأبوابها من مثل : المبتدأ والخبر ، وكان وإن وأخواتها ، والأفعال اللازمة ، والمتعدية إلى مفعول به واحد أو مفعولين أو مفاعيل ، والفاعل والمفاعيل على اختلاف صورها ، والحال ، والتمييز ، والتوابع ، والنداء ، والندبة ، والاستغاثة ، والترخيم ، والممنوع من الصرف ، وتصريف الأفعال ، والمقصور والممدود والمهموز ، والمضمرات ، والمذكر والمؤنث ، والمعرب والمبني ، وهو الذي سمى علامات الإعراب في الأسماء باسم الرفع والنصب والخفض ، وسمى حركات المبنيات باسم الضم والفتح والكسر ؛ أما سكونها فسماه الوقف ، وسمى الكسرة غير المنونة في مثل : مررت بعبد الله باسم الجر ؛ كما سمى السكون الذي يقع أواخر الافعال المضارعة المجزومة باسم الجزم » [١] .

ومن هنا فإن المصطلحات النحوية والصرفية ، التي شاعت في العصر الحالي كان لكتاب سيبويه الفضل الأول في إشاعتها وإذاعتها ، وكأنه لم يترك للنحاة من بعده إلا ما لا خطر له ، كأن يميزوا بعض المصطلحات ، أو يضيفوا مصطلحات جديدة لغرض الدقة في التوضيح . ويأتي الدكتور شوقي ضيف بالمصطلحات ويشرحها ويوضحها ويبين مفهوم سيبويه لها [٢] ، وهذا يبين نور البصرة في مجال المصطلح .

وإذا كان الأستاذ قد اهتم بالعرض لمصطلحات البصريين ؛ فإنه اهتم أيضًا بالعرض لمصطلحات الكوفيين ويبين أنهم أكثروا من التبديل والتغيير حتى تكون لهم مدرسة مستقلة ، ونجد عرضًا لمصطلحاتهم وما خالفوا فيه البصريين . ويعتمد هذا العرض على النصوص ؛ خاصة عند الفراء . وبعد ذلك يقرر الدكتور شوقي ضيف أنها لم تسد في النحو العربي ، وإنما كانت السيادة لمصطلحات البصريين لدقتها المنطقية ، وبقية مصطلحات الكوفيين يقصد بها مجرد الخلاف .

---

(١) المدارس النحوية : ٣٤ و ٣٥

(٢) السابق : ٦١ و ٦٢

* * *

وبعد هذه المحاولة للتعرف على منهج الدكتور شوقى ضيف فى كتاب « المدارس النحوية » ، ونشير إلى أن هذا الكتاب حافل بالموضوعات القيمة ، والمباحث المفيدة ، وهو يحتاج إلى عدة دراسات تتخذه نبراسًا لها ، وتكشف عن مكنوناته ونفائسه ، وحسبى أن يكون بحثى هذا مجرد تحية ، لعالم ، على رأس جيل من أساتذة دارسى اللغة العربية .

أ.د. محمود سليمان ياقوت

أستاذ النحو واللغة

كلية الآداب - جامعة طنطا

١٣ - ذكرياتى مع الدكتور شوقى ضيف

د . أحمد عبد الستار الجوارى

عرفت شوقى ضيف أول ما عرفته مؤلفًا لكتاب معجب قيم ، طار صيته فى أوساط الأدباء ، وطلاب الأدب العربى المولعين به وبتاريخه ، ذلك هو كتاب « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » . وتمثلته شابًا نشيطًا سريع الحركة ، يفيض حيوية ، ويتدفق مرحًا ، ثم كتب الله لى أن أجلس بين يديه طالبًا فى كلية الآداب ، فإذا بى تجاه رجل عليه من وقار العلماء ، سيماء واضحة ، وفيه من شغف بالعلم والتعليم ذخيرة يكتنزها فى ذهن نشط وفكر جوال ، لم يكن فيه من طباع من كانوا فى مثل سنه ، وفى مثل موقعه ، تلك الخفة وذاك الطيش ، ولكن فيه نشاط الشباب ، وقدرته على العمل الدائب فى صبر وفى جلد ، وفيه جد وفيه استقامة وحرص ، حتى إنه لم يكن يهدر من وقت الدرس شيئًا فى غير جواب عن سؤال ، أو شرح لمسألة ، يطلب إليه شرحها .

ومرت أيام الدراسة ، وكلما تعاقب مدار الزمن ، ازددت بشوقى حبًا وإعجابًا ، ولكنه إعجاب مشوب بشئ من المهابة التى قد تصل إلى الرهبة ؛ لأنه كان حريصًا على ألا يؤثر من طلبته أحدًا على أحد ، ولا يخص بعضهم بما يزيد من حقه عليه كأستاذ مرشد موجه .

ثم جمعتنا أبوة ذلك الطور الشامخ ، والعلم الفرد أحمد أمين ، فصرنا نلتقى أخوين : كبيرًا يحنو على أخ له صغير ، يفتح له قلبه ويفسح له فى عواطفه ومشاعره ، ويبذل له من جهده العلمى القيم ، ما أعانه على المضى فى بلوغ ما أراد من درجات علمية .

كل ذلك الود ، وكل تلك الأخوة الصادقة ، كان يزينها جد وحرص ، ووقوف عند

جانب الحق والصدق بلا تساهل ولا مجاملة ، وكانت مقالة الصدق على لسانه حبيبة محببة ، لا يضيق بها الصدر ، ولا تتكرها المشاعر .

وظل شوقي ضيف أخٌ يسر لما يسر به أخوه ، يتفقد ويتحسس مكانه من نفسه ، وامتد ذلك الود ، واتسع مداه حتى بلغ الأسرة الكريمة النحيبة ، وزاد فيها أن أم عاصم كانت أختًا وبودة ، صادقة الأخوة عميقة المودة ، وكان والدها المربى الفاضل والمعلم الجليل أبًا لهذه الأسرة ، يفيض عليها من كريم خلقه وفيض محبته ما يؤنس ، وما يملأ النفس راحة وأمنًا وطمأنينة ، رحمه الله وأجزل له واسع المثوبة والرحمة .

إن في الدكتور شوقي ضيف من مزايا الجد والصدق والحرص على إتقان العمل ما لا يعرفه إلا الذين عاشروه وخبروه عن قرب ، وتغلغلوا في صميم نفسه وفي سويداء قلبه مثلما كان من كاتب هذه السطور ؛ ومثل من ذلك أن كان واحداً من أعضاء لجنة مناقشتي في الدكتوراه ، لقد حرص وأصر على أن يتحفني بنتائج دراسته للرسالة ، جذاذات مكتوبة بخطه الجميل المنظم ، وأسلوبه الرشيق ، وأفكاره الهادية المرشدة السديدة .

ويشهد الله أن ما كسبت من الجلوس في الدرس بين يديه لا يقل ، بل قد يفوق ما أخذته عنه أخذاً مباشراً في جلسات خاصة ، كان يؤثرني فيها بكل طيب في المادة والمعنى ، وما يزال ولن يزال بإذن الله يواليني من التوجيه الرفيق ، والرأى السديد .

إن شوقي ضيف ذخيرة من علم وخلق وود وصدق ، ودأب على العلم ، آتاه الله قدرة علمية قل نظيرها في من نعرف في جيلنا هذا ، وهو جدير بكل تكريم وتقدير وعرفان بالجميل .

أطال الله بقاءه وأقر عينيه بعاصم ورندة ، وأضفى على أسرته الكريمة وقرينته الفضلى أم عاصم كل خير وعافية وراحة بال .

* * *

أما شوقي العالم الأديب المحقق ، فإن ما أخرجه للدارسين والمدرسين وعشاق

الأدب العربي ، واللغة العربية ، هو الذى يدل على مكانه الرفيع بين من كتب وألف ، وحقق ونشر ، وحسبه أنه فى هذا العصر ثانى اثنين وضعا فى الفكر العربى ، والأدب العربى ما يصح أن يسمى « موسوعات » : أولهما أستاذنا ووالدنا ، أحمد أمين تغمده الله برحمته ورضوانه ، فإنه قد جمع فلوعى فى « فجر الإسلام » و « ضحى الإسلام » و « وظهر الإسلام » ، وعرض الفكر العربى والإسلامى ذلك العرض الذى هو أشبه مما يعرف بالسهل الممتنع ، لأمور دقيقة عميقة تنوء بها العصبة أولو القوة .

والثانى هو الأستاذ الدكتور شوقى ضيف ، الذى وضع للأدب العربى وتاريخه موسوعته الجهيرة فى تاريخ الأدب العربى بعصوره المتتابعة ، بدءًا بالعصر الجاهلى وانتهاء بالعصر الحديث ، عمل لم ينهض به من قبله أحد ، فى مثل هذا الاستيعاب والعرض المبسوط القريب المنال .

أما آثاره فى النحو وإصلاحه فهى مذكورة مشهورة ، ولقد بدأها فيما أعلم بنشر كتاب « الرد على النحاة » لابن مضاء القرطبى ، والمقدمة التى افتتح بها نصه المحقق على أحسن وجه درس قيم ، لذلك المذهب الذى مازال دارسو النحو والمحاولون تيسيره ، يتزودون منه بزاد قيم .

وكتبه فى المدارس النحوية ، وفى تجديد النحو تشهد له بالغيرة على لساننا العربى ، وباجتهاده فى إقالة عثرات النحاة ، وتسديد مسار هذا العلم الجليل .

وبعد فإن حديثى عن شوقى ضيف ، يزيدنى ولوعًا بسيرته الكريمة ، ويلذ لى أن أستعيد ما بيننا من مودة ومحبة ، وما أحمله من إكبار وتقدير وإجلال ، وما أشعر به من فخر واعتزاز ، بتلمذتى له وبالأخوة الخالصة الصادقة النزيهة التى تجمع بينه وبين كل من سعد به مثلما سعدت .

رعاه الله ، وأطال بقاءه ، حتى يظل علمًا يهتدى به ، ويستضاء بعلمه وخلقه وكريم سجاياه .

أ.د. أحمد عبدالستار الجوارى

أستاذ النحو العربى

كلية الآداب – جامعة بغداد

١٤ - رحلة نحوية

مع أستاذي الكبير شوقي ضيف

د . مازن المبارك

دأب الدكتور شوقي ضيف في هدوء العالم وتواضعه على إخراج كتبه الأدبية عن الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، والفن ومذاهبه في النثر العربي ، وسلسلته الذهبية في تاريخ الأدب العربي التي أحاطت بعصوره المختلفة ، فكان لهذه السلسلة من الشهرة والانتشار ، ما لم يكن لغيرها من كتب تاريخ الأدب العربي في العصر الحديث .

ولم يشغله التأليف والبحث في الأدب وتاريخه عن التأليف في البلاغة وتاريخها ، ولا عن البحث والتحقيق في النحو العربي ، فقد حقق في عام ١٩٤٧ كتاب « الرد على النحاة » لابن مضاء القرطبي (ت ٥٩٢هـ) وقدم له بدراسة مسهبة بين فيها أغراضه ، وساق أمثلة نحوية كثيرة طبق فيها عملياً ما دعا إليه ابن مضاء .

ولم يخف الدكتور ضيف حماسته لأفكار ابن مضاء ورغبته في « تجديد النحو » الذي أرهق الناس ، وكلفهم من أمرهم عسراً بالتزام فكرة العامل وإلحاحهم عليها ، واتخاذها قاعدة أصيلة في تعليل الأثر النحوي في الكلام ، وما جره ذلك كله من تعقيد على موضوعات النحو وتصنيفها .

وقد تتلمذت على الدكتور شوقي ضيف ، حين درست كتابه هذا ، ألقيت عنه محاضرة على طلاب السنة الثالثة من قسم اللغة العربية بجامعة دمشق - وكنت واحداً منهم - بتكليف من أستاذي سعيد الأفغاني .

وأوفدت إلى مصر لمتابعة الدراسات العليا ، وكان الدكتور ضيف واحداً من الأساتذة المحاضرين على طلاب الدراسات العليا ، بجامعة القاهرة ، ثم وضعت تحت إشرافه للتحضير لدرجة الماجستير ، فعملت معه سنوات ، أخرجت فيها كتاب « الإيضاح في علل النحو » للزجاجي (-٣٣٧هـ) مع دراسة عن الكتاب وصاحبه ،

وما يتصل بالعلة النحوية وتطورها [1] ، وتفضل أستاذى الدكتور ضيف ، فكتب مقدمة الإيضاح الذى صدر فى القاهرة عام ١٩٥٩ ، وعاد فيها مرة أخرى إلى نقد مسالك النحويين فى التعليل ، ورأى جمهور العلل ضربًا من الفلسفة غير العملية ، وليس وراءها أى طائل نحوى ، ولكنه على إيمانه بأن النحو ينبغى أن ييسر على الناشئة ، وأن تخرج منه العلل المعقدة ، كان يرى أن الواجب على المتخصصين أن يعنوا بدراسة النحو فى صورته القديمة ويحيوا آثاره ، ليتبينوا تطوره وما شفع به هذا التطور من جهود عقلية خصبة ، وليستطيعوا الاضطلاع بما يريدون من تيسير النحو على علم وبصيرة .

واستمرت رحلتى مع أستاذى الدكتور ضيف حين أشرف على وأنا أعد رسالتى لنيل درجة الدكتوراه عن الرُّمانى النحوى فى ضوء شرحه لكتاب سيبويه [2] .

ولقد أفدت فى تلك السنوات المباركة من أدب الدكتور ضيف وخلقه ، وعلمه أيما إفادة ، إذ كنت كثير التردد عليه ، شديد الصلة به ، أجالسه فى بيته ، وأرافقه فى الطريق ، وأحضر مناقشاته لزملائى الكثيرين الذين كانوا يترددون عليه لعرض أبحاثهم ورسائلهم ، وكان يشركنى فى الحديث والمناقشة ، ويضفى على من رعايته وحبه مالا أنساه.

وإن من حقه على اليوم أن أذكر ما زادنى حبًا له وإعجابًا بخلقه ، جئته مرة على استحياء مستأذنًا أن يسمح لى بزيارة بعض أعلام النحو واللغة فى مصر ... وكم كنت خائفًا أن يثور ، أو أن يفسر استئذانى على غير ما أردت ، فإذا هو يبتسم ، ويقول : يا مازن اذهب إلى من شئت ، وبلغه تحيتى ، وقل له : شوقى أرسلنى إليك لافيد من علمك ، وإن شئت أعطيتك بعض بطاقاتى لتقدمها إلى من تريد منهم .

وبذلك فتح لى أبوابًا ، لم أكن لأصل إليها ، فكانت لى جلسات مع ثلاثة من أعلام النحو واللغة رحمهم الله ، وهم الأستاذ إبراهيم مصطفى صاحب « إحياء النحو » ، والأستاذ الشيخ محمد على النجار عضو مجمع اللغة العربية ، وشقيقه الدكتور

---

(١) أصدرت ذلك فى ثلاثة كتب ، أحدها الإيضاح فى علل النحو ، وثانيها : الزجاجى حياته وآثاره ومذهبه ، وثالثها : النحو العربى (بحث فى العلة النحوية وتطورها)

(٢) صدرت طبعته الأولى عن جامعة دمشق عام ١٩٦٠ .

عبد الحليم النجار الذى كان يستقبلنى فى جلسة أسبوعية ، لم تنقطع إلا يوم غادرت القاهرة . وكنت أعود إلى مجلس أستاذى الدكتور ضيف وأناقشة فيما سمعت من أولئك العلماء ، فيصحح لى الفهم بكثير من السعادة والسرور . وعدت إلى دمشق عام ١٩٦٠ ، وانقطعت الأسباب المادية بيني وبين أستاذى ، وبقيت أسباب روحية تذكرنى به وتشدنى إليه . وعدت إليه فى كتابه عن « المدارس النحوية » الذى صدر عام ١٩٦٨ ، ثم عدت إليه ثانية فى كتابه « تجديد النحو » الذى صدر عام ١٩٨٢ أما « المدارس النحوية » فبحث جامع فى المذاهب النحوية يذكرنا بدراسات الدكتور ضيف فى تاريخ الأدب ، وما تتصف به من شمول فى التاريخ ، وهدوء فى العرض ، ووضوح فى الفكرة ، واستقلال فى الرأى .

يؤرخ الدكتور ضيف فى كتابه مسيرة النحو منذ بداياته الأولى إلى قيام مدارسه ... يتناولها واحدة بعد الأخرى ، ناشراً تاريخها ، مترجماً لأبرز أعلامها ، منتهياً فى القرن التاسع للهجرة بجلال الدين السيوطى (ت - ٩١١هـ) .

ولعل أبرز ما يتصف به كتاب « المدارس النحوية » - على كثرة فوائدة - أنه كتاب جامع يحيط من تاريخ النحو ، ونشأة مدارسة بما لا يحيط به كتاب آخر من كتب تاريخ النحو ومدارسه ، ويعرف كثيراً من أئمة النحاة ، وأنه هادئ الأسلوب ، فلا تبجح ولا ادعاء ، ولا ثورة ولا عنف ، وأن آراء صاحبه واضحة صريحة ، وأبرز تلك الآراء :

١ - يرجع السبب فى وضع النحو إلى عوامل دينية وقومية عربية واجتماعية وعقلية ، فأما الدينية ففى الحرص الشديد على آداء نصوص الذكر الحكيم أداء فصيحاً سليماً . وأما القومية العربية ففى اعتزاز العرب بلغتهم وخشيتهم عليها من الفساد ، وأما الاجتماعية ففى حاجة الشعوب المستعربة إلى من يرسم لها أوضاع العربية فى إعرابها ، وتصرفها حتى تتمثلها تمثلاً سليماً مستقيماً وتتقن النطق بها نطقًا على الوجه الصحيح ، وأما العقلية ففى رقى العقل العبرى ونمو طاقته الذهنية نمواً أعده للنهوض برصد الظواهر اللغوية ، وتسجيل الرسوم النحوية تسجيلاً تطرد فيه القواعد ، وتنتظم الأقيسة انتظاماً هيأ لنشوء النحو ووضع قوانينه الجامعة .

٢ - إن مبادئ النحو وأولياته تعود إلى جيل ابن أبى إسحاق الحضرمى (ت -١١٧هـ) لا إلى جيل أبى الأسود الدؤلى (ت٦٩هـ) .

٣ - إن النحو وأصوله وقواعده الأساسية تكون نهائيًا على يد سيبويه (ت ١٨٠هـ) وأستاذه الخليل (ت ١٧٠هـ) ، وكأنهما لن يتركا للأجيال التالية سوى خلافات فرعية تتسع وتضيق بحسب المدارس وبحسب النحاة .

٤ - إن النشاط النحوى فى الكوفة لم يبدأ على يد الرؤاسى (-١٨٧هـ) .

٥ - معاذ الهراء (ت١٨٧هـ) لم يضع علم الصرف .

٦ - المازنى (ت٢٤٩هـ) هو الذى فصل علم التصريف عن النحو ، وصنف فيه مصنفات قيمة ، نظم فيها قواعده ومسائله ، وجعله علمًا مستقلاً بأبنيته ، وأقيسته ، وتمارينه ، وهو الذى فتح الباب فيه على التمارين غير العملية .

٧ - الخليل وسيبويه فتحا باب التمارين غير العملية فى النحو .

٨ - إن كتاب سيبويه سجل لأصول النحو وقواعده ولظواهر التعبير العربى التى أتقنها سيبويه فقها وعلمًا وتحليلاً . وجمهور ما يصوره سيبويه فى كتابه من أصول النحو والتصريف وقواعدهما إنما هو من صنع أستاذه الخليل ، ولا ننكر ما لسيبويه فى العلمين من إكمال وتتميم .

وكتاب سيبويه لا يعلم العربية وقواعدها فحسب ، بل يعلم أيضًا أساليبها ودقائقها التعبيرية .

وفيه اتساع فى التعليل وكثرة فى القياس ؛ لا تعلم النحو والصرف فحسب بل تعلم معهما العقل

٩ - إن الخليل بن أحمد (ت١٧٠هـ) هو المؤسس الحقيقى لمدرسة البصرة خاصة ولعلم النحو عامة ، وإليه تعود نظرية العامل وما يتصل بها من سماع وتعليل وقياس ، وهو ذو عقل ثرى أوتى دقة فى الاستنباط تذهل كل من يقف على وضعه لعروض الشعر ، ورفعه لصرح النحو ، ورسمه المنهج الذى ألف عليه « معجم العين » ، واختراعه

لعلامات الضبط (الفتحة والضمة والكسرة) التى لا نزال نستعملها ، وفضله فى وضع قوانين الإعلال والقلب ، وامتيازه بحس لغوى دقيق مكّنه من فقه لغة العرب وأسرارها ودقائق عباراتها .

١٠ - إن المدرسة البصرية هى التى وضعت أصول النحو العربى وقواعده ، وأرست بنيانه الذى مازال عامراً إلى اليوم وذلك بفضل ما يتصف به العقل البصرى من دقّة وعمق واستعداد ، لتسجيل الظواهر النحوية ووضع قواعدها ، مما لم يتح مثله للعقل الكوفى .

١١ - المبرد (ت٢٨٥هـ) آخر النابهين من نُحاة المدرسة البصرية ، والسيرافى (ت٣٦٨هـ) خاتمة نحاتها المُهمِّين ، بل به تنتهى مدرسة البصرة ، وهو نحوى يتوسّع فى التعليل توسعًا أسعفه فيه عقله الجدلى الخصب .

١٢ - إن أبا عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ) رواية ثقة كثير السماع ، وهو أقرب إلى أن يكون من اللغويين والقرّاء منه إلى أن يكون من النحويين .

١٣ - أبو الحسن الأخفش (ت٢١٥هـ) أكبر أئمة النحو البصرى بعد سيبويه ، وهو الذى فتح باب الخلاف عليه ، كما فتح الباب للّغات الشاذة والقراءات الشاذّة ، يدافع عنها ويحتجّ لها ، وهو الملهم الحقيقى للكسائى (ت١٨٩هـ) وغيره من أعلام الكوفيين ، وكانت بعض آرائه أسسا بنيت عليها فيما بعد مدرسة الكوفة ، ثم المدارس المتأخرة المختلفة ، فقد كان حاد الذكاء ثاقب الذهن ، فخالف أستاذه سيبويه فى كثير من المسائل وحمل ذلك عنه الكوفيون ، ومضوا يتسعون فيه ، فهو بحقّ أستاذ المدرسة الكوفية .

١٤ - إمام الكوفيين بحق هو الفراء (-٢٠٧هـ) ، وهو أول من توسع فى تخطئة بعض العرب ، وعنف فى إنكار القراءات الشاذة . وهو الذى أعطى النحو الكوفى صيغته النهائية ، ولولاه لما استقام نحو الكوفة ، ولا وضع منهاجه ، ولا صحت حدوده ، ولا فصلت مصطلحاته . والفراء هو الملهم الحقيقى لمن جاء بعده من البصريين الحمل على بعض القراءات الشاذة ، وهو الإمام الحقيقى لمدرسة الكوفة ، وإن كان الكسائى قد سبقه فلم تكن له دقة عقله وعمق نظرته وحدة ذهنه .

١٥ – الكسائى والفراء استحدثا المدرسة الكوفية المتميزة باتساع الرواية ، وبسط القياس وقبضته ، ووضع بعض المصطلحات . وبهما يبدأ النحو الكوفى ؛ لأنهما هما اللذان رسما صورته ، ووضعا أسسه وأصوله ، وأمدّاه بحذقهما وفطنتهما لتكون له خواصه التى استقل بها عن النحو البصرى .

١٦ – ليس صحيحًا ما زعمه « فايل » من أن نحو الكوفة لم تكن له مدرسة خاصة .

١٧ – لم يكن دافع الفراء وأمثاله ممّن يردّون بعض القراءات – وهى لا تعدو حروفًا معدودة – الطعن والتنقّص ، إنما كان دافعهم الرغبة الشديدة فى التحّرى والتثبّت .

١٨ – لم يكن ثعلب (–٢٩١هـ) نحويًا يستنبط الآراء الجديدة ، وإنما كان شارحًا لآراء شيخى الكوفة : الكسائى ، والفراء .

١٩ – ابم آجرّوم الصنهاجى (–٧٢٣هـ) هو آخر من استظهر آراء المدرسة الكوفية فى مصنفاتهم .

٢٠ – تتميز المدرسة الكوفية بثلاثة طوابع كبيرة :

(أ) طابع الاتساع فى الرواية ، بحيث تفتح جميع المسالك للأشعار واللغات الشاذة .

(ب) طابع الاتساع فى القياس ، بحيث يقاس على الشاذ والنادر دون تقيّد بندرته وشذوذه .

(جـ) طابع المخالفة فى بعض المصطلحات النحوية ، وما يتصل بها من العوامل .

وهى مدرسة لا تباين المدرسة البصرية فى الأركان العامة للنحو ، التى ظلت إلى اليوم راسخة فى النحو العربى ، غير أنها مع اعتمادها لتلك الأركان ، استطاعت أن تشق لنفسها مذهبًا جديدًا فى النحو ، له طوابعه ، وله أسسه ومبادئه .

٢١ – المدرسة البغدادية ذات نهج قويم يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية ، ويفتح الباب للاجتهاد والخلوص إلى الآراء المبتكرة .

والمدرسة البغدادية تضم جيلين من النحاة : الجيل الأول غلبت عليه النزعة الكوفية ، وهو الذى كان ابن جنى (–٣٩٢هـ) يعَبر عن نحاته باسم « البغداديين » ، ويمثل هذا الجيل ابن كيسان (– ٢٩٩هـ) ، وابن شقير (– ٣١٧هـ) ، وابن الخياط (– ٣٢٠هـ) .

وأما الجيل الثانى فغلبت عليه النزعة البصرية ويمثله الزَّجَّاجى (– ٣٣٧هـ) ، والفارسى (–٣٧٧هـ) ، وابن جنى (–٣٩٢هـ) .

٢٢ – الفارسى وابن جنى بغداديان ينزعان إلى البصرة ، وهذه النزعة هى التى سادت منذ النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، وقد كانا من أهم الأسباب فى شيوعها ، إذ كانا ينتخبان من المذهبين البصرى والكوفى مع نزوع شديد إلى البصريين ، ومع الفسحة وفتح الأبواب على مصاريعها للاجتهاد ، ومخالفة البصريين والكوفيين بقدر ما يؤديهما النظر وتسعفهما الحجة ، وهما أبعد النحاة أثراً فيمن تلاهما ، فقلما ظهر بعدهما نحوى لم ينضو تحت لوائهما مستظهراً لمنهجهما ، وما أخذا به نفسيهما من الاختيار الحرّ من آراء المدرستين البصرية والكوفية ، وكذلك من آرائهما مع محاولة الاجتهاد والنفوذ إلى استنباط آراء جديدة . وإليهما يرجع نسب النحو البغدادى الذى تسلسل فيمن ظهر بعدهما كالزمخشرى (– ٥٣٨هـ) ، وأبى البركات الأنبارى (–٥٧٧هـ) ، وأبى البقاء العكبرى (–٦١٦هـ) وابن يعيش الحلبى (–٦٤٣هـ) ، والرضى الاستراباذى (– نحو ٦٨٦هـ) .

٢٣ – ابن جنى هو مؤصّل علم التصريف وواضع قوانينه الكلية ، وهو الذى عمل على تثبيت قانونى الاشتقاق الأكبر والتضمين .

٢٤ – إن جودى بن عثمان ، هو أول نحوى أندلسى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وهو أول من أدخل إلى موطنه كتب النحو الكوفى .

٢٥ - لقد اهتمت المدرسة الأندلسية أول أمرها بالنحو الكوفي اقتداء بنحويها الأول جودى بن عثمان ، ثم التفتت إلى النحو البصرى فى أواخر القرن الثالث للهجرة ، ولا نصل إلى ابن سيده (-٤٥٨هـ) حتى نرى الأندلسيين منغمسين في النحو البغدادى انغماسهم فى النحو الكوفى والبصرى .

٢٦ - أخذت المدرسة الأندلسية منذ القرن الخامس آراء المشارقة من نحاة البصرة والكوفة وبغداد ، مع اجتهاد واسع فى الفروع والاستنباطات وكثرة فى التعليلات والاحتجاجات ، وكان أئمةُ تلك المدرسة يأتون فى كل جيل بما لم يسبقوا إليه من الخواطر والآراء .

٢٧ - إن ابن مضاء (-٥٩٢هـ) ، أراد أن يصوغ النحو صياغة جديدة خالية من نظرية العوامل والمعمولات المذكورة ، والمقدّرة ، ومن العلل والأقيسة المعقدّة .

٢٨ - إن ابن مالك (-٦٧٢هـ) هو أكبر أئمة النحو الأندلسى على الإطلاق ، ثم خلفه كثيرون كان أكبرهم أبو حيان (-٧٤٥هـ) . وقد كان ابن مالك أُمة فى الاطلاع على كتب النحاة وآرائهم ، وعلى اللغة والشواهد . وكان أمةً فى القراءات ورواية الحديث . وهو أول من استكثر من رواية الحديث في النحو ، وآراؤه مختارة من البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين ومما تفرّد به . وكان رائده السمع وقد تجنب القياس على الشاذ .

٢٩ - عبد الرحمن بن هرمز (-١١٧هـ) من أقدم علماء العربية بمصر . وأما أول نحوى مصرى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فهو ولاّد بن محمد التميمى (-٢٦٣هـ) .

٣٠ - إن المدرسة المصرية كانت فى أول نشأتها شديدة الاقتداء بالمدرسة البصرية ، ثم أخذت منذ القرن الرابع الهجرى تمزج بين آراء البصريين والكوفيين ثم البغداديين ، وقد بدأ ازدهارها فى العصر الأيوبى ، وتكامل فى العصر المملوكى على يد ابن هشام (-٧٦١هـ) .

٣١ - المدرسة المصرية مزجت المذهبين البصرى والكوفى منذ عصر مبكر .

٣٢ – إن ابن هشام المذكور ، صاحب المغنى ، امتاز بملكات عقلية نادرة ، وإحاطة بآراء النحاة السالفين على اختلاف مدارسهم وأعصارهم وبلدانهم ، وقد أوتى قدرة بارعة على المناقشة ، مع طرافة فى التحليل والاستنباط وجمال فى العرض والأداء .

٣٣ – السيوطى (–٩١١) كان يختار لنفسه من مذاهب النحويين ما يتجه عنده تعليله ، وذلك هو نهج المدرسة المصرية التى كانت تتخير من الآراء النحوية ما تستقيم حججه وبراهينه .

وينتهى كتاب « المدارس النحوية » بذكر السيوطى بعد أن يؤرخ تسعة قرون من تاريخ النحو العربى ، ومدارسه ، وأعلامه ، وبعد أن يستوفى الدكتور شوقى فيه ذكر آرائه المتصلة بأبرز قضايا تاريخ النحو .

فإذا تجاوزنا « المدارس » إلى « تجديد النحو » ، فقد تجاوزنا تاريخ النحو إلى النحو نفسه ، وطالعتنا الثمرة العملية التى انتهى إليها الدكتور شوقى بعد نصف قرن من الزمن صاحب فيه النحو والنحويين ، دراسة وبحثًا وإشرافًا على الرسائل الجامعية ومناقشة لها ، وقد تتبع محاولات التيسير قديمها وحديثها ، حتى انتهى فى كتابه إلى اقتراح تصنيف جديد للنحو ينسق فيه أبوابه تنسيقًا جديداً ، مستفيداً فى تطبيقه ممن سبقه من القدماء ، والمحدثين ، ومضيفًا إليه ما رآه لازمًا لتذليل النحو وتبسيطه ، وتمثل قواعده واستكمال نواقصه ، أملاً فى أن يكون الكتاب نهجًا جديداً فى ميدان النحو التعليمى ، والتأليف فيه . وهو كتاب جادّ جدير ببحث مستقل ودراسة مستفيضة .

على أنه أيًا كان الرأى فى محاولة الدكتور شوقى تجديد النحو ، وسواء أوافقناه على آرائه التى عرضها فيه كلها أو بعضها أم لم نوافقه ، فالذى لا شك فيه أن « تجديد النحو » عنده ثمرة اجتهاد طويل وعمل دؤوب واطلاع واسع ، وإن طابعه فيه الصدق فى العمل ، والإخلاص فى النيّة ، والعزم فى إنفاذ الرغبة . وقد كان الدكتور شوقى ضيف فى دراساته النحوية كما كان فى مؤلفاته كافّة باحثًا نقّاداً ، لا يكتفى بالجمع والعرض أو بالشرد والوصف ، ولكنه يستوعب القديم ليتخذ منه تكأة إلى إبداع الجديد . إن « الجديد » عند الدكتور شوقى ضيف ليس لقيطًا ولا منبتًا ، ولكنه وليد جديد شرعى موصول النسب ، يجمع الطرافة والتلادة معًا .

وبعد : فما عرفت أستاذى الدكتور شوقى ضيف محباً للمديح ،ولكننى عرفته محباً للوفاء ، وإن من بعض الوفاء أن أقول له اليوم : هنيئاً لك هذه الثروة الفكرية الضخمة ، التى أودعتها عشرات الكتب التى تفخر بها المكتبة العربية ، وغرستها فى عقول أجيال من الطلاب الذين تخرجوا بك ، وانتشروا فى أرجاء الوطن العربى وجامعاته ، يحيون ما قبسوه منك من خلق وعلم .

وجزاك الله خيراً كفاء ما ذاع بك من علم ، وما عمّ بك من نفع .

أ.د. مازن المبارك

أستاذ النحو العربى

كلية الآداب – جامعة دمشق

١٥ - مع إسلاميات شوقى ضيف

للأستاذ الدكتور محمود على مكى

لاشك فى أن شوقى ضيف يعد من أكثر علماء العربية المعاصرين إحاطة بالثقافة العربية الإسلامية . فهو عالم موسوعى بمعنى الكلمة ، لم يدع فرعًا من فروع الثقافة العربية إلا وكانت له فيه مشاركة جليلة حتى كأنه لم يتخصص إلا فيه . فقد أرخ للأدب العربى منذ العصر الجاهلى حتى عصرنا الحاضر فى سلسلة تبلغ عشرة مجلدات تعد أوفى ما كتب فى هذا الميدان ، وأرخ للبلاغة العربية فى كتابه " البلاغة : تطور وتاريخ " وأرخ لعلم النحو فى " المدارس النحوية " ، وكتب فى فنون الأدب العربى : النقد ، والمقامة ، والرثاء ، والترجمة الشخصية ، والرحلات ، إلى جانب دراساته عن الفن ومذاهبه فى الشعر والنثر العربيين ، وحقق العديد من كتب التراث ، ونشر أبحاثًا أخرى كثيرة يستعصى حصرها حتى إنه يعد بحق أغزر المؤلفين إنتاجًا فى عصرنا الحاضر .

والبحث الذى نقدمه فى تكريم أستاذنا شوقى ضيف يتناول جانبًا محددًا من نتاج قلمه الذى لم يدركه الكلال أبدًا وهو دراساته الإسلامية التى رأينا أنه يوليها جانبًا كبيرًا من اهتمامه .

ويبدأ البحث بتمهيد حول تدين شوقى ضيف وعمق إيمانه بالإسلام وقيمه ، وهو ما يرجع لنشأته الأولى فى قريته التابعة لدمياط وإلى تأثير والده الذى كان شيخًا أزهرى الثقافة مما جعله يحفظ القرآن الكريم كله وهو دون العاشرة من عمره . وإذا كان الجهد الأكبر الذى استغرق حياته دائمًا ، لاسيما وأنه قام بتدريس التفسير ومذاهب المسلمين فيه منذ أوائل الخمسينيات من هذا القرن . ثم أتى هذا الاهتمام

ثمراته فى عدد من الكتب التى تعد من أعظم منجزاته . وتواليفه فى ميدان الإسلاميات يمكن تصنيفها فى ثلاثة مجالات :

الأول فى تفسير القرآن الكريم :

وله فيه كتابان رئيسيان هما :

١ - " **تفسير سورة الرحمن وسور قصار** " وفيه يتناول إلى جانب سورة الرحمن ثمانى سور قصار هى : الفاتحة والإخلاص والعصر والملك والأعلى والتكوير والماعون والفلق ، وفى مقدمة هذا الكتاب يشرح شوقى ضيف منهجه وهو تفسير القرآن جارياً فى ذلك على سنن ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ثم من تلاه من المحدثين مثل الإمام محمد عبده والشيخ محمد عبد الله دراز . وفى تفسير هذه السور القصار يعرض شوقى ضيف المبادئ التى ترتكز عليها العقيدة الإسلامية ، وأما فى تفسير سورة الرحمن فإنه يتبين آلاء الله تعالى على خلقه ودعوته الإنسان لقدرته العقلية فى تأمل أسرار الكون وقوانينه وصولاً به إلى ضمان سعادته فى الحياة الدنيا والآخرة .

٢ - « الوجيز » فى التفسير :

وهو كتاب أكثر طموحًا من سابقه ، إذ هو تفسير كامل لكتاب الله توخى فيه الإيجاز مع الانتفاع بأهم التفاسير السابقة ، مثل كتب : الطبرى ، والزمخشرى ، والفخر الرازى ، والقرطبى ، والبيضاوى ، وابن كثير وكذلك من المفسرين المحدثين ، مثل : إسماعيل حقى ، ومحمد عبده ، ومحمد الطاهر بن عاشور . وأسلوب شوقى ضيف فى هذا الكتاب يتسم بالوضوح والسهولة إذ يشرح الآيات شرحاً مبسطًا موجهاً لخاصة القراء وعامتهم ، متجنبًا ما حفلت به كتب التفسير المطولة من مباحث معقدة يعسر فهمها على القارئ المتوسط .

المجال الثانى فى تحقيق التراث الإسلامى :

ويندرج فى هذا المجال كتابان هما :

١ - كتاب السبعة فى القراءات لأبى بكر ابن مجاهد :

ويعد هذا الكتاب من أقدم كتب القـراءات وأجـلـها . وقـد رأى مؤلفه ابن مـجاهد (المتوفى سنة ٣٢٤) أن القراءات التى تكاثرت حتى بلغت نحو خمسين قراءة قد تفتح بابًا لدخول الاضطراب على ألسنة القراء ، فاستصفى من هذه القراءات سبعًا لأئمة القراء فى الأمصار الخمسة : المدينة (نافع بن أبى نعيم) ومكة (ابن كثير) والكوفة (عاصم بن أبى النجود ، وحـمـزة بن حـبيب الزيات ، وعلى بن حـمـزة الكسـائى) والبصرة (أبو عمرو بن العلاء) والشام (عبد الله بن عامر اليحصبى) . وقد قدم شوقى للكتاب بمقدمة قيمة تحدث فيها عن المؤلف ومنهجه فى اختيار ما ارتضاه من هذه القراءات السبع ووصف النسخ المخطوطة ومنهجه فى التحقيق بما عهد فيه من توثيق النص وتحرى الدقة الفائقة .

٢ - كتاب الدرر فى اختصار المغازى والسير لأبى عمر بن عبد البر القرطبى :

مؤلف هذا الكتاب أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبى (المتوفى سنة ٤٦٣) من أكبر الفقهاء الأندلسيين وكان يوصف بأنه " حافظ المغرب " ، ويعد كتابه " الاستيعاب " من أوثق الكتب وأوسعها فى تراجم الصحابة . وأما كتابه " الدرر " فقد اختصر فيه سيرة الرسول (عليه الصلاة والسلام) لابن إسحاق برواية ابن هشام إلى جانب كتب أخرى كثيرة . وقد استفاد من هذا الكتاب معاصر مؤلفه ابن حزم فى " جوامع السيرة " وابن سيد الناس فى كتابه " عيون الأثر " وللكتاب مقدمة تحدث فيها شوقى ضيف عن مؤلفه وقيمة كتابه ووصف مخطوطته وشرح منهجه فى التحقيق . وربما كانت الميزة الكبرى فى كتاب ابن عبد البر - كما يتضح من مقدمة شوقى ضيف - هى الاختصار الذى قصد إليه المؤلف نافيًا ومستبعدًا كثيرًا مما لحق بسيرة ابن إسحاق من روايات ضعيفة ومن شعر مشكوك فى صحته .

المجال الثالث هو كتب الدراسات الإسلامية :

وتندرج تحته ثلاثة كتب هى ثمرة لجهوده السابقة فى دراسته للقرآن الكريم والحديث الشريف والسنن النبوية . ونورد فيما يلى نبذة عن كل واحد من هذه الكتب :

١ - عالمية الإسلام :

والمحور الرئيسى لهذا الكتاب هو ما ميز الإسلام من كونه رسالة عالمية موجهة إلى الناس كافة ، وفيها - لو التزموا بها حقّ الالتزام - سعادتهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ثم يتحدث الكاتب عن القيم الإسلامية التى جعلت الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا والتى كفلت للإسلام هذا الطابع العالمى ومن أسماها الحرية الدينية التى نصت عليها الآية القرآنية " لا إكراه فى الدين " والتعايش مع من ظلوا متمسكين بدياناتهم الأولى ، وعقلانية الإسلام ودعوته إلى الأخذ بأسباب العلم ، ثم دعوته إلى العدالة المطلقة الشاملة لا بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب ، بل كذلك مع من يعايشونهم من أصحاب الملل الأخرى ، والمساواة بين جميع البشر على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وعقائدهم ، والتسامح والروابط الأسرية ، ثم الدعوة إلى السلوك الخلقى القويم . وقد كان حسن عرض الكتاب لهذه القيم الإسلامية مما أدى إلى ترجمته إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، وتجرى الآن ترجمته إلى الإسبانية والألمانية .

٢ - الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة :

وهو كتاب اتبع فيه شوقى ضيف منهجًا طريفًا وثّق به مباحثه ، إذ افتتح كل مبحث بما يتصل به من آيات الذكر الحكيم ثم من الأحاديث الصحيحة من كتب الصحاح أو السنن ، وبعد ذلك يعرض المبحث شارحًا ومفصلاً . والكتاب موزع على أربعة أقسام : الأول فى الأسس العقيدية : الوحى إلى رسول الله والقرآن ، والتوحيد ، ومحبة الله لعباده والرسول (عليه الصلاة والسلام) ، والإيمان ، والزكاة ، والحج ،

ويلى عرض لبعض القيم الإسلامية التى تعد ركائز لحضارة الإسلام ، مثل الشورى ، والاجتهاد ، والتوسط ، والحرية الدينية ، والتسامح ، والعدل ، والعقلانية ، والتقوى ، والتوبة ، والقسم الثانى عرض للأسس الاجتماعية ومنها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبر الوالدين ، وحقوق المرأة ، والإخاء والمساواة ، والعمل ، والصدقة ، والوفاء بالعهد ،والرحمة بالإنسان والحيوان وفعل الخير . والقسم الثالث حول الأسس الأخلاقية للحضارة ومنها الإخلاص ، والصدق ، والتواضع ، والعفاف ، والحلم ، والصبر ، والقناعة ، والعمل الصالح . أما القسم الرابع فهو مفرد للمحظورات ويبدأ ببيان عن الحلال والحرام والحدود بينهما ، ثم بيان لما نهى عنه الإسلام من كبائر ، مثل : الزنا ، والربا ، والخمر ، والميسر ، ولما يرتبط بهذه الكبائر من رذائل ، مثل : الظلم ، والكبر ، وشهادة الزور ، والحسد ، والكذب ، والخداع ، والسب ، والتجسس ، والغيبة ، والشماتة .

وبهذا يقدم لنا الكتاب صورة واضحة دقيقة لما ينبغى أن يقوم عليه التقدم الحضارى من فضائل وقيم وما يجب أن يتجنبه مما يمكن أن يؤدى إلى التخلف والفساد .

٣ - محمد خاتم المرسلين :

فى هذا الكتاب الضخم رؤية جديدة لسيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منذ مولده حتى نهاية حياته . وعلى الرغم من كثرة ما كتب فى السيرة النبوية فإن هذه الرؤية الجديدة النابعة من إيمان عميق تحتوى على نظرات والتفاتات لم ينتبه لها كثير من المؤلفين السابقين ، نذكر منها رأيه حول زواج الرسول (عليه الصلاة والسلام) من السيدة عائشة ، إذ بدد شوقى ضيف وهم من زعموا أنها كانت فى التاسعة من عمرها حينذاك ؛ فأثبت أنها كانت فى نحو العشرين ، وهو وهم تشبث به كثير من المستشرقين الطاعنين على الإسلام ورسوله . ومن هذه النظرات الجديدة ما نكره فى الفصل الذى أفرده للمباحث القرآنية حول وجه من وجوه إعجاز القرآن لم يتنبه إليه الأسلاف ، وهو الشعور بالخشية العميقة عند الاستماع إلى آياته أو تلاوتها ، وهو ما صوره

عمر بن الخطاب من الذعر الذى أصابه حينما مر بإسم من أسماء الله عز وجل أثناء تلاوته لبعض الآيات ، واستمر هذا الذعر يكبر فى نفسه حتى حدث له هذا الانقلاب من عداوة الرسول (عليه الصلاة والسلام) والإيمان بآلهة قريش إلى توحيد الله واعتناق دعوة الإسلام . ومن النظرات الجديدة فى الكتاب أيضًا تفسيره لما درج كتاب السيرة على تسميته بمغازى الرسول (عليه الصلاة والسلام) ، فقد رأى أن أكثرها لم يكن غزوات بمعنى الكلمة ، وإنما كانت مسيرات لعقد معاهدات وأحلاف بينه وبين القبائل القاطنة بين المدينة ومكة ، وكثير منها يمكن أن يعد مسيرات سلمية لم يلق فيها الرسول حربًا ولا قتالاً .

وقد كان هذا بعض ما جاد به قلم شوقى ضيف من كتب إسلامية تعد منارة متألقة فى نتاج هذا العلم الشاهق من أعلام ثقافتنا العربية .

* * *

شوقى ضيف و « معجزات القرآن » :

أستاذنا الجليل الدكتور شوقى ضيف – مد الله فى عمره – يمثل فى وسطنا العربى الثقافى والأكاديمى ظاهرة فريدة تستوقف النظر وتستثير العجب والإعجاب . فهو قد جاوز من عمره الذى بارك الله له فيه سنيه التسعين ، ومع ذلك فإن عطائه لم يتوقف منذ أن نذر نفسه لخدمة العلم على مدى السنوات الستين الماضية ، وكأن التقدم فى السن لم يزده إلا شبابًا وحيوية وقدرة فائقة على العمل ، وكأن مرور الزمن يجرى فى عروق قلمه كل يوم دماءً فتية جديدة . لقد عرفناه أستاذًا في الجامعة ، يحاضر فى كل فروع العربية على تنوعها واختلافها ، من أدب ونقد وبلاغة ونحو وعلوم إسلامية ، وكأنه إذا تناول كلا من هذه الفروع لم يتخصص إلا فيه ، وعلى يده تخرجت أجيال متعاقبة من تلاميذه يعدون بالمئات من سائر أنحاء الوطن العربي وغير العربى ، وظل حتى سنوات قليلة مضت يباشر التدريس فى الجامعة تطوعًا واختيارًا . ورأيناه

منذ انتخب رئيسًا لمجمع اللغة العربية يواصل عمله في إدارة هذه المؤسسة وإثرائها ببحوثه فى نشاط لا يعرف الكلل ، وعرفناه مؤلفًا يجمع إنتاجه بين الغزارة والتميز ، ويكفى أن نشير إلى المجلدات العشرة التى أرخ فيها للأدب العربى منذ العصر الجاهلى حتى عصرنا الحاضر ، إلى غير ذلك من كتبه . وهو فى كل ذلك ملتزم بما أخذه الله على العلماء من ميثاق بأن ينشروا العلم ولا يكتموه .

وإنما نقول ذلك بمناسبة آخر ما أصدره من مؤلفات ، وهو كتاب " معجزات القرآن " الذى نشرته دار المعارف فى أكثر من مائتين وخمسين صفحة . وعناية شوقى ضيف بالتأليف فى ميدان الإسلاميات ليست أمرًا جديدًا ، وإنما هو اهتمام يرجع إلى سنوات طويلة مضت ، منذ أن كان يدرس فى الجامعة تفسير القرآن ومذاهب المسلمين فيه فى الخمسينيات من القرن الماضى ، فقد بدأ بكتاب فى تفسير سورة الرحمن وعدد من السور القصار ، ثم أتبع ذلك بتفسيره " الوجيز " للقرآن كله فى أكثر من ألف صفحة . وقد كان عمله فى خدمة كتاب الله نابعًا من تدين عميق وفكر مستنير ، إذ إنه مؤمن بأن الجمع بين هذين الجانبين هو الذى يكفل تقدم المجتمع الإسلامى المعاصر .

ولم تقف إسلاميات شوقى ضيف عند جهده فى التفسير ، فقد عنى أيضًا بتحقيق اثنين من أجل كتب التراث الإسلامى ، هما " السبعة " لابن مجاهد فى القراءات القرآنية ، و " الدرر فى اختصار المغازى والسير " لابن عبد البر النمرى الأندلسى ، وهو فى سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثم أتبع ذلك بأربعة كتب تعد معالم مشرقة فى مسيرة شوقى ضيف العلمية ، أولها " عالمية الإسلام " فى بيان تعاليم الإسلام بصفته رسالة موجهة للناس كافة ، تكفل لهم السعادة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، وثانيها " الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة " وفيه يشرح الأسس العقيدية الاجتماعية والأخلاقية للإسلام فى صورة واضحة دقيقة لما يقوم عليه التقدم الحضارى من فضائل وقيم فى المفهوم الإسلامى ، مستخلصًا ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . والكتاب الثالث " محمد خاتم المرسلين " ، وفيه يقدم رؤية جديدة لسيرة الرسول (عليه الصلاة والسلام) ، وهو حافل بنظرات لم يسبق إليها فى تفسير العديد من مواقف الرسول وملامح شخصيته نبيًا وقائدًا وإنسانًا . والكتاب الرابع فى دراسة ظاهرة " القسم فى القرآن " : أدواته ووظيفته وقيمته البيانية والجمالية .

* * *

نعود إلى الكتاب الخامس فنجده يتناول فيه معجزات القرآن . وقد وزعه على سبعة فصول يتراوح كل فصل منها ما بين ثلاثين وأربعين صفحة . ونود أن ننبه هنا إلى الميزان الدقيق الذى يتحكم شوقى ضيف من خلاله فى أحجام فصول كتبه وعدد صفحاتها ، ثم فى تسلسل سياقات المباحث فى الكتاب بصورة منطقية ، بحيث يفضى كل مبحث إلى ما يليه ، حتى كأنك تنظر منه إلى نهر يجرى فى يسر وسلاسة من منبعه إلى مصبه ، وأخيراً فيما أخذ به نفسه من الإيجاز وتركيز الأفكار ووضوح التعبير عنها حتى لا يسعك أن تحذف منه أو تضيف إليه ، وهذه فضيلة كبرى ندعو من يدرسون نتاج شوقى ضيف الفكرى إلى تأملها واستخلاص العبرة منها ، فهى من قبيل السهل الممتنع الذى يعد نموذجاً جديراً بأن يحتذى فيما يمكن أن نسميه " حسن التأليف " .

والفصل الأول يتناول معجزات كبار الرسل السابقين على الرسالة المحمدية ، وهم : نوح ومعجزته فى الفلك الذى نجى به المؤمنين من قومه من الطوفان ، ثم إبراهيم والنار التى قذف به فيها كفار قومه ، فأحالها الله برداً وسلاماً ، وموسى وعصاه التى استحالت ثعباناً ما ألقاه سحرة فرعون من حبال وعصى تحولت بدورها إلى أفاعٍ وحيات ، وأخيراً عيسى وكلامه فى المهد ثم إبراؤه الأكمه والأبرص وإحياؤه الموتى . وحرص المؤلف فى الحديث عن هذه الخوارق على بيان الملاءمة بين هذه المعجزات والجو الذى كان يسود مجتمعات هؤلاء الرسل ، وما كان يأخذ بألبابها من ظواهر تعد من العجائب ، مثل السحر فى مصر الفرعونية على زمن موسى ، ومن تقدم الطب فى عهد عيسى . كما حرص على التنويه بتفاصيل فى ذكر هذه المعجزات كانت مما أضافه القرآن الكريم ولم ترد فى الكتب السماوية السابقة فى نصوصها التى وصلت إلينا .

وينتقل المؤلف فى الفصل الثانى إلى معجزة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وهى تختلف عن معجزات الرسل السابقين ، فهى ليست خوارق للطبيعة مما قد يبهر الأنظار ثم يزول أثرها بعد ذلك . معجزة محمد كانت تتسق مع رسالة الإسلام التى تكمل الرسالات السابقة ، وتهدف إلى إصلاح سلوك الفرد وتبشر بسعادة الجماعات

الإنسانية فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ثم إنها تلائم ما بلغته الأمة العربية والأمم المجاورة من رقى عقلى . ولهذا كانت معجزة الإسلام هى القرآن ، وإعجازه كان معنوياً يدعو الإنسان إلى إعمال ما وهبه الله إياه من منّة وهو العقل المتدبر الذى بوسعه أن يصل إلى التوحيد الخالص والإيمان القادر على تحرير الإنسان من عبودية التقليد وأغلال الخرافة .

ويمضى الفصل الثالث فى بيان جانب من جوانب المعجزة القرآنية متمثل فى تحديه للعرب بأن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن ، فيتناول ما نادى به بعض علماء السلف من القول بـ " الصرفة " ومنهم النظام والأشعرى وابن حزم . والمقصود بهذه المقولة أن العرب كانوا قادرين – من الناحية النظرية – على الإتيان بما يقارب القرآن فى بلاغته لولا أن الله تعالى سلبهم هذه القدرة و " صرفهم " عنها ، وهى مقولة ينكرها شوقى ضيف ويفند ما احتج به أصحابها ، ثم يذكر وجها ثانياً من الإعجاز ، وهو الإنباء بالغيب . ويضرب على ذلك أمثلة منها تنبؤ القرآن بانتصار المسلمين على قريش فى غزوة بدر قبل وقوعها بثمانى سنوات ، ومنها إخباره بانتصار الروم على الفرس " فى بضع سنين " ، وكان الفرس فى وقت نزول آيات تلك النبوءة قد أوقعوا بالروم هزائم فادحة . ومنها أيضاً البشارة بفتح مكة قبل تحققه بسنتين (*) .

والمعجزة القرآنية التى يتحدث عنها الكتاب فى الفصل الرابع هى ما أضافة كتاب الله فى قصص الرسل السابقين محمد (صلى الله عليه وسلم) مما لم يرد فى التوارة كما وصلت إلينا فى صورتها المحرفة وفى هذه الإضافات أبلغ رد على ما أثاره بعض الطاعنين فى الإسلام قديماً وتابعهم عدد من المستشرقين المحدثين فى ادعاءات حول ما زعموه من أن الرسول (عليه صلوات الله) نقل عن أخبار اليهود وغيرهم ما جاء فى القصص القرآنى .

(*) يمكن أن نضيف إلى هذه النبوءات إخبار القرآن بمصير أبى لهب فى نار جهنم ، ونحن نعرف أن عددا من ألد أعداء الرسول انتهى بهم الأمر إلى اعتناق الإسلام ، بل وحسن إسلامهم ، مثل أبى سفيان بن عبد الحارث عبد المطلب ، ووحشى قاتل حمزة عم الرسول ، وعكرمة بن أبى جهل . ولم ترد فى القرآن إدانة لهم كما جاء بشأن أبى لهب ، وكأن القرآن تنبأ ضمنا بحسن مصيرهم .

والقرآن يدحض هذه المزاعم فى العديد من الآيات منها قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلمًا وزورًا * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا * ﴾ (سورة الفرقان / ٤-٥) ، بل إننا نجد سير أنبياء بنى إسرائيل المتقدمين كما صورها القرآن أطهر وأنظف بكثير مما ورد فى كتاب العهد القديم من مقابح لا تليق بصلحاء الرجال فضلاً عن الأنبياء المرسلين . وقد تتبع شوقى ضيف ما أضافة القرآن فى قصص آدم ونوح وإبراهيم وموسى ويوسف عليهم السلام .

ويعالج الفصل الخامس قضية من أخطر ما يدور حوله الجدل بين العلماء قديمًا وحديثًا ، وهى قضية " الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم " وذلك أن بعض علماء السلف رأوا أن القرآن يتضمن كل صفوف العلوم الدينية وغير الدينية ، وذلك من منطلق قوله تعالى " ما فرطنا فى الكتاب من شئ " (سورة الأنعام / ٣٨) ، فأقبلوا يتأولون آياته ويستخرجون منها معارف طبيعية وطبية ورياضية وفلكية وتابع بعض العلماء المحدثين والمعاصرين هذا الاتجاه ، حتى نسبوا إلى القرآن إشارات لما وصل إليه العلم الحديث من مكتشفات معاصرة . وقد بدأ هذا الاتجاه لدى الإمام الغزالى خصوصًا فى كتابه " *جواهر القرآن* " ، وتابعه على ذلك تلميذه الأندلسى أبو بكر ابن العربى (توفى سنة ٥٤٣) *والقاضى عياض المغربى* (ت ٥٤٤) ، ثم توسع فى ذلك الإمام فخر الدين الرازى (ت ٦٠٦) الذى تحول كتابه " مفاتيح الغيب " إلى موسوعة علمية ، إذ تتبع الإشارات الكونية فى القرآن ، فاتخذ منها منطلقًا لما يشبه أن يكون كتابًا كاملاً فى الفلك بحسب ما انتهت إليه المعارف الفلكية فى أيامه ، وكان يرى فى اجتهاداته تلك ما يقوى الإيمان ويثبته . ومضى فى هذا الاتجاه أيضًا المفسر الأندلسى محمد بن أبى الفضل المرسى (ت ٦٥٥) الذى قال أن القرآن قد جمع علوم الأولين والآخرين ، وإنه احتوى من علوم الأوائل « على الطب والجدل والهيئة - أى الفلك - والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة » كما أضاف إليها أصول صنائع وآلات لم يذكرها أحد غيره .

وأما المفسرون المحدثون فنجد فى طليعتهم الشيخ طنطاوى جوهرى (ت ١٩٤٠م) . وتفسيره الذى ألفه فى خمسة وعشرين جزءًا يحمل عنوان " جوهر القرآن " ، فى إشارة واضحة إلى اتجاهه الذى يماثل اتجاه الفخر الرازى فى الإلحاح على ما سماه

" بدائع العلم " مستعيناً بالنظريات الحديثة فى الطبيعة والرياضيات وعلوم الحيوان والنبات والفلك والطب والتشريح والسحر والتنويم المغناطيسى .

وشوقى ضيف لا يتردد فى إنكار هذا الاتجاه ، وبيان مدى تكلف أصحابه فى تأويل الآيات القرآنية ؛ فهو يقول : " وفى الحق أن تفسير الفخر الرازى القديم وتفسير الشيخ طنطاوى جوهرى الحديث يقنعاننا بأن التفسير العلمى للقرآن .. يخرجنا من دائرة القرآن إلى مباحث لا تفيدنا شيئاً فى فهم القرآن وغايته الإلهية الكبرى من هداية البشرية " ، كما أنه " لا يستطيع أن يضيف لنا شيئاً فى معرفة أصل الكون وأصل الحياة " .

ويعرض شوقى ضيف بعد ذلك للعلماء الذين اعترضوا على هذا الاتجاه " العلمى " فى التفسير ، ومنهم الإمام الأندلسى إبراهيم بن موسى الشاطبى (ت ٧٩٠) الذى وصف أصحاب ذلك الاتجاه فى كتابه " الموافقات " بأنهم " تجاوزوا الحد فى الدعوة على القرآن ، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين " وهو يوافق الشاطبى على رأيه ، فيقول : إن الخطر فى ربط القرآن بالنظريات والمكتشفات العلمية يخرجه عن هدفه وتوجهه الأساسى ، لاسيما وأن حقائق العلوم قد تتغير من عصر إلى عصر ، صحيح أن من الممكن توجيه بعض آيات القرآن مع معطيات العلوم الحديثة عن حقائق الكون ، غير أنه لا ينبغى التطرف فى هذا التوجيه و " أولى من ذلك أن يوجه الإعجاز العلمى للقرآن توجيها آخر أكثر قبولاً ، وهو نقله الأمة العربية من أمة بدوية إلى أمة ذات علم عظيم " .

فالذى لا شك فيه هو أن القرآن فى دعوته المتكررة إلى إعمال العقل وتأمل آيات الله تعالى وحكمته فى خلق الكون واستكشاف مجاهله بعيداً عن الاعتداد بخوارق الطبيعة التى قامت عليها معجزات الرسل السابقين – هو أعظم ما قدمه الإسلام للبشرية ، وهو الذى هيأ للمجتمع الإسلامى أن يكون له مكان الريادة فى تقدم العلوم بمختلف فروعها ، حتى أسلمها إلى النهضة العلمية الحديثة والمعاصرة . (*)

(*) ينوه شوقى ضيف هنا – فى حرصه على نسبة كل رأى إلى صاحب الفضل فيه – بدراسة لواحد من نجباء تلاميذه ، وهو الدكتور حسين نصار الذى ناقش أيضاً تلك القضية فى كتابه " الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم " (ص ١٥٢ – ١٥٣) ورأيه فى هذا الكتاب يتفق مع رأى شوقى ضيف .

ومن الواضح أن رأى شوقى ضيف فى هذه القضية قد لا يعجب الكثيرين من مسلمى اليوم الذين يفتنون باجتهادات بعض العلماء المعاصرين ممن يتأولون إشارات القرآن فى الآيات الكونية ، ويتلمسون موافقتها للمكتشفات الحديثة ، وهى اجتهادات تشكر لهم بغير شك ، غير أن كتاب الله ليس فى حاجة لإثبات حكمته إلى آراء علماء قد يصيبون وقد يخطئون .

ويستكمل مؤلف الكتاب فى الفصل السادس حديثه عن هذا المفهوم لما سماه " معجزة القرآن الحضارية " ، وهى أسمى وأوسع بكثير مما ذكرناه حول الإعجاز العلمى فالإسلام تحول بالعرب من قبائل بدوية إلى مجتمع حضارى يقوم على إصلاح حياة الإنسان متدرجًا من الفرد إلى الأسرة إلى الأمة . ورسالته ليست موجهة إلى العرب ، وإنما إلى المجتمع الإنسانى بأسره . فالقرآن يحدد بدقة حقوق الفرد وواجباته فى مجتمع يدين بالمساواة التامة بين أفراده على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ، بل ويتسع أيضًا لمن يخالفونه فى الملة ، فيعتبرهم أهل ذمة ، وهو مجتمع يقوم على الشورى والتكافل الاجتماعى المستمد من تشريع الزكاة ويدين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبإقامة العدل ، ويأخذ بحرية العقيدة إذ يقوم على مبدأ واضح صريح : " لا إكراه فى الدين " ، وهو فى ذلك يختلف عن المجتمعات السابقة التى أدت فيها الاختلافات الدينية والمذهبية إلى ألوان رهيبة من الاضطهاد وسفك الدماء . وهو يدعو إلى مكارم الأخلاق من وفاء بالعقود وأمانة وصدق وإخلاص نصيحة ، وحلم ، وعمل صالح . ولا يفوت شوقى ضيف أن يكرر فى هذا الفصل ما سبق أن أشار إليه فى الفصل السابق من عقلانية يسندها مبدأ الاجتهاد فى الفقة فى أحكام الدين والدنيا .

ونأتى إلى الفصل السابع الأخير ، وهو حول معجزة القرآن البلاغية . وقد استأثر موضوع الإعجاز البلاغى للقرآن بعناية علماء المسلمين قديمًا وحديثًا حتى إن المؤلفات فيه تستعصى على الحصر ، على أن شوقى ضيف - فى توخيه الإيجاز - يكتفى بعرض أبرز ما كتب فيه . وهو يبدأ بعرض رأى الجاحظ (ت ٢٥٥) ، وهو أن إعجاز القرآن يرجع إلى نظمه ، أى حسن صياغاته وتراكيبه ، ثم ينوه بآراء القاضى المعتزلى عبد الجبار بن أحمد (ت ٤١٥) الذى ذهب فى كتابه " المغنى " إلى مفهوم مختلف للإعجاز القرآنى معتمد على معيار " الفصاحة " التى يتفاضل بها الكلام ، والفصاحة

عنده لا تظهر فى أفراد الكلام ، وإنما فى الكلام كله بالضم على طريقة مخصوصة ، وبكيفية إعراب كل كلمة وحركاتها وموقعها . وعلى أساس رؤية عبد الجبار أقام عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١) نظريته المشهورة فى "دلائل الإعجاز" ، إذ رأى أن السر فى إعجاز القرآن يرجع إلى نظمه الذى توخى فيه معانى النحو . وقد كان شوقى ضيف أول من نبه إلى ما يدين به عبد القاهر للقاضى عبد الجبار ، وتلقف كثير من الباحثين التالين منه هذه الفكرة بغير أن يشيروا إلى سبقه إليها . (وهو سلوك يعد من آفات حياتنا العلمية المعاصرة) .

وعلى كل حال فإنه يظل لعبد القاهر الفضل فى تفضيل تلك النظرية التى أصبحت أساسًا لنضج علوم البلاغة العربية من معان وبيان وبديع ، إذ استمد من آرائه كل من أتى بعده . ولهذا فقد أفاض شوقى ضيف فى شرح آرائه التى استكملها عبد القاهر فى كتابه الآخر " أسرار البلاغة " .

ويختم المؤلف هذا الفصل بعرض ما كتبه حول الأعجاز القرآنى مصطفى صادق الرافعى (ت ١٩٣٨م) ، وهو أوفى الكتب المؤلفة فى هذا الموضوع . وفيه يستعرض آراء من تناوله من علماء السلف ، ويثنى على ذلك برؤيته الخاصة التى تقترب فى جملتها من رؤية عبد القاهر الجرجانى فى تحليله لألفاظ القرآن بدءًا من أصوات الحروف إلى المفردات إلى الجملة ثم الجمل ، والنظر فى روابط الألفاظ والمعانى وطريقه النسق ، ووجوه الحذف ، والإيجاز والتكرار ، والوصل والفصل ، حتى لايمكن أن تجد فى النص القرآنى كلمة يمكن أن تبدأ بغيرها .

إننا حينما نتأمل هذه الصفحات الأخيرة التى أشاد فيها أستاذنا بجهد الرافعى رحمه الله لا يسعنا إلا التنويه بفضيلة أخرى له . فشوقى ضيف على الرغم من نقده المتزن الهادئ لبعض التفاصيل فى كتاب الرافعى فإنه عرف كيف ينصف ذلك العالم المظلوم الذى أخملت ذكره خصومة لبعض أعلام الوسط الأدبى فى أيامه مثل طه حسين والعقاد .

وأمر آخر جدير بالثناء ، هو إخراج الكتاب فى الصورة الأنيقة التى أصدرته بها دار المعارف ، وإن كانت قد وقعت فيه بعض الأخطاء المطبعية القليلة التى ننبه إليها

حتى تتدارك فى الطبعات التالية :

ومنها أخطاء فى بعض التواريخ :

– ص ٥ ، ص ١٦٥ : وفاة الشاطبى سنة ٩٧٠ ، والصواب ٧٩٠ .

– ص ٧١ : وفاة ابن حزم الظاهرى سنة ٣٥٦ ، والصواب ٤٥٦ .

– ص ٨٦ : " ليعلما أهل المدينة القرآن ويفقهانهم فى الدين " . الصواب " يفقهاهم "

– ص ١١٦ : " أن – أى إسماعيل – رزق أثنا عشر ولداً " . الصواب " أثنى عشر " .

– ص ١٢٦ :فقال لهما : " ادعوانه لنقدم له طعاماً " . الصواب " ادعواه " .

– ص ١٣١ : " وانفرج – البحر الأحمر – لهم – لبنى إسرائيل – عن طريق عبره من الشاطىء الشرقى فى مصر إلى الشاطئ الغربى من سيناء " الصواب " ... من الشاطئ الغربى .. إلى الشاطئ الشرقى " .

* * *

ونحن نهنئ أستاذنا الدكتور شوقى ضيف على هذا الكتاب الجليل ، وندعو الله أن يجزل عليه ثوابه ، ويكتبه فى ميزان حسناته ، إنه سميع مجيب الدعاء .

الأستاذ الدكتور محمود على مكى

كلية الآداب – جامعة القاهرة

١٦ - إسلاميات شوقي ضيف

د. النعمان القاضي

لم تقتصر مشاركات شوقي ضيف الإسلامية على التصدى للموضوعات الإسلامية الخالصة - تأليفًا وتحقيقًا - كالتفسير والقراءات والمغازى والسير ، وإنما سبق تصديه لتلك الموضوعات ، ولحقها عناية بارزة بالاتجاه بمختلف دراساته العديدة - على تنوعها - اتجاهًا إسلاميًا أصيلاً .

ومن ثم كان لزامًا على مَنْ يريد تقييم مشاركات عالمنا الجليل الإسلامية ، أن ينظر فى سائر أعماله وهو أمر يبدو صعب المنال ، نظرًا لخصوبه إنتاجه وكثرته وتعدده ، إذ ظل على مدى أربعين عامًا أو يزيد - ولا يزال أطال الله فى عمره - يهب من نفسه بجد وإخلاص وتفان ، حتى أصبح مؤرخ الأدب العربى العتيد ، وأستاذ الدراسات الأدبية الذى يجمع على إمامته كل المشتغلين بالثقافة العربية فى جامعاتنا ، وفى الجامعات العربية دون منازع ، وصارت كتبه ودراساته المرجع المعتمد عند كل من يتصدى لفرع من فروعها بالدراسة والبحث .

وقد ارتبط شوقى ضيف بالاتجاه الإسلامى النقى منذ يفاعته ، عندما درس فيما قبل الجامعة فى الأزهر ، ودار العلوم ، فنهل من المنابع الإسلامية الصافية فضلاً عن نشأته فى بيت علم ودين . وقد وقر فى إدراكه منذ ذلك الوقت إن الإسلام هو البلورة التى تكونت من حولها المعارف المختلفة من تلك العلوم المساعدة ، أو الأدوات المعينة من اللغة وعلومها ، والأدب وفنونه ، والبلاغة والنقد وفروعهما .

وفى الجامعة أتيح له أن يقف على تلك المحاولات الجديدة ، التى كان يتعاطاها جيل الرواد بمنهج جديد ، بإشراف كوكبة من المستشرقين على اختلاف منازعهم وأغراضهم ونواياهم ، إلا أن هذا المنهج الجديد الذى كان يؤكد الفصل بين الدرس الأدبى والدين ، كما كان يصطنع الشك وسيلة للمعرفة ولتنقية التراث ، ويقارن بين

الدرس الأدبى ، كما يجب أن يكون فى الجامعة ، والدرس الأدبى فى الأزهر ودار العلوم ، لم يكن فى وجدانه وفكره من أن الإسلام هو المنبع الأصيل ، الذى يرفد جميع فروع الثقافة العربية مهما اختلفت وتنوعت .

من هذا المنطق بدأ شوقى ضيف حياته العلمية فى الجامعة ، وأخذت أبحاثه تترى ما بين تأريخ للأدب العربى ، وتحليل لظواهره ، ورصد لتطوره والتجديد فيه ، وتأريخ للعلوم العربية من نقد وبلاغة ونحو ، فضلاً عن أعماله الإسلامية الخالصة فى التفسير وعلومه .

وقد تصدى شوقى ضيف فى تاريخه للأدب الذى استغرقته سلسلة - لم تتم حلقاتها بعد - لهذا المنهج ، فدحضه ، واستبدل به منهج المحدثين المسلمين فى جرح الرواة وتعديلهم ، وصحح بهذا كثيراً من الشعر الجاهلى الذى أنكره المستشرقون من أمثال مرجليوث ، ونولدكه ، وبلاشير ، وأضرابهم وتلاميذهم ، وتجرد فى كتابه « العصر الجاهلى » لتوثيق أشعار الجاهليين الأعلام شاعراً شاعراً ، وقصيدة قصيدة ، وفقًا لهذا المنهج الإسلامى الذى عاد فبسطه بسطًا مفصلاً فى كتابه « البحث الأدبى : طبيعته ، مناهجه ، أصوله ، مصادره » .

وكان قد وجه واحداً من أبرع تلاميذه ، هو الدكتور ناصر الدين الأسد لمعالجة قضية الانتحال فى رسالته للدكتوراه ، فانتهى إلى ما انتهى إليه أستاذه فى كتابه النفيس « مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية » .

وفى الجزء الثانى من موسوعته فى تاريخ الأدب « العصر الإسلامى » أكد ما سبق له أن قرره فى دراسته المبتكرة عن « التطور والتجديد فى الشعر الأمرى » من فساد الفكرة التى أشاعها المستشرقون وتلاميذهم من أن الطبقة التى كونها الشعر فى عصر بنى أمية ، تشبه تمام الشبه الطبقة الجاهلية ، وإن لم تتحد معها فى خصائصها الفنية تمام الاتحاد ، وهى فكرة خبيثة قصد بها إهدار أثر الإسلام فى الشعر ، وسلب العرب المسلمين أية قدرة على الإبداع والتطور ، ووفقًا لهذه الفكرة فإن العرب استمروا ينظمون شعرهم بعد الفتوح الإسلامية ، ونزولهم فى الأوطان والأقاليم الجديدة خارج الجزيرة العربية على شاكلة ما كان ينظمه أسلافهم ، حتى أرسل الله لهم الموالى فى العصر العباسى ، فطوروا لهم صورة شعرهم ، وجددوا فى إطارها وخطوطها وألوانها

فنونًا من التجديد !

وقد ناقض شوقى ضيف هذه الفكرة على أسس نظرية جديدة ؛ لا ترى العرب بدعًا بين الأمم والشعوب ، ولا تراهم أحجاراً ينقلون من مكان إلى مكان ، ومن عصر إلى عصر ، ومن طور بداوة إلى طور حضارة دون أن يتأثروا بما يصادفهم من مؤثرات حضارية ، وغير حضارية . فقد تبدلت نفسية العربى ، لتبدل الحياة من حوله ووقع تحت مؤثرات دينية ، وحضارية ، لم يكن يعرفها فى جاهليته ، وفرق بعيد بين نفسية وثنى ، ونفسية مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويستشعر السعادة فيما يؤديه من تقوى وعبادة ، وفرق بعيد بين عقلية بدوى ، يعيش معيشة بسيطة فى الخيام ، لا يخضع لسلطان سوى سلطان القبيلة المحدود ، وعقلية حضرى يعيش فى مسكن مستقر البنيان ، ويخضع لضرورات الحياة فى الدول والمدن ، ويختلف إلى دروس العلماء وحلقاتهم فى المساجد .

وفى « العصر الإسلامى » عاد شوقى ضيف ليرجع بأصول هذه التطور والتجديد الذى لحق بالشعر إلى ظهور الإسلام ، الذى كان ثورة فى جميع أقطار الحياة العربية ، وبخاصة فى جوانبها الأدبية ، إذ كانت معجزته معجزة بيانية تمثلت فى القرآن الكريم الذى تحدى به العرب أهل اللسان والبيان فأعجزهم وبهرهم . وكان قد وجه كاتب هذه السطور إلى معالجة القضية فنهض بذلك فى بحثه للماجستير عن « شعر الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام » ، وانتهى إلى نتيجة تكمل ما انتهى إليه أستاذه ويؤكده ، وهى أن الشعر العربى قد بدأ رحلة تطوره ، والتجديد فيه اعتباراً من ظهور الإسلام ، وأن الإسلام لم يعق الشعر ، ولم يصادمه ، ولم يتسبب فى إضعافه كما كان شائعًا فى بعض البيئات ، بل إن الإسلام أفسح للشعر ، وشجع عليه وأذكت فتوحاته جذوته .

وقد أخذ يؤرخ فى « العصر الإسلامى » للحركات السياسية والفكرية والكلامية التى ظهرت فى عصر بنى أمية ، من شيعة ، وخوارج ، ومرجئة ، ومعتزلة ، وجَبرية ، مؤصلا لها بجميع شعبها ، وراصدا لأثر الإسلام فيما عبرت به عن مقولاتها شعراً ونثراً ، فرد حجاج الكميت عن الزيدية فى هاشمياته ، إلى التأثر بالقرآن الكريم والفقه الإسلامى ، وتجاوز شعراء الفرق إلى غيرهم باحثًا عن أثر الإسلام فى شعرهم حيث أرجع عفة الشعراء العذريين إلى الإلام ، وما أحدثه فى نفوسهم من تقى ورقة والتزام ،

ومن أطرف دراساته التأصيلية دراسته عن الشاعر ذى الرُّمَّة الذى كلف بوصف الطبيعة الصحراوية ، فقد عقد له فصلاً فى « التطور والتجديد فى الشعر الأموى » أرجع فيه كثيراً من خصائصه الفنية إلى التأثر بروح الإسلام ، سواء فى مديحه أو هجائه أو وقوفه على الأطلال ، عندما يبكى ، ويستبكى على آثار المسجد الذى كانت تتخذه القبيلة ، وإصراره على ألا يدع فرصة لسهام الصائد ، أو كلابه لتصيد حيوانات الصحراء التى أضمر لها الحب والإشفاق نتيجة للإنسانية التى بثها الإسلام فى نفسه ، ومن هذا أيضاً تتضح قدرة ذى الرُّمَّة على الربط بين الصور المتباعدة ، وهى قدرة تدل دلالة قاطعة على أنه كان يحس بالكون إحساساً كليًا لا مكان له ولا زمان ، وما ذلك إلا نتيجة نظرة عميقة فى الكون هيأها له الإسلام وكذلك أرجع فن النقيضة الذى ظهر على أيدى الفرزدق وجرير والأخطل إلى أغراض الفخر ، والهجاء ، والمديح القديمة بما حباها له المجتمع الإسلامى الجديد فى الأمصار فى ظل الدولة الجديدة .

وفى أجزاء موسوعته لتاريخ الأدب ، التى تناولت العصور الأدبية اللاحقة ، سواء فى « العصر العباسى الأول » ، أو « العصر العباسى الثانى » ، أو « عصر الدول والإمارات » كان حريصاً على أن يجعل النشاط الأدبى انعكاساً للثقافة الإسلامية ، وما كان يتنابها من تأثرات حضارية مختلفة ؛ فارسية فى العصر الأول ، وتركية فى العصر الثانى ، بل إنه لم يغفل أثر تلك التيارات الفكرية التى امتزجت بالثقافة ، فاقترنت بالاحتكام إلى العقل فى العصر العباسى الأول ، مما أدى إلى سيادة النزوع الاعتزالى وغلبته على الأدب ، بينما انحسر أثره على الأدب بعد غلبة الاتجاه السنى منذ عهد المتوكل فى العصر العباسى الثانى .

وكان إيمان شوقى ضيف بوحدة الثقافة الإسلامية ، والأدب العربى عاصمًا لتأريخه من الانحراف إلى شعاب الإقليمية ، فجاء أنه أرجع كل ما ظهر فى بيئة الأندلس العربية من نتاج فنى ، وأشكال فنية مستحدثة إلى التأثر بنتاج المشارقة كرده الموشحات إلى المسمطات .

وقد ترجم شوقى ضيف للشعراء والكتاب على اختلاف عصورهم ، واتجاهاتهم فى موسوعته تلك وفى غيرها من دراساته ، وكان منهجه فى الترجمة لهم يقوم على

التحرى الدقيق لحيواتهم ، والاستقراء الفاحص لشعرهم ونثرهم ، والاحتكام إلى المصادر الأصيلة دون أن يأبه لما راج عن بعضهم ، ووسم به من الزندقة والإلحاد والتنكب عن طريق الإسلام القويم ، ونتيجة لهذا المنهج صحح عقيدة أبى العتاهية ، ورد زهده إلى أصول إسلامية ، ونسب زندقة أبى نواس إلى الظرف ، ودحض ما أشيع عن تلمذة أبي العلاء للفكر اليوناني ، وأثبت أنه هبة من هبات الفكر العربي ، وأن زهده إسلامى تابع فيه الفقهاء المسلمين فى فكرة التعبد ، كما أثبت توسطه بين القائلين بالجبر والاختيار ، وأنه كان يؤدى الفرائض الدينية ،وأنه تابع المعتزلة فى وجود العدل على الله وتنزيهه عن التجسيم ، وأنه كان يؤمن بالملائكة والجن والشياطين ، وأن القول بإنكاره النبوات خطأ وأنه مدح الرسول ﷺ ، وأنكر على الزنادقة الملحدين ، كما آمن بالبعث وبسؤال القبر وبالحساب والعقاب والثواب .

وفى فصل آخر من هذا الكتاب « فصول فى الشعر ونقده » ، تحدث عن ابن الفارض ومجاهداته الروحية ، وانتهى إلى أن تصوفه يستمد من المبادئ الإسلامية ، سواء فى ذلك زهده ، ومجاهداته الروحية ، ونسكه وذكره ، وتوكله ، وتوبته ، ومحبته ، وانمحاؤه فى الله ، وعلمه اللدنى ، ومن ثم فإن إمعانه فى الزهد لا يتنافى مع تمسكه بالشريعة ، وإن رمزيته الصوفية التى يتضمنها تغنيه بالحب الإلهى ، إنما هى فى الموضوع وليست فى الكلمات ، وإنه - خلافا لمن درسوه - مؤمن بوحدة الشهود ، منكر لوحدة الوجود وللحلول ، وإنه ينمحى فى الحقيقة المحمدية انمحاءه - فى الله .

وفى فصل آخر من نفس الكتاب عقده للبوصيرى ، وللحقيقة المحمدية فى مدائحه النبوية كشف عن أن كرامات المتصوفة جميعًا ليست إلا قطرات من ينبوع الحقيقة المحمدية الأزلية ، التى ترسبت فى وجدان المسلمين ؛ نتيجة لكون الرسول ﷺ هو المثل الأعلى للإنسان الكامل ، فنوره هو المشاهد فى كل نور ، وهو النور السارى فى كل الوجود ، إذ علمه لدنى ، ومعجزته القرآن ، وخلقه مجاهدة النفس عن هواها ، وهكذا فالروح المحمدى أصل الوجود .

وفى الكتاب ذاته خصص فصلاً لشوقى ومكانته فى الشعر الحديث - فضلاً عن كتاب آخر .. هو « شوقى شاعر العصر الحديث » اهتم فيه بإسلامياته وخص منها مدائحه النبوية بالذكرة ، فوقف عند معارضته لبردة البوصيرى وإبداعه فيها ، الأمر

الذى دعا الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر آنذاك ، ليكتب لها شرحًا بنفسه ، وفى تلك القصيدة دافع شوقى عن الإسلام دفاعًا مجيدًا ، ناقض فيه ما يردده أعداؤه من أنه انتشر بحد السيف ، إذ إنه فتح بالسيف بعد القلم ، وبعد أن أعياه انحسار الشر سلميًا ، وكيف أن شوقيًا ظل يتغنى بهذا اللحن الدينى طوال حياته على نحو ما يلقانا فى قصائده ، التى يحيى بها ذكرى رسول الله ﷺ من مثل همزيته المشهورة ، وأنه عبر فى غير قصيدة عن الأخوة الصادقة بين العرب جميعًا مسلمين ومسيحيين ، وأشاد بالمسيح مرارًا ، وبرأة وتعاليمه من الأمم المسيحية المستعمرة ومظالمها فى الشعوب ، مصورًا ذلك فى قصائد تهز القلوب .

وفى كتابه « دراسات فى الشعر العربى المعاصر » الذى تناول فيه عددًا وفيرًا من شعراء وطننا العربى والإسلامى ، أفرد فصلاً للشاعر الإسلامى أحمد محرم وإلياذته الإسلامية أو ما عرف « بديوان مجد الإسلام » ، قرر فيه أن السبب فى عدم وجود ملاحم عربية شبيهة بالإلياذة والأوديسا ، المنسوبتين لهوميروس ، لا يرجع إلى أن العرب لم تكن فى تاريخهم حروب هائلة مع الفرس كذى قار ، ومع أنفسهم كالبسوس ، فضلاً عن حروبهم الإسلامية فى الشرق والغرب ، وكان لهم فيها أبطال لا يقلون شأوًا عن أخيل ، وهكتور فتكًا وشجاعة ، وإنما هو الشاعر العربى الذى لم يتعد غالبًا حدود نفسه ، ولم يشأ أن ينظم سوى أغنياته التى يعبر فيها عن لحظة له هنيئة ، وأخرى حزينة ، على الرغم من أن شعراء من أمثال ابن عبد ربه الذى نظم فى حروب عبد الرحمن الناصر ، ولسان الدين بن الخطيب الذى نظم التاريخ حتى عصره شعرًا ، فضلاً عن نظم سيرة الرسول ﷺ وقصتى إسرائه ومعراجه شعرًا ، فإن هذا النظم إنما يدور فى إطار المتون ، إذ تحصى فيه المعلومات التاريخية إحصاء ، وتنظم الحوادث فى أسلاك من الشعر دون أية إضافة لروعة الخيال ، أو تمثيل صحيح لحقائق التاريخ .

وهكذا فإن العربية لم تعرف الشعر القصصى بمعناه الغربى ، وإنما عرفت ضروبًا من نظم التاريخ ، تشبه أن تكون متونًا للحفظ والتسميع ، إلى أن اتصلنا بأوروبا وآدابها فى القرن الماضى واطلع شعراؤنا على الملاحم الكبيرة عند القوم ، ونقل سليمان البستانى إلياذة هوميروس إلى العربية شعرًا ، فرأى شعراؤنا تحت أعينهم هذا اللون من الشعر القصصى ، ومازال شعراؤنا يتطلعون إلى مجاراة هذا العمل ،

ومحاكاته حتى نهض أحمد محرم يحقق لهم الأمل المنشود ، فاختار حروب الرسول ﷺ موضوعاً لإلياذته الإسلامية .

بهذا العرض الدقيق قدم أستاذنا الجليل لإلياذة محرم الإسلامية ، إلا أن فرحه بهذا الإنجاز لم يلبس صوت محرم عنده بأصوات أصحاب الملاحم ، فقرر بعد عرض الإلياذة ، وتوضيح سماتها وخصائصها ، أن شاعرنا الإسلامي لا يكتب ملحمة وإنما يكتب أو ينظم سيرة الرسول ﷺ ، وفرق بين نظم السير ، والشعر القصصي ؛ فالأول عمل آلى ، يقرأ الشاعر فيه التاريخ ويحوله شعراً أو نظماً ، وهو لا يعالج حرباً ولا ملحمة بعينها ، وإنما يتناول مجموعة كبيرة من حروبه يعرضها عرضاً تاريخياً صادقاً ، فيكون تاريخاً ولا يكون شعراً ، فإلياذة محرم إذن ليست سوى قصائد جمع بعضها إلى بعض ، وتسميتها بالإلياذة لن تغير من مدلولها الحقيقى ، فهو اسم لا يطابق مسماه ، لا فى الشكل ، ولا فى المضمون ، وهى فى النهاية ، ليست كما يظن حدثاً جديداً فى أدبنا بل هى عمل مسبوق !

ويطول بنا الحديث لو تتبعنا الجوانب الإسلامية فى أعمال شوقى ضيف الأدبية المختلفة سواء كانت فى العصور القديمة أو فى العصر الحديث ، فهو معنى بها فى تاريخه للأدب ، وفى دراساته لظواهره ، وفنونه ، وأعلامه عناية منهج واتجاه .

* * *

وقد مكث شوقى ضيف يُدرس القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، لطلاب قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب بجامعة القاهرة بضع سنين ، عنى فيها باتجاهات التفسير المتعددة على مر التاريخ ، من تفسير مأثور أو أثرى يقوم على المأثورات المروية ، إلى تفسير عقلى يتجه اتجاها اعتزاليا ، أو شيعيا ، أو صوفيا ، أو فقهياً تشريعيا ، أو لغويا نحويا ، أو بلاغيا بيانيا ، أو علميا يعنى بتفسير ظواهر الكون .

وفى تلمسه للتفسير الحق كان يستعرض لتلاميذه تلك الاتجاهات على اختلافها راصداً ما يعتورها من نقائص ؛ فالتفسير المأثور أقحم عليه كثير من الإسرائيليات ،

التى تتصل بالحديث عن بدء الخليقة ، وعن قصص بعض الأنبياء من مثل مقدار سفينة نوح ونوع الخشب المصنوعة منه ، وأسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم الخليل ، والجزء الذى ضرب به القتيل من بقرة بنى إسرائيل ، وأسماء أصحاب الكهف ، وعدتهم وأحوالهم ، إلى غير ذلك مما ينبغى التحرز منه وتنحيته عن تفسير الكتاب العزيز .

أما ألوان التفسير الأخرى كتفسير المعتزلة والشيعة والصوفية ، فإن أصحابه يعمدون إلى الاتساع فى تأويل الآيات ، حتى ليعدل به أحيانًا إلى دلالات إشارية لا تحتملها الألفاظ ولا يؤديها ظاهرها الصحيح ، إذ يصرفون ألفاظ القرآن عن معاينها الظاهرة ، إلى معان بعيدة تتطابق مع آرائهم ومعتقداتهم ، وهم قد يفسرون القرآن بمعان صحيحة ، غير أن القرآن الكريم لا يتضمنها ، وقد ينزلقون فيحملون بعض الآيات على ما يؤمنون به من حكم العقل على النقل عند المعتزلة مثلاً ، وتقرير حقوق لآل البيت فى الخلافة كما يفعل الشيعة ، والقول بوحدة الوجود أو وحدة الشهود ، والفناء فى حقيقة الله كما يصنع المتصوفة ، والاستدلال لما يدينون به من الأحكام والقواعد الشرعية كما يفعل الفقهاء ، والاستشهاد على قواعدهم النحوية والصرفية والبيانية إن كانوا من النحاة أو اللغويين أو البلاغيين .

وقد انتهى التفسير أخيراً إلى الخوض فى المباحث العلمية والمكتشفات الحديثة ، واتخاذ القرآن الكريم ذريعة لإثبات نظريات علمية فى الطبيعة والعلوم الكونية والفلكية ، وهكذا أصبح التفسير ليس إلا لونًا من ألوان الإسقاط يقوم به المفسر على آيات الكتاب الحكيم حسب اتجاهه وتخصصه واهتماماته ، مع أن الذكر الحكيم لم ينزل لبيان قواعد العلوم ولا لتفسير ظواهر الكون ، وما ذكر فيه من خلق السموات والأرض والجبال والأفلاك والكواكب وغيرها إنما يراد به بيان قدرة الله وحكمته ، وأن للوجود خالقًا أعلى يدبره وينظم قوانينه .

ولا ريب فى أن القرآن الكريم يدعو أتباعه دعوة عامة إلى العلم والتعلم للعلوم الرياضية والطبيعية والكونية ، ولكن - كما يقرر شوقى ضيف - هذا شئ ، والتحول بالقرآن إلى كتاب تستنبط منه النظريات العلمية شئ آخر ، لا يتصل برسالته ، ولا بدعوته إنه دين لهداية البشرية ، يزخر بما لا يحصى من قيم روحية واجتماعية

وإنسانية ، بل هو دستور شامل لهداية البشرية وسعادتها فى الدنيا والآخرة ، وحسب المفسر أن يعنى ببيان ما فيه من هذه القيم ومن أصول الدين الحنيف ، وتعاليمه التى أضاءت المشارق والمغارب .

وبهذا الفهم لطبيعة القرآن ووظيفته ، ووظيفة التفسير ، يدفع شوقى ضيف كل هذه الاتجاهات القاصرة عن الوفاء بمهمة التفسير الحقة ، ولا يجد اتجاهًا تفسيريًا قمينًا بهذا سوى تفسير القرآن بالقرآن ، وتأصيلاً لاتجاهه هذه يحدثنا فى مقدمته لكتابه « سورة الرحمن وسور قصار » عن منهج ابن تيمية فى التفسير ، الذى عرضه فى مقدمته النفسية عن أصول التفسير ، وفيها حمل ابن تيمية على الإسرائيليات المدسوسة على التفسير موافقًا فى ذلك أستاذه الإمام أحمد بن حنبل الذى قال بسبب من ذلك : ثلاثة لا أصل لها ؛ التفسير ، والملاحم ، والمغازى . وقد حمل ابن تيمية على تلك الاتجاهات التفسيرية المنحرفة عن الجادة ، وخلص إلى أن خير طرق التفسير هى تفسير القرآن بالقرآن ؛ إذ أن ما أجمل فى موضع جاء مفصلاً فى موضع آخر ، وما ذكر موجزًا فى آية جاء مفصلاً فى آية أخرى ، وإن لم يف القرآن الكريم أحيانًا بالمراد ، رجع المفسر إلى الحديث النبوى ، فإن الرسول ﷺ ، فسّر آيات القرآن الكريم كما يشهد لذلك قوله تعالى شأنه :(وأنزلنا إليكَ الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) . ويضم المفسر إلى ذلك أقوال الصحابة الذين رافقوا الرسول ﷺ ، وفهموا عنه التنزيل ، وكذلك أقوال التابعين الذين خالطوهم ووقفوا منهم على معانى القرآن الكريم . ولا يقتصر ابن تيمية على ذلك وإنما يفتح الأبواب أمام المفسر ، ليجتهد ويستنبط ، ولكن بعد أن يكون قد استوفى العدة لذلك باستيعابه للذكر الحكيم ، وآياته ومعانيه المتقابلة ، ولأقوال الرسول والصحابة والتابعين فيه ، وبعد أن يتقن العربية ، ويتعمق فى علوم الشريعة ، وبعد علمه الدقيق بدلالات القرآن وتذوقه لخصائصه البيانية الرائعة ، وقد طبق ابن تيمية منهجه هذا على بعض سور القرآن الكريم ، وهى سورة النور وبعض قصار السور من جزء عم ، كما خص سورتى المعوذتين برسالة مستقلة ، وأفرد كتابًا لسورة التوحيد أو الإخلاص .

ويتحول تفسير كل آية من آيات هذه السور عند ابن تيمية إلى البحث فى مضمونها من خلال القرآن كله وهكذا ، وقد تبعه فى منهجه تلميذه ابن قيم الجوزية فى

كتابه « التبيان فى أقسام القرآن » وفى تفسيره للمعوذتين ، حتى إذا جاء العصر الحديث اقتفى أثرهما الإمام محمد عبده فحاول على هدى قراءته لهما أن يعرض لنا تفسيراً دقيقاً بديعاً لجزء عم ، خلصه من كل الشوائب العقائدية والإسرائيليات ، ورفض فيه البدع والخرافات ، واهتم بفهم معانى القرآن وما دعا إليه من الارتقاء بالروح عن طريق التهذيب الخلقى القويم ، والنهوض بالمجتمع عن طريق توثيق التعاون والتكافل بين الأفراد ، مع تقديم كافة الأسباب التى تحقق الكمال الفكرى والروحى والاجتماعى الذى يطمح إليه الإنسان الحق .

هذه مصادر شوقى ضيف فى منهجه التفسيرى . ولسنا نعلم – فيما نعلم – أحداً من المفسرين ودارسى علوم القرآن فى عصرنا الحديث ، احتذى الشيخ الإمام فى منهجه التفسيرى سوى رجلين أتيح لهما ما اشترطه ابن تيمية من عدة المفسر ، وهما المغفور له الشيخ العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز ، كما يبدو ذلك من دراساته العديدة عن القرآن الكريم ، ككتابه « مدخل إلى القرآن الكريم » وبخاصة كتابه « النبأ العظيم » الذى حاول فيه محاولة مبتكرة فى دعم سياق السورة فى القرآن ، وخص محاولته تلك بسورة البقرة ، أما الرجل الثانى فهو شوقى ضيف الذى ضمن تطبيقه لمنهجه التفسيرى فى محاولته البارعة لتفسير سورة الرحمن وسور قصار .

وقد بدأت قصة هذه المحاولة عندما دعته صحيفة الأهرام فى عام ١٩٧٠ ، إلى المشاركة فى الاحتفال بشهر رمضان المبارك لعام ١٣٨٩هـ ببعض أحاديث دينية فرأى أن تكون مشاركته بعرض تفسير لبعض قصار السور ، يتناول من خلال آياتها مضمون تلك الآيات فى سائر أى الذكر الحكيم ، فنشر له عرض لسور الفاتحة والتوحيد والعصر ، وقد وقع هذا العرض موقع استحسان من كثير من القراء ، الذين كتبوا إليه بأن يمضى فى عرض سور أخرى ، وتفسيرها على نفس المنهج ، واستحثه نفر من تلاميذه وأصدقائه أن يعرض لسورة النعم الدنيوية والأخروية بخاصة ، وهى سورة الرحمن .

وقد نهض بهذا العمل وأضاف إليه تفسيره لسور الفاتحة والتوحيد ، والعصر التى نشرت بالأهرام ، وزاد عليها تفسيره لسور الملك والأعلى والكوثر والماعون والفلق ، وهكذا جمع تسع سور ، تتضمن فى طياتها أصول العقيدة الإسلامية ومبادئ الإسلام الخلقية ، والاجتماعية بسطها جميعاً من خلال آيات الذكر الحكيم كله .

فهو يعمد إلى الآية ، فيتخذ منها محوراً يهديه إلى مضمونها العام فى سائر القرآن ، ومن ثم فإننا لا نبعد إذا قلنا إن تفسيره لسورة الرحمن ولتلك السور القصار ، يغنى عن تفسيره لبقية القرآن الكريم ، إذ استطاع - بهذا المنهج الموضوعى - أن يعرض من خلالها لقضايا عديدة كتوحيد الله ، وتعظيمه ، وتنزيهه ، وجلاله ، ورحمته ، وآلائه فى الدنيا والآخرة ، ولرسالات الله ولرسله وملائكته وكتبه ، وللجن والشياطين ، ولماهية الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، وللثواب والعقاب ، كما عرض لقضايا التعذيب الروحى والخلقى ، وللعلاقات الاجتماعية المختلفة ، ولتحرير الإنسان من الهوى والخرافة ، والآثام ، ولاستغلال الإنسان لعقله وكشفه لأسرار الكون وقوانينه ، وإيقاظ مشاعره ووجدانه والسمو به إلى الكمال الإنسانى المنشود ، ويضيق بنا المقام عن التمثيل لذلك العمل العظيم .

* * *

وكأثر من آثار اهتمامه بالتفسير ، وعلوم القرآن تطرقت جهود شوقى ضيف الإسلامية إلى علم القراءات ، ذلك العلم الدقيق الذى يحكم تلاوة القرآن وترتيله وتفسيره وتأويله ، والعمل بأحكامه ، ومعلوم أن رسول الله ﷺ ، كان يتلو آيات الكتاب الحكيم على صحابته فور نزولها ويقوم بتفسيرها لهم ، ثم يقومون بعد فهمها بحفظها وتلاوتها ، فى الصلوات ومختلف العبادات ، وقد يكتبها بعضهم ، فكان منهم - رضوان الله عليهم - من حفظ القرآن كله ، ومن حفظ أكثره ، ومنهم من حفظ بعضه ، ومعلوم أيضًا أنه صلوات الله عليه ، كان يتلوه باللهجات المختلفة للقبائل تيسيراً عليهم وتخفيفًا ، ونتيجة لذلك كانت قراءة الصحابة للقرآن تختلف من قبيلة لأخرى ، حتى أنكر عمر ذلك على بعضهم ، فقال ﷺ : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرءوا ما تيسر منه » . وهو لا يريد بالسبعة عدداً معينًا ، إنما يريد كثرة الحروف واللهجات التى نزل بها تسهيلاً على العرب أن ينطقوا من كلماته بلهجاتهم ، ما لا يمكنهم أن ينطقوه بلغة قريش ولهجتها الخاصة .

ولما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، واستمر القتل فى حرب الردة بالقراء ، وافق أبو بكر على اقتراح عمر - رضى الله عنهما - بكتابة القرآن فى مصحف واحد ، فجمع الحفظة المتقنين برئاسة زيد بن ثابت ، وأحضروا كل من كتبوه بين يدى الرسول ﷺ وبإملائه ، وأمر أبو بكر زيداً بأن يكتب القرآن كله على الترتيب الذى تلقاه هو ومن معه عن الرسول بنفس الألفاظ والحروف ، والصورة التى تدارس فيها الرسول القرآن مع جبريل بعد تمامه فى العرضة الأخيرة .

وهكذا كتب القرآن الكريم فى قطع الجلد ، وظلت صحفه عند الخليفة الأول ، ثم آلت إلى عمر وانتهى بها المطاف إلى أبنته أم المؤمنين حفصة .

وقد ظل الناس يقرءون القرآن ويقرئ بعضهم بعضا بالحروف ، التى تلقوها عن الرسول ﷺ أو عن الحفظة المتقنين من الصحابة . وكان هؤلاء يختلفون فى بعض الآراء حسب سماعهم من الرسول ﷺ ، وتفرق المسلمون فى الأمصار مع الفتوح فاشتد هذا الخلاف فى الأداء واتسع ، إلى أن لوحظ بشكل واضح ومفزع فى غزو أذربيجان وأرمينية إذ اجتمع أهل الشام والعراق فيه ، واستمع بعضهم إلى بعض ، فوجدوا وجوهاً من الخلاف فى القراءة فتنازعوا ، حتى كاد يكفر بعضهم بعضاً ، ففزع حذيفة بن اليمان - وكان حاضراً - إلى الخليفة عثمان ليدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان لتوه إلى السيدة حفصة أن أرسلى إلينا بصحف القرآن ننسخها ونردها إليك بعد ذلك ، فأرسلتها إليه ، فأمر زيد بن ثابت أن ينسخها فى المصاحف ، وعين له مساعدين فى مهمته ،وأوصاهم بأن يكتبوا ما اختلفوا فيه بلسان قريش ، فكتبوا ثمانية مصاحف ، وجه بمصحف منها إلى البصرة ، وبآخر إلى الكوفة ، وبثالث إلى الشام ، وبرابع إلى مكة ، وبخامس إلى اليمن ، وبسادس إلى البحرين ، وترك مصحفاً بالمدينة ، وأمسك لنفسه آخر سمى بالإمام ، وأمر بإحراق ما دون تلك المصاحف ، حتى لا يدع فرصة لأى خلاف ممكن ، وشدد على القراء فى كل الأمصار بأن يتمسكوا بتلك المصاحف يقرئون الناس على حروفها ، وقد استجاب الناس لندائه وحرصوا عليه ، وعلى الرغم من هذا فإن الأساس فى تلاوة القرآن ، لم يتحول يوماً إلى الاعتماد على المصحف المكتوب ، وظل الاعتماد على الرواية بالسند الصحيح المتواتر عن رسول الله ﷺ إلى صحابته وإلى التابعين ، وهكذا جيلاً بعد

جيل يتجرد المسلمون فى جميع الأمصار لتلاوة القرآن ، وضبط تلاوته ، والعناية بها ، ويتلقيها الشفوى المروى بالتواتر ، وهكذا صارت قراءة القرآن سنة يتبع فيها الخالف السالف .

ولما كان مصحف عثمان يخلو من النقط والشكل فإنه استوعب جميع القراءات المتواترة عن الرسول ﷺ ، ولا يعنى هذا أن تلك القراءات ترجع إلى طبيعة خط المصحف العثمانى المجرد من الإعجام والشكل ، وإنما يعنى أن القراءات ليست إلا روايات نقلت بالتواتر عنه ﷺ ، وليست اجتهاداً فى قراءة خط المصحف العثمانى ، ومعنى هذا أيضاً أن القراءات أقدم من هذا الخط ، وأنه لا عبرة له فيها ولا صلة لها به ، فأساس القراءات السماع والمشافهة وليس الخط والكتابة .

وقد مضى الصحابة يتلون القرآن كما سمعوه من النبى ﷺ ، فى أثناء صحبتهم له ، وتتردد فى كتب القراءات والتفاسير أسماء عشرات منهم ، وعنهم رواه بقراءاته التابعون وقاموا فى ذلك مقام الصحابة الذين تلقوه شفاهاً عن الرسول ﷺ ، فهم يلتزمون بما أقرءوهم به حرفاً حرفاً ، وحركة حركة ، واشتهر منهم فى كل بلد ومصر جماعة ، كانوا يقرئون الناس ، ويأخذون القراءة عنهم آية آية وكلمة كلمة وحركة حركة ، وتكاثر فى كل مصر من الأمصار خلفاء هذا الجيل الأول من التابعين .

ولم يكن علماء القراءات قد تواضعوا على أئمة بأعيانهم ، يحملون عنهم وحدهم القرآن ، وظل ذلك إلى أن ظهر ابن مجاهد الذى حقق شوقى ضيف موسوعته الضخمة ، المعروفة بكتاب « السبعة فى القراءات » .

وكان كثيرون قد مضوا يحملون عن كل قارئ ثقة قراءاته ، ويعلمونها الناس فى زمنه ، وبعد زمنه ، وحاول نفر من علماء اللغة والنحو أن يتميزوا بقراءة خاصة ، على نحو ما حاول الفراء ، مما جعل هؤلاء الأئمة يتكاثرون ، فيصنف أبو عبيد القاسم بن سلام (المتوفى ٢٢٤هـ) كتاباً يجمع فيه قراءات خمسة وعشرين إماما سوى السبعة المشهورين ، الذين أقامهم فيما بعد ابن مجاهد (المتوفى ٣٢٤هـ) ، ثم يؤلف بعده أستاذه القاضى إسماعيل البغدادى (المتوفى ٢٨٢هـ) كتاباً يجمع فيه قراءات عشرين إماماً ، ويصنف ابن جرير الطبرى (المتوفى ٣١٠هـ) كتاباً يجمع فيه قراءات نيف وعشرين إماماً .

وقد بذل معظم القراء منذ القرن الثانى الهجرى جهوداً عظيمة ، فى تأليف تلك المصنفات المختلفة فى القراءات وفى قراءة كل إمام ، وأن يميزوها عن غيرها بخصائص وإشارات ، من حيث الإدغام والإمالة والاختلاس وتحقيق الهمز وتسهيله والإشمام ، وما إلى ذلك ، وكلما تقدمنا مع الزمن فى القرن الثالث ، كثرت التآليف فى القراءات ، ولكن هذه المؤلفات العديدة المتتابعة عن القراءات والقراء ، لم تستطع أن تكف السيل فقد تكاثر الأئمة وتكاثر حمل القراءات عنهم ، بحيث أخذت الطرق إليهم تتعدد تعددًا واسعًا ، على اختلاف حظوظهم من الأنفال ، فكثرت الخلافات والمراتب ، الأمر الذى حتم أن يتجرد عالم من علماء القراءات أو طائفة منهم ، ليقابلوا بين القراءات العديدة التى شاعت فى العالم الإسلامى ، ليستخلصوا فيها للناس قراءات يحملونهم عليها ، حتى لا يتفاقم الأمر ويلتبس الباطل بالحق ، وتصبح قراءة القرآن فوضى لا ضابط لها .. وقد تجرد للنهوض بهذا الأمر إمام القراء ببغداد « ابن مجاهد » ، وهو جهد تنوء به جماعات العلماء من القراء الأفذاذ .. فاختار بعد البحث والفحص سبعة من الأئمة حمل عليهن المسلمين فى جميع أقطارهم ، وأمصارهم فأدرك الأمة قبل أن يتسع الخلاف فى قراءة كتاب الله العظيم .

وما وقفنا هذه الوقفة الطويلة عند علم القراءات ، وما وصل إليه أمرها من اتساع وشتات إلا لندل على أهمية ذلك العمل ، الذى نهض به ابن مجاهد ، وبالتالى ضخامة الجهد الذى نهض به شوقى ضيف ، فى تحقيقه وتوثيقة وخدمتة ، بحيث زود المكتبة العربية بموسوعة فى القراءات كانت مفتقرة إليها .

وقد قدم العلامة المحقق لعمله بمقدمة إضافية احتجناها فى وقفتنا تلك ، وزاد على ذلك تعريفا دقيقًا وعميقًا بصاحب الكتاب ، وبجهوده فى جمع المسلمين على تلك القراءات المختارة ثم عرف بالأئمة السبعة .

ويهمنا فى هذا المقام ألا يفهم أحد أنه يعنى بالقراءات السبعة التى اختارها عن هؤلاء الأئمة السبعة الحروف والواردة فى الحديث النبوى الشريف ، فيكون بذلك قد أبطل سواها من القراءات ، وهو لم يفعل فى الحقيقة بدليل تأليفة كتابه فى الشواذ .

ثم قام المحقق بعد ذلك بإثبات مناقشة ابن مجاهد لأصحاب القراءات السبعة ورواتهم ، وانتقل بعد ذلك إلى توثيق الكتاب توثيقًا علميًا دقيقًا ،وانتهى إلى وصف نسخة الأصل ، وعرض لمنهجه فى تحقيق الكتاب بعد ذلك .

وهو عمل جليل الفائدة ؛ لأنه يقفنا على جهد إمام عظيم ، من أئمة القراء في الأمصار الإسلامية فألف عليها سفره النفيس هذا ، وبين اختلافهم في القراءة ، وعرض لقراءتهم وأئمتها ، وعرف بأساتذتهم الذين تلقوا عنهم الكتاب الكريم واصلاً بينهم ، وبين الرسولﷺ ، ويكفيه فخراً أنه هو الذى وضع الأسس الثلاثة في قبول القراءات ، وهى كونها مطابقة لخط المصحف العثمانى ، وكونها صحيحة السند حملها رواة موثقون حتى زمن القارئ ، ثم موافقتها للعربية بوجه من الوجوه .

وطبيعى أن جهود شوقى ضيف فى تذليل هذا العمل وتيسير انتفاع الناس به أمر نحسب أنه مأجور له عند الله ، فضلاً عن كونه مقدراً له عند كافة المنتفعين به .

* * *

وقد أسهم شوقى ضيف بجهود أخرى عظيمة فى خدمة تراث الإسلام بتحقيقه لكتاب ابن عبد البر « الدرر فى المغازى والسير » ، وكتاب ابن سعيد المغربى « المغرب فى حلى المغرب » وغير ذلك من الآثار التى يضيق عن ذكرها المقام ، فضلاً عن عنايته بتوجيه تلاميذه فى الدراسات العليا إلى موضوعات إسلامية عديدة فى علوم القرآن ، والتفسير ، والحديث النبوى الشريف ، ووجوه الإعجاز القرآنى والتأريخ للأدب الإسلامى ، وتحليل ظواهره المختلفة ، بحيث صارت له مدرسة كبيرة ممتدة بامتداد الوطن العربى والإسلامى .

وما هذا الذى ذكرناه عن جهوده الإسلامية إلا غرفة بيد قاصرة من ينبوع علمه الفياض .

أ . د . النعمان القاضى
أستاذ الأدب العربي
كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٧- شوقى ضيف والتراث العربى والإسلامى

د . كمال الدين عبد الغنى المرسى

لا ريب أن الدكتور شوقى ضيف يستحق لقب أستاذ الأجيال فى الأدب العربى والإسلامى لما له من أياد بيضاء على الدارسين والباحثين فى هذا المجال فى عصرنا الحاضر وما يليه من العصور المقبلة إن شاء الله تعالى؛ ذلك لأنه سد فراغًا فى المكتبة العربية كانت فى أمس الحاجة إليه، حيث جاءت مؤلفاته فى جميع الموضوعات التى تناولتها ملبية لرغبات الباحثين فى التزود بالمعلومات التى تتطلبها بحوثهم سواء فى التأريخ للأدب على مر العصور منذ العصر الجاهلى وحتى العصر الحديث، أو فى الدراسات الأدبية شعراً ونثراً أو فى الدراسات النقدية أو الدراسات البلاغية واللغوية حيث جاءت مؤلفاته على اختلافها وتنوعها بمثابة المنور الكشّاف الذى يضئ للباحثين سبل البحث والتقصى ويكشف لهم عن كوامن المعارف التى ينقبون عنها، ويرغبون فى التزود بها ، وهذه المؤلفات تزداد أهميتها يوماً بعد يوم حتى صارت كالمعين الذى لابد من وروده ليرتوى منه كل باحث متعطش للعلم فلا يصدر عنه إلا وقد ارتوى وملأ منه مزادته .

الدكتور شوقى ضيف يمثل مدرسة ذات منهج متميز :

الأستاذ الدكتور شوقى ضيف يمثل مدرسة تحمل كل سمات العروبة والإسلام، ويحتل موقع الريادة فى كل فن من الفنون التى خاضها . ولقد عرفته من خلال كتبه أديباً صادقًا وعالمًا موسوعياً استطاع بثاقب نظره وسعة علمه، وعظيم نبوغه أن يوطئ

للدارسين فى مجال الأدب معرفة التراث الأدبى العريض وأن يقدم فى ثنايا مؤلفاته خلاصة لمعارف فى الأدب العربى والإسلامى حتى العصر الحديث فى منهج لم يسبقه إليه غيره متكلفاً للأمة العربية والإسلامية ما تنوء به العصبة من العمل المرهق ممضياً فيه بياض أيامه وسواد لياليه غير مدخر جهداً ولا قوة حتى استطاع أن يجمع بين تاريخ الأدب وفنونه جمعاً مستوعباً للأصول والشوارد راضياً مغتبطاً بما أدى، فكان فى عمومه خيراً ونفعاً أداه للأمة عن طيب نفس . ويكفيه شرفاً وفخراً أن يستخلص للأمة أدب العصر الجاهلى والأدب فى العصر الإسلامى ثم الأدب فى العصر العباسى الأول والأدب فى العصر العباسى الثانى ثم الأدب فى عصر الإمارات والدول (الجزيرة – العرق – إيران) و(مصر – الشام) و (الأندلس) من خلال أكداس من الآثار وكأنما اختارته العناية الإلهية لينهض بأعباء هذا العمل الجليل .

لقد كانت حياته سلسلة جهود علمية متصلة ، استطاع بمثابرته وصبره وأكاديميته أن يزيح عن تراثنا العربى الإسلامى ضباباً كثيفاً كان يحيط به ، فأظهر للباحثين جماله وبيّن للناس ما كان منه خافياً عليهم قبله .

ولئن آثرنا أن نتناول من جهوده العلمية ما يتعلق بالجانب الإسلامى، فإننا نجد فى ثنايا كتب التاريخ الأدبى والدراسات الأدبية والنقدية واللغوية مادة غنية فى الإسلاميات صالحة لأن تجمع وتفرد فيها المؤلفات حيث لم تَخْلُ مناقشته فى الموضوعات الأدبية من التعليقات التى تصحح أفكار الكاتبين والباحثين فى الأدب العربى لما يتصل بالأمور الإسلامية كقوله فى مقدمة الجزء الثانى من تاريخ « الأدب العربى » : ودفعتنى النصوص الكثيرة فى عصر صدر الإسلام إلى نقض الفكرة التى شاعت فى أوساط الباحثين من عرب ومستشرقين إذ ذهبوا يزعمون أن الإسلام انحسر عن أثر ضئيل نحيل فى أشعار المخضرمين وهو زعم غير صائب ، بل هو زعم يسرف فى تجاوز الحق . فقد أتم الله على هؤلاء الشعراء نعمة الإسلام ، وانتظم كثيرون منهم فى صفوف المجاهدين فى سبيل الله داخل الجزيرة العربية وفى الفتوح . وهم فى ذلك

كله يستلهمون الإسلام، ويعيشون له، ويعيشون به، ويريدون أن ينشروا نوره فى أطباق الأرض ، وقد مضوا يَصدْرون عنه فى أشعارهم صدور الشَّذَى عن الأزهار الأرِجة . وبالمثل صدروا عنه فى نثرهم، فإذا هم يستحدثون فنونًا من النثر ينشئونها إنشاء إذ أنشأوا - على هدى القران الكريم - آيات بديعة من المواعظ الدينية، كما أنشأوا ضروبًا من المعاهدات والرسائل السياسية والتشريعية .

ثم كان عصر بنى أمية، عصر امتزاج العرب بغيرهم من الأمم وانسياحهم فى مشارق الأرض ومغاربها، ومما أذكى فى نفوسهم جذوة الشعر ، فإذا هو يَحْيَا فى أوطان جديدة حياة خصبة، ولا أقصد الكوفة والبصرة والشام ومصر فحسب، بل أيضًا خراسان التى أهملها مؤرخو أدبنا، مع ازدهار الشعر فيها ازدهارًا رائعًا . وقد أخذ الشعراء يخضعون فى كل مكان لمؤثرات مختلفة : بيئية ودينية وحضارية وثقافية واقتصادية . وفى هذه الأثناء كان الموالى يتعرّبون ، وسرعان ما أتقنوا العربية وأعربوا بها عن قلوبهم وعقولهم وأعماق وجدانهم . وليس بصحيح ما يردده المستشرقون من أنهم كانوا يختصمون مع العرب فى العصر الأموى ، فقد كانت العلاقة بين الجماعتين حينئذ علاقة بر وتعاون وإخاء [1] .

كذلك لم تخل مناقشاته فى الموضوعات البلاغية من توجيهات نافعة للباحثين توطئ لهم فهم بعض الأمور التى قد تغيب عن أذهانه أو تضل عنها أفهامهم عند قراءة المؤلفات القديمة التى سبقت فى مجال البلاغة فيسوق ذلك فى أسلوب مبسط يرضى نهم الباحث وييُسر عليه اللجوء إلى تلك المؤلفات متسلحًا بجملة المعارف التى يصوغها الدكتور شوقى فى أسلوب سهل جميل ، هو فى كتابه « البلاغة تطور وتاريخ » نجده فيه يؤرخ لموضوع البلاغة العربية عبر العصور تأريخًا يوضح تطورها من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل ومن الازدهار والنبوغ إلى الضعف والذبول، مع وصل بينها

---

(١) د . شوقى ضيف ، مقدمة كتاب « تاريخ الأدب العربى - العصر الإسلامى » ط ٧ ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٦٣ .

وبين الأدب العربى وبينها وبين القرآن الكريم ، مع التعريف بالأعلام الذين نبغت أسماؤهم فى درس البلاغة والتعريف بكتبهم والفروع التى تناولوها فى مصنفاتهم، ويهمنا منها ما اتصل بكتاب الله عز وجل ، وما يسمى بإعجاز القرآن فهو يذكر فى دراساته لبعض المتكلمين أن هذا الموضوع شغل بيئة الفقهاء والمحدثين وذكر منهم أحمد ابن محمد الخطابى البستى المتوفى سنة ٣٨٨هـ وأنه كتب رسالة فى بيان إعجاز القرآن وأنه « ردَّ فاتحتها على من يقولون بفكرة الصَّرافة وأن إعجاز الذكر الحكيم إنما يرجع إلى أن الله صرف العرب عن معارضته، وهى الفكرة المضافة إلى النظَّام أستاذ الجاحظ . وأيضًا فإنه ردّ على من يقولون بأن إعجاز القرآن يرجع إلى تضمنه للأخبار المستقبلة وقال إنه إنما يرجع إلى بلاغته . وأخذ فى وصفها مقررًا أن أساليب الكلام الجيد، منها البليغ الرصين ، ومنها الفصيح السهل، ومنها الجائز الطَّلْق، وبلاغة القرن تجمع بين كل هذه الأساليب جمعًا لايتاح للبشر مثله؛ لقصور معرفتهم بأسماء اللغة ومواصفاتها وبتنزيل المعانى عليها وصبّها فى القوالب اللفظية الدقيقة . ويَنْقُضُ بعض مطاعن المعترضين على أسلوب القرآن . وفى تضاعيف ذلك يحلل بعض النصوص القرآنية تحليلاً جيداً . والرسالة بذلك لا توضح إعجاز القرآن البلاغى توضيحاً كافياً، إنما الذى يوضح ذلك حقًّا أبحاث المتكلمين لدقة تفكيرهم وتعمقهم من قديم فى مباحث البلاغة . ونحن نسوق أهم هذه المباحث مرتبة ترتيبًا زمنيًّا » .

ثم يذكر بعد ذلك رسالة « النكت فى إعجاز القرآن للرمانى » فيقول :« مؤلف هذه الرسالة على بن عيسى الرُّمَّانى المتوفى سنة ٣٨٦ للهجرة، وهو أحد أعلام المعتزلة فى عصره، وله مصنفات مثيرة فى التفسير واللغة والنحو وعلم الكلام. ومن أهم ما يميزه فى مصنفاته مَزْج كلامه بعلم المنطق . وقد كتب رسالة « النكت فى أعجاز القرآن » جوابًا على سؤال لشخص طلب إليه تفسير تلك النكت فى إجمال وبدون تطويل فى الحجاج. وهو يستهل الرسالة برد هذه النكت إلى سبع جهات، هى: ترك المعارضة مع توافر الدواعى وشدة الحاجة، والتحدى للكافة، والصَّرْفة ، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة ، وقياس القرآن بكل معجزة».ثم يفيض فى شرح

مضامين هذه الرسالة، وينتقل بعدها إلي « إعجاز القرآن » لأبي بكر محمد بن الخطيب الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ فيعرّف بالكتاب ويوضح دقائقه ، وكذلك يفعل مع كل من ذكرهم من أهل البلاغة بحيث يستطيع القارئ إذا جمع بينها أن يخرج بكتاب عظيم ومؤلف جليل فى هذا الموضوع .

وهكذا نجد أنّ فى معظم كتبه موضوعات إسلامية يصح أن تجمع فى مباحث متنوعة بحيث إذا ضُمّت أجزاؤها صارت كتبًا مفردة .

أما الكتب التى تندرج تحت مسمى « الإسلاميات » فهى بالقياس إلى كتب الأدب قليلة، ولكنها على قلتها عظيمة الفائدة جليلة النفع، وهى إذا عددناها ثلاثة كتب ، منها كتابان من تأليفه وكتاب من التراث الإسلامى حققه وعلق عليه .

فأما اللذان من تأليفه فأولهما كتاب بعنوان « سورة الرحمن وسور قصار» جاء فى مقدمته :

« استحثنى كثير من الأصدقاء وطلب إلىَّ عالمٌ جليل أن أبدأ بعرض ودراسة لسورة الرحمن « سورة النعم الدنيوية والأخروية، وأضفت إليها عرضًا ودراسة لسور قصار؛ ضممت إليها سورة الفاتحة والتوحيد والعصر . وجميعها تتناول أصول العقيدة الإسلامية وبعض مبادئ الإسلام الخلقية والاجتماعية ، وقد بسطتها جميعًا من خلال آيات الذكر الحكيم ؛ بحيث كنت أتخذ من الآية نورًا يهدينى إلى مضمونها العام فى القرآن وأحاول بقدر ما استطيع عرضه ووصفه، سواء اتصل ذلك بعظمة الله وجلالته ورحمته وآلائه فى الدنيا والآخرة ، أو بالرسالة والرسل ، أو بالملائكة والجن والشياطين أو بماهية الحياة بعد الموت والثواب والعقاب فى الآخرة، أو بالتهذيب الروحى والخلقى، أو بالعلاقات العمرانية أو بتحرير الإنسان من الهوى والخرافات وجملة الآثام، أو بدفعه إلى استغلال عقله وكشف قوانين الكون وأسراره، أو بإيقاظ وجدانه ومشاعره والسموّ به إلى الكمال الإنسانى المأمول .. »

وأما الكتاب الثانى فهو كتاب « عالمية الإسلام » أوضح فيه أن عالمية الإسلام تعنى أن الله جعل الإسلام دينًا عالميًا للبشرية؛ لأنه كفل فيه لكل الناس أبيضهم

وأسودهم، وأحمرهم وأصفرهم الحرية لهم جميعًا، كما أنه عزّ وجل جعله دينًا عقلانيًا يصادق العلم الكونى ، ويؤسس للعدل بين الناس إذ لا تصلح حياة الدنيا إلا به ، كما فرض فيه المساواة والتسامح بين البشر وأحكم فيه روابط الأسرة ، وأمر بالمعروف ونهى عن كل رذيلة، وهو بذلك يضمن السعادة للبشرية فى الدنيا والآخرة .

والكتاب على قلة صفحاته إذ يقع فى تسع عشرة ومائة صفحة إلا أنه جليل الفائدة، وأرى أنه يجب ترجمته لجميع اللغات العالمية لأنه سهل التناول واضح الفكرة ولغته صالحة للترجمة ؛ لأنها تبعد عن حوشى الكلام وليس فيها ألفاظ صعبة .

أما الكتاب الأخير فهو من كتب التراث فى علم القراءات وعنوانه « كتاب السبعة فى القراءات » لابن مجاهد شيخ القراء فى عصره (ت٢٤٥) والكتاب يقع متنه فى سبع وخمسين وستمائة صفحة عرض فيه مؤلفه قراءات أئمة القراء إمامًا إمامًا ذاكرًا نسبهم وأساتذتهم الذين تلقوا عنهم القرآن الكريم واصلاً بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من أنفس الكتب فى مجال علم القرآن ، وكان عمل الأستاذ الدكتور شوقى ضيف فى تحقيق وضبط ألفاظه وتصحيح أغلاط بعض نسخه عملاً مجيدًا باهرًا حيث أخرجه إلى النور بعد أن كان بين أكداس المخطوطات ليضيف إلى المكتبة القرآنية هذا الكتاب النفيس .

ولقد كتب له مقدمة رائعة عن جمع القرآن والقراءات التى أثرت عن القراء المشهورين، مؤرخًا لهم لاسيما ابن مجاهد صاحب الكتاب واساتذته الذين تلقى عنهم هذا العالم الجليل ، ومبينًا الغرض من هذا الكتاب وهو أن ابن مجاهد استصفى سبعة من أئمة القراء فى أمصار خمسة هى أهم الأمصار التى حُملت عنها القرآن فى العالم الإسلامى وهى المدينة، ومكة ، والكوفة ، والبصرة ، و الشام ، وفى قراءاتهم ألف ابن مجاهد هذا الكتاب مبينًا خلافاتهم فى القراءة وخلافات من حملوا عنهم قراءاتهم بيانًا دقيقًا أشد ما تكون الدقة .

الأهمية التاريخية لمؤلفات الدكتور شوقى ضيف :

لمؤلفات الدكتور شوقى ضيف أهمية بالغة لما تضمنته من تعريف شامل بالتراث الأدبى والإسلامى إذ هى تجلو ذاكرة الأمة لما يتعلق بشأن هذا التراث ، ويقدمه للأجيال فى سهولة ووضوح وحسن استيعاب وسوف يجد القارئ فيها ما يرضى نهمه، كما سوف يجد الباحث ما يرضى فضوله، كما لا يكاد المحقق يستغنى عنها حين يتعرض لتحقيق المخطوطات، بالإضافة إلى أنها تثير بعض القضايا التى تحتاج إلى الكتابة فيها ، فهى تفتح الأبواب للدارسين لكى يقبلوا عليها ملتمسين أفكاراً جديدة ساقها العلامة شوقى ضيف فى غضون الكلام ، ولهذا نقول إن هذه المؤلفات تحتفظ للأمة العربية والإسلامية ذاكرتها لتستقبل الألفية الثالثة بوعى عميق لتراثها الأدبى والإسلامى وبوضوح شامل لفروعه ودقائقه ، فى جمع علمى منظم يساير عامل الزمن، ويواكب ركب الحضارة .

دكتور كمال الدين عبد الغنى المرسى

١٨- منهج شوقى ضيف فى " البلاغة تطور وتاريخ "

د . منير سلطان

شوقى ضيف تاريخ ومنهج :

لا يختلف معى كثيرون ، إذا قلتُ إن كتاب « البلاغة تطور وتاريخ » معلم من معالم البحث البلاغى فى عصرنا الحديث ، وإنه لا بديل للباحث من الوقوف عنده متعلماً ثم مؤيداً أو مناقشاً .

فالدكتور شوقى ضيف، تاريخ ومنهج، تاريخ يرتبط بنشأة الجامعة المصرية، وبظهور الجيل التالى لجيل الأعلام المؤسسين، عرباً ومستشرقين ، ومنهج يقوم على شمول النظرة ، وعمق التجربة والالتحام بالموروث مع سداد فى الرأى [١] .

وحين يتصدى لبحث فى البلاغة ، كما فعل فى غيرها من علوم العربية، فإنه يقول ما له اعتباره، ويقوم بما لم يسبق إليه، فى الشكل والمضمون، ومن ثم يأخذ كتابه مكانته اللائقة به فى الفكر العربى، والفكر الغربى المهتم بشئوننا العربية .

وقد حدد الدكتور شوقى ضيف غايته من الكتاب قائلاً : « لم تكن غايتى أن أصور هذا التاريخ لبلاغتنا فحسب ، بل أيضًا أن أصور الترابط الوثيق بينها وبين أدبنا فى تطورهما ، حتى انتهيا إلى الجمود والتعقيد والجفاف والتكرار الممل ، وأن أرسم فى تضاعيف هذا التطور الوشائج الواصلة بين كل بلاغى وسابقه ولاحقه، بحيث تتضح معالم هذا التطور اتضاحاً تاماً » (ص ٦) .

---

(١) ظهرت الطبعة الأولى للكتاب سنة ١٩٦٥ ، عن « دار المعارف » بالقاهرة .

فهو ينظر إلى البلاغة من خلال الأدب، ويمزج بينهما وبين رجالها ، ويلملم شذراتها، ثم يتتبعها فى حال نموها ، وحال تحولها إلى كيان مستقل، أو اشتراكها فى اتجاه ما، أو بروزها فى منهج ما، حتى يصل البحث إلى مشارف الركود، وأستار الضباب، عندما انتكست البلاغة ، وتجمدت أطرافها ، وباتت تنتظر الدفء مع مطلع الفجر الجديد .

ولا يدع الدكتور شوقى ضيف عرضه الشامل - هذا - يمر دون أن يعقب عليه فالخطة التى انتهجها ، قد أتاحت له أن يطرح البلاغة على مائدة البحث بجميع أطرافها يتأملها فى حال شبابها وجمالها، وحال كهولتها وذبولها ، ثم يقترح العلاج ، ليعود الرواء .

بذا يقف هذا الكتاب علماً سامقًا فى ساحة البحث البلاغى ، مختلفًا عما كتبه د . أحمد ضيف ، والشيخ أحمد مصطفى المراغى ، ود. سيد نوفل ، وغيرهم ؛ لأنه يسد فراغًا لم تنجح هذه الدراسات وغيرها فى أن تملأه .

أولاً : الترابط الوثيق بين تطور البلاغة وتطور الأدب :

البلاغة هى معيار الذوق الأدبى لأمة من الأمم فى عصر من العصور ، ونمو الذوق ينمى الأدب ونمو الأدب ينمى الذوق ، لا انفصام بينهما .

وما كانت تلك الشذرات الأولى التى تعقبها الدكتور شوقى ضيف لنشأة البلاغة سوى محاولة للارتفاع بمستوى الأداء الفنى فى الشعر ، حتى لا يتخلف عن المستوى الرفيع الذى بلغة العرب فى الجاهلية ، (ص ٩) ، « ومن أكبر الدلالة على ما حذقوه من حسن البيان أن كانت معجزة الرسول الكريم ، وحجته القاطعة لهم أن دعا أقصاهم وأدناهم إلى معارضة القرآن فى بلاغته الباهرة » (ص ٩) .

وليس غريبًا أن تنبت الشذرات البلاغية الأولى فى بيئة الشعراء الذين « كانوا يقفون عند *اختيار الألفاظ والمعانى والصور* ، ومن يتصفح *أشعارهم* يجدها تزخر

بالتشبيهات والاستعارات والجناسات ؛ مما يدل دلالة واضحةعلى أنهم كانوا يعنون عناية واسعة بإحسان الكلام ، والتفنن فى معارضه البليغة » (ص ١٣) .

ولم يكن القرآن الكريم شاهداً فحسب على اهتمامهم برقى ذوقهم البلاغى ، بل كان منسقًا لهذه الجهود، ومطوراً لها ، ومحدداً المثل الأعلى الذى به يحتذى ، فكان كتاب هداية ، وفن ، تؤازره فصاحة الرسول الكريم ، وبلاغة سنته المشرفة .

ولم يستأثر الشعر بنمو البلاغة مثلما كان قبل الإسلام ، وإنما أضيفت إليه الخطابة لشدة الحاجة إليها بعد ظهور الإسلام ، « وكان أبو بكر وعثمان خطيبين مفوهين ، وكانا يستضيئان فى خطابتهما بخطابة الرسول الكريم ، وآى الذكر الحكيم » (ص١٤) .

وفى عصر بنى أمية ازدهرت الخطابة السياسية والحفلية والوعظية، « والحق أن الملاحظات البيانية كثرت فى هذا العصر ، وهى كثرة عملت فيها بواعث كثيرة ؛ فقد تحضر العرب واستقروا فى المدن والأمصار ، ورقيت حياتهم العقلية، وأخذوا يتجادلون فى جميع شئونهم السياسية والعقيدية .. فكان طبيعياً أن ينمو النظر فى بلاغة الكلام ، وأن تكثر الملاحظات المتصلة بحسن البيان، لا فى مجال الخطابة فحسب بل أيضاً فى مجال الشعر والشعراء ، بل لعل المجال الثانى كان أكثر نشاطاً لتعلق الشعراء بالمديح ، وتنافسهم فيه » (ص ١٦) .

وهكذا لم يكن ازدهار الخطابة والشعر فى حقيقة الأمر سوى ازدهار للأدوات البلاغية التى كانت وسيلة لإيثار الإعجاب والإمتاع والإقناع .

ولا نكاد نصل إلى العصر العباسى الأول حتى تتسع الملاحظات البلاغية ، وقد أعدت لذلك أسباب مختلفة ؛ منها ما يعود إلى تطور النثر والشعر، ومرده إلى أن كثيرين من الفرس والموالى أتقنوا العربية، واتخذوها لسانهم فى التعبير عن عقولهم ومشاعرهم ، وأظهروا فى ذلك براعة منقطعة النظير بالإضافة إلى كتّاب الدواوين، وكان ذوقهم مترفًا بعامل ما انغمسوا فيه من الحضارة، وعاشوا يصفون كلامهم ، ويتخيرونه مما يجمع الجزالة والرصانة، مع السلامة والنّصاعة ، والرونق والطلاوة. ومنها ما يعود إلى تطور الحياة العقلية والحضارية القائمة على الترجمة .

في خضم هذه النهضة تحولت البلاغة من شذرات متفرقات فى كتب اللغة والنحو والأدب والتفسير والأصول إلى دراسة منهجية منظمة ، أبرزها :

١- دراسة « إعجاز القرآن » .

٢- ما تركته الخصومة بين المحافظين والمجددين فى البلاغة من دراسات .

٣- الدراسات النقدية البلاغية .

٤- الدراسات الأدبية البلاغية .

أما عن قضية « إعجاز القرآن، فللبلاغة النصيب الأوفى ؛ لأن البحث عن سر مفارقة أسلوب القرآن لما تعود عليه العرب من أساليب ، هو الذى لفت العلماء إلى ما فيه من خصائص فنية ، فسعوا جاهدين لتحديدها .

ونستطيع أن نجعل جهود البلاغيين والنحاة فى « مجاز القرآن » ، وكتب « معانى القرآن» توطئة للدراسات المنهجية المنظمة ،التى نهض بها المتكلمون الذين انطلقوا فى طريقهم منفردين، بعد أن أخذ اللغويون يتوسعون بعد القرن الثالث فى مباحثهم اللغوية الخالصة منحازين عن مباحث البلاغة ، وكأنهم رأوا - مُحقّين - أنهما ميدان غير ميدانهم ص(٦٣) .

وتظل كتابات الجاحظ - شيخ البلاغيين - معيناً لا ينفد لد الأجيال التالية بكثير من فنون البلاغة ، ونرى صداها يتردد فيما كتب المعتزلة ؛ كالرمانى ، والجبائيين أبى هاشم وأبى على ، وعبد الجبار الأسد آبادى ، والشريف الرضى ، والشريف المرتضى ، وابن سنان الخفاجي حتى الزمخشرى ، وما كتب الأشاعرة ؛ كالباقلانى إلى الجرجانى ، كل يستمد منها حسب قدرته ومهارته الذهنية » (ص ٥٧) .

ولم تكن الخصومة بين المحافظين والمجددين سوى استجابة لنداء التطور ، فالانتقال من دائرة الموروث العربى الخالص فى البلاغة - ويحافظ عليه اللغويون - إلى محاولة تنظيم البلاغة العربية، حسب قواعد يونان - ويدعو له المجددون - قد أثرى الدرس البلاغى ، فهذا ابن قتيبة ، والمبرد ، وثعلب ، يشاركون فى الملاحظات البلاغية فى ثنايا تعليقاتهم على نصوص الشعر وآى الذكر الحكيم ، ويكشفون بذلك جمال

الأساليب العربية، وتعدد طرقها فى الأداء، بينما يذهب قدامة ، وإسحق بن سلمان بن وهب ، وابن رشد، والفارابى ، إلى جعل البلاغة اليونانية مثلاً أعلى للبلاغة العربية ، كما يرون أن الشعراء المجددين وأصحاب البديع هم أبناء الحضارة العربية الجديدة ، لذا سبقوا إلى هذا الفن - وكان كتاب «البديع» لابن المعتز ناصراً للمحافظين، أمام هذه الأفكار المتطرفة، وذلك حين يعلن إعلانا لا مواربة فيه « أن المحدثين من الشعراء، لم يخترعوا البديع الذى يلهجون به، وأن البديع قديم فى العربية ، بل إنه ليتعمق فى القدم حتى العصر الجاهلى، وأن ما للمحدثين منه من أمثال بشار، إنما هو الإكثار من استخدام فنونه فحسب» (ص ٦٧، ٦٨) .

وكان المتكلمون يخوضون هذه المعركة ولكن ، متعدلين ، لا يسرفون فى المحافظة غافلين عن سنة التطور .(ص ٦٦) .

وتأتى الدراسات النقدية والبلاغية، وهى تعتبر معالجة أخرى لمشكلة المحافظين والمجددين ، ولكن من خلال مقاييس النقد وقضاياه، لأنها دارت حول مذهبين واضحين فى الشعر ؛ أحدهما مذهب أبى تمام الذى كان يعنى - بتأثير ما ثقف من الفلسفة وغيرها من ضروب الثقافة - بالتعمق فى معانيه - كما كان يعنى بمحسنات البديع حتى ليسرف فيها إسرافًا ، ومذهب البحترى الذى لم يكن يأخذ نفسه بفلسفة ولا بثقافة، وهو مع ذلك كان يستخدم محسنات البديع بدون إسراف .

وطبيعى أن يصبح عماد النقد النظر فى هذين المذهبين المتقابلين وكانا يقومان فى أكثر جوانبهما على مدى ما يسمح للشاعر به من استخدام فنون البديع، وهل يأتى بها فى قصد، أو يتجاوز القصد والاعتدال إلى الإسراف والمبالغة المقيتة، وأيضًا كانا يقومان على مدي التدقيق فى المعانى والغوص على خبيئها .

وأبرز هذه الكتب كتاب «عيار الشعر» لابن طباطبا ، و«الموازنة» للآمدى، و«الوساطة» للجرجانى .

وتتميز الدراسات الأدبية البلاغية أنها خرجت إلى الميل إلى التجديد دون التقليد، بالنسبة لشعراء بأعينهم، واستعرضت مختلف الاتجاهات شعراً ونثراً، تحاول تطبيق المفاهيم البلاغية، وذلك من خلال الشواهد العديدة على مدى العصور الأدبية إلى وقتها

التى ألفت فيه، وفى كثير من الأحوال يتوقف عند التحليل الفنى الذى ينبئ عن دقة فى الحس ، وصفاء فى الذوق ، وأبرزها كتاب الصناعتين «لأبى هلال العسكرى ، و «العمدة» لابن رشيق القيروانى ، و«سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجى .

ثم يأتى عبد القاهر الجرجانى، المتكلم الأشعرى، ويعتبر أقصى قمة وصلت إليها البلاغة ، وذلك بكتابيه «الدلائل» و «الأسرار» ، فقد وضع قوانين البيان لأول مرة فى العربية وضعًا دقيقًا، كما وضع أيضًا قوانين المعانى لأول مرة ، وإذا كان قد شغل فى الدلائل ببيان خواص الصيغ الذاتية، فقد كان همه فى «الأسرار» أن يكشف عن دقائق الصور البيانية متخللاً لها بنظرات نفسية وذوقية جمالية رائعة (ص ٢١٨) .

ولولا أن قيض الله تعالى للبلاغة العلامة الزمخشرى المتكلم المعتزلى، الذى طبق فكرة النظم التى تنادى بها الجرجانى على القرآن الكريم ، لولا هذا، لظلّت أفكار الجرجانى حبيسة كتابيه ، ولانتظرنا طويلاً من يوفق إلى القيام بهذا العمل الجليل ، ولضاعت علينا نهضة بلاغية جلّى .

إن أعظم ما قام به الزمخشرى أنه حول الجهد الجرجانى فى البلاغة العربية إلى واقع ملموس ، موصول الأثر ، مضمون الشيوع ، معروف القيمة ؛ لأنه ربطة بالتطبيق العملى على النظم القرآنى فى كتابه «الكشاف» مضيفًا إلى تطبيقاته ما اكتشفته قريحته وثقافته وذوقه المدرب .

وظهور الزمخشرى كان يعنى أن البلاغة مازالت بحاجة إلى كثير من الأيدى المدربة التى توسع دائرة التطبيق، فتخرج من النظم القرآنى إلى نظم الحديث الشريف، إلى الشعر إلى النثر بمختلف فنونها ، وكان يعنى أيضًا أن المنهج بحاجة إلى التهذيب فيجنح إلى النظرة الشاملة ، والاستقراء التام ، والإحاطة الواعية ، وبذا ينجو منهج الجرجانى من الجمود ، ولكن من أسف ، تلقف المتكلمون هذه الثمرة الطيبة فاستلُّوا منها روحها وجردوها من بهائها ، وأبقوا لنا العظام .

ذلك لأن الميراث جاء إليهم من مدرسة المتكلمين ، فلم يلفت نظرهم فيه إلا ما يمكن أن يقعد وينظم، ولأن الحضارة قد تدهورت ، فلم يجدوا فى أنفسهم ، ولا فيمن حولهم من صار يستسيغ التأمل والتذوق الفنى ويصبر عليهما .

وقد ظهر فخر الدين الرازى المتكلم الأشعرى ليكتب «نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز» وهو تنظيم وتبويب لما كتب عبد القاهر فى صورة تنضبط فيها القواعد البلاغية، وتنحصر فروعها وأقسامها حصرًا دقيقًا . ثم يظهر السكاكى الذى « مضى يعب من جداول الفلسفة ، والمنطق ، والاعتزال ، والفقه وأصوله، وعلوم اللغة، والبلاغة» (ص ٢٨٧) . ويكتب كتاب «المفتاح» وفى قسمه الثالث، قسّم البلاغة إلى علمين كبيرين؛ أحدهما «علم المعانى» والآخر «علم البيان» ، و«استطاع أن ينفذ من خلال الكتابات البلاغية قبله إلى عمل ملخص دقيق لما نثره أصحابها من آراء، وصاغ ذلك كله بلغة مضبوطة محكمة، استعان فيها بقدرته المنطقية فى التعليل والتقسيم والتفريع ، وكان عمدته فى النهوض بذلك تلخيص الفخر الرازى وكتابَى الجرجانى ، وكشف الزمخشرى الذى استوعبه استيعاباً» .

وتستمر الكتابات البلاغية فى الانحدار ، فيظهر الزملكانى ، وبدر الدين بن جمال الدين بن مالك، الذى أطلق على المحسنات مصطلح «البديع» لتكمل الجناية على البلاغة بتقسيمها إلى علومها الثلاثة «المعانى» و «البيان» و «البديع» ، ثم يأتى التنوخى الذى يخرج عن وصف السكاكى و يسمى مباحث البلاغة باسم «علم البيان» ثم ابن قيم الجوزية ، ويحيى بن حمزة العلوى، ثم يأتى ابن الأثير ، «وواضح أنه لم يكن مثقفًا ثقافة دقيقة بكتابات البلاغيين قبله .. ، وفاته أن يطلع على كتابات عبد القاهر ، والزمخشرى، والرازى، على أنه يذكر الزمخشرى أحيانًا، ولكن ليرد عليه بعض آرائه، ومن المؤكد أنه لم يحط بما كتبه فى «الكشاف» ، وظل يضطرب اضطراباً شديداً فى تصور المسائل البيانية الخالصة .. ، وكتابه بصفة عامة محاولة لتنظيم ما كتبه ابن سنان الخفاجى فى كتابه «سرالفصاحة» مع بعض التفريعات والنظرات الجديدة ، ومع العناية بفن الرسائل .. » (ص ٣٣٤) .

ويتوالى انحدار التأليف من سفح إلى سفح، فيظهر القزوينى ليلخص القسم الثالث من كتاب المفتاح «للسكاكى، تلخيصاً دقيقًا واضحًا، ثم يعقبه بشرح له يسميه «الإيضاح» الذى يتلقى بحسن التلقى والقبول، ويقبل عليه معشر الأفاضل والفحول ويكب على درسه وحفظه أولو المعقول والمنقول ، فصار كأصله محط رحال تحريرات الرجال ومهبط الأنوار والأفكار ، ومزدحم آراء البال، فكتبوا له شروحا» كما يقول

صاحب كشف الظنون» (ص ٣٥١) ، وتنهمر الشروح، لتمعن في سد الطريق أمام العيون والبصائر ، ولتضيع ما كتبه الجرجاني والزمخشري ، وكل صاحب ذوق وفن وثقافة في ساحة البلاغة العربية، وهذه المباحث كما يقول الدكتور شوقي ضيف بحق، «ظلت تتسلق على شجرة البلاغة حتى خنقتها خنقًا، وحتى أصبحنا لا نجد إلا كلامًا معادًا مكررًا لا ينمي ذوقًا ولا يربي ملكة» (ص ٢٥٨) .

ثم تكمل دائرة العقم بالبديعيات التي «كانت تأخذ شكل مختصرات مجملة إلى درجة تشبه أن تكون رموزًا، ولذلك كان ناظمها يعمد توًا إلى شرحها» (ص ٣٦٦) .

إلى أن أشرق الفجر الجديد، وكانت مهمته ثقيلة، كان عليه أن يخلي البلاغة من الشوائب والأصداف، وأن يحلي البلاغة بالذوق القائم على الفهم والثقافة والتطور .

ثانيا : تواصل الدرس البلاغي حتى عصور الجمود :

الدكتور شوقي ضيف يحرص في عرضه التاريخي على إبراز سبب آخر للتطور البلاغي غير مواكبتها لتطور الأدب ، وهو : تواصل الدرس البلاغي بين العلماء ، فاللاحق يروي عن السابق ، ويتدبر ما وصل إليه ، ثم يضيف .

فَنُصَيْب الشاعر يأخذ على الكميت قوله :

أم هل ظعائن بالعلياء نافعةٌ ... وإنْ تكاملَ فيها الأُنسُ والشنبُ

يقول : باعَدْتَ في القول ، ما الأنس من الشنب؟ ويلاحظ الدكتور شوقي ضيف «أن نصيبًا يطلب إلى الكميت أن يقرن كلماته إلى لفقها، ويصلها بمشكلاتها ، وهو ما سمي عند البلاغيين فيما بعد باسم «مراعاة النظير» (ص ١٨). وأن قدامة بن جعفر قد التفت في كتابه «نقد الشعر» إلى فكرة أن المديح ينبغي أن يكون بالفضائل النفسية لا بأوصاف الجسم ، وما يتصل بها من الح أنسن والبهاء والزينة ، ومن نقد عبد الملك لابن قيس الرقيات بأنه أعطاه من المدح» ما فخر فيه، وهو اعتدال التاج فوق الجبين الذي هو كالذهب في النضارة» (ص ١٨) ، وابن المعتز يأخذ فكرة رد الإعجاز إلى

الصدور من ابن المقفع، (ص٢١)، والكتاب لسيبويه كان معينًا للبلاغيين من بعد فيما يخص خصائص الأسلوب (ص ٢٩)، والأصمعي أول من أفاض في الحديث عن «المطابقة» بمعناها الاصطلاحي، وربما كان أول من اقترح اسمها ، وكذا مصطلح «الالتفات» ومصطلح « الإفراط في الصفة» وبكل هذا أخذ ابن المعتز (ص٣٠-ص٣٢)، والذى أخذ مصطلح «المذهب الكلامي» من الجاحظ ، (ص٦٨)، وابن المعتز أيضًا الذى فتح الباب للبلاغيين من بعد أن يكثروا من فنون البديع حتى بلغت الخمسين بعد المائة ، (ص ٦٩) ، والفارسي الذى ذكر عنه الجاحظ تعريفه للبلاغة، بأنها معرفة مقاطع الكلام وتمييز فقره، وعباراته بعضها من بعض ، أدى بالبلاغيين إلى جعل «الفصل والوصل» فصلاً خاصًا في علم المعاني، (ص ٣٦)، والجاحظ فتح الباب على مصراعيه ليهتم أصحاب البحث البلاغي بمسألة السرقات (ص٥٧) ، وأثر أبي عبيدة والجاحظ في ابن قتيبة لا ينكر (ص٥٩)، وابن قتيبة هو الذى قدم للبلاغيين من بعد مثال «ومكروا ومكر الله» فسموه باسم «المشاكلة»، (ص ٥٩)، والمبرد صاحب ما سمى من بعده باسم «أضرب الخبر» (ص٦١)، وابن فارس يقدم فصل «معاني الكلام»، وأغلب الظن أن هذا الفصل الطريف كان مما أوحى لعبد القاهر جانبًا من أفكاره في كتابه «دلائل الإعجاز» التى تقوم على أن للكلام معاني إضافية غير معانيه الحقيقية، وتأتى من صورة صيغته، وطبيعة تركيبها (ص٦٣)، وقدامة بن جعفر يتأثر بثقافة اليونان (ص٩٥)، كما كان المعتزلة يسمعون من السريان (ص٣٩) .

والخط متصل بين الجاحظ وبين الرماني والباقلاني وابن سنان الخفاجي وغيرهم، ومتصل أيضًا بين القاضي عبد الجبار المعتزلي والجرجاني الأشعرى، الذى أخذ عن على ابن عبد العزيز الجرجاني صاحب «الوساطة» ، والزمخشرى المعتزلي يطبق فكرة النظم عند الجرجاني .

وهكذا لا تخطئ مصدرًا للفكرة، ولا تتعب في تتبع جريانها، فالنوافذ مفتوحة والتواصل مستمر بين العلماء بغض النظر عن مذهب أو اتجاه فالعلم مشاع ، والتعلم مفروض ، والاقتداء مشروع ، والإضافة واجبة .

كان لكل عالم إضافة أو إضافات : فما أن نذكر سيبويه ، حتى نتذكر الركائز التي قدمها إلي علم المعاني ، ونذكر «الفراء» فنراه صاحب فكرة «المشاكلة للإيقاع الموسيقي بين الفواصل »، والأصمعي يضع مصطلح «الطباق» و « الالتفات » و « الإفراط في الصفة»، وابن المقفع صاحب مدرسة «الإيجاز الدقيق ذي المعنى الواضح العميق»، والجاحظ هو صاحب «البيان» ، والمبرد صاحب «أضرب الخبر» في علم المعانى، وابن المعتز إضاءة بارزة في «البديع» بمعنى «البلاغة»، وفي رده الهجوم على الأصالة العربية في البلاغة، وتحجيم الوافد اليوناني، والرماني الذي صور «الإيجاز» تصويراً نهائيًا، بحيث لم يضف إليه البلاغيون التالون شيئًا (ص١٠٤) ، والباقلاني «أول من هاجم في قوة نظرية إعجاز القرآن عن طريق تصوير ما فيه من وجوه البديع، ومن هنا تأتي أهميته، إذ أعد للبحث عن أسرار في نظم القرآن من شأنها حين توضح توضيحًا دقيقًا أن توقف الناس على إعجازه» (ص١١٤) ، وهو الذي حلل بعض قصار السور تحليلاً شاملاً، لم يتوقف فيه عند آية آية ، ولو استمر هذا النهج لتحرالعلماء من النظرات الجزئية ، التي عالجوا بها بلاغة النظم القرآني ، و «عبد الجبار الأسد آبي» صاحب فكرة «النظم»، فالكلمة عنده « لا تعد فصيحة في نفسها ، إذ لابد من ملاحظة صفات مختلفة لها ، لابد من ملاحظة أبدالها ونظائرها ، ولابد من ملاحظة حركاتها في الإعراب ، ولابد من ملاحظة موقعها في التقديم والتأخير» ، وبذلك يقترب اقترابًا شديداً من عبد القاهر في تفسيره للنظم، (ص١١٧)، و«ابن طباطبا» صاحب الحديث المستفيض عن «خطوات إبداع العمل الفني»، وعن الترابط بين أجزاء العمل بحيث يؤدي أوله إلى وسطه إلى آخره، لا يند عنه شئ، (ص١٢٧) و «الآمدي» وقف أمام تيار قدامة المتفلسف، و «علي بن عبد العزيز الجرجاني» له نظرات فاحصة في أثناء حديثه عن المتنبي، من ذلك حديثه عن «الغلو والمبالغة»، و «أبو هلال العسكري» يعني في كتابه باستقصاء صور البيان والبديع التي سجلها النقاد وأصحاب البلاغة في عصره ، كما يعني بتحليل الأطراف منها تحليلاً يدل على رهافة حسه وصفاء ذوقه ونقائه . و «ابن سنان الخفاجي» يفرد حديثًا عن عيوب الكلمة، وعن أصواتها وحروفها، يظل معينًا ثابتًا للبلاغيين من بعده يتداولونه

مفصلاً ويتداولونه مختصراً ... و«الجرجاني عبد القاهر» هو واضع البلاغة شكلها الفني الأخير ، والزمخشري مطبق فكرة النظم على القرآن الكريم ... أما الباقون التالون فقد أطفئوا السراج الوهاج ، ثم تخبطوا في الظلام .

ثالثا : منهجان ينقطعان وآخر يتصل :

أما المنهجان ، فأحدهما : المنهج الأدبي وما كان له أن ينقطع ، والآخر : منهج المتفلسفة، وما كان له أن يتصل ، والثالث : منهج المتكلمين ، الذي اتصل من «واصل بن عطاء» إلى «الفخر الرازي» و «السكاكي» و «القزويني» وغيرهم ، وكانت بدايته مخصبة؛ لأنه جمع إلى الفن دراية بأصول علم الكلام ، وفي عصور الجمود افتقد الفن ، وبقيت الدراية بأصول علم الكلام ، فتحولت البلاغة إلى قضايا منطقية ، وسباق إلى تجفيف الجاف، وتمزيق الممزّق .

المنهج الأدبي ، الذي ما كان له أن ينقطع :

وبداياته كانت في مدرسة علماء العربية من لغويين ونحاة في ملاحظاتهم البلاغية المـ ـثرة ، إلى كتبهم في «مجاز القرآن» ، «معاني القرآن» ، «إعراب القرآن» إلى مناقشاتهم أخطاء الشعراء في الصياغة، ثم تأتي موسوعة «البيان و التبيين» للجاحظ، و «البديع» لابن المعتز ، و «عيار الشعر» لابن طباطبا ، و«الموازنة» للآمدي ، و «الوساطة» للجرجاني ، و«الصناعتين» للعسكري ، و «سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجي، و «المثل السائر» لابن الأثير .. ويتميز هذا المنهج بغلبة الروح الفنية، النزعة العربية ، والاحتفاء بالموروث في شكل نماذج بليغة، والبعد عن زحام المصطلحات ، والميل إلى التحليل ، مع بروز شخصية المؤلف بثقافاته وذوقه، وقد نال هذا المنهج ما نال الأدب من نهضة نهض معها ، ونكسة انتكس بها ولو استمر لتغير وجه البلاغة ، ولاختفى من سمائها أعلام أتت بهم مرحلة الجمود ، وعمّقوا هم هذا الجمود .

المنهج المتفلسف الذى انقطع :

وهو وليد الترجمات التى زحفت على الثقافة العربية ، ويمثلها قدامة بن جعفر بكتابة «نقد الشعر»، وإسحق بن وهب بكتابة «البرهان فى وجوه البيان» . ولم يكتب لهذا المنهج ذيوع؛ لأنه كان يريد صبغة الذوق العربى بقواعد اليونان، بينما كان الذوق العربى فى أوج فتوته وتدفق قوته، فلم يجد من يتحمس له إلا بعد قرون، على يد حازم القرطاجنّى وتلميذه السجلماسى فى المغرب العربى ، واندثار المنهج لا يعنى عدم الإفادة من ملاحظاته السديدة .

المنهج الكلامى : وزعيمه شيخ البلاغيين المعتزلى صاحب البيان والتبيين «وقد انطلق هذا المنهج يثرى البلاغة من خلال دفاعه عن «إعجاز القرآن» من بعد الجاحظ على يد الرمانى المعتزلى ، والجبائيين أبى هاشم وأبى على ، والقاضى عبد الجبار ، وهم من المعتزلة، والباقلانى والجرجانى الأشعريين، والزمخشرى المعتزلى وغيرهم من بعدهم ، الذين يمثلون المنهج حين جفت ينابيع الفن فيه ، وتحول إلى فلسفة ومنطق وكلام ونحو.

ومن أسف أن عصور النهضة الحديثة بدأت وبين أيدى علمائنا «شروح التلخيص»، وكأنهم يصرون على استمرار المنهج الكلامى فى مرحلته العقيمة ، حتى جاء الشيخ «محمد عبده» العظيم ، وأخرج كتابى الجرجانى إلى النور ودرسهما فى الأزهر وسط حرب شعواء انتصر فيها منهج السكاكى ثانية، حتى أنشئت الجامعة الأهلية، فانبلج الصبح من جديد، على يد د. طه حسين ، ود. أحمد ضيف، وأحمد أمين ، وأمين الخولى، ود. شوقى ضيف، وغيرهم من الأعلام . فصارت المدرسة السكاكية تاريخًا يؤرخ للذوق البلاغى فى مرحلة من مراحله ، وليست هى البلاغة نفسها .

رابعًا : رأى شوقى ضيف فى بلاغة الأمس وبلاغة اليوم :

بعد هذه الدراسة المستفيضة الشائقة ، يختتم العالم العلّم الدكتور شوقى ضيف جولته بتشخيص الداء واقتراح الدواء . داء بلاغتنا بالأمس ، ودواء بلاغة اليوم .

فالداء : أن أسلافنا قد صبوا عنايتهم على الكلمة والجملة والصورة : وذلك يرجع من بعض الوجوه ، إلى أنهم قصدوا بقواعدهم تعليل بلاغة العبارة القرآنية، كما يرجع إلى طبيعة الشعر القديم ، إذ كان فى جملته وجدانيًا غنائيًا ، ولو أن شعراء نا نظموا فى أساليب جديدة كأسلوب الشعر القصصى أو المسرحى، أو لو أنهم نوعوا فى شعرهم الوجدانى ، لتعددت الصور ، واختلفت الأشكال الفنية ، وللحقت بها الدراسات البلاغية وللاحقتها فى سياق لتطور .

ونفس هذه الملاحظة تنسحب على فن النثر الذى كاد ينحصر فى الرسائل الديوانية، القائمة على الجملة المسجوعة، كما قامت القصيدة على البيت المفرد ، وأشعر الشعراء الذى قاله .

ونحن في عصرنا نختلف عنهم من هذه الوجهة ، فقد استحدثنا فى مجال الشعر أساليب وفنونًا شتى ، كما استحدثنا فى مجال النثر المقالة والقصة والأقصوصة والمسرحية، حتى الخطابة نفذنا فيها إلى نمط جديد وهو الخطابة القضائية .

والدواء : أن تلاحق دراساتنا البلاغية نهضتنا الأدبية : بحيث تصور فنوننا الشعرية والنثرية وأساليبهما المتنوعة ، وبحيث تكون صورة لحياتنا الأدبية الحديثة .

وبلاغتنا القديمة من مقومات شخصيتنا، فعلينا أن نأخذ بتلابيبها على أن نُصفِّيها مما لحق بها من أدران الفلسفة والمنطق والكلام والنحو .

وهكذا ، «نأخذ من القديم أصولنا، ومن الحديث حياتنا ، فتتطور بلاغتنا ، وتصير صورة لنا » . (ص ٣٧٦ - ٣٧٨) .

هذا هو كتاب « البلاغة : تطور وتاريخ »، وقد وقعت عليه عيون الملايين من القراء منذ عام ١٩٦٥م ، وستقع عليه عيون ملايين أخرى، وسيتعلم منه الكثيرون والكثيرون، ويؤيدونه أو يناقشونه ، وقد يختلفون معه، وأنا منهم ، ولكننا جميعًا لا نختلف : فى أن هذا الكتاب معلم من معالم الدرس البلاغى ، لعلم من أعلام عصرنا الحديث هو الأستاذ الدكتور شوقى ضيف .

د . منير سلطان

أستاذ البلاغة

كلية البنات - جامعة عين شمس

١٩- الأصول الجمالية

في الدراسات النقدية عند شوقي ضيف

د . محمد عزيز نظمي

نستهدف من عرض هذا البحث - في مناسبة تكريم رائد من الرواد - تسجيل صفحات مجيدة مزدهرة عن أصالة هذا الرائد ، من خلال إبداعاته العبقرية ، في مجالات التراث واللغة والأدب والنقد، خلال حقبة تاريخية تركت بصماتها ، على تاريخ الفكر والأدب والحضارة في مجالات الثقافة المصرية ... وإنا نحن نحس بادرة الوفاء هذه ، والعطاء الذي بذله أستاذ الأساتذة، فكان بمثابة نبع فياض ثرى على بلدته وأمته .

وإنا نتبين كذلك بموضوعية، وحياد علمي ، تلك الإضافات الواضحة في تاريخ الثقافة، التي كان لرائدنا الفضل كل الفضل فيها ، فكان ذلك باعثًا على حركة التجديد، والأصالة ، مما يجعلنا بداية نفخر ونعجب بتلك المحاولات الجادة التي قام بها . ومن ثم يتعين علينا أن نضع قضية التراث والتجديد في تاريخنا الأدبي والثقافي ، في وضعها الصحيح ، فلا نتجاهل مأثرة من مآثره ونقرر في حياد وأمانة أن ابن مصر ، وليس ابن دمياط فحسب قد حمل مشعل الثقافة ، ولواء الأدب والنقد طوال سنوات من تاريخ مصر، عاليًا وكان دوره الرائد مشهودًا بعلمه وبفضله .

ولعل السمة الظاهرة في دراسات رائدنا الأستاذ الدكتور شوقي ضيف هي الأصالة من ناحية، والتجديد من ناحية أخرى، تلك كانت السمة الواضحة المعالم والتي تتبدى لمن يمعن النظر في سياق دراساته ومنهاجه النقدي .

ويتعين على الدارس لتراثه أن يستقرئ منهاجه الواضح من خلال دراساته وإبداعاته في مجالات التراث والأدب ، وتاريخه والدراسات النقدية والتراجم، ومن خلال اللغة والبلاغة، وقد آثرنا تحديد الموقف منذ البداية ومنذ أن أخرجنا دراستنا المتواضعة

فى مجال الإستاطيقا ، بعد الدراسات الجمالية وفلسفة الفن أن نتابع تلك الجهود الخلاقة والتفسيرات الجادة التى تتميز بالموضوعية والربط بين الأصالة، والمعاصرة من ناحية أخرى . وبهذا المعيار حاولنا جاهدين أن نطبقه على إبداعات رائدنا فى دراساته الأدبية والنقدية. فتبينا منزلته، وأصالته، والتى تتضح أمامنا بجلاء ، فى محاولة استكشافنا للأصول الجمالية (أعنى الاستطيقية) لدراساته النقدية، وتفسيراته لمذاهب النقد والأدب العربى قديماً وحديثاً، وسنبين أيضاً النزعة التكاملية فى المنهاج النقدى لديه، التى جمعت بين النظرة الفنية والتاريخية فى شمول واتساق عضوى، تجاوز مفهوم البنائية وأنساق الثقافة ، فهو يؤكد الصلة العضوية بين الشعر والتصوير التشكيلى، والموسيقى، وكأننا أمام رأى عالم الجمال الفرنسى «أتين سوريو» الذى يؤكد ارتباطات الفنون الجميلة جميعاً فيه ، فيتجاوز بذاك مفهوم محاكاة المحاكاة فى الفن ، كما قرره من قبل كل من أفلاطون وأرسطو إلى مفهوم آخر ، هو الارتباط أو التكوين العضوى بين روافد الفنون الجميلة ، بما فيها فنون الأدب المختلفة (من شعر ونثر وقصة وخطابة ... الخ) إلى مفهوم جديد يستند إلى روابط ثلاث :

١- **الرابطة الأولى** : وتتحدد فى الخيال الإبداعى المستوحى من وجدان الفنان وخبراته الحسية واللاشعورية .

٢- **الرابطة الثانية** : وتتحدد فى الرؤية الجمالية والصور والمشاهد المستوحاة من الطبيعة أو الخيال .

٣- **الرابطة الثالثة** : وتتحدد فى الإلهام أو الحدس الجمالى ، والإشراق المعبر عن كيفية إدراك الصورة الجمالية الخلاقة أو المبدعة، التى تمر بمراحل أربع ، تبدأ بالإعداد ، أو التحضير، ثم بالحضانة ، أو التمهد والاستغراق ثم بالإشراق ، ثم بالتعبير أو التنفيذ .

كما نجد أستاذنا (ضيف) يحدد منهج الحكم الجمالى على الأثر الفنى من خلال الذوق المتمرس الخبير المستوعب، لأصول التقنية الفنية وعناصرها الجمالية، وحذق وسائل صياغة التجربة الجمالية فى ضوء ثلاثة محاور أو معايير أو مقاييس :

١- أول هذه المقاييس هو *البعد* ، أو *المحور التاريخى والعصر الاجتماعى* .

٢- ثانى هذه المقاييس هو البعد ، أو المحور الفنى، أو الجمالى المعبر عن تطور المضمون أو المحتوى، وكذا الشكل أو الصيغة فى إطار لغة التعبير سواء أكانت أنغاماً أم ألفاظًا أم ألوانًا .

٣- ثالث هذه المقاييس هو البعد ، أو المحور الرابط الحضارى بين التراث أو الأصالة، وبين التجديد أو الحداثة أو المعاصرة .

ويمكن القول بأن (الدكتور ضيف) قد رسم معالم الطريق إلى علم جمال أدبى عربى، من خلال دراساته النقدية للنماذج الفنية حيث وضع القواعد والتأصيل النظرى لها ممثلاً غنياً عرضه بمؤلفاته القيمة عن مذاهب النقد والفن والشعر والنثر ، ودراساته عن البحث الأدبى ومنهاجه .

ويكفى أن نستوعب إشارته حول تطور الفكر الجمالى بداية من أفلاطون الذى ذهب إلى أن كل جمالى حسى، أو إبداعى، أو عقلى مرده المثال الخالد فى إطار نظريته عن عالم المثل والجمال المطلق، بينما ذهب أرسطوا إلى القول بأن الجمال يتمثل فى تناسق التكوين ، ثم ساد فى العصر الحديث المفهوم القائل بأن الجمال هو ما يتعلق بالإحساس، أو بالشعور دون الخلط بينه وبين المنفعة أو الأخلاق فتحددت بذلك معانى الجمال بوضوح فى مصطلح الإستاطيقا Aesthetica على يد الفيلسوف الجمالى الألمانى جوتليب مجارتن (١٧١٤- ١٧٦٢) ، ثم تعددت الدراسات الجمالية على يد كانت وهيجل، وشوبنهور، وجويه، وكروتشه، وتين، وتولوستوى، وسانتيانا، وديوى وغيرهم ... وعندما يؤصل الأستاذ ضيف لنظيره الجمالى يرى أنه من الضرورى أن تستند التفسيرات النقدية على أسس واضحة ومحددة، من خلال البعد التاريخى لتطور النقد الأدبى، منذ أرسطو، الذى يرى أستاذنا أنه يكاد ينفرد بمنهجه العلمى الدقيق فى محاولة لوضع نظرية كاملة للمأساة أو التراجيديا، وتمتد الدورة الأولى للنقد الأدبى حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى، وتتميز هذه المرحلة بإشارات وملاحظات مبهمة غامضة تخلب الأسماع، ولكنها لا تجعل العقول تصغى إليها ، بينما تبدأ المرحلة الثانية مع مستهل القرن التاسع عشر الميلادى، حيث يحاول النقاد وضع نظرية نقدية ذات صبغة منهجية علمية، من منطلق العلوم الطبيعية أو الفيزيائية ، فأقاموا ما يمكن أن

نسميه (بالتاريخ الطبيعي للأدب) وطبقوا تصنيفات وتقسيمات الطبيعة على فنون الأدب ، متأثرين بالتطورية الداروينية من ناحية، وبمذاهب وقوانين الحضارة والبيئة والجنس والعصر من ناحية أخرى، بل أفسح المجال أيضًا للدراسات السيكولوجية والاجتماعية من خلال التفسير الفرويدى ، للظاهرة الأدبية أو الفنية، وكان لكل هذه المؤثرات أثره الواضح فى نشأة النقد، وتطور مناهجه وتحليل الأدب والتراجم الأدبية من ثلاثية وحدة الزمان والمكان والموضوع، إلى أنماط جديدة تمثل فى النتاج الفنى للقصة والمسرحية والقصيدة .

ومن خلال عرض أستاذنا الرائد لنشأة النقد وتطوره يبدأ بالحضارة اليونانية – وإنا نعرض رأيه مع شئ من التحفظ– فعلى حد قوله :« إن اليونان أسبق القدماء إلى وضع أصول النقد وقواعده، وجعلهم ينتجون الفلسفة ومجالات أخرى من المعرفة، بدأ بنتاج الشعراء القدامى فى ملامحهم الأسطورية وبطولاتهم الخارقة،مع هوميروس إبان القرن التاسع ق .م . فى الإلياذة والأوديسة، ثم (هيزيود) فى القرن الثامن ق . م. وكان العهد الأول لتاريخ الفن الأدبى ، هو الرواة ، ثم التدوين الذى أبرز الشعر التمثيلى إبان القرن السادس ق . م . حيث تعدى وصف الشعراء حياة الآلهة والأبطال إلى الحياة العادية وموضوعاتها الاجتماعية، والسياسية، والفلسفية، فها هو ذا أريستوفانيس يؤلف ملهاته (السحب)، ممثلاً الصراع بين الفكر والدين الوثنى للعامة ، ثم يتابعها بمسرحية (الضفادع)، مجسمًا الصراع بين القديم والجديد أو بمعنى آخر صراع الأجيال على لسان شخصياته المحورية أسخيلوس ويوربيدوس، ومع إطلالة القرن الخامس ق . م . يرقى الفكر العقلانى الفلسفى فيكثر الجدل والسفسطة، ونجد محاورات سقراط ثم أفلاطون بين جموع الفلاسفة، والسوفسطائية، تنتهي بمحاولات أرسطو لوضع كتابه البيوطيقا، أو الشعر ، ثم الريطوريقا أو الخطابة متابعًا بذلك ما كتبه أفلاطون فى محاوراته أيون، والجمهورية، وقولنا بالتحفظ السالف الذكر مرجعه أن الأدب المصرى القديم كان نبعًا للأدب اليونانى .

ومن خلال العرض التاريخى لتاريخ النقد الأدبى، يطلق رائدنا الدكتور شوقى ضيف على النقد الأدبى العربى فى تلك الحقبة قوله ... «إن النقد العربى كان فى جملته نقدًا عمليًا يتصل بالجزيئيات ولا ينفصل عنها .. فقد كان محوره غالبًا البيت والعبارة،

ولم ينظروا فى الأدب ، أو لتشعر نظرة عامة ، بحيث يمكن القول أن نشاطهم النقدى كان أقرب إلى البلاغة منه إلى النقد الخالص ... ومن الصعب أن نجعل لهم فلسفة جملية، أو نظريات نقدية بالمعنى الدقيق .. » .

وفى مجال المقارنة لتاريخ الأدب فى العصور الوسطى بإيطاليا وفرنسا ، يذكر أستاذنا الدكتور أن الأدباء تقيدوا تقييداً شديداً خلال القرن السادس عشر والسابع عشر فيما يختص بفن المسرح وقواعده، ثم خضعوا للقواعد الكلاسيكية وأصولها الدراسية ، ثم ظهر فى القرن الثامن عشر نزعتان من النقد : نزعة تراثية تستند إلى القواعد وأصول الأدب اليونانى، والتقيد بقواعد أرسطو ونزعة أخرى مغايرة مجددة ظهرت على يد «جراى» (١٧١٢-١٧٧١م) بإنجلترا بحثًا عن آداب عصره ، والتغنى بالطبيعة وعلى يد ديدروا بفرنسا (١٧١٣-١٧٩٤م) داعيًا إلى نبذ التراث والتقاليد القديمة ، بينما ظهرت على يد علماء الجمال المعاصرين الذين ساروا بالدراسات الجمالية سيراً كبيراً .

وسبق التنويه إلى أن أستاذنا ضيف أقام منهج التحليل النقدى والتقويم الجمالى **Jugewanl de Valuera** على أساس استطيقى ،استنبطه من افتراضين جماليين :

الفرض الأول : وهوالوظيفة فى الفن فى إطار السمات الجمالية ، أو العناصر الجمالية الخالصة ، بفضل قوة التفكير التى تهدينا إلى الحقيقة، وقوة الإرادة التى تهدينا إلى الخير، وقوة الإحساس التى تهدينا إلى المتعة الجمالية. أو بمعنى آخر تكامل المفهوم القيمى للجمال ، فعارض بذلك النزعة القائلة، بأن الفن للفن، كما عارض النزعة القائلة بالمنهج التأثيرى ، كما عارض أيضًا أصحاب النزعة الموضوعية فى الفن ، وأكد من جهة أخرى الأصول الجمالية أو القيم الجمالية بصفة خاصة والقيم بصفة عامة .

الفرض الثانى : وهو التكاملية في الفن فى إطار الإفادة من المناهج المختلفة ، والنزعات المتعارضة، ما بين النزعة السيكلوچية التى تنظر إلى ممارسات الفن لتجارب مستقلة، نتيجة المعاناة لدوافع نفسية، أو نزعة اجتماعية ترى الالتزام في الفن لقضايا اجتماعية ، تتوافق منها حرية الفنان وإلزام المجتمع له فى وحدة متسقة،

وتجعل من الناقد يعين من كل هذه الطرق والنزعات فى تفسيره، وتحليله، وتقويمه للعمل الفنى فى إطار متوازن بين الفن وقيمة الجمال، ومع الدافع المعاش وقيم الحياة بما يتحلى به الناقد، من عدالة وأمانة فيضع موازين عادلة لا تميل مع الهوى أو التعصب، وليس أدل من عبارة يسوقها أستاذنا ضيف قوله : « .. والناقد الحق لا يرفع شيئًا فوق قيمته ولا ينزل شيئًا دون قيمته .. » .

ويخلص أستاذنا إلى قواعد تقويم العمل الفنى على أساس استطيقى آفاقه الحياة، وقوامه الخبرة الجمالية ، وسبيله الذوق ، ولكى يدلك على نظريته، يطوف بنا بين آراء الجماليين، أمثال جريو، وبومجارتن ، وكانت من خلال تحديد مواقف المدارس الفنية، كالرومانسية، والكلاسيكية، والرمزية ، والسريالية ، والتأثيرية، والتعبيرية .

وفى مجال الاستشهاد بأمثلة يتناول أستاذنا نظرية الشعر ، فيقرر بقوله :«وليس معنى أن شعراءنا المعاصرين، ينفصلون عن أسلافهم، وتقاليدهم الفنية الموروثة، فما يزال السابقون منهم يحتفظون بشخصية شعرنا، ومقوماته اللفظية، مع التمثيل الدقيق للشعر العربى وأنماطه؛ فهم مجددون وفى الوقت نفسه متصلون بالقديم ، أهلتهم لها ثقافاتهم وشعورهم وبيئاتهم وعصورهم ومواهبهم، التى تعبر عن شعوبهم، ومثلها العليا من الخير والحق والجمال. وبذلك لم يعد الشعر عندنا ألفاظًا ترصف رصفًا لتؤلف قصيدة فى موضوع تقليدى، بل أصبح عملاً أدبيًا جديراً بالعناية والاهتمام لما يتضح فيه من ذات الشاعر وتراث أمته .. » ويستطرد بقوله : «ومن المحقق أن الذين تعمقوا فى الآداب الغربية، واستمدوا منها فى بعض منها صوراً من شعرهم، ولكنه من المحقق أيضاً أنهم لم يفنوا أنفسهم فيها ، بل ظلت لهم شخصيتهم العربية ..» وبهذا يؤكد أستاذنا الملامح والسمات المميزة للفن والأدب، من خلال البعد التطورى فى تاريخ الأدب ، من قوله : « .. ومن المعروف فى تاريخ الآداب من عصر من عصورها فى أمة من الأمم ، لا يمكن أن ينفصم عن العصور التى سبقته، وكأن هناك تياراً شائبًا خلف العصور المتعاقبة، يعمل فى القديم ولا يزال يعمل فى الجديد، فكل أدب له ماض يبنى عليه يمد الحركة الدائبة فى الآداب ، إذ يحيى كل جيل ما سبقه من أجيال لا من الناحية الجمالية وحدها بل أيضاً من ناحية الأفكار والمشاعر» .

ويشير أستاذنا إلى أهم وأبرز عناصر الجمال الفنى فيما يلى :

أولاً : الوحدة العضوية للعمل الفنى .

ثانيًا : التطابق بين الصورة والمضمون فى العمل الفنى .

ثالثًا : خصوبة الخيال الإبداعى فى العمل الفنى .

رابعًا : الأصالة فى بلورة العمل الفنى .

خامسًا : دعم القيم الإنسانية فى العمل الفنى .

ثم ينتقل أستاذنا إلى الوسائل الإعلامية للأدب وفنونه من خلال الصحافة والفن السينمائى والمسرحى والقصصى ، وهو بذلك يعطى أبعاداً لوسائل ذيوع وانتشار الأدب وفنونه المختلفة .

نظرة تقويمية :

يشغل النقد الأدبى والدراسات البحثية ، والتحليلية لبعض النماذج الأدبية والتراجم الشخصية لبعض الشعراء القدامى، والمحدثين التي تناولها أستاذنا الدكتور ضيف بالدراسة والبحث ، مجالاً واسعًا فى دائرة بحوثه ومؤلفاته، ولكن أبرز ما ضمنته هذه الدراسات النقدية أساسًا أستطيقيا ، أى جماليًا لكثير من النظريات والمذاهب النقدية، اتضح فى تلك الأبعاد والمحاور والأسس والقواعد التى أقام عليها دراساته، فكانت بذلك إرهاصًا أو تمهيداً ومدخلاً طبيعيًا لعلم جمال أدبى ، له أبعاده وموضوعاته وتقنيته، التى يمكن للمشتغل بهذا المجال أن يستنبطها استنباطًا علميًا وتطبيقيًا .

ويجدر التنويه إلى أن ما يتبدّى للدارس فى نطاق النقد الأدبى أنه أقام أنموذجًا يحتذى به عند الدراسة التحليلية لفنون الأدب، قدمه أستاذنا الدكتور شوقى ضيف، كما أن منطلق هذه الدراسات الموضوعية بأجل معانيها وخصائصها ، والتى يتعين على

الدارسين أن يضعوها نصب أعينهم عند الدراسة والبحث، ومما لا شك فيه أن ارتياد أستاذنا لبعض مسائل وموضوعات علم الجمال الأدبى، يعتبرإرهاصًا طيبًا لتنظير علم جمال أدبى عربى، كانت الدراسات النقدية والأدبية فى أمس الحاجة إلى قيامه .

وأخيراً ونحن فى نهاية المطاف وبعد سفر طويل ومتعدد الإتجاهات بين فنون الأدب ، نرى إضافة وإبداعًا ومنظوراً جاداً وجديداً ألا وهو البعد الجمالى أو الاستطيقى، لأستاذنا الرائد الدكتور شوقى ضيف، له منا ومنكم أسمى التقدير، وأجل الإعزاز لعمله الممتاز الإبداعى، ولشخصه الكريم، ولجهده العلمى الأصيل، له منا التقدير والتكريم .

د . محمد عبد العزيز نظمى سالم

أستاذ الفلسفة

كلية آداب بنها - جامعة الزقازيق

٢٠- منهج شوقى ضيف
فى دراسة شاعر العصر الحديث

د . أحمد موسى الخطيب

عبر تاريخنا الأدبى الطويل حظى بعض الأعلام باهتمام خاص، ودار حولها كثير من الخلاف والجدل ، أكد شهرتها ونجوميتها ودورها فى تحقيق التكامل الاجتماعى فى عصرها ، وإضافتها النوعية للتاريخ الفنى للجماعة، وحسبنا أن نذكر من تلك الأعلام ذات الشهرة العريضة فى تراثنا الشعرى أبا نواس ، والبحترى ، وأبا تمام ، والمتنبى، وأبا العلاء المعرى .. وغيرهم ، وأن نتذكر ما دار حولهم - أحياءً - من جدل عنيف ، ومن انقسام للذوق الأدبى العام، وكيف ظلت هذه الأعلام- بعد وفاتها- محل اختلاف للرأى، تستحوذ على اهتمام العلماء ، وتستقطب جهود الدارسين ، وتتألق فى سماء الفن مثلاً يحتذيها شداة الأدب .

أما فى العصر الحديث فيلقانا أحمد شوقى(١٨٦٩-١٩٣٢) علماً باذخًا من أعلام الفن الشعرى، استحق بجدارة أن يتربع على عرش إمارته ، فقد ثار حوله - فى حياته وبعد مماته - من الجدل والخلاف والاهتمام ما يفوق نظيره عند أسلافه، وهو حقيق - ولا ريب - أن تتمحور حوله اهتمامات الأدباء والباحثين فى مصر بخاصة والوطن العربى بعامة، منذ أن ركز بقوة - فى مطلع هذا القرن - راية الشعر خفاقة على ضفاف وادى النيل ، وأكد لمصر زعامتها الأدبية لفن الشعر التى رادها أستاذه محمود سامى البارودى، وأسهم فى صياغة ذوق فنى جديد، حيث بلغت القصيدة الغنائية على يده أوج نضجها، كما ألان الشعر العربى - لأول مرة - لفن التمثيل ، وكرس هذا المنحى فى خمس مسرحيات شعرية، وقد أسهمت هذه الحركة النقدية النشطة حول

شوقى فى إثراء المكتبة العربية بالعديد من الدراسات [1] ، حيث تناول بعضهم حياته وفنه بشكل عام ، مثل : شكيب أرسلان «شوقى .. أو صداقة أربعين سنة» ، وشوقى ضيف «شوقى شاعر العصر الحديث»، وزكى مبارك «أحمد شوقى» ، وعمر فروخ «أحمد شوقى أمير الشعراء فى العصر الحديث»، وأحمد محفوظ «حياة شوقى»، ومحمد إسعاف النشاشيبى «العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقى» . تناول فريق آخر جانبًا من فنه؛ فدرس محمد مندور «مسرحيات شوقى»، وتناول طه وادى «شعر شوقى الغنائى والمسرحى» ، وبحث محمود حامد شوكت «المسرحية فى شعر شوقى»، ووقف إبراهيم الفيومى عند «شوقى ناثرًا» . كما اقتصر بعض الباحثين على دراسة منحى من مناحيه الفنية، مثل : أحمد زكى عبد الحليم «أحمد شوقى .. شاعر الوطنية»، وأحمد الحوفى «وطنية شوقى»، وأحمد سويلم العمرى «أدب شوقى فى السياسة والاجتماع»، وصالح الأشتر «أندلسيات شوقى»، وماهر حسن فهمى «شوقى .. شعره الإسلامى» . كما تناوله بعض الدارسين من خلال الدراسات مقارنة مع معاصريه ، أو مع من تأثر بهم فى التراث العربى أو الغربى ، مثل : طه حسين «حافظ وشوقى»، وحسن السندوبى «الشعراء الثلاثة .. شوقى مطران، حافظ»، وعباس حسن «المتنبى وشوقى»، وعبد الحكيم حسان «أنطونيو وكليوباترا بين شكسبير وشوقى ». أما محمد الهادى الطرابلسى فى دراسته «خصائص الأسلوب فى الشوقيات» فقد تناول شعره بمنهج أسلوبى، مقدمًا بذلك أول دراسة أسلوبية تطبيقية لشاعر عربى فى العصر الحديث، هذا ولا تخلو دراسة لتاريخ الأدب العربى فى العصر الحديث من الوقوف عند شوقى وإسهاماته الإبداعية الرائدة ، بل لا تكاد تخلو دراسة نقدية لجانب من جوانب الأدب العربى فى العصر الحديث من الوقوف طويلاً عند دور شوقى فيه ، ونذكر منها « الديوان فى الأدب والنقد» لعباس محمود العقاد بالاشتراك مع إبراهيم المازنى ، و« شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى« للعقاد ، هذا إلى جانب عدد من الدراسات المهمة- وهى رسائل جامعية مخطوطة بجامعة القاهرة - مثل : «الصورة الفنية عند شعراء الإحياء» لجابر عصفور، و« والتطوير والتجديد فى الشعر المصرى

---

(١) راجع : شعر شوقى الغنائى .. والمسرحى . د . طه وادى . دار المعارف بالقاهرة . ط ٢ ، ١٩٨٥م ، ص ١٧٦ وما بعدها .

الحديث» لعبد المحسن بدر، « والشعر السياسى بين ثورة عرابى وثورة ١٩١٩ » لعبد المنعم تليمة ، و«الصورة الفنية في الشعر العربى فى مصر» لنعيم اليافى، و «أثر التراث العربى على مدرسة الإحياء» لإبراهيم السعافين .

وكان التعرض لشوقى وأدبه – فى عصره – بمثابة الجسر الموصل إلى الشهرة ، ودخول دائرة الضوء من أوسع الأبواب ، لذا حفلت آنذاك الدوريات المصرية بخاصة بالعديد من المقالات الأدبية ، التى تعلى من قدره أو تحط من شأنه، وأعربت بعض الدوريات المصرية عن احتفالها بشوقى بإصدار أعداد خاصة عنه مثل : السياسة الأسبوعية (إبريل ١٩٢٧)، وجريدة الأهرام (٣٠ إبريل ١٩٢٧) . وتوالت هذه الصورة بعد وفاته، وعلى مراحل زمنية متباعدة، وشارك فيها عدد من الدوريات المتخصصة مثل أبوللو (فبراير ١٩٣٣)، والكاتب المصرى (أكتوبر ١٩٤٧)، والهلال (نوفمبر ١٩٦٨)، والثقافة (أكتوبر ١٩٨٢)، وفصول (أكتوبر ١٩٨٢ ، ويناير ١٩٨٣) ، وكانت مجلة فصول للنقد الأدبى آخر صور الاحتفاء وأهمها ، فقد أفردت عددين كاملين لنشر الدراسات المهمة التى نوقشت إبان الاحتفال بمرور خمسين عامًا على وفاة شوقى وحافظ، وقد انعقد هذا الاحتفال فى مقر الهيئة العامة للكتاب فى مصر، وشاركت فيه وفود عدة مثلت الكثير من الجامعات العربية، كما أسهمت فيه وفود غير عربية أيضًا ، وامتازت تلك الأبحاث المقدمة بوفرة الدراسات النصية لأعمال شوقى بخاصة، وبالتنوع اللافت فى المناهج النقدية المستخدمة فى التعامل مع نصوص الشاعر بل التباين فى الإجراءات التى يتوسل بها المنهج الواحد فى التعامل مع شاعر واحد ، وتتناظر فيها الدراسة التحليلية مع الدراسة التوثيقية ، مثلما تتجاوب التحليلات البنيوية مع الأسلوبية، وتتقابل البنيوية والأسلوبية مع التفسير التاريخى أو التحليل الاجتماعى، دون أن يخلو الأمر – فى النهاية – من محاولات توفيقية .

وقد شارك استاذنا الدكتور شوقى فى هذا الاحتفال بدراسة بعنوان «حافظ وشوقى وزعامة مصر الأدبية»، وقد سلك فيه نهجه فى دراسة «شوقى شاعر العصر الحديث» .

ومنذ أن بدأ الدكتور شوقى سلسلة دراساته لتاريخ الأدب العربى بكتابه «العصر الجاهلى»، فقد حدد منهجه الذى اختطه لنفسه، وكرسه لا فى تاريخه لسائر عصور

الأدب العربى فحسب، بل فى كل دراساته الأدبية التى أثرى بها مكتبة الدراسات الأدبية ، وهو منهج يتسق وتحديده لمعنى الأدب الذى لا يتوسع في توسع بركلمان ، وجورجي زيدان، فقد رأى «أن أدبنا العربى يفتقر إلى طائفة من الأجزاء المبسوطة، تبحث فيها عصوره من الجاهلية إلى عصرنا الحاضر ، كما تبحث شخصياته الأدبية بحثًا مسهبًا، بحيث ينكشف كل عصر انكشافًا تامًا، بجميع حدوده ، وبيئاته، وآثاره ، وما عمل فيها من مؤثرات ثقافية وغير ثقافية، وبحيث تتكشف شخصيات الأدباء انكشافًا كاملاً بجميع ملامحها وقسماتها النفسية والاجتماعية والفنية » [1] .

وقد أوجز فى استهلاله لكتابه «العصر الجاهلى» أهم مناهج الدراسات الأدبية المعروفة، وما يعتورها من قصور ، وما طرأ عليها من تطور ، وانتهى إلى قوله : «سنحاول أن نؤرخ فى أجزاء هذا الكتاب للأدب العربى بمعناه الخاص . مفيدين من هذه المناهج المختلفة فى دراسة الأدب، وأعلامه وآثاره ، فنقف عند الجنس والوسط الزمانى والمكانى الذى نشأ فيه الأديب، ولكن دون أن نبطل فكرة الشخصية الأدبية، والمواهب الذاتية التى فسح لها سانت بيف فى دراساته، وكذلك لن نبطل نظرية تطور النوع الأدبي .. ولابد أن نستضيئ فى أثناء ذلك بدراسات النفسيين والاجتماعيين ، وما تلقى من أضواء على الأدباء وآثارهم ، وبجانب ذلك لابد أن نقف عند أساليب الأدباء وتشكيلاتهم اللفظية، وما تستوفى من قيم جمالية ، ولابد من المقارنة بين السابق واللاحق فى التراث الأدبى العربى جميعه »[2] .

والملاحظ أنه لم يسم هذا المنهج التكاملى، لكنه - بعد ذلك - كان أكثر وضوحًا حين نشر كتابه «البحث الأدبى .. طبيعته ، مناهجه، أصوله ، مصادره» عام ١٩٧٢م، فعرض بالتفصيل لأهم مناهج الدراسة الأدبية ، ثم شفعها بالحديث عن المنهج التكاملى، الذى يستضئ فيه الباحث الأدبى بكل المناهج والدراسات الأخرى ؛ لأنه يرى أن البحث الأدبى أعقد من أن يخضع لمنهج معين ، أو قل إنه لا يمكن أن يحتويه منهج بعينه، لذا لابد أن يستعين الباحث بها جميعًا، حتى يمكن أن يضطلع ببحث أدبى قيم،

---

(١) العصر الجاهلى . د . شوقى ضيف . دار المعارف بالقاهرة . ط ١٩٧٦ . من المقدمة .
(٢) المرجع السابق .ص ١٢ .

ولعل فى تعددها ما يشهد بأن الاثار الأدبية كنوز حافلة بجوانب وفيرة وأيضًا لعل فى تعددها ما يشهد بأن منهجًا واحداً لا يغنى غناءً تامًا في البحوث الأدبية ، فلابد أن يتحول عقل الباحث إلى ما يشبه مرآة تعكس أضواء كل تلك المناهج ، فهي تعكس فكرة الفردية والأصالة والمدرسة أو الفصيلة الأدبية ، وأفكار البيئة والعصر والظروف والتطور التاريخى والحاجات الاقتصادية للمجتمع ، والتزام الأديب ومدى تمثيله لمجتمعه ، ورواسب اللاشعور الفردى واللاشعور الجمعي، وعناصر الجمال الكلى للتعبير وموسيقاه، كما تعكس انطباعات الباحث الممتعة وصلة الأديب بالتراث الفنى، وأيضًا تعكس تحليلات لغوية ونحوية بلاغية دقيقة» [1] .

وليس معنى دعوة أستاذنا إلى هذا المنهج أن يلتزم الباحث بحرفية كل تلك المناهج . فقد نبه - مثلاً - فى أكثر من موضع إلي جوانب التعسف فى مناهج الدراسات الطبيعية عند سانت بيف وتين وبرونتيير، وصنع مثل هذا حين عرض للمنهج النفسى باتجاهاته المتعددة، فهو يقيم منهجه التكاملى علي الاعتدال فى الأخذ من تلك المناهج المختلفة، فيقبل منها ما يراه إيجابيًا مثمراً في البحث الأدبى ، ويرفض منها ما يجده متعسفًا لا يتفق وطبيعة الأدب ؛ لأنه يرى أن عالم الإنسان يخضع لقوانين أعمق من القوانين الطبيعية، وأن تاريخ الأدب ينبغى أن لا يلحق بالعلوم الطبيعية ، وإنما يلحق بالدراسات الإنسانية .

وحين نتأمل دراسته «لشوقى شاعر العصر الحديث» نجد أنه لم يخرج عن منهجه التكاملى الذى اختطه لنفسه، ففى الفصل الأول الذى عقده لحياة الشاعر، يبدو تأثره بالمناهج الطبيعية عند تين وسانت بيف، فنراه يبحث فى أصوله والعناصر المختلفة التى تآزرت فيه من تركية وشركسيه ويونانية وعربية وكردية ، وصنعت بالضرورة منه شاعراً ممتازاً لعل مصر لم تظفر بمثله فى عصورها المختلفة، فهو يرى فى ميراث دمه وأعراقه أخطر مكونات الشاعر وشاعريته، حيث يقول «وقد اجتمعت هذه الأصول المختلفة ليخرج منها هذا الفرع المونق، وكلنا نعرف شهرة العرب واليونان قديماً بالشعر والشعرية، وإن ازدواج هذين الأصلين فى شاعر ليؤذن أن ينال قمة الشعر ، بل أن

---

(١) البحث الأدبى .. طبيعته . منهاجه . أصوله . مصادره . د. شوقى ضيف دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٠م . ص ١٤٤ و ١٤٥ .

يبلغ فيه عنان السماء» [1] . ويرى المؤلف أن فكرة الجنس أو الفطرة الموروثة فى الأمة التي شاعت فى عصر «تين» و «رينان» نجدها واضحة عند الجاحظ فى حديثه عن الأجناس فى بعض رسائله، كما نجدها ماثلة عند ابن خلدون فى مقدمته [2] .

ويتابع الدكتور شوقى تأمل بعض الأحداث المهمة فى توجيه حياة شاعره وفنه، فيقف عند طفولته فى بلاط الخديوى إسماعيل ، حيث كانت ترعاه جدته «تمراز» ، وحيث فتح عينيه على ذهب الخديوى إسماعيل وهو ينثر أمام عينيه القلقتين الحالمتين، فقد وضعته ربة الشعر منذ نعومة أظافره فى مهاد من النعيم ، وما زالت تدلله فى هذا المهاد حتى آخر حياته، وكان ابتعاثه - على نفقة الخديوى توفيق وبتوجيه منه - إلى باريس لتلقى علومه فى القانون قيداً جديداً يشده إلى القصر ، ويبعده عن الشعب ، كما أنه بقبوله العمل فى القصر بعد العودة يكون قد أمعن فى الارتباط بالقصر والحياة الارستقراطية والانعزال عن الشعب وهمومه فى برجه العاجي، وقد كان لهذا كله أثره العميق فى شعره حيث أضعف - فى شطر حياه الأول - من اتصاله بحياة الشعب المصرى، وحولته إلى بوق للقصر وصاحبه وما يتصل به ، وبهذا استطاع المؤلف أن يفسر اتساع مساحة المدائح والتهانى للخديوى توفيق ، ثم للخديوى عباس حلمى، وأن يبرر تعلق شوقى بالمتنبى أهم شعراء المديح بين العرب السابقين؛ لاتفاقه وذوقه فى الشعر الرسمى الذى كان يصنعه ، كما استطاع أن يعلل خصيصة من خصائص شوقي الأساسية ، وهى أنه لا يشعر بنفسه شعوراً كاملاً فى فنه، وكأنه يحس دائماً أنه يعيش لغيره. فقد بدأ حياته الفنية بإخضاعها للخديوى ومدائحه، فعاش له حتي فى غزله ، ووصفه للخمر ، إذ نراه يضعهما فى مقدمات مدائحه ، ولا يفردهما بمقطوعات خاصة إلا نادراً ، ولما عاد إلى مصر بعد النفى، احتفظ بخاصيته الفنية المميزة له ، وهى أن يكون شاعر غيره، فأصبح شاعر مصر والأقطار العربية كلها .

---

(١) شوقى شاعر العصر الحديث . د. شوقى ضيف . دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٣م . ص ١٠ .

(٢) انظر : البحث الأدبى .د. شوقى ضيف . ص ٨٨ .

وفى إطار هذا العرض التاريخى ، يفسر المؤلف استجابات شاعره الفنية إبان ارتباطه الوثيق بالقصر، فحين احتدم الصراع بين «كرومر» معتمد بإنجلترا فى مصر والخديوى عباس، ووقف رياض «رئيس الوزارة المصرية» يلقى خطابًا، مشيدًا باللورد كرومر، ومعرضًا بعباس ودولته ، طلع شوقى على الناس بقصيدة عنفه فيها، وأنحى عليه بلائمة ، ومنها قوله :

كبيرَ السابقين من الكرام   برغمى أن أنالك بالملام

لقد وجدوك مفتونًا فقالوا   خرجتَ من الوقار والاحتشام

فشوقى يؤنب رياضًا من أجل الخديوى لا من أجل الشعب، ومثل هذا ثورة شوقى للأسرة العلوية حين نقل كرومر من مصر سنة ١٩٠٧ ، وخطب منددًا بإسماعيل وعصره ولعل أوضح من هذا موقفه من أحمد عرابى بعد عودته من منفاه، حين استقبله بأهجية مطلعها : صغار فى الذهاب وفى الإياب   أهذا كل شأنك يا عرابى

وشتان بين وقدة عواطف شوقى، وثورته حين تعرض كرومر لإسماعيل، وحين تعرض كرومر للشعب المصري الأعزل فى دنشواى، ونصب له مقصلته ، وفتح له سجونه، فلم يستجب الشاعر لهذا الحدث الجلل إلا بعد مرور عام على الحادث، وبمقطوعة فاترة ، لا بقصيدة طويلة، لم تأت تعبيرًا عن عواطف متأججة أو إحساس حقيقى، بقدر ما كانت مصانعة للجمهور الذى يقرأ شوقى فى الصحف .

وربما كان موقفه من صديقه ورفيقه مصطفى كامل ، حين توفى أبلغ فى الدلالة على عبودية شوقى لأميره؛ مصطفى كامل كان قد قطع علاقته بعباس حين وجده يتبع سياسة وفاق مع السيد «غورست» معتمد بريطانيا، فلما طوي الردى صفحة مصطفى كامل المشرقة، وكف قلب مصر النابض عن الخفقان، تلكأ شوقى فى رثائه، ثم ثاب إلى رشده فرثاه؛ لأنه كان يخشى الخديوى وسخطه ، وفى الوقت نفسه يريد أن يصانع الشعب المصرى الذى يقرؤه .

ويرد المؤلف اتساع مساحة «التركيات» فى ديوانه إلى هذه الحقبة التى قضاها مرتبطًا بإرادة أميره، يحركه كما يشاء، ومتى يشاء ، فاتسع مدى التركيات فى ديوانه فى هذه المرحلة من حياته الفنية عما تحتله مصر وحوادثها الجسام؛ لأن شوقى لم يكن

ملك نفسه، إنما كان ملك أميره المخلص لتركيا والمحب لها، والذى أراده أن يولى وجهه شطر الباب العالى فى الأستانة، ويرى الدكتور شوقى أن عاطفة شاعره الوثيقة نحو الترك، التى تظهر فى تركياته كلها، قد ترجع فى بعض أسبابها إلى الأصل التركى الذى جرت دماؤه فيه، على ألا ننسى دور عباس الحاسم فى هذا الشأن .

وفى إطار من هذا المنهج يرى المؤلف أن فساد الحياة السياسية فى مصر ، أثر فى توجيه شاعره، «فقد نشأ وهو يرى القصر والأمير كل شئ فى حياة المصريين، فهما مصدر العز والذل ، والخفض والرفعة، والجاه والسلطان، فأراد شوقى أن يقتحم هذا الحصن الأشم، وأن يكون له مجال فيه . ولو أن الحياة كانت تجرى فى مصر على شكل آخر ، فيه ديمقراطية، وفيه إيمان بالشعب، وعمل صادق على إحيائه، لكانت أحلام شوقى غير هذه الأحلام، ولما رأيناه منضوياً تحت لواء الأمير ، يسبح بحمده آناء الليل وأطراف النهار» [1] ، ويفاخر معاصريه بأنه شاعر الخديوى ، فيقول لهم :

شاعرُ العَزيز وما بالقليلِ ذا اللَّقَبُ

فالظروف السيئة التى أحاطت بشوقى- إذن- هى التى ضيقت حدود شاعريته، وجعلتها محفوفة بالأشواك فى هذه الحقبة الطويلة من حياته التى تجاوزت عشرين عاماً .

كما لم يفت المؤلف أن يبين أثر نعيم البيئة التى نشأها فيها شاعره، وترف المكان الذى عاش فيه على فنه، فقد وصف كاتبه أحمد عبد الوهاب [2] حياته بأنها كانت نعيماً ومتاعاً خالصاً، وأنه كان يسير فى طرق مملوءة بالورود والرياحين، وأنه كان يجلس فى أجواء معطرة، وكيف كان يتناول الحياة كؤوساً صافية ، فهو يدور فى فلك المرح والحياة البهيجة، فتراه ينتقل من مقهى إلى مقهى ، ومن مطعم إلى مطعم ، ومن دار خيالة إلى أخرى .. وقد سمى قصره على ضفاف النيل بالقاهرة «كرمة ابن هانئ»، وسمى قصره بالإسكندرية «درة الغواص»، وهى قصور تشى أسماؤها ومواقعها

---

(١) شوقى شاعر العصر الحديث . ص ٢٥ .

(٢) انظر : المرجع السابق . ص ٣٨ .

بالثراء والترف، كما أنه حين نفى كانت الأندلس – وهى من أجمل بقاع الأرض – من نصيبه ، وكان دائم الترحال لمصايف سوريا ولبنان، وكثيراً ما تغنى بهذه وتلك ، بالإضافة إلى زياراته الصيفية لمصايف تركيا مع أميره، حيث كانت تتملى عينه بمجالى البسفور وغيره، هذا إلى جانب زياراته المتعددة لولديه (على ومؤنس) فى باريس أثناء تعلمهما هناك .ويخلص المؤلف إلي «أن شوقى يمثل الشخص المترف، الذى أترف حسه وشعوره إلى أقصى حد، ولعله لذلك لم يستطع النهوض بالتعبير عن عواطف صارخة أو منحرفة فى نفسه ؛ لذا فإحساسه بنفسه غير تام فى شعره، لأنه من الشعراء الغيرين، وهو من هذه الناحية كان معداً ليتفوق فى الشعر القصصى، ولعله من أجل ذلك يرتفع إلى القمة حين ترك المدائح والمراثى والشعر الغنائى الخالص إلى التاريخ ، حينئذ ينفسح الأفق أمامه، إذ يجد مادة خصبة لشعره وغيريته» [1] . فشوقى إنما تلائمه الموضوعات الخارجة التى لا ينسج فيها نفسه ، وإنما ينسج غيره، فهو لم يعش لنفسه، وإنما عاش لغيره . ويرى الدكتور شوقى أن الإحساس بقانون البيئة قديم عند العرب [2]، إذ نجدهم كثيراً ما يتحدثون عن أهل البدو، وأهل الحضر، وخصائصهما وأثرهما فى لغاتهما، نجد ذلك عند الجاحظ فى مواضع متفرقة من بيانه، ونجده عند على بن عبد العزيز الجرجانى فى وساطته بين المتنبى وخصومه ، ولكنه يتحفظ على أهمية هذا القانون فى دراستنا للأدب العربى ، فقد تقف حواجز بين البيئة وتأثيرها البعيد فى حياة أدبائها، فتجعل تأثيرها ضعيفًا، حتى لينمحى أحيانًا ويولى المؤلف ثقافة شاعره أهمية خاصة لما أدته من دور فاعل فى توجيه موهبته فقد التقى منذ وقت مبكر بالشيخ الأزهرى محمد البسيونى البيانى أستاذ اللغة العربية لأبناء الخاصة الخديوية، وكان شاعراً فصيحاً ، فأخذ عنه علوم العربية، وتأثر بشاعريته التى كانت تبهره، وكان هذا الشيخ مداحًا للخديوى توفيق، كما كان يستأنس برأى تلميذه وذوقه قبل أن ينشر قصائده ، فلهج الشيخ بتلميذه والثناء عليه، ولم يلبث التلميذ أن سار فى الدرب الذي سار فيه أستاذه، وكان لهذا الجذر الأول فى ثقافة الشاعر أثره فى تكوين شاعريته، حيث وصل بطائفة كبيرة من شعراء العرب فى عصور القوة أمثال :

---

(١) المرجع السابق . ص ٥٤ .

(٢) انظر : البحث الأدبى .ص ٩٠ .

أبى نواس وأبى تمّام ، والبحترى، وابن الرومى ، وأبى الطيب المتنبى، وأبى فراس الحمدانى، وأبى العلاء المعرى ، وابن زيدون، وغيرهم . وأثرهم جميعًا فى شعره قوى واضح، وفى شوقياته العديد من القصائد التى عارضهم فيها ، وقد تفاوتت أصداؤهم فى فنه، ولكن أحدًا منهم لم يبلغ مبلغ البحترى، أو المتنبى، فمعارضة شوقى وتقليده للممتازين من أسلافه لم تكن تعنى التخلف ، وإنما كانت تعنى التفوق، فاستطاع بتفاعله مع الشعراء السابقين، وعلى رأسهم المتنبى والبحترى «أن يكون لنفسه موسيقى ساحرة تعتمد على صياغة عربية أصيلة، ومن هنا استحوذ على قلوب العرب جميعًا فى مشارق الأرض ومغاربها ؛ لأنه ضرب على أوتار قيثارتهم، فأحسن الصنيع إلى أبعد حد » (١) .

كما يرى المؤلف أن صلة شاعره بالمتنبى بخاصة، وبالإضافة إلى وفرة مدائحه بعامة، للملوك والأمراء، وما خلعه عليهم من مثالية خلقية، كانت وراء ذلك التيار الخلقى العام الذى جرى أولاً فى شعره الغنائى ، إنما يحتذى بها صنيع المتنبى شاعره الأثير، وفى دراسة المؤلف لمسرحيات شوقى نلاحظ اهتمامه برصد التيار الخلقى، ودوره فى رسم الشخصيات، وتصوير الأحداث ، وهو تيار تنص فيه الفضيلة وما يتصل بها من وفاء ومروءة وكرم، وكأنه يريد أن يقوى فى نفوس الجمهور العناصر التى ترغب فى عمل الخير ، ويحمد الدكتور شوقى هذه النزعة الأخلاقية التى تبدت في مسرحيات شاعره؛ لأنه أرضى بها جمهوره، وأخذ على عاتقه أن يقوى خلقه . ولكنه لا يسرف فى ذلك حتى لا تخرج المسرحية إلى شكل وعظ تمله النفس، وإنما يأتى فى ثنايا الحوار، ويرى أن شوقى لم يكن بدعًا فى منحاه الخلقى، فشكسبير نفسه وغيره من كبار المسرحيين وبخاصة الكلاسيكيون كانوا أخلاقيين يدعون فى ثنايا مسرحياتهم إلى الأخلاق الكريمة، ولذلك كان شوقى موفقًا جدّ التوفيق في جريان هذا التيار الخلقى بمسرحياته، وبثه على لسان شخوصه وأقوالهم ، وقد انتقل به من شعره الغنائى إلى شعره المسرحى، ففى مسرحية كليوباترة ، يتسع الجانب الخلقى إلى آماد بعيدة، ويبدو بوضوح فى أثناء تصويره لكليوباترة وأثناء ما يجرى على شفتيها من أقوال ، فقد

---

(١) شوقى شاعر *العصر الحديث* . ص ٨٤ .

اتُّهمت فى عفافهاوطهرها، وصوّر ذلك شوقى على ألسنة الشخوص من حولها، ولكنه دفعها دائمًا لتردّ هذا الظن الآثم، بل دفع بعض الشخوص لتستردّ ظنّها ، فإذا حابى الذى كان يكرهها يقول حين تنتحر :

الله يشهدُ أنى قد سدلْتُ على ... ما كان من نزعات الرأى نسيانا

وأننى اليومَ أبكيها وأندبها ... ولا أقيسُ بها فى الطُهْرِ إنسانا

فقد حاول شوقى أن يحيط الملكة المصرية بهالة من النبل والوقار والخلق الطيبة، ولا يتضح هذا التيار الخلقى فى تصويره لكليوباترة أو لغيرها من الشخصيات فى مثالية خلقية جيدة أو رديئة فحسب، بل يتضح أيضًا فى معان خلقية كثيرة تغمر المسرحية وتتخلل الحوار فيها من حين إلى حين ، كما يتضح هذا التيار فى مسرحية «عنترة» فالبطل عنترة مثل من أمثلة الخلق الرفيع عند البدوى سواء فى شجاعته ومروءته، أو فى كرمه وإيثاره لليتامى والمغلوبين، أو فى عفافه وجُملة فضائله، ويرى الدكتور شوقى أن هذه الصفات النبيلة فى المسرحية هى عمادها وحائطها وركنها الذى لا يميل، أما عبلة فمثال للوفاء والإيمان بالفضائل المعنوية الخفية لا الفضائل الجسدية الظاهرة، فالمسرحية فى تصميمها وفى نموها ونهوضها تعبير عن الأخلاق العربية الكريمة، وقد أجرى فيها شوقى غير قليل من ينابيع حكمته، وبخاصة في الفصلين الأخيرين ، وكما جرى هذا التيار قويًا في هاتين المسرحيتين، فقد اطرد تدفقه فى سائر أعماله المسرحية . ويرى المؤلف أن التيار الثقافى القديم فى شعر شوقى كان يقابله ويجرى معه موازيًا له تيار جديد، وقد حاول أن يستقصى عناصره، وأن يقف على أصدائه فى فنه، فوجد أنه قد تثقف بالثقافة الأوروبية، ودرس الحقوق ، واطلع على الاداب الفرنسية، واختلف إلى المسارح التمثيلية والغنائية فى باريس، وإلى «مقهى داركور» حيث كان يجلس الشاعر الرمزى فرلين ، ورأى تحت عينيه حركات التجديد بين الشعراء الفرنسيين ، وقرأ فى آثارهم .. وقد عبر شوقى فى مقدمته لشوقياته عن اضطرابه إزاء ما رأى من آداب القوم، ورغبته فى التجديد تعبيرًا واضحًا، حيث وعى أن وظيفة الشعر لا تقف عند حدود المدح ، فهناك ملْك الكون الفسيح، ونظم أثناء بعثته فى باريس أولى محاولاته لمسرحية «على بك أو فيما هى دولة المماليك» ، وترجم قصيدة

«لا مرتين» المسماة بالبحيرة شعراً، ونظم الحكايات على أسلوب «لا فونتين» الشهير، وربما كانت قصيدته «كبارالحوادث فى وادى النيل» هى أهم صدى لاطلاعه على الآداب الفرنسية ، وبخاصة بما قرأه لفكتور هوجو في ديوانه المسمى «أساطير القرون» . فالمؤلف يرى أن شوقى قد اقتنع بأن هناك جديداً ينبغى أن يتأثر به شعراء العربية، ولكنه لم يدرس هذا الجديد دراسة دقيقة، ولذلك يبدو فيما ذكره فى مقدمة شوقياته حائراً ، أكثر منه مجدداً صاحب منهج مرسوم، فلم يتعمق فى الأدب الفرنسى المعاصر له، ولا تغلغل في الثقافة الفرنسية والآداب الغربية القديمة والحديثة، وكأنّ حياته فى القصر لوته عن رسالته وغايته، وربما كان لحركة أستاذه البارودى نحو القديم أثر فى نفسيته، فلم يُعن عناية قوية بالجديد فى الأدب الفرنسى .

وفى إطار تحديد المؤلف للظروف والمؤثرات المهمة المختلفة، التى أثرت فى شوقى وصناعته، تحدث فى الفصل الذى أفرده لحياته عن نفيه إلى أسبانيا سنة ١٩١٤ ، إثر تغير الظروف السياسية فى مصر ، وكيف كانت سنوات النفى الخمس نقطة تحول خطيرة فى حياته، وعلامة فارقة فى توجهه الفنى، فالشعر المصرى الحديث كان بحاجة إلى أن يصهر الألم نفس شوقى، حتى تصبح نفساً غنية، وحتى تقترب من جمهور وطنها، وما تمور به نفسه من هموم وآلام ، فكان حزن شوقى حزناً مركباً، ولكنه الحزن الذى يصفّى النغم ، ويرهف المشاعر، ويهيئ شوقى للشعر الوجدانى، وللتعبير عن محن الحياة وآلام الناس فبالنفى تمت لشوقى نفسه الشاعرة، وتمّ له صوته، وأحسّ الحياة من طرفيها : اللذة والألم، والنعيم والحرمان ، وبعد عودته من منفاه أصبح ملكاً لشعبه بعد أن كان قبل النفى ملكاً لسيّده وأميره، وأصبح جزءاً لا يتجزأ لا من كل ما يجرى فى وطنه فحسب من مشاكل وقضايا ومعارك ، بل فى الوطن العربى، فانبرى للدفاع عن قضاياه، و للتعبير عن همومه، وهكذا أنضج النفي وطنيته وحسّه العروبى . ويرى الدكتور شوقى أن المنهج الاجتماعى فى دراسة الأدب يصل دراسة الأدب بالدراسات الاجتماعية؛ لأن الأدب فى حقيقته هو تعبير عن المجتمع وكل ما يجرى فيه من نظم وعقائد ومبادئ وأوضاع وأفكار، والأديب لا يسقط على مجتمعه من السماء، وإنما ينشأ فيه ويصدر عنه، وأن الالتزام فى الأدب العربى ليس جديداً ، فقد عرف أدبنا

القديم – فى عصر بنى أمية ، وعصر بنى العباس – صوراً أدق من الصور الحديثة [1] ، فكما بدأ شوقى يغنى وطنه ، وهو فى منفاه ، حيث يقول :

وطنى لو شُـــغِلْتُ بالخُلد عنه ... نازعتنى إليه فى الخُلد نَفسى

فقد كتب فور عودته قصيدته « بعد المنفى »، يعلن فيها فرحته بلقاء وطنه، وأنه سيعتنقه اعتناق العابدين، حيث يقول :

ويا وطنى لَقِيتُك بعدَ يأس ... كأنى قد لقيت بك الشبابا

وكلّ مسافرٍ سيؤوبُ يومًا ... إذا رُزِقَ السّلامةَ والإيابا

ولو أنى دُعيتُ لكنتَ دينى ... عليه أقابلُ الحتمَ المجابا

وفيها يتحدث عن مشكلة التموين وجشع التجار، ويطّرد بعد ذلك التزامه بمتابعة قضايا الشعب وآماله، فى مشروع «ملنر» سنة ١٩٢٠ ، ومشروع ٢٨ فبراير ١٩٢٢، وأخذ يغنى مع الشعب آماله فى الدستور والنظام البرلمانى ، وفى التعليم والجامعة، وفى الجيش .. ولا تكاد تمر حادثة به إلا ويستخلص منها حكمة وموعظة، ولا تكاد تنزل به حادثة إلا وقف بقربه يعزّيه ويمنّيه، ونذكر من تلك المواقف تناحر الأحزاب فى ظل الحرية التى نالها المصريون، وسفر سعد زغلول إلى إنجلترا للمفاوضة فى شئون السودان ، التى توشك بريطانيا على ابتلاعه، وإطلاق سراح بعض السجناء ممن اتهمتهم المحاكم العسكرية الإنجليزية بقتل السردار عام ١٩٢٤، وظل يغنى للمصريين أعياد جهادهم وأحداث سياستهم ، ولم يكتف بذلك بل وضع الأناشيد لينشدها النشئ، ناهيك عن قصائده التى تغنى فيها بتاريخ مصر العريق . وقد لاحظ المؤلف أن وطنية شوقى وحسه القومى اللذين انبجسا بعد عودته من منفاه ، لم يتحققا فى شعره الغنائى فحسب، بل كان لهما أثرهما البعيد فى مسرحه الشعرى أيضًا، إذ رأى ثلاث مآسٍ من مآسيه تسترضى العاطفة الوطنية فى المصريين، وهى مصرع كليوباترا، وقمبيز، وعلى بك الكبير. وثلاثًا أخرى تسترضى العواطف العربية والإسلامية، وهى : مجنون ليلى، وعنترة وأميرة الأندلس . أمّا الملهاة فتقوم على موضوع مصرى شعبى .

---

(١) راجع : البحث الأدبى . ص ٩٦ وما بعدها

ففى مسرحية كليوباترا – مثلاً – أراد شوقى – بدافع من مصريته – أن يبرر بعض مواقف الملكة المصرية. واضطر إلى تحريف فى بعض الحوادث حتى يصل إلى غايته، إذ عدّ فرار أسطولها من موقعة «إكتيوم» سياسة ومكرًا بأنطونيو وأكتافيوس جميعًا، كأنها تريد أن يتطاحنا ويفنيا حتى تصبح مصر سيدة البحر المتوسط ، ويرى المؤلف أن شوقى محقّ فى الإطار الوطنى الذى وضع فيه كليوباترا ملكة المصريين فى حقبة قديمة من حقب تاريخهم، ولا يعيبه ذلك، إنما يعيبه أن يتخلّى فى أثناء المسرحية عن هذا الإطار ، وهو ما لم يحدث، إنما الذى حدث استمرار هذا الإطار حتى النفس الأخير لكيوباترا ، وقد وسّع الإطار فلم يدعه خالصًا لها بل أدخل معها مصريين مثل حابى والكاهن أنوبيس. كما حفلت المسرحية بتعليقات للمصريين على الرومان فيها حقد وسخط شديدان، وفيها بِرٌّ بالوطن وحب، وفيها غضب على روما وكره، وفيها مقاومة عنيفة للعدوان، واعتزاز بأن مصر لن تغلب . ويمضى المؤلف متلمسًا لهذا التيار الوطنى فى مآسيه المصرية. ومتتبعًا لدوره فى تشكيل رؤية شوقى الإبداعية، وفى بنائه الفنى لتلك المسرحيات، وقد فعل مثل هذا مآسيه ذات الإطار العروبى الإسلامى . كما يرى المؤلف أن موضوعات مسرحياته بعامة، بالإضافة إلى كيفية معالجتها جاء متّسقًا مع الظروف السياسية التى كانت تمر بها مصر وسائر الأقطار العربية .

ولم يحلق شوقى بقيثارته فى أجواء وطنه وحده، بل تغنّى بها فى أجواء العالم العربى كل ، وغناؤه اليوم يختلف عن قبل الحرب الكبرى ، فالعروبة كانت تأتى على هامش تركياته أو مدئحه فى الرسول الكريم ، أما فى هذه الحقبة فإنه يتغنى بالنزعات الوطنية والقومية الطارئة على هذه الشعوب، فهو يتغنى بأمجادهم الماضية ، وبثوراتهم الحاضرة، وهو يحس إحساسًا قويًا بأن مصر والشام والعراق وغيرها من الأقطار العربية أسرة واحدة، وربما لم يظفر قطر من شوقى بما ظفرت به سوريا .

ويرى الدكتور شوقى ضيف أنه لو لم تتطور حياة مصر وحياة الشرق من حولها، وتظهر فكرة الوطنية والقومية، ويأخذ الشعب المصري والشعوب العربية فى البروز، بل فى *السيادة والحياة الديمقراطية، لولا هذا كله ما تحول الشعر العربى* – لا شعر شوقى فحسب – إلى هذه الوجهات الجديدة التى ندها عند شوقى .

كما استعان الدكتور شوقي بمنهج جمالي للوقوف على مكونات صناعة شاعره الفنية، فرأى أنه قد تخرج في مدرسة البارودي الشعرية، فلم ينحرف إلى بديعيات، ولا إلى مبالغات، بل اتخذ مذهب أستاذه في صب قوالبه، ونحت تراكيبه، وبناء قصائده وكأنها أهرامات مصر شموخًا وضخامة وصلابة ، أما آيته الكبرى في صناعته، فهي موسيقاه التي تعد لبّ إبداعه ، ولا تُعرف في عصرنا لسواه، إذ كان يعرف دائمًا كيف يستخرج من ألفاظ اللغة كل ممكناتها الموسيقية، وكانت موسيقاه مصدر حيرة لمعاصريه من شعراء الشرق العربي، جعلهم يحنون رءوسهم أمام فنه، ويهتفون له من أعماق قلوبهم إجلالاً وإكبارًا، بل لقد بايعوه بيعتهم الكبرى، وهي ضروب من الموسيقى تشبه السمفونيات الخالدة ، يستطيع النقد الحديث أن يحلّ طلاسمها الساحرة ، ولا يمكنه أن يفك ألغاز فتنتها، وحبذا لو شفا الدكتور شوقي هذا الطرح بنقد تطبيقي، حاول فيه تحليل موسيقى نص شعري ، ليقف القارئ معه على شئ من أسرار عبقرية شوقي الإيقاعية، التي بهرت معاصريه، فكانت سببًا في اتساع شهرته على النحو المعروف . وإلى جانب هذه الموسيقى هناك الخيال المتألق الذي يعرف كيف يلتقط الصور البعيدة، ولا يغض من صوره أنّ كثيرًا منها قد استمده مما اختزنته ذاكرته، ووعته حافظته من تراث أسلافه، فالفن لا يعرف الثورة النهائية على الماضي والانفصال الحاد ، والفن يعني الإضافة والابتكار والتجديد، ولا يعني الخروج المطلق على الرسوم . ويرى المؤلف أن العاطفة هي الركن الثالث في صناعته، لكنها لم تكن متقدة ولا فيّاضة، ويعلل ذلك بغيرية شوقي، وربما كانت عواطف شوقي هي العاطفة الوطنية، وعنها صدر في فرعونياته، أو قل في ملاحمه المصرية .

ويؤازر هذا المنهج الجمالي؛ منهج تاريخي وآخر اجتماعي ، يعتمد عليهما الدكتور شوقي في دراسته لصناعة شوقي ، ويفرد فصلا لذلك يتحدث فيه عن جملة من المؤثرات المختلفة التي أثّرت في صناعته، فوقف عند النقاد وتأثيرهم فيه، ولاحظ كيف بدأ حياته الفنية في عصر لا يعرف إلا نقدًا لغويًا جافًا، يعتمد على البلاغة التقليدية القديمة، وقد تزعم هذا المنحى النقدي المويلحي واليازجي، اللذان حملا عليه بعنف، وأعدّاه نفسيًا لأن ينساق في تقليد الشعر العربي الذي تقدمه وخاصة أمثلته الممتازة، وكان للتقليد عنده مظهران : الأول معارضاته، والآخر تمسكه بعمود الشعر العربي،

وخلف هؤلاء النقاد فى القرن العشرين جيل جديد تزوّد بالنقد الأوربى ، فتح نوافذه على الأدب الغربى، وثار ثورة محققة فى عالم الشعر والفن، وقد قاد هذه الثورة عبد الرحمن شكرى ، والعقاد ، والمازنى، وطه حسين، ورأى المؤلف أنهم قد اشتّطوا فى نقدهم لشوقى، وقلما اعتدل بعضهم، على أنّ هذا النقد فى جملته وتفاصيله كان خيراً وبركة على شاعرنا وعبقريته الخصبة، فقد أخذ يفيض بها على مناحٍ وجوانب مختلفة، فانصرف عن القصر والخديوى أو صرفته الظروف ، وعكف على الشعب ، والتزم بالتعبير عن حياته وآلامه ، ولم يلبث أن حقق الحلم الذى كان يراود الجيل الجديد من النقاد حين ابتكر شوقى الشعر التمثيلى ، فبزّ بذلك هؤلاء المجددين الذين كانوا ينكرون شاعريته ونبوغه، ومهما يكن فإن هذا النقد الجديد عند العقاد وطه حسين وأضرابهما كان له اثار كبار فى شعر شوقى، فقد كان يشحذ ذهنه، وكان من الذكاء والنبوغ والعبقرية بحيث استطاع أن يوازن فى فنّه موازنة دقيقة بين التقاليد الموروثة فى الصياغة والموسيقى، وغيرهما، وبين ما يراد للشعر العربى الحديث من تجديد ومسايرة للعصر والبيئة والظروف .

كما لاحظ المؤلف أنّ شوقى وغيره من الشعراء ، قد تأثروا فى أواخر القرن الماضى وفى أثناء القرن العشرين بالجمهور ، وقد أسهمت الصحافة بدور كبير في عناية الشعراء بالجمهور ، واتضح ذلك عند شوقى فى تركياته التى كانت تُنشر فى الصحف لتذاع على العرب والمسلمين إرضاءً لعواطفهم قبل الخلافة إبّان حرب أوربا الصليبية معها ، وهذه التركيات هى التى أعدّت شوقى ولفتته إلى التغنّى بالعاطفة الدينية فنظم مدائحه فى الرسول الكريم .

وقد اقترن بالمؤثر السابق فى صناعة شوقى مؤثر اخر هو المناسبات . وشوقى لم يترك – قبل النفى وبعده – مناسبة تتصل بأميره، أو بحياة الشعب المصرى إلا وتغنّى بها، وكأنما قد غدا صحفيًا خالصًا، فهو يؤدى للناس الأخبار والأحداث فى قصائد نابضة الحياة، وبذلك وصل بهذا النوع من شعر المناسبات إلى القمة التى لا قمة بعدها، حتى لم تعد فيه بقية لشاعر ، ولعل إحساسه بذلك هو الذى دفعه إلى البحث عن العالم جديد، وكان هذا العالم هو عالم الشعر التمثيلى .

وكما تأثر الشعر العربي عبر رحلته الطويلة بالغناء ، وتركت هذه الصلة بصماتها واضحة على فن الشعر الغنائي ، فقد ترك الغناء أثرًا عميقًا في صناعة شوقي . فالمؤلف يرى أنّ شوقي قد خلق موسيقيًا، ولو لم يتجه إلى الشعر لكان مغنيًا أو موسيقارًا من الطراز الأول ، وعزّز هذا الاستعداد عند شوقي صلته الوثيقة بالمغني المشهور محمد عبد الوهاب (١) ، وقد أثّر هذا التآلف في شعر شوقي لا من حيث تأليفه للأغاني ، بل أيضًا من حيث تأليفه للألفاظ وانتخابها، بحيث تعمل ما يريد محمد عبد الوهاب من تموجات اهتزازات صوتية، كما دفعته هذه الصلة إلى أن ينزل من سماء ألفاظه الجزلة إلى ألفاظ سهلة تدور على كل لسان

كما استعان الدكتور شوقي بالمنهج النفسي في تفسيره لجانب من فن شاعره . ففي دراسته لشعره الوطني ردّ على من أخذوا عليه أنه لم يناضل في سبيل نصرة مذهب سياسي معين (٢) . بأنه لم يكن يحب هذا اللون من التشاحن الحزبي ، ولم يكن يحب أن يعيش هذه المعيشة الملونة بألوان الطيف، كما كان غنيًا عن أن يرتزق بشعره، فاعتزل الأخزاب ، وعاش مستقلاً، حتى لا يصدق أحداً بكلمة أو همسة؛ لأن أحمد شوقي كان من أصحاب الأمزجة الهادئة، التي لا تستطيع أن تشاهد لونًا من ألوان المصارعة بين الناس، ولم يعرف شوقي يومًا المصارعة، وقد جرت حياته في هدوء وسلام ، ولم تتخللها عاصفة سوى عاصفة النفي، ومثله في هدوء ومزاجه لا تقاس وطنيته بصراعه واصطدامه بالناس، وإنما تقاس بفنه وشعره الذي سخّره لمصر والمصريين .

كما لجأ الدكتور شوقي ضيف إلى تحليل بعض المسودات الخاصة بالشاعر، للوقوف على أسرار صناعته، وانتهى إلى أنّ الشعر المسرحي – حين يبدعه – لا يأخذ شكل الحوار المعروف ، وإنما كان يصنعها قطعًا ، فهو يفكر في شعره المسرحي وينظمه بنفس الصورة المعروفة في الشعر الغنائي ، وبهذا التحليل لبعض مسودات شعر شوقي التمثيلي انتهى المؤلف إلى سرّ شيوع الطوابع الغنائية في مسرحه سواء

---

(١) انظر : شوقي شاعر العصر الحديث ص ١٦٧ وما بعدها .

(٢) انظر . المرجع نفسه ص ١٤٨ .

فى كثرة القصائد والأناشيد التى تتخللها، أم فى نظام الشعر وأوزانه وقوافيه، أم فى لغتها وموادها التصويرية - لما لاحظ أنّ مسرحياته ضعيفة من حيث التمثيل؛ لأن شوقى نظمها بروح الشاعر الغنائى، إذ كان يزاوج فيها بين الغناء والتمثيل، فهو يكتب مناظر الفصل فى شكل قطع غنائية بدون ملاحظة المتحاورين [١] .

وهكذا نلاحظ أنّ أستاذنا الدكتور شوقى ضيف يأخذ بمجموعة من المناهج فى دراسته «لشوقى شاعر العصر الحديث»، ولم يقتصر على منهج بعينه، فيعتمد حيناً على المنهج الطبيعى، وحيناً آخر يلجأ إلى المنهج التاريخى والمنهج الاجتماعى، ونجده يعوِّل على المنهج الجمالى ، ويستخدم المنهج النفسى فى حدود ضيقة ، كما يلجأ إلى الوثائق والقيام بتحليل بعض المسودات أيضا . وتمثل هذه المناهج فى مجموعها المنهج التكاملى الذى يراه أستاذنا شوقى ضيف الأولى والأدنى إلى القصد فى دراسة تاريخ الأدب وأعلامه . كما التزمه فى دراسته لشوقى ، لم يخرج عنه فى سائر دراساته لتاريخ الأدب العربى وأعلامه .

د . أحمد موسى الخطيب

مدرس الأدب الحديث

كلية التربية - جامعة الملك فيصل

(١) انظر : المرجع نفسه . ص ٦٧ ، ص ١٧٥ .

٢١ - النثر العباسى فى دراسات شوقى ضيف

د. سعيد منصور

لم ينل النثر العربى من عناية مؤرخى الأدب العربى فى دراساتهم للعصور الأدبية المختلفة ، مثل ما ناله فى تاريخ الادب العربى للأستاذ الدكتور شوقى ضيف على كثرة من أرخوا للأدب العربى منذ بداية هذا القرن وكثرة ما كتب من دراسات وبحوث عالجت هذا الحشد الضخم من موضوعات الأدبى العربى وأعلامه واتجاهاته وفنونه وتود هذه الكلمة أن تنحصر فى دراسات شوقى ضيف للنثر الفنى فى « العصر العباسى » ، الذى تناوله جزءان من سلسلة تاريخ الادب العربى التى بلغت حتى الآن ستة أجزاء ، كما تناوله أيضاً كتاب « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » ، ولقد سارت هذه الدراسات ، وستسير بإذن الله ، بكل ما اتصفت به بحوث أستاذنا الجليل من دأب واستيعاب عبر نهج تاريخى تحليلى ، يرصد حركة التطور ويتابعها ، ويقف عند مظهر ازدهار الفن فيها وينفذ إلى ما وراء ذلك من أسباب ترجع إلى تأثير الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والعقلية، فى كل فترة من فترات هذا التطور .. ثم هى بعد ذلك تقف عند الفنون والموضوعات ترد ذلك كله إلى اعلام الكتاب من أصحاب كل فن وموضوع لتلخص من ذلك إلى النصوص الأدبية النثرية ، تستخرجه من مظانه الأولى ومصادرها الأصلية لتحلل النص وتستقرئه وترجعه إلى الأصل أو المذهب الفنى الذى صدر عنه .

كان لابد إذن - وهذه هى صورة المنهج فى أطارها - العام - إن تكون هذه الوقفة عن الحياة فى العصر العباسى ، بمرحلتيه الأولى والثانية فى أشكالهما الكبرى صورة الحياة العباسية فى شكلها السياسى .. وما يتصل به من أحداث كبرى .. وفى

شكلها الاجتماعي وما يتصل به من مشكلات اقتصادية ثم في شكلها العقلي وما يتصل به من شئون دينية وثقافية ، ثم ما يتبع ذلك كله من دفع تيار الحضارة الاسلامية في جداولها الكبرى التي يستمد منها الشعراء كما يستمد منها الأدباء وفكر الكتاب واتجاهات النثر العربي كل ما يدبج من رسائل فنية ، وما يؤلف من مؤلفات أدبية وما يجرى على ألسنة الخطباء من خطابة لا تغفلها النظرة الشاملة أجرى الحياة الأدبية في الجداول التي تجرى فيها تيارات النثر العربي .

فإذا ما رجعنا إلى الحياة في العصر العباسي الأول ، وقد انتقلت عاصمة الدولة شرقا إلى العراق — تتمخض عن نظم سياسية وإداريه جديدة تؤثر من غير شك في اتجاه حركة التأليف بل توجه أيضاً حركة الترجمة بكل ما تشعبت إليه من شعب ، وما سلكت إليه من دروب وما بعثته علوم الأوائل من مؤثرات ثقافية وفكرية ومذهبية . يقول شوقي ضيف :

« بذاك عمت الروح الفارسية في الحياة العباسية ، حتي الخليفة نفسه لم يعد كأسلافه الأمويين يمثل شيخاً كبيراً من شيوخ القبائل العربية بل أصبح خلفا لملوك الفرس الساسانيين فله وزراؤه وحجابه وبلاطه وله نفس التقاليد الفارسية والذى لا ريب فيه أن هذه الثقافات الدخيلة التى نقلت إلى العربية وسعت طاقتها ؛ بما اكتسبت من المعانى العقلية والفلسفية وقد اصبح النثر العربى نثر ثقافة متشعبة تمدها روافد كبيرة من إيران والهند واليونان وليس ذلك فحسب فقد اخذت تدخل في هذا الثنر طرائق النظر الأجنبية وأساليب الأجانب في تفكيرهم والذى لا ريب فيه أيضاً أنه قام على هذا العمل نخبة من رجال الفكر الذين يحسنون اللغتين المنقول عنها والمنقول إليها فإذا هم يستخدمون اسلوبا مولدا جديدا يحتفظون فيه للعربية بصورتها النحوية والتركيبية .. وكانوا كثيرا ما يضيفون صيغًا جديدة ولكنهم لم يبتعدوا بها عن تراكيب العربية ومن يقرأ كتب ابن المقفع هو أوائل المترجمين ، يرى كيف استطاع أن يضفى على أساليب الطوابع العربية تامة كاملة وبذلك اتسعت لغة الصحراء وأصبحت لغة ثقافية ذات اسلوب مرن يستوعب كل مالدى الاجانب من كنوز المعرفة ومذاهب الفلسفة مما كان له اثره في الأدب نثره وشعره .. وعلى هذا النحو اصبح النثر العربى في العصر العباسى متعدد الفروع فهناك النثر العلمي والنثر الفلسفى والنثر التاريخى والنثر الأدبى

الخالص وكان بعض صوره امتداداً للقديم وكان فى بعضها الآخر مبتكراً لا عهد للعرب به على شاكلة ما هو معروف فى كتابات سهل ابن هارون والجاحظ . وظلت الخطابة مزدهرة فى أوائل هذا العصر وإن كان قد اسرع الذبول إلى الخطابة الحفلية إذلم تعد القبائل تقدم بوفودها على الخلفاء كما كان الشأن فى عصر بنى أمية أما الخطابة السياسية فظلت فترة نشيطه بحكم دعوة بنى العباس لأنفسهم حتى إذا استقام لهم الأمر أصابها ما أصاب الخطابة الحفلية من الذبول » [1] .

كانت هذه الصورة العامة للتطور الذى شهده النثر العربى فى العصر العباسى الأول تبعه تطور بعيد فى النثر العربى شهده بعد ذلك العصر العباسى الثانى حيث اتسعت كما يقول شوقى ضيف « الطاقات المستكنة » فى اللغة العربية ليحمل النثر العربى فى أوانيه الثقافات الأجنبية المختلفة « حملا لا يزال يروع الباحثين » (العصر العباسى الثانى ص ٥١٣) وقد تقدمت بيئة المتكلمين فى هذا العصر أيضاً من أجل « وضع قواعد البلاغة العربية .. وأخذوا يحاولون مبكرين التعرف على مقومات البيان العربى ، ودار بينهم كلام كثير عن البلاغة وقواعدها البيانية » (ص ٥١٨) ، مثل ما فعل الجاحظ فى البيان والتبيين ، كما قدمت بيئة اللغويين كتبا مختلفة منها ما يعتمد على رواية الأشعار الغربية ، وبعض أخبار عن الاعراب مثل مجالس ثعلب .. وكتاب الكامل للمبرد .. وأدب الكاتب لا بن قتيبة وعلى ضوء هذين الذوقين اللذين مثلتهما بيئة المتكلمين وبيئة اللغويين صنف ابراهيم بن المدبر رسالته العذراء يقول شوقى ضيف : « هى أول رسالة تناولت بدقة صناعة النثر .. وأدب الكتابة .. فيطلب ممن يريد حذقها طول الاختلاف إلى العلماء ومدارسة كتب الحكماء ورسائل المتقدمين والمتأخرين ، والوقف على الاشعار ، والاخبار ، والسير ، والاسماء ، والخطب ومحاورات العرب ، ومعانى العجم وحدود المنطق وأمثال الفرس ورسائلهم وعهودهم وسيرهم » (العصر العباسى الثانى ص ٥١٢)

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى . ص ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٦ .

وفى متابعة هذا التحليل الدقيق لتلك البيئات التى عنيت بحركة النثر العربى فى تيار الحياة الأدبية تأتى « بيئة المترجمين والمتفلسفة ومن كان ينهج نهجهم فى الدعوة لمعايير البلاغة العربية ولعل خير كتاب قدمته هذه البيئة فى مجال النثر والكتابة .. هو الكتاب الذى نشر باسم نقد النثر منسوبا إلى قدامة بن جعفر .. » (العصر العباسى الثانى ص ٥٢٣) ويتوقف شوقى ضيف لتقييم أثر هذه البيئات المختلفة ، بما أضافته إلى دفعة التطور فيرى أن « بيئة المتكلمين هى التى سيطرت بما وضعته من معايير على أنواق الكتاب والأدباء فى العصر وظل ذلك حقبًا متطاولة وهى بيئة كانت تزاوج بين المعايير العربية والمعايير الاجنبية بحيث ظلت أوضاع العربية قائمة ، كما ظلت مقاومتها حية ، مقاومات تعتمد على التراث القديم ، وتطور ما يلائم العصر والثقافات الحديثة ، تطورا لا يجنى على العربية بل تجنى منه ثمارا رائعة غذاء للعقول وشفاء للقلوب والأرواح . على هذا النحو كان نوق بيئة المتكلمين هو النوق الأدبى العام وكان لذلك أثره فى أن ازدهار النثر العربي وأخذت موضوعاته تتنوع تنوعًا واسعًا وقاد هذا الأزدهار الجاحظ المتكلم المشهور (ص ٥٢٤) .

وبهذا التحليل ترد اتجاهات النثر العربى فى عصر أزهى عصوره إلى احضانها التى خرجت منها .. وبيئاتها التى فيها .. وأصولها التى أخذت عنها .. بل إنها فى الحقيقة هى العلل والأسباب التى أدت إليها . وتمضى هذه النظرة الشاملة للتتابع مسيرة النثر العربى ، التى اندفع بها فى طريق التقدم لتعد فى العصر العباسى فنونه الأدبية فى صورتيها القولية والكتابية إن هذه الصور لتتعدد أشكالها ليوضع هذا كله فى ميزان النقد ، ويرد إلى مذاهب الفن المختلفة لتتدرج بينها اساليب النثر العربى فى مراحل الصنعة وتكتسب كل مرحلة مدا أحاط بها من ظروف العصر وأوضاعه الاجتماعية والثقافية والحضارية أيضا .. وكأن حركة التطور فى النثر العربى كانت تواكب - فى رؤية شوقى ضيف - حركة الحياة فى جميع مظاهرها ومن هنا كانت الوقفة التحليلية التى رأينها تصنف الفن ومذاهبه فى النثر العربى يقول شوقى ضيف : « وعلى سنن من طبائع الحية أخذ النثر يتطور تطورا واسعا ، إذا حمل خلاصة هذه المدينة وملئت أوانيه بشرابها الجديد الذى اختلفت ألوانه باختلاف ينابيعها الكثيرة » .

(العصر العباسى الأول ص ٤٤١)

ونقف الآن عند تطور الفنون النثرية القولية ، كما بدت عند شوقى ضيف فى العصر العباسى الأول ، فنراها تشمل فن الخطابة والوعظ والقصص أما الخطابة فبينما تنشط الخطابة السياسية فى مطالع هذا العصر لا تخاذ العباسيين لها أداة فى بيان حقهم فى الحكم .. (راجع : العصر العباسى الأول ص ٤٤٨) .. إذا بالخطابة الحفلية التى كنا نعهدها من قبل قوية فى عصر بنى أمية تضعف الأن « لسبب طبيعى وهو أن وفود العرب لم تعد تفد على قصور الخلفاء ، وبالتالى لم يعد خطباؤها يفدون عليهم ، فقد أسدلت الحجب بين الخليفة والرعية ، ولم يعد يلقى وفودها ولا خطباءها المفوهين واقتصرت الخطابة الحفلية حينئذ على بعض مناسبات .. (العصر العباسى الأول ص ٤٥٠) أما الخطابة الدينية فقد ظل لها ازدهارها .. « وعلى النحو ما كان الخلفاء والولاة يشاركون فيها لعصر بنى أمية ، كانوا يشاركون فيها أيضا لهذا العهد » (ص٤٥١) .

ويتابع شوقى ضيف استقراء نصوص الخطابة فى العصر العباسى الثانى ، فيرى الخطابة السياسية تضعف ، وتضعف معها الخطابة الحفلية ، أما الخطابة الدينية فهى « إن كانت قد ضعفت على ألسنة الخلفاء فإنها نشطت نشاطًا عظيمًا فى المساجد » (العصر العباسى الثانى ص ٥٢٧) .

ومن الفنون القولية فن الوعظ الذى يتصل بالخطابة الدينية التى مرت بنا ، والذى نهض به فريق كبير من الوعاظ ، كانوا «يستمدون دائما من الذكر الحكيم ، وأحاديث الرسول الكريم «صلى الله عليه وسلم» ، أقوال الصحابة ، ومن سبقوهم إلى الوعظ فى العصر الأموى من مثل الحسن البصرى .. وكثير من الوعاظ كانوا يمزجون وعظهم بالقصص الدينى وتفسير بعض آى القرآن ، وهو مزج قديم منذ الصدر الأول للإسلام» (العصر العباسى الأول ص ٤٥٤) ، وإذا كان القصاص والوعاظ ، فى العصر العباسى الأول، «وقد ارتقوا بصناعة النثر فى المعانى التى كانوا يرددونها رقيا بعيدا» (العصر العباسى الأول ص ٤٥٦) ، ففى العصر العباسى الثانى أخذت تنشأ «طبقة جديدة من الوعاظ ، كانوا يسمون بالمذكرين ويسمى مجلسهم باسم مجلس الذكر ، أى ذكر الله وتسبيحه ، وكانوا من الصوفية» (العصر العاباسى الثانى ص ٥٢٨) .. ليس هذا فحسب ، بل «تكونت حول هؤلاء الوعاظ من المتصوفة سريعاً حكايات كثيرة تصور

جهادهم العنيف فى قمع شهوات النفس ولذاتها ، وكيف كان الصوفى يفرض على نفسه عناءً شاقا مضنيًا لا يطيقه إلا أولو العزم» .. «هذه الحكايات الصوفية أخذت تكون ضربًا من ضروب الآداب الشعبية العربية» (العباسى الثانى ص ٥٢٩) . إذ كان الناس يتداولونها رجالا ونساء وشيبًا وشبابًا ، وكأن التصوف كان عاملاً قوياً فى ظهور تلك الآداب ، وطبعها بطوابع الشعب ولغته وألفاظه» (العصر العباسى الثانى ص ٥٣٠) .

ومن فنون النثر القولية أيضًا المناظرات .. التى «قلما عنى مؤرخو الأدب العباسى بالحديث عنها» .. مع أنها كانت من أهم الفنون النثرية ، وكانت تشغل الناس على اختلاف طبقاتهم لسبب بسيط وهو أنها كثيرًا ما كانت تنعقد فى المساجد .. بين المتكلمين والفقهاء وأصحاب الملل والنحل لهذا العصر» . (العصر العباسى الأول ص ٤٥٧) .

أما المناظرات الكلامية التى حمل لواءها المعتزلة وغير المعتزله ، فقد نهضت بالنثر العباسى نهضة رائعة ، كما يرى شوقى ضيف (الفن فى النثر العربى ص ١٢٧) يقول : «واقرأ فى كتاب الحيوان للجاحظ فلن تجد موضوعًا إلا خاضوا فيه ، واستخرجوا منه معاينه ، حتى لتظن أنه لم يكن هناك أديب بارع إلا وتستهويه تلك الجماعة ، وتجذبه إلى ميادينها ، ليبحث فى الأسباب الكونية ومسبباتها ، والعلل ومعلولاتها .. وقد دعتهم رغبتهم فى إحكام مناظراتهم ، ومناقشاتهم ، أن يبحثوا بحثًا واسعًا فى بلاغة الكلام ، وكيف يبلغ المتكلم بكلامه الكفاية وغاية الحاجة ، بل كيف يروع السامعين ببيانه وحلاوة ألفاظه ، وحسن مخارج حروفه ، حتى تسكن القلوب إليه ، وتثلج الصدور» . (الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٣٠ - ١٣١) ، ويقول : «وقد ملأ الجاحظ نحو مجلد من كتابه الحيوان بمناظرة ، انعقدت بين معبد والنظام فى الكلب والديك أيهما أفضل ، ظل يورد أدلة كل منهما فى صورة رائعة ، وهى صورة تدل دلالة بينة على مدى ما أصاب هؤلاء المتكلمون من تنوع لأفكارهم ، وتصحيح لمقدماتهم وتصريف لاساليبهم وألفاظهم ، إذا كانت القدرة البيانية بلغت باثنين منهم هذا المبلغ فى مساوئ الديك ومحاسنه ومنافع الكلب ومضاره ، فما بالك بما كان يجرى بينهم فى مسائل الدين واستقصاء كل مسألة وجمع معانيها وترتيب أفكارها وألفاظها ؟» (الفن ومذاهبه فى النثر العربى

ص ١٢٨ – ١٢٩) . ويرى شوقى ضيف أن هذه القدرة البارعة فى الجدل ، وفى تأليف الحجج والأدلة ، إنما «تدل على ما أصاب العقل العربى حينئذ من رقى ، جعله يستقصى ما يتحدث عنه أحسن استقصاء ، ويحرص فيه المتكلم على التدقيق والتعمق كأشد ما يكون التعمق والتدقيق ، وكان يصحب ذلك بكثير من الظروف ومن السفسطة التى تدل على ترف العقل وارتفاعه عن الآراء الشائعة ، ويصور ذلك من بعض الوجوه ما حكاه الجاحظ فى فاتحة كتابه البخلاء ، عن مذهب يسمى باسم الجهجاه «فى تحسين الكذب فى مواضع ، وفى تقبيح الصدق فى مواضع ، وفى إلحاق الكذب بمترتبة الصدق ، وفى حط الصدق إلى موضوع الكذب ..» (العصر العباسى الأول ص ٤٦٢) ، ويرى شوقى ضيف أن هذا التقبيح للأشياء المستحسنة والتحسين للأشياء المستقبحة إذا كان قد «عرف فى الأدب الفهلوى القديم ، أن العباسيين تأثروا فى هذا الاتجاه بما كان منه فى هذا الأدب» . «يقول : «ونحن لا ننفى ذلك ، وإنما نلاحظ أنه حتى إن صح فإن العباسيين توسعوا فى هذا الاتجاه بتأثير مناظرات المتكلمين ، وما داخلها من سفسطة أحيانًا ، بحيث أصبح هذا التحسين والتقبيح نمطًا من أنماط التفكير العباسى وبحيث عم فى كل شئ مما هيأ فيما بعد لظهور كتب المحاسن والمساوئ» (العصر العباسى الأول ص ٤٦٣) .

أما إذا انتقلنا ما بعد هذا العصر لنتابع دراسة شوقى ضيف لتطور المناظرات من بين فنون النثر القولية ، فى العصر العباسى الثانى .. فسنرى أن المعتزلة «لم يتراجعوا عن الوظيفة التى نذبوا لها أنفسهم إزاء أصحاب النحل والملل .. وظل الجدلُ عنيفًا بينهم وبين غيرهم المتكلمين (العصر العباسى الثانى ص ٥٣٥) . كما كثرت المناظرات بن أصحاب المذاهب الفقهية . «وفى طبقات الشافعية للسبكى أطراف من هذه المناظرات .. وبالمثل كان اللغويون والنحاة يتناظرون ، وشائعة معروفة مناظرات المبرد مع ثعلب» (ص ٥٢٦) .

ويقول شوقى ضيف : «وحتى الكتب المؤلفة فى هذا العصر نجد عليها مسحة المناظرة والجدل واضحة ، حتى على عنواناتها ، إذ كثيراً ما تعنون كلمة الرد أو كلمة النقض ، فالكتاب يؤلف رادًا أو نقضًا لكتاب آخر ، وكان المناظرات لم تقف عند المجالس والمحاضرات فى المسجد ، بل امتدت إلى الكتب والمصنفات ، ويوضح ذلك

الجاحظ في بعض كتبه ورسائله .. وإنما كانت المناظرات والمحاورات لغة العصر الفكرية ، فدائمًا مناظرات ومجادلات فى كل مكان وفى كل موضوع علمى أو فلسفى أو أدبى» (العصر العباسى الثانى ص ٥٩٢) .

ويمضى التطور التاريخى لفن المناظرات بعد ذلك حتى نصل به - مع شوقى ضيف - إلى كتب المحاسن والأضداد - كما ذكرنا من قبل - من ذلك كتاب المحاسن والأضداد المنسوب خطأ إلى الجاحظ ، يقول شوقى ضيف : «ومما يشهد أن الكتاب ليس للجاحظ وإنما هو لمؤلف تال لعصره أن نجد فيه نقولا عن عبد الله بن المعتز ، وكان فى الثامنة من عمره حين توفى الجاحظ . الكتاب مجموعة كبيرة من المناظرات فى الأخلاق والشمائل فكل خلق أو كل شئ تعرض محاسنه ثم تُعرضُ معايبه ، وتصور المعايب والمحاسن فى أخبار وأقاصيص وحكايات ، تلتقى فيها الثقافات المعروفة حينئذ وما كان يتسرب منها إلى كتب السمر ، وفى مقدمتها الثقافة الإسلامية» . (ص ٥٤١) ويقول شوقى ضيف : «ويلتقى بهذا الكتاب فى موضوعاته وأكثر مادته كتاب المحاسن والمساوئ لإبراهيم بن محمد البيهقى . وطبيعى أن تكون مصادر هذا الكتاب هى نفسها مصادر الكتاب الأول المنحول للجاحظ ؛ لأنه ليس أكثر من نسخة مجددة له» (ص ٥٤٦ - ٥٤٧) .

وإذا كان ما رأيناه فيما سبق يتصل جميعه بفنون النثر القولية .. فإن الفنون النثرية الكتابية ، قد انفتحت أمامها أبواب التقدم والرقى والأصالة فى العصر العباسى فى صورة لم يشهدها تاريخ النثر العربى هذا العصر ، وربما كان ذلك أيضًا بعده حتى مطلع العصر الحديث ، تلك هى الصورة التى يرسمها منهج شوقى ضيف الذى عرفنا خطواته السابقة ، ونعرف الآن كيف تمضى بنا قدمًا لتقف بنا بعد ذلك وقفة خاصة ، عند فن الكتابة التى نشطت نشاطًا واسعًا فى العصر ، فقد توفر عليها - كما يقول شوقى ضيف - مئات من أصحاب الأقلام يحدوهم فى ذلك ما كانت تدره عليهم من أرزاق واسعة ، وكان من يظهر منهم مهارة فى دواوين الخلافة سرعان ما يرقى إلى رياسة الديوان الذى يعمل فيه ، وقد تقبل عليه الدنيا فيصبح رئيسًا لمجموعة من الدواوين ، وقد يصبح وزيرًا للخليفة يسوس الدولة ، ويدبر أمورها وشئونها، فإن لم يصبح وزيرًا أصبح واليًا لإقليم من الأقاليم .. وعلى هذا النحو كانت الكتابة فى هذا

العصر الجسر الذى يصل الشخص إلى أرفع المناصب وكان من يتقنها من الوزراء والقواد والولاة يلقى الإكبار والإعجاب فى كل مكان» . (العصر العباسى ص ٤٦٥) .. يقول شوقى ضيف : «ومن ينظر نظرة عامة فى موضوعات الرسائل الديوانية لهذا العصر يلاحظ أنه كانت تتناول تصريف أعمال الدولة ، وما يتصل بها من تولية الولاة ، وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهود ، ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد ، والأمان ، وأخبار الولايات وأحوالها فى المطر والخصب ، والجدب ووصاياهم ، ووصايا الوزراء والحكام فى تدبير السياسة والحكم » (العصر العباسى الأول ص ٤٦٨) .

ومع العصر العباسى الثانى كانت الدواوين فى سامراء وبغداد أشبه بمدرسة فنية كبيرة يفد عليها الشباب ويختبرون اختباراً دقيقًا .. ولا ريب أن ذلك جعل التنافس على النهوض بالكتابة فيها يبلغ الذروة ، وهو تنافس دفع إلى التثقف الواسع بكل ألوان الثقافات ، وفى مقدمتها الثقافية اللغوية» . (العصر العباسى الثانى ص ٥٥٠ – ٥٥١) .. «وقد أخذ كتاب الرسائل الديوانية منذ أواسط القرن الثالث الهجرى يصطنعون السجع فى جوانب من رسائلهم .. وحقا أخذ السجع يدخل فى الرسائل الشخصية ، منذ القرن الثانى كما صور ذلك كتاب العصر العباسى الأول على نحو ما يلقانا فى رسالة ابن سيابة المشهورة ، ولكن الرسائل الديوانية ، ظلت تكتب بأسلوب مرسل ، يشيع فيه أحياناً الأزدواج ، أما السجع فيندر أن نلتقى به فى تلك الرسائل وكأن الأنواق اخذت تستعد لشنوعه وانتشاره فى الكتابه الديوانية لهذا العصر » (العصر العباسى الثانى ص ٥٥٥) لكن السجع لم يلبث أن «أصبح ظاهرة عامة فى الرسائل الديوانية» (ص ٥٦٠) ... حتى أصبح «لغة جميع الرسائل منذ أوائل القرن الرابع للهجرة ، بل مع أواخر القرن الثالث ، فليس هناك كاتب إلا ويسجع ، وإن فاته السجع فى مكان من رسالته عاد إليه فى الأمكنة الأخرى» (ص ٥٦١) . بل إن «السجع أصبح منذ خلافة منذ المقتدر اللغة العامة للدواوين فالرسائل تمتلئ بزخارفه ولآلئه ، إذ غدا المثل الأعلى للجمال الفنى فى الكتابة الديوانية ، فلابد فيها من قوافيه وفواصله ، ولابد من تساوق أنغامه وألحانه فى الكلام » (ص ٥٦٢) .

ويقف الدكتور شوقى ضيف عند فنون النثر الكتابى الأخرى فى العصر العباسى الأول مثل فن التوقيعات ، وهى كما يقول : « عبارات موجزة بليغة تعود ملوك الفرس ، ووزراؤهم ، أن يوقعوا بها على ما يقدم إليهم من تظلمات الأفراد فى الرعية وشكاواهم ،

وحاكاهم خلفاء بني العباس ، ووزراؤهم في هذا الصنيع .. ودارت في الكتب الأدبية توقيعات كثيرة أثرت لكل خليفة عباسي كل وزير خطير .. ولعل وزيراً لم يبرع في التوقيعات براعة جعفر بن يحيى البرمكي .. قال ابن خلدون : « كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدى الرشيد ويرمي بالقصة إلى صاحبها ، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها ، حتى إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار » (العصر العباسي الأول ص ٤٨٩ - ٤٩٠) .

وننتقل بعد هذا مع الدكتور شوقي ضيف إلى الرسائل الإخوانية والأدبية ، فقد نمت هذه الرسائل في العصر العباسي الأول نمواً واسعًا « تصور - كما يقول - عواطف الأفراد ومشاعرهم ، من رغبة ورهبة ، ومن مديح وهجاء ، ومن عتاب واعتذار واستعطاف ، ومن تهنئة واستمناح ، ورثاء أو تعزية ، وكانت هذه العواطف تؤدى في العصر الأموى بالشعر ، وكان من النادر أن تؤدى بالنثر ، أما في هذا العصر فقد زاحم فيها النثر الشعر بمنكب ضخم ، وأتاح له ذلك أمران : أولاً ظهور طبقة ممتازة من الكتاب الذين يجيدون فيه إجادة رائعة ، وخاصة من كان منهم يكتب في الدواوين ، إذ كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة واسعة ، وكانوا يعنون بتحبير كلامهم ، وتجويده وحشد كل ما يمكن فيه من عناية فنية .. والأمر الثاني مرونة النثر ويسر تعابيره ، وقدرته على تصوير المعاني بجميع تفريعها قدرة ، لا تتاح للشعر لارتباطه بقواعد موسيقية معقدة من وزن وقافية . وقد طوع هؤلاء الكتاب الديوانيون أو السياسيون أساليبه ، ومرنوها على أن تحمل كثيراً من المعاني الجديدة غير المألوفة ، وبذلك كله ثبت النثر للشعر في التعبير عن العواطف التي طالما عبر عنها ، بل لقد ظهر في ذلك طواعية لعلها لم تكن تتاح حتى لكبار الشعراء » (العصر العباسي الأول ص ٤٩١) .

ويقول شوقي ضيف : « ومما يدل دلالة واضحة على أنه رقي في هذا العصر رقيا واسعًا ، حتى في المجال العاطفي الخالص مرنت اللغة على أدائه شعراً ، وهو رقي تتزاوج فيه المادة العقلية بما استنبط الكتاب من دقائق المعاني ، واللذة الشعورية بما استنبطوا من دقائق الأحاسيس والصور ، وما بثوا في ألفاظهم من حسن الاختيار للصيغ ، من جمال التقابل بين العبارات والجمل ، حتى ليحاول بعض الكتاب أن يسجع في كلامه ، حتى يصوغه صياغة موسيقية تامة » (ص ٤٩٨) . « وعلى هذا النحو

لم يترك الكتاب فنا من فنون الشعر إلا كتبوا فيه . وعبروا عنه بكتاباتهم موجزين تارة ومطنبين تارة أخرى ، محاولين بكل ما استطاعوا أن يظهروا القارئ على براعتهم وتفننهم في الأداء » . (ص ٥٠٠) ، بل لقد « دفعهم تفننهم في بعضها أن يتحولوا بها إلى ما يشبه الرسائل الأدبية الخالصة ، وهى التى تتناول خصال النفس الإنسانية ، وتصور أهواءها وأخلاقها ، وتوضح لها طريقها إلى الخير ، حتى لا تسقط فى مهاوى الشر .. » (العصر العباسى الأول ص ٥٠٢) .

وفى العصر العباسى الثانى تستمر منافسة النثر للشعر فى مجالاته الخاصة ، وهى مجالات الوجدان .. « حتى لنرى قومًا إذا سئلوا عن الكلام أو الوصف هل يكون شعرًا أو نثرًا فضلوا أن يكون نثرًا » (العصر العباسى الثانى ص ٥٦٢) .. ويؤرخ شوقى ضيف لتطور النثر الفنى فى هذا المجال متتبعًا موضوعاته ومراحله ، ويقول : « كان الكتاب يكثرون من الدعوة للزيارة ، ولقضاء بعض الوقت فى اللهو ولسماع الغناء أو للسمر والطعام. وأكثروا من التهانى فى كل مناسبة فى الأعياد ، وفى الزواج، وفى إنجاب الأولاد ، وفى ختانهم ، وفى الحج وقضاء مناسكه ، وفى وصف الطبيعة شتاء وفى الربيع . وقد تعقبنا انتشار السجع فى الرسائل الإخوانية طوال العصر لندل على أن نوقًا عامًا أخذ يعنى به ، وهى عناية جعلته يعم فى تلك الرسائل مع أواخر القرن الثالث ، بل لقد أخذ يعم – منذ أواسطه » ... ولم يقف انتشار السجع وشيوعه منذ انتشار الرسائل الإخوانية والديوانية ، فقد أخذ يشيع فى الرسائل الأدبية الخالصة ، وكان الجاحظ قد أشاع فى تلك الرسائل أسلوب الازدواج المعروف به ، غير أن من تلوه فى القرن الثالث الهجرى أخذوا يدخلون عليها السجع ويكثرون منه ، على نحو ما تصور ذلك رسالة لابن المعتز ، كتب بها إلى بعض أصدقائه يصف سامراء ويأسى لخرابها « ويذم بغداد وأهلها ، وهى أشبه بمناظرة بين البلدتين : العاصمة القديمة سامراء ، والعاصمة الجديدة بغداد .. ويطل القرن الرابع ، وإذا هذه العناية تصبح هى الذوق العام فى الكتابة الأدبية ، فليس هناك كاتب نابه إلا ويتخذ هذا الأسلوب الفنى الجديد . السجع وما يطوى فيه من زخارف البديع » (العصر العباسى الثانى ص ٥٧٠ – ٥٧١ – ٥٧٣) .

ويتبع بحث هذا التطور فى تاريخ النثر العربى لهذا العصر فى مرحلتيه ؛ الأولى والثانية - عند شوقى ضيف - دراسة تخصص بأعلام الكتاب فى العصرين .. أما العصر العباسى الأول ، فقد شهده ابن المقفع ، وسهل بن هارون ، وأحمد بن يوسف ، وعمرو بن مسعدة ، ومحمد بن عبد الملك الزيات .. وكان لكل واحد من هؤلاء دوره فى النهوض بالنثر العربى لهذا العصر .. غير أن ابن المقفع خاصة - كما يرى شوقى ضيف - « كان من أوائل من وطدوا هذا الأسلوب العباسى المولد ، إن لم يكن أول من وطده وخاصة فى ميدان الترجمة ، وهو أسلوب يقوم على السهولة والوضوح مع توفير الجزالة والرصانة ، وكان يعتمد فيه إلى الإيجاز ، فالمعانى تؤدى بأقل الألفاظ دون أن تقصر عنها ، ودون أن تطول طولاً يجحف حقوقها ، ولعل ذاك هو الذى جعله يعدل عن أسلوب السجع ، وكذلك عن أسلوب الترادف الصوتى ، الذى سبق أن لاحظناه عند الوعظ وعند عبد الحميد الكاتب وأستاذه سالم .. لقد كانت غايته أن يوفق بين اللفظ الدال والمعنى المدلول .. وقد ظلت القرون التالية تتداول كثيراً مما ترجمته ، وخاصة كليلة ودمنه ، والأدب الكبير ، والأدب الصغير ، وهذا الصمود للتداول مرجعه هذا التعاون الوثيق بين المعنى الحصيف واللفظ الرشيق » (الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٤٣ - ١٤٤) .

أما سهل بن هارون ، فيظهر أنه كان « أهم كاتب ظهر خلال القرن الثانى الهجرى » ، وإن لم تصلنا من آثاره إلا « بقية ضئيلة من هذا المجهود الضخم الذى وصفه الجاحظ ، وابن النديم وأمثالهما » . يقول شوقى ضيف : « ولولا أن الجاحظ احتفظ لنا فى كتابى البخلاء ، والبيان والتبيين ، بأطراف من عمله ما استطعنا أن نصدر حكمًا دقيقًا على صياغته ولا على صنعته » . (ص ١٤٩) . وفى تتبع روح الأسلوب فى كتابته وحركة الفن فيه يقول شوقى ضيف : « ما من ريب فى أن صوت سهل قد اتضح لنا الآن بجميع خصائصه ، فهو يعمد إلى الجدل والدقة فى الحوار ، كما يعمد إلى شىء طريف فى أسلوبه ، إذ نرى الألفاظ تتوازن ، لكن لا فى شكل سجع بل فى شكل تقطيعات دقيقة ، وكأنى بسهل لم يكن يعمد إلى أداء أفكاره بلفظ فصيح فقط كما كان يصنع ابن المقفع ، بل كان يعمد إلى ضروب من التوقيع الصوتى فى اللفظ حتى تستقيم لأسلوبه فنون من الجمال المادى الذى يخلب سامعيه ، كى يؤثر

فى وجدانهم وعواطفهم ، بجانب ما يؤثر به فى عقولهم من حجاجه وجدله والتماسه للبراهين والأدلة على أفكاره ... وعلى هذا النحو كانت تندمج فى أساليبه خصائص موسيقية فى خصائص أخرى عقلية نلمحها فى هذا الجدل ، وهذا الحوار ، وما يبدو عليه من تلاوين عقلية أحداثتها الثقافة الفلسفية فى تفكيره وأدائه لمعانيه ، وقد كان يعرف كيف يوازن بين هذه التلاوين العقلية وما سبقها من تلاوين موسيقية ، فتخرج أساليبه وقد التمعت عليها شيات من التأمل والعقل الدقيق ، كما التفت عليها شيات أخرى من التوقيع والترادف الموسيقى ، وسنرى هذه الشيات جميعًا تمتد تحت أعيننا فى كل ما دبج الجاحظ وحبره من رسائل ، وإنه ليتأثر فى هذه النزعة سهلا من طرف ، وبيئة المتكلمين الذين نشأ فيهم من طرف آخر » . (الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٥١ - ١٥٢) .

ومع رصد الباحث لحركة الفن هذه التى تمتد من أسلوب سهل بن هارون إلى أدب الجاحظ ، نصل مع شوقى ضيف إلى الجاحظ الذى يوضع « على رأس كتاب العصر العباسى غير مدافع ولا منازع » (ص ١٥٤) . ومن هؤلاء الكتاب إبراهيم بن العباس الصولى ، وابن قتيبة ، وسعيد بن حميد ، وأبو العباس بن ثوابة .

فللجاحظ « نقد يقف فى بيئة المعتزلة الجدلة اللسنة ، وبيان متأثر بكتابات عصره وخاصة كتابات سهل الذى كان يشغف به كما لاحظ ابن النديم فى فهرسته ، ونحن لا نصل إلى القرن الثالث حتى نجده وقد استولت له شهرة فائقة بين كتاب عصره ..» (الفن ومذاهبه ص ١٥٦) . فلم يترك موضوعًا عامًا إلا وكتب فيه رسالة أو كتابًا ، وأن من يرجع إلى رسائله وكتبه يجده قد ألف فى النبات ، وفى الشجر ، وفى الحيوان ، وفى الإنسان وفى المعاد والمعاش ، وفى الجد والهزل ، وفى الترك والسودان ، وفى المعلمين والقيان ، وفى الجوارى والغلمان ، وفى العشق والنساء ، وفى النبيذ ، وفى الشيعة والعباسية ، وفى الزيدية والرافضة ، وفى الرد على النصارى وفى حجج النبوة ونظم القرآن ، وفى البيان والتبيين ، وفى حيل لصوص النهار وحيل سراق الليل ، وفى البخلاء واحتجاج الأشحاء ، وإن فى هذا ما يدل - كما يقول شوقى ضيف - على أن الجاحظ خطا بالكتابة الفنية عند العرب خطوة جديدة نحو التعبير عن جميع الموضوعات فى خلابة وبيان عذب ، وكأنى به لم يكن يفهم أن الكتابة الأدبية ألفاظ

ترصف ، وإنما كان يفهمها على أنها معان تنسق فى موضوع خاص مما يتصل بالطبيعة أو بالإنسان . وكان لذلك صنعته الخاصة فى كتابته ، فإنها كانت ذات موضوع قبل أن تكون ذات أسلوب » (ص ١٦٠ - ١٦١) . ويقول شوقى ضيف : « وأكبر الظن أننا لا نبعد إذ قلنا إن الصفات الفنية الأساسية فى كتابات الجاحظ هى الواقعية والاستطراد ، وضروب من التلوين الصوتى ، وأخرى من التلوين العقلى » (الفن ومذاهبه ص ١٦٢) .

وبهذا النفاذ إلى سر الفن البيانى عند الجاحظ يقف شوقى ضيف ليفصل هذه العناصر الفنية الأربعة فى كتاباته ويعتصر الباحث فى نقده وتحليله النصوص الأدبية المختلفة التى تسلك طريقها من أجل التوصل إلى مذهب الفن فى أدب هذا الكاتب الكبير ويقف شوقى ضيف بعد ذلك وقفة تحليلية خاصة عند رسالة للجاحظ « تجمع بين دفتيها محاسن التفكير الدقيق والتعبير الأنيق » وهى رسالة التربيع والتدوير(والفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٧٧ - ١٨٨) لنجد هذه العناصر الاربعة كلها مجتمعة متبلورة فى هذه الصنعة الجاحظية ونخرج من هذا كله إلى أن مذهب الصنعة من بين مذاهب الفن هو الذى غلب على النثر العربى فى العصر العباسى قبل أن يتحول به الطريق مع نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع حين استخدم أسلوب السجع الذى يتكامل به كما يقول شوقى ضيف - « أحد الجانبين الأساسيين فى مذهب التصنيع وهما السجع والبديع » (الفن ومذاهبه ص٢٠١) أما الجانب الثانى ، وهو جانب البديع فهو ما يستحق فى صورته الواضحة عندما ندخل عصر الدول والإمارات الذى يعتبره شوقى ضيف عصراً مستقلاً عن العصر العباسى تالياً له مختلفاً عنه

أ . د . سعيد منصور

أستاذ الادب العربى

كلية الاداب - جامعة الإسكندرية

٢٢ - « ابن الرومى » بين يدى الدكتور شوقى ضيف

د. أحمد محمد عبيدان

حين ينظر الناظر إلى أعمال الدكتور شوقى ضيف الكثيرة المتنوعة لا يملك إلا أن يجد للرجل أكثر من وجه فهو أولاً مؤرخ للأدب وهو ثانيا ناقد متمكن من أبرز ناقديه وهو ثالثا مفكر من مفكرى التراث وخبير من خبرائه وهذا التعدد فى شخصية الرجل العلمية ، يصيب بالحيرة كل من أراد أن يكتب عن هذه الشخصية العلمية الموسوعية الخصبة ، فأى الجوانب يترك وأيها يختار؟ .

وحين عن لى أن أشارك فى الكتابة عن هذه الشخصية العالمية والأدبية البعيدة الغور المتعددة الجوانب أشفقت على نفسى ألا يكون ما أكتبه فى مستوى عمق الرجل وشمولية أعماله وهو بالقطع لن يكون كذلك مهما حاولت ، وقصارى ما يمكن أن يفعله مثلى ، هو أن يحسن اختيار الجانب الذى ينبغى أن يتناوله فى أعمال علم فذ فى حجم الدكتور شوقى ضيف وقد هدانى عقلى بعد طول تفكير ، إلى أن أجعل من اهتمامى بشاعر عربى كبير - هو ابن الرومى - مداراً للحديث وشجعنى على ذلك ما وجدته فى أعمال أستاذنا الدكتور شوقى ضيف من اهتمام كبير وحفاوة بالغة بذلك الشاعر المغبون فحديثى إذن سيكون عن ابن الرومى كما رآه الدكتور شوقى ضيف .

حفاوة بالتراث :

فى البداية أحب أن اشير إلى أن اهتمام الدكتور شوقى ضيف بشاعرية «ابن الرومى » لم يأت من فراغ أو بالأحرى لم يكن وليد الصدفة بل قد كان نتاجًا مباشراً

لعمل شاق ودقيق فى مسح وغربة التراث عامة والتراث الشعرى خاصة من (امرئ القيس) حتى «أحمد شوقى » ، مما أتاح للدكتور شوقى ضيف بعد هذا العمل الشاق الدقيق أن يرى « تراثنا الشعرى بدعًا من تراث الأمم الشعرى فهو يحمل لنا حياة أسلافنا على اختلاف صورها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ويملى لنا احاسيسهم ومشاعرهم وأفكارهم ودقائق حكمتهم وخبراتهم وكل ما عاشوه من خير وشر وعدل وظلم ويقين وشك ونعيم وشقاء ، غير أن كثرة هذا التراث لاتزال بعيدة عن أيدى القراء وأعينهم إذ لا تزال مخطوطة ، وبالتالى لا تزال محجوبة عنهم فى الخزائن العامة والخاصة ونفس مانشر ينقص أكثره العناية والتحقيق مما يفسره متعة قلوبنا وعقولنا به كما يفسد أحكامنا عليه وتقويمنا له تقويمًا صحيحًا مضبوطًا » (١) .

ولعل هذه المعرفة الشمولية العميقة بدقائق التراث الشعرى العربى على طول تاريخه هى التى جعلت أستاذنا يقف فى أرض راسخة ، حين يدافع عن ذلك التراث ضد النظرات السطحية والأحكام السريعة الجائرة وما أكثرها فيقول وهو على حق « وليس من شك فى أن أكثر الأحكام فساداً وضلالا على هذا التراث ما يقال من أنه ليس إلا مدحا وهجاء ورثاء وأن المديح يشغل الحيز الأكبر منه وهو ليس إلا ملقا واستجداء ولغوا وغثاء لا غناء فيه وهو قول ناشئ عن نقص فى فهم هذا الفن ونقص اخر فى استقصاء نماذجه ودراستها دراسة متعمقة إذ لم يكن فن استجداء وملق كما يقال وكما قد يتبادر لمن يحكمون على الأشياء بظواهر دون بواطنها الحقيقية وإنما كان فن تمجيد لزعامتنا وبطولاتنا على مر التاريخ مما يحيله وثائق تاريخية رائعة لا لسير زعمائنا وأبطالنا الماضين فحسب ، بل أيضا لما تطلب أسلافنا فيهم من خلال إنسانية رفيعة » (٢) .

إن الشاعر الأموى لكم يكن منافقًا - فى رأى أستاذنا الدكتور شوقى - وهو يناصر الخلفاء الأمويين ويمدحهم وإلا فإننا نتهم بنفاق الجماعة الإسلامية التى تعاونت مع أولئك الخلفاء (٣) وهو الكتلة الضخمة من الأمة ، كما أن الشاعر العباسى ، كان

---

(١) د . شوقى ضيف ، فصول فى الشعر ونقده ، دار المعارف ط (٢) ، القاهرة ١٩٧٧م ، ص ١٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢ - ١٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٤ .

يعبر عن الجماعة الإسلامية ومثلها الرشيدة ، وهو يستضئ بهذه المثل فى مديح الوزراء والولاة والقواد ، بل هو يجسدها فيهم جميعا تجسيداً قوياً وكأنه يريد بها أن تصبح قواعد عامة فى الجماعة (١)

لم يكن ذلك إلا أنموذجًا من دفاع أستاذنا المستمر ، عن تراثنا الشعرى أمام المستهينين به ، وهو دفاع لا يقوم على مجرد عاطفة خالصة ، أو حماسة مشروعة بل يقوم مع ذلك وربما قبله ، على علم راسخ واستقصاء طويل وبصيرة نقدية ثاقبة .

مع ابن ارومى :

لا بد من أننا سننتظر من رجل فى علم ومنزلة الدكتور شوقى ضيف حين يعرض لشاعر فى منزلة «ابن الرومى» ، أن يجعلنا نقف بدقة على أسرار شاعريته ، وأن يقودنا بمصباحه النقدى الهادئ عبر دهاليز تلك الشاعرية ومنعطفاتها المتشابكة .

وربما (كان عباس محمود العقاد) وهو أول من لفت النظر إلى «ابن الرومى» فى كتاب كامل عنه ، غير أن كتاب «العقاد» وجه عنايته فى الدرجة الأولى إلى حياة الشاعر من خلال شعره كما يدل على ذلك عنوان الكتاب .

إما كتابات شوقى ضيف عن «ابن الرومى» وهى متوزعة فى ثنايا كتبه ، فقد احتفلت أكثر بشعر الشاعر ، وركزت اهتمامها على خصائص فنه ، وعلى معانيه وأخيلته وأغراضه الشعرية ، وسنحاول فى هذه الصفحات آن نلقى بعض الضوء على شخصية «ابن الرومى» وشاعريته ، كما رآها استاذنا الكبير شوقى ضيف .

إنصاف الشاعر :

من الجدير أن نلاحظ منذ البداية أن الدكتور شوقى ضيف لم يتوان عن إنصاف «ابن الرومى» الذى أهمله كثير من النقاد القدماء والمعاصرين فهو يرد إليه حقه ويضعه

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٥ .

مع الفحول الأفذاذ من شعراء العربية مثل « أبى تمام » « والمتنبى » « وأبى العلاء »[1] وهو أيضا يشير إلى امتياز أفكاره وأخيلته النادرة ، ويلفت النظر إلى ما كان يحرص عليه من بث الفنون الجديدة فى أشعاره ، وخاصة الجناس ، ويثبتُ أن له أذنًا موسيقية رائعة ، وكل ذلك – فى رأية – حمى الصياغة عنده من الهبوط عن المستوى الرفيع إلا ما كان يريد أن يقترب فيه من الذوق الشعبى ، لشعبية كانت متأصلة فى ذات نفسه والحق أنه كان شاعراً بارعًا بل لا شك – والكلام للدكتور – فى أنه أبرع شعراء العصر ، لما يحفل به ديوانه من الموضوعات والمعانى والأخيلة المبتكرة ، مما يملأ النفس إعجاباً متصلاً به وبأشعاره [2]

وحين يجعل أستاذنا من «ابن الرومى» أبرع شعراء عصره ، فإنه يكون بذلك قد أنصفه وأنزله المنزلة التى يستحقها فى تاريخ الشعر العربى ، وهو لا ينزله تلك المنزلة خبط عشواء بل يفعل ذلك بعد مقارنات دقيقة أجراها بين شعراء العصر وبين «ابن الرومى» .

بين ابن الرومى والبحترى :

فهو يقارن بين «ابن الرومى» و «البحترى ، فيخلص إلى أن «ابن الرومى» كان يمثل بحق النزعة التجديدية فى العصر ، على أن «البحترى» يمثل النزعة التقليدية فيه [3] ، وإن كان الشاعران يشتركان فى أنهما ليسا من أصحاب التصنيع ، فإذا كان «ابن الرومى» قد اهتم فى صياغته باستخدام لونى الطابق والجناس ، فإن «البحترى» كان يصنع الشئ نفسه مع ميل إلى الإكثار من الطباق ، وهى أشياء تسقط فى بعض شعرهما وقد لا تسقط ، إذ هى لا تعد بمثابة المذهب عندهما[4] ويبقى الفرق بينهما فى

---

(١) د. شوقى ضيف ، فى النقد الأدبى ، دار المعارف ، ط (٥) ، القاهرة ١٩٧٧م ، ص ١٥٦ .

(٢) د. شوقى ضيف ، العصر العباسى الثانى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٣م ، ص ٣٢٤ .

(٣) د. شوقى ضيف ، العصر العباسى الثانى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣م ، ص ٣١٣ .

(٤) د. شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، دار المعارف ، ص ٩ ، القاهرة ١٩٧٦م ، ص ٢١٥ .

أن البحترى كان يستعير بعض أدوات الطابق والجناس ، بينما كان «ابن الرومى» يوسع هذه الاستعارة إلى أدوات من الثقافة والمنطق والتشخيص والتجسيم ، ونفس الأدوات التى اتفقا فى استعارتها اختلفا فى استخدامها .. فقد كان «البحترى» يعجب بالطباق أكثر مما يعجب بالجناس ، بينما كان «ابن الرومى» يعجب بالجناس أكثر مما يعجب بالطباق ، ونفس الجناس اختلفا فى استخدامه ، فبينما كان «البحترى» يستخدم الجناس الكامل ، كان «ابن الرومى» يكثر من استخدام جناس الاشتقاق ، وليس هذا كل ما بينهما ، إذا اختلفا فى صنعة الأسلوب نفسه ، إذا كان «البحترى» يعنى بصفاء تعبيره حتى يحدث فيه صناعته الصوتية الخاصة» [1] .

وفى خضم هذه الموازنة الفنية الدقيقة بين الشاعرين ، لاينسى أستاذنا أن يرصد العلاقة الشخصية بينهما ، التى بدأت فى شكل منافسة امتدت حتى انقسم الأدباء بإزائها قسمين ؛ قسماً هو الأكثر لما كان يؤازره من اللغويين ، وهم أنصار «البحترى» وقسماً مقابلاً هو أنصار «ابن الرومى» وفى مقدمتهم عبيد الله بن طاهر[2] . وقد أورد الدكتور شيئًا من هجاء «ابن الرومى» لخصمه «البحترى»[3] على أثر هذه المنافسة الحادة ، ويبين لنا الدكتور ضيف كيف أن المنافسة لم تزل حادة مشتدة بين الشاعرين حتى جمع بينهما بعض الأدباء ، فتصافيا وتوادا ، واعترف كل منهما بفضل صاحبه [4] .

بين «ابن الرومى» و«ابن المعتز» :

وحين يعرض أستاذنا للموازنة بين «ابن الرومى» و «ابن المعتز» ، نجد أنه يلمس أولاً ، أهم الجوانب المشتركة بينهما كما فعل الموازنة بين «ابن الرومى» والبحترى ويجد

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢١٧ .

(٢) د . شوقى ضيف ، العصر العباسى الثانى ، مرجع سابق ،ص ٣٠٤ .

(٣) يقول «ابن الرومى » فى مطلع هذه القصيدة البائية التى قالها فى هجاء « البحترى » :

ما أنس لا أنسى « هنداً » آخر الحقب على اختلاف صرف الدهر والعقب

وقد ورد فى ديوانه من هذه القصيدة ستة وثمانون بيتًا ،وقد كانت أطول من ذلك فى الأصل كما يشير ناسخ الديوان ، انظر . ديوان ابن الرومى ، تحقيق د . حسين نصار ، جـ (١) : ١٦٩ / ١٩٦ وقد أورد الدكتور شوقى ضيف البيتين رقم (٣٧) و (٥٤) من هذه البائية ، انظر . العصر العباسى الثانى ، ص ٣٠٥ .

(٤) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

أن أهم جانب يشترك فيه « ابن المعتز » مع « ابن الرومى » هو الطابع الشعبى فى الأسلوب واللغة ، ويظهر هذا الطابع الشعبى عند الشاعرين أكثر ما يظهر فى الغزليات والخمريات ، ويثبت أستاذنا الكبير لـ «ابن الرومى» تفوقًا واضحًا على قرينه ، فهو يرى أن أحد لم يستطع أن يتفوق على «ابن الرومى» فى تصويره لأثر الخمر فى نفوس المجان ، وما تحدث فيهم من السرور وانفساح الأمل حتى ليتخيلون إمكان وقوع المستحيل وحدوثه ، كما صور ذلك فى قوله [1] :

ومدامة كحشاشة النفس　　لطفتْ عن الإدراك والحس

لنسيجها فى قلب شاربها　　روح الرجاء وراحة النفس

وتمد فى أمل ابن نشوتها　　حتى يؤمل مرجع الأمس

ويخلص أستاذنا من الموازنة بين الشاعرين ، إلى أن «ابن الرومى» لم يكن أبرع تصويرًا من قرينة لأثر الخمر فحسب ، بل كان أيضًا أكثر منه شعبية ، ذلك أن «ابن المعتز» كان أميرًا من أبناء القصور ، بينما كان «ابن الرومى» من أبناء الشعب ، فتأصلت الشعبية فى نفسه ، مما جعله يقترب اقترابًا كثيرًا فى شعره ، خمره وغزله وغيرهما ، من أغراض شعره من اللغة البغدادية اليومية ، حتى ليستحيل كثير من أشعاره إلى ما يشبه صحيفة شعبية ، بما صور فيها من ألوان السكان ببغداد على اختلاف مشاربهم ومنازعهم إذ نرى رؤية واضحة للحكام والقضاه والعلماء من كل صنف ، والكتاب والبزازين والعطارين والخبازين والحمالين والشوائين والشحاذين ، كل أولئك وأضرابهم يرسمون فى أشعاره وترسم معهم ملابسهم ، حتى ملابس البؤساء المرقعة والبالية [2] .. وهكذا فإن نتيجة الموازنة النهائية تجئ لصالح «ابن الرومى» ، سواء من حيث قوة تأثير خمرياته أم من حيث شعبيته التى انعكست على شعره شكلاً ومضمونًا .

---

(١) د . شوقى ضيف ، الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧م ، ص ١٢٢ . وانظر : ديوان ابن الرومى ، تحقيق د . حسين نصار ، جـ (٣) ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٧٦م ، ٩٥٣١١٧٤/ ، ورواية عجز البيت الأول فى الديوان : (لطفت عن الإدراك باللمس) .

(٢) د . شوقى ضيف ، الشعر وطوابعه الشعبية ، مرجع ساق ، ص ١٢٣ .

بين ابن الرومى، و«الحمدونى» :

«الحمدونى» هو إسماعيل بن إبراهيم ، ولقب «الحمدونى» نسبة إلى جده «حمدوية» صاحب الزنادقة لعهد «الرشيد» [١] ، وقد اشتهر بأشعاره الساخرة المضحكة فى شاه هزيلة ، أهداها له أحد رجال العصر وهو «سعيد بن أحمد بن خو سنداذ» ، وفى طيلسان أخضر بال أهداه له آخر هو «أحمد بن حرب المهلبى» ، وقد نَظَم فى الشاه والطيلسان مقطوعات عديدة ، حتى إن مقطوعاته الساخرة فى الطيلسان وحده بلغت خمسين مقطوعة ، وقد ذاعت فى بغداد على ألسنة الصبية والشباب والأدباء ، وتخاطفتها الأندية والمحافل ، كما يصور لنا الدكتور شوقى ضيف [٢] ، ومن الأشعار التى أوردها الدكتور للشاعر فى وصف الشاه[٣] :

لسعيد شويهة ... سلَّها الضرُّ والعجف
قد تغنت وأبصرت ... رجلاً حاملاً علف :
بأبى من بكفه ... برء ما بى من الدنف
فأتاها مطمعًا ... وأتته لتعتلف
فتولى فأقبلت ... تتغنى من الأسف :
ليته لم يكن وقف ... عذب القلب وانصراف !

ومما أورده الدكتور للشاعر فى الطيلسان [٤] :

وهبت لنا «ابن حرب» طيلسانًا ... يزيد المرء ذا الضعة اتضاعًا
ولست أشك أن قد كان قدمًا ... لنوح فى سفينته شراعًا

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٣ .
(٢) المرجع سابق ، ص ١٠٤ .
(٣) المرجع السابق ،ص ١٠٥ .
(٤) د. شوقى ضيف ، العصر العباسى الثانى ، مرجع سابق ، ص ٤٣٧ ، والبيت الأخير مطلع قصيدة مشهورة للشاعر الأموى « القطامى » وهو تضمين يلجأ إليه « الحمدونى » كثيراً .

وقـد غـنيـت إذا أبصـــرت منـى جـوانبـــه على بـدنـى تـداعى :
«قـضى قـبـل التـفـرق ياضـبـاعـاً ولا يـــك موقــف منك الوداعا»

ونحن نورد هـذين النمـوذجين الساخـرين لهذا الشاعر الساخـر ، لأن السخرية والإضحاك أمران مشـتركان بينه وبين «ابن الرومى» ، وقـد لاحظ أستاذنا الدكتور شوقى ضيف ذلك الشبه بين الشاعرين ووقف عنده ، بل لقد وازن بين الشاعرين فى هجائهما خاصة ، فانتهى إلى أن «الحمدونى» لم يكن يقل عن «ابن الرومى» سخرية وإضحاكًا ؛ لأنه كان إذا سلط أهاجيه على أحد لم يبق فيه باقية ، إذا كان ما يزال يقذف أبياتًا سامة تؤذى من تسقط عليه إيذاء شديداً ، ويا ويل من كان يجعل مكافأته له فى المديح قليلة أو يهديه هدية لا تروقه ، فإنه كان يسـل عليه لسـانه بأبيات ساخرة مضحكة[1] وكان الناس فى بغداد ما يزالون ينتظرون من «الحمدونى» مقطوعات فى شاه «سعيد بن أحمد» وطيلسان «ابن حرب» ، ضاحكين مهللين ، وبالمثل كانوا ينتظرون أهاجى «ابن الرومى» الكاريكاتورية ، وكأنما كانت أهاجى الشاعرين تقوم منهم مقام المسارح الهزلية فى عصرنا وما تقدمه من شخوص فكهة[2]

يتضح من الموازنة أن «الحمدونى» و «ابن الرومى» يقعان فى رأى أستاذنا فى مستوى فنى واحد ، من حيث إجادتهما لفن السخرية والإضحاك الذى عمرت به أهاجيهما ، ولكن ما يلفت النظر هنا ، أن أستاذنا لم يشر إلى محاكاة «ابن الرومى» مرات كثيرة لفن «الحمدونى» فى الشاه والطيلسان ، وربما يكون ذلك راجعًا إلى إن أستاذنا عند كتابته تلك السطور ، لم يكن قد اطلع بعد على ديوان « ابن الرومى » فى صورته الكاملة التى قام بإخراجها أستاذنا الدكتور «حسين نصار» فى ستة أجزاء ولو أنه كان قد اطلع على الديوان الكامل ، لما فاته أن يرصد تلك المحاكاة التى تجعل من « ابن الرومى » تلميذاً لفن «الحمدونى» فى هذا الاتجاه الساخر ، حتى لو كان التلميذ قد ضارع الأستاذ ، أو تفوق عليه فى بعض المرات ، وقد يكون من المفيد

(١) د . شوقى ضيف ، الشعر وطوابعه الشعبية ، مرجع سابق ، ص ١٠٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

هنـا أن نـورد أنموذجين مـن شـعـر « ابن الرومى » الذى حـاكى فـيـه شـعـر «الحمدونى» فى الشاة والطيلسان ، فمن قوله فى الطيلسان [1] :

ولى طيلســـانٌ ناحلٌ غـــيـــر أنه	ثبـوت لهبـات الرياح الزّعـازعِ
ومـــا ذاك إلا أنـــه متهـتـــكٌ	يُخلى سبيلَ الريح غَيْرَ مُنازع
أراه كَـضَـوْء الـشَّـمْس بالـعين رُؤْيَةَ	ويمنعنـى من لَمْسـه بالأصـابع
شكى ثقـل اسم الطيلسـانِ لضَـعْفـه	فسـميته سـاجًا فهَل ذاك نـافعى

أما قول « ابن الرومى » فى الطيلسان فهذا أنموذج له[2] :

يا « ابن حـرب » كـسـوتنى طيلسـانًا	يتـــجنـى علـى الريـاح الذنـوبا
طـيـلـســـان إذا تنفــســت فـيـــه	صاح يشكو الصبا ويشكو الجنوبا
وتهـب الريـاح فى أرض غـــيـــرى	فتـهـب الغـــزور فيـــه هبوبـــا
تتـغنـى إحـدى نواحـــيـه صـوتـًا	فتـشـق الأخـرى عليـه الجيــوبـا
فـإذا مـا عـذلتـه ، قـال : مـهـلاً	لـن يكـــون الكـريـــم إلا طـروبا
طال رفـــوى لـه فـأودى بكســبــى	يا « ابن حـرب » تركتنـى محروبـًا

ولعل هذين الأنموذجين وغيرهما من النماذج المثيلة فى ديوان « ابن الرومى » ، يوضـحان كيف أن الشاعر قد اندفع فى تقليد فن « الحمدونى » ، ويلقيان بضوء آخر على العلاقة بين الشاعرين وفنهما الساخر .

بين « ابن الرومى » و « أبى تمام » :

مع أن أستاذنا الدكتور شوقى ضيف يدرج « أبا تمام » بين أعلام شعراء العصر العباسى الأول ، إلا أن ذلك لم يحل دونه ودون الاهتمام بأوجه الشبه والاختلاف بين علم العصر العباسى الأول ، وعلم العصر العباسى الثانى .

(١) ديوانه ، تحقيق د . حسين نصار ، جـ (٤) ، ١٤٩٥ / ١١٥٢ .
(٢) ديوانه ، جـ (١) ، ١٦٧/٢٣٠ .

وبينما يدرج أستاذنا « أبا تمام » بين أعلام مدرسة التصنيع ، فإنه يستبعد « ابن الرومى » من هذه المدرسة رغم أوجه الشبه الظاهرية بينه وبين « أبى تمام » ، ويسجل كيف أن فكر « ابن الرومى » الدقيق ، وما انطبع فى عقله من طوابع الثقافة والفلسفة ، كان حريًا به أن يصبح من أصحاب مذهب التصنيع ، ومن ينظر إلى هذا الجانب عنده ، يخيل إليه كأنه من طراز « أبى تمام » ، وخاصة حين يقرأ له بعض أبيات مفردة أو قطعًا قصيرة مما تناقلته عنه كتب الأدب ، ولكن من يقرأ قصائده يعرف أنه ليس من أصحاب هذا المذهب : مذهب التصنيع ، إذ لم يكن يعنى بالزخرف ، لا فى شعره ، ولا فى حياته إلا قليلاً ، وكأنه كان يأتى بما يأتى به من الزخرف أحيانًا مجاراة للعصر ، وحقًا شغف شغفًا شديدًا بالتصوير ، ولكن هذا الشغف لا يخرجه من دائرة الصانعين ، كما لا تخرجه من دائرتهم ثقافته الفلسفية ، وما يمتاز به من فكر عميق »[1] .

هناك إذن دائرة المصنعين ، وهناك دائرة الصانعين ، وأستاذنا الدكتور شوقى ضيف يضع « أبا تمام » فى الدائرة الأولى ، بينما يضع « ابن الرومى » فى الدائرة الثانية ، فالصنعة عنده كانت أقل تعقيدًا وتعمدًا عما كانت لدى سلفه ، على أن الدائرتين ليستا مغلقتين تمامًا ، فكثيرًا ما كان يحدث تأثر واضح من الصانعين بالمصنع ، يقول أستاذنا مفصلاً ذلك[2] : « ومهما يكن فإن « ابن الرومى » لم يستطع أن ينتقل لصناعته من دائرة الصانعين إلى دائرة المصنعين ؛ لأنه كان يفهم الشعر بصورة أقرب من الصورة التى علقت بأذهان أصحاب التصنيع ، فلم يكن يعتقد مثلهم بأن الشعر جهود عنيفة يبذلها الشعراء ، فى استحداث تلك الزخارف الدقيقة التى شغف بها « أبو تمام » وأمثاله ، ليس الشعر زخرفًا وتصنيعًا ، بل هو تعبير ، ومن الممكن أن يضاف إلى هذا التعبير شىء من الحلى والوشى المرصع ، ولكن فى خفة ، وبدون أن يتعمد ذلك الشاعر تعمدًا يخرج به عن غرضه الأساسى من التعبير عن خواطره إلى التعبير عن ألوان التصنيع الأنيقة ، ومن هنا كانت جماعة الصانعين تستعير أدوات التصنيع فى بعض الأحيان ، ولـن دون أن تستمر فى ذلك ، وبدون أن

(١) د. شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، مرجع سابق ، ص ٢٠٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٦ – ٢١٧ .

تتخذها مذهبًا فى صناعتها ، قد تطبقها ولكنها لا تستمر فى التطبيق ، وربما أخفقت فى هذا التطبيق ، كما أخفق « البحترى » فى كثير من طباقه ، وكما أخفق « ابن الرومى » أحيانًا فى استخدامه للفلسفة كزخرف جميل ، فقد رأيناه يقف فى هذا الجانب عند استعارة الصياغة المنطقية ، بينما رأينا « أبا تمام » يستخدم الفلسفة فيعقد بها فى طباقه ، ويستخدم هذا اللون الجديد من نوافر الأضداد » .

وهكذا فإن الموازنة تجئ هذه المرة لصالح « أبى تمام » ، فلم يكن « ابن الرومى » ليرقى عند أستاذنا إلى توظيف الفلسفة بنجاح ، كما فعل « أبو تمام » لم يكن ليقف فى تصنيعه عند مستواه ، وإن كان أحيانًا يلزم نفسه مالا يلزم خاصة فى القافية ، حين عمد إلى محاكاة الشاعر الأموى « كثير عزة » الذى نظم قصيدة تائية التزم فيها قبل التاء حرف اللام ، ففعل « ابن الرومى » ذلك فى طائفة من قصائدة ، ثم جاء أبو العلاء الذى عمم هذه الطريقة فى ديوان ضخم هو اللزوميات(١) ، ولا شك أن فى ذلك ضربا من ضروب التصنيع الذى تنتشر ضروب أخرى منه فى ديوان « ابن الرومى » .

حياة « ابن الرومى » وشخصيته :

إن القارئ لكتب أستاذنا الدكتور شوقى ضيف ، يستطيع أن يعثر على ترجمة وافية لحياة « ابن الرومى » ، كما يستطيع أن يقف على تحليل متماسك لشخصيته ومزاجه وعلاقته برجال عصره .

إن الخطوط الرئيسية العامة لحياة « ابن الرومى » والحوادث المهمة التى أثرت فى شخصيته مبسوطة عند أستاذنا خاصة فى كتابيه (العصر العباسى الثانى(٢) ، و (الفن ومذاهبه فى الشعر العربى)(٣) ، حيث نتعرف على نشأته الأولى وأصوله الرومية من جهة أبيه ، والفارسية من جهة أمه .. ونراه يفخر بذلك - شعراً - فيقول :

---

(١) د. شوقى ضيف ، فصول فى الشعر ونقده ، مرجع سابق ، ص ٤٣ .

(٢) د. شوقى ضيف ، *العصر العباسى الثانى* ، مرجع سابق ، ص ٢٩٦ - ٣١٢ .

(٣) د. شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، مرجع سابق ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

كـيف أغـضى على الدنيـة والفـر   س خئولى والروم هـم أعمامى ؟!

ثم نصطحب الشاعر منذ مولده سنة (٢٢١) للهجرة ، حيث لم تكد تتقدم به الأيام حتى توفى أبوه ، فكفلتـه أمـه وأخ أكبـر منـه ، ونـراه يتـجـه إلى الثـقافـة المعاصرة له وإلى الشعر ، ويروى القديم والحديث منه ، ولم يلبث أن جرى على لسانه ، فتهادته النوادى والمحافل فى بغداد ، كما تهاداه الوزراء وكبار رجال الدولة ، فمدحهم ونال عطاءهم ، وابتسمت له الحياة قليلاً ، غير أنها سرعان ما عبست ، فماتت أمه ومات أخوه ، وتزوج وأنجب أطفالاً ، إلا أن القدر أخذ يعصف بهم واحداً وراء الآخر ، وماتت زوجته[1] .

ونصحب « ابن الرومى » فى رحلته فى الحياة مع ممدوحيه وأصدقائه من رجال العصر ، كما صورت هذه الرحلة ريشة أستاذنا بتركيز ودقة .

فمن ممدوحيه « محمد بن عبد الله بن طاهر » حاكم بغداد ، الذى رثاه الشاعر عند مقتله عام (٢٥٢) للهجرة ، ومنهم كذلك أخو ذلك الحاكم « عبيد الله بن عبد الله بن طاهر » الذى كان أكثر الطاهريين معرفة وأدباً ، وله كتب مصنفة مختلفة ، وأغان مدونة ، وهو أقرب ممدوحى « ابن الرومى » إلى نفسه ، فقد أغدق عليه جوائز وأموالاً كثيرة ، وكان شاعراً يحسن فهم الشعر وتذوقه ، كما كان يحسن الفلسفة وفروعها المختلفة ، وقد وقف مع « ابن الرومى » ضد « البحترى » فى الخصومة التى جرت بينهما ، فكان بذلك ممثلاً للذوق الجديد فى الشعر لعصره ، ووجد فيه « ابن الرومى » راعيه المادى الذى يجزل العطاء ، وراعيه المعنوى الذى ينوه بأشعاره ، ويصفق لطرائفه استحساناً ، ويقف ضد خصومه أصحاب الذوق الأدبى المحافظ من أمثال « البحترى »[2] .
ومن هؤلاء الممدوحين أيضاً « أحمد بن إسرائيل » وزير المعتز لسنة (٢٥٣) هجرية ، و« أحمد بن ثوابة » كاتب القائد التركى « بايكباك » ، و« إسماعيل بن بلبل » رئيس ديوان الضياع ، ووزير المعتمد فيما بعد ، ومنهم كذلك « سليمان بن عبد الله طاهر » الذى بدأ « ابن الرومى » بهجائه انتصـاراً للخيفـة المخلوع « المعتز » ، ومنهـم

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .
(٢) د. شوقى ضيف ، العصر العباسى الثانى ، مرجع سابق ، ص ٣٠٢ .

كذلك « صاعد بن مخلد » وابنه « العلاء بن صاعد » ، ومنهم « إبراهيم بن المدبر » ممدوح « البحترى » ورئيس ديوان الرسائل ، وغير هؤلاء الأعلام من رجال الدولة وكبار مسئوليها ، نجد هناك مديحًا فى ديوان « ابن الرومى » لبعض ذوى البيوتات – كما يعبر أستاذنا – فى بغداد وفيما حولها من المدن والضواحى ، وممن نراهم ماثلين فى ديوانه « بنو قياض » و « بنو نوبخت » وهما أسرتان من أصول فارسية ، وكذلك « بنو حماد » قضاة بغداد[1] .

أما أصدقاؤه الذين يردون فى ديوانه ، فهم كثيرون ويجعلنا أستاذنا نقف على معظمهم ، ونطلع على صلة الشاعر بهم ، ومن هؤلاء « أبو عثمان الناجم » الشاعر وراويه « ابن الرومى » وتلميذه ، ومنهم « ابن المسيب » الكاتب ، و « أحمد بن عبيد الله » و «أحمد بن بشر المرشدى » *الكاتب* ، و « على بن يحيى *المنجم* » أحد كبار مثقفى العصر ، الذى كان يمتلك مكتبة عظيمة – وكان شاعراً ونديماً رفيعاً للخلفاء من « المتوكل » إلى « المعتمد » ، ولا يعرف بالضبط بدء اتصال « ابن الرومى » به ، وله فيه قصائد ومقطوعات كثيرة ، وله يعاتبه[2] :

لتـــهنأ رجـــال لا تزال تجـــودهم	سحائب من كلتا يديك مواطر
عنيت بهم كــــــأنك والد	لهم وهمو – دونى – بنوك الأصاغر

ومن هؤلاء أيضًا نديمه الشاعر « جحظة » الذى كان يتخذه للهزء به وللفكاهة ، ويسرد لنا أستاذنا أسماء العديد من خصوم الشاعر الذى هجاهم هجاءً مقذعًا ، ومن هؤلاء « مثقال » و « إبراهيم البيهقى » و « أبو حفص الوراق » و « ابن أبى طاهر » و « ابن الخبازة » و « خالد القحطبى » ، فقد كان يشب مع كل شاعر منهم معركة حامية الوطيس ، وكان دائمًا هو المنتصر لخصب ملكاته وخياله ، وتعرض بالهجاء لبعض اللغوين وأصحاب الأدب مثل « المبرد » ؛ لأنه كان يقف فى صف « البحترى » ضده ، وتبعه تلميذه « الأخفش » فى هذا التعصب ، وكذلك « نفطويه » النحوى ، ولم يسلم هؤلاء جميعًا من أهاجيه[3] .

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠٩ ، والبيتان فى الديوان ، جـ (٣) .

(٣) د . شوقى ضيف ، *العصر العباسى الثانى* – *مصدر سابق* ، ص ٣٠٩ .

ويحرص أستاذنا على أن يبين طباع « ابن الرومى » ، ويرسم معالم شخصيته التى كان التشاؤم أهم عنصر فيها ، وكذلك حدة المزاج[1] التى أثرت كثيراً فى شعره وعلاقته بممدوحيه على الأخص ، حيث كان كثيراً ما ينقلب ضد الممدوحين إذا لم يصلوه على نحو يرضيه ، وخير مثال لذلك « آل وهب » الذين تحولت إليهم الوزراء عام (٢٧٨) للهجرة ، وقال « ابن الرومى » فى أحد أعلامهم « عبيد الله بن سليمان بن وهب »[2] :

إذا أبو قـاسم جَـادَتْ يـداه لنـا لم يحمد الأجودان : البحرُ والمطرُ

وإن مـضى رأيُه أو حَـدُّ عـزمتـه تـأخـر الماضيـان :السَّيفُ والقدرُ

وإن أضـاءتْ لنـا أنـوار غُـرَّته تضاءل النيران : الشمسُ والقمرُ

ينال بالظن مـا يعـيى العيـانُ به والشاهدان عليه : العينُ والأثرُ

لكنه لم يلبث أن هجاه وهجا « آل وهب » جميعًا عندما لم يصيخوا له ، ففسد ما بينه وبينهم فساداً لا يمكن رأبه .

فن ابن الرومى :

نجد فى كتابات أستاذنا حفاوة بالغة بشعر « ابن الرومى » ، فهو يعرض لأغراضه الشعرية فى كتابه (*العصر العباسى الثانى*) ، فيلمس فى هجائه لونين ؛ أحدهما يميل للسخرية اللاذعة ، أما اللون الآخر فيميل للنزعة الكاريكاتورية[3] ، كما يفرق بين هجائه الفردى وهجائه الاجتماعى[4] . كما يعرض لمديحه ويضع يديه على ما فيه من تنويع وتجديد ، أما الرثاء والعزاء عنده فيربطهما بالتشاؤم وبأخيلة الموت عند الشاعر[5] ، ويعرض كذلك لغزله ، ويلاحظ خلوه من الغزل بالمذكر . كما

---

(١) د. شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، مصدر سابق ، ص ٢٠٢ .

(٢) د. شوقى ضيف ، العصر العباسى الثانى ، مصدر سابق ، ص ٣١٠ ، ٣١١ ، والأبيات فى ديوانه جـ (٣) .

(٣) د. شوقى ضيف ، العصر العباسى الثانى ، مصدر سابق ص ٣١٥ .

(٤) د. شوقى ضيف ، الشعر وطوابعه الشعبية ، مصدر سابق ، ص ١٠٢ .

(٥) د. شوقى ضيف ، العصر العباسى الثانى ، مصدر سابقًا ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

يعرض لخمرياته ولوصف مجالس اللهو والسماع وغير ذلك من فنون تفرد بها « ابن الرومى » وتميز بها شعره ، مثل وصف الطعوم والفواكه ووصف الطبيعة الذى عده أستاذنا من رواده[1] . وقد تصدى أستاذنا فى هذا المقام لرأى « العقاد » فى كتابه عن « ابن الرومى » حيث فسر « العقاد » تفوق « ابن الرومى » فى شعر الطبيعة بأن ذلك يعود إلى الوراثة ، فقد ورث « ابن الرومى » حب الطبيعة من أجداده اليونان ، ولكن أستاذنا يفند هذا الزعم ويرده محتجاً بأن اليونان لم يعرف عندهم شعر الطبيعة ، هم ملأوها بالآلهة ، ولكنهم لم يفصحوا عن مشاعرهم إزاءها على نحو ما نجد عند « ابن الرومى»[2] ، وقد أصر أستاذنا فى موضع آخر ، على أن الوراثة ليست كل شىء فى شعر «ابن الرومى» إذ ينبغى أن نضيف إليها الثقافة اليونانية الإسلامية التى كان يتثقفها الشعراء فى القرن الثالث ، فعند « ابن الرومى » يونانية أصيلة ويونانية مكتسبة لعلها أهم من يونانيته الأصيلة ، وهناك أيضاً ثقافة إسلامية وعربية مكتسبة[3] .

ومن الأغراض الأخرى التى وقف عندها أستاذنا فى شعر « ابن الرومى » الزهد ، وقد فسره بالتشاؤم الذى كان عليه الشاعر[4] ، وجعل من « ابن الرومى » متفوقاً فى هذا الفن الشعرى حتى إن أحداً لم يرسم صورة الزاهد فى عصره كما رسمها هو ، وفى هذه الصورة نرى الزاهد ساهراً طوال الليالى والأسحار ، يسبح بذكر الله ويثنى على آلائه ويتلو آيات كتابه ، وكلما مرت به آية وعيد ذرفت عيناه الدموع ضارعاً إلى ربه أن ينجيه من عذاب النار وأن يغفر له خطيئاته وسيئاته [5] .

بات يدعو الواحد الصمدا	فى ظلام الليل منفردا
فى حشاه من مخافته	حرقات تلذع الكبدا
كلما مر الوعيد به	سح دمع العين فاطردا

(١) د. شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، مصدر سابق ،ص ٢٠٨ ، ص ٢١٠ .

(٢) د. شوقى ضيف ، العصر العباسى الثانى ، مصدر سابق ، ص ٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٣) د. شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، مصدر سابق ، ص ٢٠٢ .

(٤) د. شوقى ضيف ، العصر العباسى الثانى ، مصدر سابق ، ص ٣٢٣ .

(٥) د. شوقى ضيف ، الشعر وطوابعه الشعبية ، مصدر سابق ، ص ١٢٥ ، والأبيات فى الديوان جـ (١) .

قـــــائـل : يـامـنـتـــــهـى أملـى　　نجنى مما آخـــــاف غـــــدا

وخـطيـــــئـــــاتـى الـتى سـلـفـت　　لست آحـصى بعـضـهـا عـددا

ويح عـــــينى ســـــاء مـــــانـظرت　　ويح قلبى ساء مـا اعـتـقـدا

ولم يقف استـاذنا عند اغـراض « ابن الرومى » فـحـسب بل مـضى يحلل فنه الشعرى تحليلاً نقديًا بارعا سواء من حيث اللفظ أو من حيث المعنى أو من حيث الشكل والمضمون فلاحظ فى معانيه ظاهرة الاستقصاء[1] والاعتماد على المحاجة العقلية المنطقية [2] وللجوء إلى الاطالة حتى لقد تربو بعض قصائده على ثلاثمائة بيت [3] .

وقد وقف مرة أخرى ضد «العقاد» فى تفسيره للاطالة عند ابن الرومى بأن مرجع ذلك يعود إلى أن الشاعر كان يطيل القصائد حفاوة بالممدوحين أو إكبارا لشأنهم وإظهاراً لعنايته بإرضائهم ، وقد رد استاذنا على هذا الرأى بأن الاطالة عند ابن الرومى تدعو إلى استخدامه للصياغة المنطقية فى قصائده فشغف بهذا الطول الذى هو من آخص صفات من يريدون التعبير المنطقى الواضح وأن ثقافة «ابن الرومى» قد احدثت فى شعره هذا النوع الغريب من الطول فى نماذجه فإن الشعر عنده لم يعد تعبيراً لعاطفة فقط بل اصبح تعبير العقل قبل أن يكون تعبير العاطفة وبذلك عمه غير قليل من التحليل والتفصيل والبحث والتحقيق [4] .

ويشير استاذنا كذلك إلى ثقافة « ابن الرومى » وأثرها على شعره كما يلمس أثر ميله للتشيع من جهة وللاعتزال من جهة أخرى على كثير من قصائده ولا ينسى استاذنا أن يشير أيضًا فى ثنايا كتبه المختلفة إلى اهم الخصائص الفنية فى شعر «ابن الرومى» مثل الميل للتجسيم والتشخيص[5] وشعبيته فى اختيار الموضوعات وفى

---

(١) د. شوقى ضيف ، العصر العباسى ، مصدر سابق ، ص ٣١٥ .

(٢) د. شوقى ضيف ، فى النقد الأدبى ، مصدر سابق ، ص ١٥٦ .

(٣) بلغت إحدى لامياته (٣٣٧) بيتًا ، انظر ديوانه ، تحقيق د.. حسين نصار ، جـ (٥) .

(٤) د. شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، مصدر سابق ، ص ٢٠٦ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢١٠ .

التعبير عنها واعتماده على فن التصوير من خلال قدرة غريبة على ملاحظة دقائق الاشياء وتصويرها تصويراً بارعًا[1] كما اشار أيضًا إلى تجديده فى القوافى ولزوم مالا يلزم فيها وكذلك إلى تجديده في حذف المقدمة أحيانًا أو المبالغة فى إطالتها أحيانًا أخرى[2] مع التنويع فيها[3] إلى غير ذلك من خصائص فنية مختلفة امتاز بها شعر «ابن الرومى» .

والحق أن استاذنا يقدم فى كتاباته لوحة متكاملة لحياة «ابن الرومى» ولأغراض شعره ولخصائص هذا الشعر الفنية مع مقارنة فن الشعر بفنون معاصريه من الشعراء الأعلام وهو يستند فى هذا التحليل النقدى التطبيقى على أساس راسخ متين من الثقافة النقدية النظرية التى تضرب بجذورها فى تراثنا العربى من جهة وفى التراث النظرى الغربى من جهة أخرى .

ولعل الجمع بين تراثنا وتراث الغرب مع عدم الخلط بينهما هو الذى جعل من استاذنا ناقداً رائداً يميل إلى الاتزان الوسطية فى ميوله وأحكامه فلا يتحفظ مع المحافظين ولا يتطرف مع المتطرفين بل يقف موقفًا وسطًا قريبًا من روح تراثنا ويعبر عن ذلك الموقف صراحة فى ثنايا كتبه وأبحاثه[4] .

ولئن كان هناك بعض النقص فى الصورة التى قدمها أستاذنا الكبير شوقى ضيف لشاعر فذ مثل «ابن الرومى» فإن هذا النقص لا يعود إلى تقصير من أستاذنا قدر ما يعود إلى النسخة الناقصة التى اطلع عليها أستاذنا من ديوان الشاعر وربما نأخذ على أستاذنا إغفاله لشعر ابن «الرومى» الخارج أخلاقيًا ودينياً مع أنه ينادى فى كتبه بفصل الشعر عن الأخلاق والدين[5] ولكن ينبغى أن نجد بعض العذر له فى بيئة محافظة كبيئة متزمته كالبيئة العربية المعاصرة .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

(٢) د. شوقى ضيف ، العصر العباسى ، مصدر سابق ، ص ٣١٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣١٣ .

(٤) انظر مثلاً د . شوقى ضيف ، فى النقد الأدبى ، المصدر السابق ، ص ٨١ ، وص ١٧٥ .

(٥) د. شوقى ضيف ، فى النقد الأدبى ، مصدر سابق ، ص ٨٣ .

تحية لأستاذنا العظيم ولجهوده الرائدة فى تحليل التراث الشعرى وتقديمه فى أبهى صورة للقارئين والباحثين والنقاد .. !

د . أحمد محمد عبيدان

عضو مجلس الشورى

الدوحة القطر

٢٣ - شوقي ضيف وعصر الدول والإمارات

د. سعد شلبي

شوقي ضيف خلقٌ سَمْحٌ وعلم غزيرٌ ، ابتسامة هادئة ، ووجه مشرق ..!

وإذا كان ابناء الثغر - أي ثغر - يمتازون بالذكاء والصفا والفطنة وسرعة البديهة ، فأبناء دمياط - بالذات - يمتازون بجوار هذا كله بالوداعة والجد ، والعمل والإنتاج وبالحلاوة أيضًا .. يذيبون حلاوتهم في أحاديثهم ، ويسكبون عذوبتهم في كلماتهم ، فتقبل عليهم ، وتسكن إلى رقتهم ، وتجدهم مصداق قول شاعر العرب :

وما البرُّ للأضياف أن تُكثر القرى ولكنّما وجهُ الكريم خَصيبُ

* * *

وعلامتنا يجذبك بابتسامة ، التي تشيع في حديثه ، وتتراءى على محياه إذا أقبلت عليه أو جالسته .. تأمله فتلحظ الاستدارة الغالبة على ملامحه في إبهامة استدارة ، وفي أنفه استدارة ، وفي وجهه استدارة ، فتذكرك هذه الاستدارة بغزارة معارفه ، إنها اشارة إلى عمله الذي يدور حول موضوعاته فلا تدرى من إين يبدأ ، ولا أين ينتهي هو حلقة لا يُدْرى أين طرفاها .. !! أو :

هو البَحْرُ من أيّ النواحي أتيْتَهُ فلجّتُه المعروف ، والبرُّ ساحلُه

تأمل يمناه ، وسوف يروعك احمرار أو التهاب يغطي ظهر بنصره ويزحف على ظهر يده ، وذلك من كثرة ما يكتب ، ومن كثرة احتكاك هذه اليد - البيضاء - بالورق الناعم الأملس ، لتفيض بالعلم ، فما أكثر ما يكتب إذًا للآخرين .

يذكرنا ذلك بقول الرسول ﷺ - لرجل صافحه ، فأحسَّ خشونة يده .. فأطال مصافحته إعجابًا بهذه اليد الخشنة من كثرة العمل ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم « هذه يد ينبغى أن تقبل »

كذلك يد علامتنا التى يوزن مدادها بدماء الشهداء - وقد التهبت من كثرة ما يكتب . ينبغى أن تقبل .

إذا نظرت إليه وجدته : يغض إحدى عينيه ، ويفتح الأخرى ، إنه يتجاوز عن كل زلة فيغض طرفه عنها ، ويحتفل بكل جميل فيمد بصره إليه ، ثم هو .. مع هذا وذاك - رفيع الجانب ، عالى المقدار ، يجله الآخرون ، ويكنون له المحبة والولاء .

يُغضى حياءً ويُغْضَى من مهابته ... فلا يُكَلَّم إلا حين يَبْتَسِمُ

* * *

أما الكتاب الذى سوف نقف عنده فهو عصر الدول والإمارات .. الذى صدر فى جزءْين :

- استقل أولهما بدول وإمارات الجزيرة العربية - والعراق - وإيران .

- واختص ثانيهما : بدول وإمارات : مصر والشام .

وصدر الجزء الأول فى أول يونية سنة ١٩٨٠ فى ٦٨٤ صفحة ، والآخر فى أول أغسطس سنة ١٩٨٤ فى ٨٤٤ صفحة فهما معًا ١٥٢٨ صفحة عن دار المعارف .

والجزآن يتكاملان ، يكاد المؤلف يوحد مقدمتهما ، فجاءتا على نسق واحد فى الإشارة إلى تاريخ العصر وفى عرض قضاياه العامة ، فى مجالى الشعر والنثر .

ولا يرجع تفكير العلامة فى هذا المؤلف إلى السنوات القليلة التى سبقته بل إن فكرته كانت فى ذهنه منذ ربع قرن ، لأنه وعد بتأليفه فى التقديم للحقه الأول من موسوعته التاريخية « العصر الجاهلى » الذى ظهر فى منتصف عصرنا الحديث ، ومعنى ذلك أنه نتاج تفكير طويل امتد سنوات وسنوات .

* * *

لقد أتى هذا الكتاب دليلاً على غزارة المادة ، وإحاطة المؤلف بالتاريخ الأدبى على امتداد عصوره ، زمانًا ومكانًا ، بل ومنهجًا أيضًا .. إنه يسيطر عليه سيطرة تامة ، منهجًا ومضمونًا ، فهو - كبقية حلقات موسوعته - يخضع لمنهج العلماء الطبيعين من الأدباء الفرنسيين أمثال « سانت بيف » فى تقسيم الأدباء إلى فصائل ، و « تين » فى إخضاع الأدب لقانون الزمان والمكان والجنس ، و «برونتير» الذى رأى أن الأدب يتطور ويرتقى كما تتطور الأحياء ، مع ملاحظة أن الأدب واحد من الدراسات الإنسانية ، وفى الوقت نفسه لم يبطل فكرة شخصية الأديب ومواهبه الذاتية .

* * *

بل إننى أعد هذا الكتاب والموسوعة التاريخية كلها - ما صدر منها ومالم يصدر - ثمرة ناضجة يانعة لبحثى :

- « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » .

- « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » .

وقد ظهر أولهما فى إبريل سنة ١٩٤٣ ، وظهر الآخر بعده بثلاثة أعوام أبريل سنة ١٩٤٦ .

وفى كل منهما يصاحب الأدب شعره أو نثره فى مسيرة طويلة بدأت فى العصر الجاهلى وانتهت بالعصر الحديث ، منتقلاً بين الأزمنة والأمكنة والدول والإمارات فى الأوطان العربية مشارقها ومغاربها .

* * *

وهذا الكتاب « عصر الدول والإمارات .. » يبتكر تقسيماً جديداً للعصور الأدبية ، حيث سمى العصر الممتد من سنة ٣٣٤ هـ إلى العصر الحديث - بهذا الاسم ، ورفض ما ذهب إليه عامة المؤرخين حيث يدخلون منه ثلاثة قرون فى العصر العباسى الثانى ، منتهين به حتى سنة ٦٥٦ حين أغار التتار على بغداد ، وحيث كانوا يسمون الحقب التالية حتى الغزو العثمانى لمصر والشام والعراق باسم العصر المغولى ، وسموا فترة حكم العثمانيين لتلك البلاد باسم العصر العثمانى ، قال :

« كل ذلك تصور مخطئ ؛ لأن سلطان الخلافة العباسية تقلص ظلاله منذ سنة ٣٣٤ هـ بحيث لا يكاد يبقى للخلفاء العباسيين منه فى كثير من الأمر سوى بغداد .. وكانت إيران بيد بنى بويه .. والبحرين واليمامه بيد القرامطة ، والموصل وحلب بيد الحمدانيين .. ومن الخطأ الإبقاء على تسمية القرون التالية لغزو التتار بغداد باسم العصر المغولى ، بينما كان سلطان المغول فيها لا يتجاوز إيران والعراق دون بقية العالم العربى .. والجزيرة العربية والشام والأندلس »[1] .

فالمؤلف بذلك يكشف اللثام عن حقيقة هامة أخطأ المؤرخون السبيل إليها .

* * *

والجزء الخامس من هذا الكتاب يتناول الجزيرة العربية فيعرض الحياة السياسية لأقاليمها ، ويبسط الحديث عن مجتمعها البدوى والحضرى ، وما كان من نحل شيعية وخارجية ، وما شاع فيها من الدعوات الدينية ، وما حف بذلك من زهد ونسك .

وصور روافد الثقافة وما صاحبها من العلوم اللغوية والإسلامية وصور نشاط الشعر ، والشعراء : طوائفهم وفنونهم وأساليبهم ، وأبرز ما كان من نشاط فى ألوان الكتابة : ديوانية ، وإخوانية ، وما انتشر من وعظ ، ومحاورات ، ورسائل أدبية .

وصنع مثل ذلك فى إقليم العراق حيث عرض الأحوال السياسية ، والأوضاع الاجتماعية للطبقات العليا والدنيا والوسطى ، وما كان من أنشطة اجتماعية ، وطوابع ثقافية كان من آثارها : الندوات الفكرية ، والكتابات الفلسفية والطبية والعلمية ، والبحوث اللغوية والنحوية والنقدية والدراسات الإسلامية .

ووقف عند الظواهر الشعرية ، فبرهن على كثرة الشعر فى العراق كثرة مفرطة وشيوع الرباعيات والموشحات ، وعنى بتحديد ما بين طوائف الشعراء من فروق ، وما بين الأغراض من ألوان وسمات .

وأشاد بما كان للنثر من تنوع واسع ، حيث انقسم إلى فلسفات ومناظرات ووعظ وقصص ورسائل ، وترجم لعديد من الكتاب النابهين .

---

(١) انظر : عصر الدول والإمارات جـ ٥ ص ٥ .

وعلى هذا النحو عرض لدول وإمارات إيران باسطًا الحديث في السياسة وألوانها، والمجتمع وأحواله ، والثقافة وضروبها ، والأدباء وطوائفهم ، والأدب وفنونه وسماته .

* * *

فإذا ما انتقل إلى الجزء السادس – من هذه الموسوعة – سار على النسق نفسه في الحديث عن الدول والإمارات .. في مصر أولاً ، ثم في الشام ثانيًا ، وكانت عينيه في هذا الجزء وفي سابقه على ما بين الأقاليم من تواصل في العادات والتقاليد والمعيشة والدين ، وإلى ما كان بينها من اتحاد في الشعور والفكر .

وقد كان ذلك شعور الأسلاف حيث كانوا يؤلفون للعالم الإسلامي بحيث تجد قطعة شعرية عراقية ، بجانب إيرانية ، أو موصلية ، أو شامية ، أو مصرية على نحو ما نجد عند الحموي في خزانة الأدب ، وبهاء الدين العاملي في الكشكول ، والخفاجي في ريحانة الألباء .. وكأن هذه الدول والإمارات بلد واحد لم تختلف فيه أوطان ولا أزمان .

وفي هذا الجزء أشاد بفضل مصر ، وبدورها العلمي الخصب ، مما جعل الغرب منذ القرن الثاني الهجري يحمل عنها قراءة ورش للقرآن الكريم ، ومذهب مالك في الفقه ، وجعل الشام والحجاز والمشرق جميعه يحمل عنها مذهب الشافعي .

كما أشاد بالحركة الأدبية والعلمية الواسعة ، فيؤلف الصولي كتابًا في شعرائها ، وابن الداية عن أطبائها ، وابن يونس الصفدي عن علمائها ، وتستقبل مصر دعوة الفاطميين ، ونشاط الأيوبين ، فكانت ملاذاً للحضارة العربية ، وحامية لكل ما اتصل بها من فكر وعلوم وآداب ، وعرض ما كان بمصر وأقاليم الشام وإماراته من نشاط في علوم الأوائل وفي الجغرافيا ، وفي علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة ، والقراءات والتفسير والفقه والكلام والتاريخ والتراجم .

وذكر حشداً من الشعراء النابهين في الشعر النوري والموشحات ، وفي المديح والحكمة والفلسفة ، والتشيع ، وفي الغزل والفخر والهجاء ، وفي الرثاء والشكوى ، وفي وصف الطبيعة ومجالس اللهو ، وفي الزهد والتصوف والمدائح النبوية ، كما ساق حشداً من ألوان النثر التقليدية ، والمقامات والمواعظ والابتهالات ، وألوانًا شتى من أفانين الشعر والنثر .

* * *

ومما يشير إلى سيطرة المؤلف على تاريخ الأدب كله أنه كان يعود ببعض الظواهر - فى هذا الكتاب - إلى ما قبل الإسلام ، ثم يتدرج بها عبر العصور حتى يشارف العصر الحديث .

صنع ذلك التراث اليونانى والعلمي والفلسفى ببلاد الشام : فى القديم ، ثم كشف عن تجدده وخصوصيته فى ظلال الإسلام ، ورصد حركة الترجمة لهذا التراث ، وبيان مدى العناية التى بذلها المسلمون بعلوم الأوائل من رياضيات وطبيعيات ، وطب وجغرافيا ولغة ونحو وبلاغة ونقد .

قلت : إن هذا الكتاب بصفة خاصة ، وأشقاءه من الكتب التاريخية السابقة يسير فيها المؤلف على منهج واحد ارتضاه لا يكاد يحيد عنه .

إنه يعرض للحوادث التاريخية ، السياسية والاجتماعية والثقافية أولاً ، ثم يتأنى فى عرض الجوانب الأدبية ، فيحدثنا عن الشعر وأغراضه من المديح والرثاء والشكوى .

ثم ينتقل إلى الحديث عن طوائف الشعراء من أهل الغزل والفخر والهجاء ثم شعراء الوصف ومجالس اللهو ، ثم شعراء الزهد والفكاهة ، ويختم عادة بالشعراء الشعبيين .

ثم يحدثنا عن النثر وكتابه : فيبدأ بالرسائل الديوانية ، ثم الشخصية ، والمقامات ثم المواعظ والابتهالات ، ويختم عادة بالنوادر والسير والقصص الشعبية .

فأذا تأملته فى منهجه هذا وجدته يجمع الأشباه والنظائر ، ويرد الجزئيات إلى كلياتها ، والفروع إلى أصولها بحيث تلحظ لها فى نهاية المطاف قواعد عامة وفلسفة شاملة .

ومعنى ذلك أنه حول تاريخ الأدب فكرة أو نظرية ، وبعبارة أدق إلى علم قد تحددت مناهجه ، وعرفت خطواته ، واستقرت قضاياه ، فهو - على ما أعتقد - رائد فى فلسفة الأدب : نظرياته ومناهجه .

* * *

وقد تراءى بوضوح فى هذا الكتاب : - وما كان ذلك بالهين أو اليسير ، فقد اقتضاه هذا أن يبحر فى العديد من المراجع التى لم تتيسر لغيره ، وإن تيسرت فلن يستطيع أن يتعامل معها أو يوظفها على النحو الذى تعامل هو معها ووظف .

من هذه المراجع : يتيمة الدهر للثعالبى وتتمتها ، ودمية القصر للباخرزى ، وخريدة القصر للعماد الأصفهاني ، وكشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار لابن غانم المقدسي ، ورسالة النسر والبلبل ، وكتاب الاعتبار ، وكتاب نسيم الصبا ، وفكاهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ، وتاريخ اليمن وأخبار صنعاء لعمارة اليمني ، وكتاب الصليحيين للهمداني ، والدر لابن حجر ، وتاريخ ثغر عدن لباخرمة .

وغير ذلك كثير من كتب التاريخ والجغرافيا والثقافة والأدب شعراً ونثراً هذا عدا كثير من الدواوين وكتب المستشرقين والمحدثين .

والكتاب - بجزءيه - يفتح أبواباً لدراسات عليا ، ينبغى أن يوجه إليها الباحثون حتى يخرجوا من هذه الدائرة والمحكمة التى يدورون فيها ، ويستهلكون موضوعاتها ، ولا يزالون يلحون فى دراستها ، وكأنه ليس فى ساحات البحوث غيرها ، وإن هذا الكتاب يطرح موضوعات جديدة :

- كالأدب : شعراً أو نثراً فى إقليم مثل : اليمن أو حضرموت أو عمان أو البحرين - فى الجزيرة العربية - أو فى الدولة المغولية أو التركمانية أو الصفوية فى العراق ، أو الخوارزمية أو السامانية أو الزيارية فى إيران .

- وكدراسة فن معين فى هذه الفترة ، والكتاب - فى هذا المجال - يطرح موضوعات مثل : شعر الفلسفة ، والشعر التعليمى ، والدورى ، والرباعيات ، والموشحات ، والبديعيات ، والتعقيدات فى مصر والشام .

- وهنا شخصيات هامة فى مجال الشعر ، أو النثر عرف بها الكتاب وأشار إلى العديد من مراجعها أمثال : أبى الفرج بن هند ، وأبى الفضل السكرى المروزى ، وقابوس بن شمكير ، والسهرودى ، وأبى بكر القهستاني من الشعراء ، وأمثال العلاء بن الموصلايا ، وأبى النصر العتبى ، ورشيد الدين الوطواط من الكتاب .

– أو حول كتب معينة ككتك التى تتخذ من النوادر موضوعًا لها مثل : كتاب المكافأة ، وأخبار سيبويه المصرى ، والفاشوش فى حكم قراقوش .

* * *

ثم بعد هذا السداد فى الفعل والقول والعمل ، نجد علامتنا يتطامن ويتواضع – وهذا شأنه فى جميع بحوثه – فيقول فى مقدمة الجزء الخامس من هذا الكتاب :

« .. ولا أزعم أننى استطعت أن أوفى هذا الرسم حقه كاملاً فى الدقة والاستقصاء » .

ويقول فى مقدمة جزئه السادس :

« .. وأعترف أن كتب الأسلاف غنية غنى وافراً بالنصوص التى تصور حياة الأدب فى مصر والشام ، ولا أزعم أنى صورت تلك الحياة تصويراً كاملاً ، وإنما حاولت ذلك جهدى .. !! » .

أ . د . سعد شلبى

أستاذ الأدب العربى

كلية التربية – جامعة طنطا

٢٤ - عصر الدول والإمارات - الأندلس

د. عاطف العراقى

لا أكون مبالغًا إذا قلت : إن المهتمين بأدبنا العربى من قريب أو من بعيد ، يدركون تمام الإدراك الجهد الكبير الذى يقوم به الأستاذ الدكتور شوقى ضيف فى مجال الفكر والثقافة عامة ، والأدب العربى على وجه الخصوص . ومن الميادين التى يهتم بها كتابة موسوعة يؤرخ فيها للأدب العربى قديمه وحديثه .

والكتاب الذى نعرض له الآن ، كتاب « عصر الدول والإمارات » يعد حلقة من حلقات السلسلة التى يؤرخ فيها لتاريخ أدبنا العربى . وقد صدر هذا الجزء الخاص بالأندلس منذ شهور قليلة ، وفرح به القراء فى كل أرجاء عالمنا العربى من مشرقه إلى مغربه ، لأهمية موضوعه من جهة ، ولأن مؤلفه هو الرائد الكبير الدكتور شوقى ضيف ، وهو مَنْ هو فى دقة بحوثه وعمق ثقافته وأصالته الأكاديمية التى لا حدود لها ، وحسه النقدى الممتاز وقدمه الراسخة فى مجال الدراسات الأدبية والفكرية .

ومؤلفات الدكتور شوقى ضيف ، قد تعجز عن القيام بتأليفها مدرسة كاملة من الباحثين والدارسين ، لقد قدم مجموعة من الكتب الرائدة فى الدراسات القرآنية ، وفى تاريخ الأدب العربى كالعصر الجاهلى ، والعصر الإسلامى ، والعصر العباسى الأول ، والعصر العباسى الثانى ، وثلاثة مجلدات فى عصر الدول والإمارات ، المجلد الأول عن الجزيرة العربية والعراق وإيران ، والمجلد الثانى عن مصر والشام ، والمجلد الثالث عن الأندلس ، وهو المجلد الذى يعد موضوع دراستنا الآن ؛ وكل مجلد من هذه المجلدات زادت صفحاته عن نصف ألف ، بل إن المجلد الثانى عن مصر والشام اقتربت صفحاته من الألف صفحة .

والدكتور شوقى ضيف لا يكل ولا يمل ، لقد قدم لنا عشرات الكتب فى مكتبة الدراسات الأدبية كالفن ومذاهبه في الشعر العربي ، والفن ومذاهبه فى النثر العربى ، والأدب العربى المعاصر فى مصر ، والبارودى ، وشوقى ، بالإضافة إلى العديد من الدراسات النقدية والدراسات البلاغية واللغوية ، وفنون الأدب العربى ؛ كالرثاء والمقامة والنقد والترجمة الشخصية والرحلات .

وانطلاقًا من ايمان رائدنا الدكتور شوقى ضيف بأهمية التراث الذى قدمه أجدادنا ، لم يكن مكتفيًا بالتأليف ، بل أضاف إلى التأليف ، الاهتمام بمجال التحقيق ، وهل يمكن أن ننسى مجهوداته فى تحقيق كتاب المغرب لابن سعيد ، وكتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد ، وكتاب الرد على النحاة ، وكتاب الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر ، إلى آخر الكتب الرائعة فى مجال التحقيق ، ألم أقل لكم أيها السادة القراء إن أستاذنا الدكتور شوقى ضيف يعد مدرسة متكاملة وموسوعة أدبية حية .

والكتاب الذى بين أيدينا اليوم ، كتاب عصر الدول والإمارات (الأندلس) يعد المجلد السابع فى سلسلة تاريخ الأدب العربى ، إذ سبقه مجموعة من المجلدات عن بلدان شتى ، وعصور كثيرة ، وذلك على النحو الذى أشرنا إليه منذ قليل ، إنه يعد دراسة أكاديمية ذات مستوى رفيع ، ويكفى أن يطالع القارئ صفحات الكتاب ، وسيدرك تمام الإدراك مبلغ الجهد الذى بذله الدكتور شوقى ضيف ، واعتماده على المصادر الرئيسية الدقيقة .

ولقد كنت حريصًا على قراءة الكتاب قراءة واعية منذ تسلمى له من الدكتور شوقى ضيف ، لأننى أعلم من خلال متابعتى لأعماله ، أن هذا الأستاذ الرائد قد دخل تاريخنا الأدبى المعاصر من أوسع الأبواب وأرحبها ، وكم كنا وما زلنا نتحدث عن عالمنا الجليل الدكتور شوقى ضيف أثناء العديد من اللقاءات الخاصة برابطة الأدب الحديث .

ولا أخفى على القراء أننى كلما كنت انتهى من قراءة فصل من فصول الكتاب ، وأشرع فى قراءة الفصل الذى يليه ، أقول لنفسى إن هذه الدراسة الرائدة ، لعصر

الدول والإمارات تعد بحراً على بحر ، تعد عميقة غاية العمق ، وسامية غاية السمو والرفعة ، كنت أقول باستمرار : إلى الجحيم يا أشباه الأساتذة وأشباه الأدباء ، والذين تحسبهم أدباء وما هم بأدباء ، تحسبهم يدخلون في إطار الأدب ، والأدب منهم براء ، ليتنا نتعلم من الدكتور شوقي كيف يكتب ، ليتنا ندرك مجهوداته العظيمة والرائدة والتي يقوم بها في صمت بعيداً عن بريق الشهرة والطبل الأجوف ، إن أديبنا في دراسته عن الأندلس يعد كالجبل الراسخ البنيان ، كالهرم في شموخه وعظمته .

ويتضمن كتاب « عصر الدول والإمارات – (الأندلس) مقدمة وخمسة فصول .

يقول المؤلف في الصفحات الأولى من كتابه : إن هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاص بالأندلس في عصر الدول والإمارات .. وهذه الدراسة المستفيضة لتاريخ الأدب العربي في الأندلس أثناء ثمانية قرون طوال ، جعلتني أرجع إلى كل ما استطعت الاطلاع عليه من المصادر والمراجع الأندلسية المتصلة بكتب التاريخ والتراجم ، وكتب علوم الأوائل ، والعلوم اللغوية والدينية ، وكتب الشعر ودواوينه ، وكتب النثر وأعمال كتابه ، كما رجعت إلى طائفة من كتب المستشرقين والباحثين محاولاً بقدر ما استطيع أن أرسم هذه الصورة المستوعبة لأدب الأندلس ، مع تصحيح الأحكام المخطئة التي من شأنها الغض من مكانته الرفيعة ومن المدى الخطير الذي أثّر به في الأدب الأسباني والآداب الأوربية (ص١٢) .

هذا ما يقوله المؤلف في السطور الأخيرة من مقدمة كتابه . والواقع أننا نجد أنفسنا

أمام موسوعة ، تفتح العديد من الآفاق أمام كل الدارسين مستقبلاً . موسوعة تثير العديد من القضايا والمشكلات التي أثيرت في الماضي وما زالت تثار حتى الآن ، موسوعة زادت صفحاتها – كما قلت – عن نصف ألف من الصفحات ، والصفحة الواحدة تعد ثمرة اطلاع غزير ، وتحليل فذ ، وتأمل طويل من جانب الدكتور شوقي ضيف .

أما الفصول التى تضمنها الكتاب فهى على النحو التالى :

الفصل الأول : السياسة والمجتمع .

الفصل الثاني : الثقافة .

الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء .

الفصل الرابع : طوائف من الشعراء .

الفصل الخامس : النثر وكتابه .

ونود أن نقف وقفة تحليلية عند كل فصل من الفصول ، وقفة لا يمكن أن توفى الكتاب حقه فى البحث والدراسة ، وخاصة فى حدود النطاق المرسوم للمقالة .

خصص المؤلف الفصل الأول - كما قلنا - للحديث عن السياسة والمجتمع ، وقد نجح المؤلف فى تصوير الحياة الفكرية فى مجال ارتباطها بالسياسة والمجتمع ، وذلك من خلال دراسة التكوين الجغرافى والبشرى ، والحديث عن الدولة الأموية وأمراء الطوائف من مرابطين وموحدين ، والحضارة والغناء والمرأة ، وأيضًا الزهد والتصوف .

وأستطيع القول بأن هذا الفصل الأول يعد من الفصول الهامة والضرورية فى الكتاب ؛ إن هذا الفصل لا غنى عنه للحديث بعد ذلك عن الشعر والثقافة والنثر ، وذلك على النحو الذى نجده فى كتاب « عصر الدول والإمارات » (من الفصل الثانى حتى الفصل الخامس والأخير) .

إن هذا الفصل يكشف عن عمق المؤلف وثرائه الفكرى وغزارة اطلاعه ؛ وعلى الرغم من اهتمامى بأكثر ما كتب عن الأندلس أثناء دراستى لفكر فلاسفة الأندلس ، كابن طفيل وابن رشد ومنذ أكثر من ربع قرن من الزمان ، إلا أننى وجدت فى هذا الفصل الأول من فصول كتاب « عصر الدول والإمارات (الأندلس) » مجالات جديدة وآفاق مبتكرة لم أكن أعرفها قبل قراءتى لكتاب رائدنا الدكتور شوقى ضيف ؛ لقد رجع مؤلفنا الفاضل إلى حشد هائل من المصادر والمراجع ، وقدم لنا رؤية أكاديمية دقيقة وتحليلاً رائعًا لكل مجال من المجالات ، التى تدخل فى إطار هذا الفصل

بأقسامه الستة ، والتي يعد كل قسم منها مرتبطًا بالقسم الذي يسبقه ، ومؤديًا إلى القسم الذي يليه مما يكشف عن وحدة عضوية دقيقة ، إن أقسام هذا الفصل على النحو التالي :

١ - التكوين الجغرافي والبشرى .

٢ - الفتح ، ثم عصر الولاة .

٣ - الدولة الأموية .

٤ - أمراء الطوائف والمرابطون والموحدون وبنو الأحمر فى غرناطة .

٥ - المجتمع (الحضارة - الغناء - المرأة) .

٦ - التشيع والزهد والتصوف .

ومن الواضح أن الدكتور شوقى ضيف يدرك تمام الإدراك أثر البيئة الجغرافية ، والبيئة الاجتماعية على تشكيل شخصية الفرد الثقافية وبلورة آرائه الأدبية ، إن هذا يتبين لنا تمامًا حين ننتقل من حديثه عن التكوين الجغرافى والبشرى إلى دراسته للثقافة ، وهذا هو موضوع الفصل الثانى من كتابه : عصر الدول والإمارات ، لقد تضمن هذا الفصل الممتع تحليلاً للحركة العلمية وعلوم الأوائل والفلسفة ، وعلم الجغرافيا والتاريخ ، بالإضافة إلى علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد والتفسير والحديث والفقه والكلام .

إن هذا الفصل والذى اقتربت صفحاته من المائة صفحة . إن دلنا على شىء ، فإنما يدلنا على الجهد الكبير الذى قام به الدكتور شوقى ضيف ؛ لقد قدم للباحثين دراسة رائدة ، دراسة أكاديمية تبدو فى أول صفحات الفصل حتى آخر صفحاته ، ويقينى أن كل دارس أو مهتم بالاندلس من قريب ، أو من بعيد سيجد الطريق أمامه معبدًا بعد المجالات التى فتحها لنا رائدنا الكبير فى دراسته « للثقافة » فى الفصل الثانى من كتابه ، صحيح أن حديثه عن بعض الأبعاد الثقافية كان يحتاج إلى أن يشير إلى بعض الأبعاد بنوع من الإيجاز .

ويبين لنا الدكتور شوقي ضيف من خلال حديثه عن علوم الأوائل ، دور العرب في هذا المجال ، إنه يقول معتمداً في ذلك على مصادر دقيقة : لم يكن في أسبانيا قبل فتح العرب لها شيء واضح من علوم الأوائل في الرياضيات وغير الرياضيات ، ويبدو أن العرب أخذوا يجلبون أطرافًا منها منذ أواخر القرن الثاني الهجري مما ترجم في بغداد عن اليونانية وغيرها . (ص٧٢) .

وهذا القول من جانب الدكتور شوقي ضيف يعد صحيحًا إلى حد كبير ، وخاصة إذا وضعنا في اعتبارنا ازدهار حركة الترجمة في المشرق العربي أيام العباسيين بصفة خاصة ، صحيح أن أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة أيام خالد بن يزيد بن معاوية ، حين أمر بترجمة كتب الكيمياء من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية ، ولكن النقل المنظم والمزدهر لم يحدث إلا أيام العباسيين ، وعن المشرق انتقلت الثقافة ، ومنها علوم الأوائل إلى بلاد الأندلس .

وفي حديث الدكتور شوقي ضيف عن الفلسفة في بلاد الأندلس ، يبين لنا مدى اهتمام تلك البلاد بالفلسفة والفلاسفة ، وإذا كان مؤلفنا الفاضل يتحدث عن محمد بن عبد الله بن مسرة ، وأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني السيد البطليوسي ، فإنه قد أدرك أن هؤلاء لا يعتبرون فلاسفة بالمعنى الدقيق ، إذ إن أول فيلسوف أندلسي بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف هو ابن باجه (ص٨٤) .

وهذا القول من جانب الدكتور شوقي ضيف يعد صادقًا تمامًا ، إذ إن ابن باجه وابن طفيل وابن رشد هم فلاسفة الأندلس ، وقد رجع الدكتور شوقي ضيف في حديثه عن مجموعة المفكرين الذين نجد لديهم اهتمامات فلسفية كابن مسرة ، وفي حديثه عن فلاسفة الأندلس ، إلى عشرات المصادر والمراجع مما يدلنا على عمق ثقافته وإحاطته التامة بكل جوانب الموضوع الذي يتصدى للكتابة فيه .

لقد رجع إلى عشرات المصادر والمراجع القديمة منها والحديثة ، وقد تفضل مشكوراً بالإشارة إلى ما كتبته عن ابن طفيل ، وما كتبته عن ابن رشد آخر فلاسفة العرب في كتابي : « النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد » ، و« المنهج النقدي في فلسفة ابن رشد » ، ألم أقل لكم أيها القراء الأعزاء ، إن الدكتور شوقي ضيف لا يكل

ولا يمل . إنه يتابع متابعة تامة كل ما يصدر من كتابات ، لا يكتب عن موضوع إلا بعد الرجوع إلى أكثر ما كتب عنه ، إنه يقدم لنا حديثه عن كل شخصية من الشخصيات العديد من المعلومات التى تدلنا على عمق ثقافته الأدبية والفلسفية ، إنه على سبيل المثال يتحدث عن ابن مسرة فيقول : يبدو أنه اعتنق مبكراً بعض الآراء الفلسفية والاعتزالية مما جعل بعض الفقهاء يتهمه فى عقيدته ، وكأنما خشى على نفسه فرحل فى سنة (٢٩٩ هـ) إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج ، واختلف فى رحلته إلى حلقات المتكلمين ومجالس المتصوفة ، وعاد إلى موطنه ، فاعتزل فى ضيعة له بقرية من قرى قرطبة ، واجتذب إليه كثيرين عاشوا معه فى عزلته ، وآمنوا بما كان يردده من آراء تتصل بالاعتزال والفلسفة والتصوف . (ص٨٢) .

وفى حديثه عن ابن باجة ، يشير إلى هذا الفليسوف والذى يعد أول فلاسفة الأندلس ، قد انحدر من أسرة فى سرقسطة شمالى الأندلس كانت تحترق الصياغة .. ويبدو أنه أكب مبكراً على دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل ، كما أكب على علم الألحان والغناء .. وكان شاعراً مبدعاً ، كما كان ناثراً بليغاً (ص٨٤) .

ويشير الدكتور شوقى ضيف فى حديثه عن ابن باجة ، والذى يعد أول فلاسفة المدرسة العقلية الأندلسية ، إلى مدينته الفاضلة من خلال كتابه الممتاز ، « تدبير المتوحد » لقد تخل فى هذا الكتاب مدينة فاضلة مثالية لا يحتاج أهلها إلى طوائف الأطباء الثلاث : لا أطباء البدن ؛ لأن أهلها لا يرتكبون أى رذيلة تسبب لهم المرض ، ولا أطباء العدالة ؛ لأن أهلها متحابون لا يقع بينهم ما يحتاجون معه إلى قضاة وقضاء ، ولا أطباء النفوس ؛ لأن أهلها كاملون . ويفيض فى بيان الصور الروحية والعقلية ، وأن غاية المتدبر اتحاد عقله بالعقل العلوى الفعال حتى يبلغ حتى مرتبة المعرفة العقلية الحقيقية . (ص٨٥) .

وكما يحدثنا الدكتور شوقى ضيف عن ابن باجة ، فإنه يعرض علينا بعض جوانب فلسفة ابن طفيل ، وفلسفة ابن رشد ، ويشير إلى أثر فلسفة ابن رشد قائلاً : وظلت فلسفة ابن رشد وتعاليمه وأفكاره تدرس فى الغرب منذ القرن الرابع عشر ، وعلى الرغم من أن مجمع لا تران البابوى قرر سنة ١٥٠٢ لعن كل من ينظر فى فلسفة

ابن رشد ظل له أنصار كثيرون ، وظل يدرس في الجامعات الغربية حتى العصر الحديث ، ومما لا ريب فيه أنه لفلسفته وأفكار وأثر بعيد فى قيام حركة التحرر والإصلاح الدينى فى النهضة الأوربية (ص ٨٨) .

ومن الواضح أن الدكتور شوقى ضيف قد وفق تمام التوفيق فى عرض آراء المفكرين والأدباء والفلاسفة ، وإن كنا نختلف معه حلول بعض الآراء الجزئية ، وخاصة فيما يتعلق بنسبته إلى ابن رشد القول بقدم المادة وحدوثها معاً (ص٨٨) ، وإذ إن ابن رشد يقول بقدم ، أى أزلية المادة ، وهو صحيح فى ذلك تمام الصراحة .

أما الفصل الثالث الذى خصصه المؤلف للحديث عن نشاط الشعر والشعراء ، فقد جاء آية فى العمق والدقة والتحليل البارع ، وذلك كعهدنا دائماً فى مؤلفنا الرائد، الدكتور شوقى ضيف ، أنه سيتحدث عن شعراء الموشحات ، وشعراء المديح وشعراء الفخر والهجاء ، وعن الشعر التعليمى .

والقارئ لهذا الفصل يدرك تمام الإدراك الجهد الكبير الذى قام به الدكتور شوقى ضيف ، إن هذا الفصل وحده يحتاج إلى سنوات وسنوات طوال ، وإذا كنا نجد نوعًا من الإيجاز فى حديث مؤلفنا عن بعض الشعراء ، إلا أن هذا لا يقلل من أهمية هذا الفصل ، لقد كان الإيجاز ضرورياً إلى حد كبير ، وخاصة إذا وضعنا فى اعتبارنا اتساع نطاق الفصل الثالث ، وتنوع الفنون عند الشعراء من أمثال : ابن عبد ربه ، وابن دراج القسطلى، وابن الحداد القيسى ، وابن زمرك ، وسعيد بن جودى السعدى ، وعبد الملك بن هذيل ، ويحيى الغزال ، وحزم القرطاجنى ، لقد صنف الدكتور شوقى ضيف أنواع الشعراء تصنيفاً آية فى الدقة ، وميز لنا بين كل نوع والنوع الآخر من الشعراء ، وربط بين الأنواع التى عرض لها .

وإذا كان الدكتور شوقى ضيف قد تحدث فى الفصل الثالث عن نشاط الشعر والشعراء ، فإنه ينتقل بنا إلى الحديث عن طوائف من الشعراء ، شعراء الغزل والطبيعة والرثاء والزهد والمدائح النبوية ، وهذا هو موضوع الفصل الرابع فى كتابه ، وقد جاء هذا الفصل بصفحاته التى جاوزت بكثير المائة صفحة ، آية فى الدقة والوضوح والدراسة الأكاديمية ذات المستوى الرفيع والأصيل ، إن هذا الفصل كسائر الفصول

التى تضمنها الكتاب يكشف عن عمق ثقافة المؤلف ، إن مؤلفنا الدكتور شوقى ضيف قد اعتمد على أهم وأدق المصادر والمراجع ، يمضى من دراسة مجال إلى دراسة مجال آخر من المجالات العديدة التى تدخل فى إطار هذا الفصل . وأقول إن المهتم بتاريخنا الأدبى يجد العديد من الآفاق الجديدة والحديثة والتى من الصعب أن يجدها فى مؤلفات أخرى ، إن الدكتور شوقى ضيف يكشف من خلال هذا الفصل عن عوالم جديدة وذلك فى ثقة ويقين ، واثق الخطوة يمشى ملكًا .

إنه يقول فى السطور الأولى من هذا الفصل عن شعر الغزل : لا نبالغ إذا قلنا إن الغزل أهم موضوع شغل شعراء العرب فى جميع عصورهم وأقاليمهم ، وقد ظلوا يصورون فيه عاطفة الحب الإنسانى الخالدة ، ويضيفون فيه من الأحاسيس ولخواطر ما يملأ مجلدات فى كل عصر على حدة ، بل أيضاً فى كل إقليم . ودائمًا الشاعر موزع بين وصال ولقاء ، وبين وداع وفراق ، تارة هانئ بحبه وتارة شقى محروم يشكو الهجران ، ويتمنى لمحة خاطفة ولو من بعيد ، حتى إذ أقبلت عليه صاحبته ، أحسَّ بفرحة لاتمامها فرحة ، فإذا انصرفت عنه ، أظلمت الدنيا فى عينيه واحتمل ما لا يطاق من الآلام والعذاب ، ومضى يئن بالشكوى ويتضرع ويستعطف . (ص ٢٥٦) .

ولا يخفى علينا الدكتور شوقى ضيف حين يقول هذا القول إنما يكون معتمداً على دراسة الأدب فى كل عصوره ، إنه يتحدث عن الغزل ليس فى عصر دون عصر ، وليس فى إقليم أو بلدة دون إقليم أو بلدة أخرى، بل إنه يربط بين كافة العصور وكافة البلدان، وهذا يدلنا على ثقافته الواسعة الشاملة ليس فى مجال الأدب فحسب ، بل فى مجال الدراسات النفسية أيضًا ؛ إنه يصف وصفًا دقيقًا حال المحب ، وهذا يذكرنا بما فعله الدكتور يوسف مراد فى كتابه «مبادئ علم النفس العام» ، حين اتخذ من القصص الأدبية ومن بينها قصة سارة ، مادة لدراساته النفسية فى بعض مجالتها ، أى ربط بين الجوانب النفسية والجوانب الأدبية .

أما الفصل الخامس ، فقد خصصه الدكتور شوقى ضيف للحديث عن النثر وكتابة لقد تحدث عن أصحاب الرسائل الدوانية والرسائل الشخصية والرسائل الأدبية، كما حلل تحليلاً دقيقًا العديد من الأعمال النثرية ، ومن بينها على سبيل المثال : كتاب

طوق الحمامة لابن حزم ، والذخيرة لابن بسام ، وقصة حي بن يقظان لابن طفيل الفيلسوف والأديب الأندلسي .

وهذا الفصل كبقية الفصول التي تضمنها كتاب الدكتور شوقي ضيف ، به وحشد كبيراً جداً من المعلومات التي لا غنى عنها لدارسي الأدب أو الفكر العربي من قريب أو من بعيد ، لقد رجع إلى مئات المصادر والمراجع التي تعد هامة غاية الأهمية ، ومن النادر أن نجد صفحة من صفحات هذا الفصل والتي جاوزت المائة والخمسين صفحة إلا ويذكر لنا الدكتور شوقي ضيف العديد من المراجع الهامة ، إن هذا يدلنا على أمانته ، العلمية وموضوعيته في البحث ، لقد أضاف إلى البعد الموضوعي بعداً ذاتيًا نقديًا ، وهذا يدلنا على شخصيته البارزة في البحث ، بالإضافة إلى أن هذا الفصل ، عن طريق المنهج الدقيق الذي التزم به رائدنا الدكتور شوقي ضيف ، يمثل وحدة عضوية ليس في حد ذاته فقط ، بل مع سائر فصول الكتاب ، فإذا ذكر ابن مسرة أثناء حديثه عن الرسائل الديوانية (ص ٢٩٢) فإنه يربط ربطًا وثيقًا بين ما يقوله عن ابن مسرة في هذا المجال ، وبين ما سبق أن ذكره عنه ، وذلك على النحو الذي سبق أن أشرنا إليه ، وإذا ذكر ابن طفيل وقصته حي بن يقظان (ص ٥١٢) فإنه يفعل نفس الشئ ، وهذا يدلنا على أن كتاب الدكتور شوقي ضيف ليس مجموعة من الفصول المتناثرة التي نجدها عند أشباه الدراسين وأشباه أساتذة الأدب ، بل إنه على العكس من ذلك تمامًا ، يمثل كما قلنا وحدة عضوية متماسكة ، إنه لا يكتب سطراً من موضوع في مئات الموضوعات التي عرض لها في هذا الفصل ، إلا بعد التأمل الدقيق والتحليل الرائع والربط بين كل مجال والمجالات الأخرى ، إنه يميز تمييزاً دقيقًا بين الرسائل الديوانية ، والرسائل النبوية والمواعظ ، والأعمال النثرية ، والمقامات والرحلات .. إلى آخر المجالات التي يزخر بها الفصل الخامس والأخير من فصول كتابه .

والواقع أن هذا الكتاب «عصر الدول والإمارات (الأندلسي) » للدكتور شوقي ضيف ، على الرغم مما أشرنا إليه في بعض الملحوظات النقدية من جانبنا ، يعد سياحة أدبية وفكرية كبرى ، إنه يعبر عن شموخ أدبي وثقافي وفكري قلَّ أن نجد له نظيراً، وإذا كنا نفخر بكتاب تاريخ الفكر الأندلسي لبالنثيا ، فإن من واجبنا أن نفخر

بكتاب الدكتور شوقى ضيف، إننا فى هذا الكتاب نجد أنفسنا أمام مائدة فكرية كبرى، مائدة لايستطيع أن يقدمها إلا رائدنا العملاق الدكتور شوقى ضيف ، ألم أقل لك أيها القارئ العزيز إن هذا الكتاب يعد فى مقدمة الكتب التى صدرت عام ١٩٨٩ ، إنه موسوعة أدبية ضخمة قدمها الدكتور شوقى ضيف ، الأستاذ والرائد بكل ما تحمله الأستاذية وكلمة الريادة من معان سامية ودلالات عميقة ونبيلة .

أ.د. عاطف العراقى

أستاذ الفلسفة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة القاهرة

٢٥ - البحث عن الشخصية المصرية عند شوقي ضيف

د. أحمد يوسف

تزدهر الحياة الثقافية بعطاء الأعلام ، وحياتنا العلمية والثقافية الحديثة أبدعها أعلام مصريون جيلاً وراء جيل ، وكان جيل الرواد صاحب مهمة التنوير ، والجيل الذى تحمل مسئولية تمهيد التربة وانتقاء البذور الصالحة للإثمار والإنبات ، وترك هذا الجيل تلاميذ على الدرب ، وعوا أبعاد مهمة التنوير بشقيها التاريخى والمعاصر ، وأستاذنا شوقى ضيف واحد من هؤلاء الأعلام الذين ارتبطوا بتاريخ أمتنا العربية الإسلامية وتراثها ، فقد موهما - التاريخ والتراث .. متجادلين فى صور أبحاث علمية تميزت بالشمول والموسوعية ولأن التاريخ والتراث - هو تاريخ حضارة ذات مستويات معرفية وإنسانية وفلسفية وأدبية متعددة ؛ لأن تراثها يعد دالاً قوياً على خصوبة هذه الحضارة ، فإن القارئ لأى بحث من أبحاث أستاذنا تقع عينه دائمًا على الطبيعة الموسوعية لما قدمه هذا الأستاذ الجليل .

ولئن كانت طبيعة المادة العلمية المستقاة من تراث الحضارة العربية الإسلامية سبباً مباشراً من أسباب هذه الصفة الموسوعية لما قدمه شوقى ضيف ، فإن هناك سبباً مباشراً آخر ، لا يمكن تجاهله أو إخفاؤه ، وهو أنه تأثر بجيل الرواد الذى اقتضت منه مهمة التنوير ، والقضية الوطنية المصرية - الحرية والاستقلال - أن يلتفت التفاتة قوية وفعالة إلى التراث الحضارى والتاريخى للشعب العربى والمصرى ، كما التفت أيضًا إلى معطيات الحضارة الأوربية الحديثة والمعاصرة ، ولا نزعم أن شوقى ضيف التلميذ ، كان صدى مباشراً لأساتذته فى كل خطوة من خطواتهم ، ولكنا نعتقد أنه اختار طريقة بحريه شديدة داخلها إعجابه الواضح بأستاذه طه حسين ، وأحمد

أمين فى الجامعة ، والعقاد ومواقفه السياسية وهو خارج الجامعة ، ويؤكد ذلك ما ورد فى الكتيب الذى كتبه أستاذنا شوقى ضيف مترجماً من حياته وعلاقاته بأعلام جيل الرواد ، وهم فى خضم المعترك السياسي والعلمي والاجتماعى .

وقد أفرزت هذه الصفة الموسوعية صفة أخرى اقترنت بها ، ونبتت فى مهادها ، وهى الاهتمام بالسياق التاريخى لما يدرسه من ظواهر ، أو يحلله من قضايا ، وهما صفتان رأيناهما فيما قدمه أعلام جيل الرواد غير أنهما تأصلتا فى كل كتابات شوقى ضيف ، الذى امتلك إلى جانب ذلك صفة الاعتدال فى منهجه من حيث الأحكام والتحليل والتفسير ، كما أهتم بجمع الوقائع التاريخية الخاصة بكل ظاهرة .

وقد تبدى هذا الحس الموسوعى والتاريخى لدى شوقى ضيف منذ بداية حياته العلمية المثمرة ، حينما توجه عقله إلى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى باحثًا عن ظاهرة النقد الأدبى ، وتطورها على امتداد العصور التاريخية التى أرّخ لها هذا الكتاب ، وهى عصور ممتدة حتى القرن الرابع الهجرى ، وكان هذا التوجه المبكر أول علامة على تفتح وعى الشاب الباحث شوقى ضيف على تاريخ أمته وتراثها ، فحدد موضوعه فى «النقد الأدبى فى كتاب الأغانى» ليكون أطروحته الأولى ، وقد فرض هذا الموضوع منهجه التاريخى ، كما فرض كتاب الأغانى نفسه الحس الموسوعى الذى نما ، وازداد عند أستاذنا شوقى ضيف ، فهذا الكتاب من ناحية كتاب يمكن أن يوصف بالموسوعة ؛ فهو لا يقدم التاريخ الأدبى لفن الشعر فقط بل يقدم أيضًا صورة حضارية واسعة ، لنموذج الحياة الغنائية والموسيقية ، والاجتماعية ، والسياسية ، كما رآها مؤرخ عاش فى القرن الرابع الهجرى ، ومن ناحية أخرى اعتمد الأصفهانى التقسيم السياسى للعصور ، والسرد التاريخى والرواية نهجًا لكتابه ، ومن ثم فإن هاتين الصفتين ، الحس الموسوعى والتاريخى ، كانت لهما بداياتهما العلمية فى حياة الباحث الشاب شوقى ضيف .

وقد تأصل هذا الاتجاه البحثى عنده ، فى أطروحته الثانية «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» ، فمن حيث المنهج التاريخى ، صار الاعتماد على التقسيم السياسى للتاريخ مرتبطًا بالدول وقيامها وقوتها وزوالها - أساسًا من أسس تناول الظاهرة

الأدبية التى أصبحت عنده مرتبطة بهذا التقسيم من حيث نشأتها ، وازدهارها ، وخفوت صوتها أو اختفاؤها . ويتواكب مع هذا التقسيم السياسى ، تحديد ملامح العصر المدروس أو العصور اجتماعياً وثقافياً وعقلياً ، ويضاف إلى ذلك أن هذا الموضوع يتناول تحديد المذاهب الفنية التى رآها أستاذنا شوقى ضيف ، أطراً تضمنت إبداع الشعراء العرب والمسلمين ، وهى أطر لم تقف عند عصر ما من العصور ، بل إنها امتدت إلى جميع العصور الأدبية ، وكان هذا المدخل المنهجى يتطلب تحديد النماذج التى تعكس هذه الأطر ، لذلك اختار أستاذنا الأعلام من الشعراء فى المشرق والمغرب على امتداد تاريخ الشعر العربى ، على أساس أن كل علم منهم يمثل عصره الذى عاش فيه تمثيلاً يعكس درجة الذوق الفنى ، والسيطرة على أداة الفن الشعرى .

(٢)

وهنا يبرز سؤال : ما الهدف الفكرى وراء هذا الاتجاه الموسوعى ، الذى يعكس اهتمام أستاذنا بتاريخ الحضارة العربية وتراثها ؟ ، إن هذا الاهتمام – فى الحقيقة – لم يقف عند الشعر ، كما يتبادر إلى الذهن ، بل تخطاه إلى دراسة فن النثر على امتداد تاريخ الكتابة العربية ، إلى دراسة تواريخ الأدب بعامة فى ضوء عصوره المعروفة سياسياً ، وإلى دراسة البلاغة والنقد القديمين ، والنقد الحديث ومقاييسه ، كما تخطى كل ذلك إلى الدراسات الإسلامية بما فيها تاريخ الحديث. والقرآن والتفسير ومذاهبه ، وما يتصل بهم من دراسة علوم اللغة ، كالنحو والصرف ، ومدراسهما ، وتضاف إلى كل ذلك ، تحقيق بعض ذخائر التراث التى تخدم اتجاهه المعرفى .

ويمكن القول – إن أستاذنا اهتم بمستوى معرفى أصيل من مستويات الحضارة العربية الإسلامية يمكن أن نسميه بعلوم الأدب والبلاغة والنقد ، وهو مستوى التقى بمستويات أخرى فلسفية وتاريخية ونفسية من أجل هدف أساسى ، وهو الكشف عن الدور ، *الرائد للحضارة العربية* وهو بلا شك دور تاريخى حدد *شخصية الأمة العربية* التى أصر أستاذنا على أن دورها مرتبط بطبيعتها الخالدة ، المستمدة من وحدة الثقافة والتاريخ والتراث ، ومن مركزية هذه الثقافة .

فعلى الرغم من العداء السياسى بين الأندلس وبغداد ، فإن بغداد ثقافيًا كانت النموذج المحتذى ثقافيًا واجتماعيًا ، ويرى أن مركزية الثقافة على مختلف عصور الحضارة العربية ، هى التى طبعت الأدب العربى بطابع المحافظة شكلاً ومضمونًا ، وجعلت بلداً كمصر – وهى ولاية حينئذ – ليس به شاعر واحد ، يطاول أبا نواس أو أبا تمام أو المتنبى .

إن هذه الطبيعة الخالدة ، هى التى يمكن أن نراها عند شوقى ضيف ، حين يكتب عن البارودى ، وأحمد شوقى ، أو عن على محمود طه ، وناجى ، أو عن محمد عبده ، والعقاد ، كما يكتب عن أبى تمام والمتنبى وأبى العلاء ، على أسس فكرى واحد ، وهو أن الأعلام يحددون ملامح شخصية الأمة .

إن تحديد ملامح الشخصية العربية ، كان الهدف الأساسى الذى وقف وراء كل اهتمامات شوقى ضيف ، مع هذا الهدف فإن البحث عن ملامح الشخصية المصرية كان هدفًا نبيلاً لم يفارق أستاذنا .

ويمكن القول إن هذا الهدف كان مطلبًا ملحًا عند جيل الرواد ، وعند تلاميذهم الذين واكبوهم فى ظل ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية ليس هنا مجال تفصيلها ، ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى محاولتين : كتاب طه حسين « مستقبل الثقافة فى مصر » وهو محاولة هدفها تحديد انتماء العقل المصرى – فى الثقافة والعلم – إلى الشرق أو إلى الغرب ليرد على غلاة التعصب ، بأن وحدة الثقافة فى العالم القديم لا تجعل عقلاً يتمايز على عقل ، فمصر القديمة بدولها المتوالية لم تكن ذات صلات وثيقة بالشرق الأدنى ، أو الأقصى ، مثلما كانت على صلات قوية باليونان وثقافتهم إلى حد أن الحضارة المصرية أثرت تأثيراً لا سبيل إلى نكرانه على اليونان والرومان ، كما تأثرت هى فى دورة أخرى بالحضارة اليونانية والرومانية ، كما أكد طه حسين أن العقل المصرى ليس شرقيًا بالمعنى الثقافى ، على الرغم من أن المصريين حريصون على شرقيتهم ثقافيًا وجغرافيًا ، ومن ثم فإن طه حسين يريد أن يخلص إلى أن الشخصية المصرية شخصية تاريخية مستقلة ، وأنه لا فرق بين العقل المصرى والعقل الأوروبى اعتماداً على البحث التاريخى فى التأثير الثقافى .

أما المحاولة الثانية ، فهى التى قام بها الشيخ أمين الخولى فى دعوته إلى أهمية الإقليمية فى درس الأدب ، وخاصة عندما دعا إلى البحث عن أدب مصر الإسلامية ، وهى دعوة هدفها تحديد الدور الذى قامت به مصر فى ظل الدولة الإسلامية أدبيًا ، فلماذا لم تجد آثاراً أدبية بارزة فى مصر الإسلامية كالتى قدمتها بغداد ودمشق والمدينة والأندلس على الرغم من أن مصر تتمتع من بين الأقاليم العربية ببيئة جغرافية متميزة وبيئة حضارية فعالة ، وأن الفاتحين لم يقولوا شعراً يبلغ مستوى ما قالوه عندما استوطنوا الكوفة والبصرة وبغداد أو دمشق ، مع أن الفاتح هو نفسه الإنسان العربى هنا أو هناك .

(٣)

هاتان المحاولتان تهتمان بتحديد ملامح الشخصية المصرية من خلال دورها الثقافى المتفاعل ، مرة مع جيرانها من اليونان ومرة أخرى مع من استقبلتهم من العرب الفاتحين ، وشوقى ضيف صاحب اهتمام عظيم فى هذا المجال ، فهو من المؤمنين بمركزية الثقافة العربية وطبيعتها المحافظة الثابتة كما أشرنا ، وبأن الكل دائمًا يعبر عن أجزائه ، وهو المنتمى إلى مصر تاريخًا وتراثًا وعاطفة ووجوداً ، وما بين الإيمان والانتماء بون شاسع ، استطاع أن يتجاوزه انطلاقًا من أن البحث عن ملامح الشخصية المصرية إن لم يتحقق بتحديد انتماء العقل ، كما حاول طه حسين ، وإن لم يتحقق فى ظل إيجاد أدب مصرى إسلامى ، فإنه من الممكن أن يتحقق فى صفة من الصفات التى قد تغلب ، فتطبع الأدب أو الفكر بطابع معين ، من هنا كان كتابه *«الفكاهة فى مصر»* .

إن هذا الكتاب – على الرغم من صغره ومن كونه ليس كتاباً من كتبه المشهورة والمعروفة ، لدى الغالب من الباحثين فإنه مع ذلك يعد من أهم ما كتب شوقى ضيف ، فى إطار اهتمامه بالبحث عن الشخصية المصرية ودورها التاريخى ، وعما تمتاز به ، وقد نشر هذا الكتاب أول مرة عام ١٩٥٨ من دار الهلال ، وتبدو أهميته من زاويتين

نراهما : أن أستاذنا على رأس المهتمين بالأدب العربى والمصرى المكتوب بالمستوى اللغوى المعروف بالفصيح ، هذا الأدب الذى يمكن أن نسميه - كما سماه هو - بالأدب الفصيح الجاد ، وهذا الكتاب كان إلى عهد قريب مستحوذًا على اهتمام العلماء والمتنوقين على السواء إذا ما وضع فى مقابلة الأدب العامى أو الشعبى ، وهذا الكتاب يركز كل اهتمامه على استكشاف ما يميز الشخصية المصرية من غيرها من خلال نصوص كتبت باللغة العامية ، أو الدارجة كتبها شعراء أو زجالون لم يدرجوا فى سجل التاريخ الأدبى المعروف ، ومن ثم فهو إضاءة قوية لبقعة من بقاع الإبداع والوجدان ، طال نسيانها وإهمالها . أو كما قال أستاذنا التعالى عليها ، إنه بذلك خروج على المألوف من أستاذ جليل فى جامعة رائدة محافظة ، فى وقت كان يعد فيه هذا الخروج مخاطرة ، فالاعتصام « بالأدب الجاد » فيه أمن كبير ، ونفع لصاحبه كثير ، ويؤيد كلامنا هذا أن أستاذنا لم يعد المحاولة مرة أخرى فيكتب كتابًا آخر فى الاتجاه نفسه ، ويكفى أنه بهذا الكتاب ترك بقعة ضوء فى مكان مظلم ، واكتفى بذلك معتصمًا بأبحاثه الكبرى فى الأدب الجاد .

أما الزاوية الثانية التى تبلور أهمية هذا الكتاب ، فهى الاستجابة القوية لنداء الواقع ، وحركته السياسية والقومية آنذاك ، سواء تم هذا بوعى مقصود أو غيره ، فقد واكب إخراج هذا الكتاب الإرهاصات القوية حول البحث عن دور الأمة العربية فى الحاضر ، وبعث هذا الدور يتطلب تحديد معالم هذه الأمة ممثلة فى تحديد معالم أقطارها ، وقد حملت مصر - فى هذا السبيل - الدور الرائد سواء على مستوى التوحيد القومى ، أو على مستوى ريادة بعث الروح فى جسد هذه الأمة . وكان طبيعيًا أن ينشط البحث عن مميزات الشخصية المصرية ، سواء فى تاريخها الفرعونى أو الإسلامى ، أو فى كونها بوتقة جمعت محتوى حضارات العالم القديم .

والكتاب من هاتين الزاويتين يعد مهمًا ، كما يكتسب أهمية إضافية لأنه يقف عندما عرف وشاع عن المصريين ، من روح المداعبة والفكاهة إذ يقول : « من أهم ما يميز المصريين فى عصرهم الحديث روح الفكاهة المنبثة فى أحاديثهم .. وليست هذه

الروح جديدة على المصريين فهى قديمة فيهم ، ترجع إلى أعتق الأزمنة وأعمقها فى التاريخ ، فمنذ برزوا على صفحة الزمن ، وهم يضحكون ويسخرون ويتهكمون »[1] .

ومن الواضح أن هذا التوقف يستند إلى التاريخ ، فى تحليل هذه السمة التى اتسمت بها الشخصية المصرية ، كما يقف عند بواعثها وظروفها وإطارها الحضارى الذى نشأت فيه ، فيرى أن الإنسان المصرى لم يكن يمرح إلا فى وقت الشدة ، ولم يسخر إلا فى وقت الجد « قد ألهمتهم ذلك عصور الشدة والرخاء ، منذ كانوا يحملون صخور الأهرامات على كواهلهم ، ويرفعونها بصدورهم وسواعدهم ، ويحنو عليهم واديهم ، فيلقى فى حجورهم بحبه وثماره ، ويملكون معظم العالم القديم ، ويلقى بين أيديهم بثرواته وكنوزه »[2] .

وإذا كان أستاذنا قد اهتم برصد الملمح ، وتحديد بواعثه فإنه قد اهتم أيضًا بتحديد الوسيط الذى حمل هذا الملمح وعكسه ، وأعنى أن روح الفكاهة – كما يعتقد – لم تتجسد حقيقيًا فى فن أو أدب هذا الشعب مثلما تجلت فى لون أدبى ، طال إهماله ونكرانه هو الأدب العامى ؛ لأنه – كما يقول – « كتب فى أكثره بلغتنا العامية ، وكأننا انصرفنا عنه ترفعًا منا ، أو استصغاراً لشأنه مع أنه أكثر دلالة علينا ، وعلى نفسيتنا من الأدب الفصيح الجاد »[3] .

إن الشخصية المصرية قد عرفت روح الفكاهة وعرفت بها ، وصارت علامة عليها ، واستطاع الفنان المصرى أن ينسج هذا الروح فنًا يشف عن جوهر هذه الشخصية ، كما يشف عن الظرف التاريخى لروح الفكاهة نفسها ، ولأن الشخصية المصرية شخصية مركبة تركيبًا تاريخيًا ، فإن أستاذنا رأى أن البحث عن طبيعة هذه الشخصية – من خلال بحثه – يسير فى اتجاهين : الأول أن يبحث عن تجليات هذا الروح فى الأدب العامى أو الفصيح ، وأن يتحرى هذا الروح الفكه فى كل ما يدل عليه ، وهذا البحث يضرب فى أعماق العصور بداية من قدماء المصريين حتى العصر الحديث ، وأستاذنا – فى هذا السبيل – لا يخرج عن إطاره العام الذى رسمه لأبحاثه ،

---

(١) شوقى ضيف ، الفكاهة فى مصر ، دار الهلال ، مصر ، ١٩٥٨ ، ص ٧ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ص ٨-٩ .

وهو الإطار التاريخى الذى يعتمد حركة التاريخ فى ظل منظومة من التقسيمات السياسية للعصور .

والواضح من دراسة المؤلف التاريخية أنه اهتم - فى كتابه - بمصر الإسلامية وعصورها ، أكثر من اهتمامه بمصر الفرعونية واليونانية والفارسية والرومانية ، على الرغم من أن هؤلاء - اليونان والفرس والروم - قد مكثوا بمصر طويلاً ، وأثروا - بلا شك - فى شخصيتها وعقلها ، كما أثرت فيهم الحضارة المصرية والإنسان المصرى ، إلا أن اهتمام أستاذنا بمصر الإسلامية يؤكد ما سقناه فى بداية البحث - وهو أنه يؤمن بأن طبيعة الأمة العربية طبيعة خالدة ثابتة ، وأن ما يحدث من تمايز بين أقطارها - من خلال دراسة التراث - إنما هو من قبيل تمايز الأفراد الذى ينضوى فى كل واحد يعبر عنها ، فإذا كانت مصر قد عرفت بروحها الفكه فإن الحجاز قد عرفت بالغناء ، كما عرفت البادية بالغزل العذرى لديه ، وكما عرفت العراق بالشعر السياسى وصراع الفرق وبشعر النقائض ، وكل هذه التمايزات لا تدل على التباعد والانفصال عنده ، قدر ما تدل على التقارب والالتئام والمحافظة .

أما السبيل الثانى ، فإن أستاذنا يعتقد أنه من الضرورى أن ننظر إلى حياتنا نظرة كلية ، لا تجعل الكل يهمل الأجزاء ، ولا تجعل الأجزاء بديلاً عن الكل ، فلا يكفى الأدب الجاد دليلاً على حياتنا الجادة ، وكذلك الأدب العامى دليلاً على حياتنا الفكهة ، فالأدبان كلاهما نتاج حياة واحدة امتزج فيها الجد والهزل ، هى فى مجموعها حياة شعب واحد يخضع لصفة كلية واحدة ، لذا - كما يقول - : « من الواجب أن نقرن صفحة حياتنا الفكهة ، بصفحة حياتنا الجادة حتى نطلع على حقيقة حياتنا اطلاعًا تامًا أو كاملاً ، وإنك لتجد مصر وشعبها ممثلين فى هذا الأدب الفصيح الخالى غالبًا من الضحك والهزل لسبب بسيط ، وهو أنه ينبع من صميم الشعب وينطق عن روحه ومزاجه بدون أى تصنع أو تكلف »(١) .

إن الشخصية المصرية التى يدل عليها الروح الفكه من خلال الأدب العامى والشعبى، لم تكن شخصية مستكينة أو غافلة عن وظيفة هذه السمة ، فإذا كانت عصور الشدة والظلم والقسوة، هى التى أنتجت هذا اللون من الأدب الساخر، وهى التى

---

(١) نفسه .

أورثت الإنسان المصرى روحه الفكه ، فإن هذا الإنسان قد استخدم كل أسلحته الوجدانية والعقلية فى مواجهة ظالميه، والمعتدين على حريته وكرامته ومقدرات حياته . وقد التفت أستاذنا إلي وظيفة هذا اللون من الأدب ، الذى صور الوجدان الساخر من الظلم والطغيان، إنه تتبع تاريخ الشخصية المصرية الرافض المقاوم على اختلاف العصور ، خاصة فى ضوء اهتمامه بالعصور الإسلامية التى مرت على الإنسان المصرى ، ويقدم نماذج فعالة لهذه المقاومة، فقد وعى الإنسان المصرى أهمية الفكاهة قبل الجد فى مواقف الرفض والمقاومة، ودليل ذلك الصورة التى يقدمها استاذنا، وهى حديثه عن «الفاشوش فى حكم قراقوش» لابن مماتى فى العصر الأيوبى .

فهو يقدم هذا النص على إنه نموذج من نماذج سخط المصريين على حكامهم الظالمين، «والحق أن ابن مماتى فى صنيعه بقراقوش ، إنما يصور سخط المصريين على حكامهم الأيوبيين الأجانب ، وينفس عما يضطرم فى صدورهم من غيظ وحرج ، بنفس الطريقة التى طالما لجئوا إليها فى إعلان ذلك، وهى طريقة السخرية بهؤلاء الحكام، وإظهارهم فى صور مضحكة من الغباء والغفلة والبلاهة ، ومعنى ذلك أن ابن مماتى فى هذا الكتاب يعبر عن مقاومة الشعب المصرى، لمن يحكمونه من غير أبنائه .. وهى مقاومة عرفت بها مصر منذ غزاها الفاتحون لعهد الفرس والإغريق والرومان»[1] .

إن كتاب «الفكاهة فى مصر» فى ضوء هذا النص ونصوص أخرى منه ، يعد تاريخًا لسمة أساسية من سمات الشخصية المصرية، وهى سمة الفكاهة الموظفة، فلم تكن هذه السمة عبثًا ولا ضياعًا للوقت ولكنها كانت سلاحًا فعالاً من أسلحة مقاومة الظلم، وتأصيل الحرية والحق ، كما أن هذا الكتاب يكشف عن التفاعل التاريخى ، للشخصية المصرية مع الآخرين سلبًا وإيجابًا ، فعلى الرغم من أن هناك فاصلاً قويًا بين مرحلتين فى تاريخ هذه الشخصية ، وهو تاريخ ما قبل الإسلام فى مصر وتاريخ ما بعد الإسلام فى مصر، فإن الإنسان المصرى لم يكن ليغيب عن وعيه أن الحرية حق، وأن الظلم عدوان على هذا الحق، فقاوم الغزاة من الفرس واليونان والرومان، ورفض حكامه الظالمين من الأيوبيين والإخشيديين والفاطميين مع كونهم مسلمين، ولم يتغير موقفه إزاء حقه فى حريته وحياته الكريمة ، وظل سلاح السخرية والفكاهة من أمضى أسلحته على مدى عصوره كلها حتى الآن .

---

(١) نفسه ص ٣٦ .

ومن الواضح أن تاريخية هذه الصفة في الشخصية المصرية لا يعني ثباتها وعدم تطورها، فكل فترة تاريخية تنتج من الأدب ما يتفق مع المثل الجمالية السائدة، ومع المتغيرات العديدة في الذوق والمشاعر والقيم والمواقف الوجدانية والنفسية، فإذا كانت الفكاهة روحًا ترجم عن نفسه في نصوص أدبية دلت على الشخصية المصرية، فإن بواعث هذه الروح لابد أن تختلف من عصر إلى عصر، ومن ثم تختلف النصوص المعبرة عنها غير أن أستاذنا إدرك هذه الروح – روح الفكاهة – وهى أهم ما يميز المصريين عنده – على أنها روح خالدة ثابتة فى كل العصور، وأن حركة التاريخ بما تجلبه من تطور وتغيير لم تنل من هذه الروح إلى حد أنك إذا نظرت إلى ديوان «نزهة النفوس ومضحك العبوس» وجدت – على حد قوله – «أن أغلب الديوان من اللفظ العامي الشعبي، ومن يطلع عليه يرى أنه لا تكاد توجد فوارق بين لغة هذا الديوان ولغتنا المصرية الدارجة الحديثة» [(١)].

ويبدو أن هذا الإدراك متصل بإدراك أعم عنده مرتبط بطبيعة الحضارة الإسلامية العربية القائمة على وحدة الحكم ومركزية الثقافة، ووحدة التراث والارتباط الشديد بالأصول، وهذا ما أشرنا إليه فى صدر هذا البحث، فمصر فى ظل هذا الفهم ما هى إلا إقليم من أقاليم هذه الحضارة ذات الطبيعة الخالدة المحافظة، وما يحدث من تمايز بين أقاليم هذه الحضارة يؤكد هذه الطبيعة ولا ينفيها .

وأيًا كانت مصادر هذا الإدراك أو أسبابه، فإن أستاذنا يرى أن الشخصية المصرية ذات علاقة خاصة بحركة التاريخ وموقفها منه، إذ يرتب على ما سبق حكمًا آخر، يقول : « وربما كان فى ذلك بعض الدلالة على أن مصر بلد محافظ، وأنها لا تتطور إلا بقدر محدود [(٢)] .

ولأن البحث عن ملامح الشخصية المصرية وطبيعتها فى فكر أستاذنا أمر أساسى، فإن هذه الأحكام تجعلنا نترك قليلاً كتاب «الفكاهة فى مصر» ونقف عند كتابين من أهم كتب أستاذنا وهما «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى»، و«الفن ومذاهبه فى النثر العربى» لنرى صورة أوسع لإدراكه السابق . إن موقف هذه الشخصية من التاريخ،

(١) نفسه – ص ٦٧ .
(٢) نفسه .

موقف يدعو للتأمل ، والكتابان يقدمان صورة هذه الشخصية ، وهى صورة مُتمِّمة لما جاء فى كتاب الفكاهة .

إن هذه الشخصية لا تخضع لسنة التطور على الرغم مما مر بها من أمم وما خاضته من تجارب ، وما حصلته من علوم ومعارف ، فهى شخصية تحتوى كل من أراد أن يحتويها، ومع ذلك تظل محايدة فلا تتأثر بما احتوته - و يمكث فيها الهكسوس والأشوريون والفرس واليونان والرومان ، وتظل - كما يقول أستاذنا - «حافظة لشخصيتها وخصائصها الجوهرية ، حتى بعد دخول العرب أنفسهم ، فإنهم لم يستطيعوا أن ينفوا عنها شيئًا من صفاتها ، بل رأيناهم - هم - يغرقون فى جداولها»[1] ؛ ومرد ذلك عند أستاذنا «أنها أمة محافظة» ، ومن مظاهر محافظتها واستعصائها على التاريخ أن «الناس يعيشون كما كان يعيش آباؤهم وأسلافهم يربضون فى وديان النيل، فى تلك المياه المشبعة بالطمى. يديرون آلات لا تكاد تختلف فى شئ عن آلات أجدادهم، وأنهم ليحيون بطرق لا تختلف أيضًا كثيرًا عن طرق أسلافهم [2] .

ولكن ، إذا كانت هذه طبيعة الشخصية المصرية، طبيعة مرتبطة بالماضى والأسلاف أكثر من ارتباطها بالحاضر، طبيعة نافرة من كل تطور، متقابلة مع منطق الصيرورة والتغير، وهو منطق التاريخ ، فكيف استمرت هذه الشخصية على مدى التاريخ دون أن تندثر على الرغم من جمودها ؟.

إن إجابة هذا التساؤل يطرحها أستاذنا فى أسلوب مجازى، تتلخص فى أن مصر على مدى العصور، ما هى إلا معبد كبير مغلق الأبواب على ما به من نقوش ورسوم، وقد أتيحت له أسباب طبيعية من الجغرافيا جعلت أهله يعيشون عيشة مستقلة فى عاداتهم وتقاليدهم، ومن ثم لم يتح لها ما أتيح لغيرها من أسباب التغير والتبدل، يقول أستاذنا إن «من يبحث عن مصر فى مختلف عصورها، يجدها أشبه ما تكون بمعبد كبير أغلقت أبوابه على طائفة من الرسوم والطقوس لا تتغير ولا تتبدل ، بل دائما هى تظل كما هى فى كل حكم، وفى كل عصر ، وهذا المعبد الكبير أتيحت له أسباب

(١) شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى - دار المعارف - مصر - ٤٥٨ .

(٢) شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى - دار المعارف - مصر - ٣٤١ .

طبيعية جعلته يعيش عيشة مستقلة فى عاداته وتقاليده . ونقصد بتلك الأسباب ما قام على أسواره من الصحراء الشرقية والغربية ، فإنهما عزلتاه عن الاختلاط والانسياح فى الأمم الأخرى» (١) .

ومما يكمل هذه الصورة الثابتة للشخصية المصرية فى فكر أستاذنا أن يكون من طبيعة مصر «أن لا تعنى عناية واسعة بالدرس الفلسفى وما يحتاجه من عمق ، أو على الأقل كانت تلك طبيعتها فى العصر الإسلامى ، وقد يكون من أسباب ذلك ودوافعه ما عرف عن أهلها حينئذ من اللهو والدعة فإن ذلك جعلهم لا يميلون إلى العمق والتقصى والتحليل» (٢) .

وإذا كانت هذه اللمحة الأخيرة تتفق مع جوانب صورة الشخصية المصرية ، فإن هذه الصورة لدى أستاذنا يتنازعها جانبان - كما قدمها فى كتاب الفكاهة - وكتابي الفنّ ومذاهبه فى الشعر والنثر ؛ الجانب الأول أنها شخصية متفاعلة مقاومة رافضة من خلال ما تميزت به وهو الفكاهة بوصفها سلاحًا من أسلحة المقاومة، سواء فى عصور ما قبل الإسلام ، أو فى العصر الإسلامى. الجانب الثانى من الصورة التى قدمها أستاذنا للشخصية المصرية ، هو جانب الثبات والجمود، ولا نقول المحافظة وهذا الأمر لا يتوقف عند رفض الاحتكاك والفعل السلبى والإيجابى، بل يمتد إلى طبيعة العقل المصرى - خاصة فى العصر الإسلامى الذى لم يعن بالدرس الفلسفى بسبب ما يحتاجه من عمق غير متوفر فيه ، ومرد ذلك هو اللهو والتراخى، وهذان الجانبان كما يبدو متقابلان على الأقل هذا إن لم ينكر منهما الآخر .

فإذا تناولنا الجانب الأول، فإن الفكاهة ليست حالة ، ولكنها موقف من الحياة والأحياء، يماثل الصمت احتجاجًا على الحياة والأحياء، ومن ثم فإن هذا الموقف يعكس فكرًا تتغير صوره ومضامينه من عصر إلى عصر ، وهذا ما لمسناه من تعدد النصوص وتباينها بتباين عصورها ، وهى نصوص استعان بها أستاذنا فى تصوير الجانب الحركى الحيوى من الشخصية المصرية . وهذا الجانب يتفق مع الحقيقة الثابتة فى

---

(١) نفسه - ٣٤١ .

(٢) نفسه .

تاريخ الفكر وهى «أن فكر الإنسان وفلسفاته إلا تعبيراً عن حركة التاريخ وأداة المجتمع المتغير فى التعبير عن متناقضاته وعن غاياته » [1] .

أما الجانب الثاني من الصورة ، فإن العقل المصرى الذى وقف أول موقف تأملى وجدانى من الوجود بحقائقه الظاهرة والغامضة ، لا يمكن أن يكون مستعصيًا على حركة التاريخ وفهمها أو التخلف عنها ، لذا فقد صاغ موقفه أول صياغة كلية عرفها التاريخ ، وهذا ما يتفق أيضًا مع حقيقة يكاد المؤرخون ، وهى «أن مصر كانت مهد التأمل الفلسفى كما نعرفه ، وهى أول شعب ناقش تلك المشاكل الأخلاقية مشاكل الخير والشر مطبقة على *الحياة* ذاتها ، ومشاكل *الصواب والخطأ* مطبقة على *السلوك البشرى*، تلك المشاكل التى هى بعينها مثار اهتمامنا اليوم» [2] .

ويمكن أن نؤيد منطق هذه الحقيقة بحكم تاريخى آخر يتصل بتاريخ العقل المصرى ، وهو أنه «لا يمكننا فى وضعنا الراهن بما لدينا من معرفة أن نظن أنه كانت هناك أية محاولة مماثلة نحو التفلسف المنطقى المتماسك قبل تلك المحاولة التى قام بها الحكماء المصريون» [3] ، هؤلاء الحكماء الذين علموا اليونان فى بداية أمرهم ، وتعلموا منهم فى مرحلة تاريخية تالية من مراحل تاريخ العقل المصرى ، وتشهد على ذلك مؤلفات أفلاطون وأرسطو وبلوتارك ومدرسة الإسكندرية والفلاسفة العرب .

ولعلى بهذا الفهم أكون قد استطعت أن أربط بين جانبى الصورة التى قدمها أستاذنا للشخصية المصرية ، بوصفها شخصية ذات أبعاد تاريخية وثقافية عاشت فى قلب التاريخ ، دون أن تكون وحيدة الجانب ، وهذا ما جعل روح الفكاهة والدعابة تغلب عليها .

د . أحمد يوسف

أستاذ النقد الأدبى

كلية الآداب – جامعة الزقازيق

---

(١) لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث – *الهيئة المصرية للكتاب* – ١٩٨٠ – ص ١١ .

(٢) أ. و. توملين : فلاسفة المشرق ، ترجمة عبد الحميد سليم – دار المعارف – ص ٣٠ .

(٣) المرجع نفسه .

٢٦ - شوقي ضيف والدراسات الأندلسية

د. جمال عبد الكريم

د. شوقي ضيف أستاذ بكلية الآداب في جامعة القاهرة وعضو عامل في مجمع اللغة العربية ورئيس له ، وعضـو في المجلس القـومي للثقافـة والفنـون والآداب ، وفي المجمع العلمي المصرى ، وعضو شرف أيضا في مجمع اللغة العربية الأردني . وقد نال جوائز مختلفة، أهمها جائزة الدولة التقديرية في الآداب وجائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي . وللدكتور شوقي ضيف نشاط علمي كبير . فقد كرس حياته للعمل والتأليف وهو معروف بوفرة إنتاجه العلمي والأدبي وتنوعه وتأثيره في حركة الثقافة والفكر العربي . هذا بالإضافة إلى البحوث والمقالات التي تزخرها الدوريات العلمية . وتزيد مؤلفاته على الخمسين كتابا في الدراسات الأدبية والبلاغية والنقدية وفي التراجم وفي فنون الأدب وفي الكتب المحققة وفي نشاطه المجمعي والبحوث والمقالات الكثيرة .

والدكتور شوقي ضيف رائد من رواد الفكر والأدب في مصر وفي العالم العربي، وشيخ من شيوخ العلم الجهابذة ، وهو من النماذج النادرة والمبدعة التي عرفتها الجامعات المصرية ، وهو خير من يعرف ويقدر رسالة الكاتب والأديب والأستاذ الجامعي الذي يتفانى في العطاء والجهد ، كما أنه معروف بجديته وإخلاصه وتفانيه في خدمة طلابه والدارسين من خلال قاعات الدرس ، وبحرصه الشديد على تكوينهم وإعدادهم إعداداً علميًا حسنًا . وله سلسلة تاريخ الأدب العربي التي تعتمد عليها الجامعات العربية في دراسة الأدب العربي على مر العصور ، وله اجتهادات هامة في مجال علم النحو ، اعتد بها مجمع اللغة العربية بالقاهرة . ونصيبه من الثقافة العربية

والإسلامية وافر وخصيب ، فهو أديب نحوى لغوى مؤرخ عالم فى التفسير وعلوم القرآن والقراءات ، وله فى تلك الفنون مؤلفات عدة .

تتسم كل كتاباته ودراساته وأبحاثه بالدقة والجدية ، وقد تتلمذ على يديه أجيال من الباحثين المصريين والعرب يعملون الآن فى مصر والعالم العربى ، يقتدون بعلمه وفكره ومدرسته وينشرون رسالته وأفكاره . ومع علمه الفياض فهو إنسان وقور وصريح وأمين ، آراؤه واضحة ومعارفه متنوعة ومتشعبة ، ونتاجه الأدبى والعلمى وفير جداً . وهو أستاذ جامعى متعدد المواهب ، ولذلك فقد كان تأثيره عميقًا ومؤثرًا فى مجتمعنا المصرى والعربى ، خاصة فى الحياة الثقافية والفكرية والأدبية . وقد شغلته كثير من قضايانا القومية وقضايا وطننا العربى التى اهتم بها ، وله فيها آراؤه ونظرياته المعروفة الواضحة التى يعتمد فيها على أساس منهج وفكر مستنير . فله منهجه الخاص المتميز الذى لا يقتصر على أداء واجبه الجامعى «كمعلم قدير فقط» ؛ بل يناقش ويناظر ويجاهر بقوله وآرائه السديدة بشجاعة وبحق ، ويجاهر بها دون خوف ، فهو ليس من الأساتذة النمطيين . يضاف إلى ذلك دماثة خلقه وأدبه الجم وتواضعه المتناهى . فهو خير موجه ومعلم وعالم بما تحمله هذه الكلمات من مضمون ومعان سامية .

وتزخر المكتبات والمعاهد وجامعات مصر والعالم العربى بأعماله الرائعة ، وقد فاق الكثيرين من أساتذة وعلماء جامعاتنا فى التأليف وفى الإنتاج الأدبى والعلمى ، وقد جاء ذلك نتيجة لجهد شاق متواصل وبحث دقيق متقن ، فهو رائد مدرسة جامعية تفخر بها الأجيال .

ومعرفتى بالدكتور شوقى ضيف حديثة العهد إلى حد ما ومليئة بالمعرفة والتقدير والاحترام ، وكم كنت أتمنى لو كنت التقيت به قبل ذلك بزمان تلميذاً له ، أقتدى برشده وأستفيد بعلمه وأتحلى بصفاته الجامعية الحميدة وأخلاقه الطيبة ، فعرفت فيه الأبوة والصداقة والأمانة والعفة والإخلاص والاحترام والتقدير لشخصه ولمكانته العلمية ، ولعلمه الزاخر ولإنسانيته البالغة، فقد ورث علم العلماء وتواضع العظماء فى كياسة تنم على جذور عميقة فى المعرفة والخلق . ورأيت فيه معنى الأستاذية الحقة الجديرة

بالثقة والاحترام ، أحببته وأحسست برقته ودماثة خلقه ، ولا أنسى يوم لقائى به فى ربيع عام ١٩٨٥ ، عندما شرفت بالاشتراك معه فى مؤتمر الحضارة الأندلسية الذى نظمه قسم اللغة الإسبانية وآدابها - بعد عام من إنشائه - بالتعاون مع قسم اللغة العربية وآدابها ، وأطلعته على بحثى وكان عنوانه : «الطب الإسلامى فى البحر الأبيض المتوسط : صقلية والأندلس حلقة الاتصال بين الشرق والغرب»[١] فشجعنى وأثنى على بحثى وأمدنى بالعون والثقة والطمأنينة ، ورأيت فيه روح الأستاذية التى افتقدتها والتى لم أعهدها من قبل ، ولمست فيه أسمى معانى الأبوة الخالصة ، فزاد معها الحب والتقدير والاحترام ، إحساس لم أصرح به لأحد غيره ، فلم يسعدنى الحظ أن أتتلمذ على يديه قبل ذلك ، ويكفينى أن أستمتع بحديثه وكلماته كلما التقيت به .

وعلى الرغم من شهرة الدكتور شوقى ضيف فى مصر والعالم العربى فى الدرسات العربية والأدبية ، فإنها فى الدراسات الأندلسية تشغل حيزاً كبيراً من اهتماماته وبخاصة الأدبية ، فهو من أكفأ الباحثين وأقدرهم على معالجة هذه الدراسات ، كما سنرى من خلال عرضنا لأهم أعماله فى هذا المجال ..

الدراسات الأندلسية :

اهتم د. شوقى ضيف بالدراسات الأندلسية وخاصة الحضارة والتاريخ والفكر الأندلسى باعتباره جزءاً هاماً من التراث العربى الإسلامى فى أوروبا[٢] ، وله مؤلفاته التى تتعلق بالفكر الأندلسى والدراسات الأدبية المتعلقة به خاصة ، وذلك للعلاقة الوثيقة التى تربطها بتراث الأدب العربى وكنوزه . وللدكتور شوقى ضيف أيضاً

---

(١) المؤتمر الأول للحضارة الأندلسية الذى عقد بكلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٨٤ ، حيث كان لى شرف الاشتراك بهذا البحث الذى لم ينشر بعد والذى أثنى عليه الدكتور شوقى ضيف .

(٢) قدم الدكتور شوقى ضيف بحثاً ودراسة مفصلة عن الحضارة الأندلسية فى مؤتمر الحضارة الأندلسية الذى عقد بكلية الآداب تحت عنوان : الحضارة الأندلسية ودورها فى تكوين الحضارة الأسبانية - جامعة القاهرة - ٢٠-٢٣ مارس ١٩٨٥ ، وطبع بمجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد - المجلد ٢، ص ٧-٢٦ .

بصمات فى أمور كثيرة تتعلق بعالم الأندلس ، فهو مثلاً يرى أن أيبيريا أى شبه الجزيرة الأيبيرية (أسبانيا والبرتغال) لم يكن لها دور حضارى بارز فى الحضارة الإنسانية قبل الفتح العربى سنة ٧١١ ، وأن العناصر المكونة لسكان أسبانيا والحضارات التى مرت بشبه الجزيرة الأيبيرية من فينقيين ويونانيين وقرطاجانيين ورومانيين وغيرهم لم تصنع شيئًا يميزها فى تاريخ الحضارة الإنسانية ، بمعنى أنه يرى أن الأمم القديمة تتفاوت فى الدور الذى أدته فى تكوين الحضارة الإنسانية العالمية ، فهناك أمم لها دور ممتاز ، وأمم ذات دور متواضع ، وأمم لم يكن لها أى دور. وهنا يثنى الدكتور شوقى ضيف على الحضارة المصرية باعتبارها أم الحضارات القديمة، التى أثرت بحق فى الحضارة العالمية وبخاصة فى الحضارة الأوروبية الحديثة، وأن أسبانيا استقبلت حضارات كثيرة كما أشرنا من قبل . وأهم ما يركز عليه أستاذنا الجليل هو أن فتح العرب ومعهم البربر لأسبانيا ، كان حدثًا من أهم الأحداث التاريخية للإسلام ، حيث كان له الفضل فى تكوين الذات الأسبانية التى تكونت بما فيها من قبائل أيبيرية قديمة ، وما نزل فيها من عناصر سكانية أخرى قديمة لموقعها بين القارات الثلاث أوروبا وأفريقيا وآسيا اشتركت فى تكوين شعب أسبانيا .

ويرى أستاذنا أيضًا أن أسبانيا ليست أوروبية بالمعنى الدقيق وأن ذلك حقيقة من حيث الموقع الجغرافى ، أما الشعب فهو مزيج من شعوب كثيرة مختلفة بعاداتها وتقاليدها ولغاتها .

ويؤكد الدكتور شوقى ضيف فى هذا الصدد أن أسبانيا حينما فتحها العرب لم يكن بها تراث حضارى ذو قيمة كبيرة ، وأن أسبانيا وخصوصًا فى عهد عبد الرحمن الثانى (الأوسط) (٢٠٦-٢٣٨هـ) استطاعت أن تكون لها شخصيتها الحضارية أى أنه كان للعرب دور عظيم وبارز فى هذا المضمار ، وبخاصة فى خلق حركة علمية أندلسية مزدهرة على مر العصور ساهمت فى تأسيس حضارة بلغت أوج عظمتها فى القرون الوسطى ، وشعت بنورها على أوروبا ، وساعدت على ترسيخ أسس عصر النهضة الأوروبية الحديثة . وقد أثنى أستاذنا على هذا البلد ، ونعنى أسبانيا ، وبخاصة قرطبة فى عهد الأمويين ، حيث أزدهرت الحضارة بها فى هذا العهد .. وظلت شامخة حتى السنوات الأخيرة منه ويخص بالذكر الحضارة المادية التى ظلت نحو ثمانية قرون ينعم بها العرب والبربر والمولدون والمستعربون المسيحيون .

ويستطرد أستاذنا قائلاً أنه على نحو ما أتاحت حضارة الأندلس للأسبان حضارة متكاملة مادية وفنية ومعمارية، أتاحت لهم أيضًا حضارة معنوية أدبية وعملية، ولم يكن للأسبان وقت الفتح العربى تراث حضارى أو مادى أو معنوى يستطيعون به أن يواجهوا الأدب العربى ، بل كان كل ما يمكن أن نطلق عليه أدبًا فهو أدب خال من كل جمال ، فقد كانوا يستخدمون رطانة لاتينية خاصة ، ليس بها شيء من عذوبة الألفاظ العربية وجمال جرسها فى الآذان . ومع بداية القرن التاسع تم تعريب الأندلس بكل ما فيه من (المسالمة) الذين اعتنقوا الإسلام ومن المولدين وأبنائهم ، وأيضًا من المستعمرين الذين ظلوا على دينهم المسيحى واتخذوا العربية لسانا لهم وأداة للتعبير عن أفكارهم . ويشير الدكتور شوقى إلى الازدواج اللغوى عند الأندلسيين بين العربية واللاتينية العالمية ، والدليل على هذا الأزدواج هو ظهور فن عامى ظهر فى بعض خرجات الموشحات الأندلسية ، فضلاً عن الأزجال الأندلسية التى كانت ثمرة للتزاوج اللغوى فى اللسان الأندلسى بين العربية واللاتينية الدارجة أثرت تأثيراً بعيداً فى الحضارة الأندلسية والأوروبية بصفة عامة والقصص والروايات الأسبانية بشكل خاص، مما يؤكد تأثير الأدب الأندلسى العربى فى الأدب الأسبانى ، وازدهار العلوم بصفة عامة فى القرن الثانى عشر فى ميادين كثيرة . وقد أعطى أهمية بالغة لدور الترجمة حيث كان للترجمات دور فعال فى التكوين الحضارى الأسبانى طوال الفترة المتعاقبة لدخول العرب إلى أسبانيا وخاصة تأثيرها فى تطوير اللهجة القشتالية إلى اللغة الأسبانية الحديثة .

* * *

دراسات فى الأدب الأندلسى :

إذا انتقلنا إلى كتابات الدكتور شوقى ضيف وإسهاماته فى الدراسات الأندلسية من خلال مقالاته وأبحاثه لنتعرف على آراء رائدنا وعالمنا الجليل فنجد أنه من الميادين التى نتطرق إليها وهى من صميم تخصصه الذى يتعلق بالدراسات الأدبية وبخاصة تاريخ الأدب العربى ميدان دراسة عصور الإسلام فى الأندلس من خلال كتابه «عصر

الدول والإمارات في الأندلس»[1] . وهو كتاب يقع في ٥٥٠ صفحة تناول فيه تاريخ الأدب العربى الخاص بالأندلس ، ويشتمل على خمسة فصول تبدأ بعرض التاريخ السياسى منذ دخول العرب سنة ٧١١ حتى خروجهم سنة ١٤٩٢ حسب قوله مشيراً إلى النواحى الاجتماعية والثقافية الفكرية فى هـذا التراث . وخاصة فى عهد عبد الرحمن الثانى المسمى بالأوسط (٨٢٢-٨٥٢) الذى أرسى دعائم الحضارة والثقافة الأندلسية . وقد أبرز شوقى ضيف فى هذا الكتاب الدور الحضارى البارز للعرب والمسلمين وتأثيرهما فى الحضارة العالمية ، واهتم بالحركة العلمية الأندلسية وتطورها فى شتى مجالات المعرفة ، وأثرها فى الفكر الأوربى وفى حركة التحرر والإصلاح الدينى .

وفى الفصل الثالث من هذا الكتاب تطرق إلى الحركة الأدبية فى الأندلس وبخاصة أدباء الأندلس المعروفين الذين أقبلوا على تعلم اللغة بشغف لتكون أداة تعبير عن أفكارهم ومشاعرهم شعرا ونثرا . وكان قد عقد فصلا فى كتابه «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» (الذى ألفه سنة ١٩٤٣) عن الأندلس وشعرائه ، والمذاهب الفنية فيها ، متناولاً أهم ما يميز شخصية الأندلس بيئياً واجتماعياً ، متناولاً لغة الشعر فى الأندلس عارضًا لأهم شعرائها مثل ابن هانئ الأندلسى ، وابن دراج القسطلى ، ثم تناول نهضة الشعر الأندلسى على أيدى شعراء أمثال ابن برد الأصغر ، وابن زيدون ، وابن خفاجة ، واختتم هذا الفصل بالحديث عن الغناء الأندلسى والموشحات والأزجال .

وأفرد فصلاً آخر فى كتابه «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» الذى ألفه سنة ١٩٤٦[2] . كما عقد فصلاً فى كتابه فصول فى الشعر ونقده» (الذى ألفه سنة ١٩٧١) بعنوان : شخصية الأندلس فى تاريخ الشعر العربى ؛ تناول فيه طبيعة الأندلس الجغرافية وتكوينها السكانى وأحوالها التاريخية ، وظواهرها الاجتماعية والحضارية والثقافية وأثر كل ذلك فى الشعر العربى فى الأندلس بصفة خاصة ، وتناول فى ذلك أغراض الشعر الأندلسى لتوضيح طبيعته ومقوماته الأساسية ،

---

(١) شوقى ضيف : عصر الدول والإمارات جـ٣ (الأندلس) ص. دار المعارف . القاهر ١٩٨٩ .
(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٣ .

فوقف عند ظاهـرة الغــزل ، وعـرض لنماذج من شعـر ابن خفـاجة ، وابن الزقـاق ، وابن زيدون ، وولادة بنت المستكفى ، وغيرهم [1] .

كما وقـف طـويلاً عند وصــف الطبيعـــة عند أبى حفــص قاضى قرطبـة ، وابن أبى روح الإشبيلى ، والرصافى ، وابن عمار ، وغيرهم .

ثم أشــار إلى نصيب الرثاء فى الشعر الأندلسى وخاصة رثاء الدول والمدن ، عند أمثال ابن اللبانة ، وابن العسال ، وأبى المطرف عميرة ، وغيرهم .

وكانت للأغلبية الأندلسية أهمية كبيرة عنده . فقد تأثر الشعر بالموسيقى والغناء فازدهرت الموشحات بها ، وتأثرت هذه الموشحات بالأغانى الرومانسية ، وجعل منها الأندلسيون نهاية لموشحاتهم فيما سمى (بالخرجات) ، وكان أهم الوشاحين الذين عرض لهم عبادة القزاز ، وابن هردوس ، وابن حزمون ، وغيرهم ، موضحاً شخصية الأندلس فى تاريخ الشعر العربى . ولشوقى ضيف آراوه ونظرياته ، وقد رد على بعض المستشرقين الإسبان أمثال خوليان ريبيرا ، وجارثيا جومث ، وغيرهما فى بعض القضايا الأدبية واللغوية الهامة .

* * *

الحركة الأدبية والفكرية فى الأندلس :

أما عن الحركة الفكرية الأدبية فى الأندلس خاصة فقد أشار إلى نشاط الشعراء والأدباء وكثرتهم ، وحسب قوله فإنه قد ترجم لأكثر من مائة شاعر أندلسى فى هذا العصر .

وقد كان نشاط الشعر والشعراء خلال الثمانية قرون (٧١١-١٤٩٢) كبيراً وضخماً حيث أدى ابتكار فن شعرى جديد هو فن الموشحات فى الأندلس وأن الـ «خرجات»

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٦ .

كانت مزيجًا بين الشعر العربى وبعض الأغانى الرومانسية فى اللاتينية الإسبانية الدارجة ، وأن الذين أنشئوا هذا الفن وطوروه فى الأندلس كانوا من أصول عربية خالصة ، وتعرض أيضًا للأزجال ، وروائع شعراء المديح والفخر والشعر التعليمى والغزل ، وهذا الغرض الأخير تفوق فيه الأندلسيون فى لونه وإبداعه على جميع البلدان العربية ، واستمر هذا التفوق فى أشعار الغزليين الأندلسيين قرونًا طويلة متتالية أثرت بعد ذلك فى الأدب الإسبانى وفى أقاصيص الحب العذرى عند الأندلسيين مثل (قصة دون كيشوت لسرفانتيس ١٥٤٧-١٦١٦) .

وشعر الطبيعة والخمر من الأشعار التى تفوق فيها الأندلس أيضًا على المشرق ، حيث تغنى الشعراء الأندلسيون بجمال الأندلس وأفردوا له صورًا فى غاية الروعة والجمال ، ثم انتقل الدكتور شوقى ضيف إلى معرفة الأندلسيين لشعر الرثاء وبخاصة رثاء الدول والملوك ، وضرب مثلاً بالشاعر البلنسي «ابن الزقاق» والذى لا تقل قصيدته روعة عن «موشحة ابن حزمون» فى بكاء بطل بلنسبة الذى استشهد فى معركة ضارية مع حملة الصليب ، وابن وهبون وابن اللبانة وابن عبدون ، خير نماذج من شعراء الرثاء فى هذا الوقت . وختم حديثه عن الشعر والشعراء بالحديث عن الزهد والتصوف الإسلامى والمدائح النبوية . ثم تحدث عن النثر الأندلسى وكتابه وأهميته وأفرد فصلاً كاملاً (الخامس) عن روائع الأندلسيين فى الرسائل الديوانية التى تتناول التهنئة والعتاب والاعتذار والاستعطاف والاستجمام ، ووصف الطبيعة ، ورسائل أخرى عبارة عن مناظرات رائعة بين الأزهار والرياحين ، ورسائل شخصية حولوها إلى لوحات أدبية بارعة . وقد تميزت الأندلس قبل هذا بالرسالة الأدبية الخالصة وفى مقدمتها رسالة التوابع والوابع لابن شهيد الأندلسى . ثم تعرض بعدها لأعمال نثرية متنوعة للكتاب الأندلسيين المبدعين ، وفى مقدمتهم ابن حزم الذى تأثر به بعض الشعراء الإسبان فى القرون اللاحقة مثل أرشيسترى دى هيتا فى كتابه «الحب الطيب» .

ومن الأعمال النثرية الأندلسية التى استشهد بها شوقى ضيف كتاب المقتبس لابن حيان عن تاريخ الدولة الأموية بالأندلس ، وكتاب الذخيرة لابن بسام .

ومن أروع الأعمال الأندلسية قصة حي بن يقظان لابن طفيل ، والتي أراد بها ابن طفيل أن يوفق بين الفلسفة والدين . وهو عمل فريد لا سابقة له في الآداب العالمية على حد قول د. شوقي ضيف .

ثم انتقل بعد ذلك في الفصل نفسه إلى فن المقامات بالأندلس والتحامه بمقامات الحريري وتأثيره في الأدب الإسباني خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين (قصص بيكارسكية أو الشطار) . وأخيراً أهتم في الفصل الثالث برحلات الأندلسيين وذكر أهمها «رحلة ابن جبير» المتميزة بحسب العرض وجمال الأسلوب السلس العذب .

وهذه إحدى الدراسات الأندلسية في تاريخ الأدب العربي في الأندلس ، وهو نتاج طيب لثمانية قرون ، استمد الدكتور شوقي ضيف مصادرها ومراجعها من الكتب التاريخية والدينية ودواوين الشعر ، وكتب النثر ، والكتب التي تتناول أدب الرحلات والرحلة ، دراسة مستفيضة وجيدة ، الغرض منها إظهار أثر الأدب العربي في الآداب الإسبانية والأوروبية .

وتحدث عن الحضارة المادية الحقيقية في الأندلس ، التي ظلت مزدهرة طوال سبعة قرون منذ عهد عبد الرحمن الأوسط والتي حافظ عليها من بقي فيها من أهلها بما في ذلك المدجنون «الموريسكيون» حتى مستهل القرن السابع عشر .

وللدكتور شوقي ضيف رأي في الحضارة الأندلسية ودورها في تكوين الحضارة الإسبانية . ولا شك أن للعرب والمسلمين دوراً ممتازاً وبارزاً وخاصة في تكوين الحضارة العالمية ، لأن إسبانيا حينما فتحها العرب لم يكن لها تراث حضاري لا مادي ولا معنوي ذو قيمة .

ويقول إن كل العناصر الحضارية في الأندلس أثرت في الحضارة الإسبانية المادية الحديثة التي أثرت بدورها في الحضارة المعنوية والأدبية والعلمية . وكل هذه الجوانب تعرض لها ، وأشار أيضاً لدور ترجمات علماء الفلسفة والطب والمنطق وعلم النفس وفي الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء والتاريخ الطبي لأشهر العلماء العرب والأندلسيين أمثال : الخوارزمي والرازي وابن سينا والغزالي والبطروجي والزهراوي وابن رشد ، وكانت كتب هؤلاء العلماء مترجمة إلى القشتالية ومنها إلى اللاتينية ، ويذكر دورها

الفعال فى التكوين الحضارى الإسبانى طوال قرون متعاقبة ، ولهذا لا يشك الدكتور شوقى ضيف أن إسبانيا ظلت حقبا متطاولة تقدم تأثيراً كبيراً فى أوروبا المتعلقة بإشعاعاتها فى جوانب حضاراتها الحديثة إلى آماد بعيدة .

أما عن جهوده فى التراث المحقق فله بعض الأعمال القيمة فى الدراسات الأندلسية ؛ ومن أهمها الكتب الأدبية التى تضمنت مادة جديدة يستفاد منها فى التاريخ ، مثل تحقيقه لكتاب «المغرب فى حلى المغرب» لابن سعيد الأندلسى (1) ، حيث يقدم للباحثين والمستشرقين والأوروبيين هذه التحفة الأدبية الرائعة وهى عبارة عن مجموعة من طرائف الشعر والموشحات والأزجال الأندلسية التى خلفها أعلام الأندلس البارزون الممتازون بالأندلس ، وتحمل بين طياتها حقائق أدبية جديدة عن الأندلسيين وحياتهم الفنية .

ويحق فإن هذا العمل الجاد المضنى والشاق للدكتور شوقى ضيف فى تحقيق التراث الذى يخدم الباحثين فى الدراسات الأندلسية بصفة عامة والأدب الأندلسى بصفة خاصة ، يستحق كل التقدير ، جزاه الله كل خير لإخلاصه ولوفائه للعلم وخدمة الدارسين . وكتاب المغرب فى المغرب لابن سعيد الذى تفضل بتحقيقه والتعليق عليه ، يقع فى جزءين ، الجزء الأول منه يذكر الممالك الأندلسية : قرطبة وإشبيلية وبطليوس وشلب وباجة ولشبونة فى البرتغال ، ومالطة . وفى كل بلدة يذكر كتابها وأعلامها الممتازين وخير ما خلفوه من طرائف الشعر والموشحات والأزجال ، حيث عُنى الدكتور شوقى ضيف بهذا النصّ ، وبعد الاطلاع على أصوله فى النسخة المخطوطة المحفوظة فى دار الكتب العربية . وقد كان له الفضل فى تحقيق هذا المخطوط المضطرب وأوراقه غير المنتظمة وإحيائه ورده إلى صورته الأصلية لتستقيم أوراقه وليضعه فى متناول الباحثين ، وقد فرغ من تحقيقه فى ٢٠ مايو سنة ١٩٥٣ وهو النص الخاص بالقسم الثالث المتعلق بالأندلس ، والكتاب له أهمية بالغة ، إذ دفع كثيراً من الباحثين فى تاريخ الأدب العربى فى الأندلس وبخاصة المؤرخين للشعر الأندلسى ليعيدوا النظر فى تأريخهم للأدب الأندلسى ، الذى هو كنز من كنوز التراث العربى الإسلامى فى الأندلس .

---

(1) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد الأندلسى جـ١ (تحقيق بالاشتراك) ط. دار المعارف . القاهرة ١٩٥١ . جـ٢ ، جامعة القاهرة ، ١٩٥٣ ، جـ٣ دار المعارف . القاهرة ١٩٥٥ .

ونص ابن سعيد هذا له قيمته الأدبية ، إذ إنه من المصنفات الأدبية الرائعة التى ألفها الأندلسيون عن آدابهم العظيمة .

أما الجزء الثانى فهو كتاب «وشى الطرس فى حلى جزيرة الأندلس» وبه يكمل القسم الأول عن الأندلس من مخطوط كتاب «المغرب فى حلى المغرب» لابن سعيد المغربى الأندلسى . الجزء الثانى ينفرد بمقدمة عن كتاب «الشفاة اللعس فى حلى موسطة الأندلس» . ثم ينتقل ابن سعيد ليحدثنا عن الممالك الأندلسية وعلمائها البارزين وما خلفوه من آثار أدبية رائعة فى هذه الممالك : مملكة طليطلة وجيان وتدمير وبلنسية وطرطوشة والسهلة وجهات الثغر وجزيرة ميورقة وأخيراً الأندلس وقد اطلع الدكتور شوقى ضيف على كثير من المخطوطات والمراجع الأندلسية ، وبخاصة كتب التراجم «جذوة المقتبس» للحميدى ، وكتاب «رايات المبرزين وغايات المبرزين» لعلى بن سعيد ، «نفح الطيب» للمقرى ، و«المطرب من أشعار أهل المغرب» لابن دحية ، و«الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة»، و«اختصار القدح المعلى فى التاريخ المحلى» لابن سعيد ، يستفيد منها فى تعليقاته على كتاب المغرب فى حلى المغرب .

هذا الكتاب يعرض فيه ابن سعيد الصافى الخالص من جواهر الشعر ، والذى يضم من بين صفحاته ستة أسفار للأندلس جمعها المؤلفون تحت اسم كتاب «وشى الطرس فى حلى جزيرة الأندلس» .

قدم الدكتور شوقى ضيف تحقيقًا لثلاثة أسفار من الستة وهى الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر وهى التى تخص غرب الأندلس وممالكه وكوره وبلدانه ، وهذا النص هو القسم الثالث الخاص بالأندلس من هذا الكتاب الذى أشرنا إليه لابن سعيد ، وهو بدون شك يفيد الباحثين والمؤرخين للشعر الأندلسى ليعيدوا النظر فى كل ما يتعلق بنوابغ الشعر الأندلسى . والجديد فى كل هذا ، إن هذا الجزء الخاص بالأندلس إنما يحمل بين صفحاته كثيراً من الحقائق الأدبية عن الأندلسيين وحياتهم الفنية ومؤلفاتهم ، وهذا النص كغيره من النصوص المنشورة والتى ستنشر يسد فراغًا كبيراً فى مجال البحث عن معانى وخصائص الشعر الأندلسى ، ليضيف إلى المكتبة العربية والأندلسية قسماً هاماً تفتقر إليه هذه المكتبات من المؤلفات والمصنفات ، وهذا النص له قيمة عظيمة تضاف إلى رصيد الدراسات الأندلسية ، وقد بذل الدكتور

شوقي ضيف مشكوراً جهداً كبيراً ليضع هذا النص مرتبًا وصحيحًا بين أيدى الباحثين والمهتمين بالأدب الأندلسى .

أما كتاب «الرد على النحاة» لابن مضاء القرطبى الأندلسى ، والذى حققه ونشره الدكتور شوقي ضيف فهو من الأعمال القيمة الخالدة من كنوز التراث النحوى الأندلسى ، وقد وثقت صلاته بالأندلس وآثارها . وقد تعرض فيها إلى شخصية ابن مضاء القرطبى وآرائه ونظرياته المتعلقة بالنحو . وبهذا العمل يكون الدكتور شوقى ضيف قد قدم خدمة طيبة تضاف إلى رصيده العلمى وتفيد القارىء والباحث فى علم النحو ؛ للتعرف على شخصية ابن مضاء الثائر على سيبويه وعلى نحاة الشرق بصفة عامة . وقد أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة فى الأوساط العلمية وبين الباحثين والدارسين من عرب ومستشرقين من المهتمين بقواعد النحو وأصوله ليتعرفوا على نظريات ابن مضاء وآرائه ورفضه لنظرية العامل فى النحو ، وما جرت إليه من ركام الأسباب والعلل وما يستغنى النحوى عنه .

وكتاب ابن مضاء يعد كنزاً من التراث النحوى الأندلسى ومصدراً من المصادر اللغوية التى يقتدى بها فى الدراسات والأبحاث العلمية للوقوف على الفكر الأندلسى ، وفيه دعوة لتحطيم القيود والتقديرات فى العبارات النحوية العربية وإلغاء القياس والعلل الفاسدة ، وتحطيم التمارين غير العلمية وغير المفيدة فى الأداء وإلغاء كل ما لا يفيد نطقًا .

لذلك يرى الدكتور شوقى ضيف أن آراء ابن مضاء بمثابة ثورة جديدة بناءة تستحق الدراسة والاهتداء بها فى رسم طريق جديد وتصنيف جديد لقواعد النحو العربى وتبويبه تبويبًا حديثًا ومجدداً[1] .

إن اتصال الدكتور شوقى ضيف بالأندلس اتصال وثيق من خلال كتابته ودراسته لتاريخ الأندلس وأدبها وحضارتها ، حيث وقف على كثير من الحقائق التى تتعلق بهذه الحقبة التاريخية الهامة من تاريخ الفكر العربى العالمى ، وشغف بفنونه وآدابه .

---

(١) حقق شوقى ضيف نصًا أندلسيًا هامًا وهو كتاب «الرد على النحاة» لابن مضاء القرطبى (المتوفى سنة ٥٩٢هـ-١١٩٦م). وهو يعتبر ثورة جريئة على سيبوية وكتابه فى النحو بل وعلى نحاة الشرق أجمعين انظر. تجديد النحو ، ط دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢ . وتحقيق كتاب «الرد على النحاة» لابن مضاء القرطبى . ط . دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٤٧ .

و«كتاب الدرر فى اختصار المغازى والسير» لأبى عمر بن عبد البر ، وهو من أهم ما كتبه الأندلسيون فى السيرة النبوية [1] . وابن عبد البر معاصر لابن حزم الذى ألف «جوامع السيرة» وقد اعتمد ابن حزم إلى حد كبير على كتاب ابن عبد البر المذكور . وللدكتور شوقى ضيف مقدمه لكتاب «الدرر» تحدث فيها عن منهج ابن عبد البر . وقارن بينه وبين ابن حزم[2] ، كما أوضح تأثير كتابه فى مؤلفى السيرة الذين أتوا بعده مثل السهيلى وابن سيد الناس .

* * *

المدارس النحوية

أفرد فى هذا الكتاب فصلاً طويلاً تحدث عن المدرسة النحوية الأندلسية ومنذ سنوات طويلة يشارك د. شوقى ضيف مشاركات قيمة فى المجالات الأدبية والعلمية فى مصر والعالم العربى وفى المؤتمرات والندوات والجمعيات الأدبية . ومنذ انتخب عضواً فى مجمع اللغة العربية يمده ببحوث ومحاضرات كثيرة فى لجانه ومؤتمراته . أما فى التأليف فله كتب كثيرة تكون مكتبة غنية بموضوعات متنوعة فى الأدب العربى بمختلف بيئاته فى مشرقه ومغربه قديما وحديثا ؛ وهى تبلغ نحو خمسين كتاباً عرض فيها لأهم المذاهب الفنية للشعر والنثر وتاريخ الأدب العربى فى شتى بيئاته المترامية فى أمكنة وأزمنة متباعدة ، مع تحليل شخصيات الشعراء والكتاب القدماء والمعاصرين تحليلاً ممتعًا خصبًا . وتهتم الجامعات والشخصيات المثقفة فى مصر والعالم العربى بقراءة كتبه ودراساته لما تحمل من زاد علمى وأدبى غزير ولغة صافية سائغة .

أ.د. جمال عبد الكريم

رئيس قسم اللغة الإسبانية

كلية الآداب – جامعة القاهرة

---

(١) الدرر فى اختصار المغازى والسير . لابن عبد البر (تحقيق) ط. دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦ .

(٢) نقط العروس فى تواريخ الخلفاء . لابن حزم الأندلسى فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد ١٣-١٩٥١ .

٢٧ - شوقى ضيف . . الحقيقة والرمز

د. ماهر شفيق فريد

لم أكتب لأمدح شوقى ضيف ؛ فهو ليس بحاجة إلى شهادة منى أو من غيرى ، وقد شهدت له أعماله العلمية الصريحة عبر حياة مباركة الثمرات موصولة العطاء ، وهو ، على أية حال ، كذلك الممدوح الذى قال فيه الشاعر العربى القديم إنه :

تجاوَزَ قَدْرَ المدْحِ حتَّى كأنَّهُ   بأَحْسَنِ ما يُثْنَى عليه يُعَابُ

ولست من أصحاب الدراسات اللغوية العربية - وإن كانت هذه اللغة همى ومشغلتى حين أفرغ من ضرورات كسب العيش - وإنما أنا دارس ومدرس لآداب لغة أجنبية . لست أتفق مع شوقى ضيف فى كل ما يذهب إليه من آراء بل أنا - بتوجهى الغربى - أخالفه كثيراً فكرياً ووجدانياً وذوقياً ، ولكن آية الأستاذ الكبير أنه يستثير فى قارئه دواعى المناجزة والاختلاف ، ويدعوه إلى الجدل الشديد بل العنف الذى لا يراد به سوى وجه الحقيقة وحدها . أتحدث إذن عن شوقى ضيف من منظور دارس للآداب الغربية بعامة والأدب الإنجليزى بخاصة ، فأطرح سؤالاً واحداً : ما الذى يعنيه شوقى ضيف لدارس الآداب الأجنبية ؟

عندى أن أول ما يرمز إليه هو اعتدال النظر وسلامة الميزان وقيامه على أسس راسخة من العلم والذوق والدربة ، بحيث لا تجمح به الأهواء . لقد برئ شوقى ضيف من دائين مخامرين لا أدرى أيهما شر من صاحبه : داء الاستخذاء الذليل أمام الثقافة الغربية من جهة ، وداء الاستعلاء الذميم على هذه الثقافة والانكفاء إلى ماضٍ لا شك فى عظمته ولكن لا شك أيضاً فى أنه لم يعد يفى بكل ما جاء به عصرنا من جديد

المعطيات من جهة أخرى . شوقى يمثل الثقافة العربية الناضجة حين تقف شامخة واثقة بذاتها ، لا تعشى منها العينان إزاء أنوار حضارة غربية ، ولا تنبهر بأضواء الماضى الذى يضفى عليه البعد الزمنى حرمة بل قداسة . لقد جاوزنا معه مرحلة الانبهار بآراء المستشرقين ، كما جاوزنا مرحلة الوقوف الجامد عند مقولات الأقدمين .

قرأ شوقى ضيف هذا كله وتمثَّله وأعمل فيه عقله الناقد ثم خرج بمركَّبه الخاص وهو مركب مصرى ، عربى ، إنسانى . هذا درسه الأول ، وربما كان درساً خلقياً بقدر ما هو علمى .

وشوقى ضيف – فى زعمى – أعظم مؤرخ لتاريخ الأدب العربى فى عصرنا ، وذلك فى تلك السلسلة الجليلة من المؤلفات : العصر الجاهلى ، العصر الإسلامى ، العصر العباسى الأول ، العصر العباسى الثانى ، عصر الدول والإمارات فى الجزيرة العربية والعراق وإيران ، وفى مصر والشام ، وفى الأندلس ، وفى ليبيا وتونس وصقلية . إزاء هذا العمل الجليل تتضاءل كل تواريخ الأدب السابقة فى عصرنا ، بدءاً بجورجى زيدان ، وإنتهاءاً بأحمد حسن الزيات ، ومروراً بأحمد الإسكندرى . وكتاب بروكلمان بالقياس إليه لا يزيد إلا قليلاً عنه مجموعة من الفهارس المملة ، ضرورية ولكنها مملة . ويلحق بهذه السلسلة ثنائيته الخطيرة عن الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، والفن ومذاهبه فى النثر العربى ، ففى هذه الكتب من الإحاطة الموسوعية ، شمول النظرة ، والألمام العميق بالمهاد الاجتماعى والفكرى والسياسى للأدب ، والنظرة الحضارية المتكاملة ، واكتمال أدوات الناقد الأدبى ، واتساق المنهج وترتيب نتائجه على مقدماته – ما يجعل منها آخر عمل يمكننا الاستغناء عنه فى بابه . لقد رسم شوقى ضيف لنا – نحن دارسى الآداب الأجنبية – خريطة دقيقة لتطور الأدب العربى ، بكل تضاريسها ومرتفعاتها ومنخفضاتها ، وبذلك يمكننا من رؤية الأمور فى منظورها التاريخى الصحيح .

وكمااتسع شوقى ضيف أفقيًا تعمق رأسيًا . فهناك دراساته فى جوانب بعينها من التراث كالتطور والتجديد فى الشعر الأموى ، والشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية ، والشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ، والبطولة فى الشعر العربى ، والفكاهة فى مصر .

وهناك فنون الأدب العربى التى قصر عليها كتباً مستقلة مثل الرثاء ، والمقامة ، والنقد والترجمة الشخصية ، والرحلات ، والأدباء الذين أفردهم بالدراسة كابن زيدون، والبارودى ، وشوقى ، والعقاد ، وأعماله فى الدراسات القرآنية ، والنحو واللغة ، وتحقيق التراث ، وتلك السيرة الذاتية الجميلة التى نشرتها له سلسلة (اقرأ) فى جزأين تحت عنوان (معى) .

ثم هناك كتابه الجزيل الفائدة (البحث الأدبى : طبيعته . مناهجه . أصوله . مصادره) ، وهو عمل عميم النفع لطلبة الدراسات العليا لا فى أقسام اللغة العربية وآدابها وحدها وإنما فى كافة الأقسام ، حتى العلمى منها . وأشهد أن شوقى ضيف فى هذا الكتاب وغيره قد نمَّ عن معرفة وثيقة بالآداب الأجنبية ومناهج النقد الغربى ، فإن فيه صفحات نافذة عن هذه الأمور بدءاً بأفلاطون وأرسطو ، وانتهاءاً بإليوت ورتشاردز ، ومروراً بسانت بيف وتين وبرونتير وغيرهم . وهذه الثقافة العريضة المنفتحة على فكر الآخرين هى التى صانته من الإسراف فى المحافظة وَوَقَتْه شرَّ الجمود . لم يكن شوقى ضيف – فى تعامله مع الظواهر الأدبية – قطعياً دوجماطيقياً منحصراً فى مذهب بعينه . إن هذا المغروس ، حتى النخاع ، فى الثقافة الكلاسكية العربية قد وسعه – بما أوتى من شمولية الذوق ، ورحابة النظرة ، وأريحية النفس – أن يكتب مقاله الماجد البصير عن صلاح عبد الصبور ، وأن يقدم الأعمال الشعرية الكاملة لشاعر مرموق من شعراء التجديد هو أحمد سويلم .

لست أعرف شوقى ضيف شخصياً ولا يعرفنى . والمرة الوحيدة التى التقينا فيها – ولم تدم غير دقائق – لم تكن بالمناسبة السعيدة ؛ فقد كنت أجلس فى حجرة أعضاء هيئة التدريس بقسم الغة العربية فى هذه الكلية أنتظر أستاذاً بالقسم ضرب لى موعداً هناك .

ودخل الدكتور شوقى ضيف الغرفة – وكان فيما يبدو ، يستخدمها فى ذلك الوقت من الأصيل فى التدريس لفصل صغير من طلبة الدراسات العليا – وحين رآنى جالساً قال لى ماذا تصنع هنا ؟ وأجبته بكل ما ينبغى من أدب ، وإن تألمت ، فى دخيلتى ، كما هو طبيعى ، من هذا المدخل الجافى . لكنى لم أحملها له ، فإن أستاذاً عظيماً مثله

علمنى وعلم الآلاف غيرى لا تذهب بفضله خشونة عابرة ، ولعلى قد صنعت مثل ذلك مع آخرين مرة أو مرات فى حياتى وأنا لا أدرى . شوقى ضيف - ولتوخّى الإيجاز - يمثل الدراسات العربية فى قمة نضجها وقد استوت على سوقها قوية عزيزة كريمة ، وإن تكن مياه كثيرة قد جرت تحت الجسر نظرية وتطبيقًا منذ بدأ الكتابة بمجلة (الرسالة) وهو طالب بالفرقة الثالثة فى هذه الكلية . إنه من القلائل الذين كرسوا حياتهم للعلم وخدمة هذه اللغة الكريمة والتمكن منها ، بحيث كان خادمها وسيدها فى آن واحد . وهو فى غزارة إنتاجه وحرصه على التجديد ويقظة ضميرة العلمى مثل أعلى ، يحسن بأبناء هذا الجيل - المتعجل قطف الثمرة قبل استوائها - صنعًا ، أن يتعلموا منه .

ويسعدنا أن نرى إقرارًا بفضله فى مثل كتاب الدكتور عبد العزيز الدسوقى المسمى (شوقى ضيف رائد النقد والدراسة الأدبية) ، وكتاب (شوقى ضيف : سيرة وتحية) بإشراف وتقديم الدكتور طه وادى . شوقى ضيف - عندى - رجل من طبقة محمد مندور ، وعبد القادر القط ، وشكرى عياد ، وصقر خفاجة ، وزكى نجيب محمود ، وعبد الرحمن بدوى ، وتوفيق الطويل ، ولويس عوض ، ورشاد رشدى ، ومجدى وهبة ، وحسين مؤنس ، ومصطفى سويف . وإذا ذكرت هؤلاء الرجال فقد ذكرت - فى تقديرى - بعضًا من أهم القمم الفكرية التى بلَغها الفكر المصرى ، بل العربى فى هذا القرن ، وذلك فى الجيل الذى أعقب جيل طه حسين العظيم ، والعقاد الأكثر عظمة .

لك الإجلال سيدى، ولك المثوبة بما قدمت من علم نفعت به الناس، وأثرت العقول ، وصقلت الأذواق . ولنا حق الاختلاف معك فى هذه النقطة أو تلك بل فى هذه المنطقة بأكملها ، أو تلك من مناطق الدرس ، فإنما تصلح حياة العلم - بل حياة الناس - بهذا الاختلاف المثمر الخصب .

الدكتور ماهر فريد شفيق

قسم اللغة الإنجليزية

كلية آداب القاهرة

٢٨ - منهج الدكتور شوقى ضيف وآراؤه فى التعليم

أ.د. على الحديدى

إذا كان التاريخ السياسى للأمم هو سيرة السياسيين العظماء ، فإن التاريخ الأدبى ليس سيرة الأدباء المبدعين وحدهم، بل يصنعه معهم كبار النقاد ومؤرخوا الأدب والباحثون والعلماء الذين يتوفرون على جمع التراث الأدبى يدرسونه ويلقون عليه الأضواء ، ويضعونه تحت منظار النقد والموازنة والتحليل ، ويكشفون عن قيمته ، ويظهرون أصيله وزائفه .

وكما تهتم الدراسات الأدبية بسيرة الشعراء المجيدين والكتاب المبدعين ، فإنها تهتم بنفس الدرجة بسيرة النقاد ومؤرخى الأدب والعلماء الذين وضعوا التراث موضعه السليم وأقاموه فى مجراه الصحيح ، فجهودهم العلمية أو دراساتهم المبتكرة أو نقودهم الكاشفة منارات على طريق الخلود لتراث الأدباء .

والتاريخ الأدبى لا يجرى وراء الحقائق الجامدة من حياة الأدباء المبدعين والنقاد ، بل يبحث عن الصورة الأدبية فيما يكتنه من الأحاسيس الداخلية فى حياة الأدباء ونتاجهم ليصل إلى سر العبقرية فى الإنسان . والعبقرية الأدبية ليست مجرد حظ تسوقه الأقدار فى زمن مناسب ، وليست موهبة يمنحها الله من يشاء من عباده ، ولكن بالإضافة إلى ذلك ، لابد أن يواكبه جهد متواصل من تثقيف النفس ، وعمل شاق فى الحصول على المعرفة ، وتعب وعرق فى البحث والتنقيب حتى تحفر العبقرية طريقها على درب المجد فيخلدها الزمان .

وكما يقال فى المأثورات : يأتى على رأس كل قرن مصلح يصنع الأحداث ويقود الأمة ويترك بصمات شخصيته على التاريخ ، فإنه بالتالى يمكن أن يقال : يظهر فى كل

حقبة عالم أديب ومفكر نابه صاحب عقل مضيء وقلب مستنير ، يدرك المتطلبات الأدبية لزمانه فيلبيها بما وهب من علم نافع وبصيرة نافذة وصبر متواصل وحس أدبى مرهف. وأدبنا العربى منذ بدأت النهضة الحديثة ، وبعد أن أحيينا التراث ودخلنا عصر التنوير ، كان فى حاجة إلى من يدرسه دراسة مستوفاة ويؤرخ له تاريخًا منهجيًا يوائم العصر ويقيمه على مقاييس التحليل والتفكير ، وإذا كان العظماء من الأدباء والنقاد تستدعيهم الحقب التى تحتاج جهودهم وعطاءهم ، فإن القرن التاسع عشر استدعى جورجي زيدان فأرخ لأدبنا العربى عبر العصور متأثرًا منهج المستشرقين ومتتبعًا النمط الغربى فى دراسته .

وفى النصف الثانى من القرن العشرين ، وبعد أن قطعت بلادنا العربية شوطًا بعيدًا فى التحرر بفكرها عن تقليد الأسلاف والعيش فى ظلال القديم ، كما بعدت فى نتاجها الأدبى عن المحاكاة والتأثيرات الأجنبية والأنبهار بالإبداع والدراسات المستوردة ، ظلت تترقب ميلاد عالم أديب وناقد متفتح يواكب العصر فى تطوره ويمعن النظر فى تراثنا الأدبى ، يدرسه بفكر عربى ثاقب ونظرة إسلامية متفتحة ، ويؤرخ له بعقلية العالم المستبصر ، والناقد المفكر ، والعالم الخبير .

وكان على موعد مع القدر لحمل هذه الأمانة وأداء هذه الرسالة فى زماننا عالم جليل متمكن من التراث العربى متمثل ثقافة عصره ، مدرك بفطرته السليمة وحسه الأدبى المرهف ونزعته العربية الإسلامية متطلبات أمته ، ذلك هو أستاذ الأجيال الدكتور أحمد شوقى عبد السلام ضيف ، فقدم دراساته عن الأدب العربى وأرخ له فى عصوره المختلفة ، متمثلاً نمطًا عربيًا خالصًا ، غير محتذ فى منهجه دراسات الغربيين ولا مقلد مناهج علمائنا التراثيين، وإن تأثر بذلك كله ، فجاءت دراساته ملائمة لعصره ، كاشفة عن ثقافته الموائمة لتفكيره ، معبرة عن طابع شخصيته الإيجابية النزاعة إلى العروبة والإسلام ، ذلك الطابع الذى حفر بصماته على التاريخ لأدب أمتنا العربية ، وهى بصمات تظل مع السنوات والحقب والأيام .

وإذا كان أصحاب العبقريات من الأدباء والعلماء والنقاد هم الذين يكونون مجد الأمة الثقافى ، فإن سيرتهم يجب أن تحتل مكانتها المرموقة فى خط سير تاريخها

الأدبى ، إذ إن الأجيال القادمة لن تستطيع أن تكتب تاريخ أمتها الأدبى الصحيح دون الاعتراف بالدور الحاسم الذى قام به هؤلاء العظماء من الأدباء والنقاد ومؤرخى الأدب فى توجيه مسيرة هذا التاريخ .

والدكتور شوقى ضيف - وهو صاحب كتاب «الترجمة الشخصية» ، وله باع طويل فى مجال التراجم والسير - يدرك كل الإدراك أن المرء لا يمكن أن ينعزل عن الشخصية التى يبدأ فى اكتسابها بعد مولده أو لا عن عالم طفولته المؤثر فى تكوين مراحله العمرية التالية ، ولا عن بيئته التى يعيش فيها ويتفاعل معها ولا عن الأحداث السياسية والاجتماعية فى عصره . ومن هنا وحين كتب الدكتور شوقى سيرته الذاتية فى كتابه «معى» عرض لذلك كله ، وألقى عليه الضوء ليظهر التأثير المتبادل بين الشخصية وعالم طفولتها ، وصباها ، وشبابها ، وبيئتها التى نشأت فيها ، والأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية التى عاشتها لنجد الشخصية الماثلة أمامنا حية بنبضها تملأ حاضرها والمستقبل ، تشى بمواطن العظمة فيها وما تتمتع به من مواهب وقدرات فى إطار من العواطف والانفعالات التى تعمق النفس البشرية .

وشخصية أحمد شوقى ضيف الفذة ليست إفراز هذا التأثير المتبادل وحده ، وليست كذلك مجرد حظ واتاه فى بيئة علم ودين ، ولم تتكون فى لحظة تفتحت فيها أبواب السماء لدعوات والدين صالحين ، ولم توهب لحسن طالع وافاه فنشأ فى مكان أتيح له فيه الاختلاط بالعلماء والدارسين، وإلا لظهر عشرات مثله أتيح لهم أن يعيشوا نفس ظروفه ، لكن عظمة شخصيته تتمثل فى شيء ينطوى على ذلك كله وفوقه أو قبله وبعده ، موهبة تعلو مواهب الآخرين ، وخصائص اكتسبها على مسيرة درب الحياة . وعلى الرغم من أنه فرد فى مجتمعه العلمى الذى ينتمى إليه طالبًا من طلاب الأزهر ، وتجهيزية دار العلوم ، وكلية الآداب ، ومحررًا فى المجمع اللغوى ، وأستاذًا بالجامعة ، إلا أنه ينفرد بصفات قد لا نراها فى كل طالب وكل محرر وكل أستاذ جامعى ، ولكنها صفات ومواهب تجمعت فيه فعبر عنها وجعلها أمامنا حقيقة ماثلة فى شخصه .

ومن هنا كانت السيرة الذاتية للدكتور شوقى ضيف من الأهمية بمكان ، فهى تلقى الضوء على شخصيته فى مراحلها المختلفة وتوجهنا إلى مناحى التفكير عنده فى

القضايا التى بثها فى ثنايا هذه السيرة .. ومن هذه القضايا «قضية التعليم» فقد تتبع سيرته فى مراحل التعليم وتنقله بين المعاهد المختلفة بمناهجها المتنوعة ، يوضع فى كل مرحلة ملامحها التعليمية ، ويدلى برأيه فيها ، أو يثبت وجهة نظر متصلة بها . ولعل ذلك ما دعا إلى أن يكون عنوان البحث «شوقى ضيف منهج وآراء فى التعليم» .

التعليم فى القرية المصرية :

من نسل شيخ أزهرى فاضل ، وفى قرية «أولاد حمام» قرب مدينة «دمياط» خرج إلى الدنيا أحمد شوقى ضيف وليداً عام ١٩١٠ ، وفى بيت أبيه الشيخ عبد السلام ضيف ، الذى أتم تعليمه فى المعهد الدينى بدمياط ، نشأ الطفل يسمع أباه فى الصباح وأطراف النهار يتلو كتاب الله ويقرأ بعض الأوراد والأذكار . ويراه كل مساء يتحلق حوله المصلون من أهل القرية فى المسجد ما بين صلاتى المغرب والعشاء يعلمهم ويفتيهم فى أمور دينهم ويشير عليهم فى شئون دنياهم . وفى حجر أم صالحة بارة بزوجها تذكر الله ذكراً كثيراً ، تربى الطفل ، وكانت به حفية ، تعطف عليه وترعاه وتحيطه بالحنان من قلب يفيض بالحب والخير للبشر جميعًا ، يرفد ذلك إرادة حازمة صلبة كانت وكأنها تورثها صغيرها فيما ورثته من الخلال الحميدة .

فى هذا الجو المشبع بالروح الدينية والمفعم بالحب والرحمة والحنان تفتح قلب الطفل أحمد شوقى ، يستمع فيه إلى كتاب الله يتلى كثيراً وينصت إلى اسم الله يتردد دائمًا ، فينقش فى صدره وتترسخ القيم الدينية فى وجدانه ، وتتقطر فى قلبه محبة الخير لأهله والناس جميعًا . وما إن بلغ الصبى السادسة من عمره حتى التحق بالمدرسة الأولية فى قريته «أولاد حمام» وكانت قرية سعيدة الطالع موفورة الحظ بين قرى مصر آنذاك بكل المقاييس ، ومن هذه المقاييس :

١ - فى العقد الثانى من القرن الحالى لم يكن فى هذه القرية فروق طبقية بين الموسرين من أهلها والمعسرين منهم ، فالجميع فيها سواء ، يشتركون فى كل شىء اشتراكهم فى الماء والهواء ، وتقوم صلات الرحم والقرابة بين أهلها بالربط بينهم ،

وكأنهم أسرة واحدة ، مع أن بينهم ملاكًا وأجراء ، وصيادين ووجهاء ، ومنهم الموسرون والفقراء .

٢ - طبقت «أولاد حمام» فكرة الإلزام فى التعليم أوائل هذا القرن . فذهب إلى مدرستها الأولية كل الأبناء ، وكان التعليم مظهراً من مظاهر المساواة والتآخى بين أهلها ، فلم تكن هناك مدارس خاصة بأبناء الموسرين ، ولم يكن يؤم المعلمون قصور الأغنياء ودورهم لتعليم أبنائهم ، بل كان ينتظم أبناء «أولاد حمام» جميعًا بالمدرسة الأولية الوحيدة بها .

٣ - كانت «أولاد حمام» تقدمية فى تفكيرها ، فعرفت التكافل الاجتماعى فى التعليم بحيث إذا ظهر أحد أبناء الأجراء أو الصيادين الفقراء من أهلها استعداداً واضحًا للنبوغ والتفوق فتحت أمام استكمال تعليمه الأبواب ، اعتزازاً من القرية بالتفوق والنبوغ .

٤ - سبقت «أولاد حمام» بتفكيرها أوائل هذا القرن ، قرى مصر بل كثيراً من مدنها ، بأن جعلت التعليم فى مدرستها الأولية مختلطًا يتعلم فيها البنون والبنات ويختلط فيها الذكور والإناث اختلاطًا طبيعيًا ، وكأنها استجابة مبكرة لفكرة الاختلاط فى التعليم .

ذلك الذى كان يحدث فى قرية «أولاد حمام» هو حالة خاصة ولم يكن حالة عامة فى قرى مصر كما يرى أستاذ الأجيال (ص ١٧) ، ففى هذه الحقبة من تاريخ مصر ، كانت الطبقة تضرب بجرانها على أكثر قرى مصر ، يفرضها الإقطاعيون والأغنياء وطبقة الحكام وبقايا الأسر التركية مالكين للأرض ومن عليها من البشر متحكمين فى مصادر أرزاق يسوقون المواطنين بسياط التحكم والسيادة . وأكثر هؤلاء لا يلحقون أبناءهم وبناتهم بالمدارس الأولية بالقرية بل يذهبون بهم إلى المدن القريبة أو إلى القاهرة لينتظموا فى المدارس الابتدائية . ومن وهب من الموسرين ابنًا للتعليم الدينى فى الأزهر ومعاهده ، يذهب به إلى الكتاب لتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ، وقد يذهب معه إلى الكتاب قلة من أبناء صغار الملاك من الفلاحين . أما أبناء العامة من الأجراء أو الصيادين والفقراء فلم يكونوا يعرفون إلى الكتاب أو المدرسة طريقًا ،

بل يقضون طفولتهم يتخبطون فى عماية الجهل وذل الفقر حتى تستوعبهم الأعمال الصغيرة فى الحقول ، ثم يلحقون بأهلهم أجراء وصيادين وفقراء ، وأنى للفلاح الفقير أو الصياد المسكين «بمسانية» سيدنا أو مصاريف المدرسة الأولية[1] ؟ والفلاح كما يقول الدكتور شوقى : «قد ضاق رزقه واشتد ضيقه حتى لم يكن يملك سوى جلبابه الأزرق الذى يلبسه طوال العام وفأسه الذى فلح به الأرض» (ص ١٧) .

وعلى الرغم من تفوق «أولاد حمام» على كثير من القرى المصرية فى التفكير والتعليم والاختلاط وتكافؤ الفرص بين أبنائها والمساواة بين أهلها ، إلا أن المدرس بمدرستها الأولية آنذاك ، كان يعيش بعقلية مدرس أولاد النبلاء الأوربيين في القرون الوسطى . إذ كان النبيل الصغير يذهب إلى المدرسة ومعه خدنه من العبيد ، فإذا ما أخطأ السيد عوقب العبد ، وكذلك كان يفعل مدرس المدرسة الأولية «بأولاد حمام» أو شيئًا شبيهًا بذلك أو أشد منه ، فلم يكن المدرس يشتد على التلامذة فى التعليم مستخدمًا أدوات العقاب عنده عصاه ، أو مقرعته ، أو مسطرة من حديد بأسها شديد، بل كان يكتفى تخويفًا لهم بأخذ ابن له معهم بالشدة بل بالقسوة المتناهية حين يخطىء أو يغلط ، فإنه كان حينئذ يعاقبه عقابًا شديدًا ، مؤثرًا ضربه بالمسطرة الحديدية حتى لا يعود إلى غلطه أو خطئه ، وكثيرًا ما كان يعود فيضربه بالمسطرة من جديد ، ويظل التلاميذ يشعرون بخوف ما بعده خوف (ص ١٩) .

وفى قرى مصر كم ضرب التلامذة آنذاك فى المدارس الأولية إذا أخطأوا بعصا من خيزران أو بعود من أعواد الحطب أو بمساطر خشبية على أيديهم وأصابعهم وأبدانهم وسيقانهم ، وكم رفعت أرجلهم فى «الفلقة» وضربوا بالمقرعة إذا تكرر خطؤهم أو أهملوا ما كلفوا حفظه، ولكن حين يأتى النذير بطلعة المفتش راكبًا حماره واضعًا «منديلاً محلاويًا» تحت عمامته أو طربوشه ليحميه من هجير الشمس وسيول العرق ، تختفى المساطر والعصى والفلقة والمقرعة . ويخطىء التلاميذ أمام المفتش ويتكرر الخطأ ولا ينالهم من مدرسيهم عقاب ، ويفرح الأطفال بزيارة المفتش فرحًا

---

(١) المسانية : مقدار من القمح أو الشعير أو الذرة يقدم لسيدنا ، صاحب الكتاب سنويًا عند الحصاد من كل متعلم حسب طاقته . أما مصاريف المدرسة الأولية فكانت ثلاثين قرشًا عن كل عام فى ذلك الوقت .

شديداً إذ لا ينالهم من المدرسين الأشداء القساة عقاب أثناء الزيارة ، بينما تصفر وجوه المدرسين خوفاً ورهبة من المفتش وتقاريره وكأنهم تلامذة يخافون الامتحانات .

وقد يجيب ذلك على تساؤل الدكتور شوقى : إن كانت الهيئات المشرفة على التعليم الأولى فى مصر آنذاك تحرم أو كانت تحل ضرب التلاميذ ضرباً مبرحاً ، فضلاً عن ضربهم بمساطر من حديد بأسها شديد (١٩) .

التعليم فى الكُتاب :

بعد أن نزحت أسرة الصبى أحمد شوقى ضيف إلى دمياط انتظم وهو يخطو فى السنة التاسعة من عمره فى كتاب ملحق بجامع البحر هناك ، وفى أقل من عام حفظ القرآن الكريم وصار يتلوه تسميعاً دون لحن . وفى تواضع العلماء نفى الدكتور شوقى أن يكون فى حفظ القرآن الكريم جميعه فى العاشرة تبكير . لكن واقع التجربة يؤكد أن الصبية فى حفظ القرآن بالكتاتيب أقسام : منهم النادرون من أصحاب الحافظة الخارقة وهؤلاء يحفظون قبل العاشرة ، ومنهم المتميزون وهم قلة من أصحاب الذاكرة الواعية يحفظون فى العاشرة ، أما الكثرة فقد كانوا يتمون حفظه ما بين الحادية عشر والثانية عشر ، ومنهم من كان يتأخر به حفظه إلى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، ومن هنا حدد الأزهر الشريف فى قانونه الذى صدر فى الثلاثينات من هذا القرن ألا يقل سن القبول بمعاهده عن الثانية عشرة وقد تزيد إلى السادسة عشرة .

والحق أن التميز الذى نلقاه فى الكتاب للصبى أحمد شوقى لم يكن فى حفظ القرآن الكريم فى العاشرة فقد يشاركه فى ذلك صبية آخرون ، لكن التميز الجدير بالتنويه والإشادة هو ما انفرد به من حفظ القرآن الكريم كله فى أقل من عام ، ولابد أن يكون ذلك محصلة لذاكرة لاقطة وحافظة واعية هبة من الله سبحانة وتعالى ظلت تصاحبه طوال عمره المديد .

وتميز آخر لم يتمكن تواضع العلماء من إخفائه عن قراء كتاب «معى» ذلك هو توقف الصبى مراراً وهو فى العاشرة من عمره متأملاً فى معانى بعض الآيات الكريمة.

ومن ذلك تأمله وتفكيره فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ ، فقد كان يعجب ويسأل نفسه كلما تلا هذه الآية الكريمة : هل تصبح الزوجة مبغضة لزوجها والولد مبغضًا لأبيه ، ومبعث العجب أنه يرى أبويه متعاطفين متوادين متآلفين ، لكن نفس الصبى كانت تهدأ حين يجد ما بين والده مطابقًا للآية الكريمة الأخرى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ ، هذا التأمل فى آيات الله البينات ، وذلك التفكير فى محاولة استكشاف معانيها ومطابقتها على مجريات الواقع فى أسرته تميز لا يصل إليه فى هذه السن – دون عدة من علم أو معرفة – إلا النبوغ المبكر ، والذكاء الوقاد ، والقدرات الخاصة ، والبصيرة الكاشفة التى وهبها الله أستاذ الأجيال منذ كان فى العاشرة من عمره .

ويعقد الدكتور شوقى مقارنة بين ما كان يحصله الناشئة فى التعليم الابتدائى وما يحصله أندادهم فى الكتاتيب المصرية ، ويرى أن ما يحصله الأخيرون حصيلة كبيرة ، فقد كانت تعود ناشئتها – بدأبها على حفظ القرآن الكريم فى بواكير الحياة – بذل الجهد الشاق فى التحصيل والدراسة ، أما ناشئة التعليم الابتدائى فما يحصلونه حتى نهاية المرحلة فى الثانية عشرة يبدو فى رأيه ضئيلاً . ومن ثم أننا نهدر فى تعليمنا الابتدائى قدرات عقلية على التحصيل لأبنائنا فى سنواتهم المبكرة لا نستغلها بالصورة المأمولة (ص ٤٢) .

ولا ريب فى أن حصيلة ناشئة الكتاتيب من حفظ القرآن الكريم حصيلة عظيمة بكل المقاييس ، فهو مشحذ للذاكرة ، وباعث على بذل الجهد والجد فى مستقبل الدراسة ، ومصحح للنطق وضابط لمخارج الحروف ، ومعين على الدراسة اللغوية والعربية ، لكن تلامذة الكتاتيب كانوا متفرغين صباحهم ومساءهم لهذا الهدف وحده فهو شغلهم الشاغل منذ أن يضعوا أقدامهم فى الكتاتيب إلى أن يخرجوا فيها فتتفرق بهم السبل ، فإذا ما واصل فريق منهم التعليم فليس أمامه إلا الأزهر وللقبول به شرط واحد هو حفظ القرآن الكريم . أما ناشئة التعليم الابتدائى آنذاك فقد شغلتهم المناهج الدراسية بمواد مختلفة منها اللغة العربية والمحفوظات والإنشاء والقواعد والإملاء والخط ، ومنها التربية الدينية وفى منهجها حفظ لبعض أجزاء من القرآن الكريم ، هذا

إلى جانب التاريخ والجغرافيا ومبادىء العلوم والحساب والتربية الوطنية . وفوق ذلك كله تعليم اللغة الإنجليزية على يد «خواجات» من أهل اللغة . وكان شرط مواصلة التعليم فى المرحلة الثانوية هو الحصول على الشهادة الابتدائية بالنجاح فى كل هذه المقررات . وأكثر الآباء من ميسورى القرى وصغار الملاك كانوا يفضلون أن يلتحق أبناؤهم بالكتاتيب قبل التحاقهم بالمدارس الابتدائية فيحفظون قدراً من القرآن الكريم ثم يحصلون العلوم الأخرى فى المدارس الابتدائية وغيرها ، ومن هنا جاء قول الدكتور شوقى : «ولعل نبوغ مفكرينا العظام فى القرن الماضى وشطر من القرن الحاضر يرجع إلى ماتعوده فى الكتاتيب من بذل كل طاقاتهم فى استظهار الذكر الحكيم. وكان هذا البذل والجد فى التحصيل يظل ملازمًا لهم لا يزايلهم طوال التعليم حتى تعليمهم الجامعى أو العالى (ص ٤٢) .

التعليم فى الأزهر الشريف :

وفاء بهبة الصبى أحمد شوقى للعلم ، ألحقه أبوه بالمعهد الدينى فى دمياط ، ويفاجأ الصبى ، فى أول درس يتلقاه بالشيخ المدرس يطلب منه أن يردد وراءه ما يقرأ من متن الأجرومية : «الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع» ، ولم يحاول الشيخ أن يشرح للصبى ورفاقه العبارة المرددة ، بل أخذ فى إعرابها والصبى يردد خلف شيخه دون أن يفهم ما يقال ويردد ، فلم يكن قد سمع من قبل شيئًا عن هذا الإعراب الذى اشتمل من أبواب النحو : المبتدأ والخبر والنعت والجار والمجرور . لكن العام الدراسى لم يدر حتى كان الصبى قد عرف النحو العربى معرفة واضحة ، وتمثل الهيكل العام لقواعده تمثلاً حسنًا على يد الشيخ بطريقته التى لم تستخدم وسائل التربية الحديثة (ص ٥١) .

ويعجب الدكتور شوقى من هذا الذى يعز على الفهم والتفسير ، وهو أن تنجح طريقة الأسلاف ، وهى لا تسير على الطرق التربوية الحديثة ، فى تعليم النحو بواسطة متونه ومختصراته فتتمثله الناشئة الأزهرية ولا تجد فيه عسراً ولا مشقة ، بينما تخفق الطرق التربوية الحديثة فى المدارس الابتدائية فى تعريف ناشئتها بالنحو ، بل أنهم

يخرجون من التعليم الثانوى بعد سنوات وهم لا يحسنون فهمه ، وكأنما عقود النحو المتراصة فى المتون الأزهرية – فى رأى الدكتور شوقى – نقضتها الطرق الحديثة فسقطت بعد حياتها أو ضلت مكانها ، فضاع على تلاميذ المدارس سياق النحو ونسقه القديم ، وأصبح متعذراً عليهم إتقانه فهماً وإعراباً .

ولعل الأمر يحتاج بيان الفروق بين الناشئين وإيضاح الملابسات التى تكتنف كل طريقة ، وبذلك قد يزول عجب أستاذنا الكبير .

ومن هذه الفروق وتلك الملابسات ما يلى ·

١ – اختلاف السن الزمنى والإدراكى بين الناشئين ، إذ يلتحق هذا بالتعليم الابتدائى فيما بين السادسة والسابعة ، بينما يلتحق الآخر بالمعاهد الدينية فيما بين الثانية عشرة والخامسة عشرة ، ولا شك فى أن إدراك طفل فى السابعة غير إدراك صبى فى الثانية عشرة .

٢ – يدرس تلاميذ المدارس الابتدائية اللغة العربية بفروعها مقرراً دراسياً واحداً له عدد محدود من الساعات فى الأسبوع وجدول الدراسة ملىء بالمقررات غير اللغة العربية ، ولا ينال النحو من ذلك كله أكثر من ساعة أو مثل ذلك كل أسبوع ، بينما يكرس طالب المعاهد الدينية عمره الدراسى فى تعلم النحو والعلوم الدينية ، وينال النحو نصيب الأسد من ساعات اليومية الدراسية .

٣ – الطريقة التلقينية التقليدية التى تعلم بها الصبى أحمد شوقى النحو العربى لا يصبر عليها ليتمثل محصلتها إلا أولو العزم من طلاب المعاهد الدينية ، وهم الذين أوتوا الموهبة والذكاء والإدارة والتصميم ، وفوق ذلك يرزقون بشيخ مدرس على قدر من الفهم لهذه العقول الغضة وله نصيب من البصر بتوضيح هذه المعلومات الجافة وتفسيرها لتتفتح لها الأذهان المبتدئة . والقليل من الطلاب هم الذين أوتوا هاتين الميزتين . ولعل الشيخ «محمد عبده» خير مثل لمن افتقد الثانية من الميزتين ، ذلك أن شيخه بالجامع الأحمدى بطنطا لم يكن يتحلى بالصفات السابقة فهجر تلميذه العلم بعد أن استعصى عليه فهمه واستغلقت عليه دروبه ، وهرب إلى بلدة أخواله ، ولم يعد إلى التعليم إلا بعد أن قيض الله عالما من أخواله أخذه بالحسنى والصبر وفسر له

المغلق حتى تفتح له ذهنه ، ووضح له الصعب حتى استسهله ، وشرح الله صدره للعلم، وصار يدرك بعد عودته إلى حلقات الدرس حال زملائه وما يعانون من عدم الفهم لما يلقى عليهم فيأخذ بعد كل درس فى شرح ما تلاه شيخه وصعب على رفاقه فهمه .

أما الكثرة الكاثرة ، فقد كانوا يرددون القواعد النحوية وإعرابها وشوهدها ويحفظونها عن ظاهر قلب دون أن يتمثلوها أو يعرفوا توظيفها خارج هذه الشواهد المحفوظة ، ومن ثم «يقوم حجاب بينهم وبين النحو وقواعده ، ويظلون طوال حياتهم يتعثرون فيه شاعرين أنه شيء معقد ، فلا يعرفون التعامل معه ولا يستقر فى نفوسهم ولا يتهيأ لهم أن يفهموه يوماً ، أو يوظفوه فى لغة الحياة .

ولعل الأخطاء النحوية الكثيرة التى تضمنتها رسالة الشيخ العدوى الشهيرة - وهو من كبار العلماء - إلى الشيخ محمد عبده يوصيه بأحد تلاميذه ، ولعل أبا على الشلوبين الأندلسى العالم النحوى فى القرن السابع الهجرى الذى لم يكن يقيم جملة صحيحة دليل على أن حفظ القاعدة وإعراب شواهدها المعروفة شيء ، وتوظيفها فى لغة الحديث والكتابة وأمور الحياة شيء آخر .

والطالب الصبى أحمد شوقى كان من القلة التى أوتيت الحُسْنيين ، بل كان حالة خاصة ، والحالات الخاصة لا تكون مقياساً تعمم نتائجها ، فقد وهبه الله من الصبا ذكاء حاداً وذاكرة لاقطة وإرادة مصممة وقدرات خاصة للفهم ، وقيض له مع شيخه المدرس والده الشيخ عبد السلام فأخذ بيده فى فهم ما غمض عليه ، وقام مقام العالم الذى هيأه الله للشيخ محمد عبده فشرح الله صدره للعلم والفهم .

ولم يدر العام الأول فى المعهد الدينى حتى عرف النحو العربى معرفة واضحة . وذلك ما رشحه فى عامه الدراسى الثالث كى يقرأ الدرس ليلاً لشيخ النحو والصرف قبل أن يلقيه فى حلقة الدرس صباحًا . كما أن موهبته الفذة فى النحو جعلته وهو فى السنة الثالثة الابتدائية بالمعهد الدينى يفكر فى أن يؤلف فى عام ملخصًا لمتن «قطر الندى وبل الصدى» - وهو الكتاب المقرر - جامعًا بينه وبين شروحه . بذلك كان أول كتاب يدخل به الدكتور شوقى عالم التأليف (ص ٥٨-٥٩) .

ونبوغ الطالب أحمد شوقى فى المعهد الدينى وقدراته العلمية وهو صبى لم تقف عند علم النحو ، بل ظهرت كذلك فى الشق الآخر من العلوم التى كرس طلاب المعاهد الدينية حياتهم الدراسية لها فعكف على فقه الشافعية يقرأ متونه وشروحه وشروح الشروح المسماه بالحواشى ، ثم التعليقات على الحواشى المسماه بالتقارير ، وكان يجد متعة لا تعدلها متعة فى قراءة ذلك كله ليكون مستعداً لمحاورة شيوخه ومناقشتهم وإلزامهم بحجته ، واشتهر بين رفاقه بمحاوراته فأطلقوا عليه اسم عالم جليل شهير من علماء الشافعية هو العز بن عبد السلام (٥٩-٦٠) .

والحق أن الطريقة التقليدية التى كانت سائدة فى الأزهر ومعاهده آنذاك لا يمكن أن توصف بالعقم ، والدليل قائم فى علمائنا الأفاضل الذين درسوا فى الأزهر ونبغوا فى تاريخنا المعاصر والقريب ، لكنها كانت تؤتى ثمارها حين يتوفر لها العنصران : الطالب الذكى الدءوب الشغوف بالعلم ، والشيخ ذو البصيرة والجلد القادر على شرح المعلومات وتبسيطها لطلابه. أما أهم ما يميز هذه الطريقة على الطرق التربوية الحديثة فى تدريس النحو فذلك أنه يعرضه للطلاب عرضًا كليًا كل عام فيلمون منه بهيكله موجزاً فى السنة الأولى ثم يتسع فى كل سنة ، وبذلك تتكرر صوره أو يتكرر هيكله فيستقر فى أذهان القلة الواعية من الطلاب الأذكياء ويرسخ فى عقول من لهم استعدادات وقدرات خاصة للفهم ومن هم شغوفون بالنحو ، ودراسته على يد شيخ له مواهب المدرس الناجح . وهذا ما تعجز عن تحقيقه المدارس المدنية لضيق الوقت المخصص لدراسة النحو ، وقصور مناهجها فى اللغة العربية ، وضعف مستوى المدرسين .

هذه الطريقة التقليدية - كما يراها الدكتور شوقى - كانت مشحذة كبرى لعقول الطلاب الأذكياء فهى تبدأ بالفكرة المختصرة ثم تتابع فتتسع كلما تقدمت بالطالب سنوات الدراسة ، كما أنها تثير صوراً من المعارك الجدلية فى مختلف العلوم والفنون وخاصة فى الفقه وعلم الأصول والنحو والبلاغة ، وهى تعتمد على ما أثاره الأسلاف فى شرحهم وحواشيهم وتقاريرهم وعلى ما يثيره الطلاب وشيوخهم من آراء واعتراضات فتزيد العقل العربى خصوبة وغنى . ولا ريب فى أن هذه المعارك الجدلية وتلك الآراء والاعتراضات كانت تتيح للأزهريين قدرة فى تبين احتمالات النصوص ،

فصاروا لا يسكنون لتقبل المعارف في يسر ، بل يحاورون ويجادلون فيما يلقى إليهم أو يسمعونه طلباً لتبين الحقائق العلمية تبيناً دقيقاً (ص ٦٧-٦٨) .

وكم رغب الدكتور شوقى فى أن تظل هذه الطريقة التعليمية قائمة بالأزهر ومعاهده حتى يستمر لطلابه قوة الجدل ودقة البرهنة والنفوذ إلى دقائق الأفكار ، بل تمنى أن ينشأ فى كليات الآداب والحقوق وغيرهما على نسق ذلك علم يسمى «احتمالات النصوص» تدرس فيه الوجوه المختلفة لفهم النصوص الأدبية والفلسفية والقانونية والاقتصادية والسياسية .

وعرف الفتى أحمد شوقى ضيف فيما عرف من طرق الدراسة بالأزهر الطريقة الحرة بالقسم العام غير النظامى ، وكان يتابعها بعين الرضا والإعجاب ، فهى نظام ضارب فى القدم مع تاريخ الأزهر يحاضر فيه الشيوخ النابهون بعد صلاة الصبح فى الجامع الأزهر وفى المساجد الشهيرة ، كل فيما تخصص فيه ونبغ ، ولكل منهم حلقته وجمهوره من العلماء والطلاب والشبان من مختلف الأوساط الثقافية . وطلاب هذا النظام غيرمقيدين بحضور أو غياب ، وهم أحرار فى اختيار الحلقة التى يودون الانضمام إليها وفى التزود من هذا الشيخ أو ذاك ، وفى الاستماع إلى درس الفقه أو التفسير أو النحو .. أو غيرها من مختلف العلوم السلفية التى تدرس فى الحلقات ، كما أنهم غير مقيدين بعدد من سنوات الدراسة أو بامتحانات آخر العام ، بل يظل الطالب يتردد على الحلقات العلمية حتى يأنس فى نفسه أنه نال قدراً يرتفع به إلى مصاف الشيوخ ، ويرى فى نفسه القدرة على أداء امتحان الشهادة العالمية فيتقدم إليها وتشكل له لجنة من كبار العلماء يختارون له موضوعاً فى الفقه أو النحو أو الأصول .. أو غيرها من العلوم التى يجب أن تزود بها العالم ، ويحددون له موعداً يناقشونه فيه وتطوف مناقشة المتحنين بكل ما درس فى الأزهر يسبرون أغوار المتقدم فى العلم ، أو يتعرفون كفاءته فيه ، أو يتبنون مدى صلاحيته لشرف نوال «شهادة العالمية» ذات القدر الجليل .

وكأن الجامعات فى أوروبا وأمريكا فى رأى الدكتور شوقى قد نظرت إلى الطريقة الأزهرية الحرة غير النظامية فأخذت بشيء منها وطورتها إلى نظام الساعات المعتمدة، ونظام الفصول . بل من رأيه أن الطريقة الفصلية ونظام الساعات المعتمدة وإن التقت

بالطريقة الأزهرية القديمة إلا أن الأخيرة كانت أوسع حرية ، وكان حريا بمن أنشأوا التعليم الجامعي فى مصر أن يفيدوا منذ إنشائه بالطريقة الأزهرية فيسترشدوا بها كما استرشد بها طه حسين ، حين أصبح عميداً لآداب القاهرة ، وأنشأ نظام «المستمع الحر» من غير طلاب الكلية . غير أن نظام طه حسين لم يؤت الثمرة المرجوة لفقده الغاية الواضحة منه - كما كان ينبغى أن تفيد بعض الكليات الجامعية من طريقة هذه المحاضرات غير النظامية ، فيلقى كبار العلماء المتخصصين فى كل كلية محاضرات عامة يحضرها المثقفون والمتخصصون والعلماء والطلاب من المهتمين بكل تخصص ، فيرون مشاهد رائعة من عقليات نضجت بالبحث والتجربة تثرى عقول الشباب وتغنى تجارب المتخصصين والعلماء (٨٣-٨٥) .

آراء فى التعليم الجامعى :

على الرغم من المتعة الكبرى التى كان يجدها الطالب أحمد شوقى ضيف طوال الأعوام الستة التى قضاها بالمعهد الدينى فى مراجعة الشروح والحواشى والتقارير ، وعلى الرغم من السعادة التى كان يجدها فى الجدل والحوار مع شيوخه ، وعلى الرغم من تميزه وموهبته فى فهم الكتب الأزهرية ومن إعجابه بطرق الدراسة بالأزهر إلا أنه لم يجد نفسه فى هذا اللون من التعليم ، فما أن أتيحت له فرصة القراءة الحرة فى المقالات الأدبية التى كانت تنشر فى الصحف المصرية والمجلات الأسبوعية اللبنانية والتى لا يجد مثلها فى دراسته الأزهرية حتى استولت على قلبه وتملكت عليه لبه ، ولم يصمد نبوغه فى النحو ولا تفوقه فى الفقه ولا متعته فى الحوار والجدل أمام التيار الجديد الوافد على عقله وقلبه مع المقالات الأدبية فى الصحافة .. ذلك الذى سوى فى كيانه ، فأخذ يعمل فى نفسه ويثير رياح التغيير فى مساره الدراسى ، وكان تأثير المقالات الحرة فى الأدب أكثر فعالية من القراءة فى المتون والشروح والحواشى والتقارير ، ففكر فى الالتحاق بتجهيزية دار العلوم .

ترى هل اكتشف الفتى أحمد شوقى ميوله نحو الدراسات الأدبية مبكراً ، أم أنها الرغبة فى ارتياد طرق تعليمية أخرى يسبر بها مجالات التفكير فى نواحى الجمال

والوجدان والتحليل بعد أن ظل سنوات محصوراً فى مجالات الحفظ والجدل والحوار والتحصيل ؟ أم ترى أنها ثورة خفية على الطريقة التقليدية الأزهرية سرت إليه من طه حسين الذى قرأ له فى الصحف فأعجب بأسلوبه لسهولته ونصاعته ويسره وكان قريبًا إلى نفسه لأنه بدأ حياته أزهريًا مثله ؟ أم أنها الرغبة فى التجديد بعد أن ارتوى من التقليد ؟ أم أن قدراً خفيًا يقود خطاه إلى الموعد المضروب بينه وبين المجد فى الحياة الأدبية فى مستقبل أيامه ؟ أيًا كان السبب الذى نسعى جاهدين ظنًا وتخميناً لجلائه فإن الدكتور شوقى حسم الموقف حين أوضح «أنه ظن أن دار العلوم ستساعده فى تكوينه الأدبى بأكثر مما تساعده الدراسة الأزهرية (ص ٨٠) ولا اجتهاد مع النص .

التحق الطالب أحمد شوقى ضيف بتجهيزية دار العلوم ، وكان يعلم فيها صفوة ممتازة من شيوخ تخرجوا فى مدرسة القضاء الشرعى «عاطف بركات» الذى تخرج فى دار العلوم وتعلم فى إنجلترا وعاد بأفكار جديدة علمها تلاميذه ، وبدورهم كانوا حريصين على أن يبثوا فى طلابهم بالتجهيزية هذه الأفكار ، ولفتوهم إلى ما كان يكتب فى الأدب من مقالات فى البلاغ والسياسة الأسبوعية وفى مجلتى الهلال والمقتطف ، ودفعوا الطلاب بقوة إلى مناقشتهم فى كل ما كانوا يلقونه على سماعهم من دروس فى شكل محاضرات لا قراءة فى الكتب على الطريقة الأزهرية .

ثم انفتح للشاب شوقى ضيف باب آخر من أبواب التعليم والدراسة ، إذ قررت كلية الآداب ، وعميدها طه حسين ، قبول طائفة من خريجى التجهيزية وآخرين من حملة الشهادة الثانوية الأزهرية طلاباً بقسم اللغة العربية ليتزودوا بأدوات البحث الحديثة فى الأدب والنقد ، فيتخرج جيل يتقن العربية ويفقه أسرارها فقها سليما يجمع بين القديم والجديد أو بين الدراسات القديمة والدراسات الحديثة ، وسارت به الأعوام فى كلية الآداب مع أساتذة الأعلام يفتحون له أبوابًا من العلم بطرق لم يألفها فى الأزهر ولا فى تجهيزية دار العلوم ، فهذا «إبراهيم مصطفى» يدرس النحو لطلابه بطريقة جديدة تعتمد النقد والتحليل والتاريخ وتخلصه من شوائبه الكثيرة التى تجعله أشبه بغابة ملتفة . وذلك «أمين الخولى» الذى يجمع ما بين القديم والجديد ويكره الجمود ويحب التجديد محاولاً اصطناع نهج جديد فى تدريس البلاغة ، وكان يدفع بطلابه إلى نقد كل ما يقرءون أو يسمعون ، وكان يتقبل أفكارهم فيما يدلون به من آراء

بصدر رحب وأفق متسع . وكان «أحمد أمين» من الأساتذة المحببين إليه جمع بين الثقافتين القديمة والجديدة يحاضر فى الحياة العقلية الإسلامية ، ويتعمق وصف الظواهر العقلية للأمة العربية وما وضعته من علوم وما صاغته من أفكار . وجاءهم الشيخ «مصطفى عبد الرازق» فشغف الطلاب بمحاضراته فى الفلسفة الإسلامية شغفاً كبيراً ، وكان يجمع بين المحافظة وخير ما فيها والتجديد وخير ما فيه ، واستظهر إلى أقصى حد شخصية أمته الإسلامية العربية المصرية مع التزود بالفكر الغربى الحديث، وكان من شأن ذلك أن يجلو هذه الشخصية ويبرز خصائصها العقلية، أما طه حسين فكان أحب أساتذته إليه ، وكانت محاضراته وصوته فيها مهوى الأفئدة، وكان يضيف إلى ملكته الأدبية الخصبة اختيار الكلمات ، وبث نسقاً صوتياً بديعاً يقوم على حسن الأداء واكتمال الجرس فيه حتى يبهر السامعين .

وفى عام ١٩٣٦ انتقل الشاب أحمد شوقى ضيف إلى صفوف المعيدين بقسم اللغة العربية بكلية الآداب . وقضى عاماً يبحث فى موضوع يتقدم به لنيل درجة الماجستير ، وكان يأمل أن ينشر مخطوطات التراث النقدى القديم لكن الظروف لم تواته ولم يستطع الحصول على مصورات المخطوطة من جهاتها المختلفة ، فعدل إلى موضوع جديد هو «النقد الأدبى فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى» ، وحصل به على الماجستير . وعرض عليه أستاذه طه حسين موضوعاً يبحث فيه للحصول به على درجة الدكتوراه وطلب إليه ألا يبت فى قبوله قبل أن يبحثه من كافة جوانبه وبعد القراءة والبحث تكشفت للباحث الشاب وجهة نظر أخرى تبعتها نفسه ورآها جديرة بالدراسة فعرضها على أستاذه الذى ارتضى تصور تلميذه وخطة بحثه ، وأكبر فيه عمق التفكير واستقلال الرأى ولم يصدر منه بادرة تدل على عدم الرضى لانصراف تلميذه عن الموضوع الذى اقترحه .

ومن هذه التجربة وتجارب الأيام وإعمال الفكر يرى أستاذ الأجيال أن طالب الدراسات العليا يجب أن يضع فى ذهنه وهو يختار موضوعاً لبحثه أمرين :

أولهما : ألا ينتظر حتى يقترح عليه أستاذه موضوعاً بعينه ليبحث فيه ، بل عليه أن يقرأ ويبحث فى حقل تخصصه حتى يهتدى إلى عدة خيارات فى موضوعات منوعة يعرضها على أستاذه .

ثانيهما : إذا ما اقترح عليه أستاذه موضوعًا بعينه يؤخر التسجيل فيه حتى يسبر غوره ويختبره بالبحث والتعميق لتتضح له معالمه وتستبين له مادته ، حينئذ يفكر فى مدى قابليته ورغبته فى المضى قدما معه ، وفى إمكانات البحث عنده إزاء هذا الموضوع ، فإن لم يجد فى الموضوع مادة علمية موفورة ، أو لم يجد فى نفسه القابلية للمضى فى البحث أو وجد فى أدوات بحثه وإمكاناته قصورًا تجاه الموضوع انصرف عنه إلى موضوع آخر .

أم من ناحية المشرف ، فيرى الدكتور شوقى ضيف أن عليه مواصلة لقائه بطلابه الباحثين ، يقرأ لهم فصول رسائلهم تباعا ولا يترك القراءة إلى ما بعد إتمام الرسالة ، فكثيرًا ما تكون هناك ملاحظات وتوجيهات ينبنى عليها تعديلات فى الفصول التالية .

كما يرى الدكتور شوقى أن العلاقة بين الأستاذ المشرف وتلميذه الباحث يجب أن تكون قائمة على الاحترام والتقدير ، وألا يبخل الأستاذ بالثناء على تلميذه إن أجاد وأحسن ، فذلك الثناء دافع نفسى قوى يزيد الباحث تجويدًا فى عمله وتحسينا لأدائه ويعينه على الصبر والدأب وتحمل المشاق ، ويدفعه إلى مزيد من الجهد حتى ينال رضى أستاذه ويستحسن المزيد من ثنائه . وكذلك كان يفعل طه حسين مع الباحث أحمد شوقى ضيف ، فكان كلما قرأ له فصلاً من فصول الرسالة فى الموعد المحدد للقائه كل أسبوع أثنى على عمله وأطراه «كم كان يدفعه هذا الثناء دفعا إلى مضاعفة جهده حتى أنجز رسالته فى عام ونصف العام» وطه حسين كان بذلك أستاذًا مشرفًا بالمعنى الدقيق لإشراف الأساتذة بحيث يستخرج من تلميذه كل ما لديه من طاقة ومقدرة (ص ١٢٩) .

ويرى أستاذ الأجيال أن هناك من الأساتذة المشرفين على الرسائل من يتعالى على طلابه ، ويزرى بأعمالهم ويقلل من قيمتها العلمية ، مثل هؤلاء – فى رأيه – أداة تعطيل لمسيرة البحث العلمى ، ووسيلة إحباط لروح الطلاب المعنوية ، وكان أولى – حتى لو رأوا خطأ فى البحث – أن يأخذوا طلابهم بالرفق ويبينوا لهم بدقة ما ينبغى أن يسلك من سبيل قديم ويكشف لهم الطريق السديد والنهج السليم فى مسيرتهم البحثية.

آراء فى التدريس الجامعى :

انضم الدكتور شوقى ضيف إلى هيئة التدريس بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٤٢ ، ومنذ ذلك التاريخ وصلاته بالحياة العلمية نظرياً وعملياً تزداد وتتغنى ، وعلى مر السنين والأعوام صارت خبراته التدريسية معيناً ينهل منه المدرسون الجامعيون ، وتكونت لديه آراء كالضياء يهتدى بها شباب كل جيل من السائرين فى نفس الطريق ومن هذه الآراء :

ينبغى على الأستاذ الجامعى أن يمضى فى محاضراته حتى نهايتها ، دون أن يخرج من موضوعها أو ينطق بكلمة خارجة عنها ، فلا يذكر نكتة أو نادرة لطلابه . ويرى الدكتور شوقى أن من أكبر الغلط أن يشغل محاضر بالجامعة جزءاً من محاضرته بفكاهة أو قصة أو حادثة حدثت له أو ذكرى من ذكرياته استجماماً واسترواحاً ، وحقاً قد يصفق له الطلبة استحساناً ولكنه استحسان وقتى إذ سرعان ما ينكرون ذلك على محاضرهم ، وأخطر شىء أن يصبح ذلك عادة للمحاضر فتلتصق به فى محاضراته ولا يستطيع منها خلاصا . وليس من ريب أن من حق الطلاب فى الجامعة على المحاضر فى أى موضوع أن لا يشغلهم بشىء سواه حتى يطرد نسقه فى أذهانهم ، وحتى يتضح لهم منهجه فيه ومقدماته ونتائجه اتضاحاً تاما (ص ١٢٣-١٢٤) .

والأستاذ الجامعى الناجح - فى رأى الأستاذ الجليل - هو الذى يفتح قلبه لطلابه، ويعقد أواصر صداقة وثيقة بينه وبين النخبة الممتازة من تلاميذه ، ويرى الدكتور شوقى أن هذه الصداقة نعمة كبرى يمنحها الله من يشاء من أساتذة الجامعة، إذ يجعلهم يحسون بالراحة النفسية والسعادة الداخلية مهما تكبدوا من عناء ومشقة فى إدائهم لعملهم المرهق الجميل ، وإذا لم يجدوا الجزاء المادى فى الحياة لما يقدمون من عمل مرهق فسوف يجدون التقدير من طلابهم إثابة وتعويضاً ، فالطلاب يذكرون دائماً أولئك الذين فتحوا عقولهم على عالم المعرفة والعلم والثقافة بكل الخير ويجلونهم إجلال الأبناء للآباء . وصداقة الطلاب لا تغنى عن صداقة الأساتذة ، فالأستاذ الجامعى الموفق حرى أن يظل ممسكا بأواصر محبته وصداقته لأساتذته ما شاء الله أن يمد لهم الحياة «فمنهم تعلمنا وبفضلهم نلنا ما نحن فيه من مراكز علمية» .

ويرى الدكتور شوقى ضيف أن الأستاذ الجامعى الجدير بالتقدير – وهو يشرف على طلابه الذين يعدون رسائلهم العلمية – إذا رأى فى أحدهم مخايل ذكاء وقدرة على متابعة البحث والنفوذ إلى لب الآراء وجوهرها قربة إليه وشجعه وأطراه لزملائه وأساتذته . مثل هذا الإطراء والتشجيع يفعل فعل السحر فى عزيمة الطالب إذْ يدفع به إلى مضاعفة الجهد والدأب فى البحث ، ومثل ذلك القرب يملؤه ثقة واعتدادا بالنفس ويغذيه بالحماسة المتقدة ، وما أشبه الشباب الجامعيين فى بدء مسيرتهم العلمية للحصول على الدرجات الجامعية العليا بالأزهار فى أكمامها الغضة ، وكما أن الأزهار فى حاجة إلى ندى السحر لتتفتح فى كمامها ، كذلك شباب البحوث العلمية فى حاجة إلى إطراء أساتذتهم وتشجيعهم حتى تتفتح ملكاتهم العقلية فينفذوا إلى نتائج علمية ذات قيمة . وإذا كنا نتوقع الوفاء من الطالب لأساتذته ، فإن الدكتور شوقى يطالب الأساتذة بالوفاء لتلاميذهم : يحفظون لهم حق التلمذة ، ويقومون منهم مقام الأب من الأبناء ، وإذا لم يكن بينهم رابطة العرق والدم فلديهم رابطة العقل والفكر والروح ، فالأساتذة وإن لم يكونوا آباء طلابهم نسبًا فهم آباؤهم روحًا وفكرًا ، وذلك خير وأبقى.

ومن الملامح التى يراها الدكتور شوقى ضيف دليل نجاح الأستاذ الجامعى شيمة التواضع ، ذلك أن أمته قد وكلت إليه أشرف مهمة وهى تربية شبابها ، ومن ثم فمن واجبه أن يكون لين الجانب موطأ الكنف لطلابه ، لا يستظهر عجبًا بعلمه ولا يستعلى على طالبه ولا يعنف بهم إن ندت منهم خطأ – أو سهوًا – بادرة ، بل يستقبلهم بالبشر، وطلاقة الوجه ، وبالكلمات الطيبة ، بذلك تسود المودة بين الأستاذ الجامعى وطلابه فيكونون موضع تقديره ورعايته ، ويكون موضع توقيرهم وإجلالهم ، ولا يكون العلم فى الجامعة علمًا فحسب ، بل تربية سديدة وغرسًا للأخلاق القويمة .

وهناك من الأساتذة من تثور ثائرته إذا خالفه تلميذه فى فكره أو فى أفكار بحث علمى أخرجه ، وهى صورة – فى رأى الدكتور شوقى – تناقض تطور البحث العلمى ؛ لأنها تؤول بصاحبها إلى التوقف والجمود . والباحث العلمى الجدير بهذا الوصف لابد أن يعرف للأجيال من بعده ولمن يخلفونه فى الدراسة حقوقهم فى حرية البحث والخلوص فيه إلى أفكار جديدة لم تخطر بباله ومن واجبه أن يؤيد هذه الأفكار ويساندها إن وافقت رأيه أو يناقشها فى موضوعية إن خالفت ما يراه .

وقد أفرز عصرنا - فى رأى الأستاذ الكبير - ظاهرة رديئة رداءة الزمن الرمادى الذى نعيش فيه شاعت بين المعاصرين من الباحثين الشبان ، ذلك أنهم ينقلون آراء غيرهم ممن سبقوهم من العلماء دون أن يذكروا مصدراً أو مرجعًا نقلوا عنه ، إيحاء بأنها أفكار ابتدعوها أو آراء توصلوا إليها بجهودهم العلمية وعقليتهم المفكرة . ومثل هذا الصنيع عدوان صارخ على عالم المعرفة وجناية فادحة على البحث العلمى ، وخيانة للأمانة العلمية وخطأ فى حق العلم والعلماء وفوق هذا وذاك يراه الدكتور شوقى نقيصة أخلاقية سيئة؛ لأنه نوع ذميم من نكران الجميل لمن أهدى أفكاره إليهم وإلى غيرهم من الباحثين ، لأنه ادعاء كاذب لملكية لا يستحقها . ويعتقد أستاذ الأجيال أن هذه النقيصة البغيضة إلى العلماء لم تكن معروفة بين الأسلاف ، وعندما ارتكبها ذات مرة شيخ من شيوخ القرن التاسع الهجرى هو الشيخ برهان الدين البقاعى المعاصر للعلامة السيوطى فنقل عن بعض مؤلفاته نصا دون أن يعزوه إليه ثارت عليه ثائرة الشيوخ من زملائه ، وغضب عليه السيوطى غضبًا شديداً ، وحاول البقاعى جاهداً ترضيته دون جدوى فمشى إليه حافى القدمين من القلعة حتى جزيرة الروضة مسكن السيوطى معترفًا بذنبه ملتمساً الصفح والغفران نادماً على ما اقترف من جريرة وذنب!!

أما عن أعضاء هيئة التدريس بالجامعات ففى رأى الدكتور شوقى ضيف أن تسميتهم بالأسرة الجامعية لم يكن عبثًا ، ففى كل جامعة أسرة كبرى تضم أسر الكليات المختلفة ، وأصغر أسرة فى الجامعات هى أسرة القسم العلمى ، وهى أقرب إلى الأسرة الحقيقية فى الحياة ، لقرب الصلة بين أعضائها علماً ومعايشة أكثر أيام الأسبوع . والصورة المثلى لأسرة القسم - فى رأى الدكتور شوقى - أن يتواصل أفرادها تواصلاً إنسانيًا وعلميًا ، فالأساتذة الكبار يحدبون على أبنائهم المدرسين والمعيدين ولا يبخلون عليهم بنصيحة أو خبرة بالحياة الجامعية ، أما أساتذة التخصص من أعضاء القسم ، فجدير بهم أن يكونوا فيما بينهم أصدقاء ، والصداقة أعظم من الحب وأجمل فى رأى أستاذنا الكبير . وأن يكون التواصل العلمى بينهم مستمراً ، ومن وسائل الاتصال العلمى أن الانتاج العلمى لكل عضو فى الأسرة حين يظهر يكون أول من يقرؤه أعضاء هيئة التدريس والمعيدون ويناقشون صاحبه فى قيمته العلمية وآرائه المستحدثة يستفيدون منه ويفيدون وتكون أسرة القسم أول ناقد لهذا

العمل العلمى . ولكن يبدو أن هذا التواصل وهذه العلاقات الأسرية العلمية قد دخل عليها شيء من الوهن بسبب ضغوط الحياة وما سببته من ضيق الوقت بحيث لا يكاد يجد الزميل وقتاً يفرغ فيه لقراءة كتب زملائه .

هذه ملامح وآراء فى مجالات التعليم المختلفة لأستاذ الأجيال الدكتور أحمد شوقى ضيف جاءت فى كتاب «معى» بجزءيْه المطبوع منه والمخطوط ، عبرت عن وجهات نظره . وإذا كان بعضها قد تناولته المناقشة فما ذلك إلا طمعاً فى رحابة صدر أستاذنا الكبير وهو القائل : الباحث العلمي الجدير بهذا الوصف - وأستاذنا فى أعلى مرتبة منه - لابد أن يعرف لمن يجيئون بعده حقوقهم فى حرية البحث والخلوص فيه إلى أفكار جديدة . وما أراه إلا مبتسماً راضياً بعد قراءة هذه العجالة كعادته دائماً .

أ.د. على الحديدى

أستاذ الأدب الحديث

كلية البنات - جامعة عين شمس

٢٩ - موقف شوقى ضيف من الدرس النحوى
دراسة فى المنهج والتطبيق

د. علاء الحمزاوى

تقديم :

مرَّ النحوُ العربى بعدة محاولات للإصلاح من منهجه ، بغية تيسيره واستيعابه من قبل الناشئة والدارسين ، وهذه المحاولات لم تكن قريبة العهد بنا ، بل منذ أمد بعيد ، وكان أبرزها وأشهرها قديمًا محاولة ابن مضاء القرطبى الأندلسى فى كتابه "الرد على النحاة" ؛ حيث سدَّد سهامه إلى نظرية العامل التى تعد الأساس الذى قام عليه البناء النحوى وما تصوره النحاة لعواملهم من تأثيرات تصنع - من وجهة نظرهم - الظواهر النحوية من رفع ونصب وجر ، ثم ما تؤدى إليه من تقديرات وعلل وأقيسة ملأت النحو العربى بمسائل لا يحتاج إليها فى تقويم اللسان ، بل تقف حائلاً بين المتكلم واكتساب ملكة لغوية سليمة .

أما المحاولات الحديثة فمتعددة ، وقد بدأت مع رفاعة الطهطاوى فى كتابه "التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية" ثم توالت بعد ذلك فكانت جهود حفنى ناصف وزملائه فى كتاب "قواعد اللغة العربية" ، ثم جهود على الجارم ومصطفى أمين فى كتاب "النحو الواضح" ، ثم كانت محاولة إبراهيم مصطفى فى كتاب "إحياء النحو" ، وهى محاولة جريئة نحو "تجديد النحو وتيسيره" ؛ حيث تميزت بالدعوة إلى إلغاء نظرية العامل ، ولم يكن قد اطلع على كتاب ابن مضاء ؛ فلم يكن مطبوعًا آنذاك ؛

ومن ثم فهي محاولة جديدة من وجهة نظر صاحبها ، ثم جاءت أبرز محاولة نحو "تجديد النحو العربي وتيسيره" وهي محاولة د/ شوقي ضيف(١) .

وقد بدأت هذه المحاولة عند تحقيقه لكتاب ابن مضاء "الرد على النحاة" ١٩٤٧ ؛ حيث صنع مدخلاً طويلاً للكتاب قدّم من خلاله منهجًا جديدًا لتيسير النحو على الناشئة والدارسين(٢) ، وقد استند في منهجه على ثلاثة أسس استقاها من منهج ابن مضاء في كتابه ، وقد دعم منهجه ببعض النماذج التي تفصح على تيسير النحو(٣) .

---

(١) جدير بالذكر أن د/شوقي ضيف له اهتمامات نحوية واسعة ، نتج عنها خمس دراسات مهمة كلها ذات فكر عال جمع فيها ما بين الدراسة التاريخية والدراسة النقدية التي تحمل إبداعًا وابتكارًا ، وهي :

- تحقيق كتاب الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي ١٩٤٧ .
- المدارس النحوية ١٩٦٨ .
- تجديد النحو ١٩٨٢ .
- تيسير النحو التعليمي قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده ١٩٨٦ .
- تيسرات لغوية ١٩٩٠ .

وبالنظر إلى الكتب الخمسة نجد أن كتاب "المدارس النحوية" يمثل الجانب التاريخي الموسوعي الذي أهتم به في دراساته الأدبية ، أما الكتب الباقية فهي تمثل منهجًا خاصًا به في تجديد النحو العربي وتيسيره ، فقد حرص على أن يقدم صياغة جديدة للنحو تيسر فهمه وتعليمه ، إيمانًا منه بأن فهم اللغة قراءة وكتابة هو الخطوة الأولى لدراسة الأدب وتحقيق وجود الإنسان العربي . انظر : د/ طه وادى شوقي ضيف سيرة عالم ومسيرة إنسان ص ٢٥ من كتاب "شوقي ضيف سيرة وتحية" .

(٢) لاحظ د/ شوقي ضيف أن جميع البلاد العربية تشكو مر الشكوى من أن الناشئة فيها لا تحسن النحو ، بل لا تحسن النطق بالعربية نطقًا سليمًا ، ورأى أن مرجع ذلك هو النحو الذي يرهق المتلقي بكثرة أبوابه وتفريعاته وأبنيته وصيغه الافتراضية التي لا تجري في الاستعمال اللغوي ، وهو مع ذلك يغفل شطرًا كبيرًا من تصاريف العربية وأدواتها وصياغاتها ؛ مما يجعل الناشئة لا تتبين كثيرًا من أوضاع اللغة واستعمالاتها الدقيقة - انظر : تيسير النحو التعليمي ص ٣ .

والباحث يضيف إلى ذلك سببًا مهمًا أسهم بشكل كبير في صعوبة النحو والنطق السليم للعربية هو عدم ممارسة اللغة العربية بقواعدها في الحياة اليومية ، فنحن نتكلم ونتخاطب بلهجات عامية تختلف في كثير من تراكيبها عن الفصحى ، وبالتالي فتعليمنا لقواعد العربية في المدارس والجماعات يماثل في الصعوبة - أو يزيد - تعليمنا اللغات الأجنبية التي لا تمارس في تخاطبنا وكلامنا اليومي .

(٣) يقول د/ محمود فهمي حجازي إن د/ شوقي ضيف أسهم برأيه في التجديد مع توثيق هذا الرأي بالأصول التراثية . انظر . جهود شوقي ضيف في الدراسات اللغوية ص ١١٨ من كتاب "شوقي ضيف سيرة وتحية" .

وتعد محاولة د/ ضيف فى مدخل الرد على النحاة خروجًا إيجابيًا على النحو العربى أخذ حظًا وافرًا من التعليقات وردود الأفعال ، كما أن "الرد على النحاة" لابن مضاء كان ثورة عارمة على النحو العربى بعامة والنحو المشرقى بخاصة(٤) .

وقد ساعد د/ ضيف على تقديم محاولته هذه أن وزارة التربية والتعليم - وزارة المعارف آنذاك - قد ألف لجنة علمية للنظر فى النحو العربى ومحاولة تيسيره ، وقد قدمت اللجنة تقريرًا ضمنته مقترحاتها لتيسير النحو ، ودرس مجمع اللغة العربية هذه المقترحات ١٩٤٥ وأقر بعضها ، غير أن الكتب التى أُلفت على أساسها لم تلق كثيرًا من النجاح ، ورأى د/ ضيف أن ينهض بهذه المهمة مستندًا إلى آراء ابن مضاء ، فكان مدخله لتحقيق كتاب "الرد على النحاة"(٥) .

ولم يتوقف د/ ضيف عند الإطار النظرى المصحوب ببعض النماذج لتجديد النحو كما يصوره مدخل "الرد على النحاة" ، وإنما مضى طيلة السنوات التالية يعمق دراسته لهذا الموضوع إلى أن قدم فى سنوات ١٩٧٧ إلى مجمع اللغة العربية مشروعًا لتيسير النحو على أساس ما عرضه فى مدخل الرد على النحاة مع إضافة بعض الأسس الأخرى ، وأقر المجمع فى ١٩٧٩ معظم هذا المشروع ، ثم أصدر د/ ضيف كتابه "تجديد النحو" الذى قدم من خلاله مشروعه الكامل لتصنيف النحو تصنيفًا جديدًا معتمدًا فيه على الأسس التى انتهى إليها فى مدخل الرد على النحاة مع إضافة أسس أخرى ؛ ولذا فكتاب "تجديد النحو" هو تطبيق للمنهج الذى دعا إليه د/ ضيف فى مدخل الرد على النحاة ، وهذا ما يتضح لنا من قوله فى ختام مدخله النظرى : "وأكبر

---

(٤) لم يكن ابن مضاء هادمًا للنحو ، بل كان بانيا له فى ثوب جديد يستحسنه المتعلم والنشء لسهولته وتحقيق هدفه ، وقد انطلق ابن مضاء فى ثورته من اعتناقه المذهب الظاهرى فى الفقه الظاهرى الذى ألغى الاعتماد على كتب أهل المشرق الفقهية وما فيها من قياس وفروض تخييلية لا تستند إلى الواقع ؛ ومن ثم فهى بدعة يجب تركها ، فكانت الدعوة إلى الأخذ بظاهر النص وقد سحب ابن مضاء أسس المذهب الظاهرى فى ثورته على الفقه المشرقى إلى النحو العربى وثار ثورته عليه ؛ إيمانًا منه بأن النحو علم يخدم النص القرآنى ويسهم بشكل كبير فى فهمه وتفسيره .

(٥) للمزيد انظر : د. محمود على مكى - الأندلس فى نتاج شوقى ضيف ص ٤٩ من كتاب "شوقى ضيف سيرة وتحية" .

الظن أننا حين نطبق على أبواب النحو ما دعا إليه ابن مضاء من منع التأويل والتقدير فى الصيغ والعبارات كما نطبق على هذه الأبواب ما دعا إليه من إلغاء نظرية العامل نستطيع أن نصنف النحو تصنيفًا جديداً يحقق ما نبتغيه من تيسير قواعده تيسيراً محققًا ، وهو تيسير لا يقوم على إدعاء النظريات ، وإنما يقوم على مواجهة الحقائق النحوية وبحثها بطريقة منظمة لا تحمل ظلمًا لأحد ، وإنما تحمل التيسير من حيث هو حاجة يريدها الناس إلى النحو فى العصر الحديث»(٦) .

وبالنظر إلى هذا النص نجد أن د/ ضيف يعطينا تصوراً لتيسير النحو والأسس التى يستند إليها فى ذلك ، وهو تصور قائم على معطيات ابن مضاء فى رده على النحاة من إلغاء نظرية العامل أساس البناء النحوى وإلغاء التقدير والتأويل فى الصيغ والعبارات ، ثم قام د/ ضيف بتطبيق أسس ابن مضاء مع إضافة أسس أخرى على جميع أبواب النحو ، فخرج بالتصنيف الذى نراه فى كتاب "تجديد النحو" .

وهنا يمكن أن نسأل : هل نجح د/ ضيف فى تطبيق منهجه الذى يصوره مدخلاه فى كتاب "الرد على النحاة" وكتاب تجديد النحو" على كل أبواب النحو ؟ وهل كل ما أتى به يعد من إبداعه وفكره الخاص؟ وهل آتت محاولته ثمارها ، فاستقامت بها الألسنة أو أدت إلى فهمنا لقواعد العربية دونما صعوبة وعسر ؟

هذه الأسئلة – وغيرها – دفعت **الباحث** لدراسة هذا الموضوع "موقف د/ شوقى ضيف من الدرس النحوى – دراسة فى المنهج والتطبيق" وأنا أعنى بالمنهج منهجه فى مدخل الرد على النحاة ومدخله فى تجديد النحو ، والتطبيق هو تطبيق ذلك المنهج على كل أبواب النحو كما يصورها كتاب "تجديد النحو(٧) ، وما تنتهى إليه الدراسة من نتائج إنما تمثل وجهة نظر ***الباحث*** .

---

(٦) انظر "د/ شوقى ضيف : تحقيق الرد على النحاة – المدخل ص ٦٧" .

(٧) جدير بالذكر أن كتاب تيسير النحو للدكتور شوقى ضيف هو شرح واف للأسس التى اعتمد عليها فى تصنيفه الجديد للنحو والتى ذكرها فى مدخل الرد على النحاة ومدخل تجديد النحو ، وقد صدّر حديثه عن هذه الأسس بحديث عن أبرز محاولات التجديد والتيسير فى النحو قديمًا وحديثًا.

منهج شوقى ضيف كما يصوره مدخل الرد على النحاة :

صدّر د/ ضيف كتاب "الرد على النحاة" بمدخل طويل يعد تلخيصًا وافيًا للكتاب ، وما يحمل من أسس تيسير النحو العربى مع تأييد كامل وإضافات منه لآراء ابن مضاء ، ويؤكد هذا قوله : "ومضى ابن مضاء على هدى المذهب الظاهرى ينكر – فى إصرار – نظرية العامل فى النحو وما جرّت إليه من ركام الأقيسة والعلل ، وقد فصلّت القول فى ذلك بمدخل الكتاب – وهو مدخل طويل – تحدثت فيه عن ابن مضاء ومصنفاته .. وحللتُ آراء ابن مضاء فيه تحليلاً مفصلاً ، موضحًا دعوته إلى إلغاء نظرية العامل فى النحو وما يتصل بها من العوامل المحذوفة والعلل والأقيسة والتمارين غير العلمية مما لا يفيد شيئًا فى صحة النطق وسلامته ، وأضفت إلى ذلك فى المدخل رسم تصنيف جديد للنحو على ضوء آراء ابن مضاء ، أقمته على ثلاثة أسس هى : أولاً : تنسيق أبواب النحو بحيث يستغنى عن طائفة منها بردّها إلى أبواب أخرى . ثانيًا : إلغاء الإعراب التقديرى فى الجمل والمفردات مقصورة ومنقوصة ومبنية . ثالثًا : أن لا تعرب كلمة لا يفيد إعرابها شيئًا فى تصحيح الكلام والنطق به نطقًا سديدًا"(٨) .

وإذا ما استعرضنا المدخل نجد أنه يبدأ بالحديث عن عصر الكتاب ثم المؤلف ثم وصف نسخة الكتاب .. ثم عرض مجمل لآراء المؤلف فى الكتاب مع التركيز على الأسس التى أقام عليها ابن مضاء بناءه النحوى الجديد ؛ ومن ثم نحاول أن نقف عند هذه الأسس لنفصح عن موقف د/ ضيف منها ومن النحو العربى بعامة .

أولاً – إلغاء نظرية العامل :

تعد نظرية العامل الأساس الذى أقام عليه النحاة بنيانهم النحوى أصوله وسننه ، وهى أيضًا الأساس الأول الذى دعا ابن مضاء إلى إلغائه ، وقد هاجمها هجومًا هدف منه إلى إلغائها وهدمها ؛ إيمانًا منه بأنها لا تفيد النحوى شيئًا ، يقول : "وقصدى فى

---

(٨) انظر الرد على النحاة ص ٤ .

هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغنى النحو عنه ، وأنبّه على ما أجمعوا على الخطأ فيه ، فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب والخفض والجزم لا يكون إلا بعامل لفظى ، وأن الرفع منها يكون بعامل لفظي وبعامل معنوى ، وعبروا عن ذلك بعبارات توهم فى قولنا (ضرب زيد عمرا) أن الرفع الذى فى زيد والنصب الذى فى عمرو إنما أحدثه (ضرب) .. وهذا بيّن الفساد»(٩) .

ورد ابن مضاء على من زعم أن نظرية العامل غرضها تيسير النحو وتسهيل تعلّمه بأنها لا تيسر ولا تسهل شيئًا سوى حط كلام العرب عن رتبة البلاغة وادعاء النقصان فيما هو كامل .

وتأييداً من د/ ضيف لرؤية ابن مضاء يعلق على ما سبق قائلاً : "أليست فكرة العامل تجعلنا نفكر فى محذوفات ومضمرات لم يقصد إليها العرب حين نطقوا بكلامهم موجزاً ، ولو أنهم فكروا فيها لنطقوا بها ، ولخرج كلامهم من باب الإيجاز إلى باب الإطناب ، وانفكت عنه مسحة الاقتصاد البليغ فى التعبير"(١٠) .

وبعد هذا التأييد يعرض د/ ضيف فى المدخل لتقسيم ابن مضاء للعوامل المحذوفة ؛ ليدل بها على فساد نظرية العامل ، وهى ثلاثة أقسام : قسم حذف لعلم المخاطب به ، كقوله تعالى (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً) يعنى *أنزل خيراً* . وقسم حذف والكلام لا يفتقر إليه ، مثل (أزيدا ضربته؟) ، فإن النحاة يقدرون عاملاً محذوفًا عمل النصب فى (زيدا) وهو عامل يفسره الفعل المذكور على نحو ما هو معروف فى باب الاشتغال ، ويحمل ابن مضاء على هذا التأويل الذى لا يمكن أن يكون

---

(٩) انظر : الرد على النحاة ص ٧٦ .

ويذكر عباس حسن أن نظرية العامل – فضلاً عن أنها تسهم فى تعقيد النحو – تؤدى إلى إفساد الأساليب البيانية الناصعة ، وإن خطرها تجاوز المسائل النحوية إلى التحكم الضار فى فنون القول الأدبى الرائع . وإن حرص النحاة وتمسكهم بالعامل إنما هو آت بفضل ما تقرر فى العقائد الدينية ومجادلات علم الكلام من أن لكل حادث محدثًا ، ولكل موجود موجداً ، ولا يصح فى الذهن مخلوق بغير خالق ولا مصنوع بغير صانع . انظر : اللغة والنحو بين القديم والحديث ص ١٩٦ .

(١٠) انظر : د/ ضيف : مدخل الرد على النحاة ص ٢٦ .

المتكلم قد قصد إليه ، ويرى أن الذى دعا النحاة ذلك هو قاعدتهم التى وضعوها فى باب العامل ، وهى أن كل منصوب لابد له من ناصب . أما القسم الثالث فهو أكثر عنتا من القسم الثانى ، إذ نرى النحاة يقدرون عوامل محذوفة فى عبارات ؛ لو أنها أظهرت لتغير مدلول الكلام ؛ كتقديرهم فى باب النداء أن المنادى فى مثل (يا عبدالله) مفعول به لفعل محذوف تقديره (أدعو) ، ولو قال المتكلم (أدعو عبدالله) لتغير مدلول الكلام ، وأصبح خبراً بعد أن كان إنشاء[11] .

ثانياً - إلغاء العلل الثوانى والثوالث :

هذا هو الأساس الثانى الذى دعا إلى إلغائه ابن مضاء[12] ، ليريح الناس منه ، ووافقه عليه د/ ضيف ، ويوافقه عليه **الباحث** ، يقول ابن مضاء فى ذلك : "ومما يجب أن يسقط من النحو العلل الثوانى والثوالث ، وذلك مثل سؤال السائل عن (زيد من قولنا (قام زيد) لمَ رُفع ؟ فيقال لأنه فاعل ، فيقول : ولمَ رفع الفاعل ؟ فالصواب أن يقال : كذا نطقت به العرب ... ولو أجبت السائل بأن تقول له : للفرق بين الفاعل والمفعول ، فلم يقنعه ، وقال : فلِم تعكس القضية بنصب الفاعل ورفع المفعول ؟ قلنا له : لأن الفاعل قليل ، فلا يكون للفعل إلا فاعل واحد ، والمفعولات كثيرة ، فأعطى الأثقل - الذى هو الرفع - للفاعل ، وأعطى الأخف - الذى هو النصب - للمفعول ، ليقل فى كلامهم ما يستثقلون ، ويكثر فى كلامهم ما يستخفون ، فلا يزيدنا ذلك علماً بأن الفاعل مرفوع ، ولو جهلنا ذلك لم يضرنا جهله ، إذ صح عندنا رفع الفاعل الذى هو مطلوبنا باستقراء المتواتر الذى يوقع العلم»[13] .

---

(١١) انظر . مدخل الرد على النحاة ص ٢٦ .

(١٢) جدير بالذكر أن ابن مضاء لم يكن بدعًا فى دعوته إلى إلغاء هذه العلل ، فقد سبقه فى ذلك الزجاجى ومن قبله ابن السراج . انظر . د/ مازن المبارك العلة النحوية ص ١٥٤

كما هاجمها بشدة من قبله ابن حزم الظاهرى (ت ٤٥٦) ؛ إذا يقول . "وأما علم النحو فإلى مقدمات محفوظة عن العرب الذين تزيد معرفة تفهمهم للمعانى بلغتهم ، وأما العلل فيه ففاسدة" انظر : د/ محمد إبراهيم البنا : تحقيق كتاب الرد على النحاة لابن مضاء ص ٩ .

(١٣) انظر : د/ ضيف : الرد على النحاة ص ٣٦ .

ثالثاً - إلغاء القياس :

ذكر د/ ضيف أن ابن مضاء أضاف إلى ما سبق طلب إلغاء القياس ، وقد وقف عند أمثلة له ليبين فساده ، وبدأ بتعليلهم لإعراب الفعل المضارع ؛ فإنهم يذهبون إلى أنه أعرب لقياسه على الاسم ، فالأصل فى الاسم الإعراب ، والفعل فرع ، وهى فرعية يأخذها الفعل لعلتين : الأولى أنه يكون شائعًا فيتخصص مثل الأسماء ؛ فإن كلمة (رجل) تصلح لجمع الرجال ، فإذا قلت (الرجل) اختص الاسم بعد أن كان شائعًا ، وهذا نفسه نراه فى الفعل المضارع ، فإن كلمة (يذهب) تصلح للحال والاستقبال ، فإذا قلنا (سوف يذهب) اختص الفعل بالمستقبل بعد أن كان شائعًا . والعلة الثانية هى لام الابتداء ، إذ تدخل على المضارع كما تدخل على الاسم ، فتقول : (إن زيدا ليقوم) كما تقول (إن زيدا لقائم) ، وهاتان العلتان تتيحان للمضارع أن يأخذ حكم الاسم فى الإعراب(١٤) .

وهذا كله مردود من وجهة نظر ابن مضاء ؛ إذ يرى فيه إغراقًا فى التفسير وبعدا فى التقدير ، فلمَ يكون الإعراب أصلاً فى الاسم وفرعًا فى المضارع ؟! إن المعقول أن يكون أصلاً فيهما جميعًا ؛ لأن كلا منهما له أحوال متعددة مختلفة لا تعرف إلا بالإعراب ؛ فلا داعى لأن نجعل الإعراب أصلا الأسماء وفرعا فى الأفعال ، وإن خيراً من ذلك كله أن نقول : إن الفعل المضارع يعرب إذا لم يتصل بنون النسوة ولا بنون التوكيد ، ومعنى ذلك أننا نصف أحوال الأشياء فى نفسها ، ولا نلجأ إلي تعليل هذه الأحوال ولا إلى فرض قياس بينها وبين غيرها ؛ لأن ذلك يوقعنا فى مشاكل نقيمها ولا داعى لها .

ويعلق د/ ضيف على ذلك معلنا تأييده لابن مضاء قائلاً : "والحق أن الإنسان لا يقرأ الصحف الأولى من شرح السيرافى على كتاب سيبويه حتي يشك فى قيمة كل ما وضعه النحاة من علل وأقيسة فى نحوهم ، وقد يدخله القياس .. ويدخل

(١٤) انظر · الرد على النحاة ص ٣٨ .

الإنسان فى أثناء ذلك فى فيضان من الفروض والأوهام ، وأكبر الظن أن هذا ما جعل ابن مضاء يحس إحساسًا عميقًا بوجوب نفى العلل والأقيسة من النحو ، ورفضها[١٥] .

رابعاً - إلغاء التمارين غير العملية :

هذا هو الأساس الرابع الذى قرر ابن مضاء إلغاءه ليريح الناس منه ، ويسهل عليهم استيعاب قواعد اللغة العربية وفهمها ، والباحث يوافقه الرأى ، وهذا هو رأى د/ضيف ؛ إذ يقول مؤيداً ابن مضاء : "وإذا كان من الواجب أن نلغى العلل والأقيسة من النحو حتى نخلصه من كل ما يعوق مسيره وانطلاقه ، فكذلك يجب أن نلغى منه كل المسائل التى لا تفسر صيغًا نطق بها العرب ، وعلى رأس هذه المسائل مسألة التمارين غير العملية . ثم ساق المثال الذى أورده ابن مضاء لهذه المسائل ، وهو قول النحاة : ابن من البيع على مثال (فُعْل) ، فيقول قائل : (بوع) أصله (بُيع) فيبدل من الياء واوا لانضمام ما قبلها ؛ لأن النطق بها ثقيل ، كما قالت العرب : موقن وموسر ، ومن الممكن أن يقول شخص آخر : (بيع) محتجًا بأن الياء سكنت وضم ما قبلها فقلبت الضمة كسرة قياساً على (بيض وعين) فى (بيضاء وعيناء) .

ويقف ابن مضاء فيورد حجة كل من القولين ، ويبين أن هذه التمارين شغلت النحاة والنحو بوجوه علل لا حاجة لنا بها سوى التمرين فيما لا فائدة فيه ، وأى فائدة نفيدها من صيغة (بوع أو بيع) التى لم تأت بها العرب[١٦] .

ويرى د/ ضيف أن ابن مضاء محق فيما دعا إليه ، وأننا لسنا فى حاجة إليه ، كما لسنا فى حاجة إلى ما أتى به النحاة من تمارين لا تفسر صيغًا عربية ، وإن هذا ليحيل النحو ألغازاً .

---

(١٥) انظر : المرجع السابق ص ٤١ وما بعدها .

(١٦) انظر : الرد على النحاة ص ٤٣ وما بعدها .

ويضيف أن النحاة أفسدوا النحو بكثرة ما وضعوا فيه من فروع وعلل وأصول وأقيسة ومسائل غير عملية ، ومن أجل هذا كله نثنى على هذا الصوت الأندلسى الذى انبعث فى القرن السادس الهجرى يهتف : نحّوا الأقيسة والعلل والتمارين غير العملية على النحو ، فإن فيها فسادًا واضطرابًا كثيرًا ، نحّو العامل عن النحو ، فقد أتعب النحو والنحاة تعبا لم نفد منه إلا كثرة التأويل فى صياغاتها عباراتها وتقدير عوامل محذوفة ومعمولات مضمرة[17] .

ففى هذه الفقرة نجد د/ ضيف يحمد كل ما دعا إليه ابن مضاء ويثنى عليه ، ولم يتوقف عند ذلك ، بل يعود لتكرار هذه النغمة عازمًا على أن يسلك مسلكه ، فيقول : "وإنه لحرى بناء الآن أن نستجيب إلى هذا النداء حتى نخلص الناس من صعوبات النحو التى ترهقهم من أمرهم عسرًا ، ولن يكلفنا ذلك جهدًا ، فقد مهّد ابن مضاء الطريق أمامنا ، أليس يدعو إلى إلغاء نظرية العامل وقد طبق ذلك على أبواب من النحو؟ إذن فلنعمّم هذا التطبيق ، فننصرف انصرافًا تامًا عنها وعن كل ما يتصل بها، وإن إلغاءها يتيح لنا أن نصنّف النحو بشكل آخر ، تستمر فيه مواد النحو القديمة ، ولكن يُغيِّر نسيجها ويُكيَّف على أصل آخر هو العناية بأحوال الكلمات لا بالعوامل الداخلة عليها ، وكذلك الأمر بالنسبة لإلغاء كل تأويل وتقدير فى الصيغ والعبارات ، فذلك يريح الناس من عناء ولغو قلما فهموه ، وإذا فهموه لم يحسنوا فهمه ؛ لأنه يخرج فى كثير من صوره عن منطق الناس ومألوف عقولهم .."[18] .

ونتيجة لذلك عقد د/ شوقى ضيف مبحثًا خاصًا فى مدخل الرد على النحاة بعنوان "حاجة النحو إلى تصنيف جديد" ، مؤكدًا أن الإنسان لم يلمّ بآراء ابن مضاء ، ويطيل النظر فى كتب النحو حتى يحس الحاجة إلى تصنيف النحو تصنيفًا جديدًا ، ومن ثم اعتمد د/ ضيف فى وضع الإطار النظرى لمنهجه الجديد المصنّف للنحو

---

(١٧) المرجع السابق ص ٤٤ وما بعدها .

(١٨) انظر · الرد على النحاة ص ٤٨ .

تصنيفًا جديدًا على مبدأين أساسين هما : الانصراف عن نظرية العامل ، ومنع التأويل والتقدير في الصيغ والعبارات . والسطور القادمة توجز لنا فكر د/ شوقي ضيف في تصنيف النحو تصنيفًا جديرًا من خلال هذين المبدأين .

المبدأ الأول - الانصراف عن نظرية العامل :

يرى د/ ضيف أن هذا هو الأصل الأول الذي ينبغي أن نتكئ عليه في التصنيف الجديد للنحو ، وهو ناتج - كما يقول - من أن واجب النحوي أن يسجل ما وجد في اللغة فعلاً من صيغ وعبارات ، لا أن يفترض هو صيغًا وأحوالاً لعبارات لم ترد في اللغة ، ونحن لا نقرأ بابا في النحو حتى نجدهم يعرضون لما يصحّ ولما لا يصح ، مستلهمين نظرية العامل لا حقائق اللغة في كل ما يعرضون ، وإذا كانت نظرية العامل هي التي دفعت النحاة إلى فروض وصور لفروض في نحوهم ، فما أحرى بنا أن نتخلص منها ، وأن نرفع عن النحو إصرها .. وإن إلغاء هذه النظرية يفيدنا في تنظيم أبواب النحو تنظيمًا جديدًا يقوم على (مبدأ المجانسة أو التجانس) بحيث تجمع في الباب الواحد أحواله المختلفة ، فباب مثل (باب المضارع) تجمع فيه الأحوال المشابهة له من مثل بنائه على الفتح وتسكينه ، وهذا يقودنا لأن نعتبر المضارع المتصل بنون التوكيد منصوبًا لامبنيا على الفتح ، حتى نجانس بين حالة نصبه وحالة بنائه ، أو نعتبره في الحالتين مبنيًا حتى يتم التنسيق . ومثل ذلك المضارع المتصل بنون الإناث ينبغي أن نضمه إلى المضارع المجزوم ، ونسميه في الحالتين مضارعًا ساكنًا أو مسكنًا ، ولا داعي لأن نسمي سكونه مرة جزمًا ومرة بناء ، ومعنى ذلك أنه ينبغي أن نسمي الحالة باسم واحد ، وأن لا نوزعها على أبواب ، ولنصنع ذلك حتى لو لوحظ بعض الاختلاف أحيانًا، فإن الفعل المتصل بنون التوكيد يستمر منصوبًا مع الجوازم ، ولكن هذا لا يغير من القاعدة العامة في نصب المضارع ، فهو ينصب بعد (أن وأخواتها) وإذا اتصل بنون التوكيد حتى ولول سبقته أدوات الشرط(١٩) .

---

(١٩) انظر : الرد على النحاة ص ٤٩ وما بعدها .

ومبدأ التجانس فى التبويب يفيدنا فى تنسيق الأبواب كما نريد ، ومثال ذلك الأسماء التى لا تنون مثل الممنوع من الصرف والمنادى المفرد واسم لا النافية للجنس التى يدرسها النحاة فى أبواب متباعدة ؛ فينبغى أن يضم بعضها إلى بعض ويقرن بعضها ببعض ؛ لأنها تعالج حالة واحدة هى حرمانها التنوين ، ويترتب على ذلك أن نوحّد التفسير للظاهرة ، كأن نعجل هذه الأسماء كلها معربة أو مبنية .

وإن مبدأ التجانس – كما يرى د/ ضيف – يقودنا كذلك إلى التنسيق الداخلى لأحوال الباب الواحد ، بحيث تجمع فيه كل صوره وصيغه ، ولنضرب مثالاً بباب الفاعل ، فإن النحاة يقفون عند صيغه العامة المعروفة ، لكن قلما وقفوا عند صيغته التى يخرج منها من حالة الرفع إلى حالة الجر حينما يسبق بـ (من والباء الزائدتين) كما فى قوله تعالى : (كفى بالله شهيداً) و (أسمع بهم وأبصر)[٢٠] .

والباحث يحمد له مبدأ التجانس ، فجمع الأحوال المختلفة للباب الواحد فى مكان واحد يعد مظهراً من مظاهر تيسير الدرس النحوى ، غير أن المثال الذى ساقه د/ ضيف يجعلنا نستفسر : هل المضارع المؤكد الذى اعتبره مضارعًا منصوبًا هو المضارع المسند لفاعل مفرد مذكر أن يشمل المضارع المؤكد المتصل بواو الجماعة وألف الاثنين وياء المخاطبة ؟ وهو فى الحالة الأولى مبنى وفى الثانية معرب مرفوع ، فإن كان يقصد المضارع فى الحالة الأولى ، فإن ذلك يؤدى إلى خلل فى القاعدة ؛ لأن أدوات النصب تنصب المضارع فى الحالتين وإن اختلفت علامة النصب ، وإن كان قصده المضارع فى الحالتين فقد اعتبر نون التوكيد حرف نصب – مثل (إنّ المشددة) مع الأسماء – وهذا يحدث خللاً فى القاعدة من ناحية أن نون التوكيد تلحق فعل الأمر ، وهو مبنى فى جميع حالاته أو مجزومًا حسب اختلاف النحاة ، فكيف تؤثر فى المضارع ولا تؤثر فى الأمر ؟. وكذلك دمج المضارع المتصل بنون الأناث مع المضارع المجزوم يحدث خللاً أو اضطراباً ؛ لأنه فى الحالة الأولى مبنى على السكون ولا يتغير هذا البناء ، بينما هو فى الحالة الثانية معرب مجزوم ، وتتغير حالته إذا اتصلت به نون التوكيد ، فيصبح السكون ثابتًا فى حالة ومتغيراً فى حالة أخرى ، وبالتالى فالقاعدة

---

(٢٠) انظر : الرد على النحاة ص ٥٣ وما بعدها .

غير مستقيمة ، وهذا ما يجعلنا نحكم بأن توزيع النحاة للفعل على أبواب ما بين مبنى ثابت ومعرب متغير – وفقًا لقواعد محددة – أمر جيد يدل على دقتهم فى المنهج .

كذلك ضم الأبواب التى تحرم التنوين بعضها إلى بعض واعتبارها جميعًا معربة أو مبنية أمر يحدث خللاً فى القاعدة ؛ لأن حرمان التنوين فى الممنوع من الصرف مرتبط ببنيته الصرفية ، أما فى المنادى واسم لا النافية للجنس فمرتبط بوظيفته النحوية فى التركيب ، فإذا شغل وظيفة أخرى اكتسب التنوين . إضافة إلى هذا فإن المبنيات ملازمة حركة بناء واحدة، أما الممنوع من الصرف فمتغير الحركة وفقًا لوظيفته فى الجملة . ومن ثم فهذه الرؤية تحتاج إلى إعادة نظر ، وهذا ما يجعلنا نؤيد النحاة فيما قالوه بصدد هذه الأسماء .

ويقرر د/ ضيف أن التصنيف الجديد للنحو يلغى كثيرًا من أبواب النحو ، مثل أبواب كان وأخواتها وكاد وأخواتها وظن وأخواتها وأعلم وأخواتها و (ما ولا وإن) العاملات عمل ليس ، غير أن صور أمثلتها التى تمثل الواقع اللغوى لم تخرج من كتب النحو ، حيث أدمجت فى أبواب أخرى أساسية فالنواسخ الفعلية نقلت إلى الجملة الفعلية – كما يقول الكوفيون – على اعتبار أن أفعالها تامة ، والمرفوع بعدها فاعل والمنصوب حال أو مفعول وفقًا لنوع الفعل من حيث التعدى واللزوم ، أما (ما ولا وإن) فتدخل فى باب المتبدأ والخبر ولا تؤثر فيهما ، ونصب الخبر فى جملتها مثل نصبه فى قولهم (ضربى العبد مسيئًا) ، فـ (مسيئًا) خبر لا حال كما يقول النحاة ؛ تعميما للقواعد . وأما (إن وأخواتها ، ولا النافية للجنس) فالاسم بعدها يعرب متبدأ منصوبا ، كما يجر بعد (ربَّ وأخواتها ومِن والباء الزائدتين)[٢١] .

والباحث يرى أن كون جملة الأفعال الناقصة جملة فعلية ليس مترتبا على إلغاء نظرية العامل ، بدليل أن النحاة قد اختلفوا فيها ، فبينما عدها البصريون جملة اسمية عدها الكوفيون جملة فعلية دون التعرض لمسألة إلغاء نظرية العامل . **والباحث** يوافق د/ضيف على دمج أفعال (كاد وأخواتها ، وظن وأخواتها وأعلم وأخواته) فى الجملة

---

(٢١) انظر : الرد على النحاة ص ٥٠ وما بعدها .

الفعلية أو فى المفعول به كما فعل هو ، لأنها أفعال تحمل أحداثا أو معانى موضوعة فى إطار زمنى ، لكنه لا يوافق على أن تكون جملة (كان وأخواتها) جملة فعلية ؛ لأنها أفعال تدخل على الجملة الاسمية ، فتؤثر عليها من ناحية التركيب ؛ حيث تكون عوامل رفع للمبتدأ ونصب للخبر ، ويسمى المبتدأ اسمها ويسمى الخبر خبرها ، وتؤثر عليها من ناحية الدلالة ؛ حيث تضع الجملة الاسمية فى إطار زمنى محدد(٢٢) ، وتصبح الجملة حاملة دلالة التغيّر بدلا من دلالة الثبات التى هى صفة الجملة الاسمية ؛ ولذلك فهى تسمى أفعال الوجود "verbes d'existence"(٢٣) أو "الأفعال الناقصة"(٢٤) أو "أفعال العبارة"(٢٥) وقد تناول سيبويه هذه الأفعال فى أكثر من موضع من كتابه ، منها قوله الذى يوضح أن هذه الأفعال لا وظيفة لها إلا أنها تحمل زمنًا ما ولا معنى فيها : ".. كان ويكون وصار ومادام وليس وما كان نحوهن من الفعل مما لا يستغنى عن الخبر تقول : كان عبدالله أخاك ، فإنما أردت أن تخبر عن الإخوة ، وأدخلت كان لتجعل ذلك فيما مضى .."(٢٦) . ويضيف مؤكداً أن الخبر فى جملتى (كان وأخواتها)

---

(٢٢) انظر : Blachère : *Grammaire de l'arabe classique p. 391*, 395 .

(٢٣) انظر : A. Roman : *Grammaire de l'arabe PP.* 104, 105 .

(٢٤) هى أفعال ناقصة عند البصريين وسميت ناقصة عندهم لعدم دلالتها على الحدث وتجردها للزمن فقط ، يقول ابن السراج . ".. والفعل حقيقى وغير حقيقى ... وغير الحقيقى ثلاثة أضرب : أحدها أفعال مستعارة للاختصار ، ففاعلوها مفعولون فى الحقيقة نحو (مات زيد) والثانى أفعال فى اللفظ وليست بأفعال حقيقية ، وإنما تدل على الزمان فقط ، كقولك : كان عبد الله أخاك ، وأصبح عبدالله عاقلاً ، ليست تخبر بفعل فعله ، إنما تخبر أن عبدالله أخوك فيما مضى ، وأن الصباح أتى عليه وهو عاقل .." وهى أفعال تامة عند الكوفيين ومرفوعها فاعل ومنصوبها حال . انظر ابن السراج الأصول ٧٤/١ ، ٧٣ والزمخشرى : المفصل ٢٦٣ والسيوطى : الهمع ١١٠/١ .

(٢٥) انظر : ابن يعيش : شرح المفصل ٨٩/٧ .

(٢٦) انظر : الكتاب ٤٥/١ وهذا النص يؤكد أن (كان) إنما تجئ لتحدد زمن الجملة الاسمية ، وليس لها دلالة حدثية . ويعدد المستشرق الفرنسى بلاشير وظائف كان وأخواتها ، فيذكر أنها أفعال تدخل على الجملة الاسمية لتحديد الزمن ، وكذلك إذا أريد دلالة النفى négation ، أو النهى prohibtion ، أو التبعية subordination ؛ حيث إن الجملة الاسمية بمفردها لا تمتلك أن تعبر عن ذلك .. وبدخول (كان) على الجملة الاسمية تصير جملة فعلية بحيث إن المسند وضع فى حالة نصب كأى مفعول معتاد

انظر : Blachère : *Grammaire de l'arabe classique*, pp. 391, 395 .

ويذكر برجشتراسر أن إدخال (كان) على اختلاف صيغه فى الجملة الاسمية هو الاحتياج إلى تنويعها على الأوقات ، والتفريق بين الماضى والحاضر والمستقبل .. لأن الجملة الاسمية مبهمة من جهة الأوقات . انظر : التطور النحوى ١٣٥ .

و (إن وأخواتها) كالخبر فى الجملة الاسمية النواة (المبتدأ والخبر) ، وذلك فى قوله : ".. ومما يكون بمنزلة الابتداء قولك : كان عبدالله منطلقًا وليت زيدًا منطلق ؛ لأن هذا يحتاج إلى ما بعده كاحتياج المبتدأ إلى ما بعده"(٢٧) . ويقول أيضًا : "وأعلم أنه إذا وقع فى هذا الباب نكرة ومعرفة فالذى تشغل به كان المعرفة ؛ لأنه حد الكلام ؛ لأنهما شىء واحد ، وليس بمنزلة قولك : ضرب رجل زيدًا ؛ لأنهما شيئان مختلفان ، وهما فى كان بمنزلتهما فى الابتداء إذا قلت : عبد الله منطلق"(٢٨) .

ويؤكد سيبويه أن هذه الأفعال ليست كسائر الأفعال ولا تقوى قوتها فى إسنادها لضمائر النصب المتصلة ، فلا يجوز إسنادها لها ، يقول(٢٩) : " . فلا نقول : كأنه ، بل نقول : كان إياه ؛ لأن كانه قليلة ولم تستحكم هذه الحروف هاهنا ، لا تقول : كأننى وليسنى ولا كانك، فصارت إيا ههنا بمنزلتها فى ضربنى إياك" ويضيف قائلاً: "وتقول : أتونى ليس إياك ولا يكون إياه ؛ لأنك لا تقدر على الكاف ولا الهاء هاهنا ، فصارت (إيا) بدلاً من الكاف والهاء فى هذا الموضع .

ولم يفت سيبويه أن يشير إلى (كان التامة) التى تحمل معنى الوجود أو الخلق ، وذلك فى قوله : "وقد يكون لكان موضع آخر يقتصر على الفاعل فيه ، تقول : قد كان عبدالله أى خلق . وقد كان الأمر أى وقع الأمر ، وقد دام فلان أى ثبت .. كما يكون أصبح وأمسى مرة بمنزلة كان ومرة بمنزلة قولك : استيقظوا وناموا"(٣٠) .

---

(٢٧) انظر · الكتاب ٢٣/١ .

(٢٨) انظر : المرجع السابق ٤٧/١ .

(٢٩) انظر . الكتاب ٣٥٨/٢ .

(٣٠) انظر : المرجع السابق ٤٦/١ .

ويصنف إميل بنفنيست الجمل ثلاثة أصناف : الجملة الفعلية phrase verbale ، والجملة الاسمية الخالصة phrase nominale pure ، والجملة الاسمية المبدوءة بفعل الكينونة phrase nominale à verbe être ثم يردها إلى التقسيم الثنائى المعروف عند النحويين العرب : الجملة الاسمية والجملة الفعلية ، مقرراً أن الجملة المبدوءة بفعل الكينونة هى جملة فعلية فى شكلها، ولا تتناقض فى دلالتها مع الجملة الاسمية ، ويضيف أنه عند تحليل الجملة المبدوءة بفعل الكينونة يجب أن نحللها على أنها جملة اسمية ، مستبعدين الدلالات المعجمية لفعل الكينونة . انظر :

= Emile Benveniste : *Problèmes de la liguistique générale*, pp 156, 157, 159.

ومن ثم يرى **الباحث** أن جملة (كان وأخواتها) جملة اسمية موضوعة فى إطار زمنى ، وأن فعل الكينونة عنصر توسيعى لها ، بدليل أنه أحيانا يفقد وظيفته النحوية ، فلا يرفع مبتدأ ولا ينصب خبراً ، وذلك فى حالة مجيئه زائداً ، ولم يفت سيبويه أن يشير إلى هذا ، فذكر أنها تأتى زائدة ملغاة ، فلا عمل لها ، ونقل عن الخليل قوله : "إن من فضلهم كان زيداً ، على إلغاء كان"(٣١) .

وأما اعتبار مثل (مسيئًا) فى جملة (ضربى العبد مسيئًا) خبراً منصوبًا لا حالاً ، ونصب الخبر فى مثل (ما أنت بشراً) ونصب المبتدأ فى جملة (إن وأخواتها ولا النافية للجنس) بدون تأثير من الحرف ، فهو أمر يؤدى إلى الاضطراب والخلل ؛ لأنه يفقد القاعدة إحكامها ، فلا تكون هناك قاعدة ثابتة محددة لمجىء المبتدأ أو الخبر مرفوعًا أو منصوبًا ، واحتجاج د/ ضيف بأن المبتدأ أو الخبر يأتى مجروراً أحيانًا احتجاج مردود ؛ لأن المبتدأ أو الخبر يجر بتأثير من الحرف ، أى أن الحرف يعمل فيه الجر ، وبالتالى لابد أن ينصب بتأثير من الحرف ، وحينئذ نكون متفقين مع النحاة ، وينحصر الخلاف بين د/ ضيف والنحاة فى إطلاق المصطلح ، فبينما يطلق النحاة على المبتدأ - مثلاً - اسم إن منصوبًا ، يطلق عليه د/ ضيف مبتدأ منصوبًا ، أما لو كان د/ ضيف يرى أن المبتدأ أو الخبر منصوب بدون تأثير عامل عمل فيه النصب فمردود ؛ لأن ذلك يطيح بالقواعد التى أرساها النحاة ، وهذا يمنعنا من رفض نظرية العامل رفضاً مطلقًا . ورأى د/ ضيف فى أن (لا النافية للجنس) تدرس فى باب المبتدأ والخبر يتعارض مع رأيه فى أن الأسماء المحرومة من التنوين - ومنها اسم لا النافية للجنس

= ويذكر الفرنسى هنرى فليش أن هذه الأفعال أفعال إسنادية verbes prédicatifs كسائر الأفعال ، وجملتها فعلية ، ثم يعود فيذكر أن هذه الأفعال غير إسنادية ولكنها تحول الجملة الاسمية إلى جملة فعلية . انظر Fleisch : *L'arabe classique p.* 181 .

ويذكر جون ليونز أن فعل الكينونة (verbe être, verbe to be) فى اللغة الانجليزية والفرنسية يقوم بوظيفة الربط ، فهو رابط *copule* بين المسند والمسند إليه ، كما يقوم بوظيفة تحديد الزمن النحوى *temps grammatical* الذى تحدث فيه الجملة ، وتخلو بعض اللغات من هذا الرابط .

انظر : J. Lyons : *Sémantique, Linguistique p.* 105 .

(٣١) انظر . الكتاب ٢/١٥٣ .

- ينبغي أن يضم بعضها إلى بعض وتدرس تحت باب واحد ، ومثل هذا الأمر قد يحدث خللاً في المنهج .

وينتقل د/ ضيف إلى باب التعدى واللزوم مقرراً أنه مما يجب أن يسحب من النحو فكرة التعدى واللزوم ؛ لأنه يدل على العمل ، واقترح أن نختار مصطلحًا آخر مما ذكره بعض النحاة مثل (أفعال واقعة وغير واقعة) أو (أفعال مجاوزة وغير مجاوزة) أو (أفعال مؤثرة وغير مؤثرة) . **وأنا** أتساءل : إذا كان الهدف من صنع د/ضيف هذا هو تيسير النحو العربى ، فأين التيسير من استبدال مصطلح بمصطلح آخر ؟! ألم تشترك هذه المصطلحات جميعا فى دلالاتها وتأثيرها على ما بعدها ؟

ومن الأبواب التى لفتت انتباه د/ ضيف - **والباحث** على وفاق معه - باب التمييز ؛ إذ لاحظ أن النحاة يدرسونه فى أبواب متباعدة كـ (باب العدد وباب اسم التفضيل وباب التعجب وباب المدح والذم وباب كم وكذا وباب الفعل اللازم والصفة المشبهة) ، فهذه الأبواب ينبغى أن تدرس فى باب واحد يجمعها مع صور المكاييل والموازين بالإضافة إلى صورة الاختصاص فى مثل (نحن العربَ أكرمُ الناس) ؛ حتى يفهم الباب ولا يمزق هذا التمزيق فى كتب النحو . وعلى هذا النمط نستطيع أن نصنف النحو تصنيفًا جديداً قائمًا على الدقة فى التبويب من جهة ، ثم على جمع صور الباب فيه وصيغه وأحواله من جهة أخرى[٣٢] .

المبدأ الثانى : منع التأويل والتقدير فى الصيغ والعبارات :

هذا هو الأصل الثانى - كما يقول - الذى ينبغى أن نتكئ عليه فى تصنيف النحو تصنيفًا جديداً وهو يعد ضرورة من ضرورات فهم الأساليب العربية فهما دقيقًا . وتطبيق هذا الأصل أو المبدأ يريحنا من ثلاثة أشياء : أضمار المعمولات وحذف العوامل وبيان محل الجمل والمفردات المقصورة والمنقوصة والمبنية .

---

(٣٢) انظر . الرد على النحاة ص ٥٤ ، ٥٥ .

أما أضمار المعمولات فنقصد بها الفاعل المضمر الذى يقدره النحاة مستتراً جوازاً أو وجوباً ، وهو استتار وهمى لا دليل عليه ، ففى جملة (زيد قام) نجد أن من التكلف اعتبار (قام) بها فاعل مستتر يعود على (زيد) وزيد معنا فى الجملة ، فلا داعى لتقديره مع وجوده ، فالفعل يدل بمادته على الفاعل كما يدل على الحدث والزمن ، ويتضح هذا فى الصيغ (أعلم ونعلم وتعلم) ، فلماذا نقدر فاعلاً مستتراً وجوباً فى الصيغ الثلاث هو (أنا ، نحن ، أنت) ، بل ينبغى ألا نتحدث عنه مادام لا يمكن ظهوره ، وخير من ذلك أن نقول : إن (أعلم) فعل مضارع للمتكلم ، ونسكت ، وليس من الضرورى أن يكون لكل فعل فاعل ، فقد يوجد الفاعل مع فعله وقد يحذف ؛ لأن الفعل يدل عليه بنفسه ، ويتضح هذا أكثر فى فعل التعجب وأفعال الاستثناء (خلا ، عدا ، حاشا) وفى (نعم وبئس) وفى باب التنازع مثل (قام وقعد الناس) ، فالفاعل المضمر غير معروف ، ومن ثم ينبغى ألا نتحدث عنه ؛ حتى لا نحيل على أشياء لا يراها الناس فى الصيغة التى يقرءونها[٣٣] .

والباحث يختلف مع د/ ضيف فى رأيه بإلغاء الفاعل المضمر فى الفعل وفى رأيه بأن (زيدا) فى جملة (زيد قام) هو الفاعل ، ولا داعى لتقديره ثانية ؛ والباعث على الخلاف أن **الباحث** يرى أن بنية الجملة العربية – اسمية أو فعلية – قائمة على عنصرين أساسين – مع إفادتها معنى تاماً – وهذا العنصران هما المسند والمسند إليه ، والأول يمثله الفعل والخبر والثانى يمثله الفاعل والمبتدأ ، وهذا يعنى ضرورة وجود العنصرين لتكوين الجملة حتى ولو حذف أحدهما أو أضمر ، وما يجوز حذفه وتقديره هو المبتدأ أو الخبر ، أما الفعل والفاعل فلا يجوز أن يحدف أحدهما دون الآخر ، وإنما يحذفان معًا أو يبقيان معًا . وينبغى أن نفرق بين نوعين للفاعل : فعال نحوى وفاعل دلالى[٣٤] ، وإن لم يفرق النحاة بينهما ؛ فالفاعل فى مفهومهم هو ذلك الاسم

---

(٣٣) انظر : الرد على النحاة ص ٥٦ : ٥٨ .

(٣٤) فرق برجشتراسر بين الفاعل النحوى والفاعل الدلالى فى حديثه عن الفعل المبنى للمفعول ؛ إذ يقول : "أما الأول فهو فعل ما لا يسمى فاعله ، نحو (ضُرب زيد) فهو معدوم الفاعل وليس بمعدوم المسند إليه ، فتراه أسند إلى (زيد) وهو مفعوله" انظر . التطور النحوى ص ١٤٠ .

المرفوع المسند إليه الفعل ، وقد يحل محله ضمير ، والضمير نوعان مستتر وظاهر ، والمستتر نوعان : لازم ، وذلك إذا كان الفعل مسنداً للمتكلم (أفعلُ ونفعلُ) والمخاطب (تفعلُ وافعلْ) ، وغير لازم وذلك إذا كان الفعل مسنداً للغائب المذكر والمؤنث (يفعل وتفعلُ)(٣٥) .

ولم يختلف المحدثون كثيراً(٣٦) عن القدماء في مفهومهم للفاعل ، غير أن **الباحث** لا يذهب مذهبهم ؛ إنما يرى(٣٧) أن الفاعل النحوى هو الضمير الملازم للفعل **pronom sous-entendu du verbe** ويتمثل في سوابق المضارع **préfixes** (حروف أنيت) ، ولواحق الماضى **suffixes** في حالة التكلم والخطاب (تاء الفاعل ونا الفاعلين) ، أما في حالة إسناد الفعل للضمير الشخصى الثالث (ضمير الغائب) ، فالفاعل هو العلامة الصفرية **zéro (0)** ؛ لأن غياب العلامة علامة(٣٨) ، وعلى هذا فالفعل العربى يمثل جملة تامة(٣٩) **énoncé complet** تسمى بالجملة النواة **phrase nucléairo** أو الجملة الدنيا **phrase minimale** عنصراها الفعل **verbe** وفاعله النحوى **sujet sintaxique** ،

---

(٣٥) انظر ابن السراج الأصول ٢/١١٥ ، ١١٦ الزمخشرى · المفصل ١٣٢ و ٢٤٤ وابن الحاجب . الأمالى النحوية ٤/٧٧ .

(٣٦) انظر على سبيل المثال :

Blachère : *Grammaire de l'arabe classique* p. 391.
Fleisch : *L'arabe classique pp.* 169, 170.
Traité de philologie arabe pp. 2/120,121.

(٣٧) انظر في ذلك .

A. Roman . *Grammaire de l'arabe p* 41, 42, 86 : 89, 100.
H. Hamzé : La position du sujet du verbe dans la ponsée des grammairiens arabes université Lyon 2.

(٣٨) "غياب العلامة علامة" هذا هو تعبير ابن السراج . انظر · الأصول ٢/١١٥

(٣٩) لا يوجد فعل بدون فاعل ، وقد أدرك النحويون هذا ، يقول السيرافى . "إن قال قائل · لِمَ لمْ يجعل للواحد علامة وجعل للاثنين والجماعة ؟ قيل . لأنه معلوم أن الفعل لابد له من فاعل لا يخلو منه ، وقد يخلو من الاثنين والجماعة ، فلذلك جعل لهما علامة لئلا يقع لبس ، واكتفى بما تقدم فى العقل من حاجة الفعل إلى فاعل عن علاقة ظاهرة ، وإذا قيل : زيد قام هو ، فالضمير الذى قام فى النية و (هو) توكيد" .

انظر · الكتاب هامش ٢/٣٨ . ت · عبد السلام هارون .

فلا فرق بين الجمل (كتبَ كتبتُ ، كتبتَ) ؛ فثلاثتها تحتوى على عنصرى الجملة النواة الفعل والفاعل :

كتب + 0 (هو) = il a écrit

كتبتُ .... = j'ai écrit

كتبتَ .... = tu as écrit

ووفقًا لهذا التحليل ، فإن وظيفة الاسم المرفوع بعد الفعل أنه عنصر توسيعى يصف الفاعل المضمر أو يؤكده ؛ ولذا يسمى **élément d'expantion d'identité** أى العنصر التوسيعى المؤكد للفاعل ، وهو أيضًا الفاعل الدلالى .

والاسم الظاهر (العنصر التوسيعى) مثله مثل الضمير المنفصل فى جملة (فعل هو) فهذا الضمير لا يمكن أن يكون فاعلاً وحينما نحلل الجملة ، يكون التحليل على هذا الأساس :

"فعل + 0 + هو .... A fait + il + lui"

ولو لم يكن الفاعل كامنًا فى الفعل لجاز أن نسند هذا الفعل للضمير المنفصل المتكلم والمخاطب فنقول :

"فعل أنا .... Ai fait je"

"فعل أنت .... As fait tu"

فهل يجوز هذا التركيب فى اللغة ؟ هل يجوز أن يأتى الضمير "أنا أو أنت" فاعلاً لـ (فعل) ؟ لاشك أن هذا التركيب غير مستقيم مع نظام الجملة العربية ؛ ومن ثم فالضمير (هو) لا يمكن أن يكون فاعلاً لـ (فعل) ، وإنما هو يقوم بذات الوظيفة التى يقوم بها الضميران (أنا وأنت) إذا تليا الفعل ، ومن ناحية أخرى فإن الضمير (هو) يحل محل الاسم الظاهر ، إذ إننا نقول : كتب هو ، وكتب زيد ، وعلى ذلك فالاسم الظاهر يقوم بنفس الوظيفة التى يقول بها الضمير الدال عليه ومن ثم فهذا دليل واضح على أن الاسم الظاهر بعد الفعل ليس فاعلاً نحويًا **sujet sintaxique** .

وثمة دليل ثان يتمثل فى العطف corrodination ، ففى حالة عطف اسم ظاهر على الاسم المرفوع بعد الفعل نجد أن الاسم الواقع بعد الفعل لا يحل محل ضمائر الوصل الفاعلية pronoms conjoints du sujet الموجودة فى (كتبت katabtu وكتبت katabta) ولكنه يحل محل ضمائر الفصل pronoms disjoints الملحقة بالجملة الفعلية ، فنقول :

كتبت أنا وبكر J'ai écrit, moi et Bakr ولا نقول : كتبت وبكر

كتبت أنت وبكر Tu as écrit, toi et Bakr ولا نقول : كتبت وبكر

كتب هو وبكر Il a écrit, lui et Bakr ولا نقول : كتب وبكر

كتب زيد وبكر Il aécrit, Zayd et Bakr ولا نقول : كتب وبكر

فالتركيب الثانى من كل مثال غير سائغ استعماله ، إن لم يكن مرفوضًا من قبَل النظام اللغوى ؛ ومن ثم استوقف سيبويه كثيرًا ، فعقد له بابًا أسماه "باب ما يحسن أن يَشرك المظهر المضمر فيما عمل وما يقبح أن يَشرك المظهر المضمر فيما عمل فيه" قائلاً : "وأما ما يقبح أن يَشركه المظهر فهو المضمر فى الفعل المرفوع ، وذلك قولك : فعلت وعبداللّه ، وأفعل وعبداللّه .. فإن نعتّه أن يَشركه المظهر ، وذلك قولك : ذهبتَ أنت وزيد ، قال تعالى : (فاذهب أنت وربك) و (واسكن أنت وزوجك الجنة) ، وذلك أنك لما وصفته حسن الكلام حيث طوّله وأكده .."[٤٠] ، ويقول أيضًا : ".. وإن حملت الثانى على الاسم المرفوع المضمر فهو قبيح ؛ لأنك لو قلت : اذهب وزيد ، كان قبيحًا حتى تقول : اذهب أنت وزيد"[٤١] . ويقول فى موضع آخر : ".. لو قلت : اقعد وأخوك كان قبيحًا حتى تقول · أنت ؛ لأنه قبيح أن تعطف على المرفوع المضمر"[٤٢] .

كذلك يمكننا أن نضيف دليلاً ثالثًا ، يتمثل فى التوكيد المعنوى ، فحينما نؤكد (زيدا) فى جملة "كتب زيد" نقول : كتب زيد نفسه ، فإذا كان زيد هو الفاعل ، فينبغى أن تستقيم القاعدة حينما يحل ضمير محل زيد ، ولا خلاف بين النحويين على أن

(٤٠) انظر . الكتاب ٢/٣٧٧ ، ٣٧٨ .

(٤١) انظر . المرجع السابق ١/٢٧٨ .

(٤٢) انظر · المرجع نفسه ١/٢٩٨

(كتبتُ وكتبتَ وكتبَ زيد) جمل فعلية تتكون من فعل وفاعل ، فهل سائغٌ قولنا : كتبتُ نفسى وكتبتَ نفسك ، كما نقول "كتب زيدٌ نفسه" ؟.

أزعم أن التركيبن الأول والثانى لا يستقيمان ونظام الجملة العربية ؛ ولذا لجأ النحويون إلى إثبات ضمير منفصل يحمل دلالة الضمير المتصل ، إذ يقول سيبويه · "واعلم أنه قبيح أن تصف المضمر فى الفعل بنفسك وما أشبهه ؛ وذلك أنه قبيح أن تقول : فعلتَ نفسُك ، إلا أن تقول : فعلتَ أنت نفسُكَ .."[٤٣] ، ويقول فى موضع آخر : ".. لو قلت : اذهب نفسُك ، كان قبيحًا حتى تقول · اذهب أنت نفسُك"[٤٤] .

ومن ثم فهذا يؤكد لنا أن "زيدًا" ليس فاعلاً نحويًا وإنما هو عنصر توسيعى وصف أو توكيد **élément d'expntion d'identité** للفاعل النحوى **sujet sintaxique** ، مثله مثل الضمير المنفصل المؤكد للفاعل .

من ناحية أخرى إذا وضعنا فى الاعتبار رؤية بعض النحويين فى أنه يجوز تقديم الفاعل على فعله ، فيشغل "زيد" وظيفة الفاعل فى هاتين الجملتين "قام زيد ، زيد قام" ، وهذا يعنى أنه يقوم بوظيفة الضمير المتصل بالفعل فى حالتى التكلم والخطاب كما فى "قمتُ وقمتَ" ، فهل يجوز أن نقدّم ذلك الضمير على فعله كما جاز مع زيد ، فنقول :

كتبت زيد .... زيد كتب

كتبتُ .... أنا كتبت

كتبتَ .... أنت كتب

لاشك فى أن هذا التركيب خارج على نظام الجملة العربية ، ولمزيد من التأكيد على هذا الرأى نستمع لحديث سيبويه على هذا الصدد ؛ حيث يقول : ".. لا يقع (أنا) فى موضع التاء التى فى (فعلت) ، لا يجوز أن تقول : (فعل أنا) ؛ لأنهم استغنوا بالتاء عن أنا ، ولا يقع (نحن) فى موضع (نا) التى فى (فعلنا) ، لا تقول : (فعل نحن) ..

---

(٤٣) انظر . المرجع نفسه ٣٧٩/٢

(٤٤) انظر . المرجع نفسه ٢٧٧/١ .

واعلم أنه لا يقع (أنت) فى موضع التاء التى فى (فعلت) ، ولا (أنتما) فى موضع (تُما) التى فى (فعلتما) ألا ترى أنك لا تقول : (فعل أنتما) ، ولا يقع (أنتم) فى موضع (تُم) التى فى (فعلتم) ، ولو قلت : (فعل أنتم) لم يجز .. ولا يقع (هو) فى موضع المضمر الذى فى (فعل) ، ولو قلت : (فعل هو) لم يجز إلا أن يكون صفة ولا يجوز أن يكون (هما) فى موضع الألف التى فى (ضربا) والألف التى فى (يضربان) ، ولو قلت : (ضرب هما أو يضرب هما) لم يجز ، ولا يقع (هم) فى موضع الواو التى فى ضربوا ولا الواو التى مع النون فى (يضربون) ، ولو قلت : (ضرب هم أو يضرب هم) لم يجز ، وكذلك (هى) لا تقع موضع الإضمار الذى فى (فعلت) ؛ لأن ذلك الإضمار بمنزلة الإضمار الذى له علامة ، ولا يقع (هن) فى موضع النون التى فى (فعلن ويفعلن) ، ولو قلت : (فعل هن) لم يجز إلا أن يكون صفة ، كما لم يجز ذلك فى المذكر ، فالمؤنث يجرى مجرى المذكر"[٤٥] .

وهذا دليل آخر نؤكد به أن الاسم الظاهر المرفوع بعد الفعل المسند لضمير الغائب ليس فاعلاً نحوياً وإنما هو عنصر توسيعى نعت أو توكيد للفاعل الضميرى sujet intérieur وإن كان هو الفاعل الدلالى sujet sémantique .

ولعل حديثًا للدكتور/ شوقى ضيف فى موضع آخر يدل بوضح على أنه تراجع عن رأيه هذا ومال إلى رأى النحاة من ناحية وبعض المحدثين من ناحية أخرى ، إذ يقول معلقًا على رأى ابن مضاء واللجنة العلمية والمجمع فى ذلك : "وأرى أنه كان حرياً بابن مضاء واللجنة والمجمع ألا يقرروا هذه القاعدة التى تلغى الضمائر المستترة وتحيل ضمائر الرفع المتصلة البارزة حروف إشارة ، كما تحيل ألف الاثنين وواو الجماعة ونون النسوة علامات عدد ؛ لأن ذلك من شأنه أن يخلخل قاعدة الفاعل ، إذ تارة يكون للفعل فاعل فى مثل (زيد سافر إخوته) وتارة لا يكون له فاعل فى مثل (زيد سافر) ، والأصل فى قواعد العلوم أن تكون مطردة ، على أن من يتأمل ضمائر الرفع المتصلة البارزة مع الماضى يرى أنها مقتطعة من ضمائر منفصلة مقابلة لها ..

(٤٥) انظر الكتاب ٢/٣٥١ ، ٣٥٠ .

ونستطيع أن نلاحظ أن مضارع المتكلم يبدأ بالهمزة الموجودة فى الضمير (أنا) بينما مضارع المتكلمين مثل (نقوم) يبدأ بالنون الموجودة فى (نحن) ، وكذلك مضارع المخاطب يبدأ بالتاء الموجودة فى (أنت) ، ولعل فى ذلك ما يدل على أن النحاة كانوا فى منتهى الدقة العلمية حين عدوا التاء فى (قمت) ضمير رفع متصل بارز فاعل ، وكذلك حين ذهبوا إلى أن مضارع المتكلم فى مثل (أقوم) يحمل ضمير رفع مستتر وجوبًا على أساس أنها جميعًا ضمائر لا حروف ، ولذا كنت أرى الإبقاء فى النحو التعليمى على فكرة الضمائر المستترة جوازًا ووجوبًا ... وأن تعرب جميعًا فواعل(٤٦) .

وعود لحديث د/ ضيف عن حذف العوامل ، فيذكر أنها تتضح فى قولنا : (زيد فى الدار) ، فقد زعم النحاة أن الجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره (استقر أو مستقر) هو الخبر ، وهذا زعم - كما يقول ابن مضاء - لا داعى له ، وينبغى أن نقرر أن الجار والمجرور هو الخبر . وكذلك الأمر نجده فى نواصب المضارع فى نحو (ما تأتينا فتحدثنا) إذ يرى النحاة أن الفعل الثانى منصوب بـ (أن) مضمرة وجوبًا ، وهو تقدير لا دليل عليه .

وأكثر من هذا أن إلغاء العوامل المحذوفة يريحنا من باب مثل باب الاشتغال ، ففى جملة (زيدا ضربته) نعرب زيدًا مفعولاً به منصوبًا ولا نقدر العامل المحذوف ، ويكفى أن يعود عليه ضمير منصوب . وكذلك الأمر فى أبواب الإغراء والتحذير والنداء والمصادر المنصوبة ، فلا داعى لأن نقدر عاملاً محذوفًا عمل فيها النصب ، وهذا العامل لا يظهر ، وهذا ما يلفتنا إلى ظاهرة مهمة فى العربية ، وهى أنها لغة موجزة ، فلا داعى للتقدير مادام المقدر لا يظهر فى الجملة ولا يحتاجه المتلقى ولا يعنيه المتكلم . ويقترح د/ ضيف أن كل الصيغ التى قدر لها النحاة عوامل محذوفة تتم بها الجملة يضم بعضها إلى بعض ، ويفرد لها باب خاص نسميه (باب الصيغ الشاذة) أو نسميه (باب شبه الجملة) ، فمثلاً فى إعراب (لولا دعاؤكم ..) لا نعرب (دعاؤكم) مبتدأ مرفوعًا والخبر محذوف تقديره موجود ، بل يكفى أن نقول (دعاؤكم) شبه جملة مرفوعة .

---

(٤٦) انظر : تيسير النحو التعليمى ص ٤٢ ، ٤٣ .

ويرى د/ ضيف أن هذا الأمر يتيح لنا أن نجمع كل الصيغ التى على هذه الشاكلة ونسميها (شبه الجملة) وتقسم ثلاثة أقسام : شبه جملة مرفوعة وشبه جملة منصوبة وشبه جملة مجرورة . ومن أمثلة شبه الجملة المرفوعة فى الصيغ : بعد لولا وفى جواب الاستفهام مثل (من قام ؟ فيقال : زيد) وفى جواب الشرط مثل (إن تصنع ذلك فخير) وفى القسم (لعمرك لأفعلن) وفى المصادر المرفوعة مثل (فصبر جميل) وفى المتعاطفين المرفوعين المكتفين بنفسهما مثل (كل رجل وعمله) وفى صيغة النداء المرفوعة (يا زيد) . وشبه الجملة المنصوبة تنقاس فى مثل الصيغ : الاشتغال والتحذير والإغراء والنداء المنصوب وبعد لات وفى المتعاطفين المنصوبين المكتفين بنفسهما (أهلك والليل) وفى المصادر المنصوبة (حمدا وشكرا وسبحانك) وغير هذا . وشبه الجملة المجرورة تنقاس فى مثل : القسم (والله) والضمير بعد لولا (لولاك) وبعد هل (هل من رجل) وهكذا . ولا يضير اللغة أن نهمل التأويل والتقدير وأن نضع كل هذه الصيغ ومثلها تحت باب (شبه الجملة) أو باب (الصيغ الشاذة) وندرسها .

والباحث يرى أن د/ ضيف محق فى عدم تقدير عامل محذوف يتعلق به الجار والمجرور فى قولنا (زيد فى الدار) على اعتبار أن الجار والمجرور قد شغل وظيفة الخبر دون تقدير لا حاجة لإظهاره ، غير أن الرأى ليس جديداً ، فقد ذهب إليه بعض النحاة وفى مقدمتهم سيبويه ، إذ يقول : "وأعلم أن المتبدأ لابد له من أن يكون المبنى عليه شيئًا هو أو يكون فى مكان أو زمان ، وهذه الثلاثة يذكر كل واحد منها بعد ما يبتدأ .."(٤٧) فالمكان والزمان يمثلان الظرف المستقر . ومن الأمثلة التى ساقها سيبويه للظرف قوله : ".. وأما قولهم : دارى خلف دارك فرسخًا ، فانتصب لأن خلق خبر للدار ، وهو كلام قد عمل بعضه فى بعض واستغنى"(٤٨) .

كذلك يوافق الباحث على ما ذهب إليه فيما يخص باب الاشتغال ، فلا داعى أن نقدر عاملاً نصب (زيدا) فى جملة (أزيدا ضربته) يفسره الفعل الموجود ؛ لأنه

---

(٤٧) انظر الكتاب ٢/١٢٧ .

(٤٨) انظر : المرجع نفسه ١/٤١٧ .

لم يظهره العرب في كلامهم . أما المصطلح الجديد (شبه الجملة) والذى أطلقه د/ ضيف على الصيغ التى لا تكوّن جملاً إلا بتقدير عنصر متتم للعنصر الذى تمثله الصيغة الموجودة، وجمع تحته صيغًا كثيرة مرفوعة ومنصوبة ومجرورة فيحتاج إلى إعادة نظر ؛ لأنه يحدث خلطًا ولبسًا مع الجمل الاسمية التى يحذف فيها المبتدأ أو الخبر وجوبًا أو جوازًا ، أما الصيغ الفعلية التى حذف منها الفاعل - من وجهة نظره - فلا نوافقه عليه ؛ لأن الفاعل لا يحذف ، فهو ضميرَ ملازم للفعل ظاهر أو مستتر . ومصطلح (شبه الجملة) بهذه الدلالة الجديدة لم يكن د/ ضيف بدعا فيه ؛ إذ أشار إليه برجشتراسر فى قوله : "ومن الكلام ما ليس بجملة بل هو كلمة مفردة أو تركيبات وصفية أو إضافية أو عطفية غير إسنادية ، مثل لذلك النداء ؛ فإن (يا حسن) ليس بجملة ولا قسم من الجملة ، وهو مع ذلك كلام ويشبه الجملة فى أنه مستقل بنفسه لا يحتاج إلى غيره مظهراً كان أو مقدراً ، بخلاف مثل قولنا (أمسِ) جوابًا عن السؤال (متى جئت) ، فإن تقديره (جئت أمس) ، فـ (أمس) وأمثالها جمل ناقصة ، والنداء وأمثاله نسميها (أشباه الجملة) ، وشبه الجملة اسم فى أكثر الحالات ، ولا يمكن أن يكون فعلاً ؛ لأن الفعل يساوى الجملة الكاملة[٤٩] .

ويبدو أن كلام برجشتراسر أكثر دقة من كلام شوقى ضيف ؛ لأنه فرق بين شبه الجملة والجملة الناقصة ، فشبه الجملة يطلق على تركيب يؤدى معنى وليس بجملة كاملة ولا يحتاج إلى محذوف مقدر ، والجملة الناقصة هى التى يحذف عنصراها الأساسيان أو أحدهما ، كما وضّح أن الفعل لا يدخل فى أشباه الجملة ، إنما هو جملة كاملة ؛ لأن به الفاعل وإن لم يكن ظاهراً .

ويحتمل أن يكون د/ ضيف قد أخذ المصطلح من برجشتراسر ، ويزيد هذا الاحتمال إذا علمنا أن المثال الذى استشهد به د/ ضيف وهو (لولا دعاؤكم) قد ورد عند برجشتراسر وقال عنه : "أى لولا أن وجد دعاؤكم"[٥٠] . ولمَ لا وبرجشتراسر قد

---

(٤٩) انظر : *التطور النحوى* ١٢٧ .

(٥٠) انظر : التطور النحوى ١٢٧ .

ألقى محاضراته بجامعة القاهرة فى عام ١٩٢٩ ، وشوقى ضيف حقق كتاب الرد على النحاة فى ١٩٤٧

والباحث يطرح رأياً آخر فى النداء ، وهو أنه يمثل جملة مستقلة تامة تحتوى على عنصريها الأساسين المسند والمسند إليه ، على أن حرف النداء يمثل المسند ، والمنادى هو المسند إليه . فما الذى يمنع من ذلك ؟ وعلى كل فـإن البـاحث يرى أن ما قدمه د/ ضيف فيما يختص بحذف العوامل - باستثناء متعلق الظروف والجار والمجرور - لا يقدم تيسيراً للنحو العربى ؛ لأنه يـؤدى إلى هـدم شطـر كبير من الجمـل العربية الكاملة بسبب استبعاد الجمـل الناقصة من الجمل الكاملة ودخـولها فى أشباه الجمل .

ثم ينتقل د/ ضيف بعد ذلك إلى الجانب الثالث الذى نكسبه من وراء منع التأويل والتقدير فى الصيغ والعبارات ، وهو جانب التأويل فى محل الجمل والمفردات المقصورة والمنقوصة والمبنية ، فمثلاً فى جملة (زيد يسافر أبوه) يقول النحاة بأن جملة (يسافر أبوه) فى محل رفع خبر لـ (زيد) ، وفى جمـلة (جاء الذى رأيناه أمس) يقولون : إن جملة (رأينا أمس) لا محل لها من الإعراب ، فهم يقسمون الجمل إلى جمل لها محل وجمل ليس لها محل من الإعراب ، ويعددون النوعين على النحو المعروف فى كتب النحو ، وأولى من ذلك أن نقول : إن هذه الجملة خبر أو نعت أو حال . ويدخل فى منع التأيل الجمع التى أولوها النحاة بمصدر ، وهى الجمل التى بعد (أنْ ، أنّ ، لو ، ما) مثل (يعجبنى أنك سافرت) فالتقدير عند النحاة (يعجبنى سفرك) ، وهذه التأويلات كلها لا داعى لها ، بل يجب أن ننفيها من النحو ، ويكفى أن نقرر فى كل باب أنه يأتى مفرداً ويأتى جملة[٥١] ، والباحث يرى أن د/ضيف محق فى ذلك ويوافقه الرأى ، ويرى أن النحاة اعتنوا بالجانب الشكلى الخاص بالإعراب أكثر من اعتنائهم بالجانب الوظيفى للجملة داخل جملة أخرى ، واعتنوا بالوظيفة النحوية للفظة المفردة أكثر من اعتنائهم بوظيفة الجملة ؛ ومن أجل هذا رفضوا أن يأتى الفاعل جملة .

(٥١) انظر : الرد على النحاة ص ٦٣ ، ٦٤ .

كذلك ينبغي أن نمنع التأويل فى المفردات المقصورة والمنقوصة والمبنية حين تقع مبتدآت أو أخباراً أو فاعلات أو مفعولات أو غير ذلك ، ويكفى أن نبين الوظيفة النحوية للكلمة فى الجملة ولا نستمر ، فنقول فى مثل (هذا محمد) : هذا مبتدأ مبنى ، وهذا يقودنا إلى أن نستغنى عن إعراب أى كلمة لا توجد حاجة إلى إعرابها ، ويتضح هذا فى أدوات الشرط الاسمية ، فإعرابها لا يفيد شيئًا ، فماذا يفيد إعراب (من) فى جملة (من يقم أقم معه) بأنها مبتدأ : ؟ ومما ينبغى أن لا نعربه ؛ لأن إعرابه لا يفيد (كم) الاستفهامية والخبرية و (أن) المخففة من الثقيلة التى يقدر النحاة اسمها ضمير شأن محذوف .

ويفصح د/ شوقى عن هدفه من ذلك بأن الإعراب ليس غاية فى ذاته ، وإنما هو من أجل تصحيح لساننا ونطقنا ، ومادام إعراب أداة لا يفيدنا شيئًا فى لساننا ولا فى نطقنا فينبغى أن لا نقف عنده ولا نفكر فيه ، وينبغى أن يُنفى من النحو(٥٢) .

والباحث يتفق مع د/ ضيف فى منع التأويل فى المفردات المقصورة والمنقوصة والمبنية ، إذ يكفى أن نبين وظيفة الكلمة داخل الجملة ، لكن نتساءل : لماذا لم يطبق د/ ضيف مبدأ التجانس على الأسماء المقصورة والمنقوصة والمبنية ، فيجعلها فى باب واحد مبنية أو معربة ؛ إذ تشترك جميعًا فى عدم ظهور الحركة ، كما دعا إلى ذلك فى الأسماء التى تحرم التنوين ؟ فتطبيق أساس ما أو مبدأ ما فى موضع دون موضع يخلّ بالمنهج العام . أما الدعوة إلى الاستغناء عن إعراب أسماء الشرط وغيرها مما ذكره د/ ضيف بحجة أن ذلك لا يفيد شيئًا فى تقويم اللسان وتصحيح النطق فذلك أمر يحتاج إلى نظر ؛ لأن هناك فرقًا بين بيان وظيفة الكملة فى الجملة وعلامة الإعراب التى تستحقها ، فلو كان د/ ضيف يقصد الاستغناء عن وظيفة الكلمة النحوية لوجب أن يسحب ذلك على كل الأسماء المقصورة والمنقوصة والمبنية ؛ فكلها لا تظهر عليها علامات إعراب تساعد على النطق السليم ، غير أنه لم يفعل ذلك ، ولنسأل : لماذا نقول فى (هذا محمد) : هذا مبتدأ مبنى ، ولا نقول ذلك فى (من) من قولنا : (من يقم أقم معه) ؟

---

(٥٢) المرجع السابق ص ٦٤ - ٦٦ .

ولا فرق بينهما فى تقويم اللسان وتصحيح النطق . ومن ناحية أخرى فإن الاستغناء عن إعراب أسماء الشرط ينبغى أن يسحب على أسماء الاستفهام تعميمًا للقاعدة ، لأن كثيرًا منها مشترك . أما لو كان قصده الاستغناء عن قولنا فى (من يقم أقم معه) : من اسم شرط مبنى على السكون فى محل رفع مبتدأ ، ويكتفى ببيان أنها اسم شرط مبنى مبتدأ ، لاتفقنا معه ، وحينئذ تدخل أسماء الشرط فى قاعدة الأسماء المبنية والمقصورة والمنقوصة .

تعليق :

بعد هذا العرض الموجز لمدخل د/ شوقى ضيف الذى صدّر به كتاب الرد على النحاة لابن مضاء يمكن أن نسجل الآتى :

- هذا المدخل يعد تحليلاً وافيًا لآراء ابن مضاء مع التأييد الكامل من د/ ضيف والاستجابة لآرائه الجديدة التى تتمثل فى إلغاء بعض الأسس التى قام عليها البناء النحوى بصورته المرفوضة من قبَل ابن مضاء ، وهذه الأسس هى :

١ - إلغاء نظرية العامل .

٢ - إلغاء العلل الثوانى والثوالث .

٣ - إلغاء القياس .

٤ - إلغاء التمارين غير العملية .

وإيمانًا بفكر ابن مضاء حاول د/ ضيف أن يضع تصورًا لتصنيف النحو تصنيفًا جديدًا ييسره ويذلل صعوباته ، وينقيه من الشوائب التى تعوق دون فهمه ، وأقام تصوره فى رسم تصنيفه الجديد على ثلاثة أسس هى :

١ - تنسيق أبواب النحو تنسيقًا يؤدى إلى الاستغناء عن بعض أبوابه بردها إلى أبواب أخرى ؛ اعتمادًا على مبدأ التجانس بين أبواب النحو .

٢ - إلغاء الإعراب التقديرى فى الجمل والمفردات المقصورة والمنقوصة والمبنية .

٣ - إهمال الإعراب ما لم يفد شيئًا فى تصحيح الكلام وسلامة النطق .

وقد خلص د/ ضيف إلى هذه الأسس من خلال مبدأين رئيسين دعا إليهما ، نتيجة هضمه واستيعابه لفكر ابن مضاء ، وهما :

١ - الانصراف عن نظرية العامل .

٢ - منع التأويل والتقدير فى الصيغ والعبارات .

وحاول د/ ضيف أن يطبق أسس منهجه الجديد على بعض أبواب النحو فى هذا المدخل ، وقد وُفّق فى كثير منها ، وبعضها لم يوفق فيه ؛ فلم يطبقه - من وجهة نظر الباحث - وقد بيّنا ذلك فى موضعه .

- هذا المدخل يعد ثورة من د/ ضيف على النحو العربى بصورته المبثوثة فى مصادر النحو القديمة منذ سيبويه ، كما كان كتاب ابن مضاء أكبر ثورة على النحو العربى ونحاة المشرق ، وهذا يعود إلى أن د/ ضيف نهَج نهْج ابن مضاء واهتدى بآرائه فى رفضه للنحو العربى بصورته عند سيبويه ومن تلاه من النحاة .

- ينبغى ألا ننسى أن د/ ضيف قد حقق كتاب ابن مضاء (الرد على النحاة) فى سنة ١٩٤٧ ، وهذا يعنى أن ما انتهى إليه من جديد يمثل فكره فى تلك الفترة ، وهو يعد فكراً ناضجًا نتيجة فهم جيد لفكر ابن مضاء وتمثُّل لآرائه تمثُّلاً أجود . وهذا يقودنا لطرح هذا السؤال : هل توقف فكر د/ ضيف عند هذا الحد طوال السنوات التالية ؟ أو تطور فى نفس الاتجاه ؟ أو أخذ اتجاهًا مغايراً نحو إعادة تصنيف النحو تصنيفًا جديداً ؟ هذا ما نحاول أن نجيب فى السطور القادمة .

منهج شوقى ضيف كما يصوره مدخل (تجديد النحو) :

كان نشر كتاب (الرد على النحاة) باعثًا للدكتور/ شوقى ضيف على التفكير فى تجديد النحو بعرضه عرضًا حديثًا على أسس قويمة تصفّيه وتنقّيه وتجعله دانى القطوف للناشئة . وقد اعتمد د/ ضيف فى إعادة بناء النحو بناء جديداً على ستة أسس ؛ ثلاثة منها انتهى إليها فكره عند تحقيق كتاب (الرد على النحاة) ، والثلاثة الأخرى اهتدى إليها نتيجة فكر متجدد وعمل دءوب ورغبة ملحّة فى تجديد النحو

العربى طيلة السنوات التالية لتحقيق كتاب الرد على النحاة ، فقد قدّم لمجمع اللغة العربية مشروعًا فى ١٩٧٧ لتيسير النحو معتمداً فيه على الأسس الثلاثة السابقة مع أساس رابع اهتدى إليه آنذاك ، وفى ١٩٨١ اهتدى إلى أساسين آخرين نتيجة سمو فكره وحرصه الشديد على تجديد النحو وتيسيره ، فصار يمتلك ستة أسس يستطيع بها أن يعيد تصنيف النحو تصنيفًا جديداً ييسره ويذلل صعوباته للدارسين ، فيفهمونه وبالتالى يفهمون أساليب العربية المجسدة فى القرآن الكريم والحديث الشريف والتراث الأدبى . والأسس الستة هى :

١ - إعادة تنسيق أبواب النحو بالاستغناء عن طائفة منها بردها إلى أبواب أخرى .

٢ - إلغاء الإعرابين التقديرى والمحلى فى الجمل والمفردات المقصورة والمنقوصة والمبنية .

٣ - الإعراب لصحة النطق . (إهمال الإعراب ما لم يُفِد فى سلامة النطق) .

٤ - وضع تعريفات وضوابط دقيقة لبعض أبواب النحو .

٥ - حذف زوائد كثيرة من أبواب النحو تُعرض فيه دون حاجة إليها .

٦ - زيادة إضافات لبعض الأبواب ؛ لتمثّل الصياغة العربية وأوضاعها تمثّلاً دقيقًا .

واستطاع د/ ضيف بفضل هذه الأسس أن يعيد تبويب النحو وتصنيفه تصنيفًا جديداً ، وقدّمه للدارسين وقراء العربية فى كتاب أصدره سنة ١٩٨٢ بعنوان **(تجديد النحو)** مكوّنا من مدخل وستة أقسام: قسمين للصرف وأربعة للنحو .

ويعد هذا المدخل استكمالاً لمنهجه السابق فى التصنيف الجديد للنحو ، والذى بدأه بمدخل مماثل صدرّ به كتاب (الرد على النحاة) وهذا المدخل فصّل فيه د/ ضيف الحديث عن الأسس الستة التى استند إليها فى تصنيفه الجديد للنحو ؛ ومن ثم نقف عند هذا المدخل - كما وقفنا عند سابقه - لنبرز أهم ما فيه من فكر جديد لصاحبه نحو إعادة تصنيف النحو تصنيفًا جديداً ، مع نقاشه - ما احتجنا إلى النقاش - فى بعض آرائه وتسجيل وجهة نظر الباحث وفاقًا أو خلافًا معه ، علماً بأن الخلاف لا ينقص من فكر الآخر ورؤيته ، كما أنه لا يفسد للود قضية .

أسس تجديد النحو فى الكتاب

الأساس الأول : إعادة تنسيق أبواب النحو[٥٣] :

هذا التنسيق الجديد لأبواب النحو جعل الكتاب فى ستة أقسام ، شملت العديد من المباحث ، وقد بدأها صاحبها بمبحث فى نطق الكلمة وهو مقتبس من علم التجويد، ثم أعقبه بمباحث صرفية حول أبنية الفعل وأقسامه وتصاريفه وأنواع الحروف وأقسام الاسم المتنوعة تنوعًا واسعًا ، ولم يعنَ بفكرة الموازين ولا بباب الإعلال ؛ لأن ذلك يدخل على المباحث الصرفية تعقيداً وصوراً للكلمات مفترضة لم تجر على الألسنة ، ثم انتقل بعد ذلك إلى المباحث النحوية ، فتحدث عن المرفوعات بادئًا بالمبتدأ والخبر ركنى الجملة الاسمية ثم إن وأخواتها ولا النافية للجنس والفاعل ونائبه ، ثم انتقل إلى المنصوبات فتحدث عن المفعولات والاستثناء والحال والتمييز والنداء على التوالى ، ثم صيغ الفعل ثم العدد ثم الممنوع من الصرف ثم عمل المصادر والمشتقات ثم حروف الزيادة ، ثم انتقل بعد ذلك إلى الإضافات كالذكر والحذف والتقديم والتأخير وأنواع الجمل .

وفى ضوء هذا التنسيق الجديد ألغى د/ ضيف من أبواب النحو ثمانية عشر بابا هى : باب كان وأخواتها، وباب ما ولا ولات العاملات عمل ليس ، وباب كاد وأخواتها ، وباب ظن وأخواتها ، وباب أعلم وأخواتها ، وباب التنازع ، وباب الاشتغال ، وباب الصفة المشبهة ، وباب اسم التفضيل ، وباب التعجب ، وباب المدح والذم ،وباب كنايات العدد ، وباب الاختصاص ، وباب التحذير ، وباب الإغراء ، وباب الترخيم ، وباب الاستغاثة ، وباب الندبة ، ونقل باب الإضافة وباب التوابع إلى تقسيمات الاسم فى القسم الثانى من الكتاب .

وإلغاء هذه الأبواب لا يعنى خروجها أو خروج أمثلتها من كتب النحو ، بل أدمجت فى أبواب أخرى رآها د/ضيف أحق بها ، فأبواب (كان وكاد وظن وأعلم) انتقلت إلى

---

(٥٣) انظر : د/ شوقى ضيف - تجديد النحو ص ١١ - ٢٢ وتيسير النحو ص ٤٩ - ٥٣ (بتصرف) .

باب المفعول به على اعتبار أنها أفعال تامة ، ومرفوعها فاعل ومنصوبها حال أو مفعول وفقًا لنوع الفعل من حيث التعدى واللزوم ، وترتب على ذلك إلغاء باب (ما ولا ولات) ؛ لأنها مشبهات بـ (ليس) وقد انتقلت إلى باب المفعول ، وقرر د/ ضيف إلغاء (لا) لأنها ليس لها نماذج ، وأما (لات) الواردة مرة واحدة فى القرآن الكريم فقد رأى أنها حرف لنفى الظرف ، وتدخل فيما أسماه بـ (شبه الجملة) ، وأما (ما) التى ورد لها أكثر من نموذج قرآنى فقد رأى أن ما بعدها مبتدأ مرفوع وخبر منصوب بنزع الخافض وليس بتأثير من (ما) .

والباحث يحمد للدكتور/ ضيف رأيه فى إلغاء أبواب (كان وكاد وظن وأعلم) واندماجها فى باب المفعول به ، على الرغم من خلافه معه فى أن جملة (كان وأخواتها) جملة فعلية ، كما يوافقه على إلغاء (لا) العاملة عمل ليس ؛ لكنه يختلف معه فى (ما ولات) ، وتعليله لنصب الخبر مع (ما) بنزع الخافض غير مقبول ؛ لأن الأصل فى الخبر أن يأتى بدون خافض ، ثم يسبقه الخافض لدلالة التوكيد ، كما تدخل (من) الزائدة على المبتدأ ، وأما تحويل جملة (لات) إلى شبه جملة من أجل إلغاء (لات) فهو خلل فى نظام الجملة القائم على عنصرين أساسين ، ويصعب أن نفهم قوله تعالى (فنادوا ولات حين مناص) إلا إذا قدرنا عنصراً محذوفًا فى جملة (لات) ؛ وأرى أن يلحق الحرفان بالمبتدأ والخبر ، مع الإقرار بتأثيرهما على رفع المبتدأ ونصب الخبر ، كما يؤثر الخافض فيهما .

وفى تبريره لإلغاء باب التنازع عرض د/ضيف لرؤيتى البصريين والكوفيين فى الفعل العامل فى الفاعل أو المفعول ، ورأى البصريين أن العمل للفعل الثانى لقربه ومعمول الأول مضمر ، ورأى الكوفيين أن الفعل العامل هو الأول لسبقه ومعمول الثانى مضمر ، ثم خطّأ د/ ضيف كلا الرأيين محتجًا بأن النصوص العربية الموثوقة تشهد بأن الفعلين يتسلطان على المعمول دون إضمار فى الأول ولا فى الثانى ، ثم ذهب مذهب سيبويه فى أنه لا يوجد تنازع بين عاملين على معمول واحد ، بل دائمًا العمل للفعل الثانى ، ورأى د/ ضيف أن النحاة افترضوا صوراً للتنازع لم يشهدها الواقع اللغوى، ومن ثم يجب أن تلغى من النحو ، ولا يبقى إلا ما له نماذج فى الاستعمال اللغوى الموثوق ، ونقل هذه النماذج فى باب الذكر والحذف موزعة على مبحثى حذف الفاعل وحذف المفعول ، تبعًا للمعمول المحذوف .

والباحث يتفق مع د/ ضيف في إلغاء باب التنازع وتوزيع صوره المستعملة في اللغة على أبواب أخرى ، غير أنه يختلف معه في حذف الفاعل ، فالفاعل من وجهة نظرى لا يحذف وإنما هو ملازم للفعل مضمر فيه ، وعلى ذلك توضع صورة التنازع الخاصة به في باب الفاعل المضمر أو الضميرى ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ليس هناك دليل بيّن على أن العمل للفعل الثانى ، فلمَ لا يكون العمل للأول ومعمول الثانى مضمر ؟ وهذا ما قرره الكوفيون ، وفي نظرى أن رأيهم أقرب ؛ لأن الإضمار بعد الإظهار أفضل وأولى منه قبل الإظهار ، وعلى هذا جاءت لغة القرآن الكريم في مثل قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ الضحى ٣ فالمفعول نكر مع الفعل الأول وقدّر مع الفعل الثانى .

وفى تبريره لإلغاء باب الاشتغال ذكر د/ ضيف أن كثيراً من صور الاشتغال مصطنعة من النحاة وليس لها واقع لغوى ، بل ليس له إلا صورة واحدة هى التى وردت فى القرآن كثيراً ، كما فى قوله تعالى : (والأنعام خلقها) ، وهذه الصورة إما أن تساق فى باب المبتدأ والخبر على اعتبار أن الاسم مرفوع مبتدأ والجملة الفعلية خبر ، أو تساق فى باب المفعول به الذى حذف فعله .

والباحث يتفق مع د/ ضيف فى رأيه هذا ، ويذكّر بأمر مهم ، هو أن د/ ضيف خالف هنا رأيه بإلغاء نظرية العامل ومنع التأويل والتقدير ؛ لأنه قدّر فعلاً محذوفاً عمل فى الاسم المفعول النصب ، وهذا يحدث خللاً فى تطبيق المنهج الذى دعا إليه ، لاسيما أنه قرر سلفًا أن (زيدا) فى جملة (زيدا ضربته) مفعول به ولكن لا نقّدر له عاملاً محذوفًا[٥٤] . ولو كان د/ ضيف قد فعل ذلك قصداً ، فأنا أؤيده فى رأيه بأن الاسم المنصوب مفعول به لفعل محذوف . وحسبه من التيسير أنه حذف الصور المفترضة من النحاة فى هذا الباب ، والتى ليس لها واقع لغوى فى الاستعمال ، بل حذف الباب برمته ونقل صوره المستعملة إلى باب آخر ، فهذا يخفف من العبء .

أما أبواب التفضيل والتعجب والصفة المشبهة والمدح والذم وكنايات العدد والاختصاص فألغيت وأدمجت أمثلتها بمناقشتها فى باب التمييز الذى نسّقه

---

(٥٤) انظر : الرد على النحاة ٥٩ .

د/ ضيف تنسيقًا جديدًا يحمد له ، وضمّ بابا التحذير والإغراء إلى باب الذكر والحذف على اعتبار أنهما مفعولان حذف فعلاهما ، والباحث يعود فيذكر بأن د/ ضيف عدل عن رأيه بإلغاء نظرية العامل ومنع التقدير والتأويل ؛ إذ قدّر هنا فعلاً محذوف عمل في الاسم المفعول النصب ؛ وهذا يؤكد حدوث خلل في المنهج ، لاسيما أن د/ ضيف دعا إلى إطلاق مصطلح (شبه الجملة) على عدة تراكيب في العربية ؛ منها تركيبا التحذير والإغراء(٥٥) .

وأما بابا الاستغاثة والندبة فقد ألحقا بباب النداء دون حاجة إلى إعرابهما ، وأما باب الترخيم فألغى لأنه ليس له صور حية في اللغة ، إنما هو لهجة قديمة مهجورة . **والباحث** لا يمانع من ذلك ، وإن كان التراث الشعري قدحفظ لنا صورة الترخيم(٥٦) .

أما نقل باب الإضافة وباب التوابع إلى تقسيمات الاسم فلا نوافق عليه ؛ لأن الإضافة والتوابع موضوعات نحوية تمثل أنماطًا وصورًا من صور التراكيب العربية ، فكيف تعالج في القسم الصرفي الذي يعالج بنية الاسم ؟ إن هذا الأمر يؤدي إلى الاضطراب لدى الدارسين ؛ لأنه يحدث خلطًا بين أهداف الدرس النحوي والدرس الصرفي ؛ ومن ثم ينبغي أن يدرجا في القسم النحوي ؛ فهو بهما أولى .

ومن الأبواب التي دعا إلى إلغائها في مدخل الرد على النحاة ، ولم يلغها ولم يدمجها في باب آخر في تطبيق منهجه في كتاب تجديد النحو باب (إن وأخواتها) و (باب لا النافية للجنس) ؛ حيث قرر في المدخل الأول أن يلغي هذا الباب ، وتدمج أمثلته في باب المبتدأ والخبر على أن يعرب الاسم المنصوب مبتدأ منصوبًا ، ولمَ لا والمبتدأ يجر بعد رب وأخواتها ؟ إذن فلا مانع من أن ينصب كما يجر(٥٧) .

---

(٥٥) انظر : الرد على النحاة ص ٦١ .

(٥٦) من صور الترخيم قول امرئ القيس في معلقته :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلّل ... وإن كنت قد أمعت صرمي فأجملي

(٥٧) انظر : الرد على النحاة ص ٥١ ، ٥٢ .

والباحث سبق أن أعلن رأيه المخالف لرأى د/ ضيف هذا . وفى عودة د/ ضيف عن رأيه هنا إلى آراء النحاة تأييد لرأى الباحث ، غير أن فى ذلك هدماً لمنهجه الذى أرساه فى مدخل الرد على النحاة .

وعلى الرغم من الخلاف فى الرأى مع د/ ضيف أحيانا ، فإن من ينظر فى أبواب النحو التى سجلها د/ ضيف فى كتابه يلحظ أن النحو ظل فى التصنيف الجديد محافظاً على هيكله العام مع عرض الصيغ المتنوعة للعربية عرضاً تفصيلياً ، وأن الأبواب التى ألغيت لم تحذف صورها ، فهو مبثوثة فى أبواب أخرى ، وأعتقد أن رجوع د/ ضيف عن بعض آرائه عن قصد أو غير قصد قد أسهم فى تشكيل أبواب الكتاب على النحو الذى نراه فيه ، وفى هذا التشكيل ما ييسر النحو للدارسين .

الأساس الثانى إلغاء الإعرابيْن التقديرى والمحلى[٥٨] :

هذا هو الأساس الثانى الذى دعا إليه د/ ضيف باهتداء من ابن مضاء واللجنة الوزارية فى مقترحاتها سنة ١٩٣٨ ، فرأى أن يقال فى (جاء الفتى) : الفتى فاعل محله الرفع ، وفى (هذا زيد) : هذا مبتدأ محله الرفع ، وفى ذلك تعميم للمصطلح ، وفى (زيد يكتب) : يكتب جملة فعلية خبر فنعيّن وظيفة الجملة دون ذكر محلها من الإعراب . ورتّب د/ ضيف على إلغاء هذا الإعراب :

١ - إلغاء تقدير متعلق الظرف والجار والمجرور : فهما اللذان يشغلان الوظيفة النحوية ، ولا يتعلقان بمحذوف تقديره مستقر أو استقر كما زعم النحاة ، فنقول فى (زيد عندك) : عندك : خبر ، ولا نقول بأنه متعلق بمحذوف خبر .

٢ - إلغاء عمل (أن) المصدرية مقدرة : اعترض ابن مضاء على تقدير (أن) الناصبة بعد فاء السببية وواو المعية ، ورأى أن المضارع منصوب بالحرف مباشرة ، وبذلك أخذ د/ ضيف فى الكتاب .

٣ - إلغاء العلامات الفرعية فى الإعراب : وهذا يعنى أن كل علامة أصلية فى موضعها ، ولا تنوب علامة عن علامة ، وطبق د/ ضيف هذا المبدأ فى الكتاب .

---

(٥٨) لمزيد من التوضيح راجع تجديد النحو ص ٢٤ - ٢٦ وتيسير النحو ٥٦ - ٥٨ .

الأساس الثالث : الإعراب لصحة النطق(٥٩) :

انطلق د/ ضيف في هذا الأساس من مبدأ أن الإعراب ليس غاية في ذاته ، وإنما هو وسيلة لصحة النطق ، فإن لم يصحح نطقا فلا فائدة منه ، ورتب على ذلك إلغاء/ إعراب (لاسيما وبعض أدوات الاستثناء وأدوات الشرط الاسمية وكم الاستفهامية والخبرية وأن المخففة من الثقيلة وكأن المخففة) .

وهو يرى أن (أنْ) المخففة في مثل قوله تعالى (أفلا يرون أن لا يرجعُ إليهم قولا ولا يملكُ لهم نفعا ولا ضرا) هي أداة ربط لا أكثر ولا أقل ، مثلها مثل (أن) في الآية (فأوحينا إليه أن اصنع الفلك) ، ومثلها كأنْ الخفيفة(٦٠) .

وأما (لاسيما) فقد تكلف النحاة عناء شديدا ، ولا داعي له ؛ لأن ما بعدها يجوز فيه الرفع والنصب والجر ، فلمَ العناء فيما لا يفيد ؟ وطبيعي أن يلغى إعرابها .

كذلك ينبغي أن يلغى إعراب أفعال الاستثناء ، وخير لنا أن نعربها أدوات استثناء وما بعدها مستثنى منصوب(٦١) . وكذلك ينبغي أن تعرب (غير ، سوى) في الاستثناء حالا(٦٢) . كذلك ينبغي أن يخرج الاستثناء المفرغ من باب الاستثناء ؛ لأنه قصر وتخصيص وليس استثناء عملا بقرار اللجنة الوزارية .

---

(٥٩) انظر · تجديد النحو ٢٦ ٣٠ وتيسير النحو ٥٨ · ٦٠ .

(٦٠) أعتقد أن د/ ضيف ليس بدعًا في ذلك ، فقد ذكر من قبل الفرنسي بلاشير أن العربية الفصحى l'arabe classique عرفت بناء لغويًا استخدمته في اللغة الأدبية يقوم على الربط بالتبعية بين الجملة الأساسية والجملة التابعة ، وأدوات الربط لم تخرج عن "أن المخففة ، وأنّ المشددة" وكذلك التركيبات التي تدخلان فيها مثل "على أن ، حتى أن ، طال أن ، كثر أن ..." وتستخدم أن الخفيفة للتعبير عن الرغبة والنية كما في قولك "أريد أن أذهب" وتستخدم الأخرى للتعبير عن الحقائق والتوكيد . انظر · Blachère : Grammaire de l'arabe classique p. 432 .

(٦١) جدير بالذكر أن د/ ضيف أقر فيما بعد بأنها أفعال حذف، فاعلها ؛ حيث عقد مبحثًا بعنوان (استغناء الفعل الثلاثي المبني للمعلوم بمادته عن الفاعل في صيغ مطردة) وذكر أن من ذكر أفعال الاستثناء . انظر له *تيسيرات لغوية* ص ٣٠ .

(٦٢) أكد د/ ضيف رأيه بأن (غير وسوى) ينبغي إخراجهما من باب الاستثناء إلى باب الحال ، وذلك في كتابه *تيسيرات لغوية* ص ١٢٢ وما بعدها .

على هذا ينبغى إلغاء إعراب (كم) الاستفهامية والخبرية ، ويكتفى ببيان أنها استفهامية أو خبرية[٦٣] . وكذلك أسماء الشرط (من ما مهما أى أين أنى حيثما متى إذا كيفما) ينبغى أن يلغى إعرابها ؛ لأن إعرابها لا يفيد شيئا فى صحة النطق[٦٤] .

والباحث يتفق معه فى ضرورة إلغاء إعراب (لاسيما) واعتبار (أنْ وكأنْ) المخففتين مجرد أداتى ربط ومثله (كأن) ، كما يتفق معه فى إلغاء إعراب أفعال الاستثناء ، وعلى إخراج الاستثناء المفرغ من باب الاستثناء ، لكنه يرى الإبقاء على إعراب (غير وسوى) فى باب الاستثناء كما ذكر النحاة، أما الدعوة إلى إلغاء إعراب (كم) الاستفهامية والخبرية وأسماء الشرط ، **فللباحث** رأى آخر ، سلف ذكره ، ونعيده هنا تأكيداً ، فالدعوة إلى الإلغاء بحجة أن ذلك لا يفيد شيئا فى تقويم اللسان وتصحيح النطق فذلك أمر يحتاج إلى نظر ؛ لأن هناك فرقا بين بيان وظيفة الكلمة فى الجملة وعلامة الإعراب التى تستحقها ، فلو كان د/ ضيف يقصد الاستغناء عن وظيفة الكلمة النحوية لوجب أن يسحب ذلك على كل الأسماء المقصورة والمنقوصة والمبنية ؛ فكلها لا تظهر عليها علامات إعراب تساعد على النطق السليم ، غير أنه لم يفعل ذلك ، ولنسأل : لماذا نقول فى (هذا محمد) : هذا مبتدأ مبنى ، ولا نقول ذلك فى (من) من قولنا : (من يقم أقم معه) ؟ ولا فرق بينهما فى تقويم اللسان وتصحيح النطق . ومن ناحية أخرى فإن الاستغناء عن إعراب أسماء الشرط ينبغى أن يسحب على أسماء الاستفهام تعميماً للقاعدة ، لأن كثيرا منها مشترك . أما لو كان قصده الاستغناء عن قولنا فى (من يقم أقم معه) : من اسم شرط مبنى على السكون فى محل رفع مبتدأ ، ويكتفى ببيان أنها اسم شرط مبنى مبتدأ ، لا تفقنا معه ، وحينئذ تدخل أسماء الشرط

---

(٦٣) لم يستقر على رأيه هذا ، حيث عاد فذكر أن (كم) تعرب كما أعربها النحاة ، وذلك تعليقه على قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ ﴾ ؛ إذ قال : "لا نعرب (كم) مفعولاً به للفعل (يروا) السابق لها، وإنما تعرب مفعولاً به للفعل التالى لها (أهلكنا) انظر . تيسيرات لغوية ص ١٠٣ .

(٦٤) كذلك هنا لم يستقر د/ ضيف على رأيه هذا ، حيث عاد فذكر تحت باب عقده باسم (الصدارة لأسماء الاستفهام والشرط) أن أدوات الشرط كأدوات الاستفهام لا يعمل فيها عامل قبلها إلا إذا وقعت بعد حرف جر أو اسم مضاف ، فإنها تجر مثل قولنا (بمن تستعن أستعن) ، ثم قال "أما (من) فبحسب مواقعها من الكلام ، فقد تكون مبتدأ فى مثل (من يقم أقم معه) وقد تكون مفعولاً به كما فى (من يضلل الله فلا هادى له) ..." انظر تيسيرات لغوية ص ١٠٩ .

في قاعدة الأسماء المبنية والمقصورة والمنقوصة . وعلى كل فقد عدل عن رأيه في (أفعال الاستثناء وكم وأسماء الشرط) في موضع آخر[٦٥] ، ولا أدرى أهو فعل ذلك بقصد أم بدون قصد ؟ وعدوله عن رأيه يحدث خللا في المنهج الذى رسمه لإعادة تصنيف النحو ، غير أني أحمد له ذلك في بعض الآراء ، ففي عدوله وتراجعه الخير للنحو .

الأساس الرابع – وضع تعريفات وضوابط دقيقة[٦٦] :

هذا الأساس أضافه د/ ضيف إلى الأسس الثلاثة السابقة في سنة ١٩٧٧ حينما قدم مشروعا إلى المجمع لتيسير النحو ، وهو وضع تعريفات وضوابط دقيقة لبعض أبواب النحو التي لم يتح لها أن تُعرَّف تعريفا سديدا من النحاة . ووقف د/ ضيف في هذا الأساس عند المفعول المطلق والمفعول معه والحال . ثم عرض لتعريف ابن هشام للمصطلحات الثلاثة[٦٧] مبينا أنها مضطربة وغير دقيقة ، ثم وضع هو تعريفا لكل منها على النحو التالي :

– المفعول المطلق : هو عند ابن هشام "اسم يؤكد عامله أو يبين نوعه أو عدده" ، وعند د/ ضيف هو "اسم منصوب يؤكد عامله أو يصفه أو يبينه ضربا من التبيين" وتدخل في كلمة (ضربا من التبيين) جميع الصيغ التي تنوب عن المفعول المطلق .

– المفعول معه : هو عند ابن هشام "اسم فضلة تالٍ لواو بمعنى (مع) تالية لجملة ذات فعل أو اسم فيه معناه وحروفه" ، وعند د/ ضيف هو "اسم منصوب تال لواو غير عاطفة بمعنى مع" .

– الحال : هو عند ابن هشام "وصف فضلة مذكور لبيان الهيئة" ، وعند د/ ضيف هو "صفة لصاحبها نكرة مؤقتة منصوبة" .

والباحث لا يختلف مع د/ ضيف في تعريفه للمصطلحات الثلاثة ، غير أنه يود أن يكون تعريف الحال هكذا : "اسم نكرة منصوبة صفة مؤقتة لصاحبها" ، هذا من

---

(٦٥) انظر : د/ ضيف . تيسيرات لغوية ص ١٠٣ : ١٠٩ .

(٦٦) انظر تجديد النحو ص ٣٠ : ٣٤ وتيسير النحو ص ٦٠ . ٦١ .

(٦٧) اعتمد د/ ضيف في تعريف ابن هشام للمصطلحات الثلاثة على كتابه أوضح المسالك .

ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن تعريفه للمفعول المطلق يؤكد على العودة إلى نظرية العامل ؛ إذ يقول : "اسم يؤكد عامله .." أى فعله الذى عمل فيه النصب .

الأساس الخامس - حذف زوائد كثيرة[٦٨] :

رأى د/ ضيف أن من تيسير النحو وتجديده حذف بعض الزوائد التى لا تخل بالقواعد العامة ، فرأى أن تحذف شروط اسم التفضيل وشروط فعل التعجب ؛ فالأمثلة فيهما تغنى عن ذكر الشروط ، وقواعد اسم الآلة ؛ لأنه يعتمد على السماع ، وشروط التصغير وصيغه التى لا تجرى على الألسنة كتصغير فعل التعجب ، ومعظم قواعد النسب التى لا حاجة لنا بها الآن ، وأكثر شروط تقديم المبتدأ وجوبا وتقديم الخبر وجوبا ، وجعل ذلك فى باب التقديم والتأخير ، وكذلك شروط حذف المبتدأ وحذف الخبر ، وجعل ذلك فى باب الذكر والحذف ، وحذف إعمال ليت مع (ما) الكافة ، لعدم استعمالها فى الواقع اللغوى ، وحذف ما يسمى بالعطف على (إن واسمها) ، ورأى أنه مبتدأ خبره محذوف لدلالة السياق عليه ، وكذلك ما قرره النحاة من أن نعت (اسم إن) و (اسم لا النافية للجنس) أو توكيده أو البدل منه يجوز فيه الرفع والنصب ، فحذف وجه الرفع مكتفيا بالنصب تيسيرا على الدارسين ، وحذف من الكتاب وجوه الإعراب المتعددة فى (لا حول ولا قوة إلا بالله) ، كما حذف شروطا وأحوالا كثيرة للمفعول معه ، كما حذف كثيرا من كلام النحاة عن تابع المنادى وما يجوز فيه من رفع ونصب بحجة أن كل أمثلته من اصطناع النحاة ، علما بأن القرآن يقول : (يا جبال أوبى معه والطيرَ) ، كما حذف عمل المصدر منكرا ومعرفا بـ (ال) ؛ لأنه غير مستعمل فى اللغة ، وكذلك إضافة المصدر لمفعوله قبل الفاعل ، كما حذف ما أسماه النحاة بـ (فاعل سد مسد الخبر)[٦٩] ؛ لأن أمثلته غير موثوقة ولم ترد فى القرآن وغير مستعملة فى اللغة . **والباحث** يوافقه الرأى فى كل ذلك ؛ تيسيرا للنحو على الدارسين .

---

(٦٨) انظر : تجديد النحو ص ٣٤ . ٤١ وتيسير النحو ص ٦١ . ٦٣ .

(٦٩) إعراب (الزيدان) فى جملة (أقائم الزيدان) فاعلاً سد مسد الخبر من فساد رأى النحاة ؛ حيث اجتمع فى الجملة عنصران كلاهما مسند إليه (المبتدأ والفاعل) وغاب المسند (الخبر) عن الجملة .

الأساس السادس – إضافات متنوعة(٧٠):

هذه الإضافات كثيرة ومتنوعة ؛ هدفها توضيح الصياغة العربية فى نفس دارس النحو ، ومن تلك الإضافات المبحث الخاص بقواعد النطق ، وعلته فى ذلك أن قواعد النطق كانت تدرّس للناشئة قديما مع حفظهم للقرآن الكريم ، أما الآن والناشئة لا يهتمون بحفظ القرآن فلابد أن يتعلموها من خلال كتاب النحو . وقد شملت هذه الإضافات الحديث عن تاء التأنيث ودلالاته المتنوعة ونونى الجمع والمثنى على أنهما بدل من التنوين فى المفرد، والفرق بين اسم الجمع واسم الجنس الجمعى(٧١)، ونون الوقاية، وتحدث عن المضاف والمضاف إليه والتابع والمتبوع فى القسم الصرفى ، كما أشار فى الأقسام النحوية إلى أن جمع ما لا يعقل فى الكون والطبيعة والأشياء يعامل مع الخبر والنعت والفعل معاملة الكلمة المفردة ، وهذه الإضافة جيدة وإن كان ذلك معروفا فى الاستعمال اللغوى ، لكن النحويين لم يفردوا لذلك بابا أو فصلا ، وأضاف فى الممنوع من الصرف صيغ (أُخَر ، أحاد ، موحد) ، كما اعتبر تخصيص باب للذكر والحذف ، والتقديم والتأخير من الإضافات ، وأنا أخالفه الرأى ؛ لأن النحاة ذكروا ذلك كلا فى موضعه مثلما فعل هو مع باب التنازع ؛ حيث ألغاه وذكر صوره المستعملة فى باب الفاعل والمفعول . فهو يدعو إلى التخفيف من أبواب النحو فى بداية الكتاب ويعد ذلك تيسيرا ثم يزيد هو أبوابا !! فهذا تناقض فى المنهج ويمثل ثقلا على الدارسين .

---

(٧٠) انظر . تجديد النحو ٤١ ٤٣ وقد جاء هذا الأساس فى موضع آخر بعنوان (استكمالات لنواقص ضرورية) انظر تيسير النحو ص ٦٣ - ٦٤ والدلالة ليست واحدة فى العنوانين ، فبينما تفيد فى تيسير النحو أن نحونا بحاجة ماسة لهذه الاستكمالات تفيد فى تجديد النحو أن هذه الإضافات من قبيل النافلة ، لكن د/ ضيف يرى أهمية هذه الإضافات للنحو ، ومن ثم فالعنوان فى تيسير النحو أكثر دقة .

(٧١) ذكر د/ ضيف أن اسم الجمع يحمل دلالة الجمع ، غير أنه لا واحد له من لفظه ، وهو يجمع ويثنى مثل (أمة/أمم ، شعب/شعوب) ، واسم الجنس الجمعى يأتى من مفرده بحذف تائه أو يائه ، وهو يثنى ويجمع مثل (شجرة / شجر / أشجار ، تركى / ترك / أتراك) . و (أشجار وأتراك) جمع تكسير . راجع تجديد النحو ص ٩٨ .

بعد هذا العرض لمنهج د/ ضيف فى مدخل تجديد النحو يمكن أن نسجل الآتى :

– أضاف ثلاثة أسس أخرى إلى الثلاثة الأولى ؛ لتصبح ستة أسس لا غنى عنها فى التصنيف الجديد للنحو العربى .

– ترتب على هذه الأسس إلغاء ثمانية عشر بابا من النحو ، ودمج أمثلتها فى أبواب أخرى إلا قليلاً جدا منها رأى حذفها لعدم وجود لها فى الواقع اللغوى .

– قليل مما دعا إليه فى مدخل الرد على النحاة تراجع عنه فى مدخل تجديد النحو ، مثل دعوته إلى إلغاء باب (إن وأخواتها) . وفى ذلك حمد له .

– إلغاء الأعراب التقديرى والمحلى فى الجمل والمفردات المقصورة والمنقوصة والمبنية ، وإلغاء متعلق الظرف والجار والمجرور ، وإلغاء (أن) مقدرة ناصبة للمضارع بعد أدوات أخرى مثل فاء السببية .

– جعل الإعراب لصحة النطق ، فما لم يصحح نطقا فلا حاجة له ؛ ولذا دعا إلى إلغاء إعراب أفعال الاستثناء ولاسيما وأنْ المخففة من الثقيلة وكما الاستفهامية والخبرية وأسماء الشرط .

– وضع تعريفات جديدة لبعض الأبواب النحوية ، ترتب عليها إلغاء شروط وقواعد كثيرة للنحاة لإحكام تلك الأبواب . كما دعا إلى حذف كثير من القواعد والشروط التى وضعها النحاة فى معظم الأبواب ولا حاجة للدارس بها .

– دعا إلى تزويد الكتاب بمجموعة إضافات متنوعة رأى أهميتها لاستكمال منهجه .

– على الرغم من تواجد نقاط خلاف بين **الباحث** وصاحب هذا المنهج الجديد ، فإن ذلك لا يمنع من القول بأن المنهج بهذا الشكل منهج محمود يحمل تيسيرا للنحو وتجديدا فى تبويبه ، وهو يعد استكمالا لمنهجه فى مدخل الرد على النحاة ، بصرف النظر عن تراجعة فى بعض آرائه التى ذكرها فى المدخل الأول ، وهذا يؤكد أن د/ شوقى ضيف نو فكر متجدد ورؤيةعلمية ثاقبة معمقة .

ولكن هل نجح د/ ضيف فى تطبيق هذا المنهج بصورته الأخيرة فى كتابه (تجديد النحو) ؟ وما مدى هذا النجاح ؟ هذا ما نحاول أن نجيب عنه فيما يستقدم .

تطبيق المنهج فى كتاب تجديد النحو :

النحو التطبيقى فى الكتاب موزع على ستة أقسام على النحو التالى :

القسم الأول(٧٢) : فى نطق الكلمة وأقسام الفعل وتصاريفه وأنواع الحروف . ونطق الكلمة هو أحد المباحث التى أضافها د/ ضيف إلى الدرس النحوى ، **وللباحث** اعتراض على دمج مبحث نطق الكلمة و (ال) الشمسية والقمرية فى القسم الخاص بالفعل ، وكان الأفضل أن يستقل نطق الكلمة بقسم مستقل ، وهى ليست أقرب للفعل منها للاسم . وفى مبحث نطق الكلمة وضع د/ ضيف عنوانا جانبيا باسم (مخارج الحروف) ، وكان الأولى أن يسميه (مخارج الأصوات) ؛ لأن الحرف هو الرمز المكتوب للصوت المنطوق ، لكن د/ ضيف سار على نهج القدماء فى المصطلح رغم دعوته إلى مخالفتهم واعتراضه على منهجهم النحوى . وفى (أنواع الحروف) تحدث عن حروف المعانى فقط دون الإشارة إلى المصطلح ، وكان ينبغى أن يشير إلى حروف المبانى التى تبنى منها الكلمات كما فعل القدماء ، لكنه لم يفعل فعلهم ! وكونه يدمج الدراسة الصوتية فى الدرس النحوى هو منهج القدماء ، والفرق بينه وبينهم أنهم كانوا يعرضون للجانب الصوتى بعد الانتهاء من الدرس النحوى والصرفى ، وإنما هو جعل الدراسة الصوتية فى مقدمة الدراسة الصرفية والنحوية ، وهذا هو منهج المحدثين . وهذا التنوع يحدث خللا فى المنهج .

وحينما تعرض للفعل المضعف مثل (صدّ وارتدّ) لم يقدم تفسيرا للإدغام وفك الإدغام ، واكتفى بقوله : إنهما "يحتجان إلى نظر"(٧٣) ، وفى عرضه لبناء الفعل المضارع وإعرابه رفعا ونصبا وجزما لم يخرج فيه عن المألوف النحوى ، وبالتالى لم يطبق منهجه الذى دعا إليه بصدد هذا الشأن ، وهو أن المضارع المبنى على الفتح يضم إلى المضارع المنصوب ، والمضارع المبنى على السكون يضم إلى المضارع المجزوم ، ويكون كلاهما مجزومًا أو مبنيا(٧٤) .

---

(٧٢) انظر تجديد النحو ص ٤٧ ـ ٨٣ .

(٧٣) انظر · المرجع السابق ص ٦٨ .

(٧٤) انظر الرد على النحاة ص ٥٠ .

القسم الثانى[٧٥] . فى أقسام الاسم وتصاريفه وأنواعه ، وفيه تحدث عن أبنية الاسم وأنواعه من حيث التعريف والتنكير ، والتذكير والتأنيث ، والصحة والاعتلال ، والإفراد والتثنية والجمع ، وفرق بين نونى المثنى والجمع ونون الأفعال الخمسة ، ودلّل على أن النون فى المثنى والجمع بدل من التنوين فى المفرد . ثم تحدث عن اسم الذات واسم المعنى وبالتالى تحدث عن المصادر والمشتقات وأنواعها ، ثم تحدث عن الإعراب والبناء وعلامات الإعراب وأنواع المبنيات ، ثم تحدث عن الاسم المضاف وغير المضاف وأنواع الإضافة ، والتابع والمتبوع وأنواع التوابع ، ثم التصغير والنسب .

ولاحظ الباحث أن فى حديث د/ ضيف عن الضمائر لم يخرج عما جاء فى كتب النحو ، وردد مصطلحاتهم ، واستوقف **الباحث** مصطلح (ضمير مستتر جوازا) الذى لم يلفت انتباه د/ ضيف، فهذا المصطلح غير دقيق ؛ لأن معناه أنه يجوز ظهوره ، وليس هذا هو المقصود، فإن ظهر فلن يعرب فاعلا ، إنما يعرب توكيدا للفاعل المستتر ، كما فى الآية (فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يملّ هو فليملل وليه بالعدل – البقرة ٢٨٢) والمقصود به أن الاسم الدال عليه يمكن أن يظهر ؛ ولذا فالمصطلح غير متوافق مع المقصود منه ؛ ومن ثم ينبغى أن نبحث عن مصطلح يتوافق مع مقصوده النحوى . كما استوقف **الباحث** رأى د/ ضيف فى أن جملة (خالد ثيابه نظيفة) من بدل الاشتمال[٧٦] ، على أن المبدل منه المبتدأ ، **والباحث** يرى أن هذه الجملة مركبة من اسم مفرد وخبر جملة اسمية ، وهذا هو المألوف فى كتب النحو ، ود/ ضيف نفسه ذكر ذلك فى حديثه عن أقسام الخبر ، فهو يأتى مفردا وجملة فعلية وجملة اسمية مثل (زيد شعره جيد)[٧٧] .

ويمكن القول بأن د/ ضيف فى كل هذا لم يخرج عن مألوف النحو إلا أنه ضم بعض المباحث النحوية إلى القسم الصرفى ، مثل البناء والإعراب والإضافة والتوابع ، **وأنا** أرى أن دمج هذه الأبواب فى زمرة الدرس الصرفى أمر يحدث/ خلطا واضطرابا

---

(٧٥) انظر تجديد النحو ص ٨٥ - ١٣٣ .

(٧٦) انظر : المرجع السابق ص ١٣٠ .

(٧٧) انظر المرجع نفسه ص ١٣٩ .

لدى الدارس بين الدرس الصرفى والدرس النحوى ، وغنى عن القول أن الصرف يعالج بنية الكلمة ، والنحو يعالج وظيفة الكلمة داخل الجملة وما يطرأ عليها من علامات إعراب وفقا لوظيفتها النحوية فى الجملة .

القسم الثالث فى المرفوعات(٧٨) ، وقد بدأها بالمبتدأ والخبر ثم إن وأخواتها ولا النافية للجنس ، ثم الفاعل ونائبه ، وتحدث عنها حديث النحاة – إلا قليلا – من تعريف للمبتدأ والخبر ومجئ المبتدأ نكرة ومضيرا متصلا ، وتطابق المبتدأ والخبر وأنوا ع الخبر وتعدده ومجئ الخبر لجمع ما لا يعقل مفردا مؤنثا والربط بين المبتدأ وجملة الخبر ، وحذف المبتدأ والخبر وتقدم الخبر على المبتدأ ، ولام الابتداء ومواضع كسر همزة (إنّ) وفتحها ، ودخول (ما) الكافة على إن وأخواتها ، وحذف خبر لا النافية للجنس والفرق بين لا النافية للجنس ولا النافية للواحد ولا المكررة ، وتعريف الفاعل وتأخره عن فعله ظاهرا أو ضميرا ، والجمع بين الضمير والاسم الظاهر ، وتذكير الفعل وتأنيثه مع الفاعل وحذف الفاعل ومجيئه جملة ومجيئه مجرورا لفظا ، وهكذا .
والحديث بهذا الشكل المثبوت فى الكتاب يدعو **الباحث** إلى التوقف قليلاً ليسجل الآتى :

– د/ ضيف لم يتحدث عن خبر المبتدأ المنصوب بعد (ما) العاملة عمل (ليس) عند النحاة ، وهو قد دعا فى منهجه إلى إلغائها ودمج أمثلتها فى باب المبتدأ والخبر .

– ذكر أن المبتدأ يأتى ضميرا متصلا ، وساق له أمثلة ؛ منها (لولاك ولـولاه) كما نقول (لولا أنت) ، فالكاف والهاء مبتدآن(٧٩) ، وهذا مخالف لمنهجه الجديد الذى اقترح فيه أن الاسم بعد لولا مثل (لولا دعاؤكم) لا يعرب مبتدأ ، وإنما يعرب شبه جملة مرفوعة ، وإذا كان بعد لولا ضمير متصل مثل (لولاه ولولاك) فهو شبه جملة مجرورة(٨٠) . فإن كان تراجعه مقصودا فأنا أحمد له ذلك ، وإلا فهو إخلال بالمنهج .

---

(٧٨) انظر تجديد النحو ص ١٣٥ - ١٦٠ .

(٧٩) انظر . المرجع السابق ص ١٣٩ .

(٨٠) راجع كتاب الرد على النحاة ص ٦٠ .

- فى معرض حديث عن أقسام الخبر ذكر د/ ضيف أن الخبر يأتى جملة فعلية مثل (زيد يذاكر) ، وفى سياق حديثه عن الربط بين المبتدأ وجملة الخبر قال : "تحتاج جملة الخبر فعلية أو اسمية إلى رابط يربطها بالمبتدأ ، وهو غالبا ضمير مثل (الفضيلة تزين الإنسان) ففى (تزين) ضمير مستتر تقديره (هو) فاعل يعود على المبتدأ الفضيلة" وأكّد رأيه هذا فى مواضع أخرى[٨١] ، منها حديثه عن الفاعل بأنه لا يتقدم على فعله ، وإذا تقدم يصبح مبتدأ ويخلفه مع الفعل ضمير يعود عليه من ضمائر الرفع المتصلة مستترة أو بارزة ، مثل : (زيد عرف والزيدون عرفوا)[٨٢] . ورأيه هذا يناقض رأيه السابق المؤيد لابن مضاء فى عدم تقدير فاعل مستتر فى الفعل فى مثل (زيد يسافر)[٨٣] ، وهذا ما يجعلنا نؤكد ما ذكرناه سابقا من أن ذلك يعد إخلالا بالمنهج وهدما لبعض أسسه ؛ إن لم يكن قد قصد التراجع عن رأيه الأول ، وهو تراجع محمود ، غير أننا لا نملك دليلا على ذلك .

- فى حديثه عن الربط بين المبتدأ والخبر ذكر د/ ضيف أن الربط يكون بالفاء والواو ، وساق مثالا للواو من العامية هو (كل فولة ولها كيال) وقد صرح هو بذلك فى قوله : "ولغتنا العامية تحل الواو محل الفاء فى هذا التعبير"[٨٤] . **وأنا لا** أوافقه على ذلك؛ لأنه يحدث اضطرابا لدى الدارس وخلطا بين تراكيب الفصحى وتراكيب العامية، ومعروف أن كتب النحو تعالج تراكيب الفصحى ، ود/ ضيف نفسه يؤيدنى فى رأيى

---

(٨١) انظر تجديد النحو ص ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٤٨ .

(٨٢) انظر المرجع السابق ص ١٥٣ .

(٨٣) انظر *الرد على النحاة* ص ٥٧ .

(٨٤) انظر . تجديد النحو ص ١٥٣ وربما يكون د/ ضيف قد تأثر فى رأيه هذا بالمستشرق الألمانى برجشتراسر ، إذ يقول الأخير : *إن إحلال الواو محل الفاء فى الجملة الاسمية بين المبتدأ والخبر* أمر معروف فى اللهجات العربية الدارجه ، نحو (كل بلاد ولها زى) وهذه الواو قريبة من واو الحال" . انظر : التطور النحوى ص ١٣٨ .

فى مكان آخر ، يقول فيه : "وضع القواعد فى الفصحى على أساس ما يجرى فى ألسنة العامة غير مقبول"(٨٥) .

– فى حديثه عن (ما) الكافة لـ (إن وأخواتها) لم يزد د/ ضيف عما سجله النحاة من أن (ما) تكف هذه الحروف عن العمل . وكنت أتمنى أن يزيد فيوضح دلالة (ما) فى الجملة ، خصوصا أنها وردت فى القرآن ، ولا أعتقد أنها وردت فى القرآن لتكف الحرف عن العمل ، وإنما دخلت لتضع جملة (إنّ) فى نطاق المبالغة والمزيد من التوكيد من خلال القصر والحصر ، فكأن (ما) أضافت إلى توكيد الجملة بـ (إن) توكيدا آخر ، كما فى قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات ١٠) .

– على الرغم من أن د/ ضيف اتفق مع ابن مضاء فى أن (ألف الاثنين وواو الجماعة ونون النسوة) علامات عدد مثلها مثل تاء التأنيث فى (قالتْ) ، وليست ضمائر فاعلية ، واستدل على رأيه بأن هذه العلامات ترد مع الفاعل فى الجملة ، وهى لغة قرآنية معروفة عند العرب(٨٦) ، أقول : على الرغم من ذلك فإن د/ ضيف يقرّ بأن (ألف الاثنين وواو الجماعة ونون النسوة) ضمائر فاعلية ، ثم يصف اللغة التى تجمع فاعلا ظاهرا مع فاعل ضميرى بأنها لغة شاذة خارجة على قواعد النحو ، وينبغى إهمالها(٨٧). **وأنا** أعجب له من هذا الوصف !! وكنت أتمنى ألا يتراجع عن رأيه المؤيد لابن مضاء ، ففى تراجعه إخلال بالمنهج ، فضلا عن أنه وصف لغة قرآنية بأنها لغة شاذة ينبغى إهمالها لإهمال قاعدتها .

---

(٨٥) انظر . تيسيرات لغوية ص ١٠٦ ورأى د/ ضيف هذا ناتج من حرصه الشديد على الفصحى لغة القرآن الكريم ، فهو يرى أن العامية تقطع الروابط والصلات بين العرب ' لأنه لغة محلية لا يفهمها سوى أفراد شعبها ' ولعل هذا ما جعله يشيد بالأقسام العربية من الإذاعات الأجنبية فى تمسكها بالعربية الفصيحة دون لحن ، على العكس تماماً من وسائل الإعلام العربية (المسموعة والمرئية) ، فهى تسهم بشكل كبير فى قطع الصلات والروابط بين أبناء العربية بفضل استعمالها العاميات المحلية بديلاً عن الفصحى

لمزيد من ذلك انظر : شبكة الانترنت (شوقى ضيف – مواقفه فى الحفاظ على اللغة) .

(٨٦) انظر : الرد على النحاة ص ٣٠ ومن أمثلتها فى القرآن قوله تعالى ﴿ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ المائدة ٧١ وقوله تعالى ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا .. ﴾ الأنبياء ٣ .

(٨٧) انظر تجديد النحو ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

- فى حديثه عن الفاعل عقد عنوانا باسم (حذف الفاعل) ، وذكر فيه أن الأصل أن كل فعل لابد له من فاعل ، إما إسم ظاهر أو ضمير مستتر أو بارز ، غير أنه جاء فى اللغة فعلان يليهما فاعل واحد ، مثل (أقبل وتكلم زيد) ، فزيد فاعل للفعل الثانى وحذف من الفعل الأول لدلالة السياق عليه[88] . **والباحث** يرى أن د/ ضيف هنا خالف رأيا سابقا له يقول : "ليس من الضرورى أن يكون لكل فعل فاعل .."[89] **وأنا** أتفق معه فى رأيه الأخير ، ومن ثم فلا يوجد فعل بدون فاعل ، ولا يحذف الفاعل ، وإنما يكون ضميرا مستترا فى الفعل .

- فى حديثه عن نائب الفاعل ، ذكر د/ ضيف مصطلحى (مبنى للمعلوم) و (مبنى للمجهول) ، وكنت أنتظر منه أن يستخدم مصطلحى (البناء للفاعل) و (البناء للمفعول)؛ لأن البناء يعنى الإسناد . وحينما يحذف الفاعل الدلالى يسند الفعل للمفعول ، ويصبح المفعول مسندا إليه أو فاعلا نحويا[90] .

القسم الرابع فى المنصوبات[91] ويبدأها بالمفعول به ، وقد أدرج فيه أمثلة (كان وأخواتها ، وكاد وأخواتها ، وظن وأخواتها ، وأعلم وأخواتها) ، وذلك فى حديثه عن الأفعال اللازمة والأفعال المتعدية ، وتحدث عن الترتيب بين الفاعل والمفعول ، وحذف المفعول ، ومجئ المفعول مجرورا وحقه النصب ، ومجيئه منصوبا وحقه الجر . ثم تحدث بعد ذلك عن المفعول المطلق وما ينوب عنه ، ثم المفعول فيه وأفاض فى الحديث عن أنواع الظروف المعربة والمبنية ، ثم تحدث عن المفعول له ، ثم المفعول معه ، ثم انتقل إلى باب الاستثناء وتحدث عن أدوات الاستثناء وفقا لما جاء عن النحاة ، ثم انتقل إلى باب الحال وأفاض فى الحديث عنه وفقا للتعريف الذى وضعه له ، ثم تحدث بعد ذلك

---

(٨٨) انظر : المرجع السابق ص ١٥٦ .

(٨٩) انظر : الرد على النحاة ٥٧ .

(٩٠) فرق برجشتراسر بين الفاعل الدلالى والفاعل النحوى (المسند إليه) تفريقًا دقيقًا فى حديثه عن الفعل المبنى للمفعول ، حيث يقول : "أما الأول فهو فعل ما لا يسمى فاعله ، نحو (ضُرب زيد) فهو معدوم الفاعل وليس بمعدوم المسند إليه ، فتراه أسند إلى (زيد) وهو مفعوله" التطور النحوى ١٤٠ .

(٩١) انظر : تجديد النحو ص ١٦١ : ١٩٧ .

عن التمييز بصورته الجديدة المنسقة تنسيقا جيدا ، حيث أدرج تحتها كل الأبواب التى دعا إلى إلغائها ووضع أمثلتها فى باب التمييز ، ثم انتقل إلى النداء فتحدث عنه بإيجاز وفقًا لمنهج النحاة .

وللباحث تعليق على قسم المنصوبات يخلص فى الآتى :

– فى عرضه للمفعول به اتبع د/ ضيف منهجه الجديد فى النحو ؛ حيث تناول فيه ما أسماه النحاة بـ (الأفعال الناقصة) . كما طبقه فى المفعول معه والحال ، وطبقه بدقة فى باب التمييز ؛ حيث أدرج فيه الأبواب التى رأى أن تلغى وتدمج فيه ، كالتفضيل والتعجب والعدد وغيره .

– فى باقى الأبواب اتبع منهج النحاة ، وخالف منهجه الجديد فى إطلاقه مصطلح (الأفعال اللازمة والأفعال المتعدية) ؛ حيث دعا من قبل إلى إلغائه واختيار مصطلح آخر من مصطلحات النحاة (أفعال واقعة وغير واقعة ، أو أفعال مجاوزة وغير مجاوزة ، أو أفعال مؤثرة وغير مؤثرة) ، كما خالفه فى اعتبار (غير وسوى) أداتى استثناء ، يعربان إعراب ما بعد (إلا) وقد قرر من قبل أنهما حال ، وحجته فى ذلك اتباع جمهور النحاة . وهى حجة غير مقبولة تخلخل المنهج الجديد ، ورغم ذلك فرأيه الموافق لجمهور النحاة أفضل .

القسم الخامس(٩٢) وهو تكملات لأبواب النحو السابقة ، وفيه تحدث عن صيغ الفعل الثلاثة ودلالاتها الزمنية ، والإعراب والبناء فيها وسبقه هذا للحديث عن الشرط وأدواته ، ثم انتقل بعد ذلك للعدد ، ثم إلى الممنوع من الصرف ، ثم عمل المصادر والمشتقات عمل الفعل ، وختم القسم بحديث عن حروف الزيادة .

والحديث فى موضوعات هذا القسم جاء على نسق حديث النحاة ؛ ومن أهم ما لفت نظر الباحث فيه :

---

(٩٢) انظر : تجديد النحو ص ١٩٩ - ٢٣١ .

– أن د/ ضيف لم يطبق مبدأ التجانس الذى دعا إليه فى منهجه ، وساق له مثالاً بالمضارع المنصوب والمضارع المبنى المتصل بنون التوكيد ، وكذلك المضارع المجزوم والمضارع المبنى مع نون النسوة ؛ وقال فيهما : "فباب مثل الفعل المضارع المعرب تجمع فيه الأحوال المشابهة من مثل بنائه على الفتح وتسكينه ، وإن مجرد جمعنا لمثل ذلك ليجعلنا نلتفت إلى أن الفعل المضارع المتصل بنون التوكيد ينبغى أن لا نعتبره مبنياً على الفتح ، وإنما نعتبره منصوباً حتى نجانس بين حالة نصب المضارع وحالة بنائه مع نون التوكيد ، أو نعتبره فى الحالتين مبنيًا حتى يتم التنسيق فى الباب . ومثل ذلك الفعل المضارع المتصل بنون الإناث فينبغى أن نضمه إلى المضارع المجزوم ، ونسمى المضارع فى الحالين مضارعًا ساكنًا أو مسكنًا ، ولا داعى لأن نسمى سكونه مرة جزماً ومرة بناء ، وهذا يعنى أننا نسمى الحالة باسم واحد ولا نوزعها على أبواب"(٩٣) . وعلى الرغم من خلافنا معه فى هذا التصور إلا أن عدم الأخذ به فى التطبيق هنا يعد إخلالاً بالمنهج .

– حديث د/ ضيف عن الجملة الشرطية حديث طيب موجز ، غير أنه لم يشر إلى النمط الذى يتقدم فيه اسم ظاهر على الفعل فى جملة الشرط ، كما فى قوله تعالى : "وإن أحد من المشركين استجارك فأجره" ، وللنحاة حديث طويل ، فمنهم من اعتبر الاسم فاعلاً مقدماً ، ومنهم من اعتبره فاعلاً حذف فعله يفسره الفعل الذى بعد(٩٤) ، والباحث يتساءل : لمَ لا يعرب الاسم المتقدم مبتدأ والفعل مع فاعله الضميرى خبر ؟ ومن ثم كنت أتمنى أن يخوض د/ ضيف فى هذا الحديث ؛ ليقول كلمته التى يراها وفقًا لمنهجه الجديد .

– اعتبر د/ شوقى أن (إنْ ولو) فى تركيب مثل (أفعل الخير وإن لم يقدّر لك) ، و (أحب الناس ولو آذوك) أداتى وصل لا يحتجان إلى جواب ؛ لأنهما خرجًا عن شرطيتهما(٩٥) . وهو رأى جيد .

---

(٩٣) انظر الرد على النحاة ص ٥٠ .

(٩٤) انظر : ابن يعيش شرح المفصل ج٩/٩ : ١٠ .

(٩٥) انظر تجديد النحو ص ٢١١ ومن اللغويين الذين أخرجوا هذه التراكيب من الجملة الشرطية الفرنسى بلاشير وأطلق عليها الجملة الإضرابية *proposition concessive* .

انظر . Blachère : Idid p. 467 .

القسم السادس[٩٦] وهو قسم خاص بالإضافات المتنوعة التى رأى د/ ضيف من الضرورى إضافتها إلى الدرس النحوى وفقًا لمنهجه الجديد ، وهذه الإضافات شملت الحديث عن الذكر والحذف ، كحذف المبتدأ والخبر والفاعل مع فعله وبدون فعله وحذف المفعول وحذف كان وفاعلها والتمييز والمضاف إليه وحذف جواب الشرط أو القسم بقرينة أو لدلالة السياق عليه . ثم الحديث عن التقديم والتأخير بين المبتدأ والخبر ، وبين المفعول والفعل وفاعله ، ثم الحديث عن أنواع الجمل فى العربية وفقًا للوظيفة النحوية للجملة وقد وزعها توزيعًا جديدًا مغايرًا لتوزيع القدماء للجمل ، وهو توزيع جيد ؛ حيث قسمها إلى جمل مستقلة وجمل خاضعة ، والأولى تشمل الجملة المستأنفة والجملة الحوارية والجملة المعترضة والجملة المفسرة والجملة المعطوفة على إحدى هذه الجمل ، والثانية تشمل جملة الخبر وجملة الفاعل أو نائبه وجملة المفعول وجملة الحال وجملة التابع وجملة الصلة وجملة المضاف إليه وجملة جواب الشرط وجملة جواب القسم .

وقد لفت نظر الباحث عدة أمور :

- عدّد د/ ضيف مواضع الحذف والتقديم والتأخير فى المبتدأ والخبر ، وفى ذلك مخالفة لمنهجه الذى دعا فيه التخلص من زيادات كثيرة منها شروط الحذف والتقديم والتأخير فى المبتدأ والخبر .

- فى حديثه عن حذف المبتدأ ذكر أنه يحذف إذا دل على العموم مثل (من أحسن فلنفسه) أى فإحسانه لنفسه ، وهذه الصور تكثر فى العربية مثل (إن تعف عنه فابنك) أى فهو ابنك بحذف المبتدأ ، وفى حديثه عن حذف الخبر ذكر أنه يحذف مع (لولا) لدلالة السياق عليه مثل (لولا النيل لكانت مصر صحراء) أى لولا النيل موجود . وهنا نلحظ أنه تراجع عن رأيه فى أن الصيغ مثل (فلنفسه) و (فابنك) و (لولا النيل) لا تعتبر جملاً ، وإنما هى شبه جملة مرفوعة[٩٧] . وهذا التراجع نراه فى مواضع كثيرة للحذف

---

(٩٦) انظر : تجديد النحو ص ٢٣٣ . ٢٦٤ .

(٩٧) انظر : الرد على النحاة ص ٦٠ . ٦١ .

سواء فى الجملة الفعلية أو الجملة الاسمية ، وعلى الرغم من ذلك ففى التراجع خير للنحو وللدارسين ، غير أنه يخلخل المنهج الذى أرساه لتجديد النحو وتيسيره .

– ويمكننا القول بأن حديث د/ ضيف عن (الذكر والحذف) يناقض أساسًا قويًا من أسس منهجه الجديد وهو منع التأويل والتقدير، حيث جاء حديثه متوافقًا مع حديث النحاة ، غير أنه أوجز وأبان فى صورة مختصرة ما أفرد له النحاة صفحات كثيرة .

– ذكر د/ ضيف أن الفاعل يحذف مع فعله وبدون فعله ، وأنا أوافقه على الأولى ولا أوافقه على الثانية ، وقد بينت من قبل أن الفاعل ملازم لفعله لا يغادره لا يفارقه .

– فى باب المفعول المطلق ذكر أن (حقًا) فى مثل (هذا هو الرأى حقًا) تعرب مفعولاً مطلقًا مؤكدًا لفعله(٩٨) ، ومن قبل ذكر أن (حقًا) فى مثل (هو أبوه حقًا) تعرب حالاً(٩٩) ، فأى الرأيين صواب فيأخذ به الدارس ؟ ألا يحدث هذا اضطرابًا لديه ؟!

– ذكر فى إشارة سريعة أن نون المضارع (يكون) تحذف أحيانًا حين تجزم مثل (لم يك مخلصًا)(١٠٠) ، وكنت أتمنى أن يعرض لشروط حذفها ولو بإيجاز ، حتى تتضح الصورة كاملة أمام الدارس .

– فى حديثه عن الجملة التابعة ذكر أن الجملة تعطف على جملة مثل (زيد يعمل ويتقن عمله) فجملة (يتقن) معطوفة على جملة (يعمل)(١٠١) ، وهذا الرأى مخالف لرأى سابق له يقول بأن الأفعال يعطف بعضها على بعض مثل (ذاكر محمد واجتهد فتفوق)(١٠٢) . وهذا الأمر يحدث خلطًا واضطرابًا لدى الدارس ؛ لأن أحد رأييه صواب والآخر خطأ ، ومن وجهة نظرى أن الأول هو الصواب ؛ لأنه لا يوجد ما يسمى بعطف فعل على فعل حتى لوذكره النحاة ؛ لأن لا يوجد فعل بدون فاعل ، فكل فعل يمثل جملة تامة ، ومن هنا فالصواب أن نقول : عطف جملة على جملة ، ولا نقول عطف فعل على فعل .

---

(٩٨) انظر تجديد النحو ص ٢٤٠ .

(٩٩) المرجع السابق ص ١٨٤ .

(١٠٠) انظر · المرجع نفسه ص ٢٤٣ .

(١٠١) انظر : نفسه ص ٢٦١ .

(١٠٢) انظر · نفسه ص ١٢٧ .

وختاماً : يسجل الباحث أهم ما انتهى إليه من نتائج تمثل وجهة نظره ، وهى :

- التفكير فى تجديد النحو يعود إلى أن د/ شوقى ضيف قد لاحظ أن جميع البلاد العربية تشكو مُرَّ الشكوى من أن الناشئة فيها لا تحسن النحو ، بل لا تحسن النطق بالعربية نطقًا سليمًا ، ورأى أن مرجع ذلك هو النحو الذى يرهق المتلقى لكثرة أبوابه وتفريعاته وأبنيته وصيغه الافتراضية التى لا تجرى فى الاستعمال اللغوى ، وهو مع ذلك يغفل شطراً كبيراً من تصاريف العربية وأدواتها وصياغاتها ؛ مما يجعل الناشئة لا تتبين كثيراً من أوضاع اللغة واستعمالاتها الدقيقة .

- بدأت الدعوة إلى تجديد النحو وإعادة تصنيفه وتبويبه بشكل جديد عند د/ شوقى مع تحقيقه كتاب الرد على النحاة فى سنة ١٩٤٧ ، وكان المنطلق الفكرى لشوقى ضيف هو تأثره برؤية ابن مضاء الرافضة للنحو العربى بصورته المشرقية ، واستمرت فكرة التجديد قائمة متطورة حتى استوت على سوقها فى ١٩٨٢ حيث بلورها د/ ضيف وأخرجها فى كتابه تجديد النحو .

- مرّت فكرة التجديد حتى إخراجها بثلاث مراحل : المرحلة الأولى يمثلها مدخل الرد على النحاة فى ١٩٤٧ والمرحلة الثانية تمثلها الفترة ما بين ١٩٧٧ : ١٩٨١ حيث قدم للمجمع مشروعًا لتيسير النحو ، والمرحلة الثالثة هى خلاصة ما سبق منذ ١٩٤٧ حتى ١٩٨٢ ويمثلها مدخل (تجديد النحو) ثم التطبيق .

- مدخل كتاب الرد على النحاة يعد تحليلاً وافيًا لآراء ابن مضاء مع التأييد الكامل من د/ ضيف والاستجابة لآرائه الجديدة التى تتمثل فى إلغاء بعض الأسس التى قام عليها البناء النحوى بصورته المرفوضة من قِبَل ابن مضاء ، وهى : إلغاء نظرية العامل ، وإلغاء العلل الثوانى والثوالث ، وإلغاء القياس وإلغاء التمارين غير العملية .

وإيمانا بفكر ابن مضاء وضع د/ ضيف تصوراً لتصنيف النحو تصنيفًا جديداً ييسره ، وينقيه من الشوائب التى تعوق دون فهمه ، وأقام تصوره على ثلاثة أسس :

١ - تنسيق أبواب النحو تنسيقًا يؤدى إلى الاستغناء عن بعض أبوابه بردها إلى أبواب أخرى ؛ اعتماداً على مبدأ التجانس بين أبواب النحو .

٢ – إلغاء الإعراب التقديرى فى الجمل والمفردات المقصورة والمنقوصة والمبنية .

٣ – إهمال الإعراب ما لم يفد شيئًا فى تصحيح الكلام وسلامة النطق .

وقد خلص د/ ضيف إلى هذه الأسس من خلال مبدأين رئيسين دعا إليهما ، نتيجة هضمه واستيعابه لفكر ابن مضاء ، وهما : الانصراف عن نظرية العامل ، ومنع التأويل والتقدير فى الصيغ والعبارات .

وحاول د/ ضيف أن يطبق أسس منهجه الجديد على بعض أبواب النحو فى هذا المدخل ، وقد وُفِّق فى كثير منها ، وبعضها لم يوفق فيه ؛ فلم يطبقه – من وجهة نظر الباحث – وقد بيّنا ذلك فى موضعه .

– هذا المدخل يعد اعتراضًا بالرفض – أو ثورة – من د/ ضيف على النحو العربى بصورته المبثوثة فى مصادر النحو القديمة منذ سيبويه ، كما كان كتاب ابن مضاء أكبر ثورة على النحو العربى ونحاة المشرق ، وهذا يعود إلى أن د/ ضيف نهَج نهْج ابن مضاء واهتدى بآرائه فى رفضه للنحو العربى بصورته عند سيبويه ومن تلاه من النحاة .

– فى مدخله الثانى لكتاب تجديد النحو أضاف د/ ضيف ثلاثة أسس أخرى هى:

٤ – وضع تعريفات وضوابط دقيقة لبعض أبواب النحو .

٥ – حذف زوائد كثيرة من أبواب النحو تُعرض فيه دون حاجة إليها .

٦ – زيادة إضافات لبعض الأبواب ؛ لتمثُّل الصياغة العربية وأوضاعها تمثُّلاً دقيقًا .

وبذلك تصبح الأسس ستة لا غنى عنها فى التصنيف الجديد للنحو العربى من وجهة نظره ، وقد ترتب عليها :

– إلغاء ثمانية عشر بابا من النحو ، ودمج أمثلتها فى أبواب أخرى إلا قليلاً جداً منها رأى حذفها لعدم وجود لها فى الواقع اللغوى .

- كما ترتب عليها إلغاء الإعراب التقديرى والمحلى فى الجمل والمفردات المقصورة والمنقوصة والمبنية ، وإلغاء متعلق الظرف والجار والمجرور ، وإلغاء (أن) مقدرة ناصبة للمضارع بعد أدوات أخرى مثل فاء السببية .

- جعل الإعراب لصحة النطق ، فما لم يصحح نطقًا فلا حاجة إليه ؛ ولذا دعا إلى إلغاء إعراب أفعال الاستثناء ولاسيما وأنْ المخففة من الثقيلة وكم الاستفهامية والخبرية وأسماء الشرط .

- وضع التعريفات الجديدة لبعض الأبواب النحوية ، ترتب عليها إلغاء شروط وقواعد كثيرة للنحاة لإحكام تلك الأبواب . كما دعا إلى حذف كثير من القواعد والشروط التى وضعها النحاة فى معظم الأبواب ولا حاجة للدارس بها .

- دعا إلى تزويد الكتاب بمجموعة إضافات متنوعة رأى أهميتها لاستكمال منهجه .

- قليل مما دعا إليه فى مدخل الرد على النحاة تراجع عنه فى مدخل تجديد النحو ، وفى ذلك حمد له وخير للنحو .

- مهما يكن من خلاف مع د/ ضيف فإن منهجه بهذا الشكل منهج محمود يحمل تيسيراً للنحو وتجديداً فى تبويبه ؛ مما يؤكد أن د/ شوقى ضيف ذو فكر متعمق ورؤية عملية ثاقبة .

- فإذا ما وصلنا إلى التطبيق نجد أن المنهج الذى دعا إليه قد طبقه جيداً بشكل عام من حيث التبويب والتصنيف الجديد ، وفقًا للأسس التى استند إليها فى إعادة التصنيف ، أما فى التحليلات الداخلية للموضوعات فلم يطبق منهجه فى كثير مما دعا إليه ، فمثلاً لم يستطع الخروج من تأثير نظرية العامل فى تطبيق منهجه على الرغم من النقد الشديد الذى وجهه لها ودعا إلى إلغائها ، كما لم يطبق مبدأ التجانس بين أبواب النحو حتى على الفعل المضارع الذى ساقه مثلاً عليه فى حديثه عن المنهج . وقد تراجع أثناء التطبيق عن كثير من آرائه فى المنهج ، فتراجع - أو لم يطبق - عما أسماه بـ (شبه الجملة) فلم نجد له أثراً يذكر فى التطبيق ، كما جاء حديثه عن الذكر

والحذف مناقضاً لأساس قوى من أسس منهجه هو ومنع التأويل والتقدير فى الصيغ والعبارات . بل إنه تراجع فى مدخل تجديد النحو عن بعض آرائه التى طرحها فى مدخل الرد على النحاة . وفى تراجعه خير له وللنحو ، على الرغم من أنه يخل بالمنهج إن لم يفسده . ولعل من المصادفة أن معظم اختلاف الباحث معه كان فى الآراء التى تراجع عنها فى التطبيق ؛ ولذا حمدتُ له ذلك .

– بصفة عامة وإنصافًا للمنهج وصاحبه يمكن القول بأن كتاب تجديد النحو يقدم تصنيفًا جديدًا محافظًا على البناء الأساسى لأبواب النحو العربى ، ويسهم بشكل ما فى تيسير النحو واستيعابه من قبل الدارسين بجهد محدود ، وحسبه أنه خفّض عدد الأبواب النحوية دون حذف ، ورفع عن الدارسين إصر الشروط والقواعد التى ملأت كتب النحو والتراكيب والصور النحوية المصطنعة من قبل النحاة دون إخلال بالقواعد الأساسية التى يلزم الدارس معرفتها .

– ومع ذلك فإنى أرى أن هذا التصنيف الجديد للنحو لم يُؤتَ ثمارُه حتى الآن ، فمازال النحو يُدرَس فى المدارس وفقًا لمنهج النحو بين القدماء وبخاصة البصريون ، وبالتالى فهو لم يسهم فى النطق السليم للعربية وفهمها فهمًا جيداً كما رجا منه صاحبه ، ولعلنى لا أبالغ إذ قلت بأن هذا الكتاب بمنهجه الجديد فى النحو لا يعرفه إلا المتخصصون فى الدراسات اللغوية العربية .

د. علاء إسماعيل الحمزاوى

كلية الآداب – جامعة المنيا

قائمة المصادر والمراجع

أولاً - المصادر :

- د/ شوقى ضيف :

١ - تحقيق كتاب الرد على النحاة لابن مضاء . ط/ دار المعارف ١٩٨٢ .

٢ - تجديد النحو . ط/ دار المعارف - مصر ١٩٨٢ .

٣ - تيسير النحو التعليمى مع نهج تجديده . دار المعارف ١٩٨٦ .

ثانياً - المراجع :

- برجشتراسر :

٤ - التطور النحوى للغة العربية ط/ الخانجى مصر ١٩٨٢ .

- ابن الحاجب :

٥ - الأمالى النحوية . تحقيق هادى حسن حمودة ط ١ / بيروت ١٩٨٥ .

- الزمخشرى :

٦ - المفصل فى علم العربية . ط ٢ / بيروت . بدون تاريخ .

- ابن السراج :

٧ - الأصول فى النحو . تحقيق : عبد المحسن الفتلى ط ٣ / بيروت ١٩٨٨ .

- سيبويه : الكتاب . ت : عبد السلام هارون ط ج١ / ١٩٧٧ ج٢ / ١٩٦٨ ج٣ / ١٩٧٣ .

- السيوطى :

٩ - همع الهوامع . ط/ بيروت . بدون تاريخ .

- د/ شوقي ضيف :

١٠ – تيسيرات لغوية ط/ دار المعارف مصر ١٩٩٠ .

- د/ طه وادى وآخرون :

١١ – شوقي ضيف سيرة وتحية ط/ دار المعارف مصر ١٩٩٢ .

- عباس حسن :

١٢ – اللغة والنحو بين القديم والحديث ط٢ / دار المعارف ١٩٧١ .

- د/ مازن المبارك :

١٣ – العلة النحوية نشأتها وتطورها ط٣ / دار الفكر ١٩٨١ .

د/ محمد إبراهيم البنا :

١٤ – تحقيق كتاب الرد على النحاة لابن مضاء ط أولى ١٩٧٩ .

- ابن يعيش :

١٥ – شرح المفصل .

16 - André Roman :

Grammaire de l'arabe. 1990.

17 - Blachère :

Grammaire de l'arabe classique . Paris 1975.

18 - Emile Benveniste :

Problèmes de linguistique générale V. 1. Gallimard 1996.

19 - Hassan Hamzé :

La position du sujet du verbe dans la pensée des grammairiens arabes. Lyon 1997.

22 - Fleisch :

L'arabe classique . Beyrouth 1968.

Traité de philologie arabe. Beyrouth 1961.

22 - John Lyons :

Sémantique et linguistique. Paris 1990.

٣٠ - قصائد .. فى حُبِّ شوْقى ضيْف

فى تكريم الأستاذ شوقى ضيف

رئيس المجمع اللغوى

شعر : الأستاذ الدكتور/ عبدالله الطيب

أُهْدِى قوافى من شِعْرِى بِتَهْنِئَةٍ ... لِشَوقى ضيفٍ بإجلال وتوقيرِ

بل حقّ مَجْمَعنا أنى أهنِّئُهُ ... به رئيسًا وقلبى جِدُّ محبورِ

قَدْ مَجْمعَ العُرْبِ أستاذَنا بلا شَبَه ... منَ العظامِ أولى الفضلِ المشاهيرِ

وإذْ أهنِّئُهُ أدرى بأنى قَدْ ... هنَأتَ أستاذَ أجْيال الجماهيرِ

جاءوه مِنْ كلِّ أقطارِ العروبةِ لَمْ ... يُلفوه يَألو ولا يُرْمَى بتَقْصِيرِ

تواضعًا واهتمامًا بالشّبابِ وَعِزْ ... فَانًا بما فيه مِنْ مَجْدٍ وتحريرِ

مُواظبًا مُطْمَئِنَّ النفسِ مُجْتهدًا ... مُرابطًا فى جِهادٍ ثمَّ مبرورِ

مُشارِكًا فى علومِ الضَّادِ أجْمَعِها ... درسًا دقيقًا بتوثيقٍ وتيسيرِ

مُحَلِّلاً لأساليبِ مُحَقِّق مَخْـ ... ـطُوط مُعَلِّمِ مُخْتَارٍ وَمأثورِ

وناقدًا قَدْ عَهِدنَا فى بَرَاعَته ... حُسْنَ النَّقاشِ بِعَطْفٍ لا بِتَحْقيرِ

مُصاحبًا أدباءَ العصرِ حُجَّةَ ذى ... ذَوْقٍ أفادَ بتقديمٍ وتأخيرِ

مُؤَلِّفًا وَمُبينًا فى محاضرة ... عميقة ليسَ فيها هَذْرَ تَقْعيرِ

مُهَذّبًا فَطِنًا حُلوًا مُعَاشَرَةً ... منَ الرِّجَالِ لَطيفٌ غيرُ مَغْرورِ

وَعَــالِمًــا وَوُدودًا ذَا مُــجَــامَلَةٍ للوافــدينَ بِـلاَ أينٍ وَتقْــتــيــرِ
وقــد وجدنا لديه الشَّـاطِبيَّ مَعَ الدَّ (م) انى وحِــزبِ منَ القُــرَّاءِ مَنْصُــورِ
وعــارفًـا بالمعـانى والـبيـانِ مـعًـا وفــتنَةَ ابنِ هشَـامٍ بابـنِ عـصـفُـورِ
وَجَــيِّــدُ الخَطِّ حَــتَّى أنَّ رقْــعَــتَــهُ يكـادُ يُشْـرِقُ مـنْهـا نُورُ مَـسْطُورِ
فَنَسـألُ اللهَ - تذلـيلَ الصِّـعـابِ لَــهُ ويُمْنَ مَـرْضَـاهُ ذى أمـرٍ ومَـأمُـورِ
وأنْ يُمَــدَّ عــمــرٌ يَحِـفُّ بــه فـؤادُ كـلٍّ قـريرِ الـعينِ مَـسْـرُورِ
ثمَّ الصـلاةُ لكيـما يُسـتـجـابُ لَنَـا هذا الدعــاءُ بتَــمْـجـيـد وتَـكبيـرِ
على النبى وآلٍ والصـحـابِ وتَسْـــ ليمٍ عَلَيـهِمْ بِمَـدٍّ غَـيْـرِ مَحْـشُورِ

الأستاذ الدكتور/ عبدالله الطيب
أستاذ الأدب العربى
جامعة الخرطوم
جمهورية السودان

نَبْضَةُ وفاء

شعر : الأستاذ/ عبد المنعم عوّاد يوسف

غـوّاصُ دُرٍّ سعى منْ أجلِ غاليـةٍ ... فـعَـادَ فِي كـفِّـهِ تَضْوَى لآليـهِ
فى بحرِ آدابِنا قَدْ غَاصَ مكتشِفًا ... أسمى الكنوزِ ، فلا جهدٌ يُجاريه
خمسون سِفرًا بها أثْرَى ثقافتنَا ... بكلِّ راقٍ نفيسٍ مِنْ مَجَاليهِ
فهل بمَيَدانِهِ صِنْوٌ يقاربُهُ ... فيما إليه قد امتدَّتْ مَسَاعيهِ
وكلَّ جهدٍ له يَعْييا به نفرٌ ... من الثقاتِ ، ولا تُحصَى نواحيهِ
ما أسعدَ الضَّادَ إذ أَلْفَتْ به حصنًا ... يَصُدُّ عنها أذَى عادٍ ويُرديهِ
حتَّى أقامَ لها صَرْحًا يُكافِئُها ... وما يزالُ بماضِي العزمِ يُعليهِ
المجمعيُّ الذى لاحتْ فَرَائدُهُ ... كما تلوحُ عقودُ الدُّرِّ فى تِيهِ
والألمعيُّ الذى شَفَّتْ خواطِرُهُ ... عن كُلِّ غَضٍّ رَشيقٍ مِنْ معانيهِ
هو الأديبُ الذى ساغتْ بلاغتُهُ ... والعالِمُ الفذُّ تُحصَى مراميهِ

* * *

كم يفــخــرُ المرءُ أنْ قــد كــان رائدَهُ ... هذا النجيبُ ويُسقى من مَسَاقِيهِ

أُستــاذنا كــانَ ، لم يَبْـخَلْ بِضــافِيةٍ ... من الجــهــودِ لجــيلٍ راحَ يبنيــهِ

أَهْدى لنا العلـمَ فى نُصْحٍ وتَضْـحِيَةٍ ... فليسَ من جــاحــدٍ فــينا أياديهِ

من نبــعــهِ الثَّـرِّ روَّى النَّفْسَ ظامـئُنا ... ولم يزل نـاهلاً من عَــذْبِ مـا فــيــهِ

والموردُ العــذبُ كـم تحلو مـشــاربُهُ ... ويســتطيبُ شَـذَاهُ الحلْـو حـامــيــهِ

أمْحَـضْتُـهُ الحمـدَ ، لَكِنْ لستُ مُوفيه ... حقَّ الجـزاء ، فــلا شكرٌ يكـافــيــهِ

لَكِنْ أقــولُ بصــدقٍ خــالصٍ قَــوْلاً ... صوتُ الوفــاء على الإنسـانِ يُمْـليهِ

إن كـان شوقـى أميـرَ الشِّـعْرِ يُبْدِعُـهُ ... فــذاك شــوقــى إمـامُ النَّـثرِ يُنشيــهِ

والله أسْــألُ أن يُبــقــيــهِ مُــؤتلقًــا ... حتى يُتـمِّمَ صَـرْحًـا عـاش يُعليــهِ

الشاعر/ عبد المنعم عواد يوسف

من سواه أحق بالتكريم

شعر : الأستاذ الدكتور/ سعد ظلام
عميد كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

مَنْ سِــــواه أحَقُّ بالتكريمِ ؟ ... مِنْ أديبٍ .. وناقــدٍ .. وعليمِ
كــرَّم الحــرفَ فى منَابتـه الشُّمِّ (م) ... فــأرْسَى قــواعــدَ التَّكْريمِ
كَــرِّمُــوه أبًا لجـيـلٍ عظيمٍ ... قــد تلقَّى على إمــامٍ عظيمِ
كَــرِّمُــوه مـجـاهـدًا عـبـقـريًّا ... رَفَــدَ الفكرَ بالقويمِ - القــويمِ
كَـرِّمُـوا فيه مِهْرَجَانَ القَضَايا ... كـيفَ رَاضَتْ لِمَنْهَجٍ مُسْتَقيمِ
كَـرِّمُـوا فـيـه كُلَّ رأى جَـديدٍ ... يتـجلَّى مِنْ خَلْفِ رأىٍ قـديمِ
كَـرِّمُـوه كـما تشـاءُ المثـانى ... تتـصـدَّى لكل فكرٍ عـقـيمِ
كَرِّمُـوا فيه كُلَّ جُـهدٍ وَصَبْرٍ ... واطِّلاعٍ .. وحـيـدةٍ .. ورَسِـيمِ
كَـرِّمُـوا عُـمـرَه المديدَ شُـمُـوعًـا ... تتـفـانَى مِنْ أجْلِ نَبْضٍ رَخـيمِ

* * *

إيهِ "شوقى" ونحن ضيفُك دوْمًا ... فى سلافٍ من اللبابِ الصَّميمِ

وَقِراكَ الممدودُ للضَّيْفِ أشْهَى ... من طُيُوبٍ .. ومن شَفيفِ الرنيمِ

جذوةٌ من شريفِ أزهرِنا الضخـ ... ـمِ ووشْيٌ منَ العُقُولِ النُّجُومِ

أنتَ ما أنت ؟ نهضةٌ .. وانطلاقٌ ... وإضافاتٌ سانغاتُ الطّعُومِ

نَضَّرَتْ وجهَ عصْرِنا .. وأضاءتَ ... كُلَّ رُوحٍ سَمَا .. وكُلَّ أديمِ

فى مَحَارِيبِها صلاةُ كمانٍ ... مُشْرِقِ اللَّحنِ فوقَ مَتْنِ السَّديمِ

يَصْدُقُ الحرفُ حينَ ينْتَهجُ الصِّد ... قَ فَيُثْرى الحياةَ بالتَّنْغيمِ

وَهْوَ أثْرى إذا تَوَلاَّهُ صِدْقٌ ... كَعِناقِ الحميمِ صَدْرَ الحَميمِ

أنْتَ أثريْتَ بالمعارفِ عَصْراً ... وَجَعَلْتَ التقْويمَ للتقويمِ

أنْتَ وَجَّهْتَ للفُنُونِ وَللاَ ... دابِ والبحثِ .. بالعطاءِ الكريمِ

فَسَلُوا أيَّ بَاحثٍ .. أو أديبٍ ... كيفَ رَوَّاهُ مِنْ قِطافِ الكريمِ

فَهُوَ الفَجْرُ فى زمازِمِه البيـ ... ـضِ وسُقْيا نديمةٍ .. ونديمِ

ومَواقيتُ للحَجيجِ اقتفَوْهَا ... التزامًا مِثْلَ التزامِ "الحطيمِ"

واحْتِشادٌ كأنَّهُ كعبةُ الفكْـ ... ـرِ يؤدَّى لها طَوافُ القُدُومِ

وَهُوَ الخلقُ فى تواضُعِهِ الجمِّ (م) ... ودوحٌ مُنَسَّقُ التنغيمِ

ما ترى الشمعةَ المضيئةَ تذْوى ... لتُضِيءَ الظَّلامَ بالتَّهْويمِ

مـا ترى العينَ يسهـرُ السُّهـدُ فـيـهـا … ويَراعًــــا مُـــضَـــوأً الـتكـليـم

مــــا ترى العــــودَ يســتـــحمُّ بعـطرٍ … لـيُــــجـلِّى أزاهِـرِى وكُـــــرومِـى

فى شـــمــولٍ رَاعى المســيــر الذكيّ … وأناة .. خـــضـــيلةِ وعــــزيم

هَـذِهِ عُــــــــدَّةُ الأديـبِ .. وهَـذِى … إى .. وربِّى بـلاغـــةُ التـــقـــديم

* * *

إيهِ "شــــوقـى" وأينَ مِنَّـا جُـــهَـــودٌ … أطْـلَعْــــــتَـنَـا على تُـراثٍ عَـظِـيمِ

عـرضَـتْه عـرضَ السخىِّ .. فَـعِـشْنا … فى تَضَــاعِـيـفـهِ كَـعَـيْشِ النَّعِـيمِ

فــــرأينا آبـاءَنَا فـى سَــــمَـــــاءٍ … كنُجُـومٍ مُــضَــوآتِ التـــخــومِ

وَشَــربنا هَذا العـصـيرَ ، فَــهِـمْنَا … بِأفَـــاوِيـقَ منْ سَنَاكَ العــمــيمِ

مِنْ شُطُوطِ "الـضِّلِّيلِ" تَسْـبَحُ حَــتَّى … "شـاعـر العـصـرِ" والأمـيـرِ الزعـيمِ

مـاهرُ الـغَـوصِ فى المَحَـار وفى اللُّؤْ … لُؤ والتِّـــبْـــرِ فـى كُنُوزِ العُـلُومِ

ظافــرٌ بـالبــديـعِ مِنْ مُــهَجِ الـفَنِّ (م) … ومِـنْ غــــــــالـى دُرِّهِ المنْظُـومِ

فى اصْطِبـارٍ لكلِّ مـعنًى شـمُـوسٍ … ووفـــاءٍ لكـلِّ مَـــعْنًى يَـتِـــيمِ

ثُمَّ كَـانَ الحَـصَادُ خَمْسِينَ سِـفـرًا … هى فـــينا .. وأنت كـــالتَّـسْنيمِ

ومَـــرَايا نرى علـيْـهَـــا عُــهُـــودًا … وثُـمــــارَ الإبـداعِ والتَّـــــرْنيم

وتواريـخَ للمــــواهـبِ صُــعُـــدًا … وَهُبُـــوطًا مُـجَنَّحَـــاتِ الرُّسُـومِ

فَـدِراسَـاتُكَ الفِـصَـاحُ جُـسُـورٌ لِعُـصُـورٍ من النُّبُـوغِ القَـوِيمِ
قد تبـدَّتْ كمـا تبـدَّتْ شُـمُوسٌ وأضـاءتْ مِـثلَ الصبـاحِ الوسـيمِ

* * *

لا تـلمنى إذْ أبثُّك شَـيْـخى بالذى جاشَ فى صميمِ صَميمى
أىُّ هـذا الـذى وَصَـلْنـا إلـيـه من جـديدٍ مـراهقٍ مـزعـومِ ؟
كَـجَـديـدٍ منَ المَنَايا .. مُـحَـلَّى بالجـرائِمِ والـقَـضـا المحـتـومِ
أدبٌ عَـاجِـزُ الرُّؤَى مَـأزومٌ فَـهْـوَ يَهْـذِى كَلَوْثَةِ المَحْـمُـومِ
مُسْتَرابُ الإيقاعِ مُضطربُ اللحـ ـنِ غـريـبٌ على الـفـؤادِ السَّليمِ
لُغَـةٌ مُـرَّةٌ ، ولحْنٌ كـئـيبٌ فى خـيـالٍ مُـرَاوِغٍ .. وَسَـقـيمِ
يتـسـجَّى بليلِ مَـوْتٍ بليـدٍ ورُكـامٍ مِـنَ الضَّـبـابِ البـهـيمِ
عَـمْـرَكَ الله كـيف كـان التحـدِّى والتَّـعَـدِّى وَهُوَّةُ التَّـحطيمِ ؟
كـيفَ كـانتْ تَـفَـاهَـةُ التَّـرمِـيمِ ؟ كـيفَ كـانـتْ جِنَايةُ الـتكمـيمِ ؟
كيفَ كـانتْ سَـفَـاهَةُ التَّـعْـتِيمِ ؟ كـيفَ كـانتْ ضَـلالَةُ التـعـقـيمِ ؟
قـد ترفَّـعْـتَ أن ترى فيـه شـيـئًـا فَـتَـوَقَّـفْتَ عِنْدَ سَـفْحِ الهُـمـومِ
إنَّهـا مِـحْـنَةُ المـرُوقِ .. وهذى ثـورةُ الجَـهْـلِ والجُنوحِ الأثـيمِ
لا شُـعـورى ولا أحـاسيسُ نفْسِى لا .. ولا مـزهَرى ولا تـنغِـيـمى

لا .. ولا لهجةُ الأعارِبِ فيه　　في وضوح .. ومقصدٍ مُسْتقيمِ

أين شعرى أنا وأين شُعُورى ؟　　أين حِسِّى مُجَلْجلاً وهزيمى

أين نبضى ؟ عليه توقيعُ ذاتى　　وعليه توهُّجِى وَغُيُومى

ورفيفُ الغِنَاءِ يفُهقُ باللَّحْـ　　ـن ووقعُ مشابرٍ مَنْغُومِ

كان ما أشتكيه بعضَ همومى　　جنَّبَ اللهُ مَنْ أحِبُّ هُمُومى

*　　*　　*

يا إمامَ المجدِّدينَ القُدامى　　وقديمَ المُجدِّدينَ النجوم

من سواقى علومكُم تعليمى　　وأغانى تكريمكُم تكريمى

مَنْ سِواكُم أحقُّ بالتكريمِ　　من أديب .. وناقدٍ .. وعليمِ ؟

الشاعر الأستاذ الدكتور/ سعد ظلام

عميد كلية اللغة العربية

جامعة الأزهر الشريف

قصيدة للأستاذ حسن عبدالله القرشى

فى حفل تكريم الأستاذ الدكتور شوقى ضيف

هل تَلفَّتَ يَسْـــــرَةً ويَمينا وتَراءَيتَ موكبَ الخالدينا ؟.
وتَراءتْ عيناكَ تَرْقُبُ (شَوْقى) وهو فى الحفل زينة الناظرينا
وتَراءتْ عيناكَ تَرْقُبُ (شَوْقى) يَعْتَلى ذرْوَةَ الفَخَارِ مَكينا .
أَوَ شَوقى الذى نَراَه عيانًا أم خيالٌ من سِحْرِه حَلَّ فينا ؟!.
مَرْحبًا يا منارةَ الأدبِ العا لى ومَن عاش شامخًا لنْ يَلينا
مَرْحبًا جاحظَ الثقافاتِ سَحْبا ن الخَطَاباتِ والحُسينُ بنُ سينا .
مرحبًّا من له بكلِ ديارٍ قبسٌ يَصبغُ المَرائى فُنونا .
هو هَذَا شَوْقى يطلُّ على الكو نِ كشمسٍ نجلو الديارَ فُتونا .
يا مِثالَ الأخلاقِ فى كلِّ حينٍ يَتَباهى بكَ الرِّفاقُ سنينَا .
عِشتَ للعِلمِ مُشرئبَّ الحواشى ولَكَ الفضلُ باذخًا لن يَهُونا

الشاعر : حسن عبدالله القرشى
المملكة العربية السعودية

شوقى ضيف ... جناحا المجد

شعر : الأستاذ الدكتور/ صلاح عيد

أستاذ الأدب العربى

بحمد الله تجمعُنَا السعادةْ ... وكلٌّ بالغٌ منهَا مُرادَهْ
ولكنَّ الطُّموحَ بلا حُدُودٍ ... فَلا ننفكُّ فى طَلَبِ الزيَادةْ
أرَاها كلَّها أدبًا وَعِلمًا ... وفى هَذَيْنِ للأُمَمِ السِّيَادةْ
جَنَاحَا المجد ، إن قويًّا وَطَالا ... فقد ألقى الزمانُ لنا قيَادَهْ
حيثُ الفكرُ لذةُ كلِّ عقلٍ ... وحيثُ مكارمُ الأخلاقِ عَادَهْ
ونحنُ الآنَ فى أعلى مكانٍ ... لَهُ فى مِصْرَ والشَّرْقِ الريَادةْ
تلقينا على نُجبٍ كرامٍ ... به أغلى الدروسِ المُسْتَفَادةْ
تَألّق فيه شوقى ضيفُ نجمًا ... يُواصلُ فى أعاليه اتِّقَادَهْ
نُحيطُ به تلاميذًا وأهْلا ... تَرَى فينا ومَا نُعْطى جِهَادَهْ
نُفَاخِرُ أننا عَنْهُ أخذْنَا ... كَمَنْ نال الوسامَ أوِ القلادهْ
وتذهبُ كُتْبُهُ فى كُلِّ صَوْبٍ ... وقد جَسَّدْنَ فى الأدبِ اجتهادَهْ

ترى التــاريخَ عـصــراً بعـد عــصـرٍ يُوَشّى الشِّــعْــرَ والنَّثْــر امــتــدادَهْ

يعــودُ النَّصُّ مــخـضــراً نضــيــراً إذا بجـــذورِه أجْــرَى مِـــدَادَهْ

يصــــوِّرُه من التَّـــاريخِ جُـــزءاً ويَجْـــعَلُ ذَا عَلى هذا شـــهــادهْ

وَحــتَّى فى البــلاغــةِ أو أخــيــهــا ترى التــاريخَ عـندهمــا عـتــادَهْ

ويُصْــــدرُ هـاهُنا وهُـنَاكَ حُـكمًــا يُقــيـمُ المنطـقَ الراقِى عِـــمَـــادَهْ

كـــبــيـــرٌ شــامخٌ فى كُـلِّ شىءٍ كــمـــا العظمـــاءُ روَّاداً وقـــادَهْ

وإن أخـــذ الرِّيـادةَ عن كِــبـــارٍ فــبِـــالأسلوبِ لا تُخْـطِى انفــرادَهْ

نُحَــيِّى اليــومَ عِلـمًــا ثـم خُلُقًـــا وإخــلاصًــا كـإخــلاص العـبــادهْ

وفَــيْــضًــا مِــثْلَ نَهْــرِ النِّيـلِ منْهُ وجـــداً فـــيـــه أدى للإجَـــادهْ

وأخـــلاقًـــا علَتْ وَحلَتْ وَجَـلَّتْ وجـــمَّلَهَـــا الـتــواضُعُ والـزهَادَهْ

نُـشكِّـلُ باقـــةً تُـهْـــدَى لراعـى خــمــيلتــه وســاقــيــه عِــهَــادَهْ

فَـعَــاشَ بِصيــحَــةٍ يُعْطِى ويُـعْطِى وتجـــمَــــعُنا وإيَّـاهُ السّـــعــــادَهْ

الشاعر الأستاذ الدكتور/ صلاح عيد

أستاذ الأدب العربى

ووكيل كلية التربية ببورسعيد

شوقي ضيف .. معزوفة حبّ وطنية

شعر : الدكتور/ عبد الفتاح الشطى

يا رايةَ حبٍّ وطنيَّهْ
لك من قلبى ألفُ تحيه
بسموقِ الأهرامِ ، ونبضِ النيلِ الخافقِ بالإيمانِ والحريَّه
يا رايةَ حبٍّ عربيهْ
تحفرُ فى التاريخ جُذُوراً عَبَقيَّهْ
تستصفى أغلى ما رنَّمَهُ الإنسانُ العربىُّ وفجَّرهُ للبشريَّه
أنواراً ، أنهاراً قُدسيهْ
أنغامًا خالدة ، وترانيمَ أبيَّهْ
يا واحةَ حبٍّ مصريهْ
تمنحُ ، تدفئ ، وتُظلُّ بمحْرابِكَ أبناءَ العربيهْ
يا مانحَ كلِّ الألقابِ العلميهْ
دُونَكَ كُلُّ الأسماءِ ، وكلُّ الألقابِ
فَلأَنْتَ بِصَدْرِى الخافقِ ،
فى قلبِ جماهيرِكَ جوهرةٌ إيمانيهْ

علمٌ للموسوعيِّين ، وللموسوعيَّه ..
دفقاتٌ منْ تاريخٍ ، منْ علمٍ ، وَمَضَاتٌ قُرآنيهْ
إشراقاتُ ملائكة الرحمنِ تزفُّ إليك من الله تحيةً عبقْيه .
أهْواكَ ، فَـأَحْتَضنُ القرآن ، وعَلَمَ بلادى ودَواوينَ العربيهْ .
أهتفُ بأبى الطَّيِّبِ ، بأبى تمامٍ
بالعربى الظافرِ فى فتح "عَمُّوريَّهْ" ...
يَا شَوقى ضَيْفُ الرَّائد :
كيف نُحيِّيك ، وأنتَ على صدرِ التاريخِ تَحيَّهْ
ميلادٌ يتجدَّد للعربيهْ
للشَّادينَ ، وللنائينَ لكُلِّ البشريهْ
لسنا نُسميك إجلالاً وتكرمةً
وقدرُك المعتلى عند ذَاكَ يُغْنينَا
يا شوقى ضيفُ الرائدُ :
كيف نُحَيِّيك ، وأنتَ على صدر التاريخ تحيةٌ عَبَقِيَّهْ ...
أهْواكَ ، فأهْوَى مصرَ ، وأعشقُ أمتَنا العربيهْ ،
إسلامية
ومسيحيهْ ،
إنسانيهْ ...
وأنادى قِممَ بلادى الفكريهْ .

سـامى البـارودى ، هَيْكَل ، طه ، حـافظ ، صـبـرى ، شكرى والعـقـاد ، ومـوسى ، والتيمُوريَّهْ

وكفاحًا فوقَ ثرى بلدى الطاهرِ

وأناجى شوقى الشاعرَ فى سَبَحَاتِ عُلويه :

وطنى ، لو أنى أشغل عنك بخلدِ

ما آثرت سِوى الحريهْ

أن تبقى رايتُنا الطاهرةُ تُرَفْرِفُ مِصْريَّهْ

عربيهْ

إسلاميهْ

إنسانيهْ

لا للقهرِ ، ولا للأحقاد الشيطانيهْ

ونعم للطفل يُرَنِّمُ بالقرآنِ

يُطَالِعُ آياتِ اللهِ الأبديَّهْ

ويغنى

"لك يا مصر سَلامًا ، وسلامًا للديمقراطيهْ"

"وطنى لو أنى أشغلُ عنك بخلدِ

ما آثرتُ سِوى الحريه"

فإليك تحياتِ الأجيالِ ، وإجلالَ بلادى

للرائد ، للعالم ،

للورَعِ ، وللموسوعيه

وإليك أزاهير الماضى ، والحاضرْ

يلتقيان على صدرٍ وَسِعَ الإنسانيه

وأنا أهتُف فيك بأبياتِ أمير الشعراء

وأهْدى سيرتكم لشبابِ العربيه :

كأنَّ اللهَ إذ قسم المعالى

لأهل الواجبِ ادَّخرَ الكمالا

ترى جِدا ، ولستَ ترى عليهم

ولوعًا بالصغائرِ واشتغَالا

وليسوا أرغدَ الأحياء عيشًا

ولكن : أنعمُ الأحياء بالا

إذا فعلوا فخيرُ الناسِ فعلاً

وإن قالوا فأحسنُهُم مقَالاً

وإنْ سَألَتهُمُ الأَوْطَانُ أعْطَوا

دمًا حرًّا ، وأبناءً ومالاً

هذا شوقى ضيف الرائد يشمخُ فوقَ الألقابِ

قَدْ خطَّ التاريخُ بصَفَحَاتِ النُّورِ اسمَك

في قاموسِ الأبديه

شوقى ضيف الأعظم

أهْدِى سيرَتَهُ

عِطرًا

لشباب بلادى

وَردًا

لشيوخِ بلادى

نِبْراسًا ، وتحيَّهْ

عبقيَّهْ ...

دكتور/ عبد الفتاح الشطى

قسم اللغة العربية

كلية الآداب - جامعة القاهرة

فرع الخرطوم

بُورْتريه لشوقى ضيف

شعر : الدكتور/ يسرى العزب

سرنديبُ تُهديكَ ذِكْرَى الحديثِ عن الشِّعْر

ودمياطُ أحلى تحايا الوداد الجميل

إلى النيل تمنحُ أيامك هذى

اخْضِرارَ الجزيرة

أورثتنى حبها

من أدب الشرق أعطيتنا تفاحةَ الازدهارِ

هنا تَقْبَعُ الجاهليةُ فى الرمل

ليته النَّفْطُ لم يَجِئْ

عصفورةُ الشرقِ طيرتها حدآتُ الطوائف

عند الغروب

أنتَ فى الأرض مازلتَ واقفْ

وأنا من دُوَيلاتِ ضعفى أعَاقِر

كُلَّ الزَّوَاحف

كان شيطانُ شِعْرِى يُعانِدُ نقدَكَ ،

أحول ظلمتهم للنهار
وأمضى إليك لأشحنَ بطاريَّةَ القَلْب
بالدفء والعقلِ بالاخضرار
أشاركُكَ اللقمةَ الواحدة
وحصوةَ ملحٍ جاءتك زواده
من "أولاد حمام"
بعَيْنِ الصَّبورِ تُعيدُ القَطيعَ إلى
الدَّرْب تُهدى الطوائفْ
تهدى تُعيدُ إلى الصَّخْر
فى الغرب المسلاَّت
المسلاَّتُ وجهُهَا عَرَبىٌّ
وقلبُها خال منَ الزيت لكنَّه عربى
عقلُها أكبرُ أن يتقلَّصَ إنَّهُ عربى
يكبرُ فى شَفَتَىَّ ابتسامًا ويخضر
فوقَ حدَائقكَ النضر (دمياط) أكبر ، يكبر فى
شاطئيك الفرحْ .
أنتَ تعرفُ نقدى وشعرى الذى أبقيتُه للذى
سيجىء
أراهنُهُم ، وأنتَ الجوادُ الخُرَافِىّ أنَّنا طَالعانِ

وأنَّ الذى تَرى من سنين

تَحقَّقَ فينا ، وبان

وجودًا من الحقِّ شكل بين سُطُورِك

أوراقَ نورٍ وشوقٍ إلى وَشْوَشَات

الحقيقة فى شفتيك وأنت تهمهم :

إنى أراها ولا يسمعون

يقر قرا الضيف بين يديكَ ، تُضيفُ إليه

الكثيرَ من الرُّوحِ ، تبَعثُ فيه الذى جففته

السنون

يخافون

يخافون نُورَكَ يَبْتَعدُون

وأدنو إليكَ فأُصبحُ نُوراً

والذى نبتغيه يجىء الذى

أبتغيه يجىء الذى

نبتغيه ...

دكتور/ يسرى العزب

قسم اللغة العربية

كلية آداب بنها - جامعة الزقازيق

شوقي .. شمسٌ لا تغيب

شعر : خالد محمد مصطفى

كلَّلت عصوراً يا شوقي — بثمار ملء البُستَان
غذيت عُقُولاً بالأدب — فتَّحتَ براعم أفْنان
وطرقتَ فُنُونّا للعلم — فأضاءَتْ لَيْلَ الأكوانِ
وبنيتَ المجد لأمَّتنا — ورفَعْت عِماد البُنْيانِ
نسماتُ سِمَاتِكَ أضْوَؤُها — قلبٌ قدْ فاضَ بإيمانِ
فرآك النَّاسُ كإلياسِ — وبَلَغْتَ بَلاغَة سَحْبَانِ
ما أكثرَ مَنْ رامَ الغَيْثَ — فَأَجَبْتَ الكُلَّ بإحسان
أغنيتَ الطالبَ عن جوعٍ — أطفأت لهيبَ الصَّدْيانِ
أُسلوبُك يَسْرى فى النَّفْس — وكأنّك عازفُ ألحان
نغمَاتُك فاقتْ خمسينا — حضَنتْ تاريخ الإنْسانِ
يسَّرت النَّحو بتجديد — فسَّرت كتاب الرَّحْمَنِ

كــالنَّهْـــرِ تفــيضُ بأفكارٍ تُبــدى إعــجــازَ القـــرآنِ

فـــعـطاؤك كـنـزٌ لا يـفْنَـى لــنْ يُدْرج طىَّ النِّسْــيـــانِ

ووِســـامُ مُـــبــارِكِ آتيكـمْ خـــجِــلاً مـن غــيبِ الإتيــانِ

ســيَـــقُــولُ وفى زَهْـوِ عنْكُمْ منْ بعْــدِ مَــرارةِ كِــتْــمَــانِ

هرَمٌ مـــصـــرىٌّ عـــصـــرىٌّ مَــوسُــوعـــةُ كُـلِّ الأزْمـــانِ

نُهْــديك الرُّوح طَـواعــيـــةً يـا حُـــبًّــا مِلء الوجْـــدانِ

(*) نشرت هذه القصيدة بجريدة اللواء الإسلامى بتاريخ ١٧ من يوليو ٢٠٠٣م .

فهرس الكتاب

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٧٧٢٦ / ٢٠٠٣

شوقى ضيف عالم موسوعى جليل ، وأستاذ جامعى رصين ، يندر أن تجد له مثيلاً فى جيله: عطاء وثراء وحسن خلق ، ولا تعود أهميته إلى كثرة ما ألف فحسب ، بل إنه أيضًا أستاذ لأجيال مختلفة من أساتذة الأدب واللغة ، على امتداد الوطن العربى كله ، ومن لم يتتلمذ على يديه تلمذة مباشرة فى قاعات الدرس ورسائل البحث ، فقد تتلمذ على كتبه ودراساته التى تكاد تستوعب معظم مجالات التراث العربى: فى إطار الدراسات الأدبية ، واللغوية ، والنقدية ، والإسلامية ، وتحقيق التراث.

الغلاف / هشام نوار

